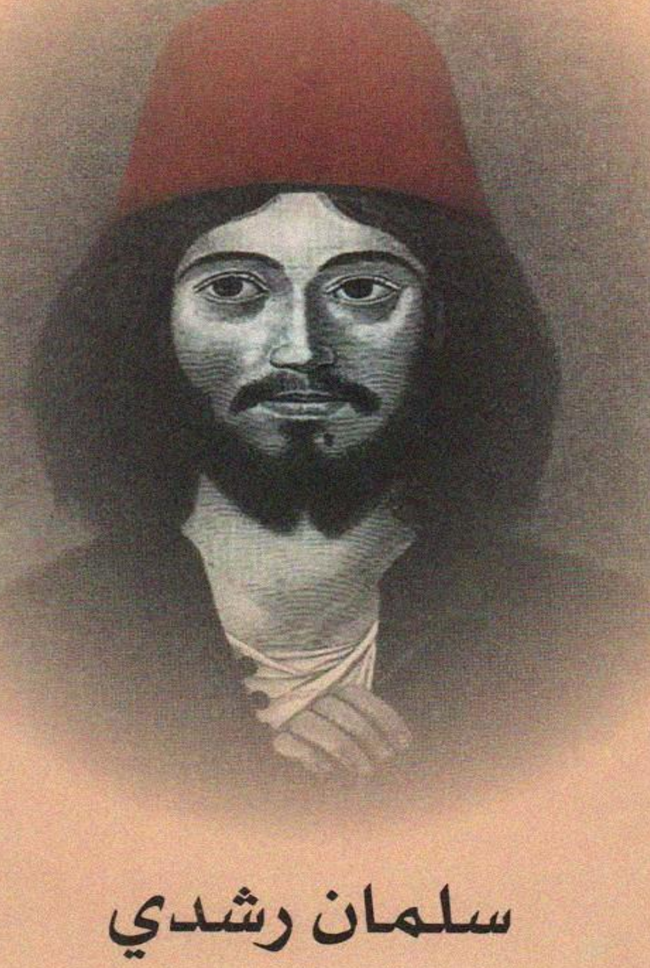
سلمان رشدي

تنهيدة المغربي الأخيرة

ترجمة: عبد الكريم ناصيف



رواية

سلمان رشدي

تنهيدة المغربي الأخيرة

ترجمة عبد الكريم ناصيف

التكوين

الطبعة الأولى 2016

هاتف: 00963 112236468
فاكس: 00963 112257677
ص. ب: 11418 ، **دمشق ـ سوريا**
taakwen@yahoo.com

نبذة عن المؤلف

سلمان رشدي مؤلف عشر روايات هي:

غريموس، أطفال منتصف الليل، العار، الآيات الشيطانية، هارون وبحر القصص، تنهيدة المغربي الأخيرة، الأرض تحت قدميها، الغضب، شاليمار، المهرج وساحرة فلورنسا. إضافة إلى مجموعة قصص قصيرة بعنوان «شرق، غرب». كما نشر أيضاً أربعة أعمال غير روائية هي: ابتسامة النمر، أوطان خيالية، اجتز هذا الخط، كما شارك في تأليف كتاب فينتاج عن الكتابة في الهند.

حاز سلمان رشدي على جوائز كثيرة على كتاباته، منها جائزة الاتحاد الأوربي «اريستيون» للأدب، كما أنه عضو في «الهيئة الملكية للأدب» و«فارس الفنون والآداب». سنة 1993، حازت روايته «أطفال منتصف الليل» على «جائزة جوائز الكتاب» (جائزة جوائز بوكر) باعتبارها الرواية الأفضل التي حازت على جائزة «بوكر» هذه في تلك السنوات الخمس والعشرين.

بيت يُقسَم

(1)

أضعت العديد من الأيام التي مرت، منذ أن هربت من أهوال القلعة المجنونة لفاسكو ميراندا في قرية بنينغيلي الجبلية الأندلسية فاراً من الموت تحت ستار الظلمة تاركاً رسالة سمرتها على الباب. منذئذ: إضافة إلى جوعي، والطريق المغبش من شدة الحر، كانت هناك رزم أخرى من الورق المخربش، ضربات مطرقة، صرخات حادة لمسامير بطول بوصتين. فقبل زمن طويل، يوم كنت غراً، قالت لي محبوبتي مولعة «أوه، أنت مغربي. أنت رجل أسود غريب، دائماً مفعم بالأطروحات وليس هناك من باب كنيسة تسمرها عليه (هي التقية، باعترافها ذاتها، الهندية غير المسيحية، كانت تمزح حول احتجاج لوثر في وتنبرغ كي تشاكس حبيبها المسيحي الهندي غير التقي عن عمد: كيف تنتقل القصص، وأية أفواه تنتهي إليها؟) لسوء الحظ، سمعت أمي الكلام فاندفعت بسرعة أفعى تريد العض: أيها الخسيس مفعم جداً، جداً، بالخراء: أجل، يا أم، لقد كان لك الكلمة الأخيرة في الموضوع أيضاً: كما هو الأمر في كل شيء.

«أمريكا» و«موسكو»، أحد الناس دعاهما ذات مرة، أورورا أمي وأوما حبيبتي، ملقباً إياهما باسم القوتين العظميين في العالم، كما قال الناس إنهما تبدوان متشابهتين، لكنني لم أكن أراهما كذلك، بل لم أستطع أن أرى ذلك على الإطلاق. كلتاهما ماتت لأسباب غير طبيعية، وأنا في بلاد نائية، الموت في أعقابي، وقصتهما في قبضتي، القصة التي صلبتها على بوابة، سياج، شجرة زيتون، ناشراً إياها عبر هذا المنظر

الطبيعي لـرحلتي الأخـيرة، القـصة الـتي تـشير إلي. في النهايـة، حولـت العالم إلى خارطة قرصانية لدي، كاملة المفاتيح، تؤدي العلامات الـسينية فيها بشكل متقطع إلى كـنز ذاتي، وعنـدما يتعقـب مـن يطـاردني الأثـر، سوف يجدني بالانتظار، جاهزاً، مقطوع الأنفاس دون تـذمر أو شـكوى. **هنا أقف، لم أستطع فعل ذلك بشكل مختلف** (وهنا، أجلس، أكثر شبهاً بها، في هذه الغابة المظلمة - فوق هذا الجبل من الزيتـون، ضـمن هـذه المجموعة من الأشجار، تراقبني صلبان حجريـة مائلـة مواربـة في مقـبرة صغيرة تكـسوها الأعـشاب، إلى الأسـفل قلـيلاً مـن محطـة غـاز أليتمـو سوسبيرو ـ دون نفع أو حاجة لفرجيـل، في مـا يجـب أن يكـون الطريـق المتوسط لحياتي، فقد أصبح، لأسـباب معقـدة، نهايـة الطريـق، حيـث أنتهي تماماً من الإرهاق).

أجل، يا سيداتي، الكثير تم تثبيته بالمسامير في الأسفل. الرايات مـثلاً إلى الصارية. لكن بعـد حيـاة ليـست ـ طويلـة ـ جـداً (رغـم أنهـا كانـت مبهرجة الألوان) ها أنذا أتخلص من الأطروحات، فالحياة ذاتها نـوع مـن الصلب تماماً.

* * *

حين تهرب من البخار، حين تـولي تقريبـاً الهبّـات الـتي تـدفعك قـدماً، يكون الوقت قد حان للاعتـراف. ادعُ ذلـك شـهادة أو وصـية (كمـا تـشاء)، فالحياة صالون الشهقة الأخيرة. من هنا، من هذا المكان الذي أقـف عليـه أو أجلس فيه وأحكام إعدام حياتي مسمرة على المنظر الطبيعي، فيمـا المفـاتيح المؤدية إلى القلعة الحمراء في جيبي، إنها لحظات الانتظار قبـل الانـسحاب النهائي. لذلك، الآن، من المناسب أن أغني حول النهايات، حول ما كـان، وما يمكن أن يكون قبل وقت طويل، حول مـا كـان صـحيحاً بذاتـه، وخطـأ بذاته. تنهيدة أخيرة من أجل عالم مفقود، دمعة لذهابـه. لكنـها أيـضاً صـيحة نصر أخيرة، شعرة فضائحية نهائية من شعر كلب أشـعث، (والكـلام يجـب

أن يكن كافياً، فأجهزة التصوير المرئي غير متوفرة) وجملة من الألحان الصاخبة للاستيقاظ. حكاية المغربي بالصوت والغضب. هل تريدها؟ حسن، حتى إن كنت لا تريدها. لنبدأ بـ: «مرِّر الفلفل».

ـ ما ذاك الذي تقوله؟

الأشجار ذاتها فوجئت بالحديث (وأنت، في العزلة واليأس، لِمَ تكلم الحيطان، كلبك الأبله، الجو الفارغ من حولك؟).

إنني أكرر: الفلفل، من فضلك. إذ لو لم يكن من أجل حب الفلفل، فإن ما ينتهي الآن بين الشرق والغرب ربما لم يكن قد بدأ قط. الفلفل، إنه ذاك الذي جلب سفن فاسكو داغاما الطويلة عبر المحيط، من برج بليم في لشبونه إلى شاطئ ملابار: أولاً إلى كلكتا ثم، نظراً لضحالة مرفئها، إلى كوشين. الإنكليز والفرنسيون أبحروا في إثر ذلك البرتغالي الذي وصل أولاً، فنحن في الفترة التي دعيت بفترة اكتشاف الهند ـ لكن كيف يمكن أن نُكتشَف إن لم يكن علينا غطاء من قبل؟ ـ لم نكن شبه قارة كثيراً، بل شبه ـ توابل. كما كانت أمي المميزة تقول: «من البداية، ما أراده العالم من الأم اللعينة الهند، هو وضوح النهار»، كانت تقول: «لقد جاؤوا من أجل تلك المادة الحارة، تماماً مثل أي إنسان يمر بكعكة محلاة».

* * *

وقصتي هي قصة سقوطي من نعمة كانت تتمتع بها ذرية مهجنة رفيعة المنبت: أنا موريس الزغبي، المعروف باسم المغربي، لأنني معظم حياتي كنت الوارث الذكر الوحيد لأعمال تجارة التوابل الكبيرة لعائلة غاما ـ الزغبي في كوشين، قصة إبعادي عما كنت أعتبر أن لي الحق كله في أن أفكر به على أنه حياتي الطبيعية، إبعادي ـ من قبل أمي، أورورا، المولودة من عائلة داغاما، أشهر رسامينا الحديثين، هي ذات الجمال الفائق التي كانت أيضاً صاحبة اللسان الأحدّ في جيلها، والتي كانت تعطي المادة الحارة لكل من تصل إليه يدها. غير أنها لم تكن تبدي رحمة لأولادها.

«نحن الفراخ البائسة لسلسلة صلوات ـ المسبحة، لدينا في عروقنا فلفل أحمر،» كانت تقول: «لا امتيازات خاصة لأقرباء اللحم والدم يا أعزائي! فنحن نقتات باللحم، أما الدم فهو الخمر الذي اخترناه».

«أن تكون من نسل أورورا الشيطانية»، قال لي، حين كنت فتى، الرسام الغواني فاسكو ميراندا، «يعني أن تكون، عن حق، إبليس الحديث، أي كما تعلم: ابن الصباح المزهر». حينذاك كانت أسرتي قد انتقلت إلى بومباي، وكان ذلك قد حدث، في فردوس الصالون الخرافي لأورورا الزغبي، باعتباره إطراء. لكنني أتذكره كنبوءة، إذ جاء اليوم الذي ألقيت فيه، بالحقيقة، من الجنة الخرافية، لأغوص باتجاه الجحيم. (وحين نفيت مما **هو طبيعي**، أي خيار كان لي سوى أن أقع في ضده؟ أي أن تقول **غير الطبيعي**، الحالة الواقعية الوحيدة لتلك الأيام المبربرة والمترجرجة من الخلف ـ إلى الأمام. ذلك أنك إذا وضعت في غير منطقتك، ألا تبحث عن صنع ضوء من الظلمة؟ تماماً هكذا. موريس الزغبي، المطرود من قصته، سقط باتجاه التاريخ). ـ وكل هذا بسبب علبة فلفل ـ.

ليس فلفلاً فقط، بل هو هال أيضاً، كاجو، قرفة، زنجبيل، فستق، قرنفل، بالإضافة إلى الجوز والتوابل، كذلك حب القهوة، وورق الشاي القوي نفسه. لكن الحقيقة تبقى كما عبرت عنها كلمات أورورا، الفلفل هو الأول والوحيد ـ أجل، أجل الوحيد، لكن لماذا نقول الوحيد؟ لماذا يأتي أولاً إن كان بإمكانك أن تأتي أنت أولاً؟ فما ينطبق على التاريخ عموماً ينطبق على ثروة عائلتنا، خصوصاً ـ الفلفل، ذهب ملابار الأسود المرغوب الذي كان مادة ـ التجارة الأصلية لأهلي الأغنياء ـ القذرين، أغنى تجار التوابل، الجوز، حب القهوة، ورق الشاي في كوشين، والذين ظلوا يدعون دون أية أدلة، وطوال عدة قرون من التجارة أنهم من سلالة فاسكو داغاما نفسه...

لا أسرار أخرى، فقد سبق لي أن ثبتها بالمسامير.

(2)

في سن الثالثة عشرة، بدأت أمي أورورا داغاما تتجول حافية القدمين في منزل أجدادها الكبير المعطر في جزيرة كبرال، خلال نوبات الأرق التي أصبحت لحين من الزمن، بلواها الليلية. في تلك الرحلات الليلية، كانت باستمرار تفتح النوافذ كلها ـ أولاً، الشريط المنخلي الداخلي الذي كان شبكه الجيد يحمي البيت من دخول البعوض الصغير، ثم الأطر الزجاجية ـ المرصصة ذاتها، وأخيراً المصاريع الخشبية المشققة. بالنتيجة، كانت الأم إبيفانيا بعمر ستين عاماً ـ وناموسية خاصة مضادة للبعوض صار فيها على مر السنين عدد من الثقوب الصغيرة، لكن الهامة التي يصعب عليها أن تلحظها لضعف بصرها ـ تستيقظ كل صباح على عضات في ساعديها المزرقين الناحلين، تحكهما حكاً شديداً ثم تطلق صرخة حادة لمرأى الذباب وهو يطن ويحوم حول صينية الشاي والبسكويت الحلو التي وضعتها بجانبها تيريزا الخادمة (التي سرعان ما تهرب) لتصاب إبيفانيا بنوبة محمومة لا مجدية من الحك والضرب، وتندفع حول سريرها الأشبه بالزورق، فتريق الشاي غالباً على ملاءات الفراش المخرّمة أو على قميص نومها الموسليني الأبيض ذي القبة المكشكشة العالية التي تخفي عنقها الذي كان ذات يوم كعنق البجعة، لكن المتجعد الآن. وبينا تمسك مكشة الذباب بيمناها وتضرب، تعمل أظافر يسراها الطويلة على حك ظهرها بحثاً عن العضات الأخرى للبعوض المراوغ. كما كان غطاء رأس إبيفاينا الليلي ينزلق عن رأسها، ليكشف شبكة من الشعر الأبيض الأفعواني الذي كان يغطي بقعاً من الجمجمة ملونة يمكن (وا أسفاه) أن ترى بكل سهولة. وحين تحكم الصبية أورورا، وهي تصيخ السمع عند الباب، بأن أصوات غضب جدتها الكريهة: لعن، سباب، كسر أوانٍ صينية، خبطات مكشة الذباب، أزيز الحشرات المليء بالازدراء، تقترب من ذروتها، كانت تصطنع أعذب ابتسامة لديها ثم تنسل إلى حضرة الأم الكبيرة بتحياتها الصباحية

المرحة، عارفة أن أم آل غاما كلهم في كوشين ستندفع إلى حافة غضبها الوحشي تماماً بوصول هذه الشاهدة الشابة ورؤية عجزها القديم. إذ كانت إيبفانيا، وشعرها خصل، تركع على الملاءات الملطخة، ترفع مكنستها الخفاقة مثل عصا مكسورة، وتسعى من أجل متنفس لغضبها. ثم تقول مثل إلهة من إلهات القدر، «ركاشا أوبانشي»، صارخة بأورورا المتطفلة. مما كان يزيد من متعة الصبية السرية كثيراً.

«أو هو، هو، يا بنت، أية صدمة صدمتني! ذات يوم ستقتلين قلبي».

على ذلك النحو، جاءت لأورورا فكرة قتل جدتها من شفتي الضحية نفسها. بعد ذلك، شرعت تضع خططاً، غير أن التصورات المتعلقة بالموت على نحو متزايد من تسميم، حافة ـ جرف...إلخ كان يعترضها باستمرار مشاكل ذرائعية، مثل صعوبة الإمساك بأفعى كوبرا وإدخالها بين ملاءات فراش إيبفانيا، أو الرفض الصريح الذي كانت تبديه العجوز الشمطاء لأن تمشي على أرض، كما عبرت هي عن ذلك، «متموجة صعوداً ونزولاً»، ورغم أن أورورا كانت تعرف جيداً كيف تضع يدها على سكين مطبخ حادة خطرة، كما كانت متأكدة من أن قوتها كفيلة تماماً باعتصار روح إيبفانيا، إلا أنها استبعدت تلك الخيارات أيضاً، إذ لم يكن لديها نية في أن تُكتشَف، وكان من الواضح تماماً أن أي هجوم قد يؤدي إلى طرح أسئلة غير مريحة، ولكونها فشلت في معرفة طبيعة الجريمة الكاملة، فقد استمرت أورورا في لعب دور الحفيدة الكاملة، لكنها كانت تفكر، بينها وبين نفسها، رغم أنه لم يحدث لها أن لاحظت أن تأملاتها لم يكن فيها أكثر من قسوة إيبفانيا البتة».

«الصبر فضيلة،» قالت لنفسها «ولسوف أنتظر الفرصة المناسبة».

في غضون ذلك استمرت بفتح النوافذ خلال تلك الليالي الرطبة، بل أحياناً كانت تلقي خارجاً بحلى صغيرة قيّمة، تماثيل فيلة خشبية منقوشة يجرفها بعيداً مد البحيرة الضحلة التي تصل إلى جدران منزل الجزيرة.

أو تنزع بدقة خراطيم التماثيل العاجية التي تغرق بصورة طبيعية دون أن تترك أثراً. ولعدة أيام تظل العائلة في حيرة، عاجزة عن فهم تلك التطورات. أما ابنا إبيفانيا داغاما، أي العم إيريس الذي كان يلفظ إيريش، ووالد أورورا، كامونز الذي كان يلفظ كامونش من خلال الخنة الأنفية، فكانا يستيقظان ليجدا أن الأنسام الليلية المؤذية قد أطاحت أرضاً بالقمصان المشجرة من خزائنها وبأوراق العمل من حقائبها المعلقة. كما أن أصابع رشيقة كانت تفك ربطات العنق لأكياس العينات، وأكياس الخيش المليئة بحب الهال الصغير وأوراق الكاري والكاجو التي كانت تنتصب دائماً مثل حراس على طول الممرات الظليلة لجناح المكتب، ونتيجة لذلك، كنت تجد بزور الحلبة والفستق وهي متناثرة على الأرض العتيقة البالية المصنوعة من حجر الكلس، كما كنت تجد قطع الفحم، بياض البيض وأشياء أخرى من مكونات منسية، فيما رائحة التوابل في الجو تعذب الأم الكبيرة التي صارت حساسة أكثر وأكثر بمرور السنين تجاه مصدر ثروتها العائلية.

وإذا كان الذباب يطن عبر النوافذ ذات الشبك المفتوح، والهبات اللعينة تمر عبر ألواح الزجاج المرصص المفتوحة، إذن فتح المصاريع سيسمح بدخول كل شيء آخر: الغبار، ضجيج القوارب في مرفأ كوشين، أبواق سفن الشحن، قوارب الجر، نكات البحارة البذيئة، صرخاتهم إثر لسعات قنديل البحر لهم، أشعة الشمس الحادة كالسكين، الحر الذي يمكن أن يخنقك مثل قماشة رطبة يكمم بها وجهك، نداءات الباعة الجوالين، الحزن الطاغي لليهود غير المتزوجين الآتي عبر الماء من متنتشيري، تهديدات مهربي الزمرد، تحركات المتنافسين على الأعمال العصبية المتزايدة للمستعمرة البريطانية في قلعة كوشين، الطلبات النقدية المتزايدة لخدم البيت وعمال المزرعة في جبال التوابل، حكايات الشيوعيين صانعي المشاكل، سياسة رجال حزب المؤتمر واسما غاندي

ونهرو، وشائعات المجاعة في الشرق، إضرابات الجوع في الشمال، أغاني الحكواتية الشفهيين وقرع طبولهم، والصوت المتدرج ثقيل الوطأة (حين كان يصطدم الموج بحاجز جزيرة كبرال) للمد القادم من التاريخ. «هذه البلاد، صنف ـ واطٍ، يا يسوع المسيح!» كان العم إيرس يسب عند الإفطار ويلعن وهو في أفضل هندام له. «العالم الخارجي ليس وسخاً كفاية، إيه... إيه؟ فما هذه الضجة المخيفة، أي صبي لوطي وراءها كلها ويسمح لها بالدخول إلى هنا؟ هل هذا مسكن يليق بناس محترمين، بحق الإله، أم أنه بيت خراء، اعذروني على وقاحتي، في سوق شعبية؟».

ذلك الصباح، فهمت أورورا أنها ذهبت بعيداً جداً، لأن والدها المحبوب كامونز، ذلك الرجل النحيل بعثنونه الصغير وقميصه المشجر الفاقع، الذي كان أقصر بمقدار رأس من ابنته الطويلة النحيلة، أنزلها إلى حاجز المرفأ الصغير، وبكل موضوعية أفضى لها بعاطفته وإثارته، إلى حد أنه، إزاء الجمال غير المعقول والزحام التجاري للبحيرة الضحلة، بدا ظله أشبه بشخص خارج من خيال، ربما، جني خبيث يرقص على نصل، أو جني طيب فار من مصباح، فقد أسر لها بصوته الأشبه بهسيس خفي خبره العظيم الذي يحطم القلب، إذ كانوا قد سموه كامونز، تيمناً باسم شاعر معروف، لذلك كانت له طبيعة الشاعر الحالم (لكن لم تكن له موهبته)، قائلاً لها بشيء من خوف إنه يعتقد، أن هناك إمكانية أن يكون البيت مسكوناً.

«اعتقادي، كما قال لابنته التي أصيبت بالبكم، أن أمك العزيزة تعود إلينا. أنت تعلمين كم كانت تحب النسيم العليل، وكم تعاركت مع جدتك من أجل الهواء، والآن بطريقة سحرية، تنفتح النوافذ. ثم يا بنتي انظري ما نفقده! فقط الأشياء التي كانت تكرهها دائماً، ألا ترين ذلك؟ آلهة إيرس الفيلية، كما كانت عادة تقول، مجموعة عمك من الغانيشات (تماثيل آلهة فيلية) التي يهواها هي التي تذهب، تلك وكل ما هو عاجي».

أنياب ـ فيلة إيبفانيا، الفيلة الكثيرة المقيمة في هذا البيت، فالمرحومة بيل كانت دائماً تفصح عما في ذهنها. «لذلك أظن أنني إذا ما سهرت هذه الليلة، ربما يمكنني أن أنظر مرة أخرى إلى وجهها العزيز،» أسر لها كامونز بكثير من الحنين. «ما رأيك؟ الرسالة واضحة كعين الشمس. لماذا لا تسهرين معي؟ فأنت ووالدك في الحالة ذاتها: هو يفتقد زوجته وأنت تفتقدين أمك».

غير أن أورورا، المحمرة حيرة وارتباكاً صرخت: «لكن، أنا على الأقل لا أؤمن بظهور الأشباح». ثم ركضت إلى الداخل، عاجزة عن الاعتراف بالحقيقة: أنها هي التي كانت شبح أمها المتوفاة، تقوم بأعمالها، وتتكلم بصوتها المشروخ، بأن الابنة التي كانت تمشي في الليل، إنما كانت تبقي الأم وكأنها حية، تاركة جسدها كي تسكنه تلك المرحومة، متعلقة بالموت، رافضة إياه، مصرة على الاستمرار حتى ما وراء القبر، بشيء اسمه الحب ـ بأنها صارت فجر أمها الجديد، لحماً تسكنه روحها، كائنين يدعيان «بيل» في كائن واحد.

(بعد سنوات كثيرة أطلقت على بيتها اسم «إليفانتا»، أي أنه بيت يهتم بالفيلة والأشباح تلك التي استمرت في لعب دور في حكايتنا، حتى النهاية).

* * *

كانت بيل قد توفيت قبل شهرين تماماً. بيل ـ الجحيم. كما اعتاد عم أورورا، إيرس، أن يدعوها (لكنه حينذاك كان دائماً يطلق ألقاباً على الناس فارضاً عالمه الخاص، عالم ـ التنمر والإزعاج، على العالم: فإيزابيلا زيمينا داغاما هي الجدة التي لم أعرفها قط. لقد كان بينها وبين إبيفانيا حرب ضروس منذ البداية. ذلك أن إبيفانيا التي ترملت وهي في الخامسة والأربعين، بدأت في الحال تلعب دور الأم الكبيرة، تجلس، ملء حجرها الفستق، في الظلال الصباحية لساحتها المفضلة، والمروحة بيدها، تكسر حبات الفستق بفرقعة ظاهرة بأسنانها، وبنوع من إظهار القوة المؤثر الفاضح، مغنية خلال ذلك بصوت عالٍ لا شائبة فيه:

بوبي شفتو ذهب إلى البحر.. ر .. ر..
وزجاجات فضية على ركبته... ـه.. ـه
طق.. طق.. طق.. طق.. تنطلق أصوات قشور الفستق في فمها
لكنه سيعود كي يدفنني.. ي.. ي..
بوني بوبي شفتو

وطوال سنوات حياتها، كانت بيل هي الوحيدة التي أبت أن تخشاها إذ قالت إيزابيلا ابنة التاسعة عشرة لحماتها، وبكل وضوح، في اليوم التالي لدخولها بيت العائلة، عروساً مقبولة على مضض «لا بوبي، لا زجاجات، لا دفن ولا بوني. إنك تغنين أغنية حب في عمرك هذا بشكل جميل، لكن الكلمات الخطأ تجعلها هراء. أليس كذلك؟».

«كامو-نز» قالت إبيفانيا المتحجرة، «قل لزوجتك هذه أن تسد «بوزها». فبعض الإزعاجات ـ كالماء ـ الحار تتسرب من وجهها». ثم انخرطت في الأيام التالية وعلى نحو لا يرد في مزيج كامل من أناشيد ذات صفة شخصية: ما تراني أفعل بالخياط المتقلص؟ وهو ما سبب لكنتها قدراً كبيراً من الفرح الخانق تماماً. فتجهمت لذلك إبيفانيا ثم غيرت نغمتها! جذِّف، جذِّف، جذِّف يا جميل بكل لطف في التيار. ولعلها كانت تغني، لتنصح بيل بأن تركز على واجباتها الزوجية، ثم تضيف ما هو ميتافيزيقي أكثر: أخلاقياً، أخلاقياً، أخلاقياً، أخلاقياً، طق.. طق... الزوجة ليست ملكة.

آه، يا لحكايات العراك لدى آل داغاما في كوشين! إنني أرويها وقد وصلت إلي، مصقولة، غارقة في الخيال لكثرة ما رويت، المرة تلو المرة. تلك الأشباح القديمة، الظلال البعيدة، أروي حكاياتها لكي أنتهي منها، فهي كل ما تبقى، لذلك أطلقها حرة. من مرفأ كوشين إلى ميناء بومباي، من شاطئ ملابار إلى تلة ملابار. قصة قدومنا معاً، تفرقنا، نهوضنا، سقوطنا، صعودنا نزولنا، ثم بعد ذلك، الوداع متنتشيري، الوداع يا رحلة

بحرية... على أية حال، في الوقت الذي جاءت فيه أمي أورورا إلى ذلك البيت الذي يموت فيه الأطفال، ثم كبرت إلى أن صارت طويلة وميالة للصمت في سن الثالثة عشرة، كانت الخطوط قد رسمت بوضوح..

«طويلة جداً كفتاة،» كان حكم إيبفانيا الرافض، على حفيدتها، حين دخلت أورورا سن المراهقة. «اضطراب في عينها يعني الشيطان في قلبها. العار على جبينها أيضاً، كما يمكن لأي عين أن تراه، إنه يبرز بشكل واضح تماماً». وهو ما كانت بيل ترد عليه غاضبة «وأي ولد تام كامل طلع لك من ابنك العزيز إيرس؟ على الأقل، هنا صبية تمت لآل داغاما، حية وقادرة أن ترفس، ولا تحسبيها واحدة من أشخاص أغنياتك «الشفتو بوبي» تلك. إذ لم يكن هناك أي إشارة على أن الأخ إيرس والأخت صحارى سينجبان، لا بوبيات ولا أطفال على حد سواء. فزوجة إيرس كان اسمها كارمن، لكن بيل، ساخرة من ولع سلفها بابتكار الأسماء سمت زوجته صحارى. «لأنها جرداء قاحلة مثل رمل الصحراء، وفي أرض اليباب تلك كلها، لا يمكنني أن أرى مكاناً أحصل منه على شربة ماء».

كذلك كان إيرس داغاما، يكافح بزيت البريانتين لإبقاء شعره الأبيض المتموج الكثيف منسدلاً (ولقد ابيض قبل الأوان، باعتبار ذلك سمة من سمات العائلة طويلة العهد، إذ ابيض شعر أمي بل صار كالثلج وهي في عشريناتها، فأية حكاية ـ جن رائعة، أية جاذبية كجاذبية الجليد أضفيت على جمالها من خلال الشلالات الجليدية الناعمة المنحدرة من رأسها!). كم كان عمي الكبير يأخذ وضعيات!! وفي الصور الضوئية الصغيرة، قياس بوصتين ببوصتين، التي أتذكرها، أية شخصية لامعة كان يبدو بنظارته وحيدة العين، ياقته المتصلبة، والبذلة ذات القطع الثلاث من أرقى أنواع «الكباردين». كذلك العصا ذات الطرف العاجي في إحدى يديه (فتبدو كنصل السيف، كما يهمس تاريخ العائلة في مسمعي)، ومشرب السجائر الطويل في الأخرى، كما كان له أيضاً، ويؤسفني أن

أذكر ذلك، عادة لباس طماقات، ارتفاع إضافي، وشاربان ملتفان ولوحة كاملة لفتى أوبرا ـ ساخرة. لكن إيرس كان مثل أخيه ضئيل الحجم، يحلق ذقنه باستمرار وله وجه صغير لامع، بحيث كان مظهره الأشبه بذكر نحل زائف يدعو للرثاء، أكثر مما يدعو للاحتفاء.

هنا، أيضاً، وعلى صفحة أخرى من «ألبوم» صور الذاكرة، تظهر العمة الكبيرة ذات القامة المنحنية الحولاء، صحارى، المرأة التي لا واحات فيها، وهي تمضغ بزور الفوفل بين ذينك الفكين الأشبه بشجيرتي كاميليا تماماً، كما تبدو وكأن لها حدبة. كارمن داغاما هي ابنة خالة إيرس، طفلة يتيمة تركتها أخت إيبفانيا، المدعوة باسم بليموندا، ورجل عمل في الطباعة بعض الحين يدعى لوبو. لقد أودى وباء الملاريا بالوالدين كليهما فصارت آمال كارمن بالزواج أقل من الصفر، كما كانت متصلبة جامدة إلى درجة أدهش معها إيرس أمه حين وافق على زواجه منها. ولقد عانت إيبفانيا أسبوعاً من العذاب والتردد في اتخاذ القرار، كذلك أرق ليالٍ، وهي غير قادرة على أن تختار بين حلمها في أن تجد لإيرس سمكة تستحق الصيد وبين الحاجة اليائسة بشكل متزايد لأن تجد لكارمن رجلاً قبل أن يفوت الأوان. في النهاية، تغلب واجبها تجاه أختها الراحلة على آمالها الخاصة بابنها.

أما عمرها، فكارمن لم تبدُ فتية، ولا كان لها أولاد، كما لم تحلم بمزاحمة الطرف الآخر، طرف كامونز من العائلة في مسألة الوراثة بخير أو بشر، كذلك لم تذكر لأية أنثى أن زوجها، ليلة دخلتها، دخل مخدعها متأخراً، تجاهل عروسه الصغيرة المذعورة، المنكمشة على نفسها التي كانت تستلقي بكل عذريتها وهي ترتعش في الفراش، خلع ثيابه ببطء متعمد، ثم بكثير من الدقة المماثلة، زلق جسده العاري (المشابه تماماً بمقاييسه لجسم عروسه) داخل فستان العرس الذي كانت وصيفتها قد علقته على تمثال من تماثيل الخياطين، كرمز لوحدتهما، ثم غادر الغرفة

عبر باب المرحاض الخارجي. سمعت كارمن صفرات حملها إليها سطح الماء وهي ترفع الملاءات التي كانت تغطيها، فيما كانت معرفة بالمستقبل ثقيلة الوطأة تسقط على كاهلها، ثم تدفعها على سفح منحدر، حين رأت ثوب الزفاف يلمع تحت ضوء القمر، بينما كان شاب يجذف به وبلابسه بعيداً، بحثاً عن مكان يجد فيه سعادته بين كائنات سرية كهذه.

قصة إيرس ومغامرته بثوب العرس، هو الذي ترك العمة الكبرى صحارى مهجورة ضمن الكثبان الباردة لملاءاتها التي لم يلطخها دم، وصلت لي بالرغم من صمتها. فمعظم العائلات العادية لا تستطيع حفظ الأسرار، أما لدى عشيرتنا، البعيدة عن أن تكون عادية، فأعمق أسرارها تنتهي عادة إلى أن ترسم على لوحات زيتية ثم تعلق على جدران بهومبا... لكن حينذاك قيل مرة ثانية، ربما تم اختراع الحادثة كلها، كخرافة من خرافات العائلة التي تم تركيبها لكي نصدم، لكن ليس كثيراً جداً، أو لكي تصير ملموسة أكثر ـ إذ بقدر ما تكون أكثر غرابة، تكون أكثر جمالاً ـ أقصد حقيقة أن إيرس لوطي؟ في ذلك الزمن، صحيح أن أورورا داغاما كبرت لكي ترسم ـ على قماش لوحتها، الرجل بثوبه الأشبه بضوء القمر، يجلس في زهوته، مواجهاً جذعاً عارياً لبحار، يتصبب عرقاً ـ لكن الصحيح أنه كان بالإمكان المناقشة بأن هذه اللوحة المزدوجة، ككل شهاداتها البوهيمية، كانت خيالاً مدجّناً، نتاج نزوة تقليدية فقط: فتلك القصة، كما رويت ورسمت، وضعت شذوذ إيرس الخفي في إطار عباءة جميلة، تخفي القضيب والإست والدم وكل ما إلى ذلك من نشاط وحيوية، كما تخفي الخوف المتعمد المفضوح للرجل اللوطي ذي حجم ـ الأقزام، وهو يغوي صاحباً قوي الجسم من عتالي المرفأ، كذلك رعب النشوة لعناقات مدفوعة الثمن، للمداعبات اللذيذة في أزقة خلفية وأكواخ قميئة يقوم بها عتالون غليظو ـ القبضات، إضافة إلى حب الإليات ذات العضلات العميقة لأصحاب عربات الريكشو من الشبان

وللأفواه سيئة التغذية لحثالة فتيان السوق، زد على أنها تتجاهل حقيقة الحب المجنون المثيرة للجدل والمزعجة التي اتصفت بها علاقته الطويلة لكن غير المخلصة على الإطلاق، برجل القارب ليلة العرس ذاك الذي عمّده إيرس باسم «الأمير هنري الملاح»، كما تستبعد حقيقة ارتدائه ذلك الثوب بشكل مغرٍ، ومن ثم تشيح ببصرها بعيداً.

كلا، يا سيد، مرجعية الرسم لا تنكر. فأي شيء آخر قد يكون حدث بين أولئك الثلاثة ـ إذ أن الحميمية التي لا يحتمل أنها دامت إلى وقت متأخر من العمر بين الأمير هنري وكارمن داغاما، ستسجل في محلها ـ أما قصة ثوب الزفاف المشترك فقد وردت حيث بدأ كل شيء.

ذلك أن العري تحت ثوب العرس المستعار، ووجه العريس تحت نقاب العروس، هو ما يربط قلبي بذكرى ذلك الرجل الغريب. فهناك الكثير مما يدور حوله لا يهمني بشيء، لكن صورته تلك التي يبدو فيها أشبه بملكة، والتي يراها الكثيرون في المنزل هناك (وليس فقط في المنزل هناك) نوعاً من الانحطاط، أما أنا فأرى فيها شجاعته ومقدرته، أجل، على صنع المجد.

«لكن إن لم يكن القضيب في الإست» كانت أمي العزيزة، وارثة لسان أمها الذي لا يخاف شيئاً، تقول عادة عن الحياة مع عمها إيرس غير المحبوب، «إذن، يا عزيزي، فهو الألم الشديد في الرقبة».

* * *

ورغم أننا ننحدر في ذلك الاتجاه، نحو جذر المسألة ككل، المتعلقة بصدوع العائلة، الوفيات قبل الأوان، علاقات الحب المنحرف، العواطف المجنونة، الصدور المريضة بالسلطة، المال، حتى الإغواءات المريبة أخلاقياً أكثر وأسرار الفن، إلا أن علينا ألا ننسى أن من بدأ ذلك كله، هو أول من خرج من جوه لكي يغرق، هو من كانت وفاته غرقاً، المرتكز، حجر ـ الأساس، ثم بدأ انزلاق العائلة الطويل الذي انتهى بطمّي أنا في الحفرة: إنه فرانسيسكو داغاما، زوج إيبفانيا المتوفى.

أجل، إيبفانيا كانت ذات مرة عروساً أيضاً، هي التي تنحدر من عائلة تجارية عريقة، لكنها كانت قد تقلصت كثيراً حينذاك، عائلة المنيزيز من منغالور. وهي التي سببت الكثير من الغيرة. إذ أنها، بعد مقابلة بالصدفة في عرس في كلكوتا، وضعت يدها على أثمن صيد، خلافاً لكل منطق حسب رأي الكثير من الأمهات المحبطات، لأن رجلاً بذلك الثراء كان يجب أن تتقزز نفسه بسبب الحسابات المصرفية الجوفاء، أطقم الجواهر الزائفة، البذلات المفصلة عند أرخص الخياطين. في مطلع القرن جاءت ممسكة بذراع فرانسيسكو، الجد الأكبر إلى جزيرة كبرال، وذلك هو الجزء الأول من روايتي ذات العوالم الخاصة الأربعة المنفصلة: الأفعوانية، الفردوسية ـ الجحيمية. (إذ أن صالون أمي في تلة ملابار هو الجزء الثاني، وحديقة أبي السماوية هو الثالث، ثم بيت فاسكو ميراندا الأشبه بالحصن، «حمراؤه الصغيرة» في بنينغيلي، اسبانيا، كان، ويكون وسيصبح في هذه القصة الجزء الأخير). هناك، وجدت إيبفانيا بيتاً عتيقاً فخماً مبنياً على الطراز التقليدي، فيه الكثير من الباحات المتداخلة على نحو ممتع، حيث البرك المخضرة والينابيع الطحلبية تحيط بها أروقة غنية بالمنقوشات الخشبية، تتفرع منها متاهات من الغرف الطويلة بسقوفها العالية المكسوة بالآجر. لقد بني البيت داخل فردوس رجل غني، بين الأشجار الوارفة المدارية، وفق ما أمر به الطبيب تماماً، حسب رأي إيبفانيا، إذ رغم أنها في سنوات صباها كانت معدمة تماماً، إلا أنها كانت تعتقد على الدوام أنها خلقت لكل ما هو رائع وعظيم.

لكن بعد بضع سنوات من مولد ولديها، جاء فرانسيسكو داغاما إلى المنزل ذات يوم بشاب فرنسي ساحر على نحو غير معقول ومثير للريبة، شخص يدعى شارل جانيريه، له هيئة مهندس معماري، رغم أنه لم يكن إلا في العشرين من عمره. وقبل أن يرف لإيبفانيا جفن، كان زوجها الهمام قد كلف العمال عنده بأن يبنوا، لا بيتاً واحداً بل بيتين جديدين

في حديقتها الثمينة. وأي بيتين غريبين تبين أنهما سيظهران! ـ أحدهما، مبني من ألواح ذات زوايا غريبة، تتغلغل الحديقة إلى فضائه الداخلي، بحيث يصعب كلياً أن تقول ما إذا كان واحدهما داخل الآخر أم خارجه، كما بدا الأثاث أشبه بشيء مصنوع من أجل مستشفى أو صف هندسة. إذ لم يكن باستطاعتك أن تجلس عليه دون أن ترتطم بزاوية مدببة الرأس من زواياه، أما الآخر فكان منزلاً من الخشب والورق، من البطاقات ـ وفق الطراز الياباني، كما قال لإبيفانيا المذعورة - شرك حريق سريع الالتهاب، جدرانه عبارة عن شاشات ورقية منزلقة، وغرفة لا يفترض بالمرء أن يجلس فيها، بل يركع، وفي الليل، على المرء أن ينام على حصيرة على الأرض ورأسه على كتلة من خشب، كما لو أن المرء خادم. ورغم أن غياب الخصوصية أثار إبيفانيا إلى حد أنها لاحظت أن «المعرفة بصحة الأجهزة الهضمية لدى أفراد العائلة ليس مشكلة في بيت، جدرانه من ورق التنظيف بدلاً من جدران حمام،» إلا أن الأسوأ، أن إبيفانيا سرعان ما اكتشفت أنه ما إن أصبح بيتا المجانين هذان جاهزين، حتى صار زوجها غالباً ما يضجر من بيته الجميل، فيضرب بيده على طاولة الإفطار ثم يعلن أنهما سيتحركان «شرقاً» أو «غرباً». وهو ما كان يوجب على البيت أن يتحرك بقضه وقضيضه إلى هذا البيت أو ذاك من بيتي الفرنسي الغريبين، دون أن تؤثر احتجاجات الدنيا كلها أدنى تأثير فيه، ليعودوا بعد بضعة أسابيع وينتقلوا مرة ثانية.

ففرانسيسكو داغاما لم يكن عاجزاً عن أن يعيش حياة مستقرة مثل كل الناس العاديين وحسب، بل كان أيضاً، وكما اكتشفت إبيفانيا على نحو يائس راعي فنون، إذ كان أشخاص يشربون الروم والويسكي ويمضغون الحشيش، كما يمتون للطبقات الدنيا، وملؤهم الإحساس بالتمردِ، يأتون لفترات طويلة من الزمن كي يملؤوا بيتي الفرنسي كليهما بموسيقاهم الصاخبة، منافساتهم الشعرية، نماذج رسمهم العارية، وكذلك لعب الورق

طوال الليل والأشكال الأخرى من تصرفاتهم غير الصحيحة بكل المقاييس. كما كان فنانون أجانب يأتون ليقيموا ثم يتركوا خلفهم أدوات متحركة غريبة أشبه بعلاّقات معاطف معدنية ضخمة تدور في الهواء، ولوحات لنساء شيطانيات، لكل منهن عينان على جانب واحد من أنفها، وأقمشة رسم ضخمة كانت تبدو وكأنها رسمت بشكل عرضي بالألوان، فيما كانت إيبفانيا مضطرة لأن تضع تلك الكوارث كلها على الجدران، وفي الساحات من منزلها المحبوب. ثم تنظر إليها كل يوم وكأنها أحب ما تحب.

«فنك التافه، فرانسيسكو» قالت لزوجها بكثير من السمية، «سوف يعمي لي عيني لبشاعته». لكنه كان منيعاً لا تؤثر فيه السموم. «الجمال العتيق لا يكفي». قال لها. «القصور العتيقة، السلوك العتيق، الآلهة العتيقة. هذه الأيام، العالم مليء بالأسئلة. كما أن هناك طرقاً جديدة لكي تكوني جميلة». لقد كان فرانسيسكو مادة لبطل منذ أن ولد، قدره أن تطرح عليه أسئلة وتطلب منه طلبات، بكل راحة وسهولة كما كان شأن دون كيشوت. لقد كان جميلاً مثل إثم لكنه كفاضل أجمل بمرتين. في ملاعب الكركيت، المعروفة في ذلك الحين، برهن، في شبابه، على أن له ذراعاً يسرى بطيئة شيطانية في حمل المضرب واللعب به بكل براعة. في الكلية، كان طالب الفيزياء الأبرع في صفه، لكن والده توفي مبكراً، فاختار، بعد طول تفكير، أن يتخلى عن الحياة الدراسية، يتحمل المسؤولية ويدخل في أعمال العائلة التجارية. بعدئذ كبر ليصبح خبيراً في حرفة آل داغاما قديمة العهد، ألا وهي تحويل التوابل والجوز إلى ذهب، فقد كان باستطاعته أن يشم رائحة النقود من نسمات الهواء. كما كان باستطاعته أن يتشمم الجو ويقول لك إن كان سيأتي لك بربح أم خسارة، لكنه كان أيضاً محباً لأعمال الخير، يزود المياتم بالأموال، يفتح مستوصفات صحية مجانية، يبني مدارس في القرى التي تحاذي مجاري المياه الخلفية، ينشئ معاهد للبحث في أمراض نخيل -

الكاكاو، يباشر مخططات للحفاظ على الفيلة في الجبال، ما وراء حقول التوابل التابعة له، ويرعى مسابقات سنوية في حينها لمهرجان زهرة الأونام كي يكتشف ويتوج أبرع الحكواتية الشفهيين في المنطقة ـ أي أنه كان واسع الأعمال الخيرية إلى حد كبير، وعلى نحو دفع إيبفانيا بالحقيقة لأن تولول (دون جدوى): «وبعد، عندما لا يبقى لديك مال، عندما يصبح الأطفال قبعة ـ في ـ اليد!! حينذاك هل يمكننا أن نأكل ذلك الشيء الذي تدعوه إنسانيتك؟».

كل بوصة من طريقهما معاً كانت تقف في وجهه، ولقد خسرت كل معركة ما عدا الأخيرة. ذلك أن فرانسيسكو، الحداثي، بعينيه المركزتين على المستقبل، أصبح التلميذ الأول لبرتراند رسل ـ إذ كان كتاباه «الدين والعلم» و«عبادة الرجل الحر» إنجيله غير الرباني ـ كذلك السياسة الوطنية المتزايدة حماسة «للمجتمع الصوفي اللاهوتي» بقلم السيدة آن بيزانت. لكن تذكروا أن كوشين، ترافنكور، ميزور، حيدر آباد، كلها لم تكن إدارياً جزءاً من الهند البريطانية، بل كانت دولاً هندية لها أمراؤها الخاصون. بل إن بعضها ـ مثل كوشين ـ كان باستطاعتها أن تفخر، مثلاً، بمعايير تعليمية وتربوية عالية مقارنة بتلك المناطق الواقعة تحت الحكم البريطاني المباشر، بينما كان في بعضها الآخر (حيدر أباد) ما دعاه نهرو بحالة «الإقطاع الكامل»، وفي ترافنكور، حتى حزب المؤتمر أُعلِن أنه غير قانوني، لكن لا تدعونا نخلط (إذن فرانسيسكو لم يخلط) بين المظهر والحقيقة، فورقة التين ليست هي التين.

وعندما رفع نهرو الراية الوطنية في ميزور، لم تحطم السلطات المحلية (الهندية) الراية وحسب، بل حطمت سارية العلم ذاتها في اللحظة التي غادر فيها المدينة، خشية أن تزعج الواقعة الحكام الحقيقيين... لكن بعد اندلاع الحرب العظمى مباشرة، في عيد ميلاده الثامن والثلاثين، انقصف شيء ما داخل فرانسيسكو.

«يجب أن يذهب البريطانيون» أعلن بكل رصانة على العشاء، تحت الرسوم الزيتية لأسلافه ببذلاتهم وأحذيتهم.

«أوه، يا لله؟ أين يذهبون؟» سألت إبيفانيا، وقد فاتها معنى كلامه. «في لحظة سيئة كهذه، يتركوننا لقدرنا، ولذلك الرجل اللعين، قيصر بيل؟».

فانفجر فرانسيسكو فيما تجمد إيرس ابن الثانية عشرة وكامونز ابن الحادية عشرة في مقعديهما. «قيصر هو الفاتورة التي دفعناها مسبقاً»، هدر صوته كالرعد. «الضرائب تضاعفت!! شبابنا يموتون في اللباس العسكري البريطاني! ثروة الأمة تنقل بالسفن بعيداً يا مدام: في الوطن، الناس يموتون جوعاً، لكن الحاكم البريطاني نهب قمحنا، أرزنا، منتجات القنب وجوز الهند. مناجمنا تفرَّغ: الملح، المنغنيز، الميكا، أقسم بالله! رجالات بومباي يزدادون ثراء والأمة تذهب إلى الحضيض».

«لقد ملأ أذنيك الكثير من المحتالين والكتب» احتجت إبيفانيا. «ما نحن يا ترى إلا أولاد الإمبراطورية؟ البريطانيون أعطونا كل شيء. أليس كذلك؟ ـ الحضارة، القانون، النظام وأشياء كثيرة جداً، بل حتى توابلك التي تتعفن في البيت، يشترونها بكل أريحية، لنكسو أولادنا ثياباً ونملأ أطباقهم طعاماً، إذن لماذا نتكلم عن خيانة ووساخة كهذه أمام الأولاد؟ لم كل ذلك الهراء والكفر؟».

بعد ذلك اليوم، كان ثمة القليل مما يقوله واحدهما للآخر. فإيرس، متحدياً أباه، اتخذ جانب أمه، إذ كان هو وأمه إلى جانب إنكلترا، الإله، الحفاظ على القديم، الأساليب القديمة والحياة الهادئة، وبما أن فرانسيكو كان مفعماً حيوية وطاقة بقدر ما كان إيرس ميالاً للبطالة، فقد تعلم هذا كيف يثير غضب والده بإيثاره التمدد والتراخي في مقعده المترف. (بالمناسبة أنا نفسي في شبابي، ولأسباب مختلفة، كنت أيضاً

ميالاً للتمدد والتراخي. لكنني لم أكن أسعى لإزعاج أحد. بل نيتي العبثية كانت أن أضع بطئي مقابل الاندفاع المتسارع للزمن نفسه. لكن هذه الحكاية سترد أيضاً في مكانها المناسب). أما الصبي الأصغر، كامونز، فقد وجد فيه فرانسيسكو حليفاً، غارساً فيه فضائل الوطنية، العقل، الفن، التجديد، وقبل كل شيء، في تلك الأيام، الاحتجاج. لقد كان فرانسيسكو يشارك نهرو في ازدرائه المبكر للبرلمان الوطني الهندي «مجرد حانوت ـ كلام أوغاد». وكان كامونز يعطي موافقته الرزينة لـ «آني هذه وغاندي ذاك»، فيما كانت إيبيفانيا توبخه: «نهرو، تيلاك وكل تلك العصابة السافلة الآتية من الشمال. تتجاهل أمك! اخرس! إذن سيكون مآلك السجن، الفرم ـ الفرم».

سنة 1914 انضم فرانسيسكو داغاما إلى حملة الحكم الوطني التي شنتها آني بيزانت وبال تيلاك، ذاك الذي رفع مطالبه إلى المطالبة ببرلمان هندي مستقل يبت بمصير البلاد، وحين طلبت إليه السيدة بيزانت أن يؤسس عصبة حكم وطني في كوشين، كان لديه من الجرأة ما جعله يدعو عمال ـ الميناء، قطافي ـ الشاي، عتالي البازار وعماله الخاصين للانضمام إلى البورجوازية المحلية، فانهزمت إيبيفانيا تماماً. الغوغاء والطبقة العليا في النادي نفسه! «يا للخزي والعار! لقد فقد الرجل كل حس لديه!» احتجت بصوت واهن، وهي تهوّي بمروحتها، ثم غرقت في صمت مطبق.

بعد بضعة أيام، تأسست العصبة، ثم حدث اصطدام في شوارع منطقة إرناكولم بجانب رصيف الميناء، إذ حاول بضع عشرات من مقاتلي جماعة العصبة أن يعملوا للتغلب على فصيل صغير من الجند ذوي التسليح الخفيف وتجريدهم من أسلحتهم. في اليوم التالي، حُظرت العصبة رسمياً ثم جاء قارب ذو محرك إلى جزيرة كبرال، ليضع فرانسيسكو داغاما قيد الاعتقال.

ستة أشهر بقي فرانسيسكو في السجن، اكتسب خلالها احتقار ابنه الكبير وإعجاب الابن الصغير الذي ظل على الدوام. أجل، بطل، بالمطلق، في أيام السجن تلك، وفي أيام نشاطه السياسي المحموم بين فترتي سجن، عندما كان في حالة انسجام مع تعليمات تيلاك. كان يعرض نفسه عمداً للاعتقال في كثير من المناسبات فاكتسب ما يؤهله لأن يصبح رجل المستقبل، ذلك الذي يستحق إبقاء العين عليه، الشخص الذي صار له أتباع: النجم.

على أن النجوم يمكن أن تسقط. والأبطال يمكن أن يخفقوا، وفرانسيسكو داغاما لم يحقق ما كان مؤهلاً له.

* * *

لقد وجد الجد الأكبر فرانسيسكو في السجن وقتاً للعمل الذي أنهاه، دون أن يعرف احد من أين حصل على التمسك بالنظرية العلمية التي حولته من بطل بارز إلى مادة ـ للضحك على الصعيد الوطني، لكن في تلك السنوات، تبين أنها باتت تشغله أكثر وأكثر، إلى أن صارت في النهاية تنافس حتى النزعة الوطنية لديه. لعل اهتمامه القديم بالفيزياء النظرية تداخل مع عواطفه الأجد، الصوفية اللاهوتية للسيدة بيزانت، إضافة إلى إصرار المهاتما على وحدة الهند كلها بملايينها المختلفة اختلافاً واسعاً، وبحث مفكري الهند المحدثين، في تلك المرحلة، عن تعريف علماني ما للحياة الروحانية، لتلك الكلمة البالية، الروح! على أي حال، حوالي نهاية 1916، طبع فرانسيسكو بحثاً، أرسله إلى كل الصحف الرئيسية في حينها، للفت انتباهها، وعنوانه «نحو نظرية شرطية للحقول التحويلية للوجدان»، يقترح فيه أن الوجود، أي كل ما حولنا من شبكات ديناميكية غير مرئية للطاقة الروحية يشابه الحقول الكهر ـ طيسية، مناقشاً بأن حقول الوجدان تلك ليست أقل من خزانات ـ عملية وأخلاقية على حد سواء ـ لذاكرة الجنس البشري، وذلك، بالحقيقة، ما

تحدث عنه ستيفن بطل جويس مؤخراً (في مجلة الأنـاني) عـن رغبتـه في الانصهار بمصهر روحه: أي الوجدان الذي لم يوجد بعد لعرقنا البشري.

إذ يمكن، في أدنى مستوى لعملها، لحقول الوجـدان التحويليـة هـذه أن تسهل بكل وضوح التعليم، بحيث أن ما يتم تعلمه في أي مكـان علـى سطح الأرض من قبل أي أحد، يصبح في الحال أسهل علـى الـتعلم مـن قبل أي أحد آخر في أي مكان آخر، كمـا قـال أيـضاً إنهـا علـى مـستوى أرفع، وهو المستوى الذي يصعب بالتأكيد مشاهدته، تعمل تلك الحقـول بشكل أخلاقي، فتعرِّف خبراتنا الأخلاقية كما يقوِّيهـا كـل خيـار أخلاقـي يتخذ على سطح الكوكب، وبـالعكس يـتم إضـعافها مـن خـلال أعمـال أساسية، إذ أن الكثير من الأعمال الشريرة تدمر، نظرياً، حقول الوجـدان على نحو تصبح معه غـير قابلـة للإصـلاح، و«حينـذاك تواجـه الإنـسانية حقيقة لا يمكن الكلام عنها هي أن الكون صنع أخلاقيـاً»، ولـذلك صـار بلا معنى، نتيجة تدمير الرابطـة الأخلاقيـة، شـبكة الأمـان، كمـا يمكـن للمرء أن يقول، «تلك التي نعيش داخلها دائماً».

والحقيقة، لم يقدم بحث فرانسيسكو أكثر من الوظائف التعليمية الدنيا للحقول بأية درجة من الإقناع، مقدراً استقرائياً الأبعاد الأخلاقيـة بطريقـة تخمينية وموجزة نسبياً حسب اعترافهِ هو ذاته. لكن الـسخرية الـتي أثارهـا ذلك البحث كانت على نطاق واسع. فافتتاحية صحيفة في مدراس اسمهـا الهندوس، بعنوان «صواعق الخير والشر» انتقدته بـشدة قائلـة: «مخـاوف الدكتور داغامـا فيمـا يخـص مـستقبلنا الأخلاقـي أشـبه بمخـاوف رجـل الأرصاد الجوية الذي يعتقد أن أعمالنا هي الـتي تبـت بـالطقس، فمـا لم نتصرف «برحمة وشفقة»، مـثلاً، لـن يكـون هنـاك فـوق رؤوسـنا سـوى العواصف. كما نزلت زاوية ساخرة في جريـدة «تـأريخ بومبـاي» ورئـيس تحريرها، هورنيمان، هو صديق السيدة بيزانت والحركة الوطنية، ترجـى فيها الكاتب السيد فرانسيسكو ألا ينشر شيئاً بعد ذلك ـ متسائلاً بشيء من

حقد عما إذا كانت حقول الوجدان المشهورة خاصة بالبشر وحدهم، أم أن هناك مخلوقات أخرى ـ صراصير، مثلاً أو أفاعي سامة ـ يمكن أن تتعلم كيف تستفيد منها، أو ما إذا كان هناك لكل جنس حقول خاصة كهذه تلتف حول الكوكب. «هل علينا أن نخشى عدوى تصيب قيمنا ـ لنسمها إشعاع غاما ـ بتصادمات حقلية عرضية؟ ألا يمكن للتقاليد الجنسية لفرس النبي، أو لأخلاقيات قرد البابون أو الغوريللا، أو لسياسة العقارب أن تصيب نفسياتنا البائسة بعدوى مرض قاتل؟ أو ربما ذلك حدث من قبل لا سمح الله».

أشعة غاما تلك هي التي أنهت فرانسيسكو، إذ أصبح نكتة لدى الجميع، نوعاً من الإنعاش الخفيف من بلوى الحرب القاتلة، الصعوبات الاقتصادية والنضال من أجل الاستقلال. في البداية، حافظ على أعصابه، مركزاً ذهنه تركيزاً شديداً على التفكير بالتجارب التي يمكن أن تبرهن على الفرضية الأولى على الأقل. فكتب بحثاً ثانياً اقترح فيه أن الخطوط الطويلة من كلمات الهراء التي يستخدمها مدربو رقصة الكاثاك للدلالة على حركات الأقدام، الأذرع، الرقبة، يمكن أن تكون مناسبة، كأساس للاختبارات، فسلسلة من نوع (تات ـ تات ـ تا.. إلخ) يمكن أن تستخدم إلى جانب أربعة خطوط أخرى من الهراء الذي لا معنى له والمصمم لكي يقال حسب النموذج الإيقاعي نفسه باعتباره «الضبط». أما طلاب البلدان الأخرى غير الهند الذين لا يعرفون تعليمات الرقص الهندي، فيطلب إليهم أن يتعلموها كلها. وإذا كانت نظرية فرانسيسكو الحقلية صحيحة، فإن طلاب صف ـ الرقص سيثبتون أن من الأسهل عليهم كثيراً أن يحفظوها.

الاختبار لم يجر البتة، لكن سرعان ما جاءت الطلبات لإقالته من عصبة الحكم الوطني المحظورة، فيما توقف قادتها، ومن بينهم حينذاك موتيلال نهرو نفسه، عن الرد على الرسائل المطالبة بذلك بشكل متزايد،

تلك التي كانت تقصف رأس جدي الأكبر كالقنابل، كما أن النماذج الفنية لم تعد تصل بالقوارب لتقيم في أحد البيتين الغريبين لجزيرة كبرال، تدخن الأفيون في البيت الشرقي الورقي أو تشرب الوسكي في البيت الغربي ذي الرأس الحاد، رغم أنه من حين إلى آخر ، ومع تزايد شهرة الفرنسي، كان يسأل فرانسيسكو، إن كان هو الراعي الهندي الأول للشاب الذي صار يدعو نفسه «الكوربيزيير». وحين كان يتلقى الكثير من الاستفسارات، فإن البطل المحطم كان يرسل نوعاً من الملاحظة كرد: «لم أسمع بذلك الشخص». ثم، بعد زمن، توقفت تلك الاستفسارات أيضاً.

في تلك المرحلة كانت إيبفانيا تعيش نوعاً من النشوة. فمع غرق فرانسيسكو في الانطوائية واليأس، كان وجهه يكتسب المظهر المتعفن العام للرجال الذين اقتنعوا بأن العالم ارتكب بحقهم، دون تفسير لذلك، خطأً شنيعاً لا مبرر له. لقد انتقلت بسرعة نحو القتل (حرفياً، كما تبين ذلك فيما بعد) ولقد توصلت إلى استنتاج بأن سنوات استياءاتها المقموعة فرخت لديها سخطاً وحب انتقام ـ والسخط، تراثي الحقيقي، إذ كان من الصعب، غالباً، تمييزه عن الكراهية القاتلة الحقيقية، رغم أنك إذا ما سألتها يوماً إن كانت قد أحبت زوجها، فإن السؤال نفسه كان يصدمها. «زواجنا كان زواج ـ حب،» كانت تقول لزوجها المحبط في أماسي الجزيرة الطويلة اللامتناهية، وليس هناك من صحبة سوى المذياع. «ترى بسبب الحب أو أي شيء آخر استسلمت لخيالاتك؟ لكن انظر إلى أين أوصلتك. الآن من أجل الحب يجب أن تستسلم لي».

بعد ذاك تم إغلاق البيتين الغريبين المهجورين في الحديقة، كما لم يعد أحد يذكر السياسة في حضورها ثانية. وحين هزت الثورة الروسية العالم كله، حين انتهت الحرب الكبرى، حين تسربت أخبار مجزرة أرميستار من الشمال وحطمت حب الإنكليز لدى كل هندي تقريباً (إذ أن رابندرانات طاغور، الحائز على جائزة نوبل، أعاد وسام فروسيته

للملك)، في كل ذلك كانت إيبفانيا في جزيرة كبرال تسد أذنيها، وتستمر في الإيمان، إلى درجة اعتبار العكس كفراً تقريباً، بنزعة البريطانيين الكلية نحو الخير، فيما ابنها الكبير إيرس يؤمن بذلك أيضاً.

في عيد الميلاد سنة 1921، جاء كامونز، وهو في الثامنة عشرة من العمر، باليتيمة ابنة السابعة عشرة، إيزابيلا زيمينا سوزا، إلى المنزل كي تقابل والديه (فسألته إيبفانيا أين التقيت بها، وبكثير من الاحمرار والخجل، أجابها: في كنيسة القديس فرانسيس، مقابلة سريعة. ثم باحتقار، هو وليد قدرتها العظيمة على نسيان كل شيء غير مناسب يتعلق بخلفيتها الخاصة، نخرت «فاجرة من مكان ما!» «لكن فرانسيسكو منح الفتاة بركته، ماداً يداً متعبة عبر الطاولة واضعاً إياها على رأس إيزابيلا سوزا الجميل). كانت عروس كامونز المستقبلية فصيحة صريحة. عيناها تبرقان إثارة، فانتهكت تحريم إيبفانيا ـ البالغ ـ من ـ العمر خمس سنوات، حين عبرت عن بهجتها بمقاطعة كلكوتا الفعلية، وكذلك مظاهرات بومباي الكبيرة ضد زيارة ولي العهد (الملك هنري الثامن فيما بعد)، كما مدحت آل نهرو، الأب والابن، لعدم التعاون في المحكمة التي أرسلتهما كليهما إلى السجن «الآن سيعرف نائب الملك ما هي الأمور». قالت: «موتيلال يحب إنكلترا، مع ذلك آثر الذهاب إلى السجن».

حينذاك تحرك شيء من البريق القديم في عيني فرانسيسكو المعتمتين منذ زمن طويل، لكن إيبفانيا تكلمت أولاً. «في هذا البيت المسيحي الذي يخاف ـ الله، لا يزال البريطانيون هم الأفضل». ردت بسرعة. «وإن كان لديك طموحات في اتجاه ولدنا، إذن من فضلك، فكري بما يلفظه فمك. تريدين لحماً أحمر أم أبيض؟ قولي. كأسك من خمرة داو المستوردة، باردة تماماً؟ يمكن أن يكون لك ذلك. فطيرة ـ شطيرة؟ لم لا؟ هذه مأكولات عيد الميلاد. يا آنسة تريدين حشوة؟»

فيما بعد، عند الحاجز، كانت بيل ما تزال صامتة أيضاً حول اكتشافاتها، لكنها اشتكت بمرارة من كامونز لأنه لم يدافع عنها. «بيتكم أشبه بمكان ضائع في الضباب». قالت لخطيبها. «أين الهواء للتنفس؟ أحدهم ألقى طلسماً عليه وامتص الحياة منه ومن أبيك المسكين. أما بالنسبة لأخيك، ذاك النمط البائس، فهو حالة ميؤوس منها. يكرهونني، لا يكرهونني، لا يهم، لكن من الواضح مثلما الألوان واضحة في قميصك المشجر، أن شيئاً ما سيئاً ينمو بسرعة هنا».

«إذن، لن تأتي ثانية؟» سأل كامونز بشيء من تعاسة.

صعدت بيل إلى الزورق المنتظر ثم قالت: «ولد سخيف. أنت ولد لذيذ ومؤثر. لكن ليس لديك فكرة مطلقاً عما أفعل وعما لا أفعل من أجل الحب: إلى أين أصل أو لا أصل، مع من أتعارك أو لا أتعارك، من أسحر أو أفك سحري عنه».

في الأشهر التالية، كانت بيل هي التي أبقت كامونز على اتصال بأخبار العالم، وهي التي سردت عليه خطاب نهرو عند إعادة الحكم عليه بفترة سجن أخرى، في أيار 1922، «الترهيب والإرهاب أصبحا أداتي الحكومة الأساسيتين، هل يتصورون أنهم بذلك يغرسون في قلوبنا حبهم؟ الحب والإخلاص ينبعان من القلب، ولا يمكن الحصول عليهما برؤوس الحراب».

«يبدو ذلك أشبه بزواج والديك بالنسبة إلي». قالت إيزابيلا بكل مرح. أما كامونز، الذي عادت فاشتعلت من جديد حماسته الوطنية بسبب حبه الشديد لفتاته الجميلة ذات الصوت الجهوري، فقد كان له نعمة الاحمرار خجلاً.

لقد جعلته بيل مشروعها. وحين بدأ في تلك الأيام ينام نوماً سيئاً، بسبب الربو، ويصفر وهو يتنفس، قالت له: «كل ذلك بسبب الهواء الفاسد. لذلك.. لذلك، علي أن أنقذ واحداً من آل داغاما، على الأقل».

بعد ذاك أمرت بتغييرات. وبناء على تعليماتها - رغم سخط إبيفانيا التي قالت له: «لا تظن أنني لثانيتين سأمنع الفراريج في هذا البيت بسبب دجاجتك الصغيرة، تلك الفاسقة - الفاجرة الصغيرة. تريدك أن تأكل طعام شحاذين - أصبح كامونز نباتياً، كما تعلم أن يقف على رأسه. وسراً، أيضاً، حطم إطار نافذة وتسلق إلى البيت الغربي المليء ببيوت العناكب، حيث كانت مكتبة والده تذوي مهملة، ثم بدأ يلتهم الكتب جنباً إلى جنب مع دود العث. العطار، الخيام، طاغور، كارليل، روسكين، ويلز، بو، شيلي، رجا راموهون روي». «أترى؟» شجعته. «يمكنك أن تفعل ذلك. يمكنك أن تصبح شخصاً ذا شأن، بدلاً من ممسحة باب، بقميص مشجر بشع».

لكنهم لم ينقذوا فرانسيسكو. فذات ليلة، وبعد المطر، غاص في الماء قرب الجزيرة ثم سبح بعيداً. ربما كان يحاول أن يجد هواء وراء الإطار المسحور للجزيرة، فأخذه المد الصاعد، ليجدوا جثته المنتفخة بعد خمسة أيام مرتطمة بطفو المرفأ الصدئ. مع ذلك، ينبغي تذكره لدوره في الثورة، لأعمال الخير التي كان يقوم بها، لتقدميته، لعدله، لكن تركته الحقيقية هي اضطراب الشغل (الذي كان قد أهمل شر إهمال طوال تلك السنوات الماضية). ثم الموت المفاجئ والربو.

لقد ابتلعت إبيفانيا نبأ موته دون أن ترتعش. أكلت موته كما أكلت حياته ثم كبرت.

(3)

عند منبسط الدرج الواسع شديد الميلان، المؤدي إلى مخدع إبيفانيا، كانت هناك كنيسة العائلة الصغيرة الخاصة التي سمح فرانسيسكو أيام زمان لأحد «فرنسييه» بأن يزخرفها رغم احتجاجات إبيفانيا الشديدة. وكان قد بلي اللون المذهب للمذبح ذي الرسومات المدخلة الصغيرة، حيث كان يسوع قد اجترح معجزاته، على خلفية من شجر جوز الهند ومزارع الشاي والتماثيل الصينية للرسل والملائكة المذهبة، وهي تقف على قواعد تماثيلها تنفخ بأبواقها، فيما الشموع في أحواضها الزجاجية على شكل كؤوس براندي ضخمة، والمخرمات البرتغالية المستوردة فوق المذبح، وحتى الصليب نفسه. «كل المادة ذات النوعية العالية»، تذمرت إبيفانيا، «حتى يسوع ومريم، أغلق عليها جميعاً في غرفة ـ العلب». ورغم عدم رضاها عن تلك الزخرفات المشوهة، تابع الرجل، فدهن المكان كله بالأبيض، وكأنه جناح في مستشفى، ثم تم فرشه بأقل المقاعد راحة في كوشين. كما ثبتت على جدران تلك الغرفة الداخلية التي لا نوافذ لها، صفائح ورقية ضخمة، لتحاكي النوافذ ذات الزجاج المحجر. «كأننا لا نستطيع أن نضع نوافذ مناسبة إن أردنا». أنّت إبيفانيا وشكت. «انظروا كم تجعلنا نبدو رخيصين، نوافذ ورقية في بيت الله».. ولم يكن على النوافذ حتى صور لائقة، بل فقط ألواح ذات ألوان بأنماط تمهد ـ للجنون. «مثل زخرفة لحفلة طفل». تشممت إبيفانيا الرائحة. «في غرفة كهذه، على المرء ألا يحفظ دم منقذنا ولحمه، بل فقط كعكة عيد ميلاد».

لقد انضم فرانسيسكو للدفاع عن عمل الرجل الذي يحميه، فقال إن الشكل واللون لم يأخذا موقع الرضى لديه وحسب، بل بيّنا أنهما، إذا ما تم التعامل معهما بشكل صحيح، يمكن، بالحقيقة، أن يكونا مرضيين؛ وذلك ما استفز إبيفانيا فردت بكل احتقار: «لذلك ربما لست بحاجة ليسوع المسيح، لأن شكل الصليب فقط يغني عن وجوده، فلماذا

الانزعاج بأي صليب، أليس كذلك؟ أي كفر يجسده صاحبك الفرنسي ذاك: كنيسة لا تدع ابن الرب يموت لتخليصنا من آثامنا».

في اليوم التالي لجنازة زوجها، أمرت إبيفانيا بحرق ذلك كله، لتعود من جديد الملائكة الأطفال، المخرمات، البلور، كراسي الكنيسة ذات التنجيد السميك بقماش حريري داكن ومساند تتطابق معها ذات حواف ذهبية بحيث يمكن لسيدة في مقامها أن تركع بكل راحة أمام إلهها. كما أن لوحات عتيقة من إيطاليا عليها صور قديسين وشهداء في أوضاع الورع والتضحية، أعيدت إلى الجدران ثم أحيطت بستائر فاخرة كثيرة الطيات، وفي الحال أزيل كل أثر مزعج لذكرى تجديدات ذلك الفرنسي الكريهة ليحل محلها كل ما هو مألوف من تزيينات العبادة والإخلاص. «الإله في سمائه»، أعلنت الأرملة الجديدة، «وكل شيء من الطراز الأول بالنسبة للعالم».

«منذئذ فصاعداً»، صممت إبيفانيا، «ليس لنا إلا الحياة البسيطة. لكن الخلاص لا يقوم على ذلك الرجل الضئيل ذي القماشة على حِقويه وأتباعه». والحقيقة أن البساطة التي كانت تسعى إليها كانت أي شيء غير البساطة الغاندية. إنها بساطة النهوض من فراشها في وقت متأخر إلى صينية الشاي الثقيل الحلو، ثم التصفيق بيديها للطباخة كي تأمرها بوجبات اليوم، وجعل خادمة تأتي للعناية بشعرها وتمشيطه، هو الذي كان ما يزال أسود، لكنه سرعان ما بدأ يخف ويخطه الشيب. كذلك أن تكون قادرة على تقريع الخادمة على الكميات المتزايدة التي تظل في فرشاة الشعر. بساطتها هي بساطة الصباحات الطويلة في توبيخ الخياط الذي يجيء إلى المنزل بأثواب جديدة، والركوع عند قدميها، ثم ملء فمه بالدبابيس التي يستبعدها من حين إلى حين كي يضبط لسان موبخته. بعد ذلك، الأصائل الطويلة في مخازن الأقمشة، فيما تزغرد أمامها طيات الحرير الرائعة على أرض مغطاة بملاءة بيضاء لبهجتها، طية قماش

تلو طية قماش تطير بشكل يثير الانفعال في الجو لتستقر على شكل جبال من الطيات الناعمة الجميلة المتألقة. بساطتها بساطة الشائعات مع نظيراتها القليلات في المجتمع، والدعوات إلى «حفلات» البريطانيين في منطقة القلعة، ثم لعبهم الكركيت أيام الآحاد، حفلات شايهم الراقصة، والغناء الموسمي لأطفالهم البسطاء الذين أصيبوا بضربة شمس، لأنهم مسيحيون، إذ بالنتيجة حتى لو كانوا من أتباع الكنيسة الأنجليكانية، لا يهم، البريطانيون يحظون باحترامها، رغم أنهم لم يحظوا بقلبها قط، ذاك الذي يمت للبرتغالي الذي حلمت، بالطبع، بأن تمشي بمحاذاة «التاغوس»، ألدورو، والتسكع في شوارع لشبونة وهي تتأبط ذراع ذلك السيد النبيل. إنها بساطة الكنات اللواتي يلبين معظم حاجاتها، فيما هي تجعل حياتهن جحيماً حياً، والأبناء الذين يبقون المال يتدفق بكل حرية تماماً كما هو مطلوب، بساطة كل شيء في مكانه، بساطة أن تكون، على المدى الطويل، في قلب الشبكة، رأس الكومة، متهادية بشكل عرضاني على أكوام الذهب، وتركه ينساب كما يعجبها، كفقاعة لهيب منظف مخيف. «لا بد لك من ثروة كي تبقي الماما في بساطتها». شكت بيل لزوجها، إثر ملاحظة أبديت حول المهاتما غاندي (هي التي تزوجت كامونز في مطلع سنة 1923). بعدئذ تابعت: «وإذا ما استمرت في طريقها هذا، فإنها ستكلفنا شبابنا أيضاً».

ما دمر أحلام إيبفانيا: فرانسيسكو لم يترك لها شيئاً سوى ثيابها، مجوهراتها ومبلغ متواضع من المال. أما البقية فقد علمت، لشدة سخطها، أنها ستعتمد على حسن نية ولديها، اللذين قسمت الوصية الإرث بينهما مناصفة، شريطة أن تظل شركة تجارة غاما موحدة وألا تُحل الشركة «ما لم تملِ ظروف الشغل شيئاً آخر» مؤكدة أن على إيرس وكامونز، أن يسعيا للعمل معاً بكل حب، خشية أن تدمر ممتلكات العائلة نتيجة الاختلاف أو عدم الانسجام».

«حتى بعد الموت،» ولولت الجدة الكبرى إيبفانيا لدى قـراءة الوصـية ما يزال يصفعني على كلا جانبي وجهي».

وهذا أيضاً جزء من تراثي: فالقبر لا ينهي المشاجرات.

فشل محامو عائلة منيزيز في إيجاد ثغرة ينفذون منها، وذلك ما أخـاف الأرملة كثيراً. إذ بكت، نتفت شعرها، لطمـت صـدرها الـصغير، كـزت على أسنانها، وهو ما أدى إلى صدور صوت نافذ كصوت الإنـذار. لكـن المحامين استمروا بكل خنوع يشرحون لها أن مبدأ وراثة الأم الذي كانـت تشتهر به كوشين، ترافنكور وكويلون، والذي، طبقاً لـه، كـان التـصرف بالملكية مسألة تخص السيدة إيبفانيا التي تبت بـه أكثـر ممـا يحـق للـسيد داغاما. لكن ذلك لا يمكن أن ينطبق بأي شكل على المجتمع المـسيحي، لكونه جزءاً من التراث الهندوسي فقط.

«إذن هاتوا لي تمثال شـيفا وعلبـة ـ اغتـسال». سمـع بعـضهم إيبفانيـا تقول، طبقاً للحكاية، رغم أنها فيما بعد أنكرت ذلك. «خـذوني إلى نهـر الغانج ولسوف أقفز إليه بسرعة مضاعفة، هاي، رام!».

(علي هنا أن أعلق بأن رغبة إيبفانيا، في نظري، أن تقوم بالصلاة لـرام وبالحج للغانج تبدو غير مقنعة، فلهذا علاقة بسفر الرؤيا، لكن الولولـة، الكز على الأسنان، نتف الشعر ولطم الصدر، كله من المؤكد أنه حدث).

غير أن ولدي السيد الكبير المرحوم أهملا أعمال التجارة، ولا بد مـن الاعتراف بذلك، لكونهما كانا دائمـاً مـشغولين بمـسائل دنيويـة. فـإيرس داغاما، المنكوب أكثر مما كان يظن، باكتشافه أن والـده مـات منتحـراً، سعى لمواساة نفسه بالانحراف الجنسي، مستثيراً سيلاً مـن المراسـلات ـ رسائل على ورق رخيص، مكتوبة بخط شبه أمي، شبه مقـروءة، رسـائل حب، رسـائل اشـتهاء وغـضب، تهديـدات باسـتخدام العنـف إذا أصـر المحبوب على طرقه المؤذيـة للغايـة. علـى أن مؤلـف تلـك المراسـلات الموسومة بالعـذاب لم يكـن إلا ذلـك الـصبي في قـارب التجـذيف ليلـة

العرس: الأمير هنري، الملاح، نفسه «لا تظن أنني غافل عن كل ما تفعله. أعطني قلبك أو اجتثثه من جسدك. وإذا لم يكن الحب كل الأرض والسماء فوقها، إذن هو لا شيء، بل أسوأ من الوسخ».

إذا لم يكن الحب كل شيء، إذن هو لا شيء: هذا المبدأ وعكسه (أعني الخيانة) يتصادمان على مر السنين في حكايتي المقطوعة الأنفاس.

فإيرس الذي كان يتصيد صاحباً له طوال الليل، غالباً أيضاً ما كان يقضي النهار وهو نائم بتأثير الحشيش أو الأفيون، لاستعادة قواه بعد ما بذل من جهد، وليس بالنادر أنه كان يحتاج لمن يعتني به لتضميد جروحه الصغيرة المختلفة.

فكانت كارمن، دون كلمة، تقوم بالمهمة الطبية وتضع كمادات الماء الحار لتسكن رضوضه المؤلمة، وحين يستغرق في نومه شاخراً نتيجة ذلك الماء الحار المسحوب من أعماق حزنها، ربما فكرت ذات مرة بدفع رأسه إلى ما تحت السطح، لكنها لم تستسلم للإغراء، بل سرعان ما كانت تجد هناك منفثاً آخر لغضبها.

أما كامونز، فقد كان ابن والده، لكن بطريقة خوّافة، ناعمة الكلام، إذ وقع من خلال بيل على مجموعة من الراديكاليين الوطنيين، الذين كانوا، وقد نفد صبرهم من الكلام عن اللاعنف والمقاومة السلبية، مبهورين بالأحداث الكبرى في روسيا، فبدأ يحضر، ومن ثم يلقي خطباً بعناوين «إلى الأمام»، مثلاً و«الإرهاب: هل الغاية تبرر الوسيلة؟».

«كامونز، يا من لا يتلفظ بكلمة،» قالت بيل ضاحكة، «أي شيوعي أحمر سيء ستكون!؟».

لكن كامونز الجد هو الذي اكتشف كل شيء عن الشيوعيين الزائفين. ففي أواخر 1923، أعلم بيل وأصدقاءه أن نخبة من الممثلين السوفييت كانوا قد أعطوه حقوقاً حصرية للعب دور لينين: ليس فقط في النتاجات

السياحية المعدة خصيصاً، والتي تحكي للناس السوفييت عن ثورتهم المجيدة بل أيضاً لآلاف آلاف الناس الذين كان القائد عاجزاً عن الحضور إليهم بسبب ضيق وقته. مسرحيات لينين حُفظت عن ظهر قلب، ثم ألقيت، كذلك خطب الرجل العظيم، وعندما كانوا يظهرون بصورته، كان الناس يصرخون ويهتفون، ينحنون ويرتعشون، كما لو أنهم في حضرة الرجل الحقيقي ذاته، «والآن» ختم كامونز كلامه بكثير من الإثارة «تطبيقات من ممثلين باللغة الأجنبية مرغوب بها. إن بإمكاننا أن يكون لينيننا الشخصي هنا تماماً، بكامل الأهلية وهو يتكلم المالاوية، أو التولو أو الكندة أو أي شيء يعجبنا».

«إذن هم يعيدون إنتاج الرئيس الكبير في السي .. سي.. سي.. آر. (الاتحاد السوفييتي)» قالت بيل واضعة يدها على بطنها. «لكن يا زوجي، انظر. انظر، انظر من فضلك لقد بدأت مسبقاً إعادة إنتاج صغير لك، أنت نفسك».

إنه الاستمرار المضحك ـ أجل. أنا أجرؤ على استخدام تلك العبارة ـ الاستمرار المضحك والداعي للسخرية لعائلتي ـ ففي المرحلة التي كانت فيها البلاد، بل الحقيقة، الكوكب كله مشغولاً بشؤون طارئة كتلك الشؤون ـ وعندما كانت تجارة العائلة بحاجة لانتباه أشد تركيزاً، بسبب الافتقار بعد موت فرانسيسكو للقيادة، إذ أن ذلك الافتقار نفسه أطلق إنذار الخطر، فقد كان هناك سخط في المزارع، تسيب في مستودعي إرناكولم الاثنين، بل حتى زبائن شركة غاما قديمو ـ العهد بدؤوا يصغون لأصوات منافسيها ـ في ذلك الوقت، وتتويجاً لذلك كله، جاءت زوجته وأعلنت أنها حبلى، إذ كانت تحمل ما تبين أنه ليس جنينهما الوحيد وحسب، بل طفلهما الوحيد، الطفل الوحيد، والأكثر من ذلك، أن أمي أورورا من ذلك الجيل، كانت آخر آل داغاما ـ فجدي أصبح على نحو متزايد مسكوناً بمسألة اللينينات الزائفة هذه. بأية حماسة يا ترى كان يلح

على الناس المحليين أن يكتشفوا رجالاً لديهم المهارة الضرورية في التمثيل والقدرة على الحفظ، والاهتمام بخطته! وبأي أخلاص كان يعمل للحصول على نسخ من آخر البيانات المتعلقة بالقائد اللامع، أن يجد مترجمين، أن يحصل على خدمات فنيي ـ التبرج وخياطي الملابس وأن يكرر على مجموعته الصغيرة المؤلفة من سبعة، والتي كانت بيل، بشراستها المعهودة، قد وصفتهم باللينينات الطوال كثيراً، اللينينات القصار كثيراً، السمان كثيراً، النحاف كثيراً، العرج كثيراً، الصلع كثيراً.. إلخ (وهذا لسوء الحظ كان شخصاً يعتبر فيه نقص كبير...) لقد تراسل كامونز بصورة محمومة مع أناس كان على اتصال بهم في موسكو، مغرياً ومقنعاً، كما أن السلطات الكوشينية المعنية، وكل مسؤوليها من ذوي الجلود السوداء والغامقة، كانت بحاجة للإقناع منه والإغراء. أخيراً، في الفصل الحار من سنة 1924، نال مكافأته، فحين كانت بيل تضع مولودها، وصل إلى كوشين عضو حامل ـ للبطاقة من فرقة لينين الخاصة، لينين درجة أولى، مع صلاحية الموافقة وإعطاء تعليمات أبعد لأعضاء فرع كوشين الجديد للفرقة.

لقد جاء بالسفينة من بومباي وحين نزل على الرصيف شخصياً، كانت هناك شهقات وصرخات طفيفة من جانب الرصيف، وهو ما رد عليه بسلسلة من الانحناءات والتلويحات المفعمة نخوة وشهامة، وقد لاحظ كامونز أنه يتصبب عرقاً تماماً في ذلك الحر، كما كانت سواقٍ صغيرة من صباغ شعره الأسود تسيل على جبهته ورقبته، حيث كانت باستمرار بحاجة لأن تُمسح.

«كيف يمكنني أن أخاطبك؟» سأل كامونز الذي احمر خجلاً، وهو يلتقي بضيفه، الذي كان قد جاء مع مترجم.

«لا رسميات، يا رفيق» قال المترجم. «لا تبجيلات، بل ببساطة فلاديمير إيليتش تكفي».

هناك ، كان حشد من الناس قد تجمع عند رصيف الميناء ليشهد وصول القائد العالمي. حينذاك، وبحركة مسرحية منه، قام كاموانز بالتصفيق بيديه، فجاء من خارج مبنى القادمين، اللينينات السبعة المحليون بلحاهم. وقفوا ناقلين أقدامهم من مكان إلى مكان، مبتسمين ابتسامات عذبة لزميلهم السوفييتي، الذي انفجر، مع ذلك، بسيل من اللغة الروسية كأنه الشلال.

«فلاديمير إليتش يسأل ما معنى هذه الإساءة». قال المترجم لكاموانز، فيما كان الحشد حوله يكبر ويكبر. «هؤلاء الأشخاص سود الجلود وسيماهم ليست سيماه. كما أن منهم الطويل جداً، القصير جداً، البدين جداً، النحيف جداً، الأعرج، الأصلع وذلك الرجل بلا أسنان».

«لقد أعلموني» قال كاموانز بصوت بائس، «أنه مسموح لنا أن نكيف صورة القائد مع الحاجات المحلية».

فجاء المزيد من القصف باللغة الروسية. «فلاديمير إليتش يرى أن هذا ليس تكييفاً بل هو شيء يدعو للسخرية». قال المترجم. «إنها إساءة وإهانة. انظر. لحيتان على الأقل غير مثبتتين بشكل صحيح رغم حضور البروليتاريا التحذيري. التقرير سوف يرفع إلى أعلى مستوى. وليس لديك الصلاحية لأن تستمر تحت أي ظرف».

فاربد وجه كاموانز، لكن حين رأوه على وشك البكاء، وأحلامه صارت حطاماً اندفع ممثلوه ـ كادره ـ إلى الأمام، راغبين في أن يبينوا الاهتمام الذي تعلموا به أدوارهم، ثم بدؤوا يتخذون مواقف ويلقون كلمات. بالملامية، الكندية، التولو، الكونكاني، التاميل، التيلوغو والإنكليزية، راحوا يهتفون للثورة، كما طالبوا بالرحيل الفوري لكلاب الاستعمار الانتقاميين، صراصير الإمبريالية مصاصة الدماء، ليتبع ذلك الدعوة لتأميم الممتلكات الخاصة والفائض السنوي من حصص الأرز، فيما كانت سباباتهم اليمنى تطعن باتجاه المستقبل، وقبضاتهم اليسرى، تستقر بكل مهابة على أوراكهم. لقد

كان اللينينات المبعبعون، بلحاهم التي ارتخت من أماكنها في الحر، يخاطبون الحشد الذي صار ضخماً حينذاك، شيئاً فشيئاً في البداية، ثم بنوع من موج المد المتضخم، وهو يقهقه ويقهقه.

صار لون فلاديمير إليتش أرجوانياً، وصدرت عنه كلمات لينينية علقت فوق رأسه في الهواء على شكل دوائر من كتابات سلافية. بعدئذ، انفتل على عقبيه، وأسرع يصعد جسر السفينة ثم يختفي داخلها.

«ماذا قال؟» سأل كامونز المترجم الروسي، دون أن يجد ما يواسيه، «هذه البلاد، بلادكم،» أجاب المترجم، «يقول لكم فلاديمير إليتش بصراحة إنها لا تقدم له إلا الخراء».

امرأة صغيرة شقت طريقها عبر الناس المبتهجين المنتصرين، ومن خلال ستارة تعاسته الرطبة، ميز الجد كامونز وصيفة زوجته، ماريا. «الأفضل أن تأتي يا سيدي» صرخت من فوق فرح الناس وبهجتهم «زوجتك الطيبة أنجبت لك بنتاً».

* * *

بعد الإذلال الذي تعرض له على رصيف الميناء، ابتعد كامونز عن الشيوعية وبات مولعاً بالقول إنه تعلم أن الطريق الصعب ليس «هو بالأسلوب الهندي». وهكذا أصبح من رجال حزب المؤتمر، رجل نهرو، كما راح يتابع من بعيد كل الأحداث الكبرى للسنوات التالية، من بعيد. إذ رغم أنه كان يقضي الساعات كل يوم مستغرقاً في الموضوع، إلى حد أنه يلغي كل الأشياء الأخرى، يقرأ ويكتب ويتكلم كثيراً عن الموضوع، إلا أنه لم يقم مرة ثانية بدور فعال في أية حركة ولم ينشر كلمة واحدة مما كان يخربشه على الورق...

دعنا نتأمل لحظة من الزمن حالة جدي من جهة الأم. كم كان سهلاً أن يطرد مثل فراشة!! بوزن الريشة، محب للفنون! مليونير يغازل الماركسية، روح جبانة يمكنها فقط أن تكون جمرة ثورية بصحبة بضعة

أصدقاء، أو داخل مكتبه الخاص، أو في كتابة أبحاث سرية ـ ربما لا يمكنه أن يطبعها خشية أن يصبح عرضة للسخرية تلك التي أنهت فرانسيسكو ـ وطني، كل شعرائه المفضلين إنكليز، محترف للإلحاد والعلمانية يمكن أن يجعل نفسه يؤمن بالأشباح، ومن يمكنه أن يسرد من الذاكرة، وبأعمق المشاعر كامل قصيدة مارفيل «على قطرة ندى»:

هكذا الروح، تلك القطرة، ذلك الشعاع
من أشعة الينبوع النظيف لليوم الأبدي
يمكن أن يُرى داخل الزهرة البشرية
يتذكر بسكون قامته السابقة
يتجنب الأوراق العذبة وأزهار الخضرة
ويستعيد ذكرى ضوئه
يعبر بأفكاره النقية والدوارة
عن الجنة العظمى في جنة أدنى

لقد طردته إيبفانيا، وهي أقسى الأمهات وأقلهن صفحاً، باعتباره ولداً أحمق مضطرباً، لكن لتأثري به نتيجة نظراته الأجمل التي وصلت إلي عبر بيل وأورورا، فإنني أقدره تقديراً مختلفاً. بالنسبة إلي، الازدواجية لدى الجد كامونز تكشف جماله، ورغبته في أن يسمح بأن تتعايش داخله دوافع متصارعة، هي مصدر إنسانيته النبيلة التامة. فإذا أشرت إلى أن هناك تناقضاً بين أفكار المساواة، مثلاً، والواقع الأولمبي لوضعه الاجتماعي. فإنه سيجيب بما لا يزيد عن ابتسامة اعتراف وهزة كتف للاسترضاء. «الجميع يجب أن يعيشوا جيداً، أليس كذلك؟» لقد كان مولعاً بالقول «جزيرة كبرال للكل، ذلك شعاري» وبسبب حبه الشديد للإنكليزية كان قد عقد صداقات مع عائلات إنكليزية كوشينية، كذلك كان تصميمه الشديد على أن الاستعمار البريطاني يجب أن ينتهي، يسير

جنباً إلى جنب مع حكم الأمراء. «أرى أن نكره الإثم ونحب الآثم». ذلك أمر عذب، فيه ذلك الكرم التاريخي للروح، وهو إحدى العجائب الحقيقية للهند. فحين غربت شمس الإمبراطورية لم نعمل على ذبح سادتنا السابقين، موفرين ذلك الامتياز لبعضنا بعضاً... لكن الفكرة كانت أقسى من أن تخطر ببال كامونز الذي كان يحيره الشر، داعياً إياه «بغير الإنساني» وقد اعتبرها فكرة حمقاء، حتى عندما أشارت حبيبته بيل إليها، ولحسن حظه ـ أو سوء حظه، أنه لم يعش إلى أن يرى مجازر التقسيم في البنجاب. (والمؤسف أنه أيضاً مات قبل الانتخابات بفترة طويلة، تلك التي حدثت بعد الاستقلال، في دولة كيرالا الجديدة التي تشكلت من كوشين ـ ترافنكور ـ كويلون القديمة تلك الانتخابات التي جاءت بالحكومة الماركسية الأولى في شبه القارة، وتصفية آماله المحطمة كلها).

لقد عاش ليرى ما يكفيه من المشاكل، إذ كانت العائلة قد غاصت من قبل في صراع كارثي، وهو ما دعي حينذاك «بمعركة الكنات»، التي كانت ستمسح الكثير من البيوت الأصغر، والتي احتاجت العائلة عقداً من الزمن لكي تستعيد عافيتها المالية.

النساء الآن يتحركن إلى مركز مسرحي الصغير، فإبيفانيا، كارمن، بيل، وأورورا التي وصلت حديثاً ـ هن، وليس الرجال، كن البطلات الحقيقيات للصراع، ولا بد أن الجدة الكبرى إبيفانيا هي التي كانت رأس صانعات المشاكل.

لقد أعلنت الحرب يوم سمعت وصية فرانسيسكو، مستدعية كارمن إلى مخدعها من أجل التشاور. «أولادي أولاد لهو لا جدوى منهم»، أعلنت مع حركة تهوية من مروحتها. «من الآن فصاعداً، الأفضل أن نمسك نحن السيدات بزمام الأمور». على أن تكون هي رئيسة الأركان، وكارمن، ابنة أختها وكذلك كنتها، ملازمها المساعد، جنرالاً قائداً أو

تابعاً لها. «واجبك ليس فقط تجاه هذا البيت بل تجاه عائلة منيزيز أيضاً. ولا تنسي أبداً أنني أنا التي أنقذتك، أنت التي كنت مرمية على الرف لتتعفني هناك حتى يوم القيامة».

أمر إيبفانيا الأول كان عبارة عن أقدم رغبة لدى السلالات: أي أن على كارمن أن تحبل وتنجب ولداً، ملكاً منتظراً، يمكن من خلاله أن تسيطر الأم المحبة والجدة، أما كارمن، وقد أدركت في حيرتها الشديدة أن هذا الأمر الأول بالذات لا يمكنها تلبيته، خفضت عينيها ثم غمغمت «حسن ـ خالة إيبفانيا. رغبتك أمر». ثم فرت من الغرفة.

(عندما ولدت أورورا، قال الأطباء، إنه بسبب حدث من أحداث سوء الحظ، لن تستطيع بيل بعد ذلك أن تحبل. تلك الليلة، أصدرت إيبفانيا مرسوم الشغب لكارمن إيرس. انظرا تلك البيل، ماذا ولدت لنا!! فقط ابنة ولا أطفال زيادة، وذلك لحسن حظكما أنتما. شدا العزم. ائتيا لنا بصبي، أو ربما كان لها كل شيء. كل شيء).

* * *

في عيد الميلاد العاشر لأورورا، جاءت سفينة إلى ميناء جزيرة كبرال، وعلى متنها شخص من الشمال، نموذج تحت البرهان، مع كومة كبيرة من الألواح الخشبية التي جمعها على شكل عجلة عملاقة مبسطة. ثبت المقاعد الخشبية على كل طرف من ذراعي X خشبي. ومن علبة مخملية خضراء أخرج أكورديونه ثم بدأ مزيجاً جميلاً من الألحان ذات الأرضية الرائعة. وعندما حصلت أورورا وصديقاتها على كفايتهن من اللف والدوران تحت السماء، على ما دعاه عازف الأكورديون أنغام «تشاراخ ـ تشو»، لبس قبعة قرمزية وأخرج الأسماك من أفواه الفتيات الصغيرات كما سحب أفاعي حية من تحت تنانيرهن، ولشدة رعب إيبفانيا والكثير من الاستهجان من كارمن وإيرس اللذين كانا بلا أولاد، وروعة الاستمتاع والقهقهات من بيل وكامونز، وبعد أن رأت أورورا

الشخص الشمالي، فهمت أن ما تحتاجه أمس الحاجة في حياتها هو شخص ساحر، شخص يجعل رغباتها كلها تتحقق، شخص يستطيع أن يسحر جدتها، يبعدها للأبد، ويجعل أفاعي الكوبرا تعض العم إيرس والعمة كارمن حتى الموت لكي يتمكن كاموتز من أن يعيش بعد ذلك بكل سعادة.

ذلك حدث وقت تقسيم البيت الذي رسمت خطوطه بالطباشير على الأرض، وكأنها خطوط جبهة، كما كُدِّست أكياس التوابل في الساحات لتشكل جدراناً صغيرة، وكأنها خطوط دفاعية ضد خطر الفيضانات، أو نيران القناصين.

لقد بدأ ذلك كله عندما دعت إيبفانيا، مستفيدة من عدم انتباه ولديها كمبرر، أقرباءها إلى كوشين، مختارة لحظة انقلابها اختيار الخبيرة إذ كان ذلك وقت انحراف إيرس بعد وفاة فرانسيسكو، وتصيد كاموتز للينيناته وحبل بيل، لذلك كانت هناك بضع احتجاجات فقط. والحقيقة أن أشد الاحتجاجات جاءت من كارمن التي لم تعمل بلطف نبيل من «جانب الأم»، كما وجدت أن كثيراً من العوائق تظهر أمام أفراد عائلتها «اللوبو»، لوجود الكثير من المنيزيز. وعندما أبدت مشاعرها لإيبفانيا، بعد كثير من التوقف واللف والدوران، أجابت تلك السيدة بشيء من الخشونة المحسوبة. «يا سيدة، آمالك المستقبلية كلها هنا تماماً بين ساقيك، لذلك، رجاء ركزي على جعل زوجك يهتم واخرجا من حالتكما القديمة هذه».

كالنحل ـ الساعي ـ للعسل جاء رجال منيزيز من منغالور بواسطة سفينة شحن، ثم لم تتأخر نساؤهم وأطفالهم بعد ذلك كثيراً، إذ تدفق المزيد من آل منيزيز من الحافلة التي جاءت بهم، مع ذلك كان هناك المزيد من أفراد العشيرة الذين يعتقد أنهم سيأتون بالقطار، لكنهم تأخروا بسبب سوء خدمات السكك الحديدية، وفي الوقت الذي استعادت فيه بيل عافيتها بعد ولادة أورورا، وكاموتز من الخيبة التي أصابته بسبب لينيناته، كان أناس

إيبفانيا في كل مكان، وكانوا يحومون حول شركة غاما التجارية، كما تحوم حشرات ـ الفلفل حول جوز الهند، متنمرين على مشرفي ـ المزارع، حاشرين أنوفهم في الحسابات، متدخلين في كل مجريات المستودعات. لقد كان غزواً بكل ما في الكلمة من معنى، لكن ليس من السهل أن يكون الغزاة محبوبين، وحالما باتت إيبفانيا متأكدة من قوتها، بدأت بارتكاب الأخطاء. خطؤها الأول كان أنها صارت شديدة المكيافيلية إذ على الرغم من أن إيرس كان ابنها المفضل، لم تستطع أن تنكر أن كامونز هو الذي لديه الوريث الوحيد، لذلك لا يمكن تجاهله كلياً في حساباتها. كما بدأت تتقرب بشكل سمج من بيل، التي لم تتجاوب معها، بسبب غضبها المتزايد من سلوك آل منيزيز الذين لا عد لهم ولا حصر. مع ذلك، كانت إيبفانيا تبذل جهوداً واضحة لإغراء كارمينها المبعدة بأن تفعل ما طلبت منها. بعدئذ ارتكبت إيبفانيا خطأً أكبر حتى: إذ بسبب حساسيتها المتفاقمة تجاه التوابل التي كانت السبب الأساسي في ثروة العائلة ـ أجل، حتى تجاه الفلفل، الفلفل أكثر من الكل ـ أعلنت ذات يوم أن شركة غاما التجارية ستطور في المستقبل تجارة العطور «بحيث أنه خلال وقت قصير، يمكن للعطور الجيدة أن تحل محل هذه الروائح التي يتحسس منها أنفي».

فقدت كارمن صبرها. «آل منيزيز دائماً كالسمك الصغير»، راحت تزن في أذن إيرس. «هل ستترك أمك تحول التجارة الكبيرة إلى عطور في زجاجات؟» لكن في تلك الأيام، كان إيرس داغاما مهتماً كل الاهتمام بالخدر إلى حد أن كل مداعبات كارمن وزنّها لم يصرفه عنه. «إذن، أنت لن تأخذ مكانك الصحيح في هذا البيت،» صرخت في وجهه «على الأقل إذن اعمل معروفاً واسمح لآل لوبو أن يأتوا علهم يساعدوننا بدلاً من هؤلاء المنيزيز الذين يزحفون كالنمل الأبيض في كل مكان ويلتهمون مالنا». في الحال وافق العم الكبير إيرس. لكن بيل التي كانت مضطربة أيضاً، لاقت نجاحاً أقل ولم يكن لها أقارب، فكامونز لم يكن محارباً

بفطرته، كما احتج بأنه طالما لا يميل لشغل التجارة، فإنه لن يقف في وجه أمه. لكن حينذاك كان اللوبو قد وصلوا.

ما بدأ بالعطور انتهى بعفن كبير جداً بالحقيقة... إذ أن هناك دائماً شيئاً فينا ينفجر من حين إلى حين، شيئاً يعيش فينا، يأكل طعامنا، يتنفس هواءنا، ينظر بعيوننا، وعندما يظهر ليلعب، لا يكون أحد منا منيعاً، وكالممسوسين، ننقلب ضد بعضنا بعضاً بشكل قاتل. ظلام ـ ذلك الشيء في عيوننا وأسلحة حقيقية في أيدينا، والجار ضد الجار الذي يركبه ذلك الشيء، وابن العم ضد ابن العم، مدفوعاً بذلك الشيء، وشيء ـ الأخ ضد شيء ـ الأخ، وطفل ـ الشيء ضد طفل ـ الشيء. وهكذا اتجه آل لوبوز الكارمنيون مباشرة إلى أراضي داغاما، حقول التوابل، والأشياء بدأت تتحرك.

طريق سيارة ـ الجيب إلى جبل التوابل يمر بحقول الأرز، أشجار موز الجنة ـ الحمراء، وعلى جوانب الطريق مفارش من الفليفلة الخضراء والحمراء التي قطفت لتجف تحت الشمس، كما يعبر الكاجو وبساتين جوز ـ الأريقة (شجرة من الفصيلة النخلية) ذلك أن (كويلون هي بلدة الكاجو، تماماً مثلما كوتايام مدينة المطاط)، ليصعد فوق إلى ممالك الهال والكمون، إلى ظلال نباتات القهوة الفتية وقد أزهرت، إلى مصاطب الشاي التي تبدو أشبه بسطوح خضراء، هائلة مرصوفة بالآجر، فإلى إمبراطورية فلفل ملابار الأعلى من كل شيء. في الصباح الباكر، تغرد البلابل، فيما تمر بك الفيلة العاملة على مهل وهي تمضغ بكل لطف نباتها. كما تحوم عقبان في السماء. كذلك يأتي راكبو الدراجات، أربعة أربعة يأتون، ذراع كل منهم على كتف الآخر، متحدين الشاحنات الهادرة كالرعد. انظروا: أحد الدراجين وضع قدمه على مؤخرة سرج صديقه. أنشودة رعوية: كلا؟ لكن بعد أيام من مجيء آل لوبو، سرت إشاعات مزعجة في الجبال، بأن آل لوبو وآل منيزيز يتصارعون من أجل السيطرة. كما كانت هناك قصص عن مجادلات وصدامات.

أما بيت جزيرة كبرال، فقد كان ممتلئاً حتى الحافة، إذ تقع على جماعة من اللوبو يفترشون الدرج، فيما المنيزيز يملؤون المراحيض. ثم بغضب شديد يرفض اللوبو أن يتحركوا حين يحاول المنيزيز أن يصعدوا أو ينزلوا درجهم، وعلى غرار ذلك كان احتكار المنيزيز للمرافق الصحية، مما كان يضطر آل كَارمن لأن يقضوا حاجاتهم الطبيعية في الهواء الطلق، وعلى مرأى تام من سكان جزيرة «فيبين» القريبة، بما فيها من قرية صيادي أسماك وقلعتها البرتغالية الخربة. (أو و.. آ.. آ... آ.. كان صيادو الأسماك يغنون وهم يجذفون عابرين بجزيرة كبرال، فيما كانت نساء اللوبو تحمر خجلاً كل الاحمرار وتتنافس بحثاً عن ملجأ يقيهن من الاحمرار خجلاً). كذلك عمال المعمل غير البعيد كِثيراً في جزيرة غوندو، والأمراء الصغار المنحلون في زوارقهم، وهم يعبرون بصخبهم ومرحهم. كما كان هناك الكثير من الدفع والجذب بين الأرتال التي تتشكل وقت الوجبات، بينما تخرج كلمات بذيئة في الساحات تحت سمع وبصر التماثيل الخشبية المنقوشة.

شجارات بدأت تندلع، فبيتا كوربوزيير الغريبان كانا قد فتحا ليحلا مشكلة الازدحام، لكنهما أثبتا أنهما غير مرغوب بهما من قبل الأنسباء كما حدث صفع بالأكف بسبب مسألة صارت مزعجة، وهي أن أفراد العائلة هم بالبديهة ذوو المكانة العليا وهم الأجدر بأن يناموا في البيت الرئيسي. هكذا بدأ نساء اللوبو يسحبن أذيال المنيزيز، وصغار المنيزيز يمسكون ثم يمزقون دمى صغار اللوبو. كما بدأ خدم بيت داغاما يتذمرون من الموقف المتعالي للأنسباء ومن اللغة الرديئة والإساءات الأخرى التي تلحق بكبريائهم.

شيئاً فشيئاً كانت الأمور تتجه نحو الذروة، ثم، ذات ليلة اصطدمت عصابتان متنافستان من مراهقي آل لوبو ومنيزيز اصطداماً عنيفاً في حدائق جزيرة كبرال، نتج عنه أيد تكسرت ورؤوس فجت، وجروح بالسكاكين، اثنان منها خطيران، كما مزقت العصابتان الجدران الورقية في بيت

كوربيزيير الشرقي الذي بني على الطراز الياباني، ودمرت البنية الخشبية إلى حد أنه توجب هدمه حالاً بعد ذلك. كذلك اقتحمت العصابتان البيت الغريب الغربي، حطمتا كثيراً من أساسه، وأتلفتا الكثير من كتبه. في ليلة عنف العصابات، تلك، قامت بيل بإيقاظ كامونز من نومه، ثم قالت: «لقد آن الأوان لأن تولي الأمر انتباهك أو أننا سنضيع كلنا». في تلك اللحظة، اصطدم صرصار طائر بوجهها، فصرخت صرخة جعلت كامونز يفيق تماماً، يقفز من الفراش، يقتل الصرصار بجريدة ملفوفة، وعندما ذهب لإغلاق النافذة، شم رائحة آتية من النسائم أخبرته بأن المشكلة الحقيقية كانت قد بدأت من قبل: رائحة التوابل المحترقة التي لا يخطئها الشم، كمون، كزبرة، كركم، فلفل أحمر، فلفل أسود، بهارات حمراء، بهارات خضراء، ثوم صغير، زنجبيل صغير، وبعض قضبان القرفة. فبدا الأمر وكأن عملاقاً جبلياً ما كان يعد، بمقلاة هائلة الحجم، أكبر وأحر طبق من الكاري طبخ في يوم من الأيام.

«لا، لا يمكننا العيش كلنا على هذا النحو أكثر من ذلك». قال كامونز. «بيل، نحن نحرق بيتنا».

أجل، كانت الروائح الشديدة تتدحرج نازلة من جبل التوابل إلى البحر. «نسائب داغاما يحرقون حقول التوابل،» في تلك الليلة، عندما رأت بيل كارمن، ابنة اللوبو، تقف للمرة الأولى في وجه حماتها، إبيفانيا ابنة المنيزيز، وهما في قميصي نومهما، شعرهما منحل، مثل الساحرات، تكيلان الاتهامات وتلوم واحدتهما الأخرى بسبب الكارثة التي حلت بالمزارع المحترقة، حينذاك، وبكثير من التروي، حملت أوروزا إلى سريرها، ملأت طشتاً بالماء البارد ثم حملته إلى الساحة تحت ضوء القمر، حيث كانت إبيفانيا وكارمن على وشك أن تتضاربا بالأيدي، هناك سددت جيداً ثم سكبت الماء عليهما كلتيهما. «بما أنكما بدأتما هذه الحرائق الشريرة بتخطيطكما»، قالت لهما، «إذن بكما يجب أن نبدأ عملية الإطفاء».

بعد ذلك، تعمقت الفضيحة وازداد خزي العائلة. فاللهب الشرير جر وراءه أكثر من رجال ـ الإطفاء. إذ جاءت الشرطة إلى جزيرة كبرال، ثم بعد الشرطة جاء الجند، ومن ثم سيق كامونز وإيرس، مكبلين بالقيود وتحت الحراسة المسلحة، ليس مباشرة إلى السجن، بل إلى قصر بولفاتي الجميل في الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه، حيث أجبرا على الركوع في غرفة باردة عالية على الأرض تحت تهديد السلاح، بينما كان رجل إنكليزي أصلع بلباسه الخاكي ونظاراته السميكة كالحصى وشاربيه الأشبه بشاربي فقمة، يحدق من النافذة إلى مرفأ كوشين، وقد شبك يديه خلف ظهره ثم راح يتكلم وكأنما يكلم نفسه.

«لا أحد، ولا حتى الحكومة العليا تعرف كل شيء عن إدارة الإمبراطورية. سنة بعد سنة ترسل إنكلترا جنداً جدداً لخط القتال الأول الذي يدعى رسمياً المصلحة المدنية الهندية. وهؤلاء يموتون، يقتلون أنفسهم لفرط العمل، ينزعجون حتى الموت أو تتحطم صحتهم، وأملهم في أن تحمى البلاد من الموت والمرض، المجاعة والحرب، أن تصبح أخيراً قادرة على الوقوف على رجليها. لكنها أبداً لن تقف على رجليها، مع ذلك الفكرة جميلة والناس يرغبون في الموت من أجلها، وكل سنة تمضي قدماً أعمال الدفع، الإغراء، التقريع ووضع البلاد في حالة معيشة جيدة. لكن إذا ما حدث تقدم، يعطى الشرف والتقدير كله لأبناء البلد، بينما يقف الإنكليز في الخلف، يمسحون جبهاتهم. وإذا حدث فشل، يقف الإنكليز في الأمام ليقع عليهم كل اللوم. رقة من هذا النوع ولّدت الاعتقاد بين الكثيرين من أبناء البلد بأن ابن البلد قادر على إدارة البلاد والكثير من الإنكليز المخلصين يعتقدون ذلك أيضاً. لأنهم يذكرون النظرية بالإنكليزية الجميلة ملونة بأحدث الألوان السياسية كلها».

«يا سيدي، لا يراودك شك في امتناني الشخصي». بدأ إيرس، لكن جندياً سباهياً، من عامة الملابلية، لطمه على وجهه، فلاذ بالصمت.

«لسوف ندير البلاد، مهما تقل الآن»، صرخ كامونز بنوع من التحدي. فتعرض هو أيضاً للطم: مثنى وثلاث ورباع، إلى أن سال الدم من فمه.

«وهناك أناس آخرون يأملون بإدارة البلاد بطريقتهم الخاصة،» قال الرجل عند النافذة، وكأنه ما يزال يخاطب المرفأ. «كأن تقول بتوابل الحساء الأحمر. مثل هؤلاء الناس لا بد أنهم موجودون ضمن الملايين الثلاثمائة من الناس هنا، وإن لم ينتبه إليهم أحد، فإنهم سيسببون المشاكل بل سيحطمون المثال العظيم الذي يدعى سلام بريطانيا، الذي، كما تقول الصحف، يقيم بين بيشاور ورأس كومورينها».

حينذاك التفت الرجل إليهما، وبالطبع كانا يعرفانه جيداً: إنه رجل معروف جيداً سبق لكامونز أن استمتع معه في النقاش حول وجهات نظر ووردزوورث فيما يتعلق بالثورة الفرنسية. كذلك قصيدة كوبلاخان لكولريدج، وقصص كيبلينغ الأولى المصابة بانفصام الشخصية تقريباً، تلك التي تدور حول النزعة الهندية والنزعة الإنكليزية اللتين تتصارعان داخله. رجل كان إيرس قد رقص مع بناته في نادي ملابار، في جزيرة ولينغدون، كما كانت إيبفانيا قد دعته إلى مائدتها، لكن وجهه في تلك اللحظة، كان يكتسي بنظرة غريبة شاردة بعيدة، فقد قال:

«هذا المقيم، هذا الإنكليزي، على الأقل، غير مستعد في هذه المناسبة لأن يتلقى اللوم. عشيرتكم هي التي ارتكبت جريمة الشغب، القتل والعراك الدامي، لذلك، برأيي، ورغم أنكما ليس لكما دور مباشر في ذلك، فإنكما مسؤولان. ولسوف نتأكد من أنكما ستعانيان، عقاباً لكما على ذلك، إذ ستقضيان بعيداً عن عائلتيكما سنوات عديدة تالية».

* * *

في حزيران 1925، حكم على الأخوين داغاما بالحبس خمس عشرة سنة، وقد أدت القسوة غير العادية للحكم إلى نوع من التخمين بأن العائلة تدفع ثمن تورط فرانسيسكو في حركة الحكم الوطني، أو حتى جهود كامونز الأوبرالية ـ المسرحية في استيراد الثورة السوفييتية، لكن بالنسبة لمعظم الناس، تخمينات كهذه، اعتبرت زائفة وحتى مسيئة، بسبب الاكتشافات الفظيعة في أراضي شركة غاما التجارية في جبال التوابل. والأدلة القاطعة بأن عصابات آل منيزيز ولوبو كانت قد أضاعت عقولها تماماً. ففي بستان كاجو محروق، وجدت جثث المراقب (اللوبي) وزوجته وبناته، وقد ربطت إلى أشجار بأسلاك شائكة: محروقة كأجسام الهراطقة، وفي البقايا المحترقة لأيكة هال خصبة، وجدت أيضاً جثث متفحمة لثلاثة أخوة من المنيزيز وقد ربطت أيضاً بأشجار أكلتها النيران. أذرعهم ممتدة على طولها وفي وسط كل راحة من راحاتهم الست دق مسمار حديدي.

إنني أذكر هذه الأشياء بصراحة لأنها تجعلني أرتجف خزياً وعاراً. فعائلتي كانت تحجبها غيوم كثيرة. ترى أي نوع من العائلات هذه؟ أهي مادية؟ هل هذا ما نحن عليه جميعاً؟

أجل. نحن هكذا، ليس دائماً، بل أحياناً، وهذا أيضاً ما نشبه!!

خمس عشرة سنة: إيبفانيا أغمي عليها في قاعة الاستقبال وكارمن بكت، لكن عيني بيل لم تذرفا دمعة واحدة، بل كانت متصلبة الوجه، وأورورا في حجرها، مثلها أيضاً صامتة، متجهمة. كثير من رجال ونساء منيزيز ولوبو زجوا في السجن أو أدينوا، أما البقية الناجون فقد ذابوا، فص ملح تماماً، عائدين إلى منغالور، ملطخين بالعار. حين ذهبوا، عادت جزيرة كبرال هادئة تماماً، لكن الجدران، الأثاث، البسط، كانت كلها مشحونة بالكهرباء التي ولدها أولئك الذين غادروا حديثاً. كما كانت أجزاء من البيت مشحونة بشحنة عالية إلى حد أن

مجرد دخولك إليها كان يجعل شعرك يقف منتصباً. لقد كان البيت القديم يطلق ذكرى الغوغاء، على مهل، على مهل، وكأنه شبه متوقع أن تعود الأيام السيئة. لكنه في النهاية استرخى، وبدأ السلام والسكينة يفكران بالعودة إليه.

لكن، كان لدى بيل أفكارها الخاصة: كيف يجب استعادة الحالة الحضارية، ولم تضع وقتاً من أجل ذلك. إذ بعد عشرة أيام من حبس إيرس وكامونز، كأنما حدث ذلك بعد تفكير طويل، أمرت السلطات بالقبض على إيبفانيا وكارمن أيضاً، لكن بعد أسبوع، كأنما ذلك بصورة نزواتية، جاء الأمر بإطلاق سراحهما ثانية. خلال تلك الأيام السبعة، وبتفويض مكتوب من كامونز ـ إذ سمح له باعتباره سجيناً من الدرجة آ، أن يتلقى وجباته يومياً من البيت، كذلك مواد للكتابة، كتب، صحف، صابون، مناشف، ملابس جديدة، كما سمح له بأن يرسل إلى البيت ملابس الغسيل والرسائل ـ ذهبت بيل لرؤية محامي شركة غاما التجارية، الأمناء المعنيين من قبل فرانسيسكو نفسه، ثم أقنعتهم بضرورة تقسيم التجارة إلى تجارتين. «شروط الوصية متوفرة تماماً»، قالت بيل، «الخلاف وعدم الانسجام موجودان في كل مكان نتيجة تعيينات إيرس، سواء كان ذلك مباشراً أو غير مباشر لا يهم، وظروف الشغل تملي بكل بساطة أن من المستحيل بقاء الشركة متحدة متكاملة. وإذا كان لا بد للشركة من أن تبقى خلية واحدة، إذن الخزي والعار الناتج عن تلك الفظاعات سينهيانها. فلنقسمها، ربما يمكن التغلب على المرض في أحد نصفيها. أما إن كنا لا نستطيع العيش منفصلين، إذن سنموت كلانا معاً».

مع انشغال المحامين بالاقتراح الخاص بتقسيم أعمال العائلة التجارية، عادت بيل إلى جزيرة كبرال ثم قسمت البيت العتيق الكبير نفسه، من أعماقه السفلى إلى ذروته العليا: أطقم القماش العائلية

القديمة، السكاكين، أدوات الطعام كلها انقسمت بالتساوي، حتى آخر ملعقة شاي، حتى أكياس المخدات وأطباق ـ الطعام. كما بدأت، وأورورا ابنة السنة الواحدة في حجرها، بتوجيه خدم البيت لتقسيم المواد الغذائية، الأرائك، كراسي الخيزران ذات الأذرع الطويلة، أعمدة الخيزران الخاصة بناموسيات ـ البعوض، الأسرة الصيفية المفردة الخاصة بأولئك الذين يفضلون النوم في الهواء الطلق خلال الموسم الحار، منفضات البصاق، العلب، المراجيح، كؤوس النبيذ، كلها قسمت، بل حتى السحالي على الجدران تم الإمساك بها وتوزيعها بالتساوي بين كلا الطرفين المنقسمين. ثم، بعد دراسة مخططات الأرضية القديمة للبيت، والانتباه تماماً لتوزيع الشرفات والنوافذ بدقة، قسمت بيل المنزل بكل محتوياته، ساحاته، حدائقه، النصف بالنصف تماماً. فصار لديها أكياس ملأى بالتوابل مكدسة بعضها فوق بعض لتشكل نوعاً من الحدود القائمة، وحيث لم تكن هناك حدود وحواجز مناسبة ـ مثال على ذلك الدرج الرئيسي ـ فقد رسمت خطاً أبيضاً في المنتصف وطلبت احترام تلك العلامات. في المطبخ قسمت الطناجر والأواني ووضعت مخطط ساعات على الجدار يغطي الأسبوع كله، يوماً يوماً. كما تم تقسيم الخدم أيضاً، ورغم أنهم، بمعظمهم، رجوها أن تسمح لهم بالبقاء في حصتها، إلا أنها أصرت على العدالة. خادمة هنا، خادمة هناك، غلام مطبخ في هذا الجانب، غلام آخر في الجانب الآخر من خط وقف إطلاق النار. «أما بالنسبة للكنيسة الصغيرة،» قالت لإبيفانيا وكارمن المندهشتين، عندما عادت لإكمال العالم المنقسم حديثاً «إضافة إلى الأنياب العاجية والآلهة غانيشا، فهي لكم على الرحب والسعة، ففي جانبنا، ليس هناك من خطط لجمع فيلة أو إقامة صلوات».

* * *

لم يكن لدى إيبفانيا ولا كارمن القوة، بعد الأحداث الأخيرة للوقوف في وجه بيل الساخطة وإرادتها المنطلقة من عقالها. «كلتاكما أشعلت نار الجحيم في رأس هذه العائلة». قالت لهما، «الآن، لا أريد أن أرى «بوزيكما» البشعين مرة ثانية. ابقيا في حصتكما الخمسين بالمئة تلك. أشرفا عليها أو اتركاها تخرب أو بيعاها، لا يهمني ذلك. أنا سأهتم بحصتي، حصة كامونز، وأسعى لأن أجعلها تزدهر».

«أنت التي لم تأت من مكان». قالت إيبفانيا، وهي تعطس عبر جدار من أكياس الهال «لن يكون مصيرك إلى أي مكان». لكن ذلك لم يبد مقنعاً، ثم لا هي ولا كارمن ناقشت، عندما قالت لهما بيل أن الحقول المدمرة من حصتهما الخمسين بالمئة، وأن إيرس أرسل رسالة المهزوم من السجن «قطعوه، فجروه! اشطروا الشغل اللعين كله، لم لا؟».

وهكذا حدث أن بيل داغاما في سن الحادية والعشرين تولت أعمال زوجها السجين، ورغم أنه كان هناك الكثير من الإزعاجات في السنوات التالية. إلا أنها تدبرتها بشكل جيد. إذ بعد اعتقال إيرس وكامونز، وضعت أراضي شركة غاما ومستودعاتها تحت إشراف الحكومة: وبينما كان المحامون يقومون بإجراءات التقسيم، كان الجنود السباهيون المسلحون بالحقيقة يقومون بدورياتهم على جبال التوابل، وكان ضباط الشرطة يجلسون في مقاعد إدارة الشركة. ثم استغرقت بيل شهوراً من الزمن، تخطب فيها وتتملق، ترشو وتغازل إلى أن استرجعت الشركة. في هذا الوقت، نقل الكثير من الزبائن، وقد صدمتهم الفضيحة، أعمالهم إلى أماكن أخرى أو حين سمعوا بأن «فتاة خرائية» هي الآن القيّمة والمسؤولة، طالبوا بشروط جديدة للعمل ألقت بأعباء أخرى على كاهل مالية الشركة المتعثرة. ولقد قدمت عروض كثيرة لشراء حصتها بما يعادل في أفضل الأحوال عِشر القيمة الحقيقية للشركة.

لكنها لم تبع. بل بدأت تلبس بناطيل الرجال، القمصان القطنية البيضاء وسترة كامونز ذات لون الزبدة، كما صارت تذهب إلى كل حقل، كل بستان، كل مزرعة تحت سيطرتها، وتعود فائزة بثقة المستخدمين المذعورين، الذين كان الكثيرون منهم مهددين بالموت جوعاً. هناك وجدت مدراء يمكنها أن تثق بهم، يداً عاملة يمكن متابعتها باحترام لكن دون خوف. كذلك سحرت المصارف لكي تقترض منها أموالاً، أجبرت الزبائن الذين تركوا الشركة على العودة، فباتت بذلك سيدة ذات طابع جديد. ولإنقاذ حصتها، الخمسين بالمئة من شركة غاما التجارية، اكتسبت لقباً كله احترام: فمن صالونات قلعة كوشين إلى رصيف الميناء في إرناكولم، ومن مقر الإدارة البريطانية في قصر بولغاتي القديم إلى جبال التوابل، كان هناك فقط ملكة كوشين، إيزابيلا واحدة.

هي لم تحب اللقب، رغم أن ما يحمله من إعجاب كان يثير فيها الحمية والفخار. «ادعوني بيل» كانت تصر. «بيل ببساطة اسم يناسبني،» لكنها لم تكن بسيطة قط وأكثر جدارة من أية أميرة محلية، لذلك اكتسبت لقبها الملكي.

بعد ثلاث سنوات، استسلم إيرس وكارمن، فحصتهما الخمسون بالمئة وصلت إلى حافة الانهيار، فيما كان باستطاعة بيل أن تشتريها بأبخس الأثمان، لكن نظراً لأن كامونز لا يمكن أن يفعل شيئاً كهذا مع أخيه، فقد دفعت أكثر بمرتين، وفي السنوات التي أعقبت ذلك، عملت بحماسة شديدة لإنقاذ حصة إيرس مثلما عملت لإنقاذ حصتها. لكن اسم الشركة كان قد تغير، إذ ولى اسم شركة غاما التجارية، ليحل محله الصرح المستعاد لشركة كامونز بنسبة خمسين بالمئة (الخاصة) المحدودة. «فقط لكي تبين»، كانت تحب أن تقول، «كيف أن خمسين بالمئة في هذه الحياة + خمسين بالمئة تساوي خمسين بالمئة». وتعني بذلك أن الشغل يمكن أن توحده من جديد الملكة إيزابيلا وبإمرتها، لكن الصدع في العائلة بقي على حاله دون رأب، والحواجز ـ الأكياس بقيت في مكانها. كما أنها ستبقى للعديد من السنين.

* * *

غير أنها لم تكن كاملة الصفات، لعله الزمن كما يقال. لقد كانت طويلة، جميلة، ذكية تعمل ـ بجد، قوية، ظافرة، لكن، يا سيداتي، سادتي، الملكة إيزابيلا لم تكن ملاكاً، لم تكن لها أجنحة ولا هالة حول رأسها، لا، يا سادتي. ففي سنوات سجن كامونز كانت تدخن مثل بركان، كما ازدادت سفاهتها إلى حد كبير واستخدامها للكلمات البذيئة أمام طفلتها التي كانت تكبر، كذلك كانت تذهب إلى حفلات الشرب والصخب من حين إلى حين، بحيث تصل إلى فقدان الوعي، باسطة يديها ورجليها مثل كعكة على حصيرة في خمارة من الخمارات الخلفية غير المرخصة. كما أضحت أصلب من قشر جوزة، فيما سرت شائعات بأن طرائقها في الشغل تمتد أحياناً إلى شيء من الترهيب، وشيء من التهديد بالقوة للممولين، أصحاب العقود، المنافسين. كما كانت في الغالب، بشكل عرضي، وبلا خجل، غير مخلصة، غير مخلصة دون تمييز أو تحديد. إذ كانت تخرج من مكان عملها، تخلع لباس العمل، تلبس ثوباً شفافاً هفهافاً وقبعة مطوية، لتمارس رقص الشارلستون. بكل عين واسعة وشفة مبوزة، أمام مرآة خزانتها، ثم تترك أورورا مع مربيتها، لتذهب رأساً إلى نادي ملابار «أراك فيما بعد، يا صغيرتي» كانت تقول بصوتها الأجش المشروخ ـ بالدخان. «ماما تصطاد النمور الليلة». أو، مرة ثانية ترفس بكعبيها وتسعل بشدة «أحلام حلوة، يا عسلي. الأم بحاجة إلى لحم أسد كي تمضغه».

في سنوات لاحقة، حكت أمي أورورا هذه القصة لحلقتها من الغلمان البوهيميين. «تعلمون. أنا في سن الخامسة ـ السادسة ـ السابعة ـ الثامنة. كنت سيدة صغيرة تماماً. فإذا رن الهاتف، كنت أرفعه وأقول «آسفة جداً لكن أبي وعمي إيرس كليهما في السجن، العمة كارمن والجدة في الطرف الآخر من البيت ولا يسمح لي بتجاوز الحدود إلى هناك، أما أمي فهي تصيد النمور طوال الليل. هل هناك من رسالة؟».

وبينما تكون بيل في قصفها وعربدتها، تكـون أورورا الـصغيرة، تلـك الطفلة المنعزلة المتروكة لمعـداتها الخاصـة في بيتـها المقـسوم سـريالياً، ملتفتة إلى تلك العين الداخلية التي هـي نعـيم العزلـة، وطبقـاً للحكايـة، كانت تكشف موهبتها، فعندما كبرت وراحت تنغلق داخل ذاتها الخفيـة، كان معجبوها يحبون أن يتلبثوا علـى صـورة الفتـاة الـصغيرة الوحيـدة في البيت الكبير، تفتح النوافـذ وتـسمح لحقيقـة الهنـد الأرضـية بـأن تـوقظ روحها. (ولسوف تلاحظون أن قصتين من حيـاة أورورا البـاكرة كانتـا قـد ضُخِّمتا لتصنعا تلك الصورة). إذ كان يقال عنها، بشيء من خـوف، إنهـا حتى عندما كانت طفلة لم ترسم رسـوم أطفـال، وإن أصـابعها والمنـاظر الطبيعية التي كانت ترسمها إنما كانت تدل على النضج منذ البدايـة. هـذه أسطورة لم تعمل شيئاً لتثبيطها، بل الحقيقة، ربمـا عملـت علـى تعهـدها بالرعاية. من خلال وضع تاريخ أقدم لبعض الرسوم وتحطيم بعض رسوم الصبا الأخرى. ما يحتمل أن يكون صحيحاً أن أورورا بدأت حياتها بـالفن خلال تلك الساعات الطويلة بلا أم. وأنها كانت منذ البدء ذات موهبـة في الرسم واختيار الألوان، وربما كان لها عين خـبيرة حـسنة التمييـز، تتـابع اهتمامها الجديد بسرية تامة، مخفية أدواتها وعملها، فلم تعرف بيل شـيئاً عن ذلك طوال أيام حياتها، إذ كانت تحصل على موادها مـن المدرسـة، تنفق كل قرش من مصروفها على أقـلام التلـوين والـورق، أقـلام الخـط والحبر الصيني، كذلك مجموعات الألوان المائية الخاصة بالأطفال، كما كانت تستعمل فحم الخشب من المطبخ، أما مربيتها جوسي، التي كانـت تعرف كل شيء والتي كان تساعدها في إخفاء دفـاتر رسمهـا، فلـم تخـن ثقتها قط، إلا بعد أن حبستها إبيتافيا.. لكنني بـذلك أسـتبق الـزمن. أذكـر القصة في غير مكانها. على أي حال، ثمة عقول معـدة علـى نحـو أفـضل من عقلي، عليها أن تكتب عن عبقرية أمي. وعيون ترى على نحـو أفـضل وأوضح ما أنجزته. ما يستغرقني عنـدما أفكـر بالـصورة ـ اللاحقـة للفتـاة

الصغيرة الوحيدة التي كبرت لتكون أمي الخالدة، نيميسيسي[1]، عدوتي في القبر، هي أنها لم تبد لي وكأنها أمسكت بعزلتها كحجة ضد الوالد الذي كان غائباً خلال طفولتها، وراء قضبان السجن، أو الأم التي كانت تقضي أيامها في إدارة أعمالها ولياليها في البحث عن حياة حرة طليقة، بل بالأحرى، كانت تعبدهما كليهما وترفض أن تسمع كلمة نقد، مثلاً مني، لمهارتهما كأبوين.

(لكنها أبقت طبيعتها الحقيقية سراً عنهما، حضنتها داخل ذاتها، إلى أن انفجرت أخيراً رغماً عنها، كما تنفجر الحقائق دائماً: لأنها يجب أن تنفجر).

* * *

إبيفانيا، وهي تصلي،

وتشيخ. إذ عندما سجن ولداها، كانت في الثامنة والأربعين، لكن عندما أطلق سراحهما كانت في السابعة والخمسين بعد أن قضيا مدة حكمهما. «فالسنون تمر مسرعة مثل زوارق شاردة، يا إلهي، كما لو أن لدينا وقتاً لنهدره». كما كانت تدخل في نوع من النشوة، نوع من الحماسة الرؤيوية التي يندغم فيها الإثم بالإله بالتفاهة بنهاية العالم وتدمّر الأشكال القديمة بظهور الجديد الكريه، وكل ذلك يختلط بغير انتظام «إذ لم يكن المقصود أن يكون بهذه الطريقة، يا إلهي، لم أكن المقصود أن أنفى، وأنا في بيتي خلف كومة من الأكياس، ممنوع علي أن أعبر الخطوط البيضاء لتلك المرأة المجنونة». كذلك كانت تحكي عن جروح الحاضر والماضي «خدمي أنا، يا إلهي، يحافظون علي في المكان، لأنني في السجن أيضاً، وهم حراسي، أنا لا أستطيع صرفهم، لأنني لست أنا من يدفع أجورهم، إنها هي هي هي، في كل مكان وزمان هي، لكن باستطاعتي أن أنتظر، وأرى، فالصبر فضيلة، ولسوف أخبئ رأسي

(1) إلهة الانتقام عند الإغريق.

دائماً، طوال وقتي». كما كانت إيبفانيا في صلاتها تصب اللعنات على اللوبو، «لماذا تعذبني يا يسوع المسيح، يا مريم المقدسة بجعلي أعيش مع ابنة ذلك البيت اللعين، تلك المرأة العاقر التي حاولت بدافع أريحيتي أن أصادقها، انظر، كيف ترد لي الجميل، كيف جاء بيت الطباعين أولئك وحطموا حياتي». لكن في مرات أخرى، كانت ذكرى الميت هي التي تظهر وتتهمها. «يا إلهي، لقد أثمت، وينبغي أن أعاقب بصب الزيت الحار علي وحرقي بالجليد البارد، لكن اشفقي علي يا أم الرب لأنني أوطأ الواطئين، أنقذيني إن أردت من هاوية الجحيم التي لا قرار لها، لأنني باسمي وبعملي كنت شراً كبيراً قاتلاً على الأرض». كذلك كانت تختار عقوبات لنفسها. «يا إلهي، هذا اليوم قررت أن أنام بلا ناموسية تحميني من البعوض، فدع البعوض يأتي، يلسعني لسعات عقابك، دعه يغرس إبره في جسدي طوال الليل ويمص دمي، دعه يصيبني يا أم الرب، بعدوى حمى غضبك». وهذه العقوبة الذاتية كان يجب أن تستمر حتى بعد إطلاق سراح ولديها. عندما غفرت لنفسها آثامها وغطت نفسها مرة ثانية بالوسادة الواقية من الضباب الليلي رافضة بشكل أعمى أن تتنازل عن أنه في سنوات إهمالها، كانت ناموسيات البعوض المثقبة سلفاً قد غدت مليئة بالثقوب التي أكلها العث. «يا إلهي، شعري يتساقط. والعالم يتحطم، يا إلهي، إنني عجوز!».

* * *

وكارمن في سريرها المنعزل

أصابعها تمتد من أجل العزاء إلى ما تحت خصرها، تنطوي على نفسها بنفسها تتجرع مرارتها وتدعوها حلوة، تمشي في صحرائها وتدعوها جنة وارفة الخضرة، تثير نفسها بخيالات الإغواء لبحارة سود في مؤخرة كوخ العائلة الذهبي والأسود، المصفح بالألواح الخشبية، لعشاق إيرس من العائلة الإسبانية.

«أوه، فكر يا إلهي كم من الرجال الجدد سيجد، أو يجد الآن، أو وجد في السجن،» ثم تستلقي أرقة متنهدة ليلة إثر ليلة تداعب جسدها الناحل بينما يتسرب شبابها بعيداً كالماء في الرمل. في الحادية والعشرين كانت، عندما دخل إيرس السجن. وفي الثلاثين عندما خرج «وما تزال لم تمس، لم تمس، ولن تمس. ليس من قبل الآخرين. لكن هذه الأصابع تعرف، أوه، هي تعرف، أوه، أوه» لقد كانت تبحث عن متعتها اليومية سواء مع رغوة الصابون في الحمام، أو رطوبة العرق في البازار. «لم يكن المقصود أن يكون الأمر هكذا، إيرس كزوج وإيبفانيا كحماة، لم يكن المقصود أن أكون جميلة، والجمال حولي في كل مكان، القوة اللا محدودة لبيل، نزواتية جمالها وإمكاناتها، لكن أنا، أنا، أنا غير جميلة. في هذا البيت نقيضة الجمال أنا نفسي أبدو، انظروا يا سادة، أنا نوع من البهيمة، أو هو، هو، أيها السيدات والسادة، أجل، بالحقيقة». ثم تغمض عينيها البائستين وتقوس ظهرها مستسلمة لمتعة الاشمئزاز. «اسلخني، اسلخ جلدي عن جسدي كلياً ودعني أبدأ ثانية، دعني أبدأ من لا عرق، لا اسم، لا جنس أوه دع الجوز يتعفّن في قشوره، أوه أوه التوابل تجف تحت الشمس، أوه دعها تحترق دعها تحترق أوه.. ». ثم تنهار بعد ذلك باكية تلتف في ملاءتها وهي تشتعل لهباً وحب انتقام.

* * *

في عيد ميلادها العاشر، سأل الرجل الشمالي عازف البيانو، ذو اللكنة المختلفة والخدع السحرية، أورورا داغاما «ما أكثر شيء تريدينه في الدنيا؟» ثم قبل أن تجيب خمن رغبتها. فيما كان زورق بمحرك يطلق صفارته في المرفأ قادماً باتجاه الحاجز الحجري لجزيرة كبرال، هناك على الرصيف، نزل إيرس وكامونز قبل ست سنوات من انتهاء مدة حكمهما، وكلاهما جلد وعظم، بينما كانت أمهما تصرخ بهجة، جاءا إلى البيت يلوحان بأيديهما الواهنة، ويبتسمان الابتسامة ذاتها: ابتسامة السجين المطلق سراحه للتو. تلك المترددة الطماعة.

تعانق الجد كامونز والجدة بيل عند الحاجز. «لقد كويت لك قميصك المشجر الكريه. إنه جاهز». قالت له «اذهب، خذ تلك الهدية الملفوفة بالورق ثم امض إلى ابنتك في عيد ميلادها والبسمة تضيء وجهك كله. انظر إليها، طويلة مثل شجرة، تحاول أن تتعرف على والدها».

إنني أشعر بحبهما يسيل باتجاهي عبر السنين. كم كانا كبيرين يا ترى، وكم كان لديهما القليل من الوقت معاً (أجل، فرغم كل التفافاتها هنا وهناك، أصر أن ما كان بين بيل وكامونز هو حب حقيقي). إنني أسمع بيل تسعل حتى حين جاءت بكامونز إلى أورورا، كما أشعر بالسعال الفج الشديد يمزق شيئاً في داخلي كما لو أنني أنا الذي يسعل. «الكثير من التدخين» قالت بشيء من غصة «عادة سيئة». ثم قالت كاذبة، كيلا تلقي نوعاً من الظلال على قدومه إلى البيت، «سأقلع عن التدخين».

طلب كامونز كان لطيفاً. «هذه العائلة مرت بكثير من المصائب، الآن علينا أن نبدأ بالتعافي». فوافقت على رفع الحواجز التي كانت تبقي إبيفانيا وكارمن بعيداً عن النظر. أما بالنسبة لبيل فقد أقلعت بين عشية وضحاها وإلى الأبد عن طرقها المنحلة المنغمسة في المغازلة. ولأن كامونز طلب ذلك، سمحت لإيرس أن ينضم إليهم في هيئة أعمال العائلة، رغم أن مسألة استعادة حصته لم تطرح، وهو في حالته تلك من الإفلاس. كما أظن، وآمل، أنهما كانا محبين رائعين، بيل وكامونز، إلى حد أن لطفه الخجول وجوعها الشهواني صنعا نوعاً من التكامل التام وأنه طوال تلك السنوات الثلاث القصيرة جداً التي كان فيها كامونز حراً، كان يرضي واحدهما الآخر ويستلقيان سعيدين واحدهما في حضن الآخر.

لكن طوال ثلاث سنوات ظلت تسعل، ورغم أن ما بعد الصدمة، إثر كل شيء حدث، جعل البيت الذي أعيد توحيده مكاناً حذراً في تلك السنوات، إلا أن ابنتها التي كانت تكبر لم يستطع أحد أن يستغفلها. «إذ حتى قبل أن أسمع خرخرة الموت في رئتي بيل، كانت تلك الساحرات

يعرفن». قالت لي أمي. «لقد عرفت أن تلك الوغدات كن ينتظرن فقط، مرة ينقسم البيت، دائماً ينقسم، وفي ذلك البيت كان على العراك أن ينتهي نهاية دموية».

فذات مساء، بعد فترة وجيزة من دعوة الأخوين، عندما اجتمعت العائلة بناء على طلب كامونز في قاعة الطعام الكبيرة المهملة ـ منذ زمن طويل تحت صور الأسلاف، ليتناولوا وجبة المصالحة، فإن صد بيل هو الذي خرب كل شيء، وبصاق بيل في منفضة البصاق الكرومية هو الذي استفز إيبفانيا التي كانت تجلس على رأس الطاولة وعلى رأسها غطاء أسود مخرم، إذ لاحظت قائلة «أفترض أنك، وقد صار لديك المال، تحسبين أنك لست بحاجة للسلوك المهذب». بعد ذلك، حدثت اتهامات واتهامات مضادة، ثم أعيدت الهدنة المضطربة مرة ثانية، لكن دون أن يحدث أي اجتماع آخر وقت الوجبات.

كانت تستيقظ وهي تسعل، ثم تسعل بشكل مخيف قبل أن تخلد للنوم. كما كان السعال يوقظها في الليل فتتجول في البيت العتيق، فاتحة النوافذ على مصاريعها. لكن بعد شهرين من عودته، كان كامونز هو الذي استيقظ ليجدها تسعل في نومها المحموم ويقطر الدم من فمها. سل كان قد أصابها، وقد ضرب كلتا الرئتين. كما كان أكثر خطراً حينذاك مما كان في أي وقت. فقال لها الأطباء المعركة ستكون صعبة وعليها أن توقف إلى حد كبير نشاطاتها المهنية. «اللعنة عليه، كامونز» راحت تزمجر، «لو يتركني فقط من أجلك...» عند ذلك، انفجرت تلك الروح اللطيفة المضطربة بالبكاء وذرف كامونز الدموع السخان لشدة حبه. كذلك إيرس، لدى عودته، واجه أيضاً زوجة قد تغيرت. لقد دخلت غرفة نومه ليلة إطلاق سراحه قائلة: «إن لم تتخلّ عن خزيك وفضائحك إذن، يا إيرس سأقتلك وأنت نائم». فانحنى لها أشد انحناءة معترفاً، انحناءة غندور مستعاد، يده اليمنى تدور بشكل لولبي مغازل في الخارج، وقدمه

اليمنى تمتد، فيما إبهامها ينتصب بدغدغة لذيذة، فانصرفت. هو لم يقلع عن مغامراته، لكنه أصبح أكثر حذراً، قاضيا ساعات بعد الظهر في شقة مستأجرة في إرناكولم ذات مروحة سقفية، مرشة تضخ الماء باليد، مرحاض تجلس عليه القرفصاء، وسرير كبير واطئ قام بتجديد لفافات قوائمه من أجل الصحة ومن أجل القوة. ومن خلال ستائر أنيقة كانت أشعة شمس ناعمة تسقط على جسده وجسد الآخر، فيما صياح السوق يصعد إليه من أسفل ليمتزج مع أنات عشيقه.

في الأماسي، كان يلعب البريدج في نادي ملابار، إذ كان مطلوباً منه تأكيد حضوره، أو بقي بكل تواضع في المنزل. لقد اشترى مزلاجاً ليقفل بابه وجاء بكلب إنكليزي من نوع «بولدوغ»، سماه، لكي يستفز كامونز، جواهرلال. كما كان قد خرج من السجن معارضاً كلياً لحزب المؤتمر ومطالبه في الاستقلال. بعدئذ أصبح كاتب ـ رسائل متحمساً، يدبج الزوايا في الصحف بمناصرته لما يدعى بالبديل الليبرالي. «هذه السياسة المضللة الهادفة لطرد حكامنا،» كان يهدر كالرعد «افرض أنها نجحت، ماذا سيحدث حينذاك؟ أين، في هذه الهند، المؤسسات الديمقراطية التي تحل محل الحكم البريطاني الذي أقر واعترف أنه كله خير، حتى عندما يطهرنا من شرور أعمالنا الطفولية».

وعندما اقترح المحرر الليبرالي لجريدة «القائد» السيد تشينتافاني «أن من الأفضل أن تخضع الهند للحكومة غير الدستورية الحالية من أن تخضع لحكومة أكثر رجعية وأبعد بكثير من أن تكون دستورية في المستقبل،» فإن العم ـ الكبير إيرس كتب يقول «مرحى». وعندما ناقش ليبرالي آخر، هو السير ب. س. سيفازوامي، «بأن حزب المؤتمر، من خلال تأييده لجمعية تأسيسية، يضع الكثير الكثير من الإيمان في حكمة الجماهير، وينصف قليلاً جداً إخلاص وقدرة الناس المشاركين في الاجتماعات المختلفة للطاولة المستديرة. وإنني ليراودني الكثير من

الشك في ما إذا كانت جمعية تأسيسية ستعمل على نحو أفضل». حينذاك دبّج إيرس داغاماتهانيه. «من قلبي أوافق! إنسان من العامة في الهند يثني دائماً ركبتيه لاستشارات من هم أفضل منه ـ أشخاص ذوي علم وتربية».

في الصباح التالي، واجهته بيل عند الحاجز، شاحبة الوجه، حمراء العينين تلتف بشالها، لكن كلها إصرار على أن ترافق كامونز إلى العمل. وبينما كان الأخوان يصعدان إلى زورق العائلة، لوحت بجريدة الصباح في وجه إيرس. «في هذا البيت، يوجد علم وتربية». قالت بيل بصوت عالٍ «لكننا نتصرف تصرف الكلاب».

«لسنا نحن». قال إيرس داغاما «بل أقرباؤنا المساكين الجهلة كالخنازير، الذين عانيت بسببهم كثيراً، والذين لن أقبل المزيد من اللوم بسببهم. أوه كف عن النباح الآن، جواهرلال، اهدأ، يا غلام، اهدأ».

احمر وجه كامونز، لكنه أمسك عن الكلام، مفكراً بالسيد نهرو في سجن أليبور، وبالكثير من الرجال والنساء الطيبين في سجون بعيدة بعيدة. في الليل جلس مع بيل وسعالها، يمسح لها عينيها وشفتيها، ويضع الكمادات الباردة على جبينها، ثم يهمس لها عن «بزوغ فجر عالم جديد، بلاد حرة، يابيل، فوق الدين لأنها علمانية، فوق الطبقات لأنها اشتراكية، فوق الطبقية لأنها متنورة، فوق الكراهية لأنها محبة، فوق الانتقام لأنها تغفر، فوق القبيلة لأنها موحدة، فوق الفقر لأنها منتصرة عليه، فوق الجهل لأنها متعلمة، فوق الغباء لأنها ذكية. الحرية، يابيل، حرية التعبير، سريعاً سريعاً سنقف على تلك المنصة ونهتف لقدوم القطار». وبينما يخبرها عن أحلامه تلك كانت تستسلم للنوم لتزورها أشباح الهجران والحرب.

ثم حين تستسلم للنوم يتلو شعراً لشكلها النائم

غائبة أنت عن السعادة حيناً من الزمن

وطوال الفصل تتنفسين الألم

ثم يهمس للسجين كما يهمس لزوجته، للأرض الأسيرة كلها، منحنياً مرتعباً على جسدها النائم السقيم، مرسلاً أمله المعنى وحبه مع الريح

عندما ينتهي ذلك العمل كله، سيتعفن الكذب

فالحقيقة عظيمة ولسوف تسود

حين لا يهتم أحد إن سادت أم لم تسد

لكن المرض لم يكن سلاً وحسب، لم يكن سلاً فقط، ففي سنة 1937، تبين أن إيزابيلا زيمينا داغاما، ابنة آل سوزا، وعمرها ثلاثة وثلاثون عاماً، تعاني من سرطان الرئة، وهو في مرحلة متقدمة ـ أو نهائية. لقد ذهبت بسرعة. وفي حالة شديدة من الألم، شاجبة بالألفاظ الجارحة العدو داخل جسدها، غاضبة أشد الغضب من أن الموت سيصل إليها بسرعة كبيرة، قائمة بأسوأ أشكال التصرف.

ثم في صباح ذات أحد، حين كانت أجراس الكنائس تبعث بأصواتها عبر الماء والهواء المفعم بدخان الخشب، حين كانت أورورا وكامونزا إلى جانبها، قالت وهي تلتفت بوجهها إلى شعاع الشمس المتدفق «تذكران قصة السيد كامبيدور في إسبانيا. هو أيضاً كان يحب امرأة تدعى زيمينا».

أجل، نذكر

وعندما أصيب بجرح قاتل، قال لها أن تربط جثته على حصانه وتعيده إلى المعركة، بذلك يرى العدو أنه ما يزال حياً.

نعم ماما. نعم حبيبتي.

إذن اربطوا جثتي على عربة ريكشو لعينة أو أية وسيلة من وسائل النقل، يمكنكم أن تجدوها، عربة يجرها جمل، عربة ـ حمار، عربة ـ ثور أي شيء لكن فقط، وبحق الإله، لا يجرها فيل لعين، تمام؟ لأن العدو قريب جداً وفي هذه القصة زيمينا هي «السيد».

سوف أفعل يا أم.

(ثم تموت).

(4)

في عائلتي، نجد دائماً هواء العالم صعب التنفس، ونظل آملين بمكان أفضل.

هل أكلم نفسي في هذه الساعة المتأخرة فقط عن تدبر الأمر؟ والشكر للسؤال، رغم أنه قديم، قديم، قديم قبل زماني. بإمكانك أن تقول إنني عشت بسرعة بالغة، ومثل عدّاء مراثون ينهار، لأنه فشل في أن يوقّع خطاه بشكل صحيح، مثل رجل فضاء يختنق، وقد رقص بكثير من المرح على سطح القمر، ففي حياتي شديدة الحرارة استهلكت كل ما يستهلكه الإنسان من هواء طوال حياته، أيها المغربي المتهدم! تنفق في ستة وثلاثين عاماً فقط حصتك من الهواء المخصصة لاثنين وسبعين عاماً. (لكن دعني أقل باختصار إنه لم يكن لدي خيار).

إذن: ثمة صعوبة لكنني أتخطاها. فهناك ضجيج معظم الليالي، غربان وحيوانات خيالية تطلق أصواتاً من أدغال رئتيّ. لاستيقظ وأنا أشهق مثقل الأجفان نعاساً، أمسك بقبضتي الهواء وأحشوه بلا جدوى في فمي. ليظل أسهل علي أن أشهق الهواء من أن أزفره، وأسهل علي أن امتص ما تقدمه الحياة من أن أعطي نتائج امتصاص كهذا. كذلك أسهل علي أن أتلقى ضربة من أن أضرب الآخر. لكن بكثير من الصفير والشخير، كنت أطلق زفيري في النهاية، أتغلب على تلك الصعوبة، فأجد في ذلك كل فخار وكبرياء، ولا يفوتني أن أربّت بيدي على ظهري الموجع.

في أوقات كهذه، أصبح أنا تنفسي ذاته. وقوة نفس كهذه، كما أحتفظ بها، تركز على عمليات صدري الخاطئة: السعار، الشهقات السمكية. فأنا ما أتنفسه. أنا ما بدأ منذ زمن طويل بصرخة انطلقت، وما سوف ينتهي عندما تبقى الكأس موضوعة على شفتي دون أن تمس. لا، ليس التفكير ما يجعلنا هكذا، بل الهواء. «Suspiro ergosum»، أي أنا أتأوه إذن أنا موجود، فاللاتينية كالعادة تقول لنا الحقيقة. أنا أتنفس، إذن أنا موجود.

في البدء وفي النهاية، كانت وما تزال هي الرئة: جهاز إلهي، صرخة الطفل الأولى، هواء الحديث المتشكل، الدفقات المتقطعة للضحك، اندفاعات الغناء الممجدة، أنات الباشق السعيد، نحيب العاشق التعيس، أنين البخيل، نحيب العجوز، نتن المرض، همس المحتضر، وفوق كل ذلك، الخواء الساكن الذي لا هواء فيه.

فالآهة ليست آهة فقط. إننا نشهق العالم إلى داخلنا ثم نزفره معنى. حين نستطيع، حين نستطيع.

ـ «نحن نتنفس الضوء» ـ الأشجار تبدأ العزف. هنا في نهاية رحلة إلى هذا المكان المليء بأشجار الزيتون وشواهد القبور، قررت النباتات أن تضرب عن الحديث، «نحن نتنفس الضوء» بالحقيقة، أعظم الإخباريين. إنهم الفلاحون الإغريق، زارعو الزيتون أولئك، ذوو الأسماء ـ الجيدة، كما يمكن أن يلاحظ المرء، تيمناً بذلك الإغريقي الذي يتنفس الضوء، محمولاً على ظهره الإله.

من هنا فصاعداً، سأدير أذناً صماء للأوراق المثرثرة بميتافيزيقاها الشجرية وفلسفتها الكلوروفيلية. فشجرة عائلتي تقول كل ما أنا بحاجة إليه.

* * *

أنا أعيش في بيت غريب عجيب: قلعة فاسكو ميراندا العالية في قرية بنينغيلي التي تطل على ما دون التل البني. على سهل يحلم، ذي سراب يتلامع، وكأنه بحر متوسط. أنا أيضاً كنت أحلم وعبر نافذة ضيقة الشقوق لمسكني لم أكن أرى سهول اسبانيا بل جنوب الهند، ساعياً، رغم كل المسافات زماناً ومكاناً، لأن أدخل من جديد ذلك العصر المظلم بين موت بيل ووصول أبي إلى المشهد. هنا، مارة عبر هذه البوابة الأنيقة، هذا الحيز الضيق من الزمان، كانت إبيفانيا منيزيز داغاما، تركع مصلية، كنيستها مثل بركة مذهبة في ظلمة سلم الدرج الكبير. طرفت بأجفاني، فعاودتني ذكرى بيل. ذات يوم، مباشرة بعد إطلاق سراحه من السجن،

وصل كامونز إلى مائدة الإفطار وهو في ثوبه القطني ذي النسيج المنزلي. فيما كان إيرس، الذي عاد غندوراً مرة ثانية، يضحك مقهقهاً ساخراً منه. بعد الإفطار، أخذت بيل زوجها جانباً «عزيزي، اخلع هذا الثوب اللعين»، قالت «جهدنا الوطني هو أن ندير شغلاً جيداً وننشرف على عمالنا، لا أن نلبس ملابس صبيان». لكن هذه المرة، كان كامونز ثابتاً لا يزعزعه شيء، مثلها هو كان من أنصار نهرو، لا غاندي ـ بالنسبة للشغل، التكنولوجيا، التقدم والحداثة، بالنسبة للمدينة وضد كل ذلك الضجيج العاطفي حول غزل قطنك بنفسك والسفر في القطار بالدرجة الثالثة. لكن لبس ثوب من نسيج منزلي أبهجه. فلكي تغير سادتك غيّر ملابسك. «تمام، بابا،» شاكسته «لكن لا تظن أنك ستجعلني أخلع البنطال، إلا إلى ثوب رقص مثير جنسياً».

كنت أراقب إيبفانيا وهي تصلي، فشكرت الوجود على أن والديّ، وبضربة حظ بدت في حينها أشد الأشياء عادية في العالم، كانا قد شفيا من الدين. (أين العلاج، ذلك الترياق القاتل للسم الكهنوتي؟ ضعوه في زجاجة، شفقة بالناس وأرسلوه هنا وهناك في العالم!) نظرت إلى كامونز في ثوبه القطني ذي النسيج المنزلي، وتذكرت أنه ذهب ذات مرة إلى البلدة الصغيرة مالغودي، بدون بيل، قاطعاً طريقه كله عبر الجبال، حيث نهر سرايو، فقط لأن المهاتا غاندي كان سيلقي كلمة هناك، رغم أنه من أنصار نهرو، ولقد كتب عن ذلك في جريدته:

«في ذلك التجمع الهائل الجاثم على رمال سرايو، كنت مجرد نقطة صغيرة. إذ كان هناك الكثير من المتطوعين اللابسين قمصانهم البيضاء والمتحركين حول المنصة. فيما كان الحامل الكرومي لمكبر الصوت يلمع تحت الشمس. وهنا وهناك كانت تقف الشرطة، بينما كان أناس مشغولون يذهبون في كل مكان ليطلبوا من الناس أن يبقوا هادئين صامتين. ولقد أطاعهم الناس... النهر كان يتدفق، كما كانت أوراق

أشجار البيبول والتين البنغالي على الضفاف تطلق حفيفها، أما الحشد المنتظر فصامت كفقاعة، يقطع صمته بين الحين والآخر صوت زجاجة غازية تفتح فتفرقع، فيما كانت شرائح الخيار المقطوعة طولانياً، وذات الشكل الهلالي، تقشر ويرش عليها الملح، ثم تختفي من صينية البائع الخشبية، الذي كان يصيح بصوت منخفض (وكأنه يتنازل للرجل العظيم القادم) «خيار للعطش، الأفضل للعطش»، فيما يلف منشفة تركية خضراء على رأسه وقاية من الشمس».

بعدئذ جاء غاندي، فهب الكل يصفقون بأيديهم تصفيقاً إيقاعياً فوق رؤوسهم وينشدون نشيده المفضل:

راغوباتي راغافا راجارام

باتيثا بافانا سيتارام

إشوارا الله تيرا نام

سابكو ساغاتي دي باغوان

كما أنشدوا أيضاً: «جاي كريشنا، هير كريشنا، جاي غوفند، هير غوفند» وكذلك «سومب ساداشيف، سامب ساداشيف سامب ساداشيف هار هار هار هار». «بعد ذلك كله،» قال كامونز لبيل لدى عودته: «لم أسمع شيئاً، لقد رأيت جمال الهند في ذلك الحشد، بمياهه الغازية وخياره، لكن بوجود تلك المادة الإلهية، خفت. ففي المدينة، نسعى إلى هند علمانية، لكن في القرية نحن مع الإله رام. ثم هم يقولون «إشوار والله هو اسمك» لكنهم لا يعنون ذلك، بل يعنون «رام» نفسه فقط، ملك عشيرة الراغو، المطهِّر من الآثام، جنباً إلى جنب مع سيتا. في النهاية أخشى أن يسير القرويون إلى المدن، فيضطر الناس الذين هم مثلنا لأن نقفل علينا أبوابنا، فهناك سيكون قادماً «رام الساحق» أو «المدق الساحق».

(5)

بعد بضعة أسابيع من وفاة زوجته، بدأت بقع غامضة تظهر على جسد كامونز فيحكها أثناء نومه. في البداية، كانت ثمة واحدة على قذاله، حيث كان على ابنته من بين كل الناس أن تدله عليها، بعدئذ ظهرت ثلاثة خطوط حك طويلة على إليته اليمنى، فواحدة على وجنته اليمنى، نزولاً إلى حافة عثنونه. في الوقت نفسه بدأت بيل تأتي إليه في نومه، يراها في أحلامه، عارية، متطلبة، إلى حد أنه كان يستيقظ وهو يبكي، إذ حتى وهو يمارس الحب مع صورتها في الحلم، كان يعلم أن ذلك غير حقيقي. لكن بقع الحك كانت حقيقية كفاية، وحتى إن لم يقل ذلك لأورورا، فإن شعوره بعودة بيل كان ذا شأن كبير بعلامات الحب تلك، مثلما كان ذا شأن بالنوافذ المفتوحة والتماثيل الفيلية المفقودة.

غير أن أخاه إيرس اتخذ طريقاً أبسط لاكتشاف لغز الأنياب العاجية وتماثيل الإله غانيشا المفقودة. جمع كل خدم البيت في الساحة الرئيسية تحت شجرة البيبول التي دهن جذعها باللون الأبيض، وفي حر بعد الظهر راح يتمختر نزولاً وصعوداً أمامهم، لابساً قبعته البانامية المصنوعة من القش، قميصاً بلا قبة وبنطالاً منفوخاً أبيض، تثبته في مكانه حمالتان حمراوان، زاجراً إياهم بصوته الجليدي وكله قناعة أن أحدهم هو السارق. خدم المنزل، الجنيناتيون، رجال القارب، الكناسون، منظفو ـ المرحاض، كلهم واجهوه بنسق يتصبب عرقاً ويرتعد خوفاً، بينما جواهرلال، البولدوغ، يطلق زمجراته الواطئة مهدداً وسيده يعيّرهم بألقابهم.

«من سيتكلم هنا؟» تساءل. «أنت يا غوكهال؟ أنت يا بومديي؟ هيا اعترفوا بسرعة،» فيما يتحول غلمان المنزل كلهم إلى توائم لا تمييز بينهم، وهو يصفع كلاً منهم صفعة واحدة على الوجه، بينما يصير الجنيناتيون جوزاً وتوابل، وهو يلكزهم في الصدور، كاجو، فستق، هال كبير، هال صغير، أما منظفو المراحيض الذين لم يلمسهم بالطبع فقد صاروا رقم واحد ورقم اثنين.

حين سمعت أورورا ما يحدث، نزلت تركض، وللمرة الأولى في حياتها جعلها حضور الخدم تشعر بالخجل. إذ لم تستطع النظر في عيونهم، بل التفتت إلى العائلة المجتمعة (إلى إيبفانيا السلبية، كارمن ذات الصدع الجليدي في قلبها، بل حتى كامونز ـ الذي كان يغمغم، لكن، لا بد من الإشارة إلى أنه لم يقاطع ـ بل انتهى لأن يدرس أسلوب إيرس في التحقيق،) ثم بصرخة متصاعدة عالية اعترفت: «ليسوا هم، بل **أنا** من فعل ذلك».

«ماذا؟» سأل إيرس وهو يرتد إلى الوراء، ساخراً، منزعجاً: مثل كل معذِّب يُحرم من متعته. «تكلمي، أنا لم أسمع ما قلت».

«كف عن تعذيبهم» زمجرت أورورا «هم لم يفعلوا شيئاً، لم يلمسوا شيئاً من فيلتك وأنيابها العاجية. أنا فعلت ذلك كله».

شحب وجه أبيها «صغيرتي، لماذا؟» فيما نخر البولدوغ مكشراً عن أنيابه. «لا تقل لي صغيرتي،» أجابته، متحدية إياه أيضاً. «ذلك ما كانت أمي تريد أن تفعله دائماً. ولسوف ترون: من الآن فصاعداً، سأحل محلها. يا عم إيرس، عليك أن تقفل على كلبك اللعين هذا. بالمناسبة. لقد سميته اسم دلال يستحقه فعلاً: سمِّه جو ـ جو (فك ـ فك) ذلك أنه ينبح ولا يعض البتة، بعدئذ استدارت، ورأسها مرفوع عالياً، ثم سارت مبتعدة، تاركة أفراد عائلتها، وقد انفتحت أفواههم عجباً: كما لو أنهم رأوا أمامهم شبح أمها الحي وقد تجسد، عاد إلى الحياة من جديد».

* * *

غير أن أورورا هي التي أقفل عليها، كعقاب، إذ عزلت في غرفتها لتعيش على الأرز والماء مدة أسبوع. مع ذلك كان يأتيها طعام وشراب ـ شرحات الكستليتا، فطائر التفاح، «الكريم كراميل» والماء الغازي ـ تهربها لها مربيتها المخلصة جوسي، كما تجلب لها المربية العجوز علناً أدوات الرسم ـ أقلام الفحم، الفراشي، الألوان ـ فتختار منها أورورا ما

تحتاج، نظراً لأن لحظة بلوغها سن الرشد الحقيقية كانت قد حانت كي تعلن عن ذاتها الداخلية. فقد عملت طوال ذلك الأسبوع، دون توقف إلا لكي تنام. وعندما جاء كامونز إلى الباب، أمرته بأن ينصرف، فهي ستتحمل الحكم بنفسها ولا حاجة بها لأب سجين سابق. لا يدافع عن ابنته لكي يبقيها خارج السجن، فلوى عنقه وأطاع الأمر.

لكن عند انتهاء مرحلة اعتقالها المنزلي، دعت كامونز إلى داخل غرفتها، جاعلة إياه الشخص الثاني على وجه الأرض الذي يرى عملها. إذ كانت كل بوصة من الجدران حتى السقف مرسومة كلها بأشكال بشرية وحيوانية، حقيقية وخيالية، بخطوط سوداء طاغية تتحول هي ذاتها باستمرار وتمتلئ هنا وهناك بكتل هائلة من الألوان، الأحمر كالتربة، أرجواني وقرمزي السماء، الظلال الأربعين للأخضر. خط قوي جداً وحر، ألوان شديدة التزاحم، شديدة العنف إلى حد أن كامونز، بقلب الأب الفخور، وجد نفسه ينفجر بالقول «لكنه حشد كبير للكينونة ذاتها،» ثم مع تعوده على عالم ابنته المتكشف حديثاً، بدأ يرى رؤياها: إذ كانت قد رسمت التاريخ على الجدران، الملك غندوفار، وهو يدعو القديس توما الرسول إلى الهند. من الشمال، الإمبراطور آسوكا أعمدة قانونه، وأرتال الناس المنتظرة، تقف مستندة بظهورها إلى الأعمدة لترى إن كانت تستطيع ضم يديها خلفها من أجل حسن الحظ، ثم تلك النسخ الخاصة بها من نقوش المعابد الجنسية، بتفاصيلها الصريحة التي جعلت وجه كامونز يشحب، كذلك مبنى تاج محل، الذي بينت فيه دون مواربة، أن بنائيه العظماء تم إخصاؤهم، كما قطعت أيديهم كيلا يستطيعوا بناء أي شيء أجمل. ثم من جنوبها الخاص، اختارت معركة «سرير آنفابتانم»، سيف السلطان تيبو وقلعة غولكوندا السحرية، حيث يتكلم الإنسان، عادة، في محرس البوابة فيُسمع بوضوح في القلعة، وكذلك قدوم اليهود الموغل في الزمن. أيضاً كان هناك التاريخ الحديث،

سجون ملأى بناس عاطفيين، حزب المؤتمر والعصبة الإسلامية، نهرو غاندي جناح بطل بوز أزد والجنود البريطانيون يطلقون شائعات عن حرب قادمة. أما ما قبل التاريخ، فكان منه مخلوقات من صنع خيالها، أنغال، نصف امرأة ونصف نمرة، نصف رجل ونصف حية، كما كان هناك وحوش بحرية، غيلان جبلية. وفي الصدارة، كان هناك فاسكو داغاما نفسه، وهو يضع قدمه لأول مرة على تراب الهند، يتنشق هواءها، ثم يبحث عن كل ما هو توابل وحار يصنع مالاً.

كذلك بدأ كامونز يلتقط صور العائلة، صوراً ليست للموتى والأحياء فقط، بل حتى لمن لم يولدوا بعد ـ مثال على ذلك، ذريتها التي لم تولد بعد، والمتجمعة بكل رصانة حول أمها المتوفاة بجانب بيانو كبير. غير أنه أجفل حين وجد صورة إيرس داغاما عارياً تماماً في ساحة الميناء، يتلامع جسده قليلاً، فيما كانت هناك أشكال داكنة تحيط به من كل جانب، تهزها المحاكاة الساخرة للعشاء الأخير الذي كان فيه خدم العائلة يحتفلون بصخب شديد على مائدة ـ العشاء. بينما الأسلاف مشعثو الثياب والشعر يحدقون إليهم من الصور المعلقة على الجدران، وآل داغاما يخدمونهم كنُدل، جالبين لهم الطعام وساكبين لهم الخمرة، فيما يُعاملون أسوأ معاملة. فكارمن تتعرض لقرص إليتها، وإبيفانيا تتلقى على كفلها رفسة من جنيناتي سكران. لكن بعدئذ، دفعته اندفاعة التركيبة السريعة إلى الأمام، بعيداً عما هو شخصي، إلى داخل الحشد المزدحم، فوراءه وحوله وفوقه وداخله، كانت العائلة هي الحشد نفسه، الحشد الكثيف، الحشد الذي لا حدود له. لقد رسمت أورورا عملها الضخم بطريقة جعلت عائلتها مضطرة لأن تشق طريقها عبر تلك الوفرة المفرطة من الصور الخيالية، وكأنها تقول: خصوصية جزيرة كبرال عبارة عن وهم، وهذا الجبل، هذه الخلية، هذا الخط المتحول إلى ما لا نهاية من الإنسانية هو الحقيقة. فحيث ينظر كامونز يرى سخط النساء، ضعفهن

الذي يلقى العذاب، المصالحة في وجوه الرجال، الازدواجية الجنسية للأطفال، والوجوه السلبية غير الشاكية للموتى. أراد أن يعرف كيف عرفت تلك الأشياء، وعلى لسانه مذاق المرارة من إخفاقه كأب، متعجباً أنها في عمرها ذاك استطاعت أن تسمع الكثير عن العالم بكل ما فيه من غضب، ألم وخيبات أمل، وأن تتذوق القليل من بهجته. «عندما تعرفين الفرح» كان يريد أن يقول. «حينذاك فقط تكتمل موهبتك». لكنها كانت تعلم الكثير الكثير مسبقاً، إلى حد أن ذلك أخافه مبعداً عن لسانه الكلمات، فلم يجرؤ على النطق بكلمة واحدة.

فقط الإله كان غائباً، إذ رغم تحديقه الشديد إلى الجدران وصعوده سلماً للتحديق جيداً إلى السقف، لم يستطع كامونز أن يجد صورة للمسيح على الصليب أو بعيداً عنه، ولا أي رسم آخر، بالحقيقة لأي كينونة إلهية أخرى، شبح ـ شجرة، شبح ـ ماء، ملاك، شيطان أو قديس.

لقد كان ذلك كله مرسوماً ضمن منظر طبيعي جعل كامونز يرتعش حين رآه. لأنه كان الأم الهند ذاتها، بعظمتها وحركتها التي لا تستنزف، الأم الهند التي أحبت وخانت وأكلت ودمرت ومن جديد أحبت أولادها، والتي كان معها التواصل العاطفي للأولاد والشجار الدائم يمتد إلى ما بعد القبر بزمن طويل، يمتد إلى الجبال العظيمة مثل نداءات الروح، على طول الأنهار الواسعة الملأى بالرحمة والمرض، كذلك عبر الهضاب الجرداء المسكونة بالجفاف التي يعزق فيها الرجال بمعاولهم التربة الجافة المجدبة، الأم الهند بمحيطاتها، جوز هندها، حقول أرزها، وعجولها على الآبار، كراكيها على ذرى الأشجار ذات الأعناق الأشبه بعلاقات المعاطف، حدائقها المحومة عالياً، طيور المينا والغربان ذات المناقير الصفراء التي تستطيع أن تلتقط دودة من البحر ووجه إيبفانيا على رقبة طويلة ذات حراشف، إيبفانيا التي يمكن أن تتحول إلى وحش مخيف ذي عينين حولاوين تتراقصان ولسان يتلاعب،

بينما يموت الآلاف، لكن فوق كل شيء، وفي المركز من السقف، في النقطة التي تتلاقى فيها كل الخطوط الوافرة، كانت هناك الأم الهند، ولها وجه بيل. فالملكة إيزابيلا هي الإلهة ـ الأم الوحيدة هنا. لقد كانت ميتة، وفي قلب هذا الدفق الهائل لفن أورورا، كانت هناك المأساة الواضحة لفقدانها، ألم أن تصبح يتيمة بلا أم، ذلك الألم الذي لا يسكّنه شيء. فالغرفة هي الحداد الذي نفذته.

حينذاك، وقد فهمها، أمسك بها كامونز ثم بكيا معاً.

* * *

أجل، يا أم، ذات مرة كنت أنت ابنة أيضاً. لقد وُهبت الحياة لكن سرعان ما أُخذت منك... حياتي هي قصة الكثير من الربما، الكثير من الميتات المفاجئة، انتحارات أشخاص آخرين أيضاً. النار، الماء والمرض كلها يجب أن تلعب دورها جنباً إلى جنب ـ لا، حول وداخل ـ الكائنات البشرية.

في أمسية عيد الميلاد سنة 1938، أي بعد سبعة عشر عيد ميلاد من عيد الميلاد الذي أتى فيه الشاب بإيزابيلا سوزا، ابنة السابعة عشرة، إلى المنزل كي تقابل العائلة، استيقظت ابنتها أمي أورورا داغاما، على آلام الدورة الشهرية ولم تستطع العودة إلى النوم. ذهبت إلى الحمام، حاملة معها، كما علمتها من قبل جوسي العجوز، واقية قطنية، شاشاً وحبل منامة طويلاً كي يثبت كل شيء في مكانه... وهكذا انقذفت على الأرض ذات البلاط الأبيض تتلوى وتتوجع من شدة الألم. بعد حين من الزمن هدأ الألم فقررت أن تخرج إلى الحدائق، تحمم جسدها المتوجع بضياء مجرة درب التبانة، المعجزة التي لا مثيل لها، ضوء النجمة، النجمة اللامعة.. إننا ننظر إلى الأعلى ونأمل أن تنظر النجوم إلى الأسفل، نصلي أن تكون هناك نجوم لنا تتبعنا، نجوم تتحرك في السماوات وتهدينا إلى مصيرنا، لكن ذلك غرور منا فقط. إننا ننظر إلى المجرة ونقع في الحب، لكن الكون يهتم بنا أقل بكثير مما نهتم به، والنجوم تظل في مداراتها،

مهما تمنينا أن تفعل شيئاً آخر. صحيح أنك إذا ما راقبت عجلة السماء تدور فترة من الزمن، سترى مذنباً يهوي، يشتعل ويخمد. ذلك ليس نجماً يستحق المتابعة، إنه مجرد صخرة تعيسة. أقدارنا هنا على الأرض. وليس هناك من نجوم تهدي.

أكثر من سنة كانت قد مرت على حادثة النوافذ المفتوحة، وكان بيت جزيرة كبرال غافياً تلك الليلة وكأنه في حالة إغماء. أورورا التي صارت أكبرَ سناً على عيد ميلاد، وضعت شالاً على قميص نومها، ثم خطت حول مربيتها جوسي النائمة، فعلى الحصيرة بجانب الباب، ثم سارت حافية القدمين نازلة إلى القاعة.

(عيد الميلاد، ذلك الابتكار الشمالي، تلك الحكاية عن الثلج والجوارب، عن النيران السعيدة والوعول، عن الأغاني اللاتينية وأغنية «أوه، تنينوم»، عن الأشجار دائمة الخضرة و«سانتي كلاس» و«المساعدين» الصغار، يستعاد من خلال الحر المداري إلى ما يشبه أصوله، إذ من أجل أي شيء آخر يمكن ليسوع المسيح أن يكون أو لا يكون. إنه ابن طقس حار، ومهما كان مزوده فقيراً، فهو لم يكن بارداً، وإذا كان الرجال الحكماء قد جاؤوا متتبعين (بصورة غير حكيمة، كما أشرت) النجم هناك، فإنهم جاؤوا، ولا ننسَ ذلك، من الشرق. في قلعة كوشين، ثمة عائلات إنكليزية تضع على شجرة عيد الميلاد نتف القطن على الأغصان، وفي كنيسة القديس فرانسيس ـ الإنجليكانية في تلك الأيام، رغم أنها لم تعد كذلك ـ كان المحترم أوليفر دايث قد بدأ التراتيل السنوية من قبل كما كان هناك فطائر باللحم وكؤوس حليب بانتظار «السانتا»، وبشكل ما سيكون هناك، ديك حبش على المائدة غداً، أجل، ونوعان من الحشوة وحتى الكرنب المسوَّق، لكن هنا الكثير من الطوائف المسيحية في كوشين، كاثوليك وأرثوذكس، آشوريون ونسطوريون. وهناك كثير من حشود منتصف الليل حيث البخور يخنق الرئات كما أن

هناك رهباناً بثلاثة عشر صليباً على أغطية رؤوسهم كي يرمزوا للمسيح وحوارييه، وهناك حروب بين الطوائف الكاثوليك ضد الآشوريين. وكل من يتفق مع النسطوريين لا يعتبر مسيحياً، وأعياد الميلاد المتحاربة هذه كلها معدّة من قبل. لكن في بيت جزيرة كبرال، الباب هو السيد. وليس من أشجار هنا، بدلاً من ذلك، هناك سرير طفل، ويوسف يمكن أن يكون نجّاراً من إرناكولم، فيما مريم امرأة من حقول الشاي، والماشية هي الجواميس وبشرة العائلة المقدسة (شهقة!) داكنة نوعاً ما. وليس هناك هدايا، إذ بالنسبة لإبيفانيا داغاما، عيد الميلاد هو ليسوع. الهدايا ـ حتى هذه العائلة غير المتحابة بشكل ما تقوم بتبادل الهدايا ـ لليلة الثانية عشرة، ليلة المر والبخور الذهبي. فلا أحد ينزل من المدخنة في هذا البيت...).

وصلت أورورا إلى أعلى الدرج الكبير فرأت باب الكنيسة الصغيرة مفتوحاً، والكنيسة ذاتها مضاءة، فيما صنع الضوء المنبعث من ممر الباب ما يشبه الشمس الذهبية الصغيرة في بيت الدرج المظلم. زحفت أورورا إلى الأمام، بصبصت إلى الداخل. شخص ضئيل، رأسه مغطى بغطاء رأس مخرم أسود، كان يركع عند المذبح، كما سمعت أورورا طقات حبات المسبحة الياقوتية للجدة إبيفانيا. ولأن الفتاة لم ترد أن تعرف جدتها بوجودها، بدأت تتراجع من الغرفة. حينذاك تماماً، وفي الصمت التام، سقطت إبيفانيا منيزيز داغاما جانباً وتمددت ساكنة.

«ذات يوم ستقتلين قلبي».

«الصبر فضيلة. سأنتظر الفرصة المناسبة».

كيف قاربت أورورا جدتها التي سقطت؟ هل جرت إليها، مثل طفلة محبة، رافعة إلى شفتيها يداً مبتلاة؟

«لقد اقتربت على مهل، ماشية مع جدران الكنيسة، متحركة نحو الشخص الخامد بلا حراك، بخطا متأنية متدرجة».

هل صرخت، قرعت جرساً (إذ كـان في الكنيسة جـرس) أو بطريقـة أخرى عملت ما في وسعها لإطلاق الإنذار؟

«لا، لم تفعل».

ربما كان هناك هدف من ذلك، ربما كـان مـن الواضـح أن إبيفانيـا لم تعد تجدي معها المساعدة: فالموت سريع لا يرحم؟

«عندما وصلت أورورا إلى إبيفانيا، رأت أن اليد التي تمسك المـسبحة مازالت تـرتعش واهنـة علـى الحبـات، وأن عـيني المـرأة العجـوز كانتـا مفتوحتين وقد التقتا بعينيها وميزتاها، وأن شفتي العجـوز كانتـا تتحركـان حركة خفيفة، رغم أن كلمة مسموعة لم تخرج».

لكن لدى رؤيتها أن جدتها ما تزال حية، هل قامت حينـذاك بمـا ينقـذ حياتها؟

«بل توقفت».

وبعد التوقف؟ لنسلّم بأنها فتاة صغيرة، وأن نوعاً من الشلل قـد سـببه الرعب للفتاة الصغيرة، وغفرنا لها ذلـك، هـل سـارعت بعـد التوقـف، لدعوة أهل البيت بحيث يقدمون لها المساعدة... ألم تفعل؟

«بعد التوقـف، تراجعـت خطـوتين إلى الـوراء، ثم جلـست متـصالبة الساقين على الأرض وهي تراقب».

ألم تشعر بشفقة، بخجل، بخوف؟

«هي كانت مهمومـة، صـحيح، فـإذا ثبُـت أن نوبـة إبيفانيـا المريـضة ليست قاتلة إذن سيحسبُ سلوكها عليها، بل حتى والدها سيغضب منـها. وقد كانت تعرف ذلك».

«لا أكثر من ذلك؟»

«لقد أزعجها الاكتشاف، لذلك ذهبت وأغلقت باب الكنيسة».

لماذا لم تتابع حتى النهاية في تلك الحالة. لماذا لم تطفئ الشموع والأنوار الكهربائية؟

«كل شيء يجب أن يبقى كما تركته إيبيفانيا».

إذن، ذلك قتل بدم بارد. وحسابات كانت قد اتخّذت.

«إن كان القتل يرتكب بعدم القيام بفعل، إذن نعم. وإن كانت إيبيفانيا قد عانت من الضربة إلى حد لم تستطع معه النجاة، إذن لا. والمسألة فيها نظر».

هل ماتت إيبيفانيا؟

«بعد ساعة، تحركت شفتاها الحركة الأخيرة، عيناها استدارتا باتجاه حفيدتها التي وضعت أذنها على الشفتين المحتضرتين، فسمعت لعنة جدتها».

والقاتلة؟ أو لنكن عادلين، ربما ـ القاتلة؟

«تركت باب الكنيسة مفتوحاً على مصراعيه، كما وجدته، وعادت كي تنام...».

... بالتأكيد.. هي لم تستطع؟

«... بل نامت بعمق مثل طفل، ثم استيقظت في صباح عيد الميلاد».

* * *

لكن لا بد من قول حقيقة أكيدة واحدة: بعد موت إيبيفانيا، ازداد البيت حياة. ربما، بعض أشباح الفرح المعزولة منذ زمن طويل، عادت إلى جزيرة كبرال. إذ بات واضحاً للجميع أن نوعية النور تغيرت، كما لو أن حاجزاً ما تم إبعاده من الجو، فانفجر الألق خارجاً، وكأنه يولد من جديد. في السنة الجديدة، سجل الجنيناتيون مستويات غير مسبوقة للنمو، إضافة إلى التراجع في الإصابة بالأمراض، وحتى أقل العيون خبرة في البستنة كان باستطاعتها أن ترى شلالات البوغنفيليا المنحدرة إلى الأسفل، بل حتى أقل الأنوف حساسية كان باستطاعتها أن تشم

روائح الياسمين والزنبق اللذين نموا من جديد، كذلك روائح الاوركيديا وملكة الليل. بل إن البيت ذاته بدا يضج بإثارة جديدة، بإحساس جديد بالإمكانيات، بأن هولاً معيناً قد غادر ساحاته. وحتى جواهرلال، الكلب، بدا أكثر ليناً وابتهاجاً في هذا العصر الجديد.

الزوار أصبحوا كثيراً كما كانت عادتهم أيام مجد فرانسيسكو. زوارق محملة بالشبان صارت تأتي لتندهش من غرفة أورورا وتقضي الأماسي في بيت كوربيزيير الباقي الذي أعادوه للحياة بحماسة الشباب، ثم مرة ثانية كان هناك موسيقى في الجزيرة وآخر صرعات الرقص. بل حتى العمة الكبرى صحارى، كارمن داغاما، دخلت في الحالة وبحجة العمل كما يريد الشباب، ساعدت في تلك التجمعات إلى أن أغريت في النهاية من قبل شاب جميل لأن ترقص بشكل مدهش في حلبة الرقص، لقد تبين أن كارمن تحس بالإيقاع. وفي العشيات التي تلت، بينما كان زملاء أورورا الشبان يصفون بالدور لكي يطلبوا منها رقصة، كان بإمكانك أن ترى قناع القدم يتساقط بعيداً عن السيدة إيرس داغاما، كما ترى انحناء قامتها يستقيم والعينين تكفان عن أن تكونا حولاوين وتعبير الخضوع يحل محله ميل متردد للمسرة. فهي لم تكن قد بلغت الخامسة والثلاثين بعد، وللمرة الأولى في حياتها صارت تبدو أصغر من سنها.

وكما بدأت كارمن بالتألق، كذلك إيرس بدأ ينظر إليها بنوع من الاهتمام ثم قال «لقد حان الوقت، بالنسبة لنا نحن الكبار، أن يكون لنا أناسنا، بحيث يمكنك أن تري شيئاً من الحياة». ولقد كان ذلك ألطف شيء سمعته منه، فأمضت كارمن الأسابيع التالية في حالة محمومة من إعداد بطاقات الدعوة والمصابيح الصينية للحدائق وقوائم الطعام ومناصب الكي، والعذاب اللذيذ اللذيذ في اتخاذ قرار ما ترتدي من ملابس. في ليلة الحفلة كان هناك جوقة موسيقية على المرج الرئيسي وأجهزة حاكي في بيت كوربوزيير ونساء بمجوهراتهن ورجال بملابس

رقيقة ذات عقد بيضاء يجيئون بواسطة القارب ذي المحرك وإذا كان بعضهم ينظر بشغف إلى عيني زوجها، فإن كارمن في ليلة لياليها تلك كانت ميالة لأن لا تلاحظ.

واحد من أفراد العائلة ظل دون أن يتأثر بتوهج الأرواح، ذاك، وفي منتصف الحفلة في جزيرة كبرال، كان باستطاعة كامونز أن يفكر ببيل التي كان جمالها في ليلة كهذه يمكن أن يكسف ضوء النجوم. هو لم يعد يستيقظ على بقع ـ حب على جسده، كما أنه لم يعد يتعلق بالأمل المستبعد في أنها قد تعود إليه من وراء الموت، فشيء ما يشده للحياة كان قد صار رخواً، كما صارت هناك أيام وليال، لم يعد يتحمل فيها النظر إلى ابنته، لأن حضور أمها فيها كان بالغ القوة، بل كان يشعر حتى، في بعض الأحيان، بنوع من الغضب تجاهها، لامتلاكها من بيل أكثر مما أتيح له في الحياة.

وحيداً وقف عند الحاجز الحجري، وفي يده كأس من عصير الرمان، امرأة شابة أكثر من أنها سكرى بقليل، شعرها على شكل خصلات سوداء، وعلى فمها الكثير من أحمر الشفاه القرمزي، جاءت متمايلة باتجاهه، وهي تلبس ثوباً منفوخ ـ الكمين، ثم أعلنت اسمها بشيء من غنج «سنووايت،» (الثلج الأبيض).

أخفق كامونز، الذي كان شارداً بعيداً، في أن يقدم نفسه.

«ألم تر ذلك الفيلم؟» تعتعت المرأة الشابة بشيء من غضب. «لقد جاء أخيراً إلى البلدة. وقد رأيته اثنتي عشرة مرة». بعدئذ تابعت وهي تشير إلى فستانها. «تماماً مثلما هو في الفيلم. لقد جعلت خياطي يخيط لي مثله، نفسه تماماً. وبإمكاني أن أسمي الأقزام السبعة». ثم تابعت دون أن تتوقف بانتظار جواب «كثير العطاس كثير النوم كثير السعادة مغفل كثير التظلم خجول دكتور. فأيهم أنت من فضلك؟».

غير أن كامونز المسكين لم يستطع أن يجد جواباً، بل هز رأسه ببساطة.

لكن السكرى الثلجية البيضاء لم يثبط همتها صمته. «لست كثير العطاس. لست سعيداً. لست دكتوراً». قالت «إذن شديد النعاس مغفل كثير التظلم خجول، فأيهم أنت؟ لا تريد أن تعترف، إذن سأخمن؟ شديد النعاس، لا، مغفل لا أظن هكذا، كثير التظلم ربما، لكن خجول أكيد. هاي ـ هو، خجول!! اصفر وأنت تعمل!».

«آنسة» حاول كامونز. «ربما سيكون من الأفضل أن تعودي إلى الحفلة. فأنا، ويؤسفني أن أقول ذلك، لست في مزاج حفلة».

تصلبت سنووايت، ثم ردت بسرعة: «الطلقة الكبيرة، الخارجة من السجن، السيد كامونز داغاما لا يمكنه أن يكون مهذباً مع أية سيدة. أنت ما تزال متعلقاً بزوجتك المرحومة، أليس كذلك؟ ولا تبالي البتة بأنها خانتك مع نصف رجال البلدة، رجل غبي رجل بائس رجل شحاذ لص. يا إلهي اسمعني، فمن المفترض بي ألا أقول ذلك». ثم استدارت إلا أن كامونز أمسكها من عضدها. «الله، يا للرجل، دعني، ستترك كدمة على عضدي»، هتفت سنووايت. لكن لم يكن بالإمكان إنكار التطلب في وجه كامونز. «أنت مخيف» قالت سنووايت، وهي تفتل ذراعها متخلصة منه. «تبدو مجنوناً مصروعاً أم ماذا؟ هل أنت سكران؟ ربما سكران كثيراً جداً. لذلك، أنا آسفة على ما قلت، لكن الكل يعرف، وفي وقت من الأوقات لا بد أن يظهر ذلك، أليس كذلك؟ الآن يكفي. تاتا ـ باتا. فأنت لست خجولاً، بل كثير التشكي والتظلم، وأظن أنه لا بد من أن يكون هناك قزم آخر لي».

في الصباح التالي زار سنووايت التي كانت تعاني من صداع قاتل شرطيان اثنان، ثم سألاها أن تعيد تمثيل المشهد السابق لهما. «ماذا تقولان أيها الرجلان، لقد تركته على الحاجز الحجري وذلك كل شيء. انتهى. لا شيء أكثر أضيفه». فقد كانت آخر شخص رأى جدي على قيد الحياة.

الماء يدعونا. لقد دعا فرانسيسكو وكامونز، الأب وابنه، فغاصا في مرفأ ـ الليل الأسود ثم سبحا خارجين إلى المحيط ـ الأب، فحملهما مده بعيداً.

(6)

في آب 1939، رأت أورورا داغاما سفينة الشحن ماركو بولو ما تزال راسية في مرفأ كوشين، فثار سخطها لهذه الإشارة بأنه خلال الفترة الفاصلة بين موت والديها وبلوغها سن الرشد، كان عمها ايرس الذي لا علاقة له برجال الأعمال، قد ترك عنان التجارة يفلت من أصابعه الكسولة. فوجهت سائقها لكي يذهب مثل البرق إلى السي ـ 50، مستودع الشركة المحدودة رقم 1 عند رصيف إرناكولم. وكالعاصفة دخلت في ذلك المستودع الأشبه بمغارة، حيث وقفت في الحال، وقد أخافها السكون البارد لظلمته المخترقة بعمود من ضوء، وبجوه الكفراني، جو كاتدرائية مليئة بالبنادق، حيث روائح زيت البنشول (زيت عطر) والقرنفل، الكركم والحلبة، الكمون والهال عالقة في الجو مثل بقايا موسيقى، بينما تختفي الممرات الضيقة في الظلام بين الأكياس العالية للمنتجات المعدة للتصدير التي يمكن أن تشق طريقها إلى الجحيم ثم ترجع، أو إلى الخلاص.

(فالعائلة الكبيرة تتجذر في الجنوب: ومن المناسب القول، بأن قصتي الشخصية، قصة خلق موريس الزغبي، تمتد جذورها إلى شحنة بهارات تأخر تصديرها).

في ذلك المعبد كان ثمة رجال كهنوت أيضاً: موظفو شحن ينحنون على دفاترهم الكبيرة منزعجين ثم يسرعون بين العمال الذين يحمّلون عرباتهم والمراقبين الذين يبدون متخوفين ـ السيد إليشيبلي كالونجي، والسيد س. ميرتشاندا لشيني والسيد كارياتان تيجبا تام ـ جاثمين مثل رجال التفتيش على كراسيهم ثلاثية القوائم العالية في برك من الضوء المشؤوم، يخربشون شيئاً بأقلامهم الريشية على دفاترهم الكبيرة التي تميل باتجاههم على مقاعد ذات قوائم طويلة. بعد تلك الشخصيات الكبيرة، وعلى طاولة من النوع العادي، عليها مصباح صغير، كان يجلس المدير المناوب للمستودع. وصلت إليه أورورا، بعد أن استعادت توازنها، كي تطلب تفسيراً لتأخر شحنة البهارات.

«لكن بماذا تفكر يا عم؟» صرخت على نحو غير معقول، إذ كيف كان بإمكان دودة سافلة كتلك أن تعرف عقل السيد إيرس العظيم نفسه؟ أيريد أن تنهار ثروة العائلة أم ماذا؟

المشهد عن كثب لأجمل آل داغاما وللوريثة الوحيدة لأعمال العائلة ـ كان من المعروف أنه رغم وجود السيد إيرس والسيدة كارمن كمسؤولين في ذلك الوقت، فإن المرحوم السيد كامونزلم يترك لهما أكثر من حصة، رغم أنها حصة سخية ـ إلا أنها ضربت المدير المناوب مثل حربة في القلب، جاعلة إياه يخرس مؤقتاً. فالوارثة الشابة مالت أقرب وأقرب إليه، ممسكة ذقنه بين إبهامها وإصبعها الوسطى، مثبتة إياه بنظرتها النارية وواقعة في الحب رأساً على عقب. وإلى أن سيطر فيه الرجل على خجله المصعوق. ثم تلعثم بخبر إعلان الحرب بين إنكلترا وألمانيا ورفض بحارة «ماركو بولو» الإبحار إلى إنكلترا ـ لاحتمال حدوث هجمات على الأساطيل التجارية، انظر ـ كانت أورورا قد أدركت، بشيء من الغضب إزاء تهور حركاتها، أنها، بسبب ظهور عاطفة مضحكة وغير مناسبة، سيتعين عليها أن تتحدى الطبقية والأعراف، بزواجها من هذا المستخدم الجميل لدى العائلة في الحال. «إنه أشبه بالزواج من سائق مسكين،» وبخت نفسها في بأسائها المنعمة، وللحظة من الزمن كانت مشغولة كثيراً بالهول اللذيذ لحالتها إلى حد أنها لم تقرأ الاسم المكتوب على لوحة خشبية صغيرة على طاولته.

«يا إلهي!» انفجرت صارخة، عندما أصرت الأحرف البيضاء أخيراً على أن تكون موضع رؤيتها. «ليس بالمخزي كثيراً أنك لن تحصلي على حبة فاصولياء في جيبك أو لسان في رأسك، بل عليك أيضاً أن تصيري يهودية، ثم قالت بشكل جانبي «واجهي الحقائق، أورورا. فكري بالأمر، فقد وقعت في غرام موسى المستودع اللعين».

غير أن الأحرف البيضاء المتحذلقة صححتها (فموضوع عواطفها، المصعوق، المضروب بضربة ـ قمر، جاف ـ الفم، الذي كان يخفق قلبه

بشدة، ويشتعل حِقواه ناراً بشكل مبدئي، كان غير قادر أن يفعل ذلـك)، لكونه حرم مباشرة من القدرة على النطق، بسبب ظهـور مـشاعر لم تكـن لتشجع عادة لدى العاملين في المستودع، فاسم المدير المناوب الأول لم يكن موسى بل أبراهام. وإذا كان ذلك صحيحاً فـإن أسماءنـا تـدل علـى مصائرنا، إذن الأحرف السبعة الكـبيرة أكـدت أنـه لم يكـن الهـارب مـن فرعون، أو متلقي الوصايا، أو من شطر الماء، كما أنه لا يقود الناس إلى أرض الميعاد، بل يقدم ابنه فداء وأضحية على مذبح الحب الرهيب».

و«الزغبي؟».

* * *

«سيء الحظ». بالعربية. ذلك، علـى الأقـل، بالنـسبة لكـوهين صـانع الشموع، ولتراث عائلة أبراهام من ناحية الأم. إذ ما مـن أحـد كـان لديـه معرفة جذرية بتلك اللغة البعيـدة. الفكـرة ذاتهـا مخيفـة. «انظـر فقـط إلى كتابتها». أبدت ذات مرة ملاحظتها فلوري أم أبراهام. «حتى تلك تبدو في غاية العنف، مثل شطبات السكين وطعنات السيف. سـاكنة وكـل شـيء: نحن أيضاً انحدرنا من أسلاف يهود من ناحية الأم. ربما ذلك يفسر لمـاذا حافظ على هذا الاسم الأندلسي ذي اللسان ـ الخطأ».

«أنت تسأل: لكن إذا كان الاسم اسم أمه، إذن كيـف جـاء الابـن؟.... أنا أجيب: تحكم، رجاء، بخيلك».

«إنك بعمر والدها. «فأبراهام الزغبي» ولد في العام ذاته الذي ولد فيـه كامونز المتوفى، إنه يقف متصلباً خارج كنيس كوشـين المـبني بـالآجر ـ آجر من كانتون، لا آجرتين فيه تتشابهان ، ذلك كتب على قطعـة قمـاش شغل إبرة على جدار الغرفة الأمامية ـ كما تنطلق منه بشدة روائح التوابـل وأشياء أخرى، يوهو يواجه غضب أمه. فالسيدة العجوز فلـوري الـزغبي، بفستانها الأخضر الباهت، كانت تعلك علكتها وتستمع إلى اعتراف ابنـها المتعثر الواقع في الحب المحرم، فيما ترسم بعكازهـا خطـاً في التـراب،

على أحد جانبي الكنيس. فلوري والتاريخ، وعلى الجانب الآخر أبراهام، فتاته الثرية، الكون، المستقبل ـ وكل الأشياء قذرة. مغمضة عينيها، مقفلة الباب أمام روائح أبراهام وتعثراته اللفظية، كانت تستدعي الماضي، مستخدمة الذكريات كي تتنبأ باللحظة التي ستتبرأ بها من ابنها الوحيد، إذ أن أحداً في كوشين لم يسمع من قبل بأن يهودياً تزوج من خارج ملته، أجل، ذاكرتها وما دونها وما وراءها، الذاكرة الأبعد للقبيلة... يهود الهند البيض، السفارديم الآتين من فلسطين والواصلين بأعداد (تقارب العشرة آلاف) سنة 72 بعد ميلاد المسيح، فارين من الاضطهاد الروماني. وبعد أن استقروا في كرانغانور أجروا أنفسهم كجنود للأمراء المحليين. وفي أحد الأيام نشبت معركة بين حاكم كوشين وعدوه زامورين حاكم كالكوتا، سيد البحر، فاضطر لأن يؤجل المعركة لأن الجند اليهود لا يقاتلون يوم السبت».

يا للملة المزدهرة! فهي، حرفياً، قد ازدهرت، وفي سنة 379م، منح الملك بها شكارا فاري فارمن الأول الحاخام يوسف مملكة صغيرة هي عبارة عن قرية أنجو فانام قرب كرانغانور. الألواح النحاسية التي نقش عليها هذا المنح انتهت إلى الكنيس الآجري، في عهدة فلوري، ولسنوات كثيرة، وبنوع من التحدي للتحيزات القائمة على أساس جنس الإنسان، كانت تلك المرأة قد تولت المركز المشرّف لمتعهد الكنيس بالرعاية. وكانت قد خبأتها في صندوق تحت المذبح، تلمعها من حين إلى حين بكثير من الحماسة والعمل اليدوي الشاق.

«مسيحية ليست سيئة كفاية، بل عليك أن تقطف الأشد سوءاً من الحزمة». كانت فلوري تغمغم. لكن نظرتها كانت ما تزال شاردة بعيداً إلى الماضي، مركزة على الكاجو اليهودي وجوز ـ الأريقة وأشجار ثمار ـ الحطاب، على الحقول المتموجة القديمة للفت اليهود ذي البذور الزيتية، لجمع الهال اليهودي، ترى ألم يكن ذلك هو الأساس لازدهار

الملة اليهودية؟ «الآن، يأتي هؤلاء الحديثو العهد ليسرقوا شغلنا،» غمغمت، «وهم فخورون بأنهم أوغاد وكل شيء، فآل فيتز فاسكو داغاما ليسوا أفضل من حزمة من المغاربة!!».

ولو أن الحب لم يكن قد صرع أبراهام أرضاً، لو أن الصاعقة التي نزلت على رأسه كانت أبعد زمناً، إذن لكان ثمة احتمال في أن يمسك لسانه انطلاقاً من العاطفة البنوية ومعرفته بأن تحيزات فلوري لا يمكن مناقشتها. «لقد ربيتك تربية حديثة جداً». تابعت الأم. «المسيحيون والمغاربة يا ولد، فقط ارجُ الله أن لا يقتربوا منك أبداً».

لكن أبراهام كان قد وقع في الغرام. سمع تهجم أمه على محبوبته فانفجر قائلاً في المقام الأول: إذا ما نظرت إلى الأمور بموضوعية سترين أنك أنت أيضاً حديثة العهد بالثروة، يقصد بذلك أن اليهود السود كانوا قد وصلوا قبل البيض، فارين من القدس حين هاجمتها جيوش نبوخذ نصر قبل خمسمائة وسبع وثمانية سنة من ميلاد المسيح، وحتى إن كنت لا تهتمين بهم لأنهم تزاوجوا من السكان المحليين واختفوا منذ زمن طويل، هناك، مثلاً، اليهود الذين جاؤوا من بابل وبلاد فارس ما بين 490 ـ 518 ميلادية. وقد مرت قرون طويلة منذ أن بدأ اليهود يفتحون محلات في كرانغانور ومن ثم في بلدة كوشين (إذ انتقل رجل يدعى يوسف عازار وعائلته إلى هناك سنة 1344، كما يعرف الجميع،) وحتى من اسبانيا بدأ اليهود بالوصول، بعد طردهم منها سنة 1492، بما فيهم، في المقام الأول، عائلة سليمان كاستيل...

لدى ذكر الاسم صرخت فلوري الزغبي ولوحت برأسها من جانب إلى آخر. «سليمان سليمان كاستيل كاستيل». فأبراهام ابن الستة وثلاثين عاماً كان يعير أمه بنوع من حب الانتقام الطفولي. «ذاك الذي يتحدر منه على الأقل هذا الطفل كاستيل. أتظن أنه كان علي أن أنجبك مباشرة من السنيور ليون كاستيل، صانع السيوف في طليطلة الذي فقد عقله بسبب حبه لأميرة

إسبانية وسلم حصنه لجدي الكبير الذي كان ولا بد مجنوناً، لكن النقطة الأساسية هي أن الكاستيل جاؤوا إلى كوشين قبل آل الزغبي باثنين وعشرين عاماً، وتلك حقيقة ثابتة...، في المقام الثاني اليهود ذوو الأسماء العربية والأسرار المخفية، عليهم أن يراقبوا من يدعون «مغاربة»».

رجال كبار في السن ذوو سيقان بناطيل مدرجة إلى الأعلى، وكذلك نساء ذوات شعر معقود على شكل كعكة، مائل للرمادي ظهروا في الزقاق اليهودي الظليل خارج كنيس متنتشيري وشاهدوا بكل رزانة الشجار، ذلك أن فوق الأم الغاضبة والابن الذي كان يرد، انفتحت مصاريع نوافذ وظهرت منها رؤوس. وفي المقبرة المجاورة، كانت كتابات بالعبرية تلوح على شواهد القبور مثل رايات مرفوعة حتى نصف الصاري أثناء الغسق، وكانت هناك رائحة سمك وتوابل في الجو. وفلوري الزغبي، لدى ذكر الأسرار التي لم تتكلم عنها البتة، تحللت بسرعة إلى لعثمات وحركات.

«اللعنة على كل المغاربة» بدأت السخرية «الذين دمروا كنيس كرانغادور. إنهم المغاربة، ومن سواهم؟ زملاء عطيل، صناعة محلية صنعت في الهند. وباء حل ببيوتهم وزوجاتهم. سنة 1524، أي بعد عشر سنين من وصول آل الزغبي من اسبانيا، اندلعت حرب بين الإسلام واليهود في هذه الأنحاء. إنها أقدم عهداً من أن نحييها، وقد فعلت فلوري ذلك آملة أن تقلب أفكار ابنها وتبعده عن قضايا خفية. لكن الأيمان يجب أن لا تلفظ بصوت خفيف، خاصة قبل الشهادة. ولعنة فلوري طارت في الهواء مثل فروج مجفل ثم حومت هناك حيناً من الزمن وكأنها غير متأكدة من هدفها المقصود. فحفيدها موريس الزغبي لم يكن ليولد قبل ثمانية عشر عاماً، وهو الوقت الذي جاء فيه الفروج إلى المنزل لكي يشوى.

(وعلى ماذا اقتتل المسلمون واليهود في قرن الألف والخمسمائة ذاك؟ أي شيء آخر؟ تجارة الفلفل).

«اليهود والمغاربة كانوا الوحيدين الذين ذهبوا إلى الحرب». دمدمت فلوري العجوز، وكلها شعور بالتعاسة لأن تعيد الجملة مرات عديدة. «والآن هاهم جماعتك المسيحيون آل داغاما يمضون ويقنصون السوق منا كلينا».

«أنت رائعة حين تتكلمين عن الأوغاد»، صرخ أبراهام الزغبي الذي يحمل اسم أمه. «فيتز، تقول»، راح يخاطب الحشد المجتمع. «لسوف أريكم فيتزها ذاك»، عند ذلك وبخطا واسعة دخل إلى الكنيس مع أمه، المتعثرة بعده، والمنفجرة في بكاء وصراخ بلا دموع.

* * *

عن جدتي فلوري الزغبي، الرقم المعاكس لإيبفانيا داغاما، ونظيرتها في العمر، رغم أنها أقرب إلي بجيل من البشر: فقبل عقد من ابتداء القرن، كانت فلوري التي لا تخاف، تسكن كالشبح ملعب مدرسة الصبيان، تشاكس المراهقين بحركات انفتال من تنوراتها وشخرات من أغانيها، وبغصن يخط التحديات على الأرض ـ (اقطع هذا الخط) ـ «وقد وصل رسم الخط إلي من طرفي أسرتي كليهما». كما كانت تخوفهم برقى هرائية رهيبة «متشبهة بساحرة»:

أو هـ.. يه.. جادو، فو، فوم
أحشاء فراريج، مملكة تأتي
جو ـ جو، فودو، في، فاي
حفلات لتضييع الوقت، وقت للموت

وحين كان الصبية يأتون إليها، كانت تهاجم بشراسة إلى حد أنها كانت بسهولة تتغلب على مزاياهم المسرحية من قوة وحجم. فمواهبها الحربية انحدرت إليها من أحد أسلافها المجهولين، ورغم أن أعداءها كانوا يمسكون بشعرها ويدعونها يهودية، إلا أنهم لم يهزموها قط. بل أحياناً، وبصورة حرفية، كانت تمرغ أنوفهم في التراب. وفي مناسبات

أخرى كانت تقف إلى الخلف، يداها منطويتان على صدرها بوضعية المنتصر، كي تسمح لضحاياها المندهشين أن يفروا مبتعدين. «المرة الثانية، اعلق مع واحد من حجمك». ثم تضيف فلوري إساءة إلى الإصابة وذلك بقلبها معنى العبارة «نحن اليهود بحجم «البراينت» (حجم صغير) أشد حرارة من أن تتقاتلوا معنا». أجل، كانت تمرغ أنوفهم في التراب لكن حتى هذه المحاولة لترميز انتصاراتها، لتمثيلها كبطلة للأقلية الصغيرة من الفتيات فشلت في جعلها محبوبة شعبيا، إلا أن فلوري السريعة، فلوري الغدارة اكتسبت صيتاً ذائعاً.

ثم حان الوقت حين لم يعد أحد يتخطى الخطوط التي استمرت في رسمها، بدقة مخيفة، عبر الأخاديد والفضاءات المفتوحة لسنوات طفولتها. لقد كبرت مزاجية، منطوية على ذاتها، تجلس خلف خطوطها الترابية، وحولها أسيجة من تحصيناتها الخاصة. في عيد ميلادها الثامن عشر، توقفت عن العراك، وقد تعلمت شيئاً ما عن الفوز بالمعارك وخسارة الحروف.

النقطة التي أريد توضيحها هي أن المسيحيين في نظر فلوري كانوا قد سرقوا منها ما هو أكثر من حقول توابل أجدادها. ما أخذوه حتى ذلك الحين كان نوعاً من الإمداد القصير المدى، وبالنسبة لفتاة ذات صيت ذائع، كان الإمداد أقصر مدى أيضاً. ففي سن الرابعة والعشرين من عمرها كان سليمان كاستيل، متعهد الكنيس بالرعاية، قد خطا متجاوزاً خطوط الآنسة فلوري طالباً يدها للزواج. فظن كثير من الناس أن ذلك العمل نوع من الإحسان الكبير أو الغباء أو كليهما. إذ حتى في تلك الأيام، كانت أعداد الملة تتناقص. ربما أربعة آلاف شخص يعيشون في بلدة متنتشيري اليهودية. وحين تستثني أفراد العائلة ممن هم صغار جداً وكبار جداً، مجانين ومعاقون، فإن الشبان الذين هم في سن الزواج لم يكونوا يستطيعون التدلل في اختيار الشريك! فقد كان العزّاب الكبار

يهوّون أنفسهم بالمراوح المائية ويمشون يداً بيد على حافة المرفأ، فيما العجائز اللواتي صرن بلا أسنان كن يجلسن عند أبواب بيوتهن يخطن الملابس لأطفال لا وجود لهم. ذلك أن الأمومة تلهم بقدر ما يلهم الحسد الحاقد بالاحتفال، وزواج فلوري من الوكيل كان يعزى إلى إشاعة عن بشاعة كلا الطرفين. «كإثم،» قالت الآنسة السليطة «اشفق على الصغار يا رب».

(«أنت بعمر والدها»، وبخت فلوري أبراهام، لكن سليمان كاستيل الذي ولد سنة الانتفاضة الهندية، كان أكبر منها بعشرين سنة. «رجل مسكين ربما أراد أن يتزوج وهو ما يزال قادراً على الزواج،» كانت الألسنة تسلقهم بأقوالها. وهناك حقيقة أخرى تتعلق بزفافهما. إذ جرى في اليوم ذاته من سنة 1900 حين حدث شأن أكبر بكثير، لهذا، ما من صحيفة سجلت زواج كاستيل ـ الزغبي في زوايا صفحاتها الاجتماعية، لكن كان هناك الكثير من الصور الضوئية لفرانسيسكو داغاما وعروسه المنغالورية المبتسمة).

أخيراً تم إرضاء نزعة الانتقام لدى من لا زوجة له: إذ بعد سبع سنوات وسبعة أيام من العرس البهيج، أنجبت فلوري ولداً واحداً، صبياً سيكبر بكثير من الدأب ليكون أجمل شاب في جيله المتضائل، فيما الوكيل كاستيل مع حلول الليل لعيد ميلاده الخمسين مشى إلى حافة الماء، قفز إلى قارب تجذيف فيه نصف دزينة من البحارة البرتغاليين السكارى وفر إلى البحر. «كان يجب أن يعرف ما هو أفضل من الزواج بفلوري الهدارة». حسب أقوال العجائز العوانس المسرورات. «لكن دماغ رجل عاقل لا يأتي بشكل آلي مع اسم الرجل العاقل». ثم اشتهر الزواج الذي تحطم في متنتشيري باسم «سوء حكم سليمان»، لكن فلوري أنحت باللائمة على السفن المسيحية، الأسطول التجاري للغرب كلي القوة الذي أغرى زوجها بأن يبتعد بحثاً عن الشوارع الذهبية. وفي عمر

السابعة، كان ابنها مكرهاً على التخلي عن اسم أبيه، التعس بين الآباء، ليتخذ كنية له هي كنية أمه «الزغبي» التعسة.

بعد أن هجرها سليمان، تولت فلوري نظارة الآجر السيراميكي الأزرق، والألواح النحاسية للحاخام يوسف، مطالبة بالمنصب بشراسة شديدة أخرست كل معارضة لتعيينها ذاك، ليغدو تحت حمايتها: ليس فقط أبراهام الصغير، بل أيضاً العهد القديم المكتوب على الرق، الذي كانت صفحاته الجلدية التالفة تدفق أحرفاً عبرية، كذلك التاج الذهبي الأجوف الذي قدم كهدية (سنة 185 ميلادية) من قبل مهراجا ترافانكور. ولقد قامت بإصلاحات. فحين كان المؤمنون يأتون للتعبد، كانت تأمرهم بخلع أحذيتهم. حينذاك ثارت اعتراضات على تلك الممارسة المغربية تماماً، إلا أن فلوري، وكرد على ذلك، ضحكت ضحكات لا فرح فيها كالنباح.

«ما العبادة؟» نخرت بهم. «رعايتكم مطلوبة مني، والأفضل أن تقوموا أنتم ببعض الرعاية أيضاً. اخلعوا الأحذية، تحموا بذلك الآجر الصيني».

«لا توجد آجرتان متشابهتان». الآجر من كانتون قياس 12×12 تقريباً، استورده إزكاييل ربهي سنة 1100 ميلادية، يغطي الأرض، الجدران وسقف الكنيسة الصغير. كما كانت هناك حكايات تحكى عنه. إذ قال البعض إنك إذا ما أمعنت النظر فيه طويلاً، ستجد حكايتك في أحد المربعات الزرقاء والبيضاء، لأن الصور على الآجر بإمكانها أن تتغير، بل هي تتغير من جيل إلى جيل، لتحكي قصة يهود كوشين. فيما كان آخرون مقتنعين بأن الآجر كان عبارة عن نبوءات، فقدت المفاتيح الخاصة بمعرفة معانيها على مر السنين.

كصبي، كان أبراهام يزحف حول الكنيسة، استه في الهواء وأنفه ينضغط على الصيني الأزرق العتيق. لم يقل لأمه قط إن أباه ظهر له من جديد بشكل سيراميكي على أرض الكنيس بعد سنة من رحيله، وهو في قارب تجذيف أزرق صغير مع أنماط من الناس أجانب ـ المظهر، زرق

الجلود إلى جانبه، متجهين نحو الأفق الأزرق أيضاً والبعيد. بعد هذا الاكتشاف، راح أبراهام بين الفينة والفينة يتلقى أخبار سليمان كاستيل عبر المكاتب الجيدة للآجر المتمور. المرة التالية رآه في مشهد لازوردي في حفلة مرح من النموذج الديونيزوسي وسط تنانين مذبوحة وبراكين هادرة، حيث كان سليمان يرقص في خيمة سداسية الشكل مفتوحة والفرح الشديد على محياه الآجري الأزرق الذي تشوه كلياً، خلافاً لسيمائه الحزينة التي كان أبراهام يتذكرها. إن كان سعيداً، كان الصبي يفكر، إذن أنا سعيد، ثم يذهب. منذ أيامه المبكرة، كان لدى أبراهام معرفة غريزية بسمو السعادة ورفعتها. إنها الغريزة ذاتها التي سمحت، بعد سنين، للمدير المناوب في المستودع أن يمسك بالحب الذي قدم له مع الكثير من احمرارات الخجل والسخريات من قبل أورورا داغاما في مستودع إرناكولم الموزع بين الجلاء والعتمة.

على مر السنين كان أبراهام يجد أباه ثرياً بديناً في إحدى الآجرات، جالساً على المساند في وضع الملوك، والخصيان في خدمته، كذلك الفتيات يرقصن حوله، لكن بعد بضعة أشهر فقط، بدا له ناحل الجسم متسولاً في مشهد آخر قياس 12×12. حينذاك فهم أبراهام أن الوكيل السابق ترك كل الحدود والقيود خلفه وأنه ينعم بصورة وحشية بحياة أرادها عمداً أن تكون خارج السيطرة. إذ صار سندباداً يبحث عن حظه في كل محيطات الأرض. كما كان جسماً سماوياً تدبر أمره كي يتحرر من مداره الثابت، ليتجول بين المجرات راضياً بالمصير الذي تقدمه له. كما بدا لأبراهام أن انفلات أبيه من جاذبية الأمور اليومية وفر له كل ما لديه من قوة ـ الإرادة بحيث أنه، بعد عمله الأول والجذري، أي القيام بالتجول، غدا بلا موجِّه، تحت رحمة الريح والمد.

مع اقتراب أبراهام من المراهقة، بدأ سليمان كاستيل يظهر ضمن لوحات شبه ـ إباحية جنسية، ملاءمتها للكنيس كانت ستغدو موضع

الكثير من الجدل، لو أنها وقعت تحت بصر أي إنسان آخر غير أبراهام. فتلك الآجرات كانت تبرز في أوسخ التجاويف وأشدها ظلمة من البناء وقد احتفظ بها أبراهام بالسماح للتراب بأن يتشكل عليها وبيوت العنكبوت بالتجمع على مناطقها الأكثر استحقاقاً للشجب، تلك التي كان والده فيها يمرح مع أعداد كبيرة من الناس من كلا الجنسين بطريقة لم يكن ابنه ذو العين الواسعة يظن إلا أنها تعليمية. مع ذلك ورغم الحركات الرياضية المواسية لتلك النشاطات، فإن المتجول المتقدم في السن كان يستعيد سيماه القديمة بكل ما فيها من كآبة وحزن، بحيث أن رحلاته كلها، ربما، لم تفعل أكثر من أن تغسله في اللحظة الأخيرة على نفس شواطئ الاستياء التي انطلق منها أول مرة. وفي اليوم الذي تغيرت فيه طبقة صوته، سيطرت عليه فكرة مفادها أن أباه كان على وشك أن يعود. فركض عبر أزقة الحي اليهودي إلى واجهة الماء حيث الشباك المثبتة من طرف واحد قد نشرت على وجه الماء، لكن السمكة التي كان يبحث عنها لم تقفز إليه من الأمواج. وحين عاد يائساً إلى الكنيس، كانت كل الآجرات التي تصور أباه في رحلاته الأوديسية قد تغيرت، لتبدو عليها مشاهد مجهولة الأسماء، تافهة.

قضى أبراهام، وهو غاضب كل الغضب الساعات يزحف على الأرض بحثاً عن السحر، لكن لا فائدة: فللمرة الثانية في حياته كان أبوه غير الحكيم سليمان كاتسيل قد اختفى في زرقة الآجر.

* * *

أنا لا أتذكر بعد، متى سمعت لأول مرة القصة التي زودتني باسمي المستعار وقدمت لأمي موضوعة لسلسلة من أشهر رسومها، «سلسلة المغربي» تلك التي أوصلتها إلى ذروة الانتصار، خاصة في اللوحة غير المنتهية، تلك التي سُرِقت «تنهيدة المغربي الأخيرة». فعلى ما يبدو كنت

أعرفها طوال حياتي، تلك الحكاية الرهيبة التي، ولا بد أن أضيف، كان السيد فاسكو ميراندا قد استوحى منها عملاً مبكراً له. لكن رغم الإلفة الطويلة.، فإن لدي شكوكا جدية حول الحقيقة الحرفية للقصة، قصة مزالا التي يروونها في بومباي البالية بشكل ما، ورجوعها اليائس تقريباً إلى نوع من المصداقية والصحة... إنني أعتقد، ولقد أثبت آخرون ذلك منذ زمن أن تفسيراً أبسط يمكن أن يقدم للتعامل بين أبراهام الزغبي وأمه، على نحو أخص بالنسبة لما وجد أبراهام وما لم يجد في الحقيقة العتيقة تحت المذبح، لكنني سأقدم نسخة بديلة لهذه بالتدريج. أما حالياً فسوف أقدم حكاية العائلة الملمعة والمثبتة التي تشكل جزءاً عميقاً جداً من صورة والديّ عن نفسيهما ـ وجزءاً مهماً جداً من تاريخ الفن الهندي المعاصر ـ لذلك، ولتلك الأسباب بالذات، إن لم يكن لسواها، فإن لها قوة وأهمية لن أحاول نكرانها.

لقد وصلنا إلى اللحظة الأساسية في الحكاية ـ فلنعد بشكل سريع إلى أبراهام الفتى وهو على يديه وركبتيه باحثاً في الكنيس كالمجنون عن الأب الذي هجره للتو مرة ثانية، داعياً إياه إليه بصوت مشروخ، وقد تحول من صوت بلبل إلى صوت غراب إلى أن توصل في النهاية، وقد تجاوز المحرمات التي لا تلفظ، إلى أن غامر للمرة الأولى في حياته وفتش تحت وما وراء الغطاء الأزرق الباهت ذي الحاشية الذهبية الذي كان يغطي المذبح العالي... لكن سليمان كاستيل لم يكن هناك، بل وقعت عين المراهق، بدلاً من ذلك، على علبة عتيقة، عليها حرف «ز»، مغلقة بقفل رخيص خلعه أبراهام مباشرة، لأن تلاميذ المدارس لديهم مهارات نسيها الكبار وقد حفظوها كالدروس غيباً. هناك، وقد يئس من أبيه المفقود، وجد أسرار أمه بدلاً من ذلك.

ما الذي كان في العلبة؟ ـ لماذا، الكنز الوحيد الذي له أي قيمة، أي بالتحديد الماضي والمستقبل، لكن الزمرد أيضاً.

* * *

وهكذا حتى يوم الأزمة، عندما اندفع أبراهام الزغبي إلى داخل الكنيس ـ وهو يصرخ، سأريها فيتزها ذاك ثم سحب الحقيبة من مخبئها. فرأت الأم، التي تتابعه، أسرارها تظهر على الملأ وشعرت بساقيها، تنحل قواهما لتجلس على الآجر الأزرق بصوت كالخبطة فيما فتح أبراهام العلبة وأخرج خنجراً فضياً شكه في حزام بنطاله، ثم راقبته متنفسة على شكل شهقات قصيرة، وهو يُخرج ثم يضع على رأسه تاجاً بالياً قديماً.

«ليست حلقة القرن التاسع عشر الذهبية التي قدمها مهراجا ترافانكور، بل هي شيء ما أقدم كلياً» كان ما سمعته. عمامة خضراء قاتمة ملفوفة في قماشة صارت شبه وهمية مع الزمن، رقيقة جداً إلى حد أن ضوء المساء البرتقالي النافذ إلى داخل الكنيس بدا قوياً جداً بالنسبة لها، مهلهلة جداً إلى حد أنها كان من الممكن أن تتفكك تحت نظرات فلوري الزغبي المتقدة...

على شبح العمامة تلك، كانت حكاية العائلة تمضي، إذ تدلت منها سلاسل من الذهب الخالص اسودت مع الزمن، كما كان يتدلى من تلك السلاسل زمردات كبيرة، خضراء إلى حد أنها بدت أشبه بدمى أطفال. «عمرها أربعة قرون ونصف القرن، آخر تاج يسقط عن رأس آخر أمراء الأندلس، لا شيء أقل من تاج غرناطة الذي كان يلبسه أبو عبد الله، آخر بني نصر، والمعروف عند الغرب باسم بو عبديل».

«لكن كيف وصل إلى هنا؟» كنت أسأل أبي عادة. كيف بالحقيقة؟ هذه الأشياء التي لا تقدر بثمن ـ هذه العمامة الملكية المغربية ـ كيف ظهرت من علبة امرأة درداء لتنتصب على رأس أبراهام، أبي المستقبل، اليهودي المرتد؟

فأجاب والدي «إنها جواهر العار المزعجة».

لكن في الوقت الحالي، أتابع دون الحكم على هذه النسخة من الأحداث: فعندما اكتشف الصبي أبراهام الزغبي للمرة الأولى التاج المخبأ والخنجر أعادهما إلى مخبئهما، كما أعاد تثبيت القفل في مكانه وأمضى الليل والنهار خائفاً من غضب أمه. لكن ما إن اتضح أن عمليته

الاستكشافية مرت دون أن يلحظها أحد، حتى عاد فضوله للاستيقاظ من جديد، ومن جديد سحب الصندوق الصغير ثم فتح القفل. هذه المرة، وجد، ملفوفاً في خيش داخل علبة ـ العمامة، كتاباً صغيراً يتكون من أوراق رق مكتوبة باليد وقد خطت بغير مهارة وجُلِّدت بالجلد. لكنها كانت مكتوبة بالاسبانية التي لم يكن أبراهام الصغير يفهمها، إلا أنه نسخ عدداً من الأسماء الموجودة هناك، وعلى مر السنين التي أعقبت ذلك، فك رموز معانيها. فكها مثلاً، بطرح أسئلة بريئة على الشماع الوحيد المعتزل العجوز موشي كوهين، الذي كان في ذلك الوقت قد تم تعيينه رئيساً للملة وحافظاً لتراثها ولقد كان السيد كوهين العجوز يندهش كل الاندهاش ، لاكتشافه أن هناك أحد أفراد الجيل الشاب يهتم بالأزمنة القديمة التي كان يتكلم عنها بملء حريته، مشيرا إلى الآفاق البعيدة، بينما يجلس الشاب الجميل جاحظ العينين عند قدميه.

وهكذا، علم أبراهام أنه في كانون الثاني 1492، عندما كان كريستوفر كولومبوس يراقب بشيء من العجب والازدراء، السلطان أبا عبدالله سلطان غرناطة وهو يسلم مفاتيح قصره ـ القلعة، الحمراء، آخر وأعظم حصون المغاربة كلها إلى الملكين الكاثوليكيين قاهري الجميع، فرناندو وإيزابيلا، متخلياً عن إمارته دون معركة، مغادراً إلى منفاه مع أمه وبطانته، منهياً قروناً من الوجود المغربي في إسبانيا، ثم كابحاً فرسه على تلة الدموع ليلتفت وينظر للمرة الأخيرة إلى ما فقده، من قصر وسهول خصبة وكل ذلك المجد الأندلسي الذي انتهى.... بعد نظرته تلك، تنهد السلطان، ثم بكى بكاء حاراً، عند ذلك نخرت أمه، آيكسا الفاضلة الرهيبة محتجة على حزنه. ولكونه كان مجبراً على الانحناء أمام ملكة كلية القوة، فقد اضطر بوعبديل حينذاك لأن يعاني إذلالاً أشد على يدي عجوز مهيبة بلا قوة (لكنها هائلة). إذ قالت له: «ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال». لقد عيرته، وهي تقصد بالطبع،

العكس، قاصدة أنها كانت تحتقر ذلك الذكر المنتحب، ابنها، لتسليمه ما كانت ستقاتل عنه حتى الموت، لو أعطيت الفرصة. إذ كانت نظيرة الملكة إيزابيلا وعدوتها، لكن الحظ الحسن هو الذي جعل الملكة إيزابيلا تظهر وليس أمامها سوى الطفل ـ البكّاء بوعبديل فقط...

فجأة. ومع كلام الشماع، لف أبراهام لفة من الحبل، شاعراً بالثقل المحزن للنهاية التي انتهاها بوعبديل، وكأنها نهايته هو، أنفاسه كانت تغادر جسده بنوع من الأنين، ثم الشهقات. بداية ربو (ربو آخر!! وإنني لأتعجب لكوني أستطيع التنفس أصلاً). كانت أشبه بنذير شر، يصل ما بين حيوات عبر القرون، أو هكذا تخيل أبراهام وهو يكبر ليبلغ رشده ويزداد مرضه قوة. هذه التنهدات التي تخرج مع الصغير ليست لي فقط بل له كذلك، صاحب تلك العيون المحترقة بحزنه القديم.

«بوعبديل، أنا أيضاً ابن أمك».

هل كان يبكي ضعفاً كهذا؟ كان يتساءل. هل كان يدافع حتى الموت عن قوة كهذه؟ بعد أن سلم بوعبديل مفاتيح الحمراء، اختفى في الجنوب. الملوك الكاثوليك كانوا قد سمحوا له بالحفاظ على أرض له، لكن حتى هذه بيعت من قبل رجال بلاطه الموثوق بهم دون أن يستطيع فعل شيء. لقد تبين أن بوعبديل أحمق. وقد مات أخيراً في معركة كان يقاتل فيها تحت راية ملك صغير آخر.

سنة 1492، تحرك اليهود أيضاً إلى الجنوب. والسفن المحملة يهوداً منفيين باتجاه منفى جديد، كانت تزدحم في مرفأ قادش، مجبرة المسافر الآخر في تلك السنة كولمبوس على أن يبحر من ميناء بالوس دي موغر. لقد تخلى اليهود عن صهر الفولاذ في طليطلة، وأبحر كاستيل إلى الهند، لكن اليهود لم يغادروا كلهم دفعة واحدة، بل هم يتذكرون أن آل الزغبي تأخروا اثنين وعشرين عاماً عن أولئك الكاستيل القدماء. متى حدث ذلك؟ وأين اختبؤوا؟

كل ذلك سيروى في حينه، يا بني. كل شيء في أوانه.

في عشرينياته، علم أبراهام سراً من أمه، ولإزعاج الحزمة الضئيلة من الفتيات الجديرات به من جيله أبقاه لنفسه، منطلقاً إلى قلب المدينة، متجنباً الحي اليهودي ما أمكن، وعلى الأخص الكنيس. لقد عمل أولاً لدى موشي كوهين، ثم كاتباً صغيراً لدى آل غاما، ورغم أنه كان عاملاً مجداً حصل على ترقية مبكرة، إلا أنه كانت له هيئة رجل ينتظر شيئاً ما، وبسبب تجريديته وجماله، بات من الشائع القول إنه كان عبقرية قيد الصنع، ربما حتى شاعراً عظيماً كان اليهود يتوقون دائماً لوجوده، لكن دون أن يستطيعوا إيجاده. وسارا، ابنة أخت موشي كوهين المشعرة قليلاً، وذات الجسد الضخم، كانت تنتظر مثل شبه قارة لم تكتشف بعد، أن تبحر سفينة أبراهام إلى مرفئها، هي مصدر الكثير من تلك الشائعات التخمينية. لكن الحقيقة هي أن إبراهام كان يفتقر كلياً للشرارة الفنية. فعالمه عالم الأرقام، لاسيما الأرقام قيد العمل ـ أدبه، صفحة ـ موازنته، موسيقاه، التناغمات الهشة للصناعة والبيع، ومعبده هو مستودع عطر الرائحة. هو لم يتلفظ بكلمة عن التاج والخنجر في العلبة الخشبية. لذلك، ما من أحد عرف بأن ذلك هو السبب في أن هيئته كانت أشبه بهيئة ملك في المنفى، وبشكل خصوصي، في تلك السنين التي عرف فيها أسرار عائلته عبر التاريخ، وذلك بأن علم نفسه بنفسه الاسبانية من الكتب ففك رموز ما كان ذلك الدفتر المجلد يريد أن يقول، إلى أن وقف أخيراً والتاج على رأسه ذات أمسية برتقالية وواجه أمه بعار عائلته الخفي.

* * *

في الخارج، في زقاق متنتشيري، كان الحشد الذي كبر يشتد غمغمة. فموشي كوهين، زعيم الملة، أخذ على نفسه أن يتسلل إلى الكنيس ليتوسط بين الأم والابن المتحاربين، لأن الكنيس ليس المكان المناسب

لشجار كهذا. وقد تبعته ابنة أخته سارا التي تصدع قلبها على مهل تحت وطأة معرفتها بأن تربة حبها العظيم لا بد أن تبقى تربة بكراً بسبب افتتان أبراهام الغادر بأورورا الكافرة التي حكمت عليها أن تبقى عانساً إلى الأبد، تحيك خفافات أطفال لا جدوى منها وأثواباً زرقاء وزهرية لأطفال لن يملؤوا رحمها أبداً.

«ذاهب لتهرب مع فتاة مسيحية، يا أبيه»، قالت بصوتها الأجش الجهوري في جو الكنيس ذي البلاط الأزرق، «وتلبس أيضاً مثل شجرة عيد ميلاد».

لكن أبراهام كان يعذب أمه بأوراق مخيطة بين القماش والجلد. «من هو المؤلف؟» سألها، وبما أنها بقيت صامتة، أجاب نفسه «امرأة». ثم تابع بتلك النغمة ذاتها، «ما اسمها؟» ـ لم يُذكر ـ ما هي؟ ـ يهودية، اتخذت ملجأ لها سقف سلطان منفي، فتحت سقفه، ثم بين ملاءات فراشه. «تزاوج؟» ذكر أبراهام بصراحة، «حدث». ورغم أنه كان من السهل تماماً أن يشعر بالشفقة على ذينك الزوجين، الملك العربي الاسباني المعزول واليهودية الاسبانية المنبوذة ـ فإن العاشقين الأعزلين صنعا ما يشبه القضية العامة ضد الملكين الكاثوليكيين ـ لكن ظل المغربي وحده من كان يتطلب الشفقة من أبراهام. «فرجال بلاطه المقربون باعوا أراضيه، وعشيقته سرقت تاجه. بعد سنوات من الإقامة معه، هذه الجدة التي لا يعرف أحد اسمها انسلت مبتعدة عن الملك العاثر، واستقلت سفينة إلى الهند، بين متاعها كنز عظيم، وفي رحمها جنين ذكر، منه، ثم بعد أجيال عديدة، جاء أبراهام نفسه. «أمي التي تصر على نقاء عرقنا، ما الذي تقوله لجدها المغربي؟»

«لم يكن للمرأة اسم»، قاطعته سارة، «مع ذلك تزعم أن دمها الملوث هو دمك. ألا تخجل من جعل أمك تبكي؟ وكل ذلك من أجل حب فتاة غنية، أبراهام، أقسم إن هناك نتناً، وبالمناسبة، هكذا أنت».

من فم فلوري الزغبي انطلقت ولولة رقيقة مؤثرة. لكـن حجـة أبراهـام لم تكن كاملة. «انظروا إلى هذا التاج المسروق، ملفوفاً بالقمـاش، مقفـلاً عليه في علبة، لما يزيد عن أربعمائة سنة. لو أنه سرق مـن أجـل مكـسب بسيط، ألم يكن قد بيع منذ زمن طويل؟».

«بسبب الكبرياء الضمنية لدى الحلقة الملكية، تم الحفاظ على التـاج، بسبب الخجل السري، وقد تم إخفاؤه» «يا أم، مـن تـراه أسـوأ. أوروراي التي لا تخفي رابطتـها الفاسـكوية، بـل تبتـهج بهـا، أم أنـا المولـود مـن التنهدات الأخـيرة للمغـربي العجـوز البـدين، وهـو في أحـضان محظيـة سارقة ـ يهودي ابن سفاح لبوعبديل؟».

«الدليل،» أجابت فلوري همساً، خصم جرح جرحاً قاتلاً يتوسـل مـن أجل الضربة القاضية. «مجرد فرضية تقدم، أين الحقائق الأكيدة الثابتـة؟» فسأل أبراهم العنيد سؤاله القاتل.

«أمي، ما مغنى اسم عائلتنا؟»

حين سمعت هذا، عرفت فلوري أن ضربة ـ الرحمـة قريبـة، ودون أن تتكلم هزت رأسها. ثم على موشـي كـوهين الـذي كـان سـيتخلى، ذلـك اليـوم، عـن صـداقته القديمـة إلى الأبـد، طـرح أبراهـام ورقـة تحديـه. «السلطان بوعبديل، بعـد سـقوطه، عُـرف باسـم مـستعار واحـد، وهـي أخذت تاجه وجواهره في الظلام، كمـا أخـذت الاسـم المـستعار أيـضاً. بوعبديل العاثر الحظ: ذلك كان الاسم. وأي واحـد هنـا يمكنـه أن يقـول ذلك بلغة المغربي ذاتها».

ثم كان الشماع العجوز مضطراً لأن يكمل البرهان «الزغبي».

على مهل. وضع أبراهام التاج إلى جانب فلوري المهزومة، بجانب علبته.

«على الأقل سقط من أجل فتـاة غنيـة» قالـت فلـوري بـصورة جوفـاء للجدران. «لقد كان لي ذلك التأثير عليه حين كان ما يزال ابني».

«الأفضل أن تذهب الآن». قالت سارة لأبراهام ذي رائحة الفلفل. «ربما حين تتزوج، ستأخذ اسم الفتاة، ولم لا؟ حينذاك يمكن أن ننساك، وما الفرق بين ابن زنى مغربي وابنة زنى برتغالية؟»

«خطأ فادح يا أبيـ...ـه،» علق موشي كوهين العجوز، «أن تجعل أمك عدوة لك، فالأعداء كثيرون، لكن من الصعب، أن تجد أماً».

* * *

وحدها فلوري الزغبي، إثر الكشف الكارثي، حظيت بكشف آخر. ففي الغسق القرمزي لغروب الشمس، رأت الآجر الكانتوني يمر أمام عينيها، آجرة آجرة. لأنها لم تكن خادمة ودارسة لها وحسب، بل كانت تنظفها وتفركها طوال تلك السنين العديدة. ولو أنها لم تحاول مرات كثيرة أن تدخل عوالمها المزدحمة، فإن تلك العوالم كانت تحوي وحدانية الـ 12×12 وتعلق أسيرة على الجدران المملّطة ـ بكل أناقة، فلوري التي كانت تحب أن ترسم الخطوط، باتت تسحرها صفوف الآجر المنتظمة، لكن حتى تلك اللحظة لم يكن الآجر قد تكلم معها، فلم تجد هناك أزواجاً ضائعين ولا معجبين قادمين من المستقبل ولا نبوءات بمستقبل ولا تفسيرات لماضٍ. الإرشاد، المعنى، الثروة، الصداقة، الحب، كل ذلك كان قد حجب عنها. لكن وهي في ساعة عذابها، كشف الآجر لها سراً.

إذ كان يمر مشهد أزرق تلو مشهد أزرق أمام عينيها، حيث كانت هناك أسواق صاخبة وقصور ـ قلاع مزودة بفتحات لإطلاق النار وحقول قيد الحراثة ولصوص في السجن. كما كان هناك جبال مسننة عالية وسمكة كبيرة في البحر، حدائق للمتعة كانت متوضعة داخل الأزرق ومعارك دامية ـ بالأزرق، تخاض بشراسة، وخيول ترمح بفرسانها تحت نوافذ مضاءة بمصابيح وسيدات بأقنعة زرقاء مغمى عليهن تحت العرائش. أوه، كذلك خداع رجال الحاشية وأحلام الفلاحين والعمال المجهدين في آمالهم والشعراء مع كؤوسهم. وعلى الجدران الأرض السقف في الكنيس الصغير

والآن في عين خيال فلورا الزغبي، كان يسير حشد سيراميكي من العالم المادي الذي كان أيضاً كتاب حيوانات، مؤلَّفاً من الرحلات، تركيبة أغنيات، وللمرة الأولى في سنوات نظارتها كلها، رأت فلورا ما كان ضائعاً في الموكب الحاشد تماماً. «ليس تماماً كما كان»، فكرت فلوري، وقد جفت عيناها من الدموع، «ففي المكان كله، لا أثر». وسقط ضوء المغيب البرتقالي عليها مثل وابل من المطر. ذاهباً بعماها، فاتحاً عينيها. إذ بعد ثمانمائة وتسع وثلاثين سنة من مجيء الآجر إلى كوشين، وفي بداية زمن الحرب والمجازر، أوصل الآجر رسالته إلى امرأة تتألم.

«ما ترينه هو ما يوجد،» غمغمت فلوري همساً. «ليس هناك عالم سوى هذا العالم». بعدئذ وبصوت أعلى قليلاً: «ليس هناك إله، كلام فارغ، هراء. ليس هناك حياة روحية».

ليس من الصعب إبطال حجج أبراهام. فماذا في الاسم؟ آل داغاما يدعون أنهم ينحدرون من صلب المكتشف فاسكو داغاما، لكن الادعاء ليس هو البرهان، وحتى ما يتعلق بالأسلاف لدي شكوك جدية، لكن بالنسبة لمادة ـ المغربي هذه، غرناطة هذه، تلك الرابطة الرخوة إلى درجة غير معقولة ـ اسم أول يبدو أشبه باسم مستعار، وحق الله! ـ إنه يسقط حتى قبل أن توجه إليه الضربة. دفتر عتيق مجلد بجلد؟ غازٍ لم يرَه أحد، ولا أثر له. أما بالنسبة للتاج المرصع بالزمرد، فأنا لم أشترِ ذلك أيضاً. إنها قصة جن من النوع الذي نحب نحن الناس أن نحكيه لأنفسنا عن أنفسنا، لكن، سيداتي، سادتي ذلك لا يمشي، فعائلة أبراهام لم تكن يوماً ثرية. وإن صدقت أن تلك العلبة المليئة بالجواهر بقيت دون أن يمسها أحد أربعة قرون ونيف، إذن، هو كلام هراء، وأنت تصدق أي شيء. أوه، لكن هل كانت موروثات؟ حسن، أغمض عيني وأضرب جبيني. أية مزحة جوفاء، جوفاء! من في كل الهند يهتم أدنى اهتمام بموروثات، إن كان لديه الخيار بين أشياء قديمة ومال في مصرف؟

لقد رسمت أورورا الزغبي بعض اللوحات الشهيرة ومرت بحلقات مروعة، والمنطق يتطلب أن نبقي البقية إلى منهج ـ الفنان نفسه، الذي ساهم في هذه الحالة، والذي فيه بمقدار كبير... تريد أن تعرف ما الذي كان في العلبة؟ اسمع: انسَ كل شيء عن العمائم المرصعة بالجواهر، لكن زمرد، نعم، فأحياناً أكثر، وأحياناً أقل ـ لكنها ليست موروثات مع ذلك ـ ماذا إذن؟ ـ حجارة حارة، تلك هي. أجل سلع مسروقة! مواد مهربة! أسلاب! تريد عار العائلة، سأقول لك اسمه الحقيقي: جدتي، فلوري الزغبي، كانت محتالة. وعلى مدى سنوات كثيرة كانت عضواً هاماً في عصابة ناجحة لمهربي الزمرد، إذ من تراه يفتش تحت مذبح كنيس عن شيء مهرب؟ لقد أبعدتها عن الشبهة وأبقتها في أمان، كما أنها لم تكن شديدة الحماقة بحيث تنفق تنفق تنفق. لا أحد شك فيها يوماً، ثم جاء الوقت الذي ادعى فيه الابن أبراهام حقه في الإرث غير القانوني... أهو عدم الشرعية ما تريد؟ لا تبال بالموروثات، فقط ابتع النقد الجاهز.

ما ذكر أعلاه هو فهمي لما يكمن خلف القصص التي رويت لي، لكن ثمة اعتراف أيضاً علي أن أدلي به، ففي ما يلي ستجد حكايات غريبة، بل أغرب بكثير من تلك التي حاولت للتو أن أفضح زيفها. ودعوني أؤكد لكم، دعوني أقول لمن يهمه الأمر فيما يتعلق بصحة تلك القصص الأخرى لا يمكن أن يكون هناك شك أياً كان. لذلك، الحكم أخيراً ليس لي بل لكم أنتم.

أما بالنسبة لحكاية المغربي: إن كنت مجبراً على الاختيار بين المنطق وذاكرة الطفولة، بين العقل والعاطفة، إذن، من المؤكد، رغم كل ما سبق، أنني سأمضي مع الحكاية.

* * *

سار أبراهام الزغبي خارج البلدة اليهودية، باتجاه كنيسة القديس فرانسيس، حيث كانت أورورا بانتظاره بجانب ضريح فاسكو ومستقبله في راحة يدها. حين وصل إلى حافة الماء، نظر إلى الوراء لحظة من الزمن، وظن أنه رأى ظلاً في السماء التي يخيم عليها الظلام، ظلاً مستحيلاً لشخص يرقص بمرح، فتاة يتراقص شكلها على سقف مستودع مطلي بخطوط أفقية زاهية تؤطر تنورتها وشلحتها وتتلفظ بشعوذات مألوفة وهي تتحداه أن يقاتل: تخطَّ هذا الخط.

أوبياه رجادو، فو، فوم

أحشاء فراريج، مملكة تأتي

فاغرورقت عيناه بالدموع، لكنه دفعها بعيداً. إذ كانت قد ذهبت.

(7)

مسيحيون، برتغاليون يهود، آجر صيني يطور وجهات نظر لا تؤمن بإله، سيدات ثريات، تنانير وساريهات، خدع اسبانية، تيجان مغربية... هل يمكن لهذا حقاً أن يكون الهند؟ بهارات ـ ماتا، هندوستان ـ همارا، هل هذا هو المكان؟

كانت الحرب قد أعلنت للتو، وكان نهرو ومؤتمر عموم الهند يقضيان بأن على البريطانيين أن يقبلوا طلبهم بالاستقلال كشرط مسبق لدعم الهند للجهود الحربية. جناح والعصبة الإسلامية ترفض أن تدعم الطلب، فالسيد جناح مشغول كثيراً بوضع تفاصيل الفكرة التي ستغير التاريخ، وهي أن هناك أمتين في شبه القارة، أمة هندوسية وأمة مسلمة. مباشرة صار الصدع غير قابل للرأب، مباشرة أعيد نهرو إلى السجن في معتقل ديهرادون، فيما تحول البريطانيون، وقد حبسوا قيادة المؤتمر، إلى العصبة الإسلامية طلباً للدعم. في مثل هذا الوقت من الانتفاضة، من الذروة المدمرة لسياسة فرّق تسُد، ألم يكن هناك شرائح أشد غرابة يمكن أن نستخلصها من تلك الحياة كلها ـ شعرة شقراء غريبة مأخوذة من جديلة فاحمة السواد (وتحل الألغاز بشكل مخيف).

لا، يا أصحاب، يا سيدات ـ أوه: لا مجال. الأكثرية، ذلك الفيل الضخم ورفسته الجانبية، الأغلبية الساحقة لن تسحق حكايتي تحت أقدامها، أليست شخصياتي هندية كلها؟ حسن، إذن: هذه أيضاً حكاية هندية. ذلك جواب واحد، لكن ثمة آخر: كل شيء في مكانه، فالفيلة تأتي فيما بعد. الأغلبية، فالأغلبية سيكون لها دورها، والكثير مما كان جميلاً سيداس عليه وتضربه خراطيم القطعان ذات الآذان العريضة المتحركة. لكن حتى ذلك الحين، سأتابع لإعداد هذا العشاء الأخير. سأزفر، رغم أنه مع صوت الصفير سيكون هذا العشاء الأخير الذي ذكرته من قبل. إلى الجحيم بشؤون الدولة العليا! فلدي قصة حب علي أن أرويها.

في مستودع السي ـ 50 رقم1، نصف ـ المضاء وذي الرائحة العاطرة، أمسكت أورورا داغاما بأبراهام الزغبي من ذقنه ثم نظرت عميقاً في عينيه... لا. يا رجال، ليس باستطاعتي أن أفعل هذا الشيء. فهذه أمي وهذا أبي من أتكلم عنهما. بل حتى لو كانت أورورا العظيمة أقل النساء خجلاً، أظن أنني في هذا المجال آخذ حصتها من الخجل إضافة إلى حصتي. هل رأيت في حياتك قضيب أبيك، فرج أمك؟ أي أو لا، لا يهم. النقطة الأساسية هي أن هذه هي مواضع أسطورية، تحيط بها المحرمات. اخلع حذاءك لأنها أرض مقدسة، كما قال الصوت على جبل الطور في سيناء، ولو كان أبراهام الزغبي يقوم بدور موسى، إذن كانت أمي أورورا بالتأكيد مثل بيض يغلي على نار. مع نزول الوصايا، عمود من النار، «أنا ما أنا»... بالحقيقة، هي قامت بدراسة إله العهد القديم، كما أظن أنها مارست أحياناً تقسيم الماء في الحمام.

«لم يكن باستطاعتي أن أنتظر»، ذلك ما اعتادت أورورا نفسها أن تقوله. في غرفة رسمها الذهبية ـ والبرتقالية، الملأى بدخان السجائر، وفتيات جميلات يتمددن على المقاعد بينما الشبان يجلسون على السجاد الأصفهاني، يفركون أقدامهن ذات الخلاخل والأظافر المطلية بلون البنفسج، فيما زوجها المتقدم في السن ينحني في إحدى الزوايا ببذلة الشغل، وفمه ينفتل بابتسامة فيها الكثير من الانزعاج، واليدان تتحركان بشكل يائس إلى أن تستقرا أخيراً حول أذنيّ الصغيرتين، فقد شربت أورورا الشمبانيا من زجاجة شفافة تشبه زهرة متفتحة، وكانت صريحة بصورة عرضية حول فض بكارتها، ضاحكة قليلاً من جرأتها أيام الصبا. «من ذقنه، أقسم لكم. ثم سحبته فقط فتبعني، انبثق مباشرة من كرسيه كما تنبثق فلينة من زجاجة، ثم قدته، قدماً. يهوديًّ أنا بالذات. يهوديًّ المحبوب تلك الأيام».

تلك الأيام... سيكون هناك المزيد مما يقال عن قسوة تلك العبارة. وهكذا بسهولة انقذف خارجاً بعد تلويحة طفيفة من اليد، طاردة تلك الجلجلة ـ الصلصلة. لكن الآن تماماً، نحن بالحقيقة في تلك الأيام، بل نحن في ذلك اليوم بالذات، وهكذا: من ذقنه قادته فتبعها، متخلياً عن مركزه، يراقبه بغير موافقة، ولا شك، الثالثوث الرفيع، أصحاب ـ الدفاتر الكبيرة، كتَّاب المستودع كالونجي، ميرتشاند الهتشيني وتيجباتام، فيما كان هو يلحق بلحيته، مستسلماً لقدره. الجمال مصيره من هذا النوع، والجميل يكلم الجميل إنه يعرف ويقدر إمكاناته، كما يعتقد أنه قادر على تبرير كل شيء، حتى لو أن أحدهما لم يكن يعرف عن الآخر أكثر من أنه «مستخدم يهودي» ووارثة مسيحية، إلا أنهما كانا قد اتخذا أشد قراراتهما حسماً. فطوال حياتها ظلت أورورا الزغبي واضحة تماماً حول السبب الذي جعلها تقود مدير مستودعها إلى الأعماق المظلمة للمستودع ولماذا؟ ذاكرة تحريكه لكي يتبعها، ثم متسلقة سلماً طويلاً، مرناً إلى أعلى مستوى لأكثر الكدسات بعداً. ورغم كل الجهود التي بذلتها في التحليل النفسي، فقد رفضت غاضبة النظرية القائلة بأنها نتيجة الميتات الكثيرة التي حدثت في العائلة، كانت شديدة الضعف تجاه سحر رجل أكبر منها سناً. ذلك أنها أولاً لفتت نظرها ثم سحرتها نظرة أبراهام، نظرة اللطف الجريح تلك: وأنها كانت مسألة بسيطة: انجذاب البراءة إلى الخبرة «في المقام الأول». إنها تناقش، مع الهتافات والتصفيق، فيما أبي أبراهام صار موضع ازدرائي لتواريه بعيداً خجلاً. اعذروني، لكن من سحب من وإلى أين؟ يبدو لي أنني أنا كنت الساحبة ولست المسحوبة. يبدو لي أن أبيـ ـه كان لا يعرف شيئاً وأنا كنت اللعوب الماكرة، ابنة الخمسة عشرة عاماً. في المقام الثاني، أنا كنت دائماً أبحث عن بطل، ولد محبوب، قطعة ضخمة.

صعدا السلم إلى هناك، قرب سقف المستودع رقم1، ثم استلقت أورورا داغاما وهي في سن الخامسة عشرة على أكداس الفلفل، متنفسة الهواء المحمل بالتوابل الحارة وانتظرت أبراهام. فجاء إليها أبراهام رجلاً ماشياً إلى حتفه، مرتعشاً لكن مصمماً، هنا تهرب مني الكلمات، لذلك لا يمكنكم أن تعلموا مني التفاصيل الدامية لما حدث عندما هي ـ بعد ذاك هو ثم هما، بعد ذلك هي، ثم هو وكرد على ذلك هو، مع ذلك وإضافة إلى ذلك، ولوهلة من الزمن، ثم لبرهة طويلة من الزمن بهدوء، وبشيء من الضجة، في نهاية لقائهما، أخيراً، بعد ذلك إلى أن ... بوف.. يا ولد، انتهى الأمر. لا، كان هناك المزيد. إذ ينبغي قول كل شيء.

هذا ما سأقوله: ما قاما به كان بالتأكيد بسبب الحر والجوع. حب مجنون! إذ جعل أبراهام يواجه فلوري الزغبي، ومن ثم جعله ينفصل عن جنسه، ولا ينظر إلى الوراء إلا مرة واحدة. ذلك كان لصالحه، إذ أصبح مسيحياً في الحال، تاجر البندقية أصر في لحظة انتصاره على شايلوك، أن يبدي فهماً محدوداً فقط لماهية الرحمة ووافق الدوق، «لسوف يفعل هذا، وإلا سأسحب العفو الذي أعلنته مؤخراً هنا...» ثم ما مورس من ضغط على شايلوك سيتم اختياره بكل حرية من قبل أبراهام الذي آثر حب أمي على حب الإله. لقد كان مستعداً لأن يتزوجها طبقاً لقوانين روما ـ وأوه، أية عاصفة يخفي ذلك القول! لكن حبهما كان قوياً بما يكفي لمواجهة كل التحديات، لكي يبقى على قيد الحياة رغم القوة التامة للفضيحة، لكن معرفتي بقوتهما هي التي منحتني القوة. حين أنا بدوري، حين أنا ومحبوبتي ـ لكن في تلك المناسبة، أمي بدلاً من ـ عندما توقعت تماماً ـ أنها ستلتفت إلي، فقط عندما كنت بأمس الحاجة إليها هي ـ إزاء لحمها ودمها. ـ أنت ترى أنني لا أستطيع، بعد، أن أحكي هذه القصة أيضاً. فمرة ثانية تخذلني الكلمات.

حُب الفلفل: ذلـك مـا أكفـر بـه، فأبراهـام وأوروا وقعـا في غـرام الفلفل فوق. هناك على ذهب ملابـار. وقـد نـزلا مـن فـوق الأكـداس العالية تلك بما هو أكثر من ثيابهما ذات رائحة التوابـل. لـذلك وبكـل عاطفة تغذى واحدهما على الآخر، وكان العرق الذي تـصبب بـشدة، كذلك الدم، وإفرازات جسديهما قد امتزجت كلها معاً في ذلك الجـو كريه الرائحة المثقـل بـروائح الهـال والكمـون الـتي لم تمتـزج بـشكل حميمي مع بعضها بعضاً فقط بل مع مـا كـان عالقـاً في الهـواء، أجـل ومع أكياس التوابل تحتهما ـ وبعضها، كما يجب القول، تمزق بحيـث أن حبوب الهال تدفقت إلى الخارج ثم انسحقت بين السيقان، البطـون والأفخاذ ـ بحيث ظلا للأبـد يعرقـان عـرق الفلفـل والتوابـل وكانـت تنطلق من سوائلهما الجسدية رائحة وحتى طعـم مـا كـان قـد انـسحق تحت جلديهما، ما اختلط بمياه حبهما، ما كانا قد تنفساه مـن الهـواء خلال تلك المضاجعة في الأعالي.

هناك، تبقـى منزعجـاً مـن الموضـوع لمـدة طويلـة وفي النهايـة تـأتي بعض الكلمات. لكن أورورا لم تكـن يومـاً تخجـل مـن الموضـوع ذاتـه. «منذئذ، دعوني أخبركم أنه كان علـي أن أحـافظ علـى أبيـ...ـه العجـوز بعيـداً عـن المطـبخ، لأن رائحـة التوابـل المنـسحقة تلـك، يـا أعزائـي، تجعله يلطم الأرض. مع ذلك، في الكلام عن ذاتي، أنا أغتـسل، أفـرك، أفرشي، أكنس، أملأ الغرفـة بـالعطر الجميـل، وكـل ذلـك لمـاذا، كمـا يمكن للكل أن يروا، كي أظل حلـوة قـدر اسـتطاعتي». أوه، يـا أب، يـا أب، لماذا تركتها تفعل بك ذلـك، لمـاذا كنـت أضـحوكتها ليـل نهـار؟ لماذا كنا نحن كلنا؟ هل حقـاً مـا تـزال تحبـها كـثيراً؟ هـل أحببتـها حقـاً بالأصـل في تلـك الأيـام، أم أن الأمـر مجـرد هيمنتـها علينـا، وقبولنـا السلبي لعبوديتنا هو ما فسرناه خطأ بأنه حب؟

* * *

«من الآن فصاعداً سأرعاك» ذلك ما قاله أبي لأمي. بعد المرة الأولى التي مارسا فيها الحب، لكنها كانت قد بدأت تصبح فنانة فأجابت «الجزء الأهم مني، أنا أعتني به بنفسي» فقال أبراهام بتواضع:

«إذن، سأعتني بالجزء الأقل أهمية، الجزء الذي يحتاج لأن يأكل، يستمتع ويستريح».

* * *

رجال بقبعات صينية مخروطية جذفوا بمجاذيفهم دافعين قاربهم على مهل عبر البحيرة الضحلة. زوارق نقل حمراء وصفراء قامت برحلات يومها الأخيرة، متحركة بثبات بين الجزر. ثم عبّارة توقفت عن العمل، ومع توقف الأصوات الصادرة عنها بوم ـ ياكا ـ ياكا ـ ياكا ـ بوم، خيم السكون على المرفأ. هناك كانت أيضاً تخوت راسية وسفن صغيرة ذات أشرعة جلدية مرقعة تشق طريقها إلى قرية فيبين لقضاء الليل. كما كان هناك قوارب تجذيف وزوارق بمحركات وسفن جر، أما أبراهام الزغبي، وقد ترك أمه في الخلف شبحاً يتراقص على سقف في البلدة اليهودية، فقد كان في طريقه لمقابلة عزيزته في كنيسة القديس فرانسيس. فيما كانت شبكات الصيد الصينية قد ألقيت في الماء لتنتظر طوال الليل. فكوشين، كان يفكر، هي مدينة الشباك، ولقد وقعت في الشبكة تماماً مثل أية سمكة. بينما السفن ذات الطابقين، سفينة الشحن ماركو بولو، وحتى زورق الدورية البريطاني، كلها كانت قد توقفت هناك في آخر ضوء للنهار، وكأنها أشباح. كل شيء يبدو عادياً، فتعجب أبراهام. كيف يتدبر العالم نفسه ويحافظ على هذا الوهم بأنه هو نفسه، عندما يكون كل شيء بالحقيقة قد تغير، تحول على نحو لا يمكن عكسه بسبب الحب؟

ربما، فكر أبراهام، كان ذلك بسبب الغرابة، فكرة الاختلاف هي الشيء الذي نرد عليه بشيء من عدم الراحة. فالمحب المخبَّل من جديد يجعلنا

نجفل إن كنا صادقين، وهو، شأنه شأن النائم على الرصيف، يتكلم إلى رفيق غير مرئي عند عتبة باب فارغة. أما المرأة العجيبة الغريبة فتحدق إلى البحر، وفي حجرها كبة كبيرة من الخيطان. إننا نراهم ونحن نمر بهم. فيما زميل العمل الذي نعرف بالصدفة أنه كان له أهواء جنسية غير عادية كذلك الطفل المشغول بهم واحد هو لفظ جمل مكررة ذات صوت ليس لها أي معنى ظاهر، والمرأة الجميلة التي تُرى بالصدفة من نافذة مضاءة سامحة لكلب في حجرها أن يلعق حلمتي ثدييها. أوه، من ذلك العالم اللامع الذي يقضي وقته في الحفلات، في الزوايا، حاكاً مؤخرته، ثم بعناية يتفحص أظافر أصابعه، ومن السباح ذي الساق الوحيدة و...

توقف أبراهام في طريقه وقد احمر خجلاً، كيف لأفكاره أن تشط إلى هذا الحد؟ فحتى هذا الصباح كان الرجل الأكثر منهجية وتنظيماً، رجل دفاتر الحسابات الكبيرة وهنا، يا أبيـ.. ي.. فقط استمع لنفسك، واقطع رنين تلك الحماقة السخيفة، زد من إيقاع خطوتك الآن، فالسيدة لا بد أنها سبقتك إلى الكنيسة، وعليك بقية حياتك كلها أن لا تجعل قرينتك تنتظر...

بعمر خمس عشرة سنة!! تمام! تمام! في ناحيتنا نحن من العالم، ليست الفتاة بهذا العمر صغيرة جداً.

* * *

في كنيسة القديس فرانسيس، من هذا الذي ينوح بصوت خفيفض في الكنيسة؟ هذا الوجه الشاحب ذو الشعر البني والمؤخرة القصيرة الذي يحك بشدة ظاهر يديه؟ هذا الملاك ذو السن البارزة الذي يتصبب العرق من ساق بنطاله؟ ـ كاهن، يا سادة. وما يتوقع المرء أن يجد في محيط كنيسة سوى قبة كهنوتية؟ في هذه الحالة، المحترم أوليفردايث، تابع شاب من المذهب الأنجليكاني، نزل قبل وقت قصير من السفينة، ويعاني من شدة الحر الهندي والخوف من التصوير.

لقد كان يتجنب الضوء، مثل مذؤوب. فيما كانت أشعة الشمس تبحث عنه تتعقبه، دون أن تهتم بالقدر الذي كان يتصيد فيه الظلال، فكلاب الشمس الاستوائية تمسك به على أية حال، تتلامع عليه، تلحسه كله، بينما هو يحتج دون جدوى، فيما فقاعات ـ الشمبانيا الصغيرة لحساسيته تنبثق على سطح جلده كله. ومثل كلب جربان يبدأ الحك دون إرادة منه. كاهن مثير للشفقة بالحقيقة، تتصيده النهارات المشرقة التي لا تفشل في المجيء أما في الليل فيحلم بالغيوم، بموطنه البعيد، حيث يظل الجو ملبداً بالغيوم، تماماً فوق رأسه الغيوم، لكن أيضاً ـ رغم أنه كان يحل الظلام تماماً إلا أن الحر المداري كان يظل قابضاً على حِقويه ـ الفتيات.

ولكي نحدد أكثر، فتاة طويلة تدخل كنيسة القديس فرانسيس بتنورة مخملية حمراء تصل إلى الأرض، وعلى رأسها إكليل فوق غطاء رأس مخرم أبيض غير أنجليكاني على نحو مميز، فتاة تجعل الكاهن الشاب الوحيد يتصبب عرقاً مثل خزان ـ ماء ينفجر، تجعله يتحول إلى ظل سماوي من الأرجوان بفعل الشهوة.

* * *

لقد كانت تأتي مرة أو مرتين في الأسبوع تجلس لوهلة من الزمن بجانب قبر داغاما الفارغ. في المرة الأولى بالذات التي عبرت بداية مثل امبراطورة أو ممثلة تراجيدية عظيمة، طغت عليه. إذ حتى قبل أن يرى وجهها، كان لونه الأرجواني قد اشتد تماماً. بعدئذ التفتت إليه فبدا وكأنه غطس في بركة من ضوء الشمس. في الحال جاءته نوبة من التعرق والحك. كما ظهرت بقع التهاب حمراء على عنقه ويديه رغم موجات التبريد التي كانت تدفعها المراوح الكبيرة التي تمسح جو الكنيسة بضربات بطيئة طويلة وكأنها شعر امرأة. مع اقتراب أوروورا منه، ساءت حالته: الحساسية الرهيبة للشهوة. «أنت تبدو» قالت له بعذوبة «مثل سرطان بحري رباعي الأرجل». «كما تبدو مثل سيرك ـ براغيث هربت

منه كل البراغيث. ما الأعمال ـ المائية، يا سيد! دع بومباي تحتفظ بنافورتها «فلورا» لأننا، يا محترم، حصلنا عليك هنا».

لقد سيطرت عليه بالحقيقة، كراحة يدها. من ذلك اليوم فصاعداً، بات ألم حساسيته لا شيء بالمقارنة مع ألم حبه المستحيل الذي لم يعلن عنه. كان ينتظر ازدراءها ويتوق له. إنه كان كل ما قدمته له. لكن ببطء تغير شيء ما فيه. جدياً، مائعاً معقود اللسان، مثل تلميذ مدرسة انكليزي، كان، مضحكة حتى لزملائه، تشاكسه لجمجمته الكلام إميلي إلفينستون، أرملة تاجر ليف جوز الهند التي كانت تقدم له شرائح اللحم وفطائر الحلوى أيام الخميس وتأمل بشيء بالمقابل (لكن دون أن تتلقى شيئاً بعد)، كما تحول، خلف واجهته الكنسية، إلى شيء آخر كلياً، فتركيزه كان شيئاً فشيئاً يسودّ، باتجاه الكراهية.

لعل ارتباطها بالقبر الفارغ للمكتشف البرتغالي هو الذي جعله يبدأ بكراهيتها وذلك بسبب مخاوفه من الموت، بسبب الكيفية التي كان باستطاعتها أن تأتي فقط لكي تجلس بجانب قبر فاسكو داغاما وتحادثه بكل رقة، الكيفية التي كان فيها الأحياء متعلقين بكل حركة من حركاتها، بينما كل حركة ولفظة منها كانت تفضل أن توجهها وبكل حميمية إلى ثقب في الأرض، كان فاسكو داغاما قد أخرج منه بعد أربعة عشر عاماً فقط من وضعه فيه، ليعود ميتاً إلى لشبونة التي كان قد غادرها قبل زمن طويل؟ مرة واحدة فقط، أخطأ دايث واقترب من أورورا ثم سأل إن كان هناك أية مساعدة يمكن أن أقدمها لك يا ابنتي، حينذاك التفتت إليه بكل غضبها المترفع، غضب الفتاة الغنية بلا حدود، ثم قالت له: «هذا شأن عائلي. اذهب واسلق رأسك». بعدئذ، وقد ندمت قليلاً، قالت له إنها جاءت لكي تعترف، فانخض بدن المحترم دايث للكفر الذي وجده في البحث عن المطلق في قبر فارغ. «نحن كنيسة إنكلترا هنا». قال بشيء من تردد، وذلك ما جعلها تهب على قدميها، تعرض نفسها وتبهر عينيه.

فينوس تنهض بالمخمل الأحمر ثم تغرقه باحتقارها، قائلة «قريباً سنرميكم في البحر، وبإمكانكم أن تأخذوا معكم هذه الكنيسة التي بدأت فقط لأن ملكاً قديماً أراد زوجة أكثر شباباً وإغراء جنسياً».

أخيراً سألت عن اسمه. قال لها فضحكت وصفقت بيديها. «أوه هذا كثير جداً،» قالت «أيها المحترم الموت الشامل». بعد ذلك لم يستطع أن يكلمها كلمة أخرى. لأنها كانت قد مست نقطة حساسة. فالهند كانت قد أفقدت أوليفر دايث أعصابه، كما أن أحلامه باتت إما خيالات جنسية لحفلات شاي عارية مع الأرملة إلفينستون على مروج بنية من أرض مفروشة بليف جوز الهند أو كوابيس ـ تعذب، يجد نفسه فيها في مكان يضرب فيه باستمرار، مثل سجادة تنفض، مثل بغل، كما يُرفَس أيضاً. أناس ذوو قبعات مسطحو الظهور بحيث يمكنهم أن يقفوا وظهورهم إلى الجدران، تمنع أعداءهم من الزحف خلفهم، أما قبعاتهم فمصنوعة من مادة سوداء متصلبة ولامعة، هؤلاء الرجال كانوا يمددونه على ممرات صخرية على سفح تل، يضربونه دون كلام. لكنه لم يكن يصرخ بصوت عالٍ متخلياً عن كبريائه. لقد كان أمراً مذلاً أن يضطر للصراخ عالياً، لكنه لم يستطع منع صرخات من أن تفلت منه. مع ذلك، كان يعلم في أحلامه أن ذلك المكان هو بيته ولسوف يستمر بيته، كما كان يستمر في الكلام عن هذا الممر على سفح تل.

بعد أن رأى أورورا في كنيسة القديس فرنسيس، بدأت تظهر في أحلام الضرب الرهيبة تلك، «خيارات المرء لا يسبر غورها» قالت له ذات مرة، هي تراه يجرجر نفسه جرجرة بعد جلدة عنيفة على نحو خاص. هل حكمت عليه؟ أحياناً كان يفكر أنها ينبغي أن تجده محتقراً لتلبسه لباس الانحطاط والهبوط. لكن في مرات أخرى كان يكتشف بدايات حكمة في عينيها، طلائع القوة العضلية البارزة لعضديها، زاوية رأسها الأشبه بالطائر. فإذا كانت خيارات المرء لا يمكن سبر غورها، كما

ـ اليسرى. ورغم أنه من الواضح أن هذه مجرد استعارات، وأنه لن يعمل لتفسيرها حرفياً، إلا أنه كان يغني بصوت عال عن الفردوس، أو يلعن الآثمين الكثيرين جداً ويدعو لهم بالذهاب إلى جهنم. لقد أضاف هذا الملحق بنوع من الشراسة، لأن الهند كانت تقضم شيئاً فشيئاً حواف رقبته، الهند، حيث أسس ثوماس الشكاك ما يمكن أن يحسبه المرء كنيسة إنكلترا، مع سحائب عظيمة من البخور الحار وانفجارات الحماوة الدينية... كان ينظر إلى جدران كنيسة القديس فرانسيس، تذكارات الميت الإنكليزي الشاب ويغدو خائفاً. إذ تجيء فتيات بعمر الثامنة عشرة مع أسطول صيد السمك لتصيد ـ الرجال، يضعن أقدامهن على تراب الهند ثم يبدو وكأنهن يغصن مباشرة في الأرض. فتيات بعمر الثامنة عشرة، سليلات عائلات كبرى يجعلن التراب شيئاً آخر وهو يخشخش على أغطية نعوشهن بعد أشهر من وصولهن. وأوليفر دايث الذي يتساءل يومياً متى سيبتلعه فم الهند، هو الآخر أيضاً، وجد نكتة أورورا حول اسمه (الموت الشامل) بلا طعم تماماً مثل دردشاتها مع قبر داغاما الفارغ. هو لم يقل ذلك بالطبع، فقد لا يكون صحيحاً. إضافة إلى ذلك، فإن جمالها بدا وكأنه يعقد لسانه، ويزيد من ارتباكه الشديد أصلاً ـ إذ عندما ركزت عليه نظرتها العابثة الملأى بالاحتقار، ود لو ابتلعته الأرض ـ كما جعلته يحك أيضاً.

* * *

كانت أورورا، بغطاء رأسها المخرّم، ورائحتها العابقة بشدة بالفلفل والجنس، تنتظر حبيبها بجانب قبر فاسكو داغاما، وكان دايث يتفجر شهوة وامتعاضاً، فانسل ليتوارى في الظلال. الشاغلون الآخرون الوحيدون للكنيسة المعتمة، التي كانت مصابيح جدرانها الصفراء لا تفعل إلا القليل لكشف الظلمة، إنما كانوا ثلاثة رجال إنكليز والأخوات أسبينوول اللواتي كن يقرقن كالدجاج، وعلى نحو رافض، عندما مرت أورورا الكاثوليكية بكل تيه بهن وهي تلبس القرمزي ـ بل إن إحداهن

شطت بعيداً إلى حد أنها رفعت منديلها المعطر إلى أنفها ـ فجاءها الرد في الحال من لسانها السفيه الجاد، «على من تثرن ضجيج الدجاج ذاك؟» سألت أورورا. «لا.. لا أنتن لا تشبهن الدجاج، بل تشبهن أكثر سمكات علق بحناجرهن حسك سمك».

ثم إن الراهب الشاب، غير القادر على الاقتراب منها، والمدفوع إلى الحافة برائحتها القوية، شعر أن الأرملة إلفينستون تتراجع إلى مؤخرة رأسه، رغم أنها، وهي في الحادية والعشرين، كانت امرأة جميلة، دون معجبين على الإطلاق.

«قد لا يكون لدينا الكثير، لكننا انتقائيون»، قالت له، فكثير من الرجال قرعوا باب الأرملة الشابة، وليسوا جميعاً ذوي نوايا حسنة، نوايا السادة النبلاء. «كثيرون ينادون، لكن القلة من جاءهم الجواب». قالت له. «ينبغي رسم خط يصعب تجاوزه». فإميلي إلفينستون، المرأة الشابة المنتصبة القوام والطباخة الشريرة إلى حد سام، ستكون عند موقدها، تتوقع مجيء أوليفر دايث الذي يمر بها، وهذا ما سيفعله، هذا ما كان سيفعله. لكن في غضون ذلك، بقي حيث كان، رغم أن نظراته المختلسة إلى امرأة أحلامه بدت وكأنها نوع من الخيانة.

وصل أبراهام مسرعاً، يكاد يجري جرياً إلى قبر فاسكو. حينذاك أمسكت أورورا يديه بين يديها وبدأا كلاهما الكلام هامساً همسات عجلى، فيما أحس أوليفر بدفقة غضب. استدار بسرعة ومشى مبتعداً، يطقطق كعبا حذائه ويقعقعان على الأرض الحجرية، فيما تكشف برك الضوء الصفراء للأخوات أسبينوول المراقبات أن قبضتي الشاب كانتا مشدودتين. نهض ثم اعترضنه عند الباب: أتراه شم الرائحة التي كانت المراوح تنشرها في الكنيسة، بشفراتها البطيئة الطويلة، والتي لا يمكن نكرانها ولا يخطئها الشم؟ ـ أجل، يا سيداتي، هو شمها. وهل راقبها، تلك الفاسقة الكاثوليكية، تمارس الحب أمام أعينهن بالذات؟ ـ ربما هو لم يعرف، لكونه وصل حديثاً، أن

الفتى الذي وضع يده عليها في بيت الرب ليس فقط مستخدماً واطئاً عند عائلتها، بل إضافة إلى ذلك يجب القول إنه من الدين اليهودي؟ ـ يا سيدات، هو لم يكن يعرف، وهو ممتن كل الامتنان لتلك المعلومات ـ لكن كان ينبغي عدم تحمل ذلك، وهو سيواجه ذلك، هل في نيته أن يفعل شيئاً؟ ـ يا سيدات، لا، في تلك اللحظة لا ينوي، يجب ألا يكون هنا مشهد بشع، لكن سوف يتخذ إجراء ما، أشد الإجراءات حسماً، وعليهن ألا يشعرن بأي خوف بسبب ذلك ـ حسن!! عليه أن يرى ذلك الذي حدث. هن عائدات إلى أوتي، ذلك الصباح بالذات، لكن بودهن بالتأكيد أن يرين تطوراً لدى عودتهن التالية. «يجب معاقبة ذينك الزوجين اللذين لا يخجلان»، قالت الأخت الكبرى أسبينوول. «إذ أن هذا النوع من الرذالة ينبغي ألا يسمح له ببساطة» ـ خادمكن المتواضع، يا سيداتي.

فيما بعد وفي ذلك الليل، بينما كان أوليفر دايث يتناول كأساً من النبيذ مع السيدة الشابة، آخذاً ما يشتهي من الأطباق الملأى بأكوام اللحوم الجلدية، المحروقة التي قدمتها له، ذكر أحداث المساء في كنيسة القديس فرانسيس. لكن ما إن تكلم ذاكراً اسم أورورا داغاما حتى بدأ العرق يتصبب منه والحكة تعود إليه، فحتى اسمها كان له قوة إشعاله ناراً، في الحال، انفجرت إميلي غضباً، صدمه أيما صدمة: «هؤلاء الناس لا يمتون إلى هنا أكثر مما نمت نحن، لكن على الأقل نحن يمكننا أن نذهب إلى الوطن، لكن ذات يوم ستنقلب الهند ضدهم أيضاً، وسيضطرون لأن يغرقوا أو يسبحوا». لا، لا، غمغم دايث. هنا في الجنوب ثمة القليل من إزعاجات من هذا النوع، لكنها التفت عليه بضراوة.

«إنهم منبوذون،» صرخت، «هؤلاء المسيحيون الخصوصيون بقداساتهم الهرائية غير المتميزة، ناهيك عن أولئك اليهود المنقرضين. إنهم أقل الناس أهمية في العالم، أصغر الصغار، وإذا أرادوا أن، أن ينزوا كما ينزو الحيوان، إذن سيكون ذلك أقل شيء أهمية على سطح

الأرض»، بالتأكيد لم يكن ذلك بالشيء الذي ترغب بتخريبه في أمسية هنية كهذه أو تفكر فيه، حتى لو كانت تلك العجائز الشمطاوات من أوتاكاموند المتعجرفات، سيدات ـ الشاي أولئك، قد رفعن أصواتهن أو صرخن، لم يكن في نيتها أن تضيع لحظة أخرى حول الموضوع، بل هي مضطرة لأن تقول إنه، هو أوليفر، قد انحدر كثيراً في تقييمه لها، إذ كانت تفكر أنه أرفع بكثير من أن يثير موضوعاً كهذا، عدا عما أصابه من احمرار وجه وتصبب عرق عندما ذكر ذلك الاسم. بعدئذ، قالت بصوت مرتعش، «المرحوم إلفينستون كان لديه نقطة ضعف إزاء نساء كهذه المرأة، لكنه كان يظل مهذباً فلا يأتي على ذكر افتتانه بفتاة فاسقة كهذه، بينما أنت يا أوليفر ـ يا رجل الدين ـ تجلس إلى طاولتي و«**يسيل لعابك**»».

طلب أوليفر دايث، وقد قالت له الأرملة إلفينستون أن لا حاجة بعد اليوم لأن يمر بها، الإذن بالمغادرة ثم أقسم على الانتقام. لقد أوضحت إميلي الأمور تماماً بقولها: أورورا داغاما ويهوديُّها ليسا أكثر من ذبابتين على جوهرة الهند العظيمة، فكيف يتجرأان بلا خجل ولا حياء أن يتحديا النظام الطبيعي للأشياء؟ إنهما يستدعيان السحق.

* * *

بجانب القبر الفارغ للبرتغالي الأسطوري، وضع أبراهام الزغبي يديه بين يدي محبوبته الشابة واعترف: شجار، طرد، تشرد. واغرورقت عيناه مرة ثانية بالدموع. لكنه كان قد ترك أمه للعوب أشد قسوة، فتولت أورورا المهمة في الحال. نقلته بعيداً ثم وضعته في بيت كوربوزيير ذي الطراز الغربي المؤثث من جديد في جزيرة كبرال. «لسوء الحظ أنت طويل عريض المنكبين»، قالت له «لذلك فإن بذلات أبي المرحوم لا تناسبك البتة. لكن، هذه الليلة لن تحتاج لبذلات». كلا والديّ كانا سيدعوان هذه بعدئذ ليلة الزفاف الحقيقي، رغم الأحداث الأبكر التي جرت عالياً فوق أكياس ذهب ملابار، سبب كل ما حدث.

دخلت وارثة تجارة التوابل، ابنة الخامسة عشرة إلى المخدع مع حبيبها المدير المناوب الأعمر منها بإحدى وعشرين سنة، لا يكسوها سوى ضوء القمر وأكاليل الياسمين والزنبق التي جدلتها جوسي داخل وخارج الشعر الأسود المرخي الذي كان ينتشر على ظهرها مثل عباءة حاكم، واصلاً تقريباً إلى الأرض الحجرية الباردة التي كانت قدماها الحافيتان تتحركان عليها بخفة إلى حد أن أبراهام المذعور ظن في تلك اللحظة أنها تطير.

بعد ممارستهما الحب الذي كان يضوع برائحة التوابل للمرة الثانية، كان الرجل الأكبر سنّاً قد استسلم كلية فيه لإرادة المرأة الأكثر شباباً، وكأن قدرته على القيام بالاختيارات قد استنزفت نتيجة القيام باختيارها هي.

بعد ذلك غمغمت أورورا بأسرارها في أذنه، «لسنوات كثيرة، كنت أعترف فقط لحفرة، لكن الآن، يا زوجي، صار بإمكاني أن أحكي لك كل شيء». فحكت له عن جريمة قتل جدتها، عن لعنة العجوز وهي تحتضر، عن كل شيء. كل شيء، أما أبراهام، ودون أن يحفل، فقد قبل مصيره، منفياً من شعبه، متلقياً هو نفسه لعنة الأم الأخيرة تلك التي همستها إبيفانيا في أذن أورورا والتي أسقطت المرأة الشابة سمها في أذنه حينذاك: «بيت منقسم على نفسه لا يمكن أن يظل واقفاً». ذلك ما قالته يا زوجي، «عسى أن يظل بيتك منقسماً إلى الأبد، عسى أن تتحول أساساته إلى غبار، وأن ينشأ أطفالك ضدك، وأن يكون سقوطك عسيراً».

بعد أن أراح أبراهام أورروا بأن أقسم على دحض تلك اللعنة والوقوف إلى جانبها، منكباً لمنكب، في السراء والضراء. وبعد أن قال: نعم، أن يتزوجها يعني أن يتخذ الخطوة الكبرى، أن يقبل التعليمات ويدخل كنيسة روما، ثم بحضرة جسدها العاري الذي أوحى له بنوع من الرهبة الدينية، الشيء الذي لم يبد من الصعب كثيراً أن يقوله في هذه المسألة أيضاً، أي أنه سيستسلم لإرادتها، لأعرافها الثقافية، حتى ولو

كان إيمانه أقل من حبة خردل، حتى ولو كان هناك صوت في داخله يتلفظ بأمر لم يكرره عالياً، صوت قال له إن عليه أن يحافظ على يهوديته في أعمق أعماق روحه، وإنه في اللب من كيانه يجب أن يشيد حجرة لا يمكن لأحد دخولها البتة، يبقي حقيقته، هويته الخفية، هناك، فقط حينذاك يمكنه أن يتخلى عن بقية نفسه للحب.

بعدئذ،

انفتح باب مخدعهما الزوجي على مصراعيه، ثم وقف هناك بمنامته ومصباح في يديه وغطاء ليل على رأسه، إيرس داغاما ليبدو أشبه بلوحة في كتاب قصة. باستثناء تعبير وجهه من غضب زائف، كذلك، في واحد من قمصان نوم إبيفانيا الموسلينية ذات الرقبة المكشكشة. كانت كارمن لوبو داغاما تقف، وهي تبذل أقصى جهدها كي تبدو ذات رهبة لكن دون أن تفلح في إبعاد الجسد من تعابير وجهها، وخلفهما بقليل، كان ملاك الانتقام، الخائن، المتعرق بغزارة والذي تحول لونه إلى الزهري اللامع: أوليفر دايث، بالطبع، لكن أورورا لم تكن قادرة على احتواء نفسها، ولم تتصرف وفق قواعد هذه الميلودراما الفيكتورية ذات الصبغة المدارية. «عم ـ ايرس، عمة كارمن»، صرخت بكل ما لديها من مرح «ترى أين ألقيتما بكلبكما العزيز جو ـ جو؟ ألم يتعكر مزاجه يا ترى، لأنك تأخذ مشواراً كلباً ذا طوق مختلف؟» عند ذلك أصبح أوليفر دايث أشد احمراراً بكثير.

«يا عاهرة بابل،» صرخت كارمن، محاولة أن تعيد الأمور إلى مسارها. «بذرة العاهرة عاهرة بالحقيقة». ومطت أورورا جسدها الطويل من تحت الملاءة القطنية البيضاء لاستفزازهم إلى الحد الأقصى، إذ انبثق أحد ثدييها إلى النظر، مسبباً شهقة حادة من رجل الدين، مجبراً إيرس على أن يوجه ملاحظاته إلى مذياع التلفونكن. «زغبي، بحق الله، هل تفتقر لكل اللياقة والأدب، يا رجل؟»

«تلك، يا سيد، ابنة أخي وو.. وو.. وو! متباهياً جداً بأسطوانتك!!» وقهقهقت أمي عندما روت لي القصة على تلة ملابار. يا ناس، كانت ستنشق خاصرتاي!! «ما معنى هذا؟» غبي كحمار، فقلت له مباشرة، هذا معناه الزواج، قلت له. «انظر، هنا الكاهن وأفراد العائلة الحميمون حاضرون، وأنت بكل بساطة تتخلى عني. شغِّل المذياع فربما، يعزفون لنا موسيقى الزفاف».

إيرس أمر أبراهام أن يلبس ويغادر، أورورا عارضت الأمر بأمر معاكس. إيرس هدد العاشقين بتدخل الشرطة. أورورا ردت «يا عم إيرس، أليس هناك ما تخشاه من أن يحشر الشرطة أنوفهم هنا». إيرس ازرق واحمر ثم قال «سنناقش هذا في الصباح» ثم بدأ التراجع يتبعه بسرعة أوليفر دايث. أما كارمن فقد وقفت عند عتبة الباب لحظة من الزمن، وفمها فاغر تماماً. بعدئذ خرجت أيضاً صافقة الباب. تدحرجت أورورا فوق أبراهام الذي غطى وجهه بيديه. «ها أنذي أجيء. جاهز أم لا» همست في أذنه: «يا سيد، ها هي ذي العروس تجيء».

* * *

تلك الليلة من آب سنة 1939 غطى أبراهام الزغبي وجهه، إذ كان قد داهمه الخوف. ليس الخوف من إيرس أو كارمن أو الراهب المصاب برهاب الضوء، بل الخوف الرهيب المفاجئ من أن بشاعة الحياة يمكن أن تهزم جمالها، من أن الحب لا يجعل المحبين أقوياء منيعين، مع ذلك، فكر، حتى لو كان جمال العالم وحبه على حافة الدمار، فإن حبهما سيظل الطرف الوحيد القائم. إذ يظل الحب المهزوم حباً، وانتصار الكراهية لن يجعلها شيئاً آخر غير ما هي عليه. «الأفضل، على كل حال، أن ننتصر». لقد سبق ووعد أورورا بالرعاية ولسوف يكون عند وعده تماماً.

* * *

أمي رسمت **الفضيحة**. ولا حاجة لأن أخبر أي عاشق من عشاق الفن، نظراً لأن اللوحة الضخمة هناك تماماً في المتحف الوطني للفن الحديث في نيودلهي تغطي جداراً بكامله. مرّ بلوحة راجا رافي فيرما «امرأة تمسك بثمرة»، تلك المغوية الشابة المشنشلة بالجواهر التي تذكرني نظراتها الجانبية المفعمة بالشهوانية الصريحة بلوحات أورورا الشابة نفسها، اقلب زاوية اللوحة المائية الشبحية «جادوغار» (الساحر) التي تجد فيها نسخة هندية أحادية اللون عن العالم المشوه لـ «مقصورة د. كاليفارى» تنتصب على سجادة برتقالية صادمة. (هنا أعترف أنني تذكرت من خلالها بيت جزيرة كبرال بسبب الظلال الكثيفة، الأشخاص المتوارين، والمنظورات المتحركة لهذه اللوحة، هذا إن لم نقل شيئاً عن الشكل الغريب، نصف المستور، في قلبها، لعملاقة ذات حلة وتاج) و- انصرف بسرعة الآن! فليست هذه هي اللحظة المناسبة للدخول إلى عالم أورورا الزغبي الكوني - الشامل، ورأيها المفعم بالازدراء لأعمال منافستها الأقدم ذات التوجه - القروي المتعمد من أجل لقب «أعظم رسامة» - إذ تواجهها اللوحة الرئيسية لأمريتا شير - جيل، وعنوانها «الحكواتي القديم». فها هنا: أورورا في أفضل حالاتها، حسب رأيي المتواضع أو ربما ليس المتواضع كثيراً، والتي توازي باللون والحركة أية لوحة لحلقة رقص. فقط في هذه اللوحة المزدحمة بشدة بألوانها الحمراء الأرجوانية المبهرجة، و«نيوناتها الخضراء الفضائحية، والرقصة التي ليست رقصة أجساد بل ألسنة، وكل الألسنة لأشخاص ملونين بألوان رفيعة، يهمسون «إلحس، إلحس، إلحس»، مشيرين إلى آذان بعضهم بعضاً وكلهم سود، سود، سود».

هنا لن أتكلم عن صفات اللوحة كرسم، بل ببساطة أشير إلى بعض حكاياتها، الألف حكاية وحكاية، فكما نعلم، أورورا كانت قد تعلمت كثيراً من تقاليد الجنوب عن رسم - الحكاية: انظر، هنا الشخص المكرر

والخفي لكاهن متعرق ذي لون ـ كالزنجبيل وله رأس كلب، وبإمكاننا أن نوافق، كما آمل، أن هذا، بطرق كثيرة، هو الشخص الذي ينسق عملية الرسم. انظر! هناك، شذرة زنجبيل مختفية في الآجر الأزرق للكنيس، ومرة ثانية في كاتدرائية سانتا كروز، المطلية من الأعلى إلى الأسفل ولها شرفات زائفة، أكاليل زائفة، وبالطبع، مّحطات للصليب، هناك! كذلك بإمكانك أن ترى القس ـ الكلب وهو يهمس في أذن أسقف كاثوليكي مصدوم، مقدم على شكل سمكة بثيابه الكهنوتية الكاملة.

الفضيحة ـ وعلي أن أقول الفضيحة ـ هي مشهد حلزوني عظيم، حيث حبكت فيه أورورا معاً كلتا الفضيحتين اللتين لحقتا بآل داغاما في كوشين، حقول التوابل التي احترقت والعاشقين اللذين تفوح منهما رائحة التوابل وهما ينطلقان بلعبتهما. كما أن عشيرة لوبو وعشيرة منيزيز يمكن تحديد موقعهما على الجبال التي تشكل المسقط الخلفي للحشد الدائر محورياً: آل منيزيز كلهم لهم رؤوس أفاعٍ وأذناب وآل لوبو طبعاً ذئاب. لكن في المقدمة، هناك شوارع ومجاري مياه كوشين تعج بتجمعات ذات علاقة بالفضيحة: كاثوليك ـ أسماك، أنجليكان ـ كلاب، واليهود كلهم مرسومون بالأزرق الخفيف، مثل الأشخاص الذين يظهرون في الخزف الصيني. أما المهراجا، ـ المقيم البريطاني ومختلف المسؤولين القانونيين فيبدون وكأنهم يستلمون طلبات الناس، والمطلوب أعمال من مختلف الأنواع، «إلحس، إلحس، إلحس». إعلانات محمولة، ومشاعر متوهجة مرفوعة. وهناك رجال مسلحون يدافعون عن مستودعات ضد حارقي مباني البلدة. نعم، أمزجة تبدو عالية في هذه اللوحة: كما في الحياة. إذ كانت أورورا تقول دائماً إن لكل لوحة أصولها في تاريخ عائلتها، مثيرة بذلك غضب النقاد الذين كانوا يعترضون على إضفاء تاريخية كهذه، مما يحط من قيمة الفن ليجعله مجرد «قيل وقال...». لكنها لم تنكر قط أن الأشخاص الذين هم في قلب المحور الحزوني الذي يتف غضباً، إنما كانوا يرتكزون أساساً عليها وعلى أبراهام.

إنهما في قلب الزوبعة كلها، نائمان في جزيرة هادئة في مركز العاصفة، مستلقيان وجسداهما متشابكان على شكل رواق مفتوح متوضع في حديقة صورية من الشلالات، أشجار الصفصاف والأزهار. وإذا ما دققت فيهما النظر، إذ أنهما دقيقا الحجم، سترى أن لهما ريشاً بدلاً من الجلد وأن رأسيهما عبارة عن رأسي عقابين ولسانيهما اللاحسين بتوق شديد ليسا أسودين، بل هما أحمران ممتلئان عصارة. العاصفة هدأت، أخبرني أبي عندما أخذني كصبي، لأرى هذه اللوحة «لكننا كنا قد حلقنا فوقها، نتحدى الكثير منهم ونستمر».

* * *

أخيراً، أريد أن أقول شيئاً جيداً عند هذه النقطة حول العم إيرس وزوجته، كارمن/ صحارى. أريد أن أقدم حججاً لتبرير سلوكهما: ذلك أنهما بالحقيقة كانا منزعجين إلى حد كبير من تصرف أورورا عندما اقتحما عليها عش ـ الحب، إذ بعد كل شيء، ليس بالأمر البسيط بالنسبة لهما أن يقوم رجل مفلس في السادسة والثلاثين من العمر، بفض بكارة مليونيرة في الخامسة عشرة من العمر، أريد أن أقول بأن حياة إيرس وكارمن كانت مؤلمة وملتوية، لأنهما كانا يعيشان انطلاقاً من كذبة، لذلك كان سلوكهما يأتي أحياناً ملتوياً، أيضاً، مثل الكلب جو ـ جو جواهرلال. كانا يثيران الكثير من الصخب لكن دون أن يريقا قطرة دم واحدة. وفوق الكل، أريد أن أؤكد أنهما ندما بسرعة كبيرة على تحالفهما الوجيز مع الملاك أوليفر دايث، ثم، عندما كانت الفضيحة في ذروتها، عندما كانت الحشود على بعد أقدام من تدمير مستودعاتهما، عندما بدأ الكلام عن إعدام اليهودي وعاهرته الصغيرة دون محاكمة، عندما ظل ـ السكان المتضائلون للبلدة اليهودية متنتشيري بضعة أيام خائفين على حياتهم من الأخبار الواردة من ألمانيا، التي كانت تبدو وكأنها ليست آتية من مكان بعيد جداً، خلال

ذلك كله، وقف إيرس وكارمن إلى جانب العاشقين، أغلقوا المكاتب ودافعوا عن مصالح العائلة. ولو أن إيرس لم يقف أمام المستودع ـ مهدداً الحشد وصارخاً بقادته ـ وهو عمل يتسم بشجاعة شخصية شديدة ـ ولو أنه هو وكارمن لم يزورا شخصياً كل المرجعيات الدينية والعلمانية في المدينة ولم يصرا على أن ما حدث بين أبراهام وأورورا كان زواج ـ حب، وأنهما باعتبارهما الوصيين القانونيين عليهما لم يعترضا على الزواج، فلربما كانت الأشياء ستخرج عن السيطرة. لكن، كما حدث، فإن الفضيحة خمدت خلال بضعة أيام. وفي المسكن الماسوني (إذ أن إيرس كان قد صار ماسونياً قبل وقت قريب) هنأ رجال ذوو مكانة واعتبار، السيد داغاما على تعامله الحساس مع المسألة. أما الأخوات أسبينوول وقد عدن في وقت متأخر من سنوتي أوتي، فقد فاتتهن المهزلة كلها.

لا يوجد نصر تام أبداً. فأسقف كوشين رفض أن يوافق على فكرة ارتداد إبراهام عن دينه، كما أن موشي كوهين، زعيم يهود كوشين، أعلن أنه لا يمكن بأي ظرف من الظروف أن يتم أي زواج يهودي كهذا. ذلك يفسر لماذا ـ وأنا أكشف السر الآن لأول مرة ـ كان والداي أكثر حدة حين يتكلمان عن واقعة بيت كوربوزيير على أنها ليلة دخلتهما. فعندما ذهبا إلى بومباي، سميا نفسيهما السيد والسيدة، واتخذت أورورا اسم الزغبي وجعلته كنيتها، لكن يا سيداتي، سادتي، لم يكن هناك أجراس عرس.

إنني أحيي تحديهما الذي لا نظير له، وألاحظ أن القدر رتب الأمور بحيث ما كان أحد منهما ـ نظراً لأنهما كانا غير مؤمنين بالدين ـ بحاجة لأن يحطم حلقات اعترافية تربطه بالماضي، بعد كل شيء. لكن، أنا نشأت لا كاثوليكياً ولا يهودياً، بل كنت كليهما معاً كما لم أكن شيئاً، نوعاً من الكاثوليكي ـ اليهودي الذي لا اسم له، جوزة خليطة، قدر

يخنة، جرواً هجيناً. لقد كنت ـ ما هي الكلمة المستعملة هذه الأيام؟ ـ مذرَّر. نعم يا سيدي، خليط بومباوي حقيقي.

ابن زنى: أحب صوت تلك الكلمة، **زنى**، رائحة نتنة، غائط، ولا تطلب الترجمة «إذن، هكذا ابن زنى خراء نتن الرائحة، مثلي أنا، مثلاً».

* * *

بعد أسبوعين من نهاية الفضيحة التي أطلقها أوليفر دايث ضد والديّ، زارته بعوضة ملاريا وسخة على نحو خاص، حطت عليه وهو نائم من خلال ثقب في ناموسيته المضادة للبعوض. بعد هذه الزيارة لبعوضة العدالة الشاعرية، لقط في الحال مرض الملاريا من حلوى ما بعد الطعام تماماً، ورغم أن الأرملة إلفينستون أشرفت على رعايته ليل نهار، كما كانت تمسح جبينه وتضع عليه الكمادات الباردة، إلا أنه راح يتعرق بشدة ثم مات.

يا رجل، لكنني في حالة من المزاج الشفوق اليوم، ترى ماذا تعرف؟ إنني أشعر بالأسى على ذلك المسكين التافه، أيضاً.

(8)

ثالث فضيحة لعائلتنا وأشدها صدماً لم تنتشر بين الناس ولم يعرفوا بها، لكن الآن وقد أسلم أبي أبراهام الزغبي الروح وهو في التسعين من العمر، فإنني لا أشعر بأي وخز ضمير أن أنبش عظامه خارجاً... «الأفضل أن ننتصر». ذلك كان شعاره الدائم ومن اللحظة التي دخل فيها حياة أورورا، أدرك أنه كان يعني ما قال، إذ ما إن هدأت الجلبة الشهيرة حول علاقتهما الغرامية، حتى انطلقت دفعة دخان من مداخنها وارتفع بوقها بصوت هوم هوم هوم عالٍ، ثم غادرت السفينة ماركو بولو الرصيف إلى ميناء لندن.

ذلك المساء عاد أبراهام إلى جزيرة كبرال بعد غياب يوم كامل، وحين وصل به الأمر إلى تربيت رأس الكلب جواهرلال، فإن من الواضح أنه كان يتفجر فرحا وبهجة، سألت أورورا بكل جلالها، طالبة أن تعرف أين كان. ورداً عليها أشار إلى السفينة المغادرة صانعاً إشارة للمرة الأولى في حياتهما ذات معنى، إشارة لا تسألي: إذ سحب إبرة وخيطاً خياليين وخاط شفتيه كما لو أنه يريد أن يغلق فمه. «لقد قلت لك»، قال الزوج، «سأعتني بكل الأشياء غير المهمة: ولكي أفعل ذلك، علي أحياناً أن أذهب بهدوء إلى شارع الإبرة ـ الخيط».

في ذلك الحين، كانت الصحف، المذياع، الإشاعات في الشارع كلها لا تتحدث عن شيء سوى الحرب ـ ولنكن صريحين، هتلر وتشرشل فعلا كل ما بوسعهما، كي يمنعا انتشار أية فضيحة للوالدين إلى الخارج، فاندلاع الحرب العالمية الثانية كان عبارة عن تكتيك تنويعي فعال تماماً ـ أسعار الفلفل والتوابل غدت غير مستقرة بسبب فقدان السوق الألمانية والعدد المتزايد للقصص المتعلقة بالأخطار التي تهدد سفن الشحن. وعلى نحو خاص كانت الإشاعات مستمرة حول الخطط الألمانية التي تهدف لشل الإمبراطورية البريطانية وذلك بإرسال بوارج

حربية وغواصات ـ وكان الناس قد بدؤوا تعلم المصطلح «يوبوتة» أي الغواصة الألمانية ـ المتجهة إلى طرق السفن البحرية في المحيط الهندي وكذلك الأطلسي، بحيث تصبح السفن التجارية (كما اعتقد الجميع) الهدف الذي له الأولوية العليا، مثله مثل الأسطول البريطاني، وفي رأس القائمة يمكن أن يكون هناك ألغام. رغم كل هذا قام أبراهام بخدعته السحرية. فخرجت ماركو بولو من مرفأ كوشين لتتجه باتجاه الغرب. «لا تسألي»، حذرت أصابعه التي كانت تمثل أنها تشبك الشفتين، فيما الإمبراطورة، أمي، رفعت يديها، حركتهما معاً بطريقة تدل على التصفيق، ثم لم تسأل أي سؤال آخر. «دائماً كنت بحاجة إلى ساحر،» كان كل ما قالت، «وعلى ما يبدو، وجدت واحداً في النهاية».

إنني أندهش من أمي حين أفكر بذلك. كيف استطاعت خنق فضولها؟ لقد عمل أبراهام المستحيل ورضيت بألا تعرف كيف: كانت مستعدة لأن تعيش جاهلة، باعتبارها السيدة الشابة لشارع الإبرة ـ الخيط. وفي السنوات التي تلت، مع تنوع حالة تجارة العائلة على نحو ظافر في مئة اتجاه واتجاه، مع تزايد جبال ـ الخزينة من مجرد غوط[1] غاما إلى هملايا الزغبي، ترى هل تصورت ـ هل فكرت لحظة واحدة ـ إلا أن عليها أن تكون كذلك بالطبع، عماها باختيارها، وبساطتها بساطة الصمت، بساطة «لا تقل لي أشياء لا أريد أن أعرفها،» بساطة «اهدأ أنا منشغلة بعملي العظيم». هكذا كانت قوة عدم رؤيتها، إلى حد أنه لا أحد منا نظر في ذلك الاتجاه أيضاً. فأي غطاء يا ترى كانت لأبراهام الزغبي وعملياته!! أية واجهة لامعة تضفي الشرعية... لكن علي ألا أستبق قصتي. ففي الوقت الحاضر، من الضروري فقط أن أكشف ـ لا، لقد حان الوقت لكي يكشف أحد ما ـ أن أبي، أبراهام الزغبي تكشف عن موهبة عظيمة قادرة على تغيير العقول النافرة.

(1) درج ينزل بواسطته إلى نهر في الهند.

أنا آخذه من فم الحصان: لقد أمضى معظم ساعات مهمته، بين عمال الميناء جاراً أكبر وأقوى أولئك المعروفين لديه جانباً، مشيراً إلى أنه إذا ما أفلحت محاولة النازيين في الحصار، إذا ما اضطر شغل آل داغاما للتوقف، إذن، عليهم، هم العمال وعائلاتهم أيضاً أن يغرقوا بسرعة في حالة من العوز والفقر. «حتى قبطان ماركو بولو» ، غمغم باحتقار «نتيجة جبنه ورفضه الإبحار، يخطف الطعام من صحون أولادكم».

وما إن أفلح في تشكيل جيش قوي كفاية للتغلب على بحارة السفينة، مع ظهور الحاجة الماسة، حتى ذهب أبراهام بنفسه لرؤية الكتاب الرئيسيين في المستودع، السادة تيجباتام، كالونجي وميرشاند التشيني الذين قابلوه بكل اشمئزاز لم يحسنوا إخفاءه، لأنه لم يكن إلا موظفاً ثانوياً مثلهم حتى فترة قريبة جداً، فهل يخضعون لأوامره إلا كما يشاؤون؟ في حين ـ والفضل لإغوائه تلك الفاسقة الرخيصة، مالكة المستودع ـ بات الآن يأمر وينهى مثل مدير المدراء... مع ذلك، لم يكن هناك خيار، فاتبعوا تعليماته، رسائل برقية ملحة وعاجلة أرسلت إلى مالكي ماركو بولو وسيدها. ثم بعد فترة وجيزة، ذهب أبراهام الزغبي، دون أن يرافقه أحد، إلى سفينة الشحن مع رائد المرفأ نفسه.

لم يستغرق الاجتماع مع القبطان وقتاً طويلاً. «لقد شرحت الوضع كله بكل صراحة،» قال والدي لي وقد بلغ سن الشيخوخة. «ضرورة العمل السريع لاحتكار السوق البريطانية باعتبار أن ذلك يكون تعويضاً عن فقدان الواردات الألمانية، وهلم جراً. لقد كنت سخياً، وذلك أمر حكيم دائماً في المفاوضات. إذ بسبب شجاعته، قلت له، سنجعله رجلاً غنياً تماماً حين يصل إلى رصيف شرق الهند. ولقد أحب ذلك. بل إن ذلك جعله ميالاً للقبول». ثم توقف، شاهقاً، محاولاً أن يملأ البقية البالية من رئتيه. «طبعاً، لم يكن هناك تلك الجزرة المغرية فقط، بل كان هناك قضيب خيزران أيضاً. إذ أعلمت «سكيبر»، أنه إذا لم يوافق من هنا حتى

غروب الشمس، سيؤسفني، أنا الذي يتكلم كزميل، أن تذهب سفينته إلى قاع المرفأ، كما سيتعرض هو شخصياً، للأسف، للأمر ذاته».

هل كان سينفذ تهديده؟ سألته. وللحظة من الزمن ظننت أنه سيمد يده إلى إبرته وخيطه غير المرئيين. لكن حينذاك داهمته نوبة سعال حادة، فكح وكح وسالت الدموع من عينيه العجوزين الحليبيتين. ثم حين هدأت النوبة قليلاً فقط فهمت أن والدي كان يضحك «يا ولد، يا ولد» نعق صوت أبراهام الزغبي «لا تحاول أبداً أن تهدد أو تنذر أحداً، ما لم وحتى تكون جاهزاً وراغباً في أن تنفذ تهديدك».

غير أن سيد ماركو بولو لم يتجرأ على الانتظار حتى التنفيذ، بل إن شخصاً آخر فعل ذلك. فأبحرت سفينة الشحن عبر المحيط متجاوزة كل الإشاعات، كل الحسابات إلى أن جاءت المدمرة الألمانية ميديا لتثقبها وهي لا تبعد أكثر من بضع ساعات عن جزيرة سوقطرة قريباً من طرف القرن الأفريقي. في الحال غرقت السفينة، ثم فقدت بكاملها وبكل ما عليها ومن عليها من بحارة.

«لقد لعبت ورقتي الرابحة،» تذكر والدي العجوز «لكن، يا للعنة، جاء من لعب الورقة الأقوى، الورقة الرابحة أكثر».

* * *

من تراه يمكن أن يلوم فلوري الزغبي إن صارت مخبولة قليلاً بعد أن خرج ابنها الوحيد عن طوعها؟ من يمكنه أن يحسدها على الساعات بعد الساعات التي بدأت تقضيها لابسة قبعة ـ القش، ماضغة علكتها على مقعد في بهو الكنيس، رامية بطاقات الصبر أو مطقطقة بكعبيها على آجر الخزف الصيني وملقية خطبة لا تنقطع ضد «المغاربة» وهو المصطلح الذي كان قد اتسع حينذاك ليشمل كل الناس تقريباً؟ ومن تراه لا يغفر لها، إن فكرت أنها كانت ترى أشياء، عندما تقدم أبراهام المسرف في اتجاهها، بجرأة تكاد تكون وقاحة، ذات يوم رائق من ربيع 1940، وابتسامة عذبة تشق وجهه كله، كما لو أنه حدد لتوه موقع فخارة الذهب.

«هكذا يا أبيـــي» قالت على مهل، دون أن تنظر مباشـرة إليـه، خـشية أن تكتشف أنها يمكن أن ترى عبره ما يبرهن أنها أخيراً تحطمت إلى قطـع صغيرة. «تريد أن تلعب الورق؟».

ابتسامته اتسعت. وقد بدا جميلاً إلى درجة جعلتها تغـضب. مـا الـذي جاء به إلى هنا، كـي يـصب نظراتـه الجميلـة عليهـا دون أي إنـذار؟ «أنـا أعرفك، يا ابيي يا ولد،» وهي ما تزال تحدق بأوراق لعبها. حـين تبتـسم تلك الابتسامة، تكون واقعاً في مشكلة، وكلما اتسعت ابتـسامتك أكثـر، تكون غارقاً في الوحل أكثر. يبدو لي أنك لا تستطيع معالجة مـا حـصلت عليه، لذلك جئت تركض إلى الأم. فأنا لم أرك طوال حيـاتي تبتـسم مثـل هذه الابتسامة الكبيرة، اجلس! العب لعبة الاثنين.

«لا لعب يا أم». قال أبراهام وابتسامته تشق وجهه حتى شحمتي أذنيـه. «هل ندخل أم تريدين أن تعرف البلدة اليهودية كلها سرنا؟»

حينذاك نظرت إليه في بؤبؤ عينه ثم قالت: «اجلس». فجلـس. ثم فتـت الورق لعبة التسع ورقات قائلة: «تظن أنك تستطيع أن تهزمني؟ ليس أنا يا ولد. فليس لديك أية فرصة البتة».

السفينة غرقت، فباتت ثروة عائلة أبراهام التجارية الجديدة مرة أخـرى في أزمة. وإنني لمسرور أن أقول إن ذلك لم يؤدِّ إلى شجار غير ملائـم في جزيرة كبرال ـ فالهدنـة بـين العـشيرة القديمـة والعـشيرة الجديـدة ظلـت متماسكة. لكن الأزمة كانـت حقيقيـة تمامـاً. إذ بعـد الكـثير مـن التزلـف وأساليب أخرى قابلة للذكر علـى نحـو أقـل مـن أعمـاق شـارع الإبـرة ـ الخيط، أرسـلت حمولـة سـفينة ثانيـة ثم ثالثـة لآل داغامـا، في طريقهـا الطويل حول رأس الرجاء الـصالح كـي تتجنـب أخطـار شمـالي أفريقيـا. ورغم كل تلك الاحتياطـات وجهـود الأسـطول البريطـاني لحراسـة كـل الطرق البحرية الحيوية ـ وذلك يجب أن يقال، بل إن البانديت نهرو قالـه من سجنه، وإن الموقف البريطاني تجاه سفن الشحن الهنديـة كـان رخـواً

قليلاً ـ فتانك السفينتان انتهتا أيضاً إلى إلقاء التوابل في قاع المحيط، كما أن امبراطورية توابل السي 50 (ومن يدري، ربما أيضاً قلب الامبراطورية ذاته حرم من الإلهام الفلفلي) بدأت تتأرجح وتتمايل. فالنفقات تصاعدت (فواتير أجور تكاليف صيانة فوائد قروض). لكن هذا ليس تقرير الشركة، لذلك يجب أن تأخذه ببساطة مني: إذ وصلت الأمور إلى حالة مؤسفة، عندما عاد أبراهام المبتسم الذي صار مؤخراً تاجر كوشين القوي، إلى البلدة اليهودية. «أتراها أخفقت كل مغامراته؟ ماذا؟ ولا مغامرة واحدة؟» ـ ولا واحدة، إذن، دعونا نتابع. فأنا أريد أن أحكي لكم حكاية ـ جن.

في النهاية، ما ترك لنا إنما هي الحكايات. وما نحن إلا بعض الحكايات التي ستستمر. لكن أفضل الحكايات القديمة هي تلك التي نرغب في سماعها المرة تلو المرة. فهناك عاشقان، ذلك صحيح، لكن الأجزاء التي نبحث عنها هي الأجزاء التي تسقط فيها الظلال على طريقهما. تفاحة مسمومة، مغزل مسحور، ملكة سوداء. ساحرة شريرة، غيلان يسرقون الأطفال، تلك هي المادة، وهكذا: في يوم من الأيام، قامر والدي أبراهام الزغبي بكل شيء وخسر. لكنه كان قد أقسم: «سوف أعتني بالأمور». وطبقاً لذلك، حين أعيته كل الوسائل، كان يأسه شديداً إلى حد أنه اضطر لأن يأتي، بابتسامته العريضة حتى الأذنين، لكي يتوسل لأمه المخبّلة. ــ من أجل ماذا؟ ـ وأي شيء آخر، سوى صندوق كنزها.

* * *

داس أبراهام على كبريائه وجاء يشحذ، ذلك بالضبط ما قال لفلوري، وكل ما كانت بحاجة لأن تعرفه عن قوة يدها. لقد تحجج بأنه لم يستطع أن يعمل جيداً: تحويل القش إلى ذهب، ذلك النوع من المادة قديمة ـ العهد، وكان من الكبرياء بحيث أقر بفشله لأنسبائه، ولأن يقول لهم إن عليهم أن يرهنوا أو يبيعوا شيئاً من عقاراتهم. «لقد منحوك رأسك يا أبيي. وانظر، ها هو ذا على طبق». لقد جعلته ينتظر قليلاً، لكن ليس طويلاً جداً، ثم وافقت. أنت

بحاجة لرأسمال؟ جواهر من العلبة العتيقة؟ إذن، تمام، بإمكانه أن يأخذها. كل كلام الشكر، الامتنان، تفسيرات مشاكل السيولة المؤقتة، الخطب حول الملكيات المقنعة على نحو خاص للجواهر حين يطلب من البحارة أن يغامروا بحياتهم، كل عروض الفوائد والربح النقدي أزيحت جانباً.

«جواهر، أعطيك» قالت له فلوري الزغبي «لكن يجب أن تكون مكافأتي جوهرة أكبر».

وفشل ابنها في فهم مقصدها. لكنه بالتأكيد تعهد بكل إشراق أن يقدم، وهي ستقبل، تعويضاً كاملاً لقرضها، ما إن تصل سفينتهم، وإن كانت تفضل أن تأخذ حصتها على شكل زمرد، إذن سيعمل على اختيار أحلى الزمردات لها. هكذا بربر، لكنه كان قد دخل المياه السوداء دون أن يعلم، ووراء المياه السوداء، كانت هناك غابة سوداء، في فسحة منها، كانت حورية ترقص وهي تغني «رمبلستيلتسكين هو اسمي...».

«على فكرة». قاطعته فلوري «أنا لا أشك بأنك سترجع القرض. لكن لقاء مغامرتي على هذا النحو في استثمار كهذا، أكبر جوهرة فقط يمكن أن تكون جائزتي. إذ عليك أن تعطيني أول صبي يولد لك».

(منشأان اثنان كان قد تم اقتراحهما لعلبة زمرد فلوري. موروثات العائلة وكنوز التهريب. ولنضع العاطفة جانباً، العقل والمنطق يقولان بالمنشأ الأخير وإن كان ذلك صحيحاً، إن كانت فلوري تقامر بالمخزون الاحتياطي لعصابة التهريب، إذن، بقاؤها على قيد الحياة سيكون موضع شك. فهل ذلك يجعل مطلبها أقل صدماً إلى حد أنها تغامر بنفسها لكي تكسب حياة بشرية طلبتها؟ هل ذلك، بالحقيقة، عمل بطولي؟).

«اجلب لي ابنك الأول»... وعلق خط من خلافات بين هذه الأم وهذا الابن. فقال لها أبراهام، مرعوباً، ذلك غير مطروح البتة. إنه شرير ولا يمكن التفكير به. «ذلك شطب تلك الابتسامة الغبية من وجهك، يا

أبيي. أليس كذلك؟» سألت فلـوري بـشيء مـن تجهـم. «إذن لا تفكـر أن بإمكانك أن تمسك بالعلبة وتجـري، إنهـا في مخبـأ آخـر. وأنـت بحاجـة لأحجاري الكريمة؟ أعطني ابنك البكر، بجلده ولحمه وعظامه».

يا أم، أنت مجنونة، يا أم. أوه، يا أسلافي، أنا خائف أن تكون قـد انفجـرت صماماتها ثم غمغم أبراهام بصوت واهن «أورورا لا تتوقع شيئاً كهذا بعد».

«أوه، هــ.. و، أبيي». قهقهت فلوري «تحسبني مجنونة، يا ولـد؟ هـل سأقتله وآكله، أو أشرب دمه، أو ماذا؟ أنا لست غنية. يا ولد، لكن هناك ما يكفيني من الطعام على مائدتي ولا حاجة لأن آكـل أفـراد العائلـة». ثم غدت جادة تماماً، قائلة: «اسمع: يمكنك أن تراه عندما تـشاء. حـتى الأم يمكنها أن تأتي، الخروج، أيام العطل كل ذلك موافقة عليـه أيـضاً. فقـط أرسله ليعيش معي، وبذلك يمكنني أن أبذل جهدي لكي أربيه فيـصير مـا توقعت أنت أن تكونه، أي يهودياً ذكـراً مـن كوشـين. لقـد فقـدت ابنـاً، لكنني سأنقذ حفيداً على الأقل». ولم تضف إلى صلاتها الـسرية «عـساني في إنقاذه، أكتشف من جديد إلهي الخاص».

ثم مع سقوط العالم في المكان، وافق أبراهام وهو في ما يـشبه الـدوار لأنه سيتم إنقاذه، وهو في حالة من الظمأ الشديد لتلبية حاجتـه وفي حالـة من الغياب التام لإمكانية حل فعلي. لكن فلوري لم تكن بالمرأة الـسهلة، فقد أرادت موافقته خطياً. «إلى أمي، فلوري الزغبي، أتعهد هنا أن أجعـل ابني البكر يربى حسب الطرق اليهودية». التوقيع، الختم ثم التسليم. لوحت فلوري بالورقة، بعد أن خطفتها منه، فـوق رأسـها «عهـد، عهـد، لـدي عهد، قسم بالسماء أنا سأبقى هنا علـى عهـدي». ومقابـل تلـك الأرطـال (الإنكليزية) الموعودة من اللحـم الـذي لم يولـد بعـد، سـلمت أبراهـام ثروتها، ثم دفع ورشا بالجواهر إلى أن وجدت سفينته فرصتها لكي تبحر.

لكن أورورا لم تعلم شيئاً عن ذلك كله.

* * *

ولقد حدث أن مرت تلك السفينة بسلام إلى المرفأ، ثم مرت أخرى فأخرى فأخرى. وبينما كانت ثروات العالم تتناقص، كانت ثروة الزغبي ـ غاما تزدهر.

(كيف عمل والدي على تأمين حماية شحنته من قبل الأسطول البريطاني؟ بالتأكيد، لم يقل أحد إن الزمرد، سواء كان موروثاً عائلياً أو مهرباً، شق طريقه إلى الجيوب الإمبريالية؟ أية ضربة جريئة كانت يا ترى؟ ضربة: كل شيء أو لا شيء!! وكم هو غير مرحَّب به أن تقول إن عرضاً كهذا، ربما، تم قبوله!! لا، لا، على المرء أن يعزو ما حدث لسهر الأسطول ـ لأن ميليا الفتاكة كانت قد غرقت أخيراً ـ أو إلى انشغال النازيين المسبق بميادين حرب أخرى، أو القول بأن ذلك مجرد معجزة أو حظ أعمى أبكم). ففي أول فرصة أعاد أبراهام المال ـ الجواهر التي استدانها من أمه، مقدماً لها مبلغاً إضافياً على شكل فائدة. ثم غادر بسرعة، دون أي جواب، لكنها رفضت المبلغ مع دعوة المدعي، والجوهرة «مكافأة العقد. متى ستدفع تلك؟ واعلم أنك إن لم تدفعها سألجأ للقانون، مطالبة بعقوبة عقدي وغرامته».

لكن أورورا ظلت دون إنجاب، رغم أنها لم تكن تعرف شيئاً عن الورقة الموقعة. ثم مرت الأشهر إلى حدود السنة، ومازال أبراهام ممسكاً بلسانه لم يتكلم. حينذاك كان قد صار المسؤول الوحيد عن شغل العائلة، فإيرس لم يمل يوماً لأعمال التجارة وبعد أن صار لديه صهر يؤثر القيام بعمل إنقاذي ظافر، فإن الأخ الباقي من الأخوين داغاما تقاعد، خالصاً ـ كما يقولون ـ للحياة الخاصة... ولكن في الأول من كل شهر كانت فلوري ترسل لابنها التاجر العظيم رسالة: «آمل ألا تتهرب. فأنا أريد جوهرتي الثمينة» (لكن كم هو غريب، كم هو مصيري أن أورورا في تلك الأيام المتوهجة بحبهما الحار ـ كالفلفل لم تحبل البتة! السبب أنه كان هناك صبي، وهنا أتكلم باعتباري ذكر والديّ الوحيد، أي عظم الربط ـ بين اللحم والجلد والعظام ـ الذي يمكن أن يكون أنا).

مرة ثانية، قدم لها المال، ومرة ثانية رفضت. عند نقطة ما، راح يتوسل لها، كيف تراه سيطلب من زوجته الشابة أن ترسل وليدها بعيداً عنها، أن ترعاه المرأة التي تكرهها؟ لكن فلوري عنيدة متصلبة. «كان يجب أن تفكر بذلك من قبل». أخيراً، سيطر عليه غضب، فتحداها. «ورقتك لا تساوي شيئاً». صرخ في الهاتف. «انتظري لتري من يمكنه أن يدفع أكثر للقاضي». فأحجار لوري الخضراء لم تكن تضاهي ثروة العائلة المتجددة، ولو كانت بالحقيقة حجارة حارة، لكان عليها أن تفكر مرتين قبل أن تظهرها لرجال القضاء، حتى أولئك الذين يرغبون في أن يكسوا أعشاشهم بالريش. لكن ما تراه كان رأيها؟ لقد فقدت إيمانها بالعقاب الإلهي. فالانتقام هو في هذا العالم.

منتقم آخر! كلب بني آخر، أم بعوضة فتاكة! أي وباء سنجعله يدخل في حكايتي، أية ملاريا كوليرا تيفوئيد عين ـ مقابل سن وما شابه! لا عجب أنني توصلت إلى نهاية... لكن يجب عدم الكلام عن نهايتي قبل أن أبدأ البداية. هاهي ذي أورورا في عيد ميلادها السابع عشر في ربيع 1941، وهي تزور قبر فاسكو وحيدة، وهاهي ذي تنتظر في الظلال، إذ بعجوز شمطاء...

عندما رأت فلوري تندفع باتجاهها خارجة من ظلال الكنيسة، فكرت للحظة سريعة أن جدتها إيبفانيا قد نهضت من القبر، بعدئذ تماسكت وابتسمت ابتسامة خفيفة، متذكرة كم سخرت ذات مرة من أفكار أبيها الشبحية، لا، لا، هذه مجرد عجوز ما، لكن ما تراها الورقة التي رمتها في وجهها؟

أحياناً تلجأ النساء الشحاذات إلى مثل هذه الأساليب «باسم الإله ارحميني، أنا لا أستطيع الكلام، ولديّ اثنا عشر طفلاً أعيلهم». «عفواً، آسفة» قالت أورورا بلا مبالاة، ثم بدأت تستدير مبتعدة. حينذاك تكلمت العجوز ناطقة باسمها. «سيدة أورورا،» (ثم بصوت عالٍ) يا عاهرة ابني الرومية! هذه الورقة يجب أن تقرئيها:

فرجعت القهقرى، أخذت الوثيقة التي عرضتها أم أبراهام وقرأتها.

* * *

بورشيا، فتاة غنية ويفترض أنها ذكية، تقبل وصية أبيها المرحوم ـ بأنها ينبغي أن تتزوج أي رجل يحل لغز القبعات الثلاث، الذهبية الفضية الرصاصية ـ الذي يقدمه لنا شكسبير باعتباره النموذج الرئيسي للعدالة. لكن اصغ بشكل دقيق، عندما يسقط خاطبها أمير المغرب في الامتحان، تتنهد:

خلاص نبيل. أسدلوا الستائر: اذهبوا

ودعوا كل ما في طبيعته يختارني هكذا

لا عاشق إذن من المغاربة!! لا، لا، هي تحب بسانيو، الذي يلتقط بصدفة سعيدة العلبة الصحيحة، تلك التي تحتوي على صورة بورشيا (أنت، أنت أيها الرصاص الحقير). لذلك أعر أذناً، لتفسير هذا النموذج لاختياره.

.... الحلية ليست سوى شاطئ مذهب

لبحر أشد خطراً، للفحة جميلة

تحجب جمالاً هندياً، أي باختصار

حقيقة ظاهرة يلبسها الزمان الماكر...

آه، أجل: من أجل بسانيو، كان الجمال الهندي مثل «بحر خطر» أو مشابه للزمان الماكر! وهكذا يستبعد المغاربة، الهنود، وبالطبع «اليهود» (فبورشيا يمكنها فقط أن تجبر نفسها على استخدام اسم شايلوك في مناسبتين، أما بقية الوقت فإنها تحدد هويته بدقة من خلال عرقه)، زوج ذو عقل ـ عادل، بالحقيقة، زوج من الدانيالات يأتي للمحكمة... وأنا أضيف كل هذه الأدلة لأبين لماذا، عندما أقول إن قصتنا هي قصة أورورا لابورشيا، لا أقصد تماماً بأن يكون نقداً. لقد كانت غنية (مثل بورشيا في هذه النقطة) لكنها هي التي اختارت زوجها (خلاف بورشيا في هذه النقطة) وهي بالتأكيد كانت ذكية (مثل)، وفي السابعة عشرة، قريبة من بلوغ ذروة جمالها الهندي بالذات (خلافاً لبورشيا)، كما كان زوجها ـ

فيما لا يمكن أن يكون زوج بورشيا البتة يهودياً. لكن كما أنكرت خادمة بيلمونت على شايلوك رطل اللحم الذي هو من حقه كشرط، وجدت أمي طريقة عادلة، لإنكار حق فلوري بالطفل.

«قل لأمك،» أمرت أورورا أبراهام تلك الليلة «لن يكون هناك أطفال في هذا البيت طالما بقيت هي على قيد الحياة». ثم طردته من مخدعها قائلة: «أنت تقوم بعملك وأنا أقوم بعملي لكن العمل الذي تنتظر فلوري نتائجه، لن تراه أبداً».

* * *

كذلك قامت برسم خط. وفي تلك الليلة فركت جسدها إلى أن أصبح جلدها نظيفاً لا أثر عليه من عطر فلفل الحب. (أنا أفرك وأغتسل...) بعدئذ أقفلت باب مخدعها بالمزلاج واستغرقت في نوم عميق بلا أحلام. لكن، في الأشهر التالية نما عملها ـ من رسوم، لوحات ودمى صغيرة مشوهة رهيبة مصنوعة من الغضار الأحمر ـ كما امتلأ بالساحرات، الحرائق، سفر الرؤيا. وفيما بعد قامت بتدمير معظم تلك المادة «الحمراء». نتيجة لذلك فإن القطع الباقية اكتسبت قيمة إلى حد كبير، إذ نادراً ما تعرض في صالات البيع، وعندما تعرض، يهيمن نوع من الإثارة المحمومة على الجو.

طول ليال عدة، ظل أبراهام يموء على نحو يثير الشفقة عند بابها المقفل لكن دون أن يدخل. أخيراً، وحسب طريقة ـ سيرانو دي بيرجراك، استأجر عازف أكورديون محلياً ومغني أناشيد صار يغني لها في الساحة، تحت شرفتها. فيما هو، أبراهام، كان يقف كالمعتوه بجانب عازف الموسيقى ويردد الكلمات القديمة لأغاني الحب. حينذاك فتحت أورورا مصراعي نافذتها، ثم رمت أزهاراً، بعدئذ سكبت الماء من أصيص الأزهار، أخيراً رمت الأصيص نفسه.

وقد سجل الثلاثة إصابات للهدف. وبما أن الأصيص كان قطعة ثقيلة من الفخار، فقد أصاب أبراهام عند كاحله الأيسر وكسره، ليؤخذ، دامياً ومعولاً، إلى المستشفى، بعد ذلك لم يحاول أن يغير عقلها. وسارت حياته وحياتها على خطين متباعدين.

بعد فصل الأصيص الفخاري، صار أبراهام يمشي بشيء من العرج، فيما كانت البأساء ترتسم على كل خط من خطوط وجهه، بأساء جعلت زاويتي فمه تتهدلان إلى الأسفل وتخرب مظهره الجميل. بينما استمرت أورورا، وبشكل معاكس لذلك، تزدهر وتتألق. عبقرية كانت قيد الولادة، مالئة الفضاءات الفارغة في سريرها، قلبها، رحمها، فلم تكن بحاجة إلا إلى نفسها.

* * *

معظم سنوات الحرب، غابت عن كوشين، وذلك في زيارات طويلة، في البدء لبومباي، حيث التقت ثم انشغلت بالبارسي الشاب كيكو مودي الذي كان قد بدأ التعامل مع الفنانين الهنود المعاصرين ـ ولم يكن، في ذلك الحين ميداناً مربحاً جداً ـ من بيته في معرض كوف. أما أبراهام الأعرج فلم يرافقها في أية رحلة من هذه الرحلات. وحين كانت تغادر، كانت كلمات فراقها الدائمة «تمام، حسن يا أبيي، اهتم بالمستودع». هكذا كان الأمر في غيابه، إذ بعيداً عن عرجه وتعبير الخضوع في محياه للشوق الذي لا يحتمل، كانت أورورا الزغبي تنمو وتشتهر كشخصية عامة عملاقة، صرنا كلنا نعرفها، جمالاً عظيماً في قلب الحركة الوطنية، بوهيمية محلولة الشعر تسير جنباً إلى جنب وبكل جرأة في المسيرات مع فالابهاي باتل وأبي الكلام أزاد، عندما يخرجون بمسيراتهم، كما كانت بحسب الشائعات المستمرة، خليلة ـ للبانديت نهرو، «صديقة صديقاته» التي تنافست فيما بعد مع إدوينا مونباتن على قلبه. لكنها لم تكن موثوقة من قبل غاندي كما تنفر منها إنديرا غاندي، أما اعتقالها بعد قرار «اتركوا

الهند» سنة 1942 فقد جعلها بطلة على مستوى الوطن. كذلك اعتقل جواهرلال نهرو أيضاً في قلعة أحمد نغار حيث كانت الأميرة المحاربة في القرن الخامس عشر، تشاند بيبي، قد قاومت جيوش الامبراطورية المغولية ـ جيوش امبراطور المغول العظيم ـ أكبر نفسه، فبدأ الناس يقولون إن أورورا الزغبي هي تشاند بيبي جديدة، تصمد في وجه امبراطورية مختلفة، لكن أقوى بكثير، كما بدأ وجهها يظهر في كل مكان، مرسوماً على الجدران، مخططاً على الورق، ثم صارت صانعة ـ الصور هي ذاتها صورة. في سجن منطقة ديهرا دون قضت سنتين، وحين خرجت كانت في العشرين من عمرها، لكن كان شعرها قد ابيض. عادت إلى كوشين، وقد تحولت إلى أسطورة، فكانت كلمات أبراهام الأولى لها: «المخزن بحالة جيدة». فأومأت برأسها إيماءة سريعة ثم عادت إلى العمل.

أمور ما كانت قد تغيرت في جزيرة كبرال، فخلال الفترة التي سجنت فيها أورورا، كان عشيق إيرس الطويل الأمد، والمعروف لدينا باسم الأمير هنري الملاح، قد أصيب بمرض خطير. إذ تبين أنه يعاني من السفلس المعدي على نحو خاص، وسرعان ما بات واضحاً أن العم إيرس، أصيب بالعدوى أيضاً، فظهرت بثور السفلس على وجهه وجسده مما جعل من المستحيل بالنسبة له أن يغادر المنزل، كما بات هزيل الجسم أجوف العينين، كذلك بدا أكبر من عمره الحقيقي أي الأربعين بعقدين من الزمن ـ سنوات غريبة. أما زوجته كارمن، التي هددته منذ زمن طويل بأن تقتله جرّاء أعماله السيئة، فقد جاءت بدلاً من ذلك لتجلس بجوار سريره. «انظر ما حدث لك، يا رجلي الإيرلندي»، قالت له «هل ستموت عني أم ماذا؟» ثم وضعت رأسه على المخدة فلم يـر في عينيها سوى الشفقة. «الأفضل أن تتحسن». قالت له، «وإلا مع من يا ترى سأرقص بقية حياتي؟ معك أنت». هنا توقفت لفترة وجيزة، ثم احمر لونها كثيراً وتابعت «ومع أميرك هنري، أيضاً».

أعطي الأمير هنيري الملاح غرفة في البيت، في جزيرة كبرال، وفي الأشهر التالية، كانت كارمن، بتصميم لا يستنزف، تشرف على معالجة الرجلين بكل حنكة ودقة من قبل الاختصاصيين في البلدة. ـ كما كان الدفع أعلى بكثير. ببطء استعاد المريضان عافيتهما، ثم جاء اليوم الذي زارت فيه إيرس زوجته، وهو جالس في الحديقة بمبذله الحريري، وإلى جانبه جواهرلال، البلدوغ، يشرب عصير الليمون الطازج، فاقترحت عليه بهدوء أن لا حاجة بعد اليوم لأن ينتقل هنري من المنزل. «فثمة حروب كثيرة في هذا المنزل وخارجه». قالت له، «دعنا على الأقل نصنع هذا السلام ثلاثي الأطراف».

في منتصف 1945، بلغت أورورا الزغبي سن الرشد. فأمضت عيد ميلادها الحادي والعشرين في بومباي، بدون أبراهام، في حفلة أقامها لها السيد كيكو مودي وحضرها معظم فناني المدينة ومشاهيرها السياسيين.

في ذلك الحين، كان البريطانيون قد أطلقوا سراح سجناء حزب المؤتمر، لأن مفاوضات جديدة كانت تلوح في الجو، كما أطلق سراح نهرو نفسه فأرسل إلى أورورا رسالة طويلة من منزل يدعى آرمزديل في سيملا، يعتذر فيها عن عدم حضوره احتفالاتها. إذ كتب «صوتي خشن جداً. ولا أستطيع أن أستنتج لماذا أجذب هذه الحشود الممتنة جداً، ولا شك، لكن المتعبة جدا أيضاً والمثيرة للغيظ، هنا، في سيملا، أضطر للخروج إلى الشرفة غالباً لألقي خطاباً، وأشك إن كان باستطاعتي أن أخرج يوماً في نزهة بسبب الحشود التي تتبعني، إلا في عز الليل... وعليك أن تكوني شاكرة لأنني وفرت عليك هذه التجربة ببقائي بعيداً. ثم كهدية عيد ميلاد، أرسل لها كتاب هوغبن «علم للمواطن ورياضيات للملايين،» وذلك «بغية صبغ روحك الفنية بقليل من الجانب الآخر للعقل».

في الحال أعطت الكتاب لكيكو مودي، مع ابتسامة صغيرة، قائلة «جواهر يهتم بكل هذا الهراء. لكن أنا فتاة ذات عقل ذي بعد واحد».

* * *

أما بالنسبة لفلوري الزغبي، فقد كانت ما تزال على قيد الحياة، لكنها صارت غريبة قليلاً مؤخراً. بعدئذ، ذات يوم قرب نهاية تموز، وجدت وهي تحبو على أرض كنيس متنتشيري على يديها وركبتيها، زاعمة أن بإمكانها أن ترى المستقبل في الخزف الصيني الأزرق، ثم متنبئة بأن بلاداً غير بعيدة عن الصين سيلتهمها عما قريب فطور عملاقة تأكل البشر. شعر موشي كوهين العجوز بالكثير من الأسى لاضطراره لأن يعفيها من منصبها. ثم سمعت ابنة أخيه سارة ـ التي كانت ما تزال عانساً ـ عن كنيسة قرب البحر في ترافنكور، صار الناس المختلون عقلياً من كل الأديان يذهبون إليها، إذ يعتقد أن لديها القدرة على الشفاء من الجنون. قالت لموشي ذلك ثم أخبرته بأنها تريد أن تأخذ فلوري إلى هناك، فوافق الشماع على دفع نفقات الرحلة كلها.

قضت فلوري يومها الأول جالسة على التراب خارج الكنيسة السحرية، راسمة بقضيب بيدها خطوطاً في التراب، متحدثة بصوت عالٍ مع الحفيد غير المرئي، وغير الموجود أصلاً، إلى جانبها. في اليوم الثاني من إقامتهما، تركت سارة فلوري بمفردها مدة ساعة، بينما راحت تمشي على طول الخليج، تراقب صيادي السمك وزوارقهم الطويلة في غدوهم ورواحهم. حين عادت إلى هناك، كانت ثمة ضجة في مجمع الكنيسة. فأحد المجانين المتجمعين هناك كان قد انتحر بحرق نفسه بعد أن صب البترول على جسده عند قدم تمثال المسيح المصلوب بالحجم الحي، وحين أشعل عود الثقاب بثيابه، امتد اللهب على نحو قاتل إلى حاشية تنورة مطبّعة بالزهور لسيدة عجوز، فالتهمتها النار أيضاً. إنها جدتي، وقد عادت سارة بالجثة إلى المنزل ثم دفنت لترتاح راحتها الأبدية في مقبرة البلدة اليهودية. ظل أبراهام إلى جانب قبرها فترة طويلة من الزمن بعد الجنازة، وحين أمسكت سارة بيده، لم يسحبها بعيداً.

بعد بضعة أيام، التهمت سحابة عملاقة كالفطر المدينة اليابانية هيروشيما، ولدى سماعه النبأ، انفجر موشي كوهين باكياً الدموع المرة السخينة.

* * *

الآن ذهبوا كلهم تقريباً، يهود كوشين. أقل من خمسين منهم كانوا قد ظلوا فيما رحل الشباب جميعاً إلى إسرائيل. إنه الجيل الأخير، وقد اتخذت ترتيبات خاصة لجعل الكنيس تحت إشراف حكومة ولاية كيرالا التي ستحوله إلى متحف. بينما كان آخر العزاب والعوانس يتشمسون بلا أسنان في أزقة متنتشيري الخالية من الأطفال. هذا أيضاً نوع من الانقراض يستحق الحداد. ليس انتهاء، كما حدث في مكان آخر، بل النهاية، مع ذلك، لقصة تروى، استغرقت ألفي سنة.

في نهاية سنة 1945، ترك أبراهام وأورورا بلدة كوشين ليشتريا بيتاً ريفياً واسعاً يقع وسط أشجار التمر الهندي، الدلب وأشجار ـ الجاك المثمرة على سفح تلة ملابار في بومباي مع حديقة كلها مصاطب متدرجة تشرف على خليج تشوباتي، الخليج الخلفي والطريق البحري. «كوشين انتهت على أية حال»، فكر أبراهام، «من وجهة نظر الشغل فقط، للانتقال معنى كامل». فقد ترك رجالاً أمناء كقيّمين على العمل في الجنوب، ولسوف يستمر في القيام برحلات تفتيش نظامية على مر السنين... لكن أورورا لم تكن بحاجة لحجج منطقية، ففي اليوم الذي انتقلوا فيه إلى المنزل الجديد، خرجت إلى نقطة مطلة حيث تنتهي مصاطب الحديقة بانحدار يصيب بالدوار، نحو الصخور السوداء والبحر المزبد، وبأعلى صوتها صرخت بالأولاد محركي العجلات فرحاً.

فيما كان أبراهام ينتظر خجلاً خلفها ببضعة ياردات، يداه مضمومتان أمامه وكأنه يتطلع إلى كل العالم بنظرة المدير المناوب الذي كانه ذات يوم. «آمل أن يثبت الجوار أنه مفيد لعملك الإبداعي». قال بكثير من الرسمية الموجعة. فجرت أورورا راكضة إليه ثم قفزت بين أحضانه.

«عمل إبداعي، هذا ما يهمك، أليس كذلك؟» سألته ناظرة إليه وكأنها لم تنظر منذ سنين. «إذن، هلم يا سيد، دعنا ندخل إلى المنزل ثم نبدع».

تلة ملابار

(9)

في سنة من السنين، أحبت أمي، أورورا الزغبي، أن ترقص رقصة أرفع من رقصات الآلهة. في سنة من السنين جاء الآلهة إلى خليج تشوباني كي يستحموا في ماء البحر الوسخ، ممتلئي الكروش، بالآلاف، تماثيل من الورق المعجّن، آلهة ذات رؤوس فيلة، غانيشا أو غانباتي بابا، مندفعة باتجاه الماء منفرجة السيقان، جرذاناً من الورق المعجن ـ لأن الجرذان الهندية، كما تعلمون، تحمل الآلهة وكذلك الأوبئة. بعض هذه الثنائيات ذات الخراطيم والأذناب كانت ضئيلة الحجم إلى حد أنه يمكن حملها على أكتاف البشر، أو بين أذرعهم، فيما كانت أخرى بحجم بيوت صغيرة وكانت تجرها عربات ذات عجلات ضخمة من قبل مئات التلاميذ. إضافة إلى ذلك، كان هناك الكثير من الغانيشات الراقصة كما كانت أولئك الغانباتيات تهز ـ أوراكها التي تعالج ـ بالحب، ممتلئة الكروش. تنافسها أورورا، قائمة برقصاتها الدنيوية مقابل الرقص الجميل للإله ذي النسخ الكثيرة. في سنة من السنين، كانت السماء مليئة بغيوم رائعة الألوان: زهرية وأرجوانية، حمراء خفيفة وقرمزية، زعفرانية وخضراء، تلك الغيوم ـ الذرور المنبثقة من بخاخات قتل الحشرات المستعملة من جديد، أو الطافية من مجموعة بالونات منفجرة، متحركة عبر السماء، معلقة في الهواء فوق الآلهة، مثل هالة «ـ ليست ـ شمالية ـ بل ـ بومباوية»، كما اعتاد الرسام فاسكو ميراندا أن يقول. كذلك كانت السماء ـ عالياً فوق الحشود والآلهة، سنة بعد سنة ـ ولمدة إحدى وأربعين سنة ككل ـ وبلا خوف فوق الأسوار الشديدة الانحدار لبيتنا على

تلة ملابار ، وبروح من حب الأذى الساخر أو الدأب والمثابرة، أصرت على تسمية البيت «إليفانتا»، هناك كان يبرم الشخص شبه الإلهي لأمنا ذاتها، أورورا البومباوية، وهي ترتدي سلسلة متنوعة من البذلات ذات الصباغ الذي يبهر العيون، بازة برقتها حتى السماء الاحتفالية، بحدائقها المعلقة ذات اللون الذروري (يا شعر أسلافي الأبيض قبل أوانه)، وبطنها المكشوف ـ ليس ـ كمضرب ـ عتيق ـ سمين ـ بل ـ يناسب قطة ـ مسطحة، وقدميها الحافيتين تدقان الأرض، وصلصلة كاحليها بخشاخيشها الفضية وأساور ـ الأجراس التي تطوق عنقها من جانب إلى جانب، تتكلم عن مجلدات غير مفهومة من يديها، فالرسامة العظيمة كانت ترقص تحديها، وكانت ترقص احتقارها لدأب الجنس البشري الذي قاد هذه الحشود الضخمة لأن تتعرض للموت دعساً «فقط لكي تتخلص من دماها أثناء الشراب»، بينما أحبت هي بشكل غير معقول، رافعة عينيها كثيراً إلى السماء، وبارمة فمها، أن تسخر.

«الدأب البشري أعظم من البطولة البشرية،» رن ـ رن ـ «أو الجبن،» خبطة خبطة، «أو الفن»، أعلنت أمي وهي ترقص: «إذ أن هناك حدوداً لتلك الأشياء، أهدافاً لن نتجاوزها تحت ستارها، وللدأب أيضاً حد محدد، ليس الحد الذي يجده أي أحد. إذ مهما يكن من إفراط اليوم، فدأب الغد سيبزه».

وكما لو أنها تريد أن تبرهن على القوة متعددة التحولات للدأب، أصبحت أورورا الراقصة، على مر السنين، نجمة جذابة للواقعة التي احتقرتها، جزءاً مما كانت ترقص ضده، فيما حشود المؤمنين ـ وبشكل خاطئ لكن لا سبيل إلى تقويمه ـ رأوا إيمانهم ينعكس في تنانيرها التي تبرم (هي غير المؤمنة)، مدعين أنها أيضاً كانت تقدم الولاء للإله. «غانباتي بابا موريا،» كانوا ينشدون وهم يتمايلون على أصوات الأبواق الرخيصة والدفوف الرقيقة والطبول الضخمة بعيون كبياض ـ البيض

وأفواه محشوة بالأوراق النقدية الثمينة للمؤمنين. وبقدر ما كان يزداد احتقارها، كانت السيدة الخرافية ترقص على حاجزها العالي، وبقدر ما كانت تبدو لنفسها أعلى وأعلى فوقهم، كانت الحشود تتوق أكثر لسحبها باتجاهها وهي تراها لا متمردة بل راقصة معبد: ليست السوط بل بالأحرى مجموعة من الآلهة. (وكما سنرى، كان لأبراهام الزغبي، استعمالات أخرى لراقصات المعبد).

مرة، في أحد شجارات العائلة، ذكّرتها غاضباً بالتقارير الصحفية الكثيرة التي تحكي عن تمثل المهرجان لها. في ذلك الحين، كان احتفال غانيشا قد أصبح مناسبة لكي يلبس الفتيان ذوو القبضات ـ المشدودة وعصبات الرأس الزعفرانية ملابس الانتصارات الأصولية الهندوسية، يشجعهم سياسيو الحزب في بومباي وكذلك الدعاويون فيه مثل رامان فيلدينغ (الضفدع). «أنت لست مجرد مشهد سياحي الآن»، قلت لها، «أنت خبيرة بالنسبة لبرنامج التجميل».

فسياستها ذات الاسم ـ الجذاب هي ما كانت تقضي، إن قلنا ذلك ببساطة، بإزالة الفقراء من شوارع المدينة، لكن درع أورورا الزغبي كان أشد تصفيحاً من أن تخترقه طعنة فجة كهذه، فصرخت:

«تظن أنني يمكن أن يسحقني ضغط الحمأة؟ تظن أن بإمكان لسانك الأسود أن يوسخني؟ ما هذا الهراء، هذه الحماقة بالنسبة لي؟ أنا ضد خصم أعظم: شيفانتا راجي نفسه، وضد أنفه الكبير أيضاً ـ سنوات وأنا أرقص لإبعادهم عن المسرح. راقب، أيها الشخص الأسود. ربما حتى أنت ستتعلم كيف تدوّر زوبعة، كيف تسرِّع إعصاراً! كيف ترقّص عاصفة. فالرعد، تماماً في وقته، كان يهدر فوق الرؤوس، وأمطار غزيرة سرعان ما بدأت تسقط من السماء».

إحدى وأربعون سنة من الرقص في عيد غانباتي: كانت ترقص دون أن تهتم بخطر الرقص، دون أن تنظر نظرة واحدة إلى الأسفل، إلى

الصخور المسننة الصابرة التي تصرف بأسنانها تحتها، تلك الأسنان السوداء. المرة الأولى بالذات التي ظهرت فيها من إليفانتا بثياب رقصها وبدأت تبرم على حافة الجرف، توسل إليها جواهرلال نهرو نفسه أن تتوقف. ذلك كان بعد وقت قصير من الإضراب المضاد للبريطانيين الذي قام به الأسطول في مرفأ بومباي والإغلاق الداعم له في المدينة الذي انتهى بناء على طلب غاندي وفالا بهبهاي باتيل المشترك. لم تفشل أورورا في الوصول إلى مخبئها الصغير. «يا سادتي، حزب المؤتمر دائماً يقف في وجه الأعمال الراديكالية. لا خيارات سهلة سيؤخذ بها هنا». وحين استمر بالتوسل إليها، فرضت عليه غرامة، قائلة إنها ستنزل فقط إن أنشدها من الذاكرة القصيدة الكاملة «حيوان الفظ والنجار»، ولدهشتها الشديدة، فقد فعل كما ساعدها في النزول من درابزونها الذي يدوّخ، قائلاً «الإضراب مسألة معقدة». فردت «أنا أعرف بماذا أفكر حول الإضراب. أخبرني عن القصيدة». عند ذلك احمر نهرو خجلاً وبلع ريقه.

«إنها قصيدة حزينة»، قال بعد لحظة، «لأن المحار صغير جداً، والقصيدة، يمكن أن يقول المرء، حول أكل الأطفال».

«كلنا نأكل الأطفال». علقت أمي وكان ذلك قبل عشر سنوات من ولادتي. «إن لم يكن أطفال الآخرين، فأطفالنا نحن». لقد كان لديها أربعة منا: إينا، ميني، ميناه، مور وجبة من أربعة أطباق ذات خصائص سحرية، إذ بغض النظر عن الكيفية التي كانت تلتهم بها الطعام، فإن الطعام لم يكن يخرج قط.

طوال أربعة عقود، كانت تأكل ملء بطنها «بعدئذ راحت ترقص رقصتها «الغانباتية» للمرة الثانية والأربعين في سن الثالثة والستين، حين سقطت، فيما موجة مد رقيقة يسيل لعابها مرت على جسدها وفكوك سوداء مضت إلى العمل. لكن في ذلك الحين، رغم أنها كانت ما تزال أمي، لم أكن قد صرت ابنها بعد.

* * *

عند بوابة «إليفانتا»، وقف رجل بساق خشبية، يستند على عكاز. إن أغمض عيني يظل من السهل أن أستحضر صورته: بطرس البسيط ذلك عند بوابة الفردوس الأرضي وقد أصبح «فرجيلي» الشخصي محدد السعر ليقودني إلى جهنم ـ إلى مدينة جهنم الكبرى، باندومنيوم، عاصمة الجحيم، عبر التوءم الشرير لمدينتي الذهبية ذاتها: ليست الملائمة، بل غير الملائمة بومباي. وصي محبوب برجل واحدة! فالوالدان بطريقتهما الخاصة لقباه لمباجان شنديوالا (إذ يبدو أنهما أصيبا بالعدوى من إيرس داغاما وعادته في إطلاق الألقاب على كل العالم). في تلك الأيام كان المزيد من الناس يفهمون النكتة المقصودة من التلاعب باللغة ومن إطلاق ذلك اللقب عليه. فقد كان جون الطويل ذو الوجه ـ المشعر إلى حد مخيف، لكن حرفياً ومجازياً كان بلا أسنان، كما كان يوم ولدته أمه وكان يمضغ الفلفل والعلكة «قرصاننا الخاص». سمته أورورا، كذلك، وأنت تخمن هذا كما كان هناك «توتاه» أخضر عادي مقصوص الجناح يتلفظ بكلمات بذيئة على كتفه وأمي الراغبة في الكمال بكل شيء، رتبت أمور ذلك الببغاء، بحيث لا يفعل أقل من ذلك».

«إذن ما الهدف من وجود قرصان بدون ببغاء؟» كانت تتساءل، مقوّسة حاجبيها ولافة ذراعها اليمنى وكأنها تمسك بقبضة باب، مضيفة بكل خفة وبصورة فضائحية (إذ لم يكن الهدف من فعل ذلك اختراع نكات بذيئة حول المهاتما) قولها: «عسى أيضاً أن نجد الرجل الضئيل بدون غطاء حِقويه». لقد حاولت جاهدة أن تعلم الببغاء كيف يكلم ـ القرصان، لكنه كان طائر بومباي العتيقة العنيدة. «ليقطع ثماني قطع!!» صرخت أمي لكن تلميذها أكد أنه صموت عنيد. بعد سنوات من اضطهاد كهذا استسلم توتاه ولقط الكلام بكل ما فيه من مزاج سيء، متلفظاً بكلمات مفهومة يمكن ترجمتها تقريباً هكذا «فيلة بيضاء مهروسة،» فأصبح ذلك قسم العائلة المختار.

أنـا لم أكـن موجـوداً في المناسـبة الـتي رقـصت فيهـا أورورا الـزغبي رقصتها الأخيرة، لكن الكثيرين ممن شهدوا ذلـك شـهدوا فيمـا بعـد أن لعنات الببغاء الرائعة ظلت في إثرها، متناقصة الشدة، فيما كانـت تهـوي إلى هلاكها: «او ه ه ه.... فيلـة بيـضاء مهروسـة،» صـاحت أمـي قبـل أن ترتطم بالصخور. بجوار جسدها، محمولاً على المد، كـان هنـاك تمثـال مهشم لغانيشا يرقص. لكن ليس ذلك ما كانت تعنيه على الإطلاق.

كلام توتاه كان ذا تأثير عميق على لمباجان شنديوالا أيضاً، لأنه هـو ـ مثل الكثيرين منا ـ كان رجلاً في دماغـه فيلـة، إذ بعـد أن نطـق الببغـاء، أدرك لمبا أن هناك على كتفه روحاً لطيفة، ففـتح قلبـه بعـد ذلـك للطـائر الذي كان يتنبأ بلا انقطاع، لكنـه الـصامت، الـسريع الغـضب والمخيـف أكثر الأحيان.

بأية جزر كنوز كان قرصاننا والببغـاء يحلمـان؟ بـشكل رئيـسي وأكثـر الأحيان كان يتكلم عن «إليفانتا» الحقيقية أمـا بالنـسبة إلى أطفـال الـزغبي الذين كانوا قد تعلموا إلى الحـد الـذي تجـاوزوا فيـه رؤيـة الـرؤى، فـإن جزيرة إيفانتا لم تكن أكثر من تلة في مرفأ، قبل الاستقلال ـ أي قبل إينـا، ميني، وميناه ـ كان باستطاعة الناس أن يخرجـوا إلى هنـاك إن صـح لهـم قارب وكانت لديهم رغبة في تحدي الاحتمال بوجود أفاعٍ وما إلى ذلـك. لكن في الوقت الذي جئت فيه، كانت الجزيرة قد تم تدجينـها منـذ زمـن طويل وكان هناك رحلات منتظمة بالقارب ذي المحرك مـن بوابـة الهنـد. أخواتي الثلاث الكبريات كن قد سئمن المكـان. أمـا بالنـسبة لـذاتي أنـا ـ الطفل فقد كنت أقرفص بجانب لمباجـان عنـد العـصر الحـار، ولم تكـن إليفانتا أي شيء سوى جزيرة خيالية، لكن بالنسبة للمباجان، وأنا أسمعـه يتكلم عنها كانت أرض اللبن والعسل ذاتها.

«ذات مرة، كان في ذلك المكان ملوك فيلة، بابا» كان يسر لي. «تـرى لماذا تظن أن إلهاً، مثل غانيشا، ذو شعبية كبيرة في مدينة بومبـاي؟ ذلـك

لأنه في الأيام التي سبقت وجود الناس هنا، كان هناك فيلة تجلس على العروش وتتجادل في الفلسفة، كما كان هناك قرود تخدم الفيلة. ويقال إنه عندما وصل الناس لأول مرة إلى جزيرة إليفانتا في الأيام التي أعقبت سقوط الفيلة، وجدوا تماثيل لحيوانات ماموث أعلى من مئذنة جامع قطب في دلهي. ولقد خافوا إلى درجة حطموا فيها كل ما وجدوه هناك. أجل، مسح الناس ذكرى الفيلة العظيمة لكن لسنا كلنا قد نسينا ذلك. فهنا في إليفانتا، في التلال، يوجد المكان الذي كانوا يدفنون فيه موتاهم. لا؟ الرأس يهتز؟ انظر. هو لا يصدقنا، توتاه! حسن، بابا. الجبين متجهم؟ إذن انظر إلى هذا!

وهنا، بسبب الكثير من الصخب الببغاوي الذي كان يحدثه ـ أي شيء آخر، أي شيء آخر يا قلبي ذا الحنين العظيم! ـ كتلة مكرمشة من الورق الرخيص الذي لم يستطع حتى الصبي المغربي أن يرى أنها قديمة البتة. وكانت خريطة، بالطبع.

«فيل كبير، ربما هو الفيل الأعظم، ما يزال مدفوناً هناك، بابا. لقد رأيت ما رأيت! من تراه غيره، حسب ظنك، بتر ساقي. ومن ثم، لكبره واحتقاره تركني أدب وأنا أنزف دماً على التل المدغل إلى أن وصلت إلى زورقي الصغير. ما تراني رأيت؟ جواهر، يحرس، بابا، كنز أثمن من خزنة نظام ملك حيدر أباد نفسه».

لقد سوّى لمباجان خيالنا القرصاني بخياله ـ ذلك أن أمي بالطبع، المفسرة العظيمة، كانت متأكدة من أنها تفهم معنى لقبه ـ وفي فعله ذلك، كان قد صنع حلمه الخاص، إليفانتا الفيلة، حيث ظهر، على مر السنين، أنه بات يؤمن بذلك على نحو أشد وأشد. لقد ربط نفسه، دون أن يعرف ذلك، بالحكايات الخرافية عن آل داغاما والزغبي، حيث كانت علب الجواهر المخفية السمة البارزة.

وهكذا وجد بيت شاطئ ملابار نظيره ـ الأكثر ـ خرافية على تلة ملابار، كما كان من المحتم ربما، إذ بغض النظر عما جرى من تحركات للبهار والتوابل في كوشين، ذلك الكون العظيم الذي كان كوننا، وما يزال نقطة اتصال لكل الحكايات المماثلة، القصص الأكثر حرارة، والمسرودات اللعينة ـ المغرية، تلك القصص الدارجة في شوارعنا. ففي بومباي تعيش مسحوقاً تحت وطأة ذلك الحشد المعتوه، تهزمك أبواق الكثرة الصارخة ـ وشأنها شأن الأشخاص الذين يمسكون أفراد العائلة في جدارية أورورا في جزيرة كبرال ـ قصتك ذاتها يجب أن تشق طريقها عبر الزحام.

تلك كانت عملاً رائعاً رسمته أورورا الزغبي، ليست لوحة خاصة بحياة هادئة بل لوحة امتصت روائح المدينة النتنة الحارة، كومتها فوق حسائها الحارق، ثم التهمت أطباقها كلها. إذ توصلت أورورا لأن تفكر بنفسها، على أنها قرصانة، ملكة مدينة غير شرعية. «في هذا المقر، نحن نفر من روجر الجميل». كانت تقص المرة تلو المرة، لأطفالها المنزعجين والسئمين، ثم أمرت عملياً خياطها بأن يصنع راية سلمتها إلى البواب. «تعال بسرعة، سيد لمباجان! أسرع بها إلى سارية العلم ودعنا نرى من يحيي من؟».

بالنسبة إلي، أنا لم أحيي الجمجمة والعظمين المتصالبين على الراية التي أمرت الخياط بصنعها، والتي لم تكن، تلك الأيام على الإطلاق من النمط القرصاني. عدا عن ذلك، كنت قد عرفت كيف فقد لمباجان ساقه بالفعل.

* * *

النقطة الأولى التي يجب ملاحظتها هي أن أطراف الناس كانت تبتر بسهولة أكثر تلك الأيام. فرايات السيادة البريطانية كانت معلقة فوق البلاد مثل شرائط من الطيارات الورقية، وفي محاولاتنا لتخليص أنفسنا من تلك الرايات الفتاكة، نحن الذباب ـ إن كان بالإمكان أن أستخدم الضمير «نحن» بالإشارة إلى زمن لم أكن قد ولدت فيه ـ كنا في الغالب نترك

سيقاناً أو أجنحة خلفنا، مفضلين الحرية على أن نبقى بكامل أعضائنا. بالطبع، الآن، ولكون تلك الورقة الدبقة عبارة عن تاريخ قديم، نجد طرقاً لفقدان أطرافنا في الصراع ضد معايير أخرى فتاكة أيضاً وقديمة أيضاً ودبقة أيضاً. لكن من تصميمنا نحن ـ يكفي، يكفي، أبعد علبة ـ الصابون هذه. افتح السدادة مطلقة الصوت العالي هذه، وكوني هادئة يا إصبعي المهتزة! ـــ ولنتابع: القطعة الأساسية الثانية والسفلى لساق لمباجان كانت تهم ستائر نافذة أمي، والحقيقة، أنا أعني ما أقول، إذ كان هناك ستائر ذهبية وخضراء تظل مسدلة باستمرار على نافذة المؤخرة والنوافذ الخلفية لسيارتها الأمريكية.

في شباط 1946، وبين عشية وضحاها، تحولت بومباي، تلك الصورة الملحمية الفائقة لمدينة، إلى لوحة لا حراك فيها نتيجة الإضراب الكبير لعمال الأسطول البحري والبري، فتوقفت السفن عن الإبحار، والفولاذ عن الانصهار ومغازل النسيج عن الدوران، ولم يبق في أماكن التصوير السينمائية، لا نأمة ولا حركة ـ عند ذاك راحت أورورا، ابنة الحادية والعشرين، تحوّم حول المدينة المشلولة بسيارتها «البويك» ذات الستائر الشهيرة، موجهة سائقها هانومان إلى قلب الحدث، أو بالأحرى، إلى كل ذلك اللاحدث العظيم، حيث خرج كل من فيها خارج أبواب المعامل وأرصفة الميناء، مغامرة وحدها بالذهاب إلى مدينة الصفيح، دهارا في، إلى جحور «دهوي تلاو»، وملاهي طريق «فوكلاند» المضاءة بالنيون. بمرورها في تلك الأمكنة، كان باستطاعتها أن تقبض على التاريخ في رسومها الفحمية. «تجاهلوني». أمرت المضربين ذوي الأفواه الفاغرة الذين كانت ترسمهم، وهم يحرسون أبواب المؤسسات كيلا يدخل إليها أحد، أو يمارسوا الدعارة أو يتناولوا المشروب. أنا هنا فقط من أجل هذا، أشبه بسحلاة على جدار، أو سموني البعوضة التي تعبث بالرسم».

«امرأة مجنونة،» قال أبراهام الـزغبي المنـدهش بعـد سـنوات كـثيرة. «أمك، يا ولدي. مجنونة مثل سعدانة في شـجرة لغـز ـ الـسعادين. الإلـه وحده يعلم ما الذي كانت تفكر به، إذ حتى في بومباي. لم يكن أمراً هينـاً أن تجلس سـيدات لا يـرافقهن أحـد في مكـان عـام كهـذا، يحـدقن إلى الرجال في وجوههم، أو يذهبن إلى جحـور القمـار والمنـاطق المـشبوهة ويخرجن من حقائبهن ورقاً للرسم، لذا تذكّر، البعوضة العابثـة بالرسـم، كانت قنبلة».

أجل، لم يكن الأمر بالـسهل. فعمـال الخـيش ذوو الأسـنان المذهبـة اتهموها بأنها تحاول أن تختلس أرواحهم، وذلك حرفياً «بـسحبها خـارج أجسادهم»، كما أن عمال الفولاذ المضربين شكوا بشيء آخـر، شخـصية سرية ربما هي جاسوسة للشرطة. الغرابة الخالصة لنشاطها الفـني جعلتـها شخـصاً مـشتبهاً بـه، كمـا هـو شـأنها في كـل مكـان، ماضـياً، حاضـراً ومستقبلاً. كل هذا وأكثر تغلبـت عليـه: التحرشـات، التهديـد الجنـسي، التهديدات الجسدية كانت تنظر إليها كلها تلـك النظـرة المتعاليـة الـتي لا تستسلم. فقد كان لأمي دائماً قـوة سـحرية تـستطيع بواسـطتها أن تجعـل نفسها غير مرئية، من خلال متابعة عملها، إنها، بشعرها الطويل الأبـيض المرفوع على شكل كعكة، ولباسها الرخيص المطبّع ـ بالأزهار من سـوق كروفورد، كانت تعود بكل هدوء وعلى نحو لا يقهر، يوماً بعـد يـوم إلى مشاهدها المختارة، وبخطـا بطيئـة تـشغِّل سـحرها، فيكـف النـاس عـن ملاحظة وجودها، وينسون أنها سيدة عظيمة تنزل مـن سـيارة كـبيرة مثـل منزل، علـى نوافـذها سـتائر، وتتـيح لحيـاتهم الحقيقيـة أن تظهـر علـى وجوههم من جديد. ذلك هو السبب الذي يفسر لماذا كانت أقلام الفحـم بين أصابعها الطائرة قادرة على الإمساك بالكثير من تلك الحياة: شجارات صفع ـ الوجوه لأطفال عراة عند واجهـة مـبنى، اليـأس الرمـادي لعمـال عاطلين عن العمل يـدخنون الـسجائر الرخيـصة عنـد عتبـات صـيدليات

مغلقة، المعامل الصامتة كالقبور، الإحساس بأن الدم في أعين الناس كان على وشك أن ينبجس منها ويفيض في الشوارع، خشونة النساء ذوات الساريهات المسحوبة فوق رؤوسهن، والمقرفصات بجانب مواقد «بريموس» الصغيرة في خيم سكان الأرصفة وهن يحاولن أن يعددن وجبات طعام من الهواء الأجوف، الذعر في أعين الشرطة حاملي ـ هم الأمن الذين يخشون أن ينظر إليهم الناس في يوم قريب، عندما تأتي الحرية، على أنهم كانوا أدوات للاضطهاد، التوتر العالي للبحارة المضربين عند البوابات المؤدية إلى ساحات البحرية، كبرياء الصغار ـ الشاعرين بالذنب الظاهر على وجوههم، وهم يمضغون شطائرهم في «بندر أبولو» ويحدقون إلى السفن الجامدة في أماكنها، رافعة الرايات الحمراء في مباركة للثورة، وقد أنزلت مراسيها في الميناء، الغطرسة المحطمة للضباط الإنكليز الذين أصاب الجزر قوتهم كما يصيب الأمواج، ليتركهم مكشوفين ضعفاء بلا حول أو طول، وقد ولى إلى الأبد تباهيهم ومظهر من لا يقهر على وجوههم، الخرق الباقية من ثيابهم الإمبراطورية، وتحت كل هذا كان هناك إحساسها بعجز العالم وعدم كفاءته، بفشله في أن يلبي توقعاتها إلى حد أن خيبة أملها من الواقع، غضبها من تركيبته الخطأ عكست كالمرآة موضوعاتها وجعلت رسومها ليست تقريرية وحسب، بل شخصية، مع عاطفة تدق العنق لخط لديه القدرة على القيام بهجوم جسدي.

بسرعة استأجر كيكو مودي صالة في منطقة القلعة وعلق تلك الرسوم التي غدت تعرف باسمها «تشيبكالي» أو لوحات السحلاة، وبناء على قول مودي ـ كانت اللوحات ثورية مؤيدة بكل وضوح للإضراب. لذلك كانت تحدياً للبريطانيين وسلطاتهم ـ ولم تكن أورورا قد وقعتها لكن وضعت بكل بساطة صورة سحلاة في ركن كل لوحة. كيكو نفسه كان يتوقع تماماً أن يلقى القبض عليه، وكان قد قرر أنه سيكون سعيداً أن يحصل له ذلك

بسبب أورورا (إذ كان واقعاً تحت سحرها مذ التقى بها أول مرة). وحين لم يعتقل ـ عندما، بالحقيقة، اختار البريطانيون أن يتجاهلوا المعرض كلياً ـ اعتبر ذلك دلالة أخرى على وهن ليس قوتهم فقط بل إرادتهم أيضاً.

وكان، بقامته الطويلة، وجهه الشاحب نظره القصير إلى حد مخيف ـ إذ كان لنظارتيه المدورتين عدسات سميكة تصلح لأن تكون ضد الرصاص ـ يمشي حول معرض اللوحات بانتظار الاعتقال الذي لم يحدث، آخذاً رشفات أيضاً من حافظة شراب ذات مظهر بريء ملأها بروم رخيص كان له تقريباً لون الشاي الثقيل نفسه، فيما كان الزوار المتدفقون على الرواق يسهبون في أحاديثهم غير المنسقة عن زوال الإمبراطورية القريب. لكن ذات أصيل كان لأبراهام الزغبي ـ وهو يزور المعرض بمفرده من خلف ظهر أورورا ـ نظرة مختلفة. إذ قال لكوكو: «أنتم، رجال الفن متأكدون دائماً من تأثيركم. ترى منذ متى تأتي الجماهير إلى معارض كهذه؟ أما بالنسبة للبريطانيين، فاسمح لي الآن تماماً أن أقول إن لوحات كهذه ليست مشكلة بالنسبة إليهم».

لحين من الزمن، كانت أورورا فخورة باسمها المستعار، لأنها كانت بالحقيقة قد صنعت من نفسها ما أرادت أن تكون، سحلاة لا تطرف لها عين، لاطئة على جدار التاريخ، تراقب وتراقب، لكن عندما امتد عملها الرائد إلى أتباع، عندما بدأ فنانون شبان آخرون يتصرفون كمسجلين عموميين بل بدؤوا يدعون أنفسهم بـ «الحركة السحلاوية»، حينذاك، وبشكل مميز، أنكرت أمي تلاميذها جهاراً. وفي مقالة صحفية بعنوان «أنا السحلاة،» اعترفت برسمها للوحات، متحدية البريطانيين أن يأتوا بحركة ضدها (ولم يفعلوا) كما طردت مقلديها باعتبارهم «رسامي كرتون ومصورين ضوئيين».

«السلوك الرفيع شيء حسن تماماً» علق أبي، متذكراً، وهو في شيخوخته: «لكنه يؤدي إلى حياة الوحدة».

* * *

حين سمعت أورورا الزغبي أن حرب المؤتمر أقنع لجنة إضراب الأسطول بأن توقف الإضراب، وأنها دعت لاجتماع البحارة كي تأمرهم بالرجوع إلى مراكز عملهم، فاضت خيبة أملها من العالم وغمرت ضفافها. ودون تفكير، دون انتظار لسائقها هنومان، قفزت إلى سيارتها البويك ذات الستائر وانطلقت إلى القاعدة البحرية، لكن عند وصولها إلى كنيسة الأفغان في قطاع كولابا، انفجرت فقاعة قدرتها على التحمل وبدأت تراودها أفكار جديدة حول الحكمة من رحلتها. فالطريق إلى القاعدة كان يعج بالبحارة المهزومين، بالشبان المحبطين في بذلاتهم الموحدة النظيفة وأمزجتهم المعكرة، شبان يبرمون دون هدف مثل أوراق متساقطة. الغربان كانت تسخر على أشجار الدلب، فالتقط أحد البحارة حجراً ثم رماها باتجاه الصوت. رفرفت أشكال سوداء باحتقار، حوّمت ثم حطت واستأنفت سخريتها، ضباط الشرطة ببناطيلهم القصيرة كانوا يهمهمون قلقين على شكل حلقات صغيرة، مثل أطفال يخشون العقاب، بل حتى أمي بدأت ترى أن هذا ليس المكان المناسب لسيدة معها أوراق رسم وكرسي ثلاثي القوائم قابل للطي، ناهيك عن البويك المتلامعة دون حتى سائق يمكن أن يشكل حماية لها. الجو كان حاراً، رطباً، متعكراً وكان وقت العصر. فيما طائرة ورقية لولد انقطع خيطها في معركة خاسرة أخرى سقطت بشكل يثير الشفقة، أرضاً.

لم تشعر أورورا بحاجة لأن تنزل بلور النافذة كي تسأل ماذا يدور في أذهان البحارة، لأنها كانت تفكر بالأمور ذاتها ـ وهو أن قيادة حزب المؤتمر تتصرف مثل حرباوات متقلبة، علاجيم. إذ حتى حينذاك، عندما كان البريطانيون غير واثقين من إرسال الجيش لمواجهة البحارة، كانوا متأكدين من أن رجال المؤتمر سيوفرون عليهم مشكلة اضطرارهم لأن يفعلوا ذلك. كذلك فكرت أن الجماهير عندما تهب وتنتفض، يطوي الرؤساء ذيولهم. رؤساء سمر، رؤساء بيض، الأمر هو ذاته. «فهذا

الإضراب أخاف الكثيرين منا مثلما أخاف الكثيرين منهم». أورورا أيضاً، كانت في مزاج صامت، لكنها لم تكن من البحارة، كما كانت تعلم أنه بالنسبة لأولئك الفتيان الغاضبين ستبدو أشبه بمومس غنية في سيارة فاخرة ـ بل ربما عدوة.

لقد أرغمها الحشد المتكاثف المتجهم الذي لا هدف له على أن تتمهل بسيارتها إلى درجة أشبه بسرعة المشي. وعندما قام أحدهم، بحركة سريعة، كأنما هي بالصدفة لكنها تخفي قوة مخيفة، بفتل إطار مرآة السيارة في الجانب الآخر إلى أن تدلت مرتخية على السيارة مثل طرف إنسان مكسور، شعرت بأن قلبها بدأ يدق، فقررت أنه حان الوقت لكي تغادر. ولعدم قدرتها على الدوران في المكان، وضعت السيارة في حال الرجوع إلى الوراء، ثم أدركت، وهي تضغط على دعسة البنزين، أنها، بدون مرآة جانبية، غير قادرة على التحكم برجوعها بسبب الحضور الكثيف للبذلات الخضراء والذهبية، وأن بعض البحارة، بنوع من العرض النهائي للتحدي، قرروا فجأة أن يجلسوا في الطريق، وأنها، بفضل مهارتها، شعرت بخبطة إنذار، إذ كانت ترجع بأسرع مما كانت تنوي، كانت تمضي بسرعة كبيرة، كبيرة جداً. وحينما كبحت السيارة، أحست بخبطة صغيرة.

القصص التي تتحدث عن سيطرة الذعر على أورورا الزغبي نادرة، لكن هذه القصة شيء آخر: فلدى إحساسها بالخبطة، أدركت أمي المرعوبة، في الحال أن أحد الجالسين احتجاجاً في الطريق خلف سيارتها، غيّر ناقل ـ الحركة في البويك إلى السرعة الأولى فوثبت السيارة إلى الأمام بضع أقدام، وبذلك مرت على رجل البحار سيء الحظ الممدودة للمرة الثانية. في هذه اللحظة ركض عدة عناصر من الشرطة، وهم يلوحون بهراواتهم ويصفرون بصافراتهم، باتجاه البويك وأورورا، متصرفين حينذاك بنوع من الحلم، مدفوعين بفكرة لا توجه لها، من الشعور بالذنب والعزاء، محركين السيارة

بالاتجاه المعاكس مرة أخرى. فحدثت خبطة ثالثة، رغم أنها هذه المرة كانت ملحوظة أقل من سابقتيها. فارتفعت صرخات الغضب خلفها، ونظراً لانبهاتها بالوضع كله، اندفعت إلى الأمام مرة ثانية كرد فعل غريزي على الصرخات ـ وفي الحال شعرت بالخبطة الرابعة، صارعة أحد رجال الشرطة أرضاً. عند هذه النقطة، وبشيء من الرحمة، توقفت البويك.

ما حيّرني أشد الحيرة عندما سمعت القصة، وأنا صبي، ثم ما يزال يحيرني حتى اليوم، هو كيف تدبرت أمرها، هي التي قطعت تقريباً رجلاً إلى نصفين، وخرجت من هناك قطعة واحدة؟ أورورا نفسها اختلفت تفسيراتها كل مرة تحكي بها القصة، عازية نجاتها باستمرار لفقدان أولئك البحارة التعساء التوجه، أو لبقية باقية من الانضباط البحري الذي منعهم من أن يتحولوا إلى غوغاء تقتل تحرق، أو لفروسية فطرية فيهم وإحساس بمراتبية الرجل الهندي العليا التي منعتهم من إيذاء امرأة، لاسيما أنها امرأة من الطبقة العليا. أو، مرة ثانية، ربما كان ذلك بسبب اهتمامها الشديد والواضح ـ وليس هنا بالسلوك الرفيع! ـ بالرجل المصاب، الذي باتت رجله تشبه مرآتها الجانبية، الفالتة المتدلية على جانب السيارة، أو نتيجة السرعة وعادتها في إعطاء الأوامر، حين جعلتهم يحملونه ويضعونه في المقعد الخلفي للسيارة، حيث احتمت هناك من الأعين الغاضبة لأصحاب البزات الذهبية والخضراء، فيما كانت تشير إلى الحشد المتجمع أن المصاب بحاجة إلى نقله إلى المستشفى، وسيارتها هي السيارة الأسرع المهيأة لفعل ذلك. الحقيقة أنه لم يكن لديها فكرة لماذا وفرها ذلك الجمهور المتزايد على نحو بشع، لكن في لحظاتها السوداء، ربما كانت تقترب أكثر إلى الحقيقة، معترفة بأن شهرتها هي التي أنقذتها، لأن صورتها كانت ما تزال في كل مكان بوجهها الفتي الجميل وشعرها الأبيض الطويل، ولم يكن من الصعب التعرف عليها. «قولي لأعضاء حزبك أنهم خذلونا،» صرخ أحدهم، فردت بصوت كالصراخ «سأفعل».

ثم تركوها تذهب (بعد بضعة أشهر، وهي تفتل على أسوار منزلها، وفت بوعدها وأوصلت الكلام إلى جواهرلال نهرو مباشرة. بعد ذلك بفترة وجيزة وصل آل مونباتن إلى الهند ووقع نهرو وإدوينا في الغرام. فهل كثير جداً أن نفترض أن كلام أورورا المباشر في مسألة إضراب البحارة الكبير هو الذي حوّل الباندييت عنها باتجاه المرأة الأخرى؟).

نسخة أبراهام ـ الذي كان قد وعد برعايتها على الدوام ـ نسخة مختلفة. إذ أسر لي بعد أن ماتت بمدة طويلة قائلاً: «حينذاك، وخلفها، كنت أحتفظ سراً بفريق عالي الكفاءة يرافقها دون أن تعلم، وكانت تقودنا في رقصة سعيدة. أنا لا أقول كان من الصعب جداً الحفاظ على سلامة أمك الحمقاء حين تذهب في مغامراتها شبه الجنونية، لكن كان علي أن أقف على إبهامي قدمي. فحيثما تحركت تلك البويك، كان غلماني يتحركون أيضاً. وكيف كان باستطاعتي أن أعلمها بذلك؟ لو علمت لكانت قد علكتني علكاً».

بعد هذه السنوات كلها، من الصعب علي أن أعلم ماذا أعتقد. كيف كان باستطاعة أبراهام أن يعلم أن أورورا كانت تشط بعيداً كما كانت تفعل؟ ـ لكن ربما نسختها هي موضع شك ـ فربما رحيلها لم يكن مفاجئاً، بعد كل شيء. مشكلة كتّاب السيرة القديمة: حتى عندما يروون لنا قصص حياتهم يحسنون باستمرار من الوقائع، وهم يعيدون كتابة حكاياتهم، أو أنهم ببساطة يزينونها ويزخرفونها فقط. لقد كانت أورورا بحاجة لأن تبدو مستقلة، فانبثقت نسختها من تلك الرغبة، تماماً مثلما كانت نسخة أبراهام مستمدة من حاجته لأن يجعل الناس يفكرون ـ ويجعلني أنا أفكر ـ أن سلامتها كانت تعتمد على رعايته. فحقيقة قصص كهذه تكمن في ما تكشفه من قلوب أبطالها، أكثر مما تكشفه من الحقائق. لكن، في حالة البحار الذي بترت رجله، الحقيقة الأبسط التي يمكن إثباتها هي: أن المسكين فقد ساقه.

* * *

لكنها جاءت به إلى المنزل وغيرت حياته. لقد أنقصت شيئاً منه، طارحة منه ساقاً. لذلك انتهى مستقبله في البحرية. حينذاك سعت حثيثاً لأن تكبّره من جديد، مزودة إياه ببزة جديدة، عمل جديد، ساق جديدة، هوية جديدة وببغاء كثير التشكي فوق كل شيء. لقد خربت حياته، لكنها أنقذته من حياة أسوأ، سكنى ـ المجارير وطاسة ـ التسول كنتيجة لذلك التخريب. بسبب ذلك، وقع في غرامها، وأي شيء آخر؟ لقد أصبح لمباجان شنديوالا، كما رغبت، حكايات الفيلة التي كان يحكيها، إنما كانت طريقته في التعبير عن حبه، حب العبد المخلص إخلاص الكلب ـ والمستحيل لملكته، هو الذي كان يثير اشمئزاز مربيتنا الحادة، الناحلة، وكذلك مدبرة المنزل الآنسة جايا هيي، التي أصبحت عروسه ومصدر الأذى في حياته. «بابا.. ري» كانت تصرخ به «لماذا لا تذهب في مسيرة للملح ولا تتوقف عندما تصل إلى البحر؟».

لمباجان عند بوابة أورورا ـ البوابة، كان فاسكو ميراندا يدعوها، الفجر ـ يحرس سيدته من العالم الفظ في الخارج، لكنه كان أيضاً، بشكل ما، يحمي الآخرين منها. إذ لا يدخل أحد حتى يعرف ما هو شغله، لكن لمبا أيضاً، جعل ذلك شغله أي أن يقدم للزوار نصيحته كي يستفيدوا منها. «اليوم تكلم بلطف فقط» كان يقول: «اليوم رأسها مليء بالوشوشات» أو يقول: «أفكار سوداء في رأسها، عليك أن تروي لها نكتة جيدة». وهكذا كان بإمكان ضيوف أمي، وقد حذِّروا مسبقاً، (إن كانوا حكماء بما يكفي لأن يطيعوا ملاحظات لمباجان،) أن يتجنبوا انفجارات غضبها الخرافي ـ والفني إلى درجة عالية ـ تلك التي تشبه انفجار نجم مستعر.

* * *

فقد كانت أمي أورورا الزغبي نجمة لامعة. انظر إليها بتمعن تعمي عينيك. حتى الآن في الذاكرة، هي تبهر النظر، لذا ينبغي عدم النظر إليها مباشرة بل اللف حولها والدوران. وفي تأثيراتها على الآخرين ـ كسفها لنور الآخرين، قوة جاذبيتها التي حرمتنا من كل أمل بالنجاة منها، تنسخ مدارات أولئك الأضعف من مقاومتها، الذين سقطوا باتجاه شمسها ونيرانها المهلكة. آه، يا للموتى، الذين لم ينتهوا، يا للموتى الراحلين الذين لا نهاية لهم: كم هي طويلة، كم هي غنية قصصهم. أما نحن الأحياء، فعلينا أن نجد أي فضاء يمكننا فيه أن نسير معهم، الموتى العمالقة الذين لا نستطيع تثبيتهم، رغم أننا نمسك بشعورهم، رغم أننا نربطهم بالحبال وهم نائمون.

ترى هل ينبغي أن نموت قبل أن تستطيع أرواحنا، هي المقموعة طويلاً، أن تجد مخرجاً لها ـ قبل أن يعرف أحد طبيعتنا السرية؟ إلى من يهمه الأمر، أنا أقول لا، وأكرر مرة ثانية لا. فعندما كنت فتى، كنت عادة أحلم ـ مثل كارمن داغاما، لكن لأسباب تتعلق بالعادة السرية والمازوكية أقل، مثل أوليفر دايث المصاب برهاب الضوء، والمنزعج من الإله ـ أحلم بتقشير جلدي كما يُقشر موز الجنة، بالانطلاق عارياً إلى العالم، مثل رسم توضيحي في الموسوعة البريطانية، بكل العقد العصبية، الرباطات، الألياف العصبية، الأوردة والشرايين، أتحرر من السجون التي لا فراغ منها في الحالة الأخرى سجون اللون، العرق، العشيرة. (في نسخة أخرى من الحلم، كنت قادراً على التخلص من أكثر من جلدي، وكان باستطاعتي أن أطفو وأعوم بلا لحم وعظم، وقد تحولت ببساطة إلى فكر أو شعور أفلت في هذا العالم. يسرح ويمرح في حقوله، مثل لمعة من خيال علمي لا تحتاج إلى جسم أو شكل).

وهكذا، في كتابتي هذه، علي أن أقشّر التاريخ، سجن الماضي. لقد حان الوقت للتوصل إلى نوع من الإنهاء للحقيقة المتعلقة بذاتي، للخروج أخيراً من تحت سلطة والديّ الخانقة، من تحت جلدي الداكن.

هذه الكلمات حلم يتحقق، حلم مؤلم لا أنكره، ذلك أنك في عالم اليقظة ليس من السهل أن تقشر إنساناً كما تقشر موزة، بغض النظر عن مقدار نضجه، وأورورا وأبراهام سيحتاجان إلى نفضة ما.

الأمومة ـ واعذروني أن أؤكد على هذه النقطة ـ فكرة كبيرة في الهند، بل ربما هي الأكبر لدينا: الأرض بوصفها أماً، الأم بوصفها أرضاً ثابتة كالأرض تحت قدميك. يا سيداتي وسادتي: أنا أتكلم عن البلاد الأم الكبرى. فسنة ولادتي، أنتجت «شركة محبوب للإنتاج» فيلمها ـ الأم الهند ـ قاهر ـ كل ـ الأفلام ـ الفيلم الذي ظلت ثلاث سنوات تعمل فيه، ثلاثمائة يوم تصوير سينمائي، فجاء قمة الأفلام السينمائية ـ عرضته شاشات البلاد كلها. إذ ما من أحد شاهده كان قادراً أن ينسى في حياته تلك الحكاية الدبقة للبطولة الفلاحية، تلك القصيدة الغنائية عالية ـ الطراز للقرية الهندية التي لا تهزم والتي صنعها أشد أبناء المدن تشاؤماً. أما بالنسبة لبطلته الرئيسية ـ يانرجس، ذات الرفش على كتفك وخصلة شعرك الأسود المنحدرة على جبينك! ــ فقد أصبحت، إلى أن حلت محلها إنديرا ماتا، الإلهة ـ الأم الحية بالنسبة لنا كلنا.

أورورا كانت تعرفها بالطبع. ومثل كل المشاهير الآخرين في ذلك الزمن. انجذبت الممثلة باتجاه لهب أمي المتوهج. لكنهما لم تستطيعا تصويره ببراعة، ربما لأن أورورا لم تستطع الامتناع عن طرح الموضوع ـ آه، كم هو قريب من قلبي ـموضوع علاقة الابن بالأم.

«المرة الأولى التي رأيت فيها ذلك الفيلم،» قالت أورورا للممثلة النجمة، على المصطبة العالية في إليفانتا: نظرت نظرة واحدة إلى ابنك السيئ، بيرجو، وفكرت، يا له من ولد جميل ـ حار جداً أيضاً، حار كالفلفل، هاتوا ماء. هو قد يكون لصاً، صخاباً يعوزه التهذيب، إلا أنه ولد محبوب من الطراز الأول. والآن انظري، لقد ذهبت وتزوجته. أية حياة جنسية تعيشون يا أهل السينما: تتزوجين ابنك، أقسم إنه لشيء يثير الإعجاب.

وقف ممثل الفيلم قيد المناقشة، سونيل دوت، متصلب القامة بجانب زوجته يشرب عصير الليمون، وقد احمر خجلاً. (في تلك الأيام. كانت بومباي ولاية «جافة»، وحتى لو كانت الوسكي ـ بالصودا وافرة في إليفانتا، فقد كان الممثل يسجل نقطة أخلاقية).

«أورورا، أنت تخلطين الحقائق وتتظاهرين»، قال بنوع من التفاخر، وكأنه كان إثماً.

«بيرجو وأمه ـ هذا في التمثيل فقط، على شاشة فضية ذات بعدين، لكن نحن لحم ودم، لنا ثلاثة أبعاد كاملة ـ وضيوف في بيتك الجميل». فابتسمت نرجس، وهي تشرب العصير، ابتسامة خفيفة للتوبيخ الخفي في العبارة الأخيرة.

«لكن حتى في السينما» تابعت أورورا دون ندامة «عرفت تماماً أن بيرجو السيئ يشتهي أمه الجميلة».

وقفت نرجس دون كلام، فاغرة الفم. فيما رأى فاسكو ميراندا، الذي لم يستطع أن يقاوم خلق ـ مشكلة، العاصفة تتشكل فأسرع لإثارتها، قائلاً: «تصعيد الأشواق المتبادلة بين الطفل والأم أمر عميق الجذور في النفس الوطنية. واستعمال الأسماء في الفيلم يجعل المعنى واضحاً. هذا الاسم «بيرجو» يستخدمه أيضاً الإله كريشنا، كما نعلم أن الأم الحليبية «رادا» هي الحب الحقيقي للرجل الأزرق ـ في الفيلم، حاولت، ياسونيل، أن تبدو مثل الإله، بل حتى استغفلت كل الفتيات، رامياً حجارتك لكسر قدورهن المائية، وهو، لنعترف بذلك، سلوك أشبه بسلوك كريشنا، في هذا التفسير». هنا، حاول فاسكو المهرج دون نجاح، أن يقتبس جملة مدرسية معينة تقول «الأم الهند هي الجانب المظلم من قصة رادا ـ كريشنا، مضافاً إليها الموضوع الفرعي المتعلق بالحب المحرم، لكن أي جحيم ذلك! عقدة أوديب، إضافة إلى إسفين آخر».

«كلام وسخ» قالت «الإلهة الأم الحية». «قذر وسخ. لقد سمعت الناس يقولون إن فنانين منحرفين ومفكرين وجوديين يأتون إلى هنا، لكنني لم أصدق ذلك الكلام. الآن ألاحظ أنني بين حثالة الأرض من الكفرة. كم تتمرغون أيها الناس بالصور السلبية! فيما نحن في فيلمنا نؤكد على الجانب الإيجابي. إننا نشجع الجماهير هناك».

«لغة سيئة، آ؟» غمغم فاسكو ببراءة. «جيدة بالنسبة لك! لكن في النهاية لا بد للمراقب من أن يحذفها».

«أوف!!» صاح سونيل دوت، وقد أثير بما يتجاوز التجمل «أخرس لعين! ليس ذلك شيئاً لعيناً، لكن التقنية الحديثة هي المرجع: فالمشروع الكهرمائي تدشنه زوجتي الطيبة في المشهد الافتتاحي».

«سونيل، تعال». قالت الحكاية، ماسحة كل شيء. «إن كانت هذه العصابة الكافرة عدوة الوطن هي عالم الفن، إذن يسعدني أن أكون في عالم التجارة».

في «الأم الهند،» تجد قصة هندوسية تقوم على الأساطير يخرجها اشتراكي مسلم، هو محبوب خان، حيث الفلاحة الهندية تقدَّم بصورة مثالية كعروس، أم، منجبة أبناء، وباعتبارها طويلة ـ المعاناة، اجتماعية، محبة ومضحية، تزيد من تأكيد الواقع الاجتماعي كما هو. لكن بالنسبة لبيرجو السيئ، المبعَد عن حب أمه، تصبح، كما ذكر أحد النقاد، «تلك الصورة لأم عدمية، غادرة، عدوانية، وهاجس بالنسبة للحياة الخيالية للذكور الهنود».

أنا أعلم أيضاً شيئاً ما عن هذه الصورة، فقد نُبذت كولد سيء بدوري. لم تكن أمي نرجس دوت ـ كانت النمط ـ الذي ـ يواجهك، كما لم تكن هادئة رائقة. أمسكها وهي تلقي رفشاً على كتفها! «يسرني أن أقول إنني لم أر في حياتي رفشاً». فأورورا ابنة مدينة. ربما هي ابنة المدينة التي

تجسد عقلية المدينة وحياتها بقدر ما تتجسد الأم الهند على شكل قرية، تراب صار لحماً بشرياً. بالرغم من هذا وجدت من المفيد أن نقارن ونقابل بين العائلات. فالزوج في فيلم «الأم الهند»، يقدَّم على أنه عاجز، ذراعاه سحقتهما الصخور وأطرافه المحطمة تلعب دوراً مركزياً في حكايتنا أيضاً (هنا عليك أن تحكم بنفسك ما إذا كان أبراهام شخصاً عاجزاً أم لا). أما بالنسبة لبيرجو والمغربي: فلم يكن الجلد الداكن والاحتيال كل ما هو مشترك بيننا.

لقد ظللت أحتفظ بسري مدة طويلة جداً. ولقد حان الوقت لأن أفلق حبة الفول.

* * *

ولدت أخواتي الثلاث بتسلسل سريع. فأورورا كانت تحبل وتضع كلاً منهن بلا مبالاة كاملة إلى حد أن وجودهن الذي عرفنه قبل زمن طويل من ولادتهن، لم تقدم له إلا القليل من التنازلات تلبية لحاجاتهن وقد أثبتت الأسماء التي أطلقتها عليهن هذه الشكوك. فالكبرى التي سميت بالأصل كرستينا رغم احتجاجات والدها اليهودي، شرِّح اسمها في النهاية إلى نصفين. «كف عن العبوس يا أبيي»، أمرته أورورا. «من الآن فصاعداً هي «إينا» بدون «كريست» ». وهكذا كبرت المسكينة إينا بنصف مقبض، وعندما جاءت البنت الثانية بعد سنة عوملت على نحو أسوأ لأن أورورا هذه المرة أصرت على الاسم «إينا موراتا». فاحتج أبراهام من جديد: «الناس سيرتبكون، » قال ببساطة «فهذا الاسم إينا ـ مور أشبه بقولك إينا ـ زيادة»... لكن أورورا هزت كتفيها. «لقد جاءت إينا بوزن عشرة أرطال (انكليزية)، وصغيرة بشكل ما». ذكَّرت أبراهام. «رأس مثل قنبلة مدفع، وركان مثل مؤخرة سفينة. فكيف يمكن لفأرة الجيب هذه أن تكون سوى إينا ـ ناقص. ثم، خلال أسبوع، قررت أن الصغيرة إينا موراتا، الفأرة التي تزن خمسة أرطال والتي تشبه قارضة من قوارض أفلام الكرتون ـ بأذنين

كبيرتين تماماً وعينين واسعتين ونقاط كثيرة على الوجه ـ أختي الوسطى هي «ميني» دائماً بعد ذلك. وعندما أعلنت أورورا بعد ثمانية عشر شهراً أن مولودها الجديد سيكون بنتاً ثالثة، وستسميها فيلومينا، نتف أبراهام شعره. «الآن يحدث هذا الخليط ميني ـ مينا» قال متذمراً «وإينا أخرى أيضاً». بدأت فيلومينا، وقد سمعت ذلك الجدال، تبكي، بكاء صاخباً بلا لحن، أقنع الكل عدا أمها بعدم الملاءمة الهزلية لتسميتها تيمناً بالعندليب. لكن حين صارت الطفلة بعمر ثلاثة أشهر، سمعت الآنسة جايا هيي، سلسلة من صرخات الإنذار وكأنها نعيب البوم تأتي من غرفة الأطفال، فاندفعت إلى هناك لتجد الطفلة مستلقية بكل رضى في سريرها وشدو الطيور ينسكب من شفتيها. فيما كانت إينا وميني تحدقان إلى أختهما عبر قضبان سريريهما وعلى وجهيهما كل تعابير الخوف والرعب. استدعيت أورورا في الحال، وبعرضية مكشوفة جعلت المعجزة للتو أمراً عادياً. أومأت برأسها بسرعة، مصدرة حكمها. (طالما تستطيع محاكاة الطيور على هذا النحو، إذن، هي ليست بلبلاً بل طائر «ميناه»). منذئذ صارت الأسماء إينا، ميني، وميناه، ما عدا أنهن في مدرسة بيت وولسينغهام على طريق البحر «النيبي»، أصبحت أسماؤهن إيني، ميني، ميني، مايني. ثلاث أخوات بالانتظار ـ ولقد انتظرن طويلاً، ذلك أن بين ميناه وبيني فاصلاً من ثماني سنوات ـ قبل أن يمسكن أخاً من إبهام قدمه.

فالطفل الذكر الذي كانت فلوري الزغبي العجوز، اللعانة تحيك المكائد دون جدوى لوضع يدها عليه، أثبت أنه مراوغ وأنه ينبغي أن يسجل على شرف ذكرى والدي الذي كان يؤكد دائماً أنه راضٍ ببناته. لقد أثبت، والبنات يكبرن، أنه أكثر الآباء عطاء، إلى أن جاء يوم ـ وذلك سنة 1956، خلال العطلة ـ المدرسية الطويلة، عقب الأمطار ـ عندما ذهبت العائلة في نزهة لرؤية المعابد ـ الكهفية البوذية التي تعود لألفي سنة في لونا فلا، فأمسك بقلبه وهو يشهق في منتصف الطريق، صاعداً

الدرج شديد الميلان المحفور في سفح الجبل، والذي يؤدي إلى الفوهة المظلمة للكهف الأكبر، وبينما كانت أنفاسه تخشخش في حنجرته وعيناه تتغبشان، مد يده دون جدوى إلى الفتيات الثلاث، كبراهن بعمر تسع سنوات، الوسطى ثماني، والصغرى تقريباً سبع سنوات، فأخفقن في ملاحظة نوبته، وهن يتقافزن مقهقهات، صاعدات الدرج، مبتعدات عنه بكل السرعة والحيوية اللامبالية للصغار.

غير أن أورورا أمسكت به قبل أن يسقط أرضاً. فيما عجوز شمطاء تبيع الفطر ظهرت إلى جانبها وساعدتها في إجلاس إبراهام أرضاً، ساندة ظهره على صخرة، فيما قبعته القش تميل إلى الأمام على جبينه والعرق البارد يتصبب من رقبته.

«لا تنعق، اللعنة،» صاحت أورورا واضعة يديها حول وجهه كالكأس. «تنفس! فليس مسموحاً لك أن تموت،» أطاع أبراهام أوامرها، كعادته دائماً، ونجا من الموت. تنفسه ارتاح. والعينان صفتا، فارتاح دقائق طويلة ورأسه محني على صدره. أما الفتيات فقد عدن راكضات جاحظات الأعين، نازلات الدرج، وأصابعهن تملأ أفواههن.

«مشكلة أن يكون المرء والداً كبيراً في السن كما ترين،» غمغم أبراهام، الذي كان يبلغ من العمر ثلاثاً وخمسين سنة، لأورورا قبل أن تصل البنات إلى مقربة منه ويسمعن «لكنك ستظل هنا إلى الأبد» قالت لأبراهام. «أنا لا آكل همك. أما بالنسبة للمخلوقات المتوحشة هذه، فمن غير الممكن أن يكبرن بالسرعة الكافية بالنسبة إلي! يا إلهي! كم هي طويلة هذه الطفلة، وكم تتجرجر وتمتد! لماذا لا يكون لدي أطفال ـ لماذا، ولا حتى طفل واحد، يمكن أن يكبر بسرعة فعلاً».

صوت من ورائها تلفظ ببضع كلمات على نحو غير مسموع تقريباً، «أو بييه، جادو، فو، فوم»، انفتلت أورورا حول نفسها صائحة «من قال ذلك؟».

لكن لم يكن هناك سوى الأطفال، فيما زوار آخرون، بعضهم محمولون على كراسٍ ـ محامل (وأبراهام يحتقر هذا الخيار اللطيف) كانوا يشقون طريقهم خارجين، داخلين إلى الكهوف. لكنهم كلهم كانوا بعيدين، فوق وتحت.

«أين تلك المرأة؟» سألت أورورا بناتها. بائعة الفطر التي ساعدتني، أين اختفت؟ «نحن لم نر أحداً» أجابت إينا. «بل كنتما أنتما الاثنين فقط».

موهابا لشوار، لونا فلا، خنددالا، ماثيران.. أوه، يا لمحطات التلال الحبيبة، أنا لن أراك ثانية، أسماؤك تردد صدى سكان بومباي مع ذكرى ضحك الأطفال، أغاني ـ الحب العذبة، ثم الأيام والليالي في الغابات الخضراء الباردة، تنقضي في المشي والراحة! ففي الفصل الجاف قبل أن تهطل الأمطار، كانت ذرى التلال المباركة تلك تبدو وكأنها تطفو بكل خفة على غيمة سحرية تتلامع، لكن بعد الرياح الموسمية، عندما يكون الجو نقياً، يمكنك أن تقف، مثلاً، على نقطة القلب من ماثيران، أو تلة الشجرة الوحيدة، فترى، أحياناً، في ذلك الصفاء ما فوق الطبيعي، إن لم يكن إلى الأبد، فعلى الأقل مسافة ما في المستقبل ربما ليوم أو يومين إلى الأمام.

لكن، يوم انهيار أبراهام ذاك، لم تكن الطريق البطيئة الغريبة لمحطات التلال ما أمر به الطبيب. فحجزت العائلة أماكن لها للموسم كله في «بيت اللورد المركزي» في ماثيران، مما كان يعني أنه بعد انهيار أبراهام كان عليهم أن يسوقوا أكثر من عشرين ميلاً على طريق وعرة بطيئة، ثم يتركوا البويك في نهاية الطريق، في عهدة هانومان ليركبوا القطار صاعدين التل من «نيرال» عبر «نفق ـ القبلة ـ الواحدة» وما بعد، ذاك القطار الذي يدب دبيباً في رحلة تستغرق ساعتين استرخت فيها أورورا مرخية معها قواعدها الحديدية المعتادة لتحشو الفتيات بالسكر والجوز، حلوى التوفي والتشيكي كي يبقين هادئات، بينما كانت الآنسة جايا تبلل المناديل بالماء، بحيث يمكن لأورورا أن تضعها على جبين أبراهام الموهن، وهي تتذمر «الطريق إلى بيت اللورد هذا أطول من الطريق إلى الجنة ذاتها».

لكن على الأقل كان «بيت اللورد حقيقياً، وكان له قاعدة مثبتة بالتجربة

الحقيقية» في حين أن الجنة لم تكن شيئاً ما تخزن فيه عائلتي الكثير... فالقطار ذو المقياس الضيق كان ينفخ وينفخ وهو يصعد التل، فيما كانت تخفق على نوافذ الدرجة الأولى ستائر زهرية، أخيراً توقف، فتدلت القردة من سقفه محاولة أن تسرق الحلوى من بنات الزغبي المجفلات.

لقد كانت نهاية الخط، وتلك الليلة، في غرفة من غرف «بيت اللورد» المثقلة حديثاً بروائح التوابل، فيما السحالي تراقب من الحيطان، داعبت أورورا الزغبي، على سرير ذي نوابض صاخبة وتحت مروحة سقفية بطيئة الحركة، جسد زوجها إلى أن عادت إليه الحياة كاملة، ثم بعد أربعة أشهر ونصف، في عيد رأس السنة، 1957، وضعت طفلها الرابع والأخير.

إينا، ميني، ميناه والأخير المغربي. إنه أنا: نهاية الخط. وشيء ما آخر. إنني شيء ما آخر أيضاً: ادعه رغبة تتحقق. ادعه لعنة امرأة ميتة. فأنا الطفل الذي كانت أورورا الزغبي تتحسر لعدم وجوده. على درج السلم المؤدي إلى كهوف لونافلا. ذلك هو سري، فبعد كل تلك السنين، كل ما أستطيع فعله هو أن أقول، بشكل مباشر، وإلى الجحيم بالكيفية التي يبدو عليها.

«سأمضي أسرع في الزمن مما ينبغي» هل تفهمني؟ إذ كان أحد ما في مكان ما قد كبس الزر المعلم بحرفي «س س» أو لنكن أكثر دقة «س ×2». اسمعني، أيها القارئ، بدقة، استوعب كل كلمة، لأن ما سأكتبه الآن هو الحقيقة البسيطة بحرفيتها، فأنا موريس الزغبي، المعروف باسم المغربي ـ بسبب ذنوبي وخطاياي الكثيرة الكثيرة، خطيئتي الأشد بؤساً ـ رجل يعيش بسرعة مضاعفة.

وبائعة الفطر؟ لقد قيل لأورورا، التي سألت عن الموضوع في الصباح التالي، من قبل موظف الاستعلامات في الفندق إن أحداً لم ير، حسب معرفته، فطوراً تنمو أو تباع في منطقة كهوف لونافلا البتة. أما المرأة العجوز ـ أحشاء دجاج، مملكة تأتي ـ فلم يرها أحد مرة ثانية.

(وأرى الصباح يظهر، فأكف بكلِ صمت وحنكة).

(10)

سأقول ذلك ثانية: من لحظة الحبل بي، شأني شأن زائر ذي بعد آخر، خط ـ زمني آخر، كنت أنمو بسرعة مضاعفة لسرعة الكائنات الأرضية، لكل من على الأرض. أربعة أشهر ونصف من الحمل حتى الولادة: كيف يا ترى كان نموي المضاعف لأمي سوى أصعب أنواع الحمل؟ وكما أرى، في عين الخيال، الانتفاخ المتسارع لرحمها لم يكن يشبه شيئاً سوى ما يحدث لفيلم سينمائي، حين يتم تسريعه بكبسة زر، فتغدو سرعته جنونية. إذ بدأ بتحويل جسدها الذي كان يحتج بعنف إلى حد أن التسريع الخارجي للحبل بات يُرى فعلاً بالعين المجردة. لقد زُرِعت بذرتي على أحد التلال، لكن ولدت على آخر، وبذلك اكتسبت أبعاداً ضخمة عندما كنت ما أزال في مرحلة الخلد الصغرى.... النقطة التي أريد تبيانها: رغم أنه لم يكن هناك جدل حول أن الحمل تم في بيت اللورد المركزي في ماثيران، كذلك لم يكن هناك جدل في أنه عندما أخذ الطفل غرغانتوا الزغبي نفسه الأول في مستشفى التوليد الخاص، بالنخبة للأخوات ماريا غراثيا بلينا على طريق «ألتاماونت» في بومباي، كان نموه البدني متقدماً جداً سلفاً ـ وتلك البنية خدمت بشكل ما في إعاقة مروره عبر قناة الولادة ـ بحيث أنه ما من أحد سليم العقل فكر في أن يدعوه ناقص ـ التشكل.

قبل أوانه؟ بعد أوانه تليق به أكثر. أربعة أشهر ونصف في الرحم بدا زمناً طويلاً جداً بالنسبة إلي. فمن البداية ـ وربما من قبل البداية ـ كنت أعلم أنه ليس لدي وقت أضيعه. فالانتقال من المياه المتسربة إلى الهواء الضروري، محشوراً بشدة في الممرات السفلى لأورورا، وبقراري شبه العسكري لأن آخذ التحية مباشرة بالوقوف بالاستعداد، قررت أن أدع الناس يعرفون بالطبيعة الملحة لمشكلتي فأطلقت تأوهاً قوياً كخوار ثور. حين سمعت أورورا صوتي الأول وأنا أظهر من داخل جسدها (كما أحست بالحجم الهائل لما كانت تنتظر أن يولد) ارتعبت في الحال

وتأثرت، لكنها لم تفقد، بالطبع، قدرتها على الكلام، «بعد بناتنا إيني، ميني، مايني» شهقت بوجه القابلة الكنسية الخائفة، التي كانت تبدو وكأنها تسمع صوت شخص من جهنم. «أظن، يا أخت، أن هذا موو». ثم من موو إلى مور، من التأوه الأول إلى التنهيدة الأخيرة: على كلابات كهذه تتعلق حكاياتي.

كم منا من يشعرون هذه الأيام، بأن شيئاً ما مر بسرعة كبيرة ينتهي الآن: مرحلة من العمر، حقبة من التاريخ، فكرة حضارة، فتلة في انعطاف العالم غير المعني. «ألف عصر تحت بصرك»، يغنون في كاتدرائية القديس توماس لإلههم ـ غير ـ الموجود ـ دون ـ شك، «أشبه بأمسية عبرت». لذلك يمكن أن أشير، يا قارئي كلي ـ القوة، إلى أنني كنت أعبر بسرعة كبيرة، أيضاً. فوجود مضاعف السرعة يمسح بنصف عمر.. قصير كفترة المناوبة التي تنتهي الليل، قبل أن تشرق شمس الصباح.

لا حاجة لتفسيرات ما فوق طبيعية، لكن بعض المنشغلين بالـ د.ن. آ سوف يفعلون. بعض الاضطراب في البرنامج ـ المركزي في سن ما قبل النضج، يؤدي إلى إنتاج الكثير الكثير من الخلايا قصيرة ـ العمر. وفي بومباي، في كوخي القديم، بيت المدينة الغالي، كنا نفكر أننا في ذروة العصر الحديث، نتبجح بأننا أكثر المتبعين وأسرعهم للتكنولوجيا الطبيعية، لكن ذلك يصح فقط في التحليقات العالية لعقولنا. لكن تحت في الأسفل من أجسامنا، ما نزال هشين سريعي العطب تجاه أشد الاضطرابات خللاً، أشد أمراض الحفر حفراً، وأكثر الأوبئة وباء.

هناك قد يكون بنات مدللات يلعبن ويصئن كالفئران حول بيتنا العالي كالسماء لكنهن لا يلغين الفساد الناتج عن عدوى ـ الجرذان في مجاري الدم.

ثم إن كان الميلاد هو سقوط غبار ذري من انفجار سببه اتحاد عنصرين غير مستقرين، إذن نصف العمر هو كل ما يمكننا أن نتوقع. من مستشفى التوليد في بومباي إلى بيت بنينغيلي، استغرقت رحلة عمري

ستة وثلاثين تقويماً بالضبط. لكن ما الذي يبقى من العملاق الذي كنته أيام الشباب؟ مرايا بنينغيلي تعكس صورة سيد هالك ذي شعر أبيض خفيف متلوٍ كالأفاعي مثل شعر الجدة إبيفانيا التي ذهبت منذ زمن طويل. وجهه هزيلٌ، وليس في جسده المتطاول أكثر من ذكرى النعمة القديمة البطيئة للحركة. وجهه الجانبي البشري الآن مجرد شكل منقار، والشفتان الممتلئتان، كشفتي امرأة، رقتا مثل شعر الرأس المتضائل، والمعطف الجلدي البني القديم؛ وقد لبسه فوق قميص أنيق منقط وبنطال من قماش بنقط أيضاً ولا شكل له، يرفرف خلفه مثل جناح مكسور. عنقه كعنق الفروج، صدره كصدر الحمامة، هذا الناحل المغبر المغرق في الشيخوخة، ما يزال يتدبر أمر الانتصاب بقامته (إذ كان باستطاعتي أن أمشي وإبريق حليب متوازن بكل راحة على رأسي) لكن إن استطعت أن تراه دون أن تضطر لتخمين عمره، فإنك ستقول إنه ملائم للكراسي الهزازة والطعام الطري والبناطيل المطوية، ولسوف تخرج به إلى مرعى مثل حصان كبير في السن ـ أو إن لم تكن في الهند ـ يمكنك أن تأخذه إلى بيت المتقاعدين، رجل بعمر اثنين وسبعين سنة، ستقول، يده اليمنى المشوهة كأنها هراوة.

«لا أحد ينمو بمثل هذه السرعة ويكون نموه صحيحاً»، فكرت أورورا (وفيما بعد، عندما حلت المشاكل، قالت ذلك بصوت عالٍ، وفي وجهي مباشرة). لقد حاولت، مفعمة بالاشمئزاز من منظر تشوهي، أن تواسي نفسها عبثاً: «لحسن الحظ، أنها يد واحدة فقط،» فالقابلة، الأخت حنا، كانت تنوح على مأساة أمي، ذلك أن التشوه الجسدي بالنسبة لطريقتها في التفكير (التي لم تكن تختلف كثيراً عن طريقة أمي) هو أدنى بدرجة واحدة من المرض العقلي بمعايير العار العائلي. لهذا قامت بتقميط الطفل بالأبيض، مخفية بذلك اليد السليمة والمشوهة معاً. وعندما دخل والدي، قدت له الحزمة كبيرة الحجم إلى حد مدهش، مع نشجة مكتومة ـ ربما نصف ـ منافقة. طفل جميل كهذا من بيت جميل

كهذا، وتشممته. «افرح، سيد أبراهام، بكل تواضع أن الرب كلي ـ القوة أصاب ابنك بالتفافته القاسية ـ القاسية، التفافة الحب».

ذلك كان كثيراً بالنسبة لأورورا، بالطبع. يدي اليمنى، مهما تكن مشوهة، لم تكن مسألة يمكن التدخل فيها من قبل غير أفراد العائلة أو الآلهة. «أخرج تلك المرأة من هنا يا أبيي»، هدرت أمي من سريرها، «قبل أن أصاب أنا نفسي ببعض الالتفافات القاسية».

يدي اليمنى: أصابع ملتحمة معاً على شكل كتلة واحدة غير متمايزة أما الإبهام فثؤلول توقف عن النمو. (حتى هذا اليوم، عندما أصافح أحداً، أقدم يدي اليسرى غير الاستثنائية، مقلوبة، فالإبهام يشير باتجاه الأرض).

«مرحبا، أيها المصارع»، كان أبي يحييني بائساً، فيما هو يتفحص الطرف المخرب. «هيا، يا بطل، أقسم إنك ستصرع العالم كله أرضاً بقبضة كهذه القبضة». كان جهد الأب أن يصنع أفضل ما يستطيع من شيء سيء، وقد قال ذلك. نعم مفتول بائس، ثم تبين أنها ليست أقل من نبوءة، ليست أكثر من الحقيقة البسيطة.

إذ ما كانت لتلغيها نظرة أورورا الجانبية ـ هي التي لم يكن في نيتها أن تسمح لحملها الأشد صعوبة أن ينتهي إلى أي شيء أقل من النصر ـ فاستبعدت رعبها واشمئزازها، إلى قبو روحها حيث أقفلت الباب عليهما هناك، إلى يوم مشاجرتنا الأخيرة، عندما فتحت الباب، وقد صارت كالوحش المجنون، وسمحت للوحش الذي في الداخل أن يخرج أخيراً... لكن، بالنسبة للمرحلة الحاضرة، فقد اختارت أن تؤكد على الأعجوبة في حياتي، على حجمي غير العادي الأكبر من الناضج، عن سرعة الحبل المدهشة التي أعطتها «ولداً كهذا» والتي تثبت أيضاً أنني سأكون ولداً بمليون ولد. «تلك الحمقاء اللعينة الأخت حنا كانت على صواب في شيء واحد،» قالت، وهي تأخذني بين ذراعيها «إنه أجمل صغارنا، أما هذه، فما هي يا ترى؟ لا شيء، أليس كذلك؟ حتى تحفة التحف يمكن أن يكون فيها لطخة صغيرة».

بتلك الكلمات تحملت مسؤولية الفنان عما فعلت يده. كتلتي المختلطة، هذه الكتلة المشوهة كالفن الحديث نفسه، لم تعد أكثر من زلقة فرشاة عبقري. ثم في عمل آخر من أعمال الأريحية ـ أم تراه كان تعذيباً للجسد، عقوبة ذاتية على اشمئزازها الغريزي ـ قدمت لي أورورا هدية أكبر حتى: «باعتبار أنه ابني، سأغذيه بنفسي». ولم أجادل، بل التصقت بصدرها كل الالتصاق، «انظروا، كم هو جميل» بكل ما فيها من تصميم، بربرت أورورا. «أجل، ارضع ملء بطنك، يا طاووسي الصغير، يا موري».

* * *

ذات يوم في مطلع سنة 1947، وصل شاب مسلوب العافية، شخص ما يدعى فاسكو ميراندا من لاوتوليم في غوا، مفلس لا يملك قرشاً واحداً إلى بوابة بيت أورورا، مقدماً نفسه على أنه رسام، طالباً إدخاله «إلى حضرة الفنانة الوحيدة في بلاد الزبالة التي لا فن فيها هذه، والتي تقارب عظمتها عظمتي». نظر لمباجان نظرة واحدة إليه، خط خفيف من شاربين فوق ابتسامة الرجل الواثق من نفسه، غابات خلفية من تسريحة شعر على رأسه تقطر زيت جوز الهند، قميص مشجر رخيص وصندل، وبدأ يضحك. فضحك فاسكو رداً عليه ثم حدث عند البوابة ما يشبه حفلة ضحك مرحة. كان الرجلان فيها يمسحان عيونهما ويلطمان أفخاذهما ـ فقط الببغاء، توتاه، بقي دون أي شعور بالتسلية، مركّزاً على أن يظل متمسكاً جيداً بكتف البواب وهي ترتفع وتنخفض ـ إلى أن جمجم لمباجان بسرعة، أخيراً «هل تعرف بيت من هذا؟» ثم انطلق يقهقه قهقهة تهز الأكتاف، الأمر الذي سبب القلقلة لتوتاه. «أجل» نشج فاسكو من خلال دموع الضحك، مما زاد من فرح لمباجان واهتزازه إلى درجة جعلت الببغاء يطير بعيداً ثم يحط كئيباً على أعلى البوابة ذاتها. «لا». بكى لمباجان وبدأ يضرب فاسكو ضرباً شديداً بعكازه الخشبي الطويل.

«لا، يا سيد خبيطة خليطة، أنت لا تعلم بيت من هذا، أتفهمني؟ أنت لم تعرف قط ولا تعرف الآن، وغداً لن تعرف أيضاً».

وهكذا فر فاسكو من تل ملابار إلى الجحر الذي كان يعيش فيه تلك الأيام ـ كوخ بائس في مزاغون، على ما أظن ـ حيث جلس، وكله كدمات ورضوض، فكتب مباشرة رسالة إلى أورورا، لتنجز ما لم ينجزه ذهابه إلى بيتها شخصياً: إذ تسللت مارة بالبواب إلى يدي السيدة العظيمة، تلك الرسالة كانت التعبير المبكر عن مدرسة «الوقاحة الجديدة» ـ نايي بادماشي ـ التي سيصنع فاسكو بعدئذ اسمه من خلالها، رغم أنها كانت أكثر قليلاً من إفراغ مبّهر في قالب جديد للسريالية الأوروبية. حتى إنه عمل فيلماً قصيراً دعاه «كوتا كشميركا» (أي كلب كشميري ـ بدلاً من أندلسي). لكن حياة فاسكو المهنية لم تكن تهم كثيراً تلك الشواطئ الهامشية الثانوية، إذ سرعان ما اكتشف أن موهبته الخالصة كانت خاصة بذلك النوع من المفاهيم اللطيفة غير المسيئة التي يمكن لأصحاب المباني العامة أن يدفعوا لقاءها مبالغ سريالية حقاً، بعد ذلك، انهارت شهرته ـ التي لم تكن واسعة كثيراً ـ بالسرعة نفسها التي ازدادت فيها مدخراته المصرفية.

لقد أعلن في الرسالة أنه زميل أورورا الروحاني الذي لا يشك به، فهما الاثنان «نجمان جنوبيان» وكلاهما «ضد المسيحية،» كذلك كلاهما مناصر لفن تلة ملابار العالي، الهزلي ـ المأساوي، الملحمي ـ الأسطوري، ذي الجنسانية الفائقة، والذي كان فيه مبدأ موحِّد هو «خط القصة ـ اللون ـ التقنية، ولسوف يدعم عمل كل منهما الآخر». شأنهما شأن جورجس الفرنسي وبابلو الاسباني، لكن على نحو أفضل وذلك بسبب اختلاف جنسهما. «كما ألاحظ أنك ذات روح شعبية، تهتمين كثيراً بموضوعات الساعة، في حين أني، كما أخشى، أكون سخيفاً تماماً ـ حين يدخل مجال السياسة تحت مرأى العين إذ أصبح أشبه بطفل حاقد

وغير مروَّض، ثم برفسة جيدة حادة أبعد المجال المذكور خارج منطقة عملياتي. أنت بطلة وأنا سمكة هلامية بلا عمود فقاري، فكيف يمكن أن نفشل في اكتساح كل شيء أمامنا؟ ذلك سيكون اتحاد أحلام ـ لأنك أنت الصواب، وأنا، لسوء الحظ، الخطأ».

عندما سمع لمباجان البواب الواقف عند بوابة إليفانتا، قهقهات سيدته العالية، وصرخات فرحها الغريبة، تحملها له النسائم، فهم أن فاسكو استغفله. وأن الكميدا هزمت الأمن، وفي المرة التالية التي جاء بها ذلك المهرج الرخيص إلى التل، كان مضطراً لأن يقف له باستعداد ويحييه. «سأراقبه، لكن» غمغم البواب لببغائه الصامت دائماً. «ذات يوم، سينزلق هذا التافه الغبي وحين أمسك به، دعني أرى على أي جانب من وجهه سيكون ضحكه».

على سجادة أصفهانية في ركن من المصطبة العليا، كانت أورورا الزغبي تسترخي في ما يقارب وضعية ماجا ـ ذات الملابس، عندما أدخل فاسكو إليها عند غروب شمس اليوم التالي. كما كانت تشرب الشمبانيا الفرنسية وتدخن سيجارة مستوردة بمشرب كهرماني طويل، فيما بطنها المنفوخ بإينا بارز فوق المساند الحريرية. فوقع في غرامها قبل أن تتكلم، وقع في غرامها كما لم يقع في غرام أية امرأة من قبل، وفي وقوعه هذا حرّك قدراً كبيراً مما سيتبع ذلك. إذ أصبح كعاشق محتقر، رجلاً أشد دكنة.

«كنت أبحث عن رسام» قالت له أورورا.

«أنا هو،» بدأ فاسكو، مستغلاً الموقف، لكن أورورا قاطعته.

«لا، أقصد رسام بيوت،» قالت بشيء من خشونة. «غرفة الأطفال بحاجة لزخرفة سريعة. هل أنت مستعد؟ تكلم! الدفع سخي، في هذا البيت».

لقد تم تنفيس فاسكو ميراندا، وتهشيمه أيضاً. بعد بضع ثوان، ابتسم لها ابتسامته الباهرة ثم سأل: «مواضيعك المفضلة، سيدتي؟»

«الكرتون». قالت له، وقد بدت غامضة. «هل تذهب إلى السينما؟ هل تقرأ مجلات هزلية؟ إذن، تلك الفأرة، تلك البطة، وأشياء من هذا القبيل. أيضاً، ذلك البحار وحكايته الغريبة. وربما القطة التي لا تمسك بفأرة أبداً، كذلك القطة الأخرى التي لا تمسك بعصفور، أو العصفور الآخر الذي يجري سريعاً جداً كي يلقط الشوفان. ارسم لي جلاميد صخر تتسطح مؤقتاً فقط عندما تسقط على رأسك، قنابل تتكشف عن وجوه سوداء فقط وهي تمر في الجو الفارغ إلى أن تنزل على الأرض. ارسم لي مواسير بواريد مسطومة، أحواض حمام مليئة بنقود ذهبية كبيرة. لكن لا تفكر أبداً بالملائكة والقيثارات، انسَ كل تلك الحدائق النتنة، بالنسبة لأطفالي، هذه هي الجنة التي أريد».

غير أن فاسكو الآتي من غوا، لم يكن يعرف إلا القليل عن نقارات الخشب الشريرة أو السناجب اللعينة. ورغم أنه لم يتوصل إلى أية فكرة عما كانت أورورا تتكلم، إلا أنه تبسم وانحنى. «سيدتي، المال يتكلم، إنها ضربة ـ حظ أن يكون خطابك موجهاً إلى أعظم رسام بالمطلق، الرسام رقم 1 في رسم الجنان في بومباي».

«ضربة حظ؟» تساءلت أورورا متعجبة.

«أجل، حسن ـ حظ مثل حسن ـ استحواذ، حسن ـ تحالف، حسن ـ حَبَل...إلخ» شرح فاسكو، إنها عكس سوء ـ.

* * *

خلال أيام انتقل فاسكو، دون أن توجه إليه دعوة، لكن بطريقة أو بأخرى التصق هناك لمدة اثنتين وثلاثين سنة. في البداية، عاملته أورورا وكأنه نوع من حيوان أليف، إذ حرمت عليه تسريحة شعره تلك وأقنعته بأن يكف عن قص شاربيه وتشذيبهما، بحيث يطولان ويكبران، عند ذلك يمكنه أن يشمعهما إلى أن يبدوا مثل قوس كيوبيد المشعر. ثم جاءت

بخياطها ليفصل بذلات له: بذلات حريرية مخططة بقلم عريض، وربطات عنق قوسية مرفرفة ضخمة أقنعت كل من في بومباي أن اكتشاف أورورا الجديد يجب أن يكون ملكة شرهة، (والحقيقة أنه كان مزدوج ـ الجنس بشكل خالص ـ الجنس لديه بنسبة خمسين بخمسين، كما كان الكثير من رجال ونساء حلقة إليفانتا سيعلمون مع مرور السنين). لقد جذبها إليه بشهيته الهائلة للمعلومات، الطعام، العمل وفوق كل شيء للمسرة، وكذلك للتعري الذي كان، وهو يبتسم ابتسامته «البيناكية»، يتابع بعده ما يريد.

«ليبقَ، » أعلنت عندما تساءل أبراهام بكل لطف، إن كان الرجل قد أبدى أية علامات تدل على أنه سيغادر. «أحب أن يظل حولنا. بالنتيجة، كما قال، هو ضربة ـ حظي، أفكر به كنوع من الدلالة على الحظ الحسن». وحين أنهى زخرفة غرف الأطفال، أعطته غرفة خاصة به كمرسم، فيه كل ما يحتاجه من أقلام تلوين، فراشٍ، كراسٍ للتمدد عليها، دهانات. أما أبراهام الزغبي، شأنه شأن الببغاء الشكاك، فقد دفن رأسه في كتف الشك، لكن لندع المسألة جانباً الآن. لقد احتفظ بفاسكو ميراندا بمرسمه مدة طويلة بعد أن أصبح غنياً، وصار له متعهد صفقات أمريكي وأماكن ـ عمل مبعثرة في العالم الغربي. إذ كان يتكلم عنه باعتباره «جذوره»، وكان قرار أورورا في أن تجتثه من جذوره هو الذي ألقاه أخيراً من الحافة..

كلام ـ فاسكو السريع أصبح تسلية يدردش بها آل الزغبي. إذ كبرت إينا، ميني، ميناه وهن يقسمن معلماتهن في مدرسة بيت وولسينغهام إلى ضربات ـ حظ «وسوءات ـ حظ». وفي البيت، في إليفانتا، لم يعد شيء «يُطفأ» أو «يُشعل» بعد: الهواتف، مفاتيح النور، المذياع، كلها صارت «تفتح أو تُغلق». كما أن الفجوات التي لا مبرر لها في اللغة ملئت تماماً وبالطريقة التي حددها فاسكو.

أما بالنسبة لجناح الأطفال. فقد كان عند كلمته. ففي غرفة كبيرة مطلة على البحر، رسم ما كنت أنا وأخواتي نعتبره دائماً الأقرب إلى جنة عدن أرضية (رغم أنه، للأسف، لم يكن له أية علاقة بالأشجار والحدائق). كان يعمل بجد، وخلال أيام من تعيينه اكتسب معرفة بموضوعه فاقت إلى حد بعيد متطلبات أورورا. فعلى جدران جناح الأطفال، رسم سلسلة من نوافذ مفرحة ـ للعين، قصور مغولية، مغربية أندلسية، برتقالية مانوئيلية، وقوطية وردية، نوافذ كبيرة وصغيرة، ثم عبر هذه الأطر السحرية، التي كانت عبارة عن نوافذ لعالم الادعاء وتطل عليه، قدم لنا لمحات عن حشود خرافية، ميكي في سفينته البخارية في مرحلة ـ مبكرة، دونالد يقاتل عقارب الزمن، أونكاسكروج مع إشارات الدولار في عينيه. كما رسم غرباناً، سناجيب، أدوات توازن طائرة، ناساً بلهاء، نجمة بلوتو وأزواجاً أخرى غابت الآن عن ذاكرتي. وفي الجو، فوق هذا الرواق ـ اللوحة ذي البعدين ديكة تتكلم، فتيات ذوات أحذية وهن طائرات، كلاب بقبعات حمراء، وأيضاً أروقة كبيرة لمزيد من الأبطال المحليين، إذ رسم لنا أكثر مما كنا قد طلبنا منه في الصفقة ، مضيفاً جناً على سجاد ولصوصاً في أباريق عملاقة، ورجلاً بين مخالب طائر عملاق. كذلك رسم لنا محيطات من القصص ولغات لا معنى لها، خرافات ملاحم ومصابيح جديدة لزمن قديم. لكن الأهم من كل شيء، كانت الفكرة التي زرعها في رؤوسنا من خلال الصور على جدراننا: فكرة الهوية السرية.

«من كان ذلك الرجل المقنع؟» فمن جدران طفولتي تعرفت لأول مرة على الشخصية الاجتماعية البارزة والفنية بروس واين، وسائسه ديك غرايسون، اللذين كانت تختفي تحت مقرهما المترف أسرار كهف ـ الخفافيش، وعلى كلارك كينت ذي السلوك اللطيف الذي كان يتنقل ـ في ـ الفضاء، وعلى كال إل من كوكب كريبتون الذي كان رجلاً خارقاً للعادة، وعلى الملكة ديانا التي كانت المرأة الأعجوبة وملكة الأمازون.

كذلك من تلك الجدران تعلمت كيف يمكن لبطل خارق للعادة أن يحن بشدة لما هو عادي، وكيف يمكن لبطل خارق للعادة شجاع كالأسد، يرى عبر أي شيء ما عدا الرصاص، أن يريد أن تحبه لويس لين اللطيفة الرقيقة أكثر من الحياة نفسها. أنا لم أن أفكر بنفسي أنني بطل خارق للعادة، فقط، لا تفهمني خطأ، لكن بيدي الأشبه بهراوة وتقويمي الشخصي الذي يفقد الصفحات بسرعة مضاعفة، كنت استثنائياً تماماً، ولم يكن لدي رغبة في أن أكون كذلك. لذا انطلقت من التعلم من الشبح ولمعة الضوء، من السهم الأخضر والرجل الخفاش والحسون، إلى تصميم هوية سرية لشخصي بالذات (بينما كانت أخواتي أمامي، أخواتي المسكينات التالفات).

بعمر سبع سنوات ونصف دخلت سن المراهقة، زغب ـ وجه ناضج، تفاحة آدم، صوت أجش وأعضاء جنسية ذكرية ناضجة وشهوة. في العاشرة كنت قد أصبحت بطول ست أقدام وست بوصات، أي بجسم عملاق ابن واحد عشرين عاماً، كما صار لدي، من تلك المراحل المبكرة للوعي الذاتي نوع من الرعب من جريان الزمان السريع. لقد تلبست البطء، أنا الملعون بالسرعة. بالطريقة التي لبس بها لون روجر القناع. وقد صممت على إبطاء نموي بقوة الشخصية الخالصة. فأصبح جسمي أكثر نحولاً، كما تعلمت كيف أجعل كلماتي تنمط بتثاؤبات حسية طويلة. ولحين من الزمن قلدت بأسلوب حديثي الرفيق الهندي لبيلي بونتر، هوري جامسيت رام سينغ: ولم أكن أعطش فقط في تلك المرحلة، بل «العطش كان مخيفاً». وأختي ميناه المقلدة الساخرة شفتني مما دعته «كونك مسرعاً»، بأن أصبحت صداي الساخر، لكن حتى بعد أن تركت تلك الحالة، ظلت تهز العائلة ضحكاً بالحركة ـ البطيئة، بتجسيدات مشيتي ـ على ـ القمر، بأساليب بطئي، نصف ـ الخطوة، لكن هذا «البطء» ـ كما كانت تسميني ـ هو اسم واحد فقط من أسماء هويتي السرية، الوحيد من طبقات تنكري البادية للعيان.

إذ كان هناك أيضاً «الأعسر، المشؤوم، الأحمق، ذو القبضة الملتحمة، ذو اليد الكتف». كلها كانت تسميات تدور حول أنني أستخدم يدي اليسرى! وأية إهانات صغيرة لا نهاية لها كانت تنتظر الأعسر غير البارع في كل ركن وزاوية! أما كلاعب كركيت باليد اليسرى، وقد كنت عضواً قيِّماً في أي فريق متوسط، فكان لا بد من أن ألقى صعوبة في إيجاد مضرب يناسبني، لكن في كل أرض للهوكي المجنونة من الهند، لم يكن هناك مخلوق مثلي يمسك عصا الهوكي بالطريقة ـ الخطأ، إنما عن قشارات البطاطا والعدس لن أدعي بأنني سأتكلم.. فإذا كانت الحياة صعبة بالنسبة للعسراويين «الطبيعيين» كم تراها ستكون أصعب بالنسبة إلي ـ إذ تبين أنني كائن يمناوي، بارع، صدف أن يده اليمنى عاطلة عن العمل تماماً. لقد كان من الصعب علي أن أتعلم الكتابة بيدي اليسرى مثلما هو صعب لأي يمناوي في العالم. وحين كنت في العاشرة، أبدو كأنني في العشرين، كان خطي ليس أفضل من خط طفل يحبو. هذا، أيضاً، تغلبت عليه.

لكن ما كان يصعب علي التغلب عليه هو الشعور بكوني في بيت الفن ذاك، محاطاً بصانعي الجمال، من مقيمين وزوار على حد سواء، مدركاً أن صناعة كهذه في حياتي، يجب أن تبقى كتاباً مغلقاً، أي حيث كانت أمي (وفاسكو أيضاً) يذهبان لمتعتهما الكبرى لم يكن باستطاعتي أن ألحق بهما إلى هناك. على أن الأصعب أيضاً هو شعوري بالقبح، بالتشوه، بالخطأ، بمعرفتي أن الحياة عاملتني معاملة سيئة، والطبيعة الشاذة تجبرني على أن أسرع في كل شيء. لكن الأصعب الأصعب كان إحساسي بأنني مصدر إزعاج، مصدر ـ عار.

هذا كله أخفيته أيضاً فالدروس الأولى لفردوسي هي تعليم التحول والتفكر. فحين كنت صغيراً جداً(لكن لست ضئيل الجسم)، كان فاسكو ميراندا يزحف إلى غرفة نومي، حين أكون نائماً ثم يغير اللوحات على

الحيطان. فتغلق بعض النوافذ لتفتح أخرى، وتغير وضعها قطة أو فأرة أو بطة أو أرنب، وتتحرك من جدار إلى جدار ومن مغامرة إلى مغامرة. ولوهلة طويلة كنت أعتقد أنني بالحقيقة أسكن في غرفة سحرية، حيث المخلوقات الخيالية على جدرانها تعود إلى الحياة بعد أن أنام. بعدئذ قدم لي فاسكو تفسيراً مختلفاً، إذ همس في أذني ذات ليلة:

«أنت الذي تغير الغرفة. أجل أنت، وأنت تفعل ذلك في نومك بهذه اليد الثالثة». وأشار بالاتجاه العام لقلبي.

«بهذه اليد الثالثة؟»

«لماذا، هذه اليد هنا، هذه اليد غير المرئية، بهذه الأصابع غير المرئية، وتلك الأظافر القاسية القاسية، المتآكلة أسوأ تآكل».

«أي يد؟ كيف؟»

«اليد التي يمكن أن تراها بوضوح فقط في أحلامك».

ولا عجب أني أحببته، إذ كنت أحبه للفكرة التي منحني إياها عن يد ـ الحلم، لكن حين كبرت كفاية بحيث أفهم، همس في أذني الليلية سراً أكبر حتى. إذ قال لي إنه كنتيجة لعملية زائدة غير متقنة، قبل العديد من السنين، كان هناك في داخله إبرة مفقودة. إبرة لم تكن تزعجه، لكن ذات يوم ستصل إلى قلبه ولسوف يموت في الحال، وكأنه طُعن من الداخل. ذلكم هو سر شخصيته ذات النشاط الفائق ـ فهو لا ينام في الليل أكثر من ثلاث ساعات، وعندما يستيقظ، يكون عاجزاً عن الجلوس ساكناً مدة ثلاث دقائق. «حتى يوم الإبرة، سيظل لدي الكثير مما أفعله»، كان يسر لي. «عش إلى أن تموت، تلك عقيدتي».

«**أنا مثلك**» تلك هي رسالته الأخوية اللطيفة «**أنا أيضاً لدي القليل من الوقت**»، «ولعله كان يحاول فقط أن يخفف من شعوري بأنني وحيد في هذا الكون، لأنني، وأنا أكبر، وجدت أن من الصعب تصديق قصته،

كما لم أستطع أن أفهم كيف لإنسان متمرد وغير تقليدي مثل ف. ميراندا أن يقبل مصيراً مخيفاً بمثل تلك السلبية، لماذا لم يسع لأن يلاحقوا له تلك الإبرة ويستخرجوها، لذلك صرت أفكر بالإبرة على أنها مجازية ـ ربما إبرة طموحه الواخزة. لكن ليلة الطفولة تلك، عندما دق فاسكو على صدره، واتخذ وجهه هيئة الإجفال، عندما قلب عينيه وسقط على الأرض وقدماه في الجو، لاعباً دور الميت لكي يسليني ـ حينذاك، حينذاك صدقته كلياً، ثم، متذكراً ذلك التصديق المطلق في سنوات لاحقة (متذكراً إياه حتى الآن، بعد أن وجدته مرة ثانية في بنينغيلي، منفعلاً بسبب إبر أخرى: نحوله كشاب، وقد تورم إلى بداية الشيخوخة، لونه الفاتح وقد صار داكناً. انفتاحه وقد انغلق على مصراعيه، ثم خمرة الحب التي فسدت فيه منذ زمن طويل، وقد تحولت إلى خل للكراهية،) إذ صرت قادرا ـ وأنا قادر ـ أن أجد معنى مختلفاً لسره. لعل الإبرة، إن كانت هناك فعلاً وحقيقة، وقد ضاعت في كومة القش التي يشكلها جسده، هي بالحقيقة مصدر ذاته كلها ـ لعلها هي روحه. يفقدها يعني أن يفقد حياته حالاً، أو على الأقل معنى حياته. لذلك آثر أن يعمل وأن ينتظر. «ضعف الرجل هو قوته والعكس بالعكس، » قال لي ذات مرة. «هل كان أخيل سيصبح محارباً عظيماً لولا كعبه؟» كما أتذكر أيضاً أنني يمكن تقريباً أن أحسده على ملاك ـ موته الحاد، الجوال المقوي له.

في قصة هانس أندرسون المشهورة تماماً عن الصغير كاي الذي تغرقه ملكة الثلج، تبقى نثرة من ثلج في أوردته، نثرة تؤلمه بقية حياته كلها. وقد كان لأمي ذات الشعر الأبيض، ملكة الثلج بالنسبة لفاسكو ميراندا الذي أحبها، والتي منها، وهو في قبضة إذلال تشتد وتشتد، فرّ أخيراً وفي دمه نثرة المرارة الباردة التي ظلت تؤلمه، إلى أن خفضت حرارة جسده، وبرّدت ذلك القلب الذي كان يوماً دافئاً.

* * *

فاسكو بملابسه السخيفة واختراعاته اللفظية، بعدم احترامه التافه لكل التقاليد، الأعراف، الأبقار المقدسة، الكائنات السامية والآلهة، وفوق ذلك كله، بعدم تعبه الخرافي، بفعاليته الشديدة وهو يتابع مهامه، زملاء - الفراش وحفلات الفن، أصبح بطلي الأول. عندما كنت في الرابعة من العمر، دخل الجيش الهندي غوا، منهياً 451 سنة من الحكم الاستعماري البرتغالي، وغرق فاسكو عدة أسابيع في واحدة من نوبات اكتئابه الأسود. فيما كانت أورورا تشجعه لأن ينظر إلى الواقعة على أنها تحرير، كما كان يراها كثير من سكان غوا، لكنه لم يكن يقبل المواساة. «حتى الآن، كان لدي ثلاثة آلهة فقط ومريم عذراء واحدة أكفر بهم». كان يتذمر. «الآن صار لدي ثلاثمائة مليون. وأية آلهة! في رأيي، لديهم الكثير جداً من الرؤوس والأيدي. بعدئذ، نط بسرعة كبيرة بعيداً، حيث قضى بضعة أيام في مطبخ إليفانتا، فارضاً نفسه على طباخنا إزكاييل الذي كان من الدرجة الأولى، معلماً إياه أسرار المطبخ الغواني، مدخلاً إياها ضمن فسحة خضراء جديدة من وصفات الطعام التي كانت معلقة بجانب باب المطبخ على طول سلك هناك. وطوال أسابيع بعد ذلك، كان لحم فخذ الخنزير هو الذي كنا مضطرين لأن نأكله كنقانق غوانية وكذلك كبد الخنزير المقطع والمعالج بحليب جوز الهند، إلى أن اشتكت أورورا من أننا كلنا سنبدأ بالتحول إلى خنازير، عند ذلك عاد فاسكو مكشراً من السوق، حاملاً سلالاً من المحار وحزماً من شرائح لحم القرش، وعندما رأت المرأة التي تعمل كنّاسة في بيتنا ذلك، ألقت بمكنستها أرضاً ثم ركضت خارجة من البوابة، قائلة للمباجان إنها لن تعود إلى عملها ككناسة، طالما ظلت تلك الوحوش «الوسخة» في المقر.

على أن ثورته المضادة لم تقتصر على طاولة الطعام فقط. فأيامنا صارت ملأى بالحكايات عن بطولة ألفونسو دي ألبوكوريك الذي غزا غوا وأخذها من سلطان بيجابور، يوسف عادل شاه، في عيد القديس

كاثرين سنة 1510، وعن فاسكو داغاما أيضاً. «فعائلة توابل وبهارات مثل عائلتكم يجب أن تفهم كيف تشعر»، قال لأورورا بكل بساطة. «تاريخنا هو تاريخ عام، فماذا يعرف هؤلاء الجند الهنود عنه؟» كذلك غنى لنا أغاني حب وقدم للكبار «الكاجو المهرب»، وشراب جوز الهند، وفي الليل،كنت أجلس معه في غرفة الأطر السحرية ليحكي لي حكاياته الغوانية عن الأسماك. «تسقط الأم الهند،» كان يصرخ بانفعال، آخذاً موقفاً معيناً، بينما كنت أقهقه تحت ملاءة سريري. «تعيش الأم البرتغال».

بعد أربعين يوماً، وضعت أورورا نهاية لغزونا الغواني الخاص معلقة: «فترة الحداد انتهت، من اليوم فصاعداً، ستستمر الحياة كعادتها».

«استعمار!!» تذمر فاسكو حزيناً «وهيمنة ثقافية أيضاً،» لكنه، كما كنا كلنا نفعل حين تصدر أورورا أمراً، أذعن بكل طواعية.

لقد أحببته، لكن خلال فترة طويلة من الزمن لم أكن أرى ـ كيف كان باستطاعتي ذلك؟ ـ تقاطع النيران داخله، المعركة القائمة لديه بين غضبه ـ الذي يحدث وبين ضحالته، بين الإخلاص والمهنية، بين المقدرة والرغبة. كما أنني لم أفهم الثمن الذي دفعه حين شق طريقه إلى بوابتنا.

إذ لم يكن له أصدقاء قبل معرفتنا به، أو على الأقل لم يذكر أحداً منهم أو يظهر أحد منهم. كما أنه لم يتكلم قط عن عائلته، ونادراً ما كان يتكلم عن حياته قبل ذلك. حتى قريته ومسقط رأسه لاوتوليم ببيوتها ذات الحجارة المسامية الحمراء ونوافذها ذات المصاريع المصنوعة من صدف المحار، وهي حقيقة، كان علينا أن نسلم بها، هو لم يتكلم عنها. رغم أنه سمح لنفسه، بزلة لسان، أن يشير إلى مرحلة كان يعمل فيها عتالاً في سوق في بلدة شمال غوا تدعى مابوسا، وإلى مرحلة أخرى ذكر فيها أنه قام بعمل عرضي في ميناء مرماغوا. كما بدا أنه في تتبعه لمستقبله المختار كان قد قطع كل صلات الدم والمكان، وهو القرار الذي كان يدل على قسوة معينة ويشير أيضاً إلى عدم الاستقرار. لقد كان من صنع ـ ذاته،

وكان ينبغي أن يحدث لأورورا ـ مثلما حدث لأبراهام ولكثير من أفراد حلقتهما، وكما حدث أيضاً لأخواتي، لكن دون أن يحدث لي ـ أن ذلك الصنع قد لا ينجح وأنه في النهاية قد يتحطم إلى أجزاء. لكن، لزمن طويل، رفضت أورورا أن تسمع أقل نقد للمدلل لديها، مثلما رُفضت أنا بدوري، بعد ذلك، في مسألة أوما سراسفاتي وهي صنع ـ ذاتي آخر، إذ حين يكتشف خطأ قلب ما على أنه حماقة، نظن أننا نحن الحمقى ونسأل الأقرب إلينا والأعز علينا لماذا فشلوا في أن ينقذونا من أنفسنا. لكن ذلك هو العدو الذي لا يستطيع أحد أن يدافع عنا ضده. فلم يستطع أحد أن ينقذ فاسكو من نفسه، أياً كان وكائناً من كان أو سيكون. لا أحد كان بإمكانه أن ينقذني أنا.

* * *

في نيسان 1947، حين كانت أختي إينا بعمر ثلاثة أشهر فقط، وكان حبل أمي بفأرة المستقبل، ميني، قد ثبت، اقترب أبراهام الزغبي، الزوج والأب العجوز، من فاسكو ميراندا في محاولة فجة فظة للتودد. «إذن، إن كان يفترض بك أنك رسام صحيح، لماذا لا ترسم صورة لزوجتي الحامل مع الطفلة؟»

تلك الصورة كانت العمل الأول لفاسكو على القماش، الذي اشتراه أبراهام له والذي أرته أورورا كيف يعده. فأعماله الأولى كانت تتم على لوح أو على ورق لأسباب اقتصادية، لكن مباشرة بعد انتقاله، في إليفانتا، إلى الرسم، حطم كل ما كان رسمه قبل ذلك التاريخ، معلناً عن نفسه أنه إنسان جديد، يبدأ الآن فقط بدايته الحقيقية في الحياة، فقط الآن، كما عبّر عن ذلك، يولد من جديد. وصورة أورورا هي تلك البداية.

إنني أقول «صورة أورورا لأن أبراهام اكتشف عندما كشف فاسكو عنها أخيراً (وكان يرفض أن يدع أحداً ينظر إلى العمل وهو يشتغل فيه)، لشدة سخطه، أن الطفلة إينا قد تم تجاهلها كلياً. ولكونها فقدت نصف

اسمها مسبقاً، فإن أختي الكبرى المسكينة أفلحت في الاختفاء كلياً من العمل الذي كانت هي موضوعه الأساسي، والذي كُلِّف به كنتيجة مباشرة لوصولها الحديث إلى المشهد. (أما ميني الصغيرة التي كانت ما تزال جنيناً فقد تعرضت هي الأخرى للحذف، لكن في تلك المرحلة المبكرة من حملها الثاني، كان من الممكن تبرير ذلك بسهولة أكثر). إذ كان فاسكو قد صور أمي وهي تجلس متصالبة ـ الساقين على عظاءة عملاقة على مصطبتها تهز سريراً في الهواء الفارغ، فيما كان ثديها الأيسر الممتلئ، والمثقل بالأمومة، مكشوفاً. «أية سخافة!؟» دوى صوت أبراهام. «ميراندا، يا ناس، هل لكم أعين في رؤوسكم أم حجارة؟» لكن فاسكو أطاح جانباً بكل الانتقادات ذات الصبغة الطبيعية، عندما أشار إلى أن زوجته لم يسبق لها قط أن ظهرت بثدي مكشوف وأن إينا المحذوفة لم تكن ترضع من ثدي أمها في أية حال، وأن وجه الرسام كان مثقلاً بالازدراء. «مرة ثانية ستقول لي إنه لا يوجد عظاءة كبيرة الحجم في الأراضي المحيطة بالبيت كحيوان أليف». وتنهد. لكن عندما كرر أبراهام ذلك على مسامع فاسكو وذكره بمن يدفع الفواتير، رفع الفنان أنفه بتعال إلى الأعلى ثم قال جازماً «العبقرية ليست عبدة لرجل ثري، والقماشة ليست مرآة تعكس أية ابتسامة. لقد رأيت ما رأيت: إنه حضور وغياب، امتلاء وخواء. ألم ترغب بصورة مضاعفة؟ تأمل. كل من له عينان سيرى، دعه يرى». فقال أبراهام بصوت كحد الموسى: «الآن وقد أنهيت تأملاتك، نحن أيضاً لدينا الكثير مما ينبغي أن نتأمله فيها».

باختصار، هل طرد فاسكو من البيت لتعميته الساخطة لشخصية الطفلة إينا؟ هل انقضت عليه أم الطفلة بمخالبها وأنيابها؟ لا أيها القارئ، هو لم يطرد، وهي لم تنقض عليه. فأورورا الزغبي كأم كانت دائماً داعمة للنظام المدرسي القائم على الضربة القاضية. كما أنها لم تر حاجة لأن تدافع عن أطفالها في مقارعتهم للحياة (هنا أتساءل أكان ذلك لأنها كان ينبغي أن تتعاون

مع أبراهام لكي تخلقنا، فوضعتنا أورورا، هي الفردانية الطبيعية، بشكل دائم بين أدنى ما أنجزته من أعمال؟.... مع ذلك، بعد يومين من كشف صورة أمي، استدعى أبراهام الرسام إلى مكتبه في منطقة مصطبة كاشوندليفري ـ وقد سمي تيمناً بالفارس العظيم ابن القرن التاسع عشر ومقرض الأموال الذي ـ يقطع ـ الحنجرة، السير ديلجي كاشوند ليفري ـ كي يقول له إن اللوحة «كانت شيئاً آخر غير ما طلب منه» «وأنه بسبب الرحمة المفرطة والطبيعة الطيبة للسيدة الزغبي فقط، لن يلقي به في الشارع، خاتماً كلامه بشكل مبتذل «وهو المكان الذي تنتمي إليه، برأيي الشخصي».

بعد رفض صورته لأمي، توقف فاسكو عن تشميع شاربيه وأقفل على نفسه في مرسمه ثلاثة أيام، ليظهر بعدها مشعث الشعر، جافاً لا ماء فيه، مع القماشة وقد لفت بكيس بارودة، تحت إبطه. ثم خرج من إليفانتا، ماراً بالنظرات العدائية للبواب والببغاء ولم يعد إلا بعد أسبوع. حين كان لمباجان شنديوالا قد بدأ للتو بالسماح لنفسه بأن يصدق أن الوغد السافل قد ذهب إلى الأبد، حينها عاد هو بسيارة أجرة، يلبس بذلة جديدة خيالية وقد استعاد تماماً مزاجه الجيد المتوهج القديم. ثم تبين أنه خلال أيام عزلته الثلاثة كان قد رسم فوق صورة أمي، التي اختفت تحت عمله الجديد، صورة للفنان وهو فارس بلباس عربي، وذلك ما جعل كيكو مودي ـ الذي لم يعرف شيئاً عن الرسم المرفوض تحت الصورة الجديدة لفاسكو ميراندا بملابسه الخيالية، وهو يبكي على ظهر حصانه الأبيض ـ إذ تدبر أمره وباعها مباشرة لشخص مهم هو ملياردير الفولاذ سي، جي بهابها بثمن عالٍ إلى حد مدهش أتاح لفاسكو أن يرد لأبراهام ثمن القماش ويعود بعدة قماشات أخرى. لقد اكتشف فاسكو أن عمله كان تجارياً، فكان ذلك بداية انطلاق لتلك الحياة المهنية الخارقة للعادة ـ وبطرق كثيرة، مبهرجة ـ بدا خلالها أنه ما من بهو فندق جديد ولا مبنى مطار يكتمل، إلى أن يزين بجدارية ضخمة من رسم ميراندا الذي تدبر بشكل من الأشكال أن يكون

تقنياً حديثاً ومبتذلاً... وفي كل لوحة، كل جدارية، زخرفة واجهة ورسم زجاجي، كان فاسكو لا ينسى أن يدخل صورة صغيرة عالية الفن لامرأة متصالبة الساقين، وقد كشفت عن أحد ثدييها، جالسة على عظاءة ويداها تهزان سريراً في الفراغ، ما لم تكن طبعاً تهز فاسكو غير المرئي أو حتى العالم كله، هي التي تبدو وكأنها أم لا أحد، كأنها أمنا كلنا، وعندما كان يكمل هذا التفصيل الصغير، الذي غالباً ما بدا أنه صب اهتمامه عليه أكثر من بقية العمل كله، كان باستمرار يلغيه تحت اللوحة، بضربات فرشاة ماسحة، يأتي بعدها عمله الذي تحددت هويته على نحو متزايد ـ بتلك العلامات الزائفة الشهيرة التي كانت تبدو وهاجة تماماً والتي استطاع فيها أن يسير بعمله بغزارة وسرعة كبيرتين.

«هل تكرهني إلى حد إلغائي؟» صرخت أورورا منفجرة في وجهه داخل المرسم، بنوع من الشعور بالإثم والاهتياج الشديد معاً. «أكان من المستحيل أن تنتظر خمس دقائق لكي تهدئ أبراهام؟» فادعى فاسكو أنه لم يفهم. «لكن بالطبع، إينا الصغيرة لم تكن هي المشكلة». تابعت أورورا. «لقد جعلتني أبدو شهوانية جنسانية، وأبراهام شديد الغيرة».

«إذن، الآن، لا يوجد ما يغار عليه». قال فاسكو مبتسماً ابتسامة مرة لكنها مغازلة. «أو ربما لديه سبب آخر الآن، لأنك يا أورورجي، ينبغي أن تستلقي مدفونة إلى الأبد تحتي. فالسيد بهابها سيعلقنا على جدار غرفة نومه، فاسكو المرئي مع أورورا غير المرئية تحته، وإينا غير المرئية أكثر حتى في حضنك. لقد أصبحت، بطريقتها الخاصة، نوعاً من الجمعة العائلية».

هزت أورورا رأسها ثم قالت: «أي هراء هذا.. أنتم، أيها الرجال، كلكم هراء من البداية حتى النهاية، عربي يبكي على حصانه!! ذلك يعني أن بهابها ليس لديه أدنى ذوق. حتى رسام «بازاري» لا يرسم لوحة غبية كهذه».

«لقد دعوتهـا «الفنـان» باعتبـاره أبـا عبـد الله عـاثر الحـظ (الـزغبي)، سلطان غرناطة الأخير، وهـو يغـادر الحمـراء» قـال فاسـكو نـاظراً إليهـا مباشرة، «أو «تنهيدة المغربي الأخـيرة». إنـني علـى ثقـة أن هـذا العنـوان المختار لن يقدم لأبيجـي أي سـبب آخـر لأن يحـس بالإهانـة. فـالعنوان مناسـب للكنيـة وقـصص العائلـة الطويلـة والمـادة الشخـصية، دون أن أطلب، ويؤسفني ذلك، إذناً منك».

حملقت أورورا الزغبي مندهشة، ثم بدأت تضحك، شـاهقة شـهقات عاليـة مـن المحتمـل أن تكـون مغربيـة «أوه! يـا لـك مـن فاسـكو سـيء السلوك». قالت أخيراً وهي تمسح عينيها. «يا لك من رجـل أسـود سـيء. كيف سأمنع زوجي من أن يدق عنقك الشرير. ذلك ما ينبغي أن أعرف».

«وأنت؟» سأل فاسكو، «هل أحببت الرسم المرفوض عاثر الحظ؟»

«أنا أحب الرسام المرفوض عاثر الحـظ،» قالـت برقـة ثم قبلتـه علـى وجنته ومضت.

* * *

بعد عشر سنوات وجد المغـربي تجـسيده فيّ أنـا مـرة ثانيـة، إذ جـاء الوقت الذي رسمت فيـه أورورا الـزغبي، متبعـة خطـا فاسـكو ميرانـدا، لوحة هي الأخرى دعتها «تنهيدة المغربي الأخـيرة»... لقـد كنـت أتـسكع على تلك الحكايا القديمة لفاسكو لأن روايـتي لقـصتي الخاصـة تجـبرني على أن أواجه خوفي مرة ثانية وأن أقهره. ترى كيف علي أن أفسر الخوف الشديد، الذي يهبط بالمعدة وتبيض منه عقد اليدين، من أن تعـيش حيـاة مفرطة التسارع ـ من كونك مجبراً، ورغم إرادتك أن تعيش بصورة حرفية حقيقة مجازية غالباً ما كانـت تنطبـق علـى أمـي ودائرتهـا؟ ففـي المـسار السريع، في الدرب المسرع، وسابقاً لزماني، مثـل نفاثـة مـن الموروثـات تماماً، كنت أحرق ـ فليس لدي من خيار ـ الشمعة مـن طرفيهـا كليهمـا، رغم أنني كنت أميل لأن أحتفظ بمجموعة من الشموع كلها وأعتني بها.

ترى كيف أُوصل شعور الرعب في فيلم ـ مذؤوبين من قدمين تكبران بسرعة لتدفعا جانبي الحذاء بعيداً، من شعر ينمو تقريباً بسرعة كافية لأن أراها، كيف لي أن أجعلكم تشعرون بالآلام المتزايدة في ركبتي إلى حد جعل من الصعب علي أن أركض؟ إلا أنه كان نوعاً من المعجزة أن عمودي الفقري نما بشكل مستقيم، لكأنني نبتة في دفيئة، جندي في مسيرة إجبارية دائمة، مسافر مقبوض عليه في آلة ـ زمن من لحم ودم، منقطع الأنفاس على الدوام، ذلك لأنني كنت أجري أسرع من السنين، برغم الركبتين المؤلمتين.

رجاء افهمني! أنا لا أدعي أنني كنت عبقرياً من أي نوع. إذ لم تظهر لدي موهبة مبكرة في لعب الشطرنج أو حل الرياضيات أو العزف على السيتار (آلة موسيقية مثل العود). مع ذلك كنت على الدوام، ولو كان ذلك فقط في نموي الذي هو خارج السيطرة، شيئاً غير عادي، مثل المدينة ذاتها، بومباي، أم الأفراح والأتراح، كنت أنمو بسرعة الفطر لأتخذ شكل شخص مدني ضخم، إذ كنت أتمدد دون وقت للتخطيط، دون أي توقف للتعلم من تجاربي أو أخطائي أو الناس المعاصرين لي، دون وقت للتفكير. إذن كيف كان بإمكاني أن أتكشف عن أي شيء سوى أنني خبيصة؟».

فالكثير مما كان فاسداً فيّ كان قد أفسد، والكثير مني كان أميل إلى الكمال لكنه قابل أيضاً، لأن يخرَّب ويضيع.

«انظروا كم هو جميل طاووسي، مغربيَّ...» كانت أمي تغني وهي ترضعني ثديها، ويمكنني القول دون تواضع زائف أنه رغم بشرتي الداكنة التي تتميز بها جنوب الهند (والجذابة كثيراً لصانعي الزيجات في المجتمع) فإنني، باستثناء يدي المشوهة، كنت أنمو بالحقيقة لأصبح حسن المظهر، لكن لبرهة طويلة من الزمن كانت تلك اليد اليمنى تجعلني غير قادر على رؤية أي شيء سوى بشاعتي وقبحي، رؤية أن

أصبح شاباً جميلاً، عندما كنت بالحقيقة ما أزال طفلاً أعاني من لعنة مزدوجة. إذ حرمت أولاً من الثمار الطبيعية للطفولة، للصغر، للولدنة لأن أكون ولداً، ومن ثم أرحل. وهكذا، أصبحت مع الوقت رجلاً. لم يعد يملك بالحقيقة جمال الشباب، جمال التفاح الذهبي. (ففي سن الثالثة والعشرين كانت لحيتي قد ابيضت، والأشياء الأخرى قد توقفت عن القيام بعملها كما كانت تعمل ذات يوم).

كما أن داخلي وخارجي كانا دائماً في حالة من عدم التناسق. إذن، ستقدر حق التقدير أن ما دعاه فاسكو ميراندا ذات مرة «حسن ـ التشكل لنجم سينمائي» لم يكن بذي قيمة كبيرة في حياتي.

هنا، سأوفر عليكم مسألة الأطباء، فتاريخي الطبي يملأ نصف دزينة من المجلدات. ذلك أن اليد المتكتلة ـ كالشجرة، الكبر سناً بسرعة فائقة، والحجم المدهش الذي صار لي، ست أقدام وست بوصات في بلاد معدل طول الذكور فيها خمس أقدام وخمس بوصات: كل هذا كان يخضع للفحص المتكرر. (وإلى هذا اليوم، فإن عبارة مستشفى خليج كاندي، يستحضر لي ذكرى نوع من بيوت التصحيح، حجرة تعذيب خيرية، منطقة عذابات جهنمية يشرف عليها شياطين بالمعنى الحسن كانوا يعذبونني ـ يشوونني مثل كباب بومباي، من أجل مصلحتي). في النهاية، وبعد كل جهد بُذل، فإن الهزة البطيئة التي لا مناص منها للرأس قام بها رئيس شياطين ما، والراحة المقلوبة إلى الأعلى تعبيراً عن اليأس، والنغمات حول الكارما والقدر والأجيال السابقة كان كل ما واجهني. كذلك فإن المتمرسين من الأطباء الاختصاصيين في فرط النمو، الذين أخذت إليهم كي يروني فعلوا ذلك. إضافة إلى أساتذة كلية تيبيا، المعالجين ـ بالإيمان والقديسين. فأورورا امرأة شديدة العزم والتصميم، مستعدة طبقاً لذلك ـ ومرة ثانية لمصلحتي ـ لأن تعرضني حتى على السحرة والمشعوذين الذين كانت هي نفسها تحتقرهم وتكرههم. «فقط في حالة» سمعتها تقول

لأبراهام أكثر من مرة. «إن كان أحد من هؤلاء يستطيع أن يثبت ساعة هذا الصبي المسكين، إذن سأرتد عن ديني وأؤمن بدينه».

لكن لا شيء أجدى نفعاً. ذلك كان الزمن الذي ظهر فيه صبي ـ مهاغورو «اللورد خسرو خسروفاني بها غوان»، الذي صار له ملايين الأتباع، رغم الإشاعات المستمرة بأنه كان كلياً من صنع أمه، سيدة تدعى السيدة دوباش.

ذات يوم، حين كنت في الخامسة (وبدوت كأني في العاشرة)، ابتلعت أورورا الزغبي كل شكوكها ـ من أجل مصلحتي، طبعاً ـ ورتبت (مقابل مبلغ كبير) جلسة خاصة مع الطفل السحري. إذ زرناه على متن يخت مترف يرسو في ميناء بومباي، فاستقبلنا بمنامته الهندية، وهي عبارة عن تنورة مذهبة وعمامة صدمت والديّ كما أخافت الطفل، إذ كان مضطراً لأن يعيش حياته كلها وهو في لباس خيالي كأنه لباس حفلة زفاف، بالرغم من هذا فإن أمي صرت على أسنانها، شرحت له مشاكلي وطلبت منه المساعدة. نظر الصبي خسرو إلي بعينين ملؤهما الجد والحزن والذكاء ثم قال:

«تقبل مصيرك. تمتع بما يعطيك الحزن. ذاك الذي تهرب منه، استدر واجرِ باتجاهه، بكل قلبك. فقط حين تصبح ما يريده سوء حظك ستصعِّده».

«كثير من الحكمة» هتفت السيدة دوباش، التي كانت تتمدد على مقعد، تأكل المانغو «واه، واه!! ياقوت، ألماس، جواهر!! الآن، رجاء». أضافت، خاتمة جلستنا. «الحساب يمكن أن يدفع من فضلكم، نقداً بالروبية فقط، ما لم يكن متاحاً نقد أجنبي، وفي هذه الحالة يمكن حسم 15% من كل دولار أو جنيه يدفع».

فترة طويلة من الزمن، ظللت أتذكر بكل مرارة تلك الأيام، الأطباء الذين لا نفع فيهم وحتى المحتالين الذين هم أقل نفعاً بكثير. لقد كرهت أمي للورطات التي كانت تضعني فيها، لتلك الانحناءات المرائية للنصابين

التي كانت تبديها لهم. لكنني لم أكن أكرهها بعد، فقد تعلمت أن أرى الحب في ما كانت تفعله، تعلمت أن أرى ذلها أمام كل أولئك المحتالين، من أمثال السيدة دوباش، الذين قابلناهم على أنهم عظماء بقدر عظمتي أنا. كذلك، ينبغي أن أعترف أن اللورد خسرو علمني درساً، غالباً ما اضطررت في حياتي لأن أتعلمه من جديد. وفي كل من هذه المناسبات، كانت الكلفة عالية جداً، ولم يقدم أي حسم على العملة الأجنبية.

* * *

بتقبلي ما لا مفر منه، فقدت خوفي منه. هنا سأقول لكم سراً عن الخوف. إنه من النوع المطلق، فمع الخوف، إما كل شيء أو لا شيء، إما أن يتحكم، مثل أي طاغية متنمر، بحياتك بقوة كلية غبية تعميك، أو تطيح به جانباً فتختفي قوته مثل نفخة دخان. كذلك ثمة سر آخر: الثورة ضد الخوف، العمل على إسقاط ذلك المستبد المسيطر، ليس له علاقة تقريباً بـ «الشجاعة». إنه ينطلق من شيء ما أكثر مباشرة بكثير: الحاجة البسيطة لأن تعيش حياتك. لقد توقفت عن كوني أخاف لأنني، إن كان وقتي على الأرض محدداً، إذن ليس لدي ثانية واحدة للتفاهات. وقول اللورد خسرو إنما كان يردد صدى شعار فاسكو ميراندا، نسخة أخرى منه وجدتها بعد سنين في قصة لكونراد، «**يجب أن أعيش إلى أن أموت**».

لقد ورثت موهبة عائلتي في النوم. فكلنا ننام مثل أطفال عندما يصيبنا حزن أو مشكلة. (ليس دائماً. إذ أنه صحيح: أن أورورا داغاما ابنة الثالثة عشرة، فاتحة ـ النوافذ، وملقية ـ الحلي والتماثيل، كانت تصاب بالأرق وهو أمر قديم، لكن لا بد أنه هام واستثناء للقاعدة). وهكذا، في الأيام التي كنت أشعر فيها بأنني على غير ما يرام، كنت أستلقي، أطفئ نفسي مثل المصباح الكهربائي. «أغلق نفسي» من أجل حالة ذهنية أفضل، لكن هذا لم يكن ينجح دائماً. إذ كنت أحياناً، وفي منتصف الليل، أستيقظ ثم أبكي، كما كنت أصرخ على نحو يثير الشفقة طلباً للحب. وكانت

اهتزازات التشنج تأتي من مكان في أعماقي أعمق من أن أحدده. مع الزمن، صرت أتقبل تلك الدموع الليلية أيضاً، باعتبارها الجزء الذي ينبغي علي أن أدفعه لكوني استثنائياً، مع أنني، كما قلت، لم تكن لدي رغبة في أن أكون استثنائياً ـ بل أردت أن أكون كلارك كيند مثلاً، وليس أي نوع من الإنسان السوبرمان. ففي بيتنا الجميل، كان باستطاعتي أن أعيش سعيداً طوال أيامي بوصفي شخصية بارزة وغنية مثل بروس واين، مع الانتفاع بجناح أو بدونه، لكن لا يهم كم كنت أرغب بذلك، فسري، طبيعة ـ الخفاش الأساسية، لم يكن بالإمكان نكرانه.

* * *

اسمحوا لي هنا أن أوضح نقطة تتعلق بفاسكو ميراندا: من البداية ذاتها، كانت هناك علائم تدل على أن كل الخفافيش في برج جسره ليست غير مؤذية. فنحن الذين أحببناه يمكننا أن نجمل المرات التي ظهر فيها غضبه العدواني، حين كان يبدو وكأنه ينقصم بفعل تيار كهربائي سلبي أسود تماماً إلى حد أننا كنا نخشى لمسه خشية أن نلتصق به ونتفحم. لقد كان يذهب إلى حفلات مرح صاخبة مخيفة، وشأنه شأن إيرس (وبيل) داغاما في زمان ومكان آخر، كان يتجول بنوع من اللاوعي في حي كحي كماثيورا أو حول رصيف صيد السمك ساسون، شبه شارد النظر، سكران، مخدراً، مصاباً برضوض، دامياً، مسروقاً، مطلقاً رائحة كرائحة السمك النتنة، لا تذهب عنه لأيام. لكن عندما أصبح ناجحاً والعزيز المدلل لدى المؤسسات المالية الدولية، كان يحتاج للكثير من المال الذي ينفقه لإبقاء تلك القصص بعيداً عن الجرائد، خاصة لأنه كان هناك دلالات على أن الكثير من الشركاء الذين كان يجدهم في مثل تلك الحفلات الصاخبة ثنائية الجنس كانوا بعد ذلك أقل من سعداء في تجاربهم، ففي فاسكو كان ثمة جحيم ولد من صفقة ـ شيطانية أبرمها لكي يتخلص من ماضيه كله، ثم يولد من خلالنا من جديد. وفي بعض

الأحيان، كان يبدو وكأنه قادر على أن يتحول إلى لهب. «أنـا دوق يـورك القديم العظيم،» كان يقول حين يغـدو أفـضل. «حـين أكـون فـوق أكـون فوق، وحين أكون في الأسفل أكون في الأسفل. كذلك، بالمناسبة، لدي عشرة آلاف رجل وعشرة آلاف امرأة أيضاً».

ليلة استقلال الهند غطاه ضباب أحمـر دفعـة واحـدة. تناقـضات تلـك اللحظة الاستثنائية مزقتـه إلى نـصفين. ذلـك الاحتفـال بالحريـة الـذي لم يستطع تقبل عواطفه، ولم يستطع، كمواطن غواني، تجنبه إذ كان تقنياً لا علاقة له به، لكن، لشدة رعبه، كان يجري، بينما كانت أنهار من الدم ما تزال تسيل في البنجاب، مدمرة التوازن الهش في صميم ذاته التي صـنعها بنفسه ليتحرر في داخله الرجل المجنون. تلك هي الطريقة التي كانت أمي تحكي عن ذلك على أية حال، ولا شك أن تلـك النـسخة كانـت تحتـوي على شيء من الحقيقة، لكنني أعلم أنه كان هنـاك أيـضاً المـادة المتعلقـة بحبه لها، ذلك الحب الذي لم يستطع أن يعلن عنه جهاراً والذي كان ملء روحه، فيفور داخله متحولاً إلى غضب. تلك الليلة، كان يجلس في طرف طاولة أورورا وأبراهام الطويلة اللامعة، ينظر إلى الضيوف الكثر المميزين والمثارين ويشرب النبيذ الأحمر بسرعة كبيرة، وكمية كـبيرة إلى أن سـكر تماماً. ثم عند منتصف الليل، انفجر علـى شـكل زخـات مـن ضـوء عـبر الجو، وقد أصبح مزاجه أشد اسوداداً من الليل. لقد سـكر كـل الـسكر، فنهض متأرجحاً على قدميه، ليصب وابلاً من سبابه وبصاقه على الضيوف.

«لماذا كلكم مسرورون؟» صرخ وهو يتأرجح. «هذه ليست ليلـتكم يـا رجـال مالولي الدمويين. ألا تعرفون ذلك؟ يا حزمة من عملاء الانكليز، أنـتم! يـا أفـراداً من مجموعة أقلية!! يا أوتاداً مربعة غريبة عجيبة! **أنـتم لا تمتـون إلى هنـا.** أنـتم غرباء عن هذه البلاد وكأنكم آتون من القمـر، أنـاس مـن القمـر. إنكـم تقـرؤون الكتب ـ الخطأ، تقفون في الجانب الخطـأ في كـل جـدال وتفكـرون بالأفكـار ـ الخطأ، حتى أحلامكم اللعينة تنمو من جذور أجنبية خطأ».

«كف عن التملق، فاسكو» قالت أورورا، «الجميع هنا تصدمهم عمليات القتل بين المسلمين والهندوس، ولست وحدك الذي تحتكر التألم بسبب ذلك. فقط تشرب النبيذ وتظن نفسك أنك وحدك الصحيح».

ترى ما الذي أوقف معظم الناس: لكنه لم يوقف فاسكو المسكين المندفع، الذي جننه التاريخ، الحب وعذاب الاحتفاظ بادعاء العظمة لنفسه. «فنانون تافهون لا فائدة منكم» كان يسخر منهم، مائلاً جانباً إلى درجة تهدد بسقوطه. «الهند الجنسانية الدائرية تحت قدمي. لا. اللسان اللعين يلتف ويخطئ. علمانيون ـ اشتراكيون. تلك هي المسألة، هراء لعين. البانديت باعكم تلك المادة مثل ساعة رخيصة وكل منكم اشترى شيئاً منها والآن تتساءلون لماذا هي لا تشتغل، حزب المؤتمر اللعين مليء بباعة ساعات روليكس اللعينة الزائفة. تظنون أن الهند سوف تنقلب تماماً، وكل هؤلاء الآلهة المتعطشة للدم، المنقوعة بالدم سوف تنقلب وتموت. أما مضيفتنا العظيمة، أورورا، السيدة العظيمة، الفنانة العظيمة، فتظن أن بإمكانها أن ترقِّص الآلهة إلى أن تبعدهم. رقصة! تات ـ تات ـ تا ـ دريغي، ثون، ثون! تاي ـ تات ـ تاي! تات ـ تاي، يسوع المسيح».

«ميراندا،» قال أبراهام، وهو ينهض «يكفي».

«لا، سوف أقول لك شيئاً، يا سيد آبي يا رجل الأعمال الكبير». قال فاسكو، وهو يشرع بالضحك. «دعني أقدم لك نصيحة. قوة وحيدة فقط في هذا البلد اللعين قادرة على الوقوف في وجه تلك الآلهة، لا هي التخصص العلماني الأجوف الفارغ. ولا هي البانديت نهرو، حمامة الخوف ولا رجال ـ الساعات في حزب المؤتمرات والأقليات، هل تعلم ما هي؟ أنا سأقول لكم ما هي. الفساد. هل تفهمني؟ الرشوة و...».

هنا فقد توازنه وسقط إلى الوراء، فرفعه اثنان يلبسان سترة من الطراز الذي يلبسه نهرو، مذهبة الأزرار، على استعداد لإبعاده عن الحفلة، بناء على إشارة من أبراهام. لكن أبراهام توقف، سامحاً للمشهد أن يسير من تلقاء ذاته.

«الرشوة القديمة الهلامية اللعينة والتشحيم»، قال فاسكو بنغمة تمزق القلب، كما لو أنه يتكلم عن كلب عجوز محبوب. «الداعمون من خلف، دافعو ـ الديون، مطعمو ـ الحلوى، أنت معي؟ أبيجي: هل أنت معي. تعريف فاسكو للديمقراطية: رجل واحد رشوة واحدة. ذلك هو الطريق. ذلك هو السر الكبير. ذلكم هو». ثم اندفعت يداه إلى فمه بنوع من الإنذار المفاجئ «أوه، أوه، يا لي من غبي.. غبي فاسكو غبي، فهو ليس بالسر... فأبيجي طلقة كبيرة لعينة، طبعاً، هو يعرف كل شيء، جدة كبيرة لعينة كهذه تمص الكثير من البيض الكبير اللعين. المعذرة، رجاء.. المعذرة».

تلك اللحظة أومأ أبراهام برأسه، فتحرك صاحبا السترتين البيضاوين، شكلا ذراعيهما تحت إبطيه ثم شرعا يجرانه إلى الوراء.

«شيء واحد زيادة» هدر صوت فاسكو بصورة عالية إلى حد أن حامليه ارتعشا، فيما كان هو معلقاً بين ذراعيهما مثل دمية محشوة، ملوحاً باصبع مجنونة. «نصيحة جيدة لكم جميعاً. اركبوا السفن مع البريطانيين! فقط اركبوا السفن اللعينة ومارسوا اللواطة. هذا المكان لم يعد بذي نفع لكم، بل سيضربكم ويأكلكم. اخرجوا. اخرجوا ما دام الخروج جيداً».

«وأنت؟» سأل أبراهام، وهو يقف بتهذيبه الفولاذي في قلب الصمت المصدوم. «أنت، فاسكو، ما النصيحة التي تقدمها لنفسك؟»

«أوه، أنا» قال وكأنه يغني فيما كان صاحبا السترتين البيضاوين يحملانه بعيداً. «لا تهتموا بي، أنا برتغالي».

(11)

ما من أحد أنتج فيلماً يدعى «الأب الهند». «بهارات بيتا؟» يبدو ذلك خطأً كلياً. «كي ـ بابوجي ـ الهندوسي؟» هذا من جماعة غاندي بشكل محدد أيضاً. «وليد ـ إي ـ العظم؟» إنه مغولي صريح. مع ذلك «السيد الهند»، ربما هو الأكثر فجاجة من كل التشكيلات الوطنية التي حصلنا عليها أخيراً. فالبطل شاب محبوب رشيق يحاول أن يقنعنا بقواه البطولية الفائقة: لا مضامين أبوية هناك، لا رجلاً للهند ـ أباً ـ متحمساً، ولا «وادي» هندي بطريركي. فقط تقليد عفن لما صنع في الهند. ذلك أن سريديفي العظيمة، بأبهى سارٍ ندي لها وقمة شهوانيتها، سرقت الفيلم بكل ما في الازدراء من راحة... لكنني أتذكر الفيلم لسبب آخر. إذ يبدو لي أنه ربما، مبالغة في التفاهات، التي لا تساوي ثمن ألوانها المبهرجة، في حين كانت مركبة الأم نرجس متماسكة وتساوي الكثير، فالمنتجون دون قصد قدموا لنا صورة الأب الوطني بعد كل شيء. إذ كان يجلس هناك مثل تنين في مغارته، مثل سيد الدمى ذي الأصابع الألف، مثل قلب قلب الظلمة، آمر فرق الموت، المسيطر بطرف إصبعه على الأعمدة والحرائق الشيطانية، المنسق لكل الموسيقى السرية للأكوان ـ السفلية، أبي الأموات جميعاً: موغامبو، اسمه، المسروق من عنوان فيلم قديم لإيفا غاردنر، قطعة منسية من عناصر إضحاك إفريقية اختيرت بعناية لتجنب الإساءة للجماعات السكانية في البلاد، فهو ليس بإسلامي ولا هندوسي، لا بارسي ولا مسيحي، لا جاني ولا سيخي، وإذا كان فيه صدى لرنين «منظفي النهر من الرمل» تلك المخلوقات الكاريكاتورية المصابة بمرض هوليوود ما بعد الحرب والذي أصاب الناس في «القارة الداكنة» فذلك حسن، إنه نوع من رهاب الأجانب الذي لا يحتمل أن يصنع الكثير من الأعداء في الهند اليوم.

في صراع السيد الهند ضد موغامبو، أرى صراعات الموت ـ والحياة لكثير من الآباء والأبناء في الأفلام، هنا نسخة مأساوية عن «الراكض على النصل»، الذي يسحق جمجمة صانعه في عناق بنوي قاتل، عن لوك سكايووكر في فيلم «حرب النجوم» في مبارزته النهائية مع وارث فادر، باعتبارهما بطلي جانبي القوة، النور والظلام. في هذه الدراما التافهة بأبطالها الكرتونية المبهرجة أرى صورة ـ مرآة لامعة لما لم يكن ولن يكون فيلماً: قصة أبراهام الزغبي وقصتي أنا نفسي.

* * *

على واجهتها كان هو النقيض للملك الشيطان. وأبراهام الزغبي الذي عرفته لأول مرة كان في الستين من عمره، زادت الشيخوخة من عرجه الذي نجم عن إصابته بأصيص حجري، كما بدا شخصاً متضائلاً ضعيفاً، أنفاسه تأتي شهقاً ويده اليمنى تظل بصورة خفيفة على صدره بحركة كانت تدل ذات مرة على الحماية ـ الذاتية والطاعة.

لم يتبق الكثير هنا (ما عدا إذعان المدير ـ المناوب) من الشخص الذي وقعت أورورا في غرامه، غرام الفلفل، بسرعة وعمق ـ في ذاكرة طفولتي عنه، يبدو لي شبحاً بلا لون نوعاً ما يتنقل على حواف بلاط أورورا الصاخب، متردداً، منحنياً قليلاً، عابساً ذلك العبوس الغامض الذي يستدل منه الخدم على توقهم لأن يرضوه. وفي ميلان جسده نحو الأمام، يظهر وكأن هناك شيئاً ما شديد ـ التوق إلى حد مزعج، شيئاً من التملق والمداهنة. «هاهنا حشو» كانت أورورا حادة ـ اللسان مولعة بالقول لكي تثير الضحك. «رجل ضعيف». وأنا، ابن أبراهام، لم أستطع منع نفسي من احتقار أبراهام، لأنه كان مضحكة للآخرين: لأنني كنت أشعر أن ضعفه يحط منا جميعاً ـ طبعاً أعني بذلك كل الرجال.

وطبقاً لمنطق القلب الغريب ذاك، فإن عاطفة أورورا العظيمة «ليهوديها» بردت بسرعة بعد مولدي، إذ أعلنت، على نحو مميز، أن عواطفها بردت تجاه كل من كان حولها. «حين أراه آتياً إلي، بكل ما فيه من رائحة التوابل،» ثم تضحك، «أختبئ خلف أطفالي وأسد أنفي». تلك الإهانات، كان يعاني منها أيضاً، دون أن يحتج. «فالرجال في جهتنا هذه من العالم،» كانت أورورا تتابع في غرفة الرسم البرتقالية والذهبية الشهيرة «كلهم إما طواويس أو رثون لكن حتى طاووس مثل «مغربيي» هو لا شيء مقارنة بنا نحن السيدات اللواتي نعيش في زهوة المجد. ابحثوا عن الرثين، أنا أقول، إنهم سجانونا، إنهم الممسكون بدفاتر شيكاتنا والمفاتيح لأقفاصنا الذهبية».

تلك كانت أقرب نقطة دنت فيها من أبراهام غير المتذمر والشاكر لعدم نفاد شيكاته، لأن مدينة للذهب بناها بسرعة من ثروة عائلتها، تلك التي لم يتبق منها، إن جاز القول، أكثر من قرية، عقارات ريفية في بلدة صغيرة في مقاطعة، مقارنة بثروته العظيمة في الوقت الحاضر. لم تكن أورورا تدرك أن طيشها كان يتطلب صيانة، بل كانت مرتبطة بأبيي بسبب احتياجاتها. أحياناً كانت توشك على الاعتراف بذلك، بل حتى الآن تنزعج من أن مستوى نفقاتها، أو فلتان لسانها يمكن أن يؤديا إلى انهيار البيت. وهي، المولعة دائماً بقصص وقت النوم التي تدور حول الموت، كانت تحكي لي قصة العقرب والضفدع، التي اتفقت فيها العقرب مع الضفدع على أن تنقلها هذه على ظهرها فوق مسطح مائي، مقابل وعد بألا تهاجم ظهرها، إلا أنها تحنث بوعدها وتلسع الضفدع لسعة قاتلة، وبينما كانت الضفدع والعقرب تغرقان كلتاهما، تعتذر القاتلة لضحيتها قائلة: «لم أستطع الامتناع عن ذلك. فالأذى في دمي».

أما أبراهام، وقد استغرق مني ذلك وقتاً طويلاً كي أرى، فقد كان أصلب من أي ضفدع . مع ذلك لسعته، إذ كان الأذى في دمها واللسع

من طبيعتها، لكنه لم يغرق. كم كـان سـهلاً بالنـسبة إلي أن أحتقـره! كـم استغرق مني وقتاً قبل أن أفهم وجعـه! إذ أنـه لم يتوقـف عـن حبـه لهـا، وعلى نحو أعنف من اليوم الذي التقيـا فيـه لأول مـرة، بـل كـل مـا كـان يفعله، إنما كان يفعله من أجلها. وبقدر ما كانت فـضائحها تكـبر وتـزداد انتشاراً، كان حبه لها يشتد في السر ويزداد.

(وحين عرفت بالأشياء التي فعلـها، الأشـياء الـتي يمكـن أن يقـال إن الاحتقار كان رداً غير ملائم، وجدت أن مـن الـصعب أن أسـترجع ذلـك الاشمئزاز وقت الشباب. إذ أنني حينذاك كنـت قـد وقعـت تحـت سـلطة ضفدع من ماء مختلف، وكانت أعمالي نفسها قد أخـذت مـني الحـق في أن أكون حكماً على والدي).

فعندما كانت تهينه أمام الناس، كانت تفعل ذلك مع ابتسامة ماسـية توحي بأنها كانت تشاكسه فقط، وأن إساءاتها المستمرة له لم تكن أكثر من طريقة لإخفاء عبادة له أكبر من أن تستطيع التعـبير عنـها، ابتـسامة ساخرة كانت تسعى لأن تضع سلوكها بين قوسين. ذلك العمل لم يكن مقنعاً البتة. وغالباً مـا كانـت تـشرب ـ فالترتيبـات المـضادة للكحـول كانت تجيء وتذهب، بشكل موازٍ لحظوظ موراجي ديـزاي الـسياسية. بعد تقـسيم ولايـة بومبـاي إلى مهاراشـترا وغوجـارات، اختفـت مـن المدينة حيناً من الزمن ـ وحين كانت تشرب، كانت تسب وتلعـن. ولم تكن تستثني، هي الواثقة من عبقريتها، المسلحة بلـسان سـليط، مثـل جمالها، عنيف كعملها، من لعناتها وسبابها أحداً، وكل ذلك يتم مـع تلك الابتسامة المرحة، الصلبة ـ كالحجر التي تسعى لتخدير ضحاياها بينما تقتلع أحشاءهم. (اسألني كيف كان ذلك يبدو! أنا ابنها الوحيـد، إذ بقدر ما تكون أقرب للثور، وأنت تعمـل، يكـون الاحتمـال الأكـبر بأن يبقر قرناه بطنك).

إنها بيل تعود مرة ثانية، طبعاً، بيل ترجع، كما تم التنبؤ بذلك، لتحل في جسد ابنتها. **ولسوف ترون**، قالت أورورا، **من اليوم فصاعداً أنا في مكانها**. لنتصورها: بسار حريري بلون الزبدة، حوافيه ذات تصاميم هندسية مذهبة، يهدف لأنّ يستدعي إلى الذاكرة ثوب أحد أعضاء مجلس الشيوخ الرومان ـ أو ربما، إن كان مدٌّ أناها قد ارتفع عالياً على نحو خاص، تأتي بسار أكثر روعة حتى، وفي لون أرجواني امبرطوري ـ ثم تتمدد على كرسيها المريح تلطخ غرفة رسمها بسحائب تنينية من دخان «البيدي» الرخيص، مترئسة ليلة من ليالي مناسباتها سيئة السمعة وقد انفلتت، بسبب الوسكي وما هو أسوأ، في تلك الليالي التي كان التحلل فيها لشخصيات اجتماعية بارزة يشحذ الكثير من ألسنة المدينة المتذبذبة، رغم أنها هي نفسها لم يرها أحد تقوم بعمل غير لائق، لا مع رجل ولا مع امرأة... ثم في ساعات الغسق القليلة، كانت تخطو هنا وهناك، خطى واسعة مثل نبية سكرى لتبدأ محاكاة وحشية لما انطلق دون وعي من فاسكو ميراندا ليلة الاستقلال، دون أن تزعج نفسها بالاعتراف بأنها نسخة عنه، وعلى نحو لا تتكون لدى الأصحاب المجتمعين فكرة عن أنها تقدم أشد الأهاجي شراسة، مفصِّلة كيف سيكون الخراب القادم لضيوفها ـ من رسامين، نماذج رسم، ممثلي سينما، مسرحيين، راقصات، نحاتين، شعراء، رجال لهو، أبطال رياضة، لاعبي شطرنج، صحفيين، مهربي ـ آثار، أمريكان، سويديين، ناس استثنائيين، شبه عالميين، وأكثر شبان البلد الذهبيين غرابة ـ فتكون المحاكاة مقنعة جداً ومقتنعة جداً، سخريتها مخفية بعمق شديد، بحيث يستحيل ألا تصدق تلمظ شفتيها وقبلاتها ذات الصوت العالي أو ـ إن كان مزاجها يتذبذب بسرعة هائلة ـ لامبالاتها الأولمبية الخالدة.

«تقليد للحياة! مشاكلة للتاريخ، أيها السناطرة!» كانت تعلن «ألن تتحولوا إلى قطع قطع بفعل العواصف القادمة؟ مزائج، خلائط، راقصين

ـ أشباح، ظلال! سمك يخرج من ماء! أيام سيئة سوف تأتي يا أعزاء، لا تظنوا أنها لن تأتي، ثم إن كل الشياطين سوف تذهب إلى الجحيم، الليل سيمحو الظلال والدم الهجين سوف يجري، رقيقاً حراً كالماء. وأنا فقط سوف أبقى» ـ في ذروة خطبتها، يُلقى هذا والظهر مقوس والإصبع مرتفعة في الجو مثل شعلة الحرية ـ «وذلك، أيها الأشخاص الرديئون البائسون، بسبب فني». فيما يستلقي ضيوفها أكداساً أكداساً، وقد ذهبوا أبعد بكثير من أن يسمعوا أو يهتموا.

بالنسبة لذريتها أيضاً، كانت تتنبأ بمآسٍ «صغار مساكين، غير متقني الصنعة، يبدو كأن قدرهم المشاكل والصعوبات».

... لقد أمضينا حياتنا فوق وتحت وبجانب نبوءاتها... ترى هل ذكرت أن أحداً لم يكن يقاومها؟ اسمعوا: لقد كانت نور حياتنا، كل ما يثير خيالاتنا، المحبوب من أحلامنا. لقد أحببناها إلى حد أنها دمرتنا. لقد استخرجت منا الحب الذي شعرت أنه أكبر من أجسادنا، لكأنها هي التي تصنع الشعور، ثم تمنحنا إياه لكي نحس به ـ كما لو أن ذلك كان عملاً. إن داست فوقنا، فذلك لأننا كنا نستلقي بإرادتنا تحت قدميها ذاتي الحذاء ـ المنخس. وإن عنفتنا ليلاً، فذلك بسبب استمتاعنا بسياط لسانها العذبة. أخيراً حين تيقنت من هذا وأدركته غفرت لأبي. إذ كنا كلنا عبيدها، وقد جعلتنا أشبه بخدم لها نشعر بأننا في الفردوس. وذلك، كما يقولون، ما يمكن أن تفعله الإلهة.

ثم بعد غوصتها القاتلة في المياه كثيرة الصخور، خطر لي أن سقوطها ذاك كان قد تم التنبؤ به، بتلك الابتسامة الفائقة، القاسية ـ كالجليد، تلك السخرية التي فاتت الجميع، والتي، ربما، كانت دائماً خاصة بها.

* * *

لقد صفحت عن أبراهام أيضاً، لأنني بدأت أرى، حتى لو أنهما لم يعودا ينامان في الفراش نفسه، فإن كلاً منهما كان ما يزال الوحيد الذي كان بأمس الحاجة لرأي الآخر الحسن به، وأن أمي كانت بحاجة لتأييد أبراهام بقدر ما كان أبراهام يتوق لتأييدها.

إذ كان دائماً أول من يرى عملها (يتبعه مباشرة فاسكو ميراندا، الذي كان باستمرار يعارض كل شيء يقوله والدي). وفي العقد من الزمن الذي أعقب الاستقلال، وقعت أورورا في ارتباك ابداعي شديد، إذ أصبحت شبه مشلولة لتشككها، ليس فقط بالواقعية، بل بطبيعة الواقعي نفسه، ونتاجها الضئيل من اللوحات في تلك المرحلة يبدو أنه نتيجة عذاب وعدم تصميم، وبنظرة خلفية إليه، من السهل أن يرى المرء في تلك اللوحات التأرجح ما بين تأثير ميراندا اللاهي وولعه بالعوالم الخيالية التي كان قانونه الطبيعي الوحيد فيها هو قانون النزواتية المهيمن، وبين إصرار أبراهام العقائدي، في ذلك المفصل التاريخي، على أهمية النزعة الطبيعية ذات الرؤية الواضحة التي قد تساعد الهند في وصف نفسها بنفسها. كانت أورورا تلك الأيام ـ وهذا جزئياً يفسر لماذا كانت تغرق نفسها من حين إلى حين في ليالي مرح صاخب مخدر ضحل ـ تتنقل بصعوبة بين رسوم أسطورية إصلاحية على نحو سمج وبين العودة غير المرتاحة وحتى المتغلغلة للوحات التوثيقية ذات توقيع ـ السحلاة لأعمالها أيام زمان ـ لقد كان من السهل بالنسبة لفنانة أن تضيع هويتها في زمن كان فيه كثير من المفكرين يعتقدون أن حدة الحياة المكثفة للبلاد وأهواءها لا يمكن تمثيلها إلا بنوع من المحاكاة اللا أنانية المخلصة ـ وحتى الوطنية.

لم يكن أبراهام مطلقاً المناصر الوحيد لأفكار كهذه، فالمخرج السينمائي البنغالي الكبير، سكومارسين، صديق أورورا، وربما من كل مناصريها، ندها الفني الوحيد، كان واحداً من أفضل أولئك الواقعيين، وفي سلسلة من

الأفلام الإنسانية الهاجسية التي جاءت إلى السينما الهندية ـ تلك الكعكة القديمة المشوشة ـ بنوع من الالتمام بين العقل والقلب، قطع شوطاً طويلاً باتجاه تبرير حبه للجمال. مع ذلك، لم تنتشر تلك الأفلام الواقعية انتشاراً واسعاً ـ بل في لحظة سخرية مريرة، تم التهجم عليها من قبل نرجس دوت، الأم ـ الهند ذاتها، بسبب نخبويتها ذات الصبغة الغربية ـ كما أن فاسكو (علناً) وأورورا (سراً) فضلا سلسلة الأفلام الخاصة بالأطفال، التي ترك فيها سين لخياله العنان، فرأينا فيها السمك يتكلم والسجاد يطير والصبية الصغار يحلمون بتقمصات سابقة لهم في قلاع من ذهب.

لكن بعيداً عن سين، كان هناك مجموعة من الكتاب المتميزين الذين انضووا حيناً من الزمن تحت جناح أورورا، مثل بريمتشاند، سادات حسن مانطو، مولك راج أناند وعصمت تشوغتاي، وكلهم واقعيون ملتزمون، لكن حتى في عملهم كان هناك عناصر خيالية، مثلاً في «توباتيك سينغ»، قصة مانطو العظيمة للتقسيم الذي قام به المجانين لشبه القارة، وقت التقسيم الأكبر. إذ أن أحد المجانين، وهو إقطاعي غني سابقاً، كان يقف في أرض محايدة، غير قادر على القول ما إذا كان موطن البنجابي يقع في الهند أو باكستان، ولجنونه الذي كان جنون العصر أيضاً، رد بنوع من الهذر السماوي الذي وقعت أورورا الزغبي في غرامه. فلوحتها المتعلقة بالمشهد الأخير المأساوي لقصة مانطو، الذي يبدو فيه المعتوه عاثر الحظ جانحاً كالسفينة بين امتدادين من الأسلاك الشائكة، تقع خلفهما الهند وباكستان، تلك اللوحة ربما أفضل عمل لها في تلك المرحلة، وهذره المثير للشفقة لا يمثل انهيار اتصالاته الشخصية وحسب بل انهيار اتصالاتنا أيضاً، كما يشكل عنوان اللوحة الطويل والرائع.

لقد جرت روح العصر، وتفضيلات أبراهام الخاصة، أورورا باتجاه النزعة الطبيعية، لكن فاسكو ذكرها بكرهها الغريزي لما هو محاكاة خالصة، ذاك الذي أدى بها لأن ترفض تلاميذها السحلاويين، محاولاً

أن يعيدها إلى الأسلوب الملحمي ـ الخيالي الذي كان يعبر عن طبيعتها الحقيقية، مشجعاً إياها لأن تعير انتباهها مرة ثانية، ليس فقط لأحلامها، بل أيضاً للدهشة الأشبه ـ بالحلم للعالم المستيقظ. «نحن لسنا أمة من الناس العاديين،» كان يجادل، «بل عرق سحري، ترى هل ستمضين حياتك وأنت ترسمين ماسحي الأحذية ومضيفات الطيران وفدانين من الأرض؟ هل هم عتالو السوق وسائقو الشاحنات ومشاريع نرجس الكهرمائية كل ما سترسمينه من الآن فصاعداً؟ ضمن عائلتك يمكن أن تري البرهان المضاد لنظرة كهذه للعالم. انسي أولئك الواقعيين الملعونين، الواقعي دائماً مخفي ـ أليس كذلك؟ داخل شجيرة تحترق بشكل عجائبي! الحياة خيالية! ارسمي ذلك ـ فأنت مدينة به لابنك الخيالي غير الواقعي. أي عملاق هو، هذا الرجل ـ الطفل الجميل، صاروخ ـ الزمن البشري، صاروخك هذا! التصقي بحقيقته غير المعقولة، التصقي بذلك، به، وليس بتلك السحلاة الخرائية المبتذلة».

بسبب رغبتها برأي أبراهام الحسن، ارتدت أورورا الثياب الغنية التي بدت غير مناسبة لها. ولأن فاسكو كان صوت هويتها السرية، فقد كانت تغفر له كل تجاوز: كذلك بسبب ارتباكها وحيرتها، كانت تشرب وتزداد فظاظة وعدوانية وبذاءة. مع ذلك، أخذت أخيراً بنصيحة فاسكو، وجعلتني لمدة طويلة من الزمن التعويذة والمركز الرئيسي لفنها.

أما بالنسبة لأبراهام، فغالباً ما كنت أرى ظل اكتئاب محير يعبر محياه. لقد كنت أحيّره بالتأكيد. كما أن الواقعية كانت تحيره، بحيث أنه بعد كل غياب من غياباته الطويلة، ولدى عودته من رحلة عمل إلى دلهي أو كوشين أو جهة أخرى من تلك الجهات التي أبقاها سرية لسنوات كثيرة، كان يجلب لي معه إما ملابس صغيرة علي إلى حد مضحك، تناسب طفلاً من عمري، أو يقدم لي كتباً يمكن لشاب بحجمي أن يستمتع بها، كتباً تربك الطفل الذي كان يسكن جسدي فائق الحجم، كما كانت تحيره زوجته أيضاً، وتغير

مشاعرها تجاهه، وكذلك العنف الذي يشتد قتاماً داخلها ومواهبها المدمرة ـ للذات التي لم تظهر بشكل أوضح البتة من ظهورها يوم لقائها الأخير مع رئيس وزراء الهند، قبل تسعة أشهر من ولادتي.

* * *

... قبل تسعة أشهر من ولادتي، سافرت أورورا الزغبي إلى دلهي كي تستلم من رئيس الجمهورية وبحضور صديقها الحميم، رئيس الوزراء، جائزة الدولة ـ التي كانت تدعى «لوتس التقديرية» ـ لخدماتها في مجال الفن. لكن بالمصادفة سيئة الحظ، كان السيد نهرو قد عاد لتوه من رحلة إلى إنكلترا، قضى خلالها معظم وقته الخصوصي بصحبة إدوينا مونتباتن. الآن باتت حقيقة ملحوظة كثيراً (لكن قلما يعلق عليها أحد)، في حياتنا العائلية، أن مجرد ذكر اسم تلك السيدة المميزة كان كافياً لأن يجعل أورورا تنطلق في نوبات من القدح والذم، غير أن التفاصيل الحميمة للصداقة بين البانديت نهرو وزوجة نائب الملك الأخير كانت مسألة تخمين، وتخميناتي تطوف أكثر وأكثر على الشائعات المماثلة المتعلقة برئيس الوزراء وأمي. ذلك أنه لا يمكن نكران بعض الحقائق التأريخية. أرجع عقارب الساعة إلى الوراء أربعة أشهر ونصف من مولدي، سترجع بذلك إلى الوقائع التي حدثت في بيت اللورد المركزي، في ماثيران، وإلى ما يمكن أن يكون المناسبة الأخيرة التي مارس فيها والداي الحب، لكن دع الساعة تتحرك أربعة أشهر ونصف أخرى إلى الوراء، فإنك ستجد أورورا في دلهي، تدخل قاعة الاحتفالات في راشتراباتي بهافان، ليستقبلها البانديت نفسه، هناك تتسبب أورورا الزغبي بقيام فضيحة، وذلك بلجوئها إلى ما دعته الصحف «العرض اللامبالي للمزاج الفني» وقولها بصوت عالٍ في وجه نهرو المذعور: «تلك السيدة ذات صدر ـ الدجاجة إدوين مونتيني! إن كانديكي هو الملك، إذن هي نائبته بالتأكيد. والإله يعلم لماذا تظل تقف عند بابها مثل شحاذ. إن كان اللحم الأبيض ما تبغي، يا جي، فإنك لن تجد لديها الكثير منه».

بعد ذلك تركت الناس المجتمعين كلهم فاغري الأفواه والرئيس ينتظر وجائزة اللوتس التقديرية في يده، محتقرة الجائزة، مستديرة على عقبيها لترجع إلى بومباي. تلك، على الأقل، هي النسخة التي نشرت في وسائل الإعلام الوطنية المرغوبة في اليوم التالي. لكن ثمة تفصيلان ينقصان علي، الأول هو النقطة المثيرة للاهتمام وهي أن أورورا عندما سافرت إلى الشمال، سافر أبراهام إلى الجنوب. ولفشله غامض الأسباب في عدم مرافقته لزوجته الحبيبة في تلك اللحظة من شهرتها الذائعة، ذهب، بدلاً من ذلك، للتدقيق بالشغل والمصالح التجارية في الموطن، ففي بعض الأيام لا أستطيع منع نفسي من أن أرى ـ ومن الصعب كثيراً أن أصدق ـ أن هذا عبارة عن سلوك زوج متساهل.. أما التفصيل الثاني فعلي أن أتعامل من أجله مع نسخ كتب إزكاييل، طباخنا.

إزكاييل، إزكاييلي: بصلعته الأبدية القديمة كقشرة بيضة وأسنانه الثلاث الصفراء كلون الكناري، وهي في تكشيرتها الهشة العائمة، كان يقرفص بجانب الموقد المفتوح التقليدي، مهوّياً دخان الفحم الخشبي بعيداً بمروحة من قش لها شكل الصدفة. لقد كان فناناً في مجاله، يعترف بذلك كل من أكل الطعام الذي ينتج عن وصفاته السرية التي سجلها بيد مهتزة متمهلة في كتبه ذات الجلدة الخضراء التي كان يحفظها في صندوق مقفل: مثل الزمرد. إنه أرشيفيّ، إزكاييلنا هذا، ففي كنزه ذاك من كتب الطبخ، لم يكن هناك وصفات فقط، بل سجلات وجبات ـ تسجيل كامل على مر السنين الطويلة لخدمته، لما قدم من وجبات ولمن قدمت، وما هي المناسبة. خلال سنوات طفولتي المنعزلة (التي ليس لدي الكثير عنها)، كنت أقضي إلى جانبه الساعات من التمرن على يديه، فأتعلم كيف أشتغل بيد واحدة ما يشتغله الناس باثنتين، وأتعلم أيضاً تاريخنا العائلي المتعلق بالطعام، مكرساً لحظات من التركيز على الملاحظات الهامشية التي حكت لي عن القليل الذي كان يؤكل، لأخمن المشاهد الغاضبة التي تكمن خلف

الكلمة الجنونية «أريق». كما كانت تستحضر لحظات سعيدة أيضاً، من خلال الإشارات التي لا تكلف فيها للخمر أو الكعك أو الطلبات الخاصة الأخرى ـ مثل الأطباق المفضلة لدى الطفل الذي يبلي بلاء حسناً في المدرسة، الموائد الاحتفالية التي تشير إلى انتصار ما في الأعمال أو الرسم. صحيح، طبعاً أنه في مجال الطعام كما في أي مجال آخر، هناك الكثير مما يتعلق بشخصياتنا التي تظل عاتمة غير شفافة، فما الذي جعل أخواتي يا ترى يتحدن في كرههن للباذنجان أو لتعلقي أنا بالباذنجان ذاته؟ ما الذي يتجلى بتفضيل والدي للحم الضأن أو الدجاج بعظمه وإصرار أمي على لا شيء إلا اللحم بلا عظم؟ إنني ألقي بأسرار كهذه جانباً كي أسجل أنني عندما استشرت دفتر الطباخ المتعلق بالمرحلة قيد النقاش، تكشف لي أن أورورا لم تعد إلى بومباي طوال ثلاث ليالٍ بعد ثورتها في دلهي. وإنني لأكثر إلفة مع بريد دلهي ـ بومباي الذي يأتي بالقطار من أن أحتاج إلى تدقيقه: فالرحلة تستغرق ليلتين ويوماً، لتظل بذلك ليلة واحدة لا تفسير لها. «ربما توقفت السيدة في دلهي كي تأكل طبقاً آخر من «الخنسما»،» كان تعليق إزكاييل الكئيب على غيابها، فبدا مثل رجل خدعته حبيبته، يحاول أن يغفر لها ذنبها وخيانتها.

طبق آخر من الخنسما... ترى أي طبق طعام كثير التوابل أبقى أورورا الزغبي بعيدة عن بيتها؟ بل لنقلها بصراحة. ما الذي كان يطبخ؟ فإحدى نقاط ضعف أمي هي أن حزنها وألمها غالباً ما يظهران على شكل غضب. وبرأيي، كانت ثمة نقطة ضعف أخرى، هي ما إن تسمح لنفسها بترف إحداث صدع، حتى تشعر باندفاعة شديدة من العاطفة الاعتذارية للشخص الذي تؤذيه. أما بالنسبة للمشاعر الطيبة فإنها قد تتزايد لديها بعد فيض من المرارة المدمرة.

قبل تسعة أشهر من مولدي، كانت هناك ليلة مفقودة، لكن الحالة الأخرى، أي أن تعتبر بريئة إلى أن تثبت إدانتها، هي قاعدة ممتازة،

إذ لا أورورا ولا القائد العظيم المرحوم كان لديهما أي برهان على عدم التلاؤم كي يجيبا. ربما هناك تفسيرات جيدة تماماً لكل هذه المسائل، فالأطفال لا يفهمون أبداً لماذا يتصرف آباؤهم وأمهاتهم كما يتصرفون.

كم هو عمل متهور إذن أن أتهم بلا أساس امرأة محتشمة ـ حشمة غير شرعية حتى، تنحدر من سلالة عظيمة كهذه: لقد حاولت فقط أن أعبر عن لغز كان يخض ـ رأسي، لكن كن متأكداً أنني لا أدعي ادعاءات. إنني ملتصق بقصتي، أي أن أمي حملت بي في محطة التل التي حددتها سابقاً، وأن بعض المعايير البيولوجية كانت تختلف عما بعد. واسمحوا لي أن أصر: هذا ليس نوعاً من التغطية.

ففي سنة 1957، كان جواهرلال نهرو في السابعة والستين من عمره، وأمي في الثانية والثلاثين، وهما لم يلتقيا مرة ثانية البتة، كذلك لم يسافر الرجل العظيم من جديد إلى انكلترا ليلتقي بزوجة رجل عظيم آخر.

أما الرأي العام ـ وليس ذلك للمرة الأخيرة، فكان يميل ضد أورورا. إذ كان بين أناس ـ دلهي ونماذج بومباي دائماً قدر من الاحتقار المتبادل (وهنا أتكلم طبعاً عن البورجوازية)، فرجال بومباي كانوا يميلون لوصف الدلهاويين بأنهم أتباع، إمّعات للسلطة وبأنهم متسلقو ـ عمود ـ مشحم وموظفون، فيما كان مواطنو العاصمة ينخرون ساخرين من أولاد الكلبة المزيفين، رجال بومباي، ونسائها المتحذلقات المصقولات ذوات الأنف العالي. لكن عقب رفض أورورا لجائزة اللوتس انتشرت الفضيحة في بومباي كما انتشرت في دلهي. حينذاك وجد أعداؤها الكثر من ذوي الطراز العالي، الفرصة سانحة للانقضاض عليها، فدعاها الوطنيون بكثير من السفالة بأنها خائنة, والمؤمنون الأتقياء بأنها كافرة، فيما وصمها الناطقون باسم الفقراء بالغنى. وقد فشل الكثير من الفنانين في الدفاع عنها: فالسحلاويون تذكروا هجومها عليهم فخلدوا إلى الصمت، وأولئك الفنانون الذين كانوا حقاً منحازين إلى الغرب، وقضوا حياتهم

المهنيــة كلــها وهــم يقلــدون، ليــصلوا إلى نتيجــة مخيفــة، أســاليب الشخصيات المشهورة في الولايات المتحدة، عيروها بــ«ضـيق الأفـق»، فيما فنانون آخرون ـ وهناك الكـثيرون منـهم ـ ممـن كـانوا يغـيرون علـى تراث البلاد القديم، ليأتوا بنسخ معاصرة لفن قديم منمنم (وغالباً، سـراً، ما كانوا يعملون لوحـات إباحيـة مزيفـة عـن فـن مغـولي أو كـشميري،) وصفوها فقط بأنها متعالية «فاقدة الارتبـاط بجـذورها». كمـا نُبشت كـل فضائح العائلة القديمة، ما عدا قصة الابن البكر الذي كان ينبغـي تـسليمه من الابن إلى الأم فلوري، فهذه لم تنتشر بين عامة النـاس البتـة، كمـا أن الصحف نشرت بكل استمتاع كـل تفـصيل متـاح عـن خـزي فرانسيـسكو القديم و«أشعته الغامية»، وعـن الجهـود الحمقـاء لكـامونزدا غامـا وهـو يدرب فريقه اللينيني في جنوب الهند، والحرب الفتاكة بـين آل لوبـو وآل منيزيز، التي كانت محصلتها ذهاب الأخوين إلى السجن، كـذلك انتحـار كامونز المـسكين المقطـع ـ القلـب غرقـاً، وبـالطبع، الفـضيحة الكـبرى لذهاب ذلك اليهودي المسكين الذي لا يحسب له حساب دون عرس مـع عاهرته المسيحية الثريـة ـ القـذرة. لكـن حـين بـدأت الأسـئلة توجـه إلى شرعية أولاد الزغبي ويلمح إليها، بدا في يوم معين، وكأن رؤساء تحريـر كل الصحف الرئيسية تلقوا زيارات من مبعوثين من أبراهام الزغبي، الذي أوصل لهم نـصيحة عاقـل، إذ أن الحملـة الإعلاميـة بعـد ذلـك توقفـت مباشرة، وكأنها أصيبت بسكتة قلبية.

بشكل ما، انسحبت أورورا من الحياة العامـة، وإن كـان صـالونها قـد ظل يشعشع لكـن العناصـر الأكثـر محافظـة في المجتمـع المخملـي وفي الوسط الغني والفكري تخلوا عنها. بل هي نفسها تقوقعت، أكثـر فـأكثر، داخل جدران فردوسها الشخصي ثم تحولـت، دفعـة واحـدة في الاتجـاه الذي كان فاسكو ميراندا يحثها عليـه، الاتجـاه الـصحيح لقلبـها: أي إلى الداخل، إلى واقع الأحلام.

(في ذلك الوقت، حين سبقت أعمال الشغب اللغوية تقسيم الولاية، أعلنت أورورا أنه لن ينطق أحد ضمن جدرانها بلغة الماراثي ولا الفوجاراتية، فلغة مملكتها هي الإنكليزية ولا شيء سواها. «هذه الصراعات اللغوية كلها تفرق واحدنا عن الآخر». فسرت موقفها «فيما الإنكليزية فقط هي التي تجمعنا معاً». ولكي تبرهن عن وجهة نظرها كانت تسرد، بتعبير حزين لا يمكن إلا أن يثير أفكاراً رديئة لدى الحاضرين لديها، الإيقاع الذائع تلك الأيام. «آ ـ بي ـ سي ـ دي ـ إي ـ إف ـ جي... إلخ».

أنا أيضاً كنت مضطراً لأن أعيش حياة منعزلة نسبياً، ولا بد من التركيز على أننا كلينا وجدنا نفسينا معاً أكثر مما يجد معظم الأمهات والأبناء أنفسهم كذلك، إذ بعد أن ولدت مباشرة، بدأت سلسلة من اللوحات الأساسية التي رافقت شهرتها إلى حد كبير، تلك الأعمال التي كان اسمها (رسوم المغربي) هي عني أنا، حيث كان يُسجل نموي بصورة وثائقية وذات معنى أكثر مما يسجله ألبوم صور ضوئية، وهي الأعمال التي كانت ستربط واحدنا بالآخر إلى الأبد، بغض النظر عن اليوم الذي جاء، بكثير من العنف ليفرق بيننا.

* * *

الحقيقة المتعلقة بأبراهام الزغبي هي أنه كان متنكراً، وكان قد صنع لنفسه هوية سرية لشخص لطيف ـ السلوك كي يغطي طبيعته المتفوقة الخفية. لقد رسم عن عمد أقتم صورة ممكنة لنفسه ـ ليست صورة فاسكو ميراندا عن نفسه وهو بزي عربي سقط متاع ـ وذلك بتجاوز الواقع المثير لكن غير المقبول. فعلى السطح كان هو الإنسان المتساهل اللامبالي الذي كان يدعوه فاسكو «بالسطحي»، لكن تحت ذلك، كان يحكم عالماً سفلياً «موغامبوشياً» أكثر ألقاً من أي فيلم خيالي من إنتاج السينما الهندية.

إذ بعد أن استقر في بومباي مباشرة قام بزيارة حج واحترام للعجوز ساسون، رأس العائلة اليهودية البغدادية الكبيرة التي كانت لها صلات وثيقة مع ملوك انكلترا، تتزاوج مع عائلة روتشيلد وتهيمن على المدينة طوال مئة عام. لقد وافق الأب الكبير على استقباله، لكن فقط في مكاتب ساسون وشركائهم في القلعة، ليس في المنزل وليس كنظير، لكن كملحق انضم أخيراً للأثرياء جاء من الأطراف، هكذا دخل أبراهام إلى حضرته. «البلاد على وشك أن تصبح حرة» قال العجوز له، مبتسماً بكل سلامة نية، «لكن عليكم أن تقدروا، أنتم آل الزغبي، أن بومبابي بلدة مغلقة».

ساسون، بيرلا، كاما، واديا، بهابها، واشا.... إلخ ـ هذه الأسماء الكبيرة كانت تمسك بإحكام بالمدينة، بمعادنها الثمينة والصناعية بكيماوياتها، بنسيجها وتوابلها، ولم يكن لديها نية، على ما يبدو، لإرخاء تلك القبضة. مشروع غاما ـ الزغبي كان له قدم راسخة في المنطقة الأخيرة من تلك المناطق، وفي كل مكان كان يذهب، كان أبراهام يلقى الشاي أو «الشراب البارد» والحلويات، مع الترحيب الحار، ثم في النهاية سلسلة من التحذيرات اللطيفة ظاهرياً لكن الجدية كالجليد للابتعاد عن البقاع الأخرى التي يضع عينه عليها من أجل إقامة مشاريع، لكن بعد خمس عشرة سنة فقط، عندما كشفت المصادر الرسمية أن واحداً ونصفاً بالمئة فقط من شركات البلاد تملك ما يزيد عن نصف رأس المال الخاص كله، وأنه حتى ضمن هذه النخبة التي تشكل واحداً ونصفاً بالمئة، هناك فقط عشرون شركة تهيمن على البقية، وضمن هذه العشرين، هناك أربع مجموعات كبرى تتحكم، فيما بينها، بربع رأس المال الخالص في الهند كله، فيما شركة غاما ـ الزغبي، سي 50، كانت قد ارتفعت من قبل إلى الرقم 5.

إذ كان قد بدأ بدراسة التاريخ، ذلك أن هناك غموضاً وبائياً معيناً حول موضوع الزمن الماضي، اسأل رجلاً كم صار له في عمله،

سيجيبك: «مدة طويلة» ـ حسن يا سيد، كم عمر بيتك؟ ـ «قديم، من زمن قديم» ـ أرى ذلك، وجدك الأكبر، متى ولد؟ في وقت ما في الماضي. ما الذي تسأل عنه؟ حروف ميتة كهذه فقدت في الضباب القديم. «السجلات مربوطة بشريط في غرفة المحفوظات العتيقة ولا أحد يدخل إليها. بومباجي، المدينة الجديدة نسبياً في أرض بالغة العتق، لا تهتم بالأمس. «لذلك، إن كان اليوم والغد في حالة تنافس،» كان أبراهام يفكر، «دعني أبدأ استثماري الأول في مالا أحد يقدره حق قدره، أي ما مضى». ولقد كرس الكثير من الوقت والكثير من الموارد لكي يدرس دراسة وثيقة تاريخ العائلات الكبرى، وينبش أسرارها، ولقد علم بدءاً من تاريخ أزمة القطن أو الفقاعة في ستينات القرن التاسع عشر، أن الكثير من الكبار تحطموا تماماً، في وقت المضاربات ذاك، أما بعده فإن صفقاتهم اتسمت بالحذر ـ الشديد والتحفظ. «لذلك ربما هناك فجوة،» افترض أبراهام، «في نطاق المغامرة، ولا أحد سوى الشجاع يستحق الجائزة». لقد تعقب تاريخ تلك البيوت الكبيرة وشبكات ارتباطاتها، كما فهم كيف كانوا يحركون الخيوط، كذلك اكتشف أية امبراطوريات كانوا قد بنوا على الرمل. لذلك، عندما تولى، في أواسط خمسينات القرن العشرين مضارباته المعاكسة لبيت كاشوندليفري، الذي كان قد بدأ كمؤسسة لإقراض الأموال ثم تطور خلال قرن من الزمن طبعاً لأن يصبح مؤسسة عملاقة ذات امتدادات واسعة في المجال المصرفي، الأراضي، السفن، الكيماويات والأسماك، فذلك، لأنه اكتشف أن العائلة الفارسية القديمة كانت في الصميم تعاني من حالة انهيار نهائي. «وعندما يكون الفساد في حالة من التقدم» كتب في دفتر ملاحظاته، «حين يكون تسوس السن قد بلغ حده الأقصى لا يظل أمام السن إلا أن تقلع بسرعة مضاعفة، أو أن كل الجسم سيعاني من الألم ويموت». فمع كل جيل من عائلة كاشو ندليفري، كان مستوى الرجال البارعين ينحدر بحدة، إلى أن

وصل إلى الجيل الحاضر حيث لا يهتم الأخوان فيه إلا باللهو والمتعة وحيث تعرضا لخسائر قمار كبيرة في الملاهي إضافة إلى أنهما كانا أحمقين إلى حد أنهما تورطا في فضائح رشوة نتيجة محاولاتهما تصدير طرائق الأعمال الهندية بشكل ما وعلى نحو فج للغاية إلى الأسواق المالية الغربية التي تتطلب معالجة أكثر حنكة وذكاء. كل هذه المعلومات نبشها أعوان أبراهام بكل جد ودأب من خزائنهم، ثم مشى ذات صباح جميل أبراهام إلى الحرم الداخلي لبيت كاشوندليفري ثم بشكل مباشر تماماً وفي وضح النهار ابتز الشابين الشاحبين اللذين لم يعودا شابين تماماً واللذين وجدهما على استعداد للخضوع مباشرة لطلباته الكثيرة والدقيقة. إذ بدا أن وارثي البيت الذي كان قوياً ذات يوم ضعيفان للغاية، وبدا الأخوان لجي وجاميبهوي وكأنه يسعدهما أن يبيعا، كما باعا حق مولدهما، كل شيء لكي يتحررا من المسؤوليات التي لم يكونا معدين تماماً لتحملها، «بالطريقة التي لا بد أن الأباطرة الفرس شعروا بها ولا بد حين هدرت جيوش الإسلام وهي تدخل»، كما كان أبراهام يحب أن يقول.

لكن أبراهام لم يكن محارباً في سبيل إيمان، لا يا سيد. فذلك الرجل الذي كان له هيئة عدم الفعالية في حياته المنزلية، بل حتى هيئة الضعف، جعل من نفسه، بالواقع، قيصراً حقيقياً، ملكاً للهشاشة البشرية. ترى هل يصدمك أن تعرف أنه خلال بضعة أشهر من وصوله إلى بومباي كان قد بدأ يتاجر باللحم البشري؟ أنا صدمني ذلك، أيها القارئ. والدي، أبراهام الزغبي؟ ـ أبراهام الذي كانت قصة حبه شيئاً ذا عاطفة رفيعة ورومانسية إلى حد كبير؟ ـ أنا أخشى ذلك، أخشى الشيء ذاته، فوالدي الذي لا يغفر له، أنا غفرت له... إذ قلت مرات كثيرة من قبل إن الزوج المحب أيضاً، المحامي غير المتذمر لأعظم فنانينا الحديثين، كان فيه منذ البدء جانب أكثر اسوداداً، رجل يشق طريقه بالتهديد والإرغام، لقباطنة السفن النافرين، ولملوك وسائل الإعلام أيضاً. هذا الأبراهام سعى

باستمرار ثم توصل إلى ترتيبات مرضية لكلا الطرفين، مع تلك الشخصيات ـ ولندعُها التجار السود ـ التي تشتغل بالتهديد، تهريب الوسكي والجنس أيضاً، مخلصين لعلمهم ذاك إخلاص آل ساسون وتاتا لتجارتهم المحترمة أكثر، تجارة «السوق البيضاء». لقد اكتشف أبراهام أن بومباي في تلك الأيام كانت شيئاً آخر غير «المدينة المغلقة»، كما وصفها ساسون العجوز. وبالنسبة إلى رجل مستعد لأن يخاطر، لأن يتخلى عن الشكوك ـ من أجل تاجر سوق سوداء، لفترة قصيرة ـ كانت بومباي مدينة واسعة، مفتوحة تماماً، الحد الوحيد للمال الذي يمكن كسبه إنما هو الحد الذي يصل إليه خيالك.

المزيد سيقال فيما بعد عن رئيس العصابة المسلم، «سكار» الذي لا أتجرأ على ذكر اسمه الحقيقي هنا، قانعاً بتلك «الكليشة» المخيفة لاسم كان معروفاً به في العالم السفلي للمدينة وما بعده ـ كما سنرى ـ في النهاية. في الوقت الحاضر سأقنع بأن أسجل أنه كنتيجة للتحالف مع هذا السيد، كسب أبراهام «الحماية التي كانت منذ البداية السمة المطلوبة لنموذج أعماله المفضلة». مقابل هذه الحماية، أصبح والدي، وبقي سراً خلال حياته الطويلة والرديئة، الممول الرئيسي للبيوت التي كان أناس «سكار» يدعمونها بكفاءة شديدة، بالفتيات وكذلك للملاهي الرخيصة في بومباي.

«ما ذلك؟ ـ من أين كان يأتي بهن؟ ـ من معابد جنوب الهند، ويؤسفني أن أقول ذلك، خاصة من تلك المعابد المكرسة لعبادة إلهة تدعى كرناتاكا وإلهة تدعى كيلاما، وكلتاهما بدت عاجزة عن حماية «تلميذاتها» الشابات الفقيرات... إنها مسألة سجل، ونحن في عصرنا المؤسف، بتحيزه لصالح الأطفال الذكور. فالكثير من الأسر الفقيرة تهب لمعابدها الدينية المفضلة بناتها اللائي لا تستطيع تحمل نفقات إطعامهن أو زواجهن، على أمل، أن يتمكن من العيش في تلك الأماكن المقدسة كخادمات لها، أو إذا واتاهن الحظ، أن يعملن كراقصات. آمال عبثية، وا

أسفاه، ذلك أنه في كثير من الحالات، كان الرهبان المسؤولون عن تلك المعابد رجالاً يفتقدون لأبسط معايير الاستقامة والأمانة، كما يضعفون حين يتعرضون لعروض مال تقدم مقابل العذراوات الصغيرات اللواتي لم يعدن عذراوات تماماً ثم عدن عذراوات مرة ثانية، واللواتي هن في عهدتهن. وهكذا كان أبراهام، تاجر التوابل، قادراً على استخدام علاقاته الجنوبية الواسعة ليحصد غلالاً جديدة، ويُدخل في أشد دفاتره سرية تسجيلات بضاعة من نوعية عالية تحت اسم «غرام مزالا عالي النوعية»، كذلك، وكما لاحظت بانزعاج، تحت اسم «فلفل حار للغاية: أخضر».

وهكذا، من خلال شراكته السرية مع «سكار»، أتيح لأبراهام الزغبي أيضاً أن يدخل في صناعة مسحوق «التالك».

* * *

إنه سليكات المغنزيوم المجفف المبلَّر بصيغته Mq3si4O10 (OH2): هذا التالك. وذات صباح سألته أورورا على الإفطار، لماذا سيعمل في مسحوق لأقفية الأطفال، فذكر الفائدتين الاثنتين للاقتصاد المحمي، الذي فرض رسوماً عالية لحماية الإنتاج المحلي ومنع استيراد التالك الخارجي، وكذلك الانفجار السكاني يضمن بقاء «الازدهار» لهذه التجارة. لقد تكلم بحماسة عن الإمكانية العالمية للإنتاج، على نحو يميز الهند كاقتصاد وحيد في العالم الثالث قادر على منافسة العالم الأول في ارتقاء سلعة ونموها دون أن تصبح مستعبدة بالضرورة للدولار الأمريكي كلي القوة، كما قال إن الكثير من بلدان العالم الثالث الأخرى ستغتنم الفرصة لشراء مسحوق التالك عالي النوعية دون أن يطلب منها أن تدفع بالدولار، وفي الوقت الذي بدأ يفترض فيه أن هذه المادة الناعمة الخاصة بالأطفال، التي وسمها باسم «جونسون وجونسون» يحتمل قريباً جداً أن تدخل أسواقهم الوطنية، كفت أورورا عن الاستماع. وحين بدأ يغني أغنية الدعاية الخاصة بها، التي بدأ بها صفير تنفسه الجديد،

وكذلك الأغاني التي ألفها شخصياً ووضع لها لحناً يجنن باسم «الطفل الناعم»، فإن أمي صارت تسد أذنيها.

«الطفل الناعم، غنٍّ أعلى، مسحوق التالك، ناعم، ناعم»: كان أبراهام يغني.«التالك، يمكنك أن تصنعه أو لا تصنعه» صرخت أورورا، «لكن كف عن هذا الغناء. إنه يثقب طبلة أذني».

وإنني لأتساءل، وأنا أكتب هذا، عن عدم رغبة أورورا في أن ترى كم من المرات، وكيف بصورة عرضية، كان أبراهام يخدعها، كما أتعجب من الأشياء التي كانت تقبلها دون سؤال، لأنه، بالطبع، كان يكذب، ولأن المسحوق الأبيض الذي كان مهتماً به، لم يكن يأتي من مقالع «غاتز» الغربية بل كان يشق طريقه إلى علب «الطفل الناعم» عبر طريق غير عادي إلى أبعد الحدود يشتمل على قوافل شاحنات من أماكن منشأ مجهولة وتدفع عليها رشوات كبيرة لرجال الشرطة وللعاملين في مراكز رسم الدخول على طول طرق الشاحنات في شبه القارة. هذه العلب الصغيرة القليلة نسبياً كانت تنتج، على مدى سنوات، دخلاً يقوم على أساس التصدير فاق إلى حد بعيد بقية مرابح الشركة الأخرى، وجعل بالإمكان إحداث تنوع للشركة واسع المدى- لكنه الدخل الذي لم يعلن أحد عنه والذي لم يظهر في أي دفتر من دفاتر الشركة السرية سوى ذلك الذي خبأه أبراهام في مكان شديد السرية، وربما في تجويف من تجاويف روحه الفاسدة الأشد ظلمة.

المدينة نفسها، وربما البلاد كلها، كانت نوعاً من اللوح الذي يكتب عليه ويمحى: عالم تحتي تحت عالم فوقي، سوق سوداء تحت سوق بيضاء، وعندما تكون الحياة كلها على هذه الشاكلة، عندما يتحرك الواقع غير المرئي تحرك أشباح تحت خيال مرئي، قالباً كل معانيه، كيف إذن لحياة أبراهام المهنية أن تكون شيئاً مختلفاً؟ كيف يمكن لأي منا أن يفترض وجود تلك الطبقات القاتلة؟ كيف يمكننا اختراق أبراهام الباكي،

هو الذي وقع في الشرك، كما كنا نحن بنسبة مئة بالمئة صورة مزيفة عن الواقع، وبلباس من خيال، نتجاوز سطحه الزائف كي نصل إلى الحقيقة المحسوسة الكاملة للأم المفقودة في الطبقة التحتية؟ كيف يمكننا أن نعيش حياة سرية سليمة؟ وكيف يمكن أن نفشل في أن نكون مغايرين لكل ما هو طبيعي؟

إنه لواضح لي الآن، وأنا أنظر إلى الوراء، أن الشيء الوحيد الخطأ الذي قاله فاسكو ميراندا ليلة الاستقلال، والمتعلق بأن قوة الفساد نظيرة لقوة الآلهة، هو أنه كان لطيفاً في صياغته. بالطبع كان أبراهام الزغبي يعلم جيداً أن محاولة الرسام السكران للإتيان بنقد متوهج، كانت بالحقيقة حطاً من قدر الحالة.

«أمك وحشدها الفني كانوا دائماً يتذمرون، كم من الصعب أن يصنعوا شيئاً من لا شيء»، كان أبراهام يعترف بجرائمه في شيخوخته، لما هو أكثر من التسلية، ترى، ماذا كانوا يصنعون؟ لوحات! لكن.. أنا.. أنا، أنا، الذي جاء بمدينة كاملة من لا شيء! الآن، أنت احكم: أيهما الخدعة السحرية الأصعب؟ تلك الآتية من قبعة أمك العزيزة الساحرة التي خرج منها الكثير من المخلوقات الجميلة، أم مني، أنا السيد كينغ كونغ!».

فخلال العشرين سنة الأولى من حياتي، كانت طرق جديدة للأرض ـ «شيء من لا شيء» تستصلح على حساب بحر العرب في الطرف الجنوبي للخليج الخلفي لشبه جزيرة بومباي، وكان أبراهام قد استثمر بشكل مكثف في هذه الانتفاضة المضادة ـ للأطلنطي الخارج من الأمواج. ففي تلك الأيام كان هناك كلام كثير عن تخفيف الضغط عن المدينة المزدحمة كثيراً بتحديد مدى وارتفاع الأبنية الجديدة في منطقة الاستصلاح، وكذلك عن بناء مركز جديد للمدينة على البر عبر الماء. لقد كان مهماً بالنسبة لأبراهام أن يفشل هذا المخطط ـ كيف يمكنني أن أدعم قيمة عقارات، سبق أن غرق لي فيها الكثير من الممتلكات؟ سألني، ناشراً ذراعيه الأشبه بالهيكل

العظمي على سعتهما، كاشفاً عن أسنانه، بابتسامة كانت ذات مرة ساحرة، لكن الآن، وفي شبه الظلمة لمكتبه العالي فوق شوارع المدينة، فقد أعطت لوالدي التسعيني مظهر الجمجمة النهمة.

لقد وجد حليفاً عندما ارتفع كيران (أوكيكي) كولاتكار، وهو سياسي أسود جاحظ العينين من أورانغباد، وأقسى الرجال القساة الذين ترأسوا بومباي على مر السنين، وهيمن على مجلس البلدية.

«فكولاتكار هو الرجل الذي كان بإمكان أبراهام الزغبي أن يشرح له مبادئ الإخفاء عن النظر، تلك القوانين الخفية للطبيعة التي لا يمكن أن تقلبها قوانين الإنسان المرئية. لقد شرح أبراهام كيف للأرصدة غير المرئية أن تجد طريقها عبر سلسلة من الحسابات المصرفية غير المرئية وتنتهي، مرئية ونظيفة مثل صافرة، في حساب صديق من الأصدقاء. كما تبين كيف للإخفاء المستمر للمدينة ـ الحلم من خلال الماء أن ينتفع من أولئك الأصدقاء الذين يمكن أن يكون لهم، أو يكتسبوا بالصدفة، حصة في ما كان حتى ذلك الحين غير مرئي، لكنه ظهر حينذاك على شكل فينوس بومباي من البحر. كذلك تبين له كم من السهل إقناع أولئك المسؤولين الجديرين الذين كان عملهم أن يشرفوا ويحددوا عدد وارتفاع الأبنية الجديدة في أراضي الاستصلاح التي كانت ستغدو ذات فائدة كبيرة لو أنها تغيب عن أنظارهم ـ مجازياً، طبعاً، يا غلام ـ ذلك فقط مجاز كلامي، فلا تظن أننا أردنا أن نقلع عين أحد، ليس مثل شاه جيهان مع توم ذلك البصاص الذي أراد أن يرى نظرة عامة شاملة لـ «تاج محل» ـ بحيث أن الحشود الكبيرة للصروح الجديدة يمكن عملياً أن تبقى غير مرئية لدى التفحص العام، وتحلق في السماء عالياً، كأعلى ما يمكن للمرء أن يرغب. مرة ثانية، وبسرعة بالغة، فإن الأبنية غير المرئية ستصنع جبالاً من المال، وستصبح العقارات الأغلى ثمناً على الأرض، إنها شيء من لا شيء، أعجوبة، وكل الأصدقاء الذين يساعدونك في ذلك سيكافؤون على أتعابهم».

وكان كولاتكار تلميذاً نجيباً، بل توصل لأن يكون له إلهامه الخاص. لنفترض أن هذه الأبنية غير المرئية يمكن بناؤها بيد عاملة غير مرئية؟ ألا يكون ذلك ذا نتائج مريحة واقتصادية أكثر؟ «طبعاً، أنا موافق»، اعترف أبراهام العجوز. «فكيكي ذلك الرأس الصغير كالرصاصة، دخل اللعبة». في الحال أصدرت سلطات المدينة مرسوماً بأن الأشخاص الذين جاؤوا إلى بومباي عقب الإحصاء الأخير يعتبرون وكأنهم غير موجودين. ولأنه تم إلغاء وجودهم، فقد تبع ذلك أن المدينة لا تتحمل مسؤولية إسكانهم أو تأمين مصالحهم، الأمر الذي جاء بمثابة إنعاش مرحَّب به لأولئك المواطنين الشرفاء والموجودين ـ فعلاً، الذين يدفعون ضرائب للحفاظ على المدينة الديناميكية المشوشة. مع ذلك، ما كان بالإمكان نكران أن الحياة بالنسبة للمليون شبح أو أكثر الذين أوجدهم ذلك القانون، ستكون أصعب، ذلك ما توصل إليه أبراهام الزغبي وكل أولئك الذين استغلوا فرصة استصلاح أراضٍ من البحر، فاستأجروا بكل أريحية أشباحاً بقدر ما استطاعوا كي يعملوا في تشييد المواقع الضخمة التي ظهرت في كل بوصة من الأرض الجديدة، بل ذهبوا أبعد حتى ـ يا للناس المحبين للخير المحسنين! ـ فدفعوا لهم مبالغ نقدية لقاء عملهم. «إذ ما من أحد كان قد سمع في حياته بالدفع لأشباح، إلى أن بدأنا نحن تلك الممارسة،» قال أبراهام العتيق ورئتاه تصفران صفيراً. «لكن بالطبع، نحن لم نكن نتحمل أية مسؤولية في حال المرض أو الإصابة. إذ أن ذلك سيكون، إن تتابع فكرتي، غير قانوني. فبعد كل شيء، لم يكن أولئك الأشخاص غير مرئيين وحسب، بل عملياً وبالنسبة إلى الإعلانات الرسمية، لم يكونوا موجودين على الإطلاق».

لقد كنا نجلس في الظلمة الكثيفة للطابق الحادي والثلاثين، من جوهرة بومباي الجديدة، بناية بيي، برج كاشند يليفري، ومن النافذة، كان باستطاعتي أن أرى غرف كيكي المندفعة كالرمح مخترقة الليل.

حينذاك نهض أبراهام وفتح الباب، فتدفق النور إلى الداخل وارتفعت أصوات الموسيقى والأنغام. ثم قادني إلى ردهة كبيرة، فيها أشجار ونباتات من مناخات أكثر اعتدالاً من مناخنا ـ إذ كان منها أشجار تفاح، ودوالي عنب أيضاً ـ وكلها تحت الزحام، تنمو في شروط مثالية من درجة حرارة ورطوبة، بواسطة منظومة تتحكم ـ بالمناخ كلفتها فوق ما يتصور الخيال، لو لم تكن غير مرئية، إذ، بالمصادفة السعيدة، ما من فاتورة كهرباء كانت تقدم لأبراهام من أجل دفعها. من هذه الردهة تأتي ذكراي الأخيرة عنه ـ عن والدي العجوز، العجوز، الذي كنت وأنا أخطو إلى الثانية والسبعين، في عمر السادسة والثلاثين، قد بدأت أشبهه أكثر فأكثر، أبي الأفعواني الذي لا يعرف الندم والذي كان يعيش في ما يشبه جنة عدن في غياب أورورا والإله.

«لكن، الآن، أشعر أنني انتهيت، فكل شيء ينقسم إلى نصفين في يدي. والسحر يتوقف عن العمل عندما يبدأ الناس برؤية الخيوط. إلى الجحيم. لقد عشت حياة جميلة لعينة، وكان لي تفاحة لعينة».

(12)

كنت أنمو في كل الاتجاهات، شئت أم أبيت، والدي كان كبير الحجم، لكن في سن العاشرة، كان منكباي قد صارا أعرض من معطفه، كنت ناطحة سحاب تخلصت من كل القيود القانونية، مجموعة سكان في شخص واحد، انفجار مدينة ضخمة، رجلاً يتفتق عنه القميص، «هالك» يقطّع أزراره. «انظر إلى نفسك». كانت أختي الكبرى إينا تتعجب عندما بلغت ارتفاع قامتي الكامل وعرضها، «لقد أصبحت مثل عملاق السيد غوليفر في رحلاته ونحن أقزامه». وكان ذلك صحيحاً على الأقل في هذا الجانب، أي لو أن مدينتنا بومباي لم تكن تحكمني شخصياً، بل الأقزام هم الذين يحكمونني، إذن لكان حجمي الكبير قد أفلح بالحقيقة في ربطي بالأسفل.

إذ بقدر ما كانت حدودي الجسدية تتسع، كانت آفاقي تتحدد أكثر. فالتعليم كان مشكلة. إذ أن كثيراً من الصبيان من «عائلات جيدة» في «تل ملابار»، و«نقطة الفضيحة» و«خليج رولسينغهام»، بدؤوا تعليمهم في مدرسة الآنسة غنري، وهي عبارة عن حضانة وابتدائية للصغار، قبل أن يذهبوا إلى كامبيون أو الكاتدرائية أو إحدى المؤسسات الأخرى التي تعلم أولاد النخبة في المدينة. لكن «غنري» الخرافية بما فيها من أبواق ومراوح فخمة رفضت قبولي وأنا في حالتي تلك. «إنه أكبر بكثير من طفل حضانة،» شخطت في وجه أمي، في نهاية المقابلة التي عاملتني فيها أنا ابن السنوات الثلاث والنصف وكأنني ابن سبع سنوات. «أما بالنسبة للمدرسة الابتدائية، فيؤسفني أن أعلمك، أنه دون العادي». فاشتعلت أمي ناراً «ومن لديكم يا ترى في صفوف المدرسة؟» تساءلت «آينشتاين، أليس كذلك؟ ألبرت الصغير وألبرتينا، ولا بد؟ مدرسة بكاملها ملأى بالمغفلين؟»». لكن «غنري» ما كانت لتتزحزح قيد أنملة. لذلك كان قدري أن أتعلم في المنزل بسلسلة من المعلمين الذكور تتابعوا على تعليمي، إذ

كان بعضهم لا يستمر أكثر من بضعة أشهر. وأنا لا أحمل لهم أي حقد، ذلك أنهم كانوا يواجهون، مثلاً بابن ثماني سنوات، قرر، بسبب صداقته مع الرسام ف. ميراندا، أن يطلق شارباً مستدق الطرفين، مشمعاً كلياً، فكانوا، وبيدهم حق، يهربون. ورغم كل جهودي لأن أستوي شخصية لطيفة أنيقة، مطيعة، معتدلة، غير استثنائية إلا أنني بكل بساطة كنت أبدو غريباً بالنسبة لهم، إلى أن جاء لتعليمي ولأول مرة، امرأة. أوه يا ديلي هرمز، يا ذات الذكريات الحلوة! نظاراتها الكثيفة الأشبه بنظارات الآنسة غنري، كان لها زعانف، أو أجنحة، لكن أجنحة ملائكة. إذ جاءت في مطلع 1967 برداء أبيض وجوارب تصل إلى الكاحلين، شعرها مجدول على شكل أذناب رقيقة، كتبها مضمومة إلى صدرها، وعيناها تعانيان من قصر النظر وتطرفان باستمرار كما أنها تثرثر بعصبية، كذلك بدت عند النظرة الأولى أشبه بالصغار أكثر مما هي بالواقع. لكن ديلي كانت تستحق نظرة ثانية، لأنها هي أيضاً كانت متنكرة، إذ كانت تلبس حذاء مسطحاً وتمارس الانحناء الذي تمارسه كل البنات الطويلات ويتعلمن به إخفاء طولهن، لكنها سرعان ما بدأت، حين صرنا وحيدين، تفك التفافاتها ـ آه يا للطول الرائع الواهن، بدءاً من رأسها المائل للصغر وحتى قدميها المتشكلتين على شكل الحذاء، لكن الكبيرتين أيضاً! ـ إذ حتى بعد هذه السنوات كلها تولّد ذكراها في جسدي حرارة أحمر لها خجلاً نتيجة الشوق والحنين ـ فقد بدأت تتمدد. وديلي المتمددة ـ حين تدعي أنها تريد الوصول إلى كتاب، مسطرة، قلم، تكشفت لي، ولي وحدي، عن امتلاء في الجسد تحت الرداء ثم سرعان ما بدأت تعود، بنظراتها المستوية التي لا تطرف، فتاتي الفجة ذات العينين كعيني ـ البقة. ديلي الجميلة ـ إذ عندما صرنا وحيدين وأرخت شعرها على كتفيها، عندما خلعت نظارتيها لتطرف بعينيها الشاردتين، العميقتين، الساحرتين في وجهي، كانت نظراتها الحقيقية سافرة ومباشرة ـ تنظر طويلاً وبعمق ببؤبؤيها الجديدين وتتنهد.

«رجال بعمر عشر سنوات» قالت برقة أول مرة ننفرد بها معاً. «فرخ رجل! إنك الأعجوبة الثامنة،» ولا خطأ في ذلك. بعدئذ، أتذكر دورها التعليمي، حين بدأ درسها الأول بجعلي أتعلم عن ظهر قلب، عجائب العالم القديمة السبع والعجائب الحديثة السبع، لأذكر، كما فعلت هي، القرابة المثيرة للاهتمام بين تل ملابار الذي هو أنا (السيد الضخم الصبي) وبين الحدائق المعلقة، وكأن العجائب كانت تتجمع هنا، وتتخذ الشكل الهندي.

كما يبدو لي الآن أن في ذاتي الفتية تلك، في ذلك الوحش المخيف الذي كان فيه عقل الطفل الذي ينظر إلى الخارج محتاراً مرتبكاً عبر بوابات الجسد الجميل للفتى الصغير (إذ رغم يدي، وكل شعوري بالاشمئزاز من نفسي وحاجتي للراحة، كانت ديلي ترى فيّ الكثير من الجمال، ذلك الجمال الذي هو لعنة عائلتنا). فقد وجدت معلمتي الآنسة هرمز نوعاً من التحرر الشخصي، وهي تدرك أني لها، تأمرني كطفل، كذلك ـ وهنا أغامر بخوض ماء خطر ـ لها بأن تلمس رجلاً ويلمسها رجل.

أنا لا أتذكر الآن، كم كان عمري (رغم أنني بالتأكيد كنت قد حلقت شاربيّ الفاسكويين) حين توقفت ديلي عن التعجب ببساطة من جسدي وبدأت، بشيء من التخوف في البداية، ثم بحرية متزايدة، تداعبه. لقد كنت داخلياً في عمر بدت فيه تلك الحركات وكأنها حركات حب بريء، حب كنت جائعاً له جوع الذئاب، أما خارجياً فكان جسدي قد أصبح قادراً على الاستجابة استجابة الكبار التامة. ولا تلوموها، لأنني لا أستطيع لومها، فقد كنت أعجوبة عالمها، وكانت بكل بساطة مسحورة بتلك الأعجوبة.

ما يقارب الثلاث سنوات استمرت دروسي في إليفانتا، وخلال تلك الأيام الألف ويوم واحد، كانت هناك حدود يفرضها المكان والخوف من أن يمسك بنا أحد بالجرم المشهود. لذا امتنعوا، إن أردتم، عن سؤالي إلى أي مدى وصلت مداعباتنا تلك، وعن إجباري، من خلال التذكر، على التوقف مرة ثانية، على الحدود التي لا نملك جوازات سفر

لاجتيازها! فذكرى ذلك الزمن تبقى ألماً يقطع الأنفاس، تجعل قلبي يدق، إنها الجرح الذي لا شفاء له. لأن جسدي عرف ما لم يكن يعرف، ورغم أن الطفل كان يجلس نصف ـ متحير في سجن جسده، فقد كانت شفتاي، لساني، أطرافي قد بدأت بالعمل، بفضل خبرتها وقدرتها على التعليم، بصورة مستقلة تماماً عن عقلي، بل في بعض الأيام المباركة، حين كنا نشعر بالأمان، أو حين كان ما يدفعنا لذلك أكبر من أن نعود لنهتم بالخطر كالمجانين، فإن يديها، شفتيها، نهديها كلها كانت تحرك في حقويَّ من الحرارة ما يحمل لي الكثير من الراحة والانتعاش.

في بعض الأيام، كانت تأخذ يدي ـ الدبوس وتضعها هنا وهناك. فقد كانت الكائن البشري الأول الذي جعلني أتلمس، في تلك اللحظات المختلسة، كل... ومعظم الوقت، بغض النظر عما إن كان جسدها قد التحم بجسدي، أم لا، إذ تظل متدفقة بتيار مستمر من المعلومات. لم نكن نثرثر ثرثرات العشاق، بل إن معركة «سريرانغا باتمان» والصادرات الرئيسية لليابان هي كل فاتورتنا وهديلنا.

وبينما كانت أصابعها المتحركة ترفع حرارة جسدي إلى درجات لا تحتمل، كانت تبقي الأمور قيد السيطرة من خلال إجباري على سرد جدول الضرب للمرة الثالثة عشرة أو تعداد تكافؤات كل عنصر في الجدول الدوري. إذ كانت ديلي فتاة لديها الكثير مما تقوله، وقد عدتني بالثرثرة التي لا تزال حتى اليوم، تحمل لي شحنة جنسانية قوية. فحين أثرثر أو يثرثر لدي آخرون، أجدها ـ كيف أقول ذلك ـ مثيرة. وغالباً ما أضطر في حمى الثرثرة لأن أضع يدي في حرجي لكي أخفي التحركات هناك عن أعين أصحابي الذين قد تحيرهم إثارة كهذه، أو من المحتمل أكثر، أن تسليهم. وحتى الآن، لم تحصل لدي رغبة في أن أصبح مصدر تسلية كهذه. لكن كل ما يجب أو سوف يقال، الآن: قصة حياتي هي أن النسيج ذا القابلية للانتصاب، يكاد يفسد.

كانت ديلي هرمز عانساً ربما في الخامسة والعشرين من عمرها عندما التقينا وفي أواسط ثلاثيناتها عندما افترقنا. وكانت تعيش مع أم ضئيلة الحجم كبيرة السن، عمياء كالحجر، تجلس في الشرفة طوال النهار تخيط مضربيات. فأصابعها، أصابع خياطة الإبرة توقفت منذ زمن طويل عن أن تكون بحاجة لمساعدة بصرها. ترى كيف كان بإمكان امرأة ضئيلة هشة كهذه أن تنجب ابنة طويلة وشهوانية للغاية. كنت دائماً أتساءل، وحين صرت في الثالثة عشرة تم الاتفاق على أنني صرت بعمر كافٍ لأن أذهب إلى بيت ديلي كي أتلقى دروسي، إذ أن الخروج من المنزل سيعود علي بالفائدة. فكنت في بعض الأيام أتخلى عن السيارة، آمراً السائق بالذهاب ثم أمشي ـ أو عملياً أثب وثباً ـ منحدراً التل لكي أراها، وهي تمر بالصيدلية القديمة الفخمة في زاوية كيمب ـ بيد أن هذا كان قبل زمن طويل من تحولها إلى مخزن للألبسة، كما هو اليوم ـ ودكان الحلاق الملكي (حيث كان السيد الحلاق بحاسة ذوقه المنقسمة إلى شطرين، يقوم بتطهير الأولاد كعمل جانبي). كانت ديلي تعيش في الأعماق المتقشرة المظلمة لبيت بارسي رمادي عتيق، كله شرفات وملتفات، يقع في طريق غوالبا، على بعد بضعة أبواب من مخازن فيجاي، تلك المخازن الخارقة للطبيعة، التي يمكنك فيها أن تشتري كلاً من الزمان، الذي تلمّع به أثاثك الخشبي، والأمل الذي يمكنك به أن تمسح إستك. ونحن آل الزغبي اعتدنا أن ندعوها مخازن جايا، تيمناً باسم مربيتنا الآنسة جايا هيي التي كانت تذهب إلى هناك لتشتري لنفسها علب «الحياة» الصغيرة تلك التي في داخلها عيدان لتنظيف الأسنان، و«الحب» الذي كانت تحنّي به شعرها...، بقلب يغرد وشعور أشبه بالنشوة، كنت أدخل إلى بيت ديلي، تلك الشقة الصغيرة التي يبدو عليها الفقر لكن مازال فيها الكثير من الذوق والنبالة. فحضور بيانو الأطفال الفخم في الغرفة الأمامية، والصور الضوئية ذات الأطر الفضية فوقه، صور آباء في قبعات كأحواض الزهور وامرأة جميلة شابة، تبين أنها السيدة هرمز العجوز ذاتها،

إنما كان يدل على أن عائلتها عرفت في الماضي أياماً أفضل وأشبه بمهارة ديلي في اللاتينية والفرنسية ـ لغة، أدب، قبل، رسائل، مسرات عصر منقوعة بالعرق من الخامسة إلى السابعة ـ آه، ديلي، لقد تعلمت ذلك كله منك... مع ذلك، كانت المرأتان محكومتين بأن تعيشا حياة التعليم الخاص والمضربيات. وهذا يفسر لماذا كانت ديلي في حالة من الجوع الشديد للرجال الذي وجدته، في صبي مفرط النمو، لماذا كانت تقفز إلى حرجي، مفرشخة ساقيها لصبي مفرط النمو، لماذا كانت تعض شفتي: «لقد نزعت سروالي، يا رجل، الآن، أرى حبيبي فقط، ولا شيء سواه».

* * *

هي بالحقيقة حبي الأول، لكنني أظن أنني لم أحبها. أنا أعلم ذلك لأنها جعلتني أسر من حالتي، أسر من أن شكلي الخارجي كان أكبر مما يمكن أن تسمح به سنوات عمري. إذ كنت ما أزال طفلاً، لذلك أردت من أجلها أن أهرول باتجاه النضج بأقصى سرعة ممكنة. أردت أن أكون رجلاً من أجلها، رجلاً حقيقياً، لا صورة زائفة عن الرجولة، وإن كان ذلك يعني التضحية بأكثر حتى من الفسحة الزمنية المتاحة لي أصلاً، إذن كنت سأقوم بتلك التضحية وأعقد تلك الصفقة الشيطانية من أجلها هي المباركة. لكن عندما جاء الحب الحقيقي، ذلك الشيء الكبير العظيم نفسه، مباشرة بعد ذهاب ديلي، كم شعرت بالمرارة حينذاك، وكم كرهت حظي! بأي جوع وأي غضب صرت أحن لإبطاء دقات ساعتي السريعة للغاية، تلك الساعة الداخلية غير المبالية. ديلي هرمز لم تهز في داخلي قناعة الطفل بخلوده الخاص، وهو يفسر لماذا كان بإمكاني أن أرغب بطرح سنوات طفولتي. لكن أوما، آه، أوماي، حين أحببتها جعلتني أسمع وقع خطا الموت الصاعقة وهي تجري باتجاهي، حينذاك، أوه، حينذاك، سمعت كل حزة قاتلة من حزات نصله.

* * *

لقد كنت أنمو نحو الرجولة تحت يد ديلي هرمز العارفة الناعمة. لكن ـ وهنا اعتراف صعب بالحقيقة، بل ربما أصعب اعترافاتي حتى الآن ـ لم تكن هي المرأة الأولى التي تلمسني. أو هكذا قيل لي، رغم أنه يجب القول إن الشاهدة ـ مربيتنا، الآنسة جايا هيي، زوجة لمباجان ذي الساق الخشبية، المهيمنة ـ كانت كاذبة ولصة.

فأطفال الأغنياء يربيهم الفقراء، وبما أن والديّ كليهما كانا مشغولين بأعمالهما، غالباً ما كنت أظل لرعاية البواب والمربية وصحبتهما، ورغم أن الآنسة جايا كانت سريعة خاطفة مثل مخلب وشفتاها كانتا حادتين كصرير باب صدئ وعيناها ضيقتين كفرصة النجاة بأعجوبة، رغم أنها كانت مخيفة مثل لوح جليد، ومِيالة للتسلط مثل ماسح أحذية، فقد كنت وما أزال ممتناً لها. إذ أنها خارج دوامها، كانت نوعاً من الطائر المتنقل، ذلك أنها كانت تحب أن تتجول في المدينة لكي تستهجن ما فيها، مطقطقة بلسانها، مكورة شفتيها وهازة رأسها لمختلف الأشياء غير المناسبة فيها. بالتالي فإن الآنسة جايا هي التي جعلتني أركب الترام والباص، ورغم أنها كانت تستنكر حالة الزحام الشديد فيها، إلا أنني كنت أستمتع سراً بكل ذلك الحشد البشري، وهو يتدافع على نحو يجعل الخصوصية تكف عن الوجود وحدود ذاتك تبدأ بالتحلل، ذلك الشعور الذي نشعر به فقط حين نكون في الزحام الشديد، أو في الحب. كما أن الآنسة جايا هي التي غامرت معها ودخلت سوق كروفورد المضطرب بكل ما فيه من أفاريز غريبة، وباعة فراريج حية ومنظفة على حد سواء، كذلك الآنسة جايا هي التي غامرت معها في دخول أوكار الشراب في دهوي تلاو وهي التي جعلتني أعرف بيوت الصفيح والأكواخ في بايكولا (حيث أخذتني لزيارة أقربائها الفقراء ـ أو علي أن أقول المدقعين فقراً ـ أولئك الذين كانوا بما يقدمونه من عروض، كالمشروبات الباردة والكعك يزدادون

فقراً أكثر كما كانوا يعاملونها حين تصل كأنها ملكة). أيضاً، معها هي أكلت البطيخ في محل أبولو و«الشات» على الواجهة البحرية في ويرلي، ومع كل تلك الأمكنة وسكانها الصخابين، مع كل تلك السلع والمأكولات وبائعيها الملحاحين، مع مدينتي التي لا تستنزف، بومباي، كنت أشعر بالحب وللأبد بأعمق أشكاله، رغم أن الآنسة جايا كانت تمتع نفسها بالترويح لأقصى حد عما في داخلها من سخرية، ورغم أنها كان تطلق أحكاماً لا تسمح للآخرين باستئنافها أو نقضها: «مكلفة جداً» (فراريج)، «مقززة جداً» (روم أسود)، «قذر جداً» (كوخ)، «جاف جداً» (بطيخ)، «حار جداً» (الشات)، ودائماً لدى عودتنا إلى المنزل، تلتفت إلي بنظرة نفور لامعة ثم تبصق. «أنت، بابا، محظوظ جداً، فاشكر نجوم سعدك في السماء!».

ذات يوم، وكنت في الثامنة عشرة من عمري ـ في الأيام الأولى لحالة الطوارئ، كما أتذكر ـ ذهبت معها إلى بازار زافيري، حيث كان الصاغة يجلسون مثل قردة عاقلة في حوانيت صغيرة كلها مرايا وبللور، يشترون ويبيعون الفضة العتيقة بالوزن. وحين عرضت الآنسة جايا زوجاً من الأساور الثقيلة مسلمة إياهما للمقيِّم، عرفت في الحال أنهما لأمي. نظرة جايا اخترقتني مثل رمح فشعرت بلساني يجف ولم أستطع أن أتكلم. في الحال تمت الصفقة وتحركنا من مكان الصائغ إلى زحام الشارع، متحاشين العربات المحملة بأكداس القطن الملفوفة بأكياس القنب والمحزمة بشرائط معدنية، فيما كانت أكشاك الشوارع تبيع المنغا، موز الجبل، المجلات السينمائية والزنانير كما كان هناك عتالون بسلال ضخمة على رؤوسهم، أصحاب دراجات، راكبو دراجات نارية منخفضة، والحقيقة، بصعوبة شققنا طريقنا إلى المنزل، إليفانتا، لكن فقط حين نزلنا من الباص، تكلمت المربية قائلة «كثير جداً في المنزل، كثير جداً من الأشياء!»

غير أنني لم أجب. فتابعت: «والناس أيضاً. آتون، ذاهبون، ماشون، نائمون، آكلون، شاربون. في غرف الرسم، في غرف النوم، في كل الغرف. أناس كثيرون جداً».لتعني بذلك، كما فهمت، أنه بسبب ذلك، سيكون من الصعب على أورورا أن تضع حلقة أصدقائها كلها تحت الشك، ولا أحد سيكون قادراً على تحديد هوية اللص، ما لم أتكلم أنا.

ثم قالت وهي تضرب ضربتها الساحقة «من أجل لمباجان، وبسببه».

* * *

ولقد كانت على حق. إذ لم يكن باستطاعتي أن أفضح لمباجان، هو الذي علمني الملاكمة. هو الذي جعل نبوءة والدي اليائسة تتحقق. **«ستصرع العالم كله أرضاً بقبضة كقبضتك هذه»**.

ففي الأيام التي كان فيها لمباجان ذا ساقين وبلا ببغاء، الأيام التي سبقت مجيئه إلينا، كان يستخدم قبضتيه كي يدعم راتب البحار الهزيل الذي يقبضه. في أزقة القمار في المدينة، حيث كان صراع الديكة وعروض الدببة المدربة تقدم أفضل أنواع التسلية، كان يكسب شيئاً ما من شهرته ومبالغ حسنة من المال كملاكم بلا قفازات. إذ كان بالأصل يريد أن يكون مصارعاً، لأن المصارع في بومباي يمكن أن يصبح نجماً عظيماً مثل دارا سينغ الشهير، لكن بعد سلسلة من الهزائم، تحول إلى العالم الأخشن والأقسى، عالم مقاتلي الشوارع، وبات يعرف باسم الرجل الذي يمكنه أن يتلقى قرصة. سجله من الانتصارات ـ الانكسارات. معقول، إذ كان قد خسر أسنانه كلها، لكنه لم يصرع أرضاً قط.

ذات أسبوع، وخلال الفترة المبكرة من حياتي، أتى إلى حدائق إليفانتا حاملاً مجموعة خرق على شكل شرائط عصّب بها يدي، قبل أن يشير إلى ذقنه التي نبت عليها الشعر. «هنا بابا، تماماً» «اضرب قنبلتك الخارقة». هكذا اكتشف أن بالإمكان الإشارة إلى يدي المشوهة على أنها

صاروخ، قبضة القبضات. وذات أسبوع ضربت لمباجان أشد ما أستطيع من ضربات، فلم يرتعش فمه الخالي من الأسنان أقل ارتعاشة في البداية. «خروق؟» عيّرني الرجل. «دغدغة الريشة فقط؟ تلك التي يمكن أن أتلقاها من ببغائي هذا». لكن بعد حين كف عن التبسم، ظل يقدم لي ذقنه، لكن بت أحس أنه يشد من نفسه استعداداً للضربة، متخذاً كل احتياطاته القديمة كملاكم.. في ميلادي التاسع، ضربت ضربتي فطار توتاه صائحاً في الجو، بينما كان البواب يسقط على الأرض. «فيلة بيضاء مهروسة» صرخ الببغاء، أما أنا فركضت إلى خرطوم الحديقة ثم رششت لمبا المصروع أرضاً بالماء.

حين استعاد وعيه، ثنى زاويتي فمه احتراماً، جلس ونظف لثته الدامية مادحاً إياي. «إنها ضربة، بابا. الآن حان الوقت لكي نبدأ التعلم».

في الحال، علق لي كيس أرز بغصن شجرة، وبعد أن أنهت ديلي هرمز دروسها التي لا تنسى، أعطاني لمبا دروسه، وللسنوات الثماني التالية، كنا نتلاكم. لقد علمني الاستراتيجية، ما كان يدعى بحرفة الحلقة إن كانت هناك حلقة، شحذ إحساسي بالمكان، وقبل كل شيء دفاعي. «لا تتوقع أنك لن تُضرب أبداً، بابا، حتى بتلك القبضة، لا يمكنك أن تضرب وأنت تسمع سقسقة الطيور». لقد كان لمباجان مدرباً لكل الحركات التي تختزل ببساطة، لكن بذلك التصميم الهرقلي، كان يناضل لتجاوز إعاقته، ! فحين كنا نبدأ العمل كان يلقي بعكازه وينط هنا وهناك مثل قضيب ـ «بوغو» بشري.

مع نضجي أكثر، ازداد سلاحي قوة، فوجدت نفسي مضطراً لأن أضبط نفسي وأسحب الكثير من ضرباتي. إذ لم أكن أريد أن أصرع لمباجان كثيراً أو بكثير من العنف. ففي عين خيالي، كنت أرى صورة البواب وهو يصرع أرضاً، فيختلط كلامه ببعضه وينسى اسمي، ذلك ما كان يجعلني أخفض من قوة ضرباتي.

في الوقت الذي صرت أذهب فيه إلى بازار زافيري، كنت قد أصبحت خبيراً بما يكفي لهمسات لمباجان «بابا، إن أردت لعمل، ما أن يكون حقيقياً، فقط قل كلمة واحدة صغيرة». وقد كان هذا مثيراً، مخيفاً. هل كنت سأصل إلى هذا المستوى؟ كيس ملاكمتي لم يكن يرد لي الضربة، بعد كل شيء، ولمباجان كان شريك ملاكمة ألفته منذ زمن طويل. ماذا إن واجهت خصماً من لحم ودم لا من أرز وقماش، يرقص بساقيه الاثنتين حولي ويسدد لي لكمة هائلة؟ «قبضتك جاهزة». قال لمباجان، هازاً كتفيه. «لكن عن قلبك، لا يمكنني التكلم».

وهكذا، بناء على عقلي اللعين، قلت الكلمة. وذهبنا لأول مرة إلى أزقة بومباي المركزية التي لا اسم لها، ببساطة قدمني لمبا باسم «المغربي» ولأنني جئت معه، واجهوني بقدر من الاحتقار أقل مما توقعت. لكن عندما أخبرهم أنني ملاكم جديد بعمر سبعة عشر عاماً، بدأت القهقهات. ولأنه بات واضحاً بالنسبة لجميع المتفرجين أنني رجل في ثلاثيناته مع ذلك بدأ يخطه الشيب، إذن لا بد أن أكون شخصاً على ساقيه الأخيرتين لأن لمبا ذا الساق الواحدة يدربه كمنة ومعروف، لكن إلى جانب السخرية التي انبثقت، ارتفعت أصوات تعبر عن إعجاب في غير مكانه. «ربما هو جيد،» قالت تلك الأصوات.. «لأنه ما يزال في وضع حسن بعد هذه السنين العديدة». بعدئذ جاؤوا بخصمي، وهو سيخي مسترسل الشعر بمثل حجمي على الأقل، ذاكرين بشكل عرضي أنه على الرغم من أن هذا الملاكم قد صرع عشرين، إلا أنه لم يقتل سوى اثنين في أشواط سابقة كهذه وكان فاراً من القانون. حينذاك شعرت بأعصابي تنشد، نظرت إلى لمباجان، لكنه أومأ برأسه بكل هدوء وبصق على رسغه الأيمن. وهكذا بصقت مثله على رسغي الأيمن ثم مشيت باتجاه القاتل، فجاء مباشرة إلي طافحاً بالثقة، إذ فكر أنه أمسك بميزة الأربعة عشر عاماً وأنه سيتمكن من صرع هذا المتحدي بسرعة. فيما

فكرت أنا بكيس الأرز ووجهت ضربة، ثم في المرة الأولى التي وصلت إليه فيها صرع أرضاً وظل هناك مدة أطول من العد للعشرة. أما بالنسبة إلي، وبعد تلك الضربة المفردة، فقد حلت بي نوبة من الربو رحت أشهق فيها وتسيل دموعي بغزارة إلى حد أنني بالرغم من انتصاري بدأت أشك بأن لي مستقبلاً في هذا النوع من العمل. سخر لمباجان من شكوك كهذه «فقط أعصاب بكر قليلاً،» أكد لي ونحن في طريقنا إلى المنزل. «لقد رأيت كثيراً من الملاكمين ذوي القبضات، يسقطون والزبد على أفواههم بعد جولتهم الأولى، سواء ربحوا أو خسروا. أنت لا تدري المنافع التي ستحصل عليها هناك، بابا،» أضاف بشيء من الاستمتاع. «ليس فقط كقوة ضاربة بل الكثير من السرعة أيضاً. وحفلات راقصة كذلك». لم تكن هناك علامة واحدة على جسدي، كما أشار، والأكثر من ذلك أنا حصلنا على كدسة من المال لكي نقتسمها بيننا.

لذلك، بالطبع، لم أستطع اتهام زوجة لمبا بالسرقة، لأراهما كليهما يطردان. لم يكن باستطاعتي أن أفقد مدير أعمالي، الرجل الذي كشف لي موهبتي... لكن ما إن تأكدت الآنسة جايا من سيطرتها علي حتى بدأت تستغل تلك السيطرة، سارقة ممتلكاتنا تحت سمعي وبصري، مؤكدة أنها لم تفعل ذلك كثيراً ولم تسرق كثيراً ـ مرة علبة جاد صغيرة، مرة أخرى مشبك ذهب صغير، وكانت هناك مرات رأيت فيها أورورا وأبراهام يهزان رأسيهما وهما يحدقان إلى الفضاء الفارغ، لكن أثبتت حسابات جايا أنها صحيحة: فقد كانا يعذبان الخدم، لكنهما لم يستدعيا الشرطة، غير راغبين في أن يخضع خدمهم لمعاملات شرطة بومباي اللطيفة، ولم يزعجا أصدقاءهم. (هنا أتساءل أيضاً، إن كانت أورورا قد تذكرت قذفها لحلي ـ غانيشا الصغيرة في جزيرة كبرال، قبل زمن طويل. ذلك أن من الفيلة الكثيرة جداً إلى إليفانتا، كانت هناك رحلة طويلة، فهل كانت روحها الفتية توبخها حينذاك، هل كانت تجعلها تشعر بشيء من التعاطف، بشيء من التضامن مع اللص؟).

خلال هذه المرحلة من اللصوصية، أخبرتني جايا عن سر مخيف من أسرار طفولتي الأولى، حين كنا نمشي في دوار الفضيحة، على الطريق الآتي من بيت شافسو الكبير، إذ أظن أنني أبديت ملاحظة ما ـ تذكروا أن حالة الطوارئ كانت ما تزال قائمة ـ عن العلاقة غير السليمة بين السيدة إنديرا غاندي وابنها سانجاي. «الأمة كلها ستدفع ثمن تلك المشكلة بين الأم والابن». قلت حينذاك، فنخرت الآنسة جايا باشمئزاز، هي التي كانت تعبر عن رفضها للمناظر التي كانت تمر بها لعشاق يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً، وهم يمشون على طول حاجز البحر، قائلة «يمكنك أن تتكلم، لكن عائلتك كلها منحرفة. أخواتك وأمك أيضاً، في مرحلة طفولتك، كم كن يلاعبنك... على نحو سقيم جداً».

أنا لم أعرف ولا أعرف إن كانت قد قالت الحقيقة. فالآنسة جايا كانت لغزاً بالنسبة إلي، امرأة غاضبة كل الغضب من حظها في الحياة، إلى حد أنها باتت قادرة على القيام بأغرب الانتقامات. إذن، هي كانت كذبة، أجل، وربما كذبة وسخة، لكن ما هو حقيقي ـ دعوني أكشف هذا طالما أنني في مزاج الكشف ـ هو أنني كنت قد كبرت بكثير من التساهل تجاه عضوي الجنسي الأساسي. واسمحوا لي أن أعلمكم أن الناس كانوا يمسكون به من حين إلى حين ـ أجل ـ أو أنهم بطرق أخرى، لطيفة وغير لطيفة على السواء، كانوا يطلبون خدماته، أو يعلمونني كيف وأين ومع من وكم من المرات يمكن أن أستخدمه، وبالإجمال، كنت أنا ميالاً تماماً لأن أستمع إليهم، هل هذا عادي تماماً؟ أظن لا، أيها السيدات والسادة... بل بشكل تقليدي أكثر، وفي مناسبات أخرى، كان هذا العضو نفسه يصدر تعليمات من ذاته، وهذه أيضاً حاولت ـ كما يفعل الرجال ـ أن أتبعها إن أمكن، لتكون النتائج كارثية. لكن إن كانت الآنسة جايا غير كاذبة، فإن أصول هذا السلوك يمكن أن تعود لتلك المداعبات المبكرة التي أشارت لها بسوء نية، وإن كانت صادقة يمكنني أن أصور

مشاهد كهذه إذ تبدو معقولة تماماً بالنسبة إلي: أمي تلعب بقضيبي وهي ترضعني من ثديها، أو أخواتي الثلاث يتجمعن حول سريري، ساحبات عضوي الأسمر الصغير، منحرفات، سقيمات جداً. أورورا ترقص فوق حشود غانباتي، وهي تتكلم عن لا محدودية الدأب البشري، بالتالي يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، يمكن، يمكن...

يا إلهي! أي نوع من العائلات كانت عائلتنا، هي تغوص كلها معاً في شلالات الدمار؟ لقد قلت إنني كنت أفكر بإليفانتا تلك الأيام على أنها فردوس، وهكذا أفكر الآن ـ لكن يمكنكم أن تتصوروا أنها ربما كانت تبدو للغريب أشبه كثيراً بالجحيم.

* * *

أنا لست متأكداً من أنه يمكن دعوة عمي الكبير إيرس داغاما بالغريب، لكن عندما جاء إلى بومباي للمرة الأولى في حياته وهو في سن الثانية والسبعين، كان قد خمص كثيراً ككائن بشري إلى درجة أن أورورا لم تعرفه إلا بسبب كلبه جواهرلال الذي كان إلى جانبه. فالأثر الباقي فقط من الغندور المحب للإنكليز الذي كانه ذات يوم، إنما هو بلاغة خطابه المتمهل وحركاته المميزة التي كنت، من خلال جهدي المتواصل للصراع مع قدري المتعجل كثيراً، وعن طريق تعهد مسرات التمهل بالرعاية، أحاول أن أحاكيها. لقد كان يبدو مريضاً ـ مجوّف العينين، لم يحلق ذقنه ولم يعتن بملابسه ـ ولم تكن مفاجأة لنا أن نعلم أن مرضه القديم قد عاوده. لكنه لم يكن مريضاً.

«كارمن ماتت،» قال، (والكلب أيضاً كان قد مات، طبعاً، منذ عقود، وكان إيرس قد حشا جلده، كما ركّب على قوائمه دواليب كتلك التي تركّب للأثاث، بحيث أصبح بإمكان صاحبه أن يستمر بسحبه معه أينما ذهب). أشفقت أورورا عليه، وطرحت جانباً كل الأحقاد العائلية القديمة،

لتخصص له أجمل غرف الضيوف وأكثرها ضوءاً، مع أفضل الفرش واللحف ومنظر على البحر، مانعة إيانا جميعاً من أن نضحك ضحكنا المكتوم وعمل بعادة إيرس القديمة في التحدث مع جواهرلال وكأنه ما يزال حياً. في الأسبوع الأول، كان العم إيرس هادئاً تماماً على الطاولة، وكأنه يكره أن يلفت الانتباه لنفسه بحيث يؤدي ذلك إلى استئناف العداوات القديمة. كان يأكل قليلاً، ورغم أنه لم يبدِ الكثير من الحب لليمون من نوع بريغانز الجديد ولمخللات المنغا التي اكتسحت المدينة مؤخراً، إلا أننا لم نحاول النظر إليه، بل من أطراف عيوننا كنا نرى السيد العجوز يدير رأسه ببطء من جانب إلى جانب وكأنه يبحث عن شيء أضاعه.

في رحلاته إلى كوشين، كان أبراهام الزغبي يقوم من حين إلى حين بزيارة مجاملة قصيرة إلى بيت جزيرة كبرال، لذلك كنا نعرف شيئاً عن التطورات المدهشة التي حلت بذلك الفرع شبه ـ المقطوع من عائلتنا الميالة للشجار، ولكن مع مرور الزمن، أخبرنا العم الكبير إيرس بالقصة الجميلة المحزنة كاملة، فيوم صارت ترافانكور ـ كوشين ولاية كيرالا، تخلى العم إيرس عن حلمه السري بأن الأوروبيين يمكن أن يعودوا إلى شاطئ ملابار ودخل في نوع من حياة التقاعد الانعزالي، طرح خلاله جانباً انحرافه قديم العهد ليبدأ قراءة كاملة لروائع الأدب الإنكليزي، مواسياً نفسه بأفضل ما ترك العالم القديم، عله يتحمل التحولات المقززة للتاريخ.

أما العضوان الآخران من الثلاثي المنزلي غير العادي، العمة كارمن والأمير هنري الملاح، فقد ألقيا جانباً على نحو متزايد معاً، وباتا بسرعة صديقين يلعبان الورق معاً إلى وقت متأخر من الليل لقاء رهانات عالية، إن لم تكن نظرية. بعد بضع سنوات، لقط الأمير هنري الدفتر الذي احتفظا فيه بتسجيلات الرهانات وأعلم كارمن وهو يبتسم نصف ابتسامة أنها باتت مدينة له بكامل ثروتها. في تلك المرحلة، جاء الشيوعيون إلى الحكم، محققين حلم كامونز داغاما، كما ارتفعت حظوظ الأمير هنري مع حظوظ

تلك الحكومة الجديدة. إذ أنه افتتح مكتباً هناك، مستفيداً من علاقاته الجيدة في أرصفة ميناء كوشين، ثم تم انتخابه كعضو في المجلس التشريعي للولاية دون أن يحتاج للقيام بحملة انتخابية. في الليلة التي أخبر بها كارمن عن حياته المهنية الجديدة، استردت كارمن، بإلهام من الأخبار الجديدة، كل روبية من ثروتها المفقودة، بلعبة بوكر انتهت بضربة هائلة وحيدة. لقد كان الأمير هنري يلمح دائماً لكارمن بأنها كانت تخسر كثيراً بسبب نفورها من التوقف عن اللعب، لكن في تلك المناسبة، كان هو الذي وقع في شباكها، إذ وقع تحت إغواء بنات الورق الأربع اللواتي كن في يده رافعاً الرهان إلى درجة عالية تدوّخ. وفي النهاية، حين أتيحت لها الفرصة لأن تكشف أوراقها، بملوكها الأربعة، فهم أنها، طوال تلك السنوات كلها من خط خسارتها الطويل، كانت تتعلم بهدوء كيف تتعامل مع نصاب محتال، إلى حد أنه كان الضحية للخداع الأطول في تاريخ ورق اللعب. لكنه، وقد أفقر من جديد، صفق لمهاراتها اليدوية الخفية.

«لا يمكن للفقراء أن يكونوا انسلاليين مثل الأغنياء، لذلك يخسرون دائماً في النهاية». قالت له بشغف. نهض الأمير هنري عن طاولة اللعب، قبل أعلى رأسها، ثم كرس بقية حياته في العمل، داخل السلطة وخارجها، لسياسات الحزب التعليمية، لأن التعليم وحده يوفر للفقراء الوسيلة لنقض إملاءات كارمن داغاما. والحقيقة أن معدل التعليم في ولاية كيرالا الجديدة ارتفع ليصبح الأعلى في الهند ـ فالأمير هنري نفسه برهن أنه يتعلم بسرعة ـ ثم افتتحت كارمن داغاما جريدة يومية موجهة إلى جماهير القراء في قرى صيد الأسماك على شاطئ البحر، وكذلك قرى زراعة الأرز في المياه الخلفية ذات اللون المحمر، إذ اكتشفت أنها ذات موهبة كمالكة، فغدت جريدتها واسعة الانتشار بين الفقراء، وهو ما زاد كثيراً من سخط الأمير هنري، إذ رغم أنها كانت تدعي بأنها يسارية الخط تماماً، إلا أنها كانت تعمل بشكل من الأشكال لإقناع الناس

بالابتعاد عن الحزب، وعندما استلم الائتلاف المعادي للشيوعية السلطة في الولاية، كانت جريدة كارمن ذات اللسان بأربع فراشخ، الانسلالية وذات اللعب الحاد هي التي لامها الأمير هنري كثيراً على تدخلها مع الحكومة المركزية في دلهي.

سنة 1974، ذهب الحبيب السابق لإيرس داغاما (إذ كانت علاقتهما قد انتهت منذ زمن طويل) في رحلة إلى جبال التوابل كي يزور محمية الفيلة الناجحة التي كان راعياً لها، وهناك اختفى. سمعت كارمن بالخبر في عيد ميلادها السبعين، فغدت كالمجنونة. عناوين جريدتها ارتفعت بوصات عالياً، مكيلة الاتهامات للعب القائم على الغش، لكن دون أن يثبت شيء أبداً. إذ لم يجد أحد جثمان الأمير هنري، ثم بعد فاصل من الزمن طويت القضية، فخسارة الإنسان الذي أصبح صديقها الحميم ومنافسها الودي أخرج خارجاً كل ما في رأسها من دماغ، وذات ليلة حلمت بأنها تقف بجانب بحيرة تحيط بها تلال كلها غابات فيما كان الأمير هنري يومئ لها وهو على ظهر فيل متوحش. «لا أحد قتلني» قال لها «بل الوقت قد حان لكي أطوي يدي». في الصباح التالي جلس إيرس وكارمن للمرة الأخيرة في حديقة جزيرتهما، حكت كارمن لزوجها عن الحلم، فحنى إيرس رأسه، وقد وصله مغزى الحلم، ثم لم يرفع رأسه من جديد حتى سمع كوب الشاي الصيني يسقط من يد زوجته التي فقدت الحياة.

* * *

هنا أحاول أن أتخيل كيف بدت إليفانتا، ولا بد، للعم الكبير حين وصل مع كلب محشو الجلد وقلب مكسور، أية حيرة يا ترى سببت لروحه الممددة! لكن بعد العزلة في جزيرة كبرال، ما تراه فعل حيال حفلات السكر اليومية في بيتنا، حيال الأنا المتضخمة لأورورا، وفترات العمل الكبيرة التي كانت تخفيها عنا أياماً في المرة الواحدة، إلى أن تخرج مترنحة من مرسمها، وقد انحولت عيناها من الجوع والتعب،

كذلك حيال أخواتي المعتوهات الثلاث وفاسكو ميراندا، حيال الآنسة جايا اللصة، ولمباجان ذي الساق الوحيدة، توتاه وشهوة ديلي هرمز المصابة بقصر النظر؟ ثم ماذا عني؟

فهناك كان الرسامون الآتون ـ الذاهبون باستمرار، جامعو اللوحات، الأناس أصحاب أروقة المعارض، نماذج الرسم، المساعدون، العشيقات، المتعريات، المصورون الضوئيون، تجار الجواهر، باعة ـ الفراشي، الأمريكان، الناس العاديون، الشياطين ـ المغفلون، أساتذة الجامعات، الصحفيون، المشاهير، النقاد والحديث الذي لا نهاية له حول «الغرب كإشكال»، «أسطورة الشرعية»، «منطق الحلم»، «الحدود الواهية لتشكيلات شير جيل والحضور في أعمال ب. ب موفرجي، » «الموضوعات المكشوفة» والعلاقات بينها وبين الحركة، ناهيك عن نقاشات التنافس التي تدور حول كم ولمن، وجماعة من، ومعرض الرسام الفلاني ونيويورك ولندن، ثم وصول ومغادرة مواكب الرسوم، الرسوم، الرسوم. إذ كان يبدو وكأن كل رسام في البلاد، طور لديه الدافع لأن يقوم بالحج لبيت أورورا طالباً مباركتها لعمله ـ وهو ما منحته لصاحب المصرف السابق على «عشائه الأخير» ذي الصبغة الهندية اللامعة، متحملة بكثير من الجهد ذلك المعلن ـ عن ذاته الآتي من نيودلهي بلا موهبة ومعه زوجته الراقصة الجميلة، التي ذهبت معها أورورا لتمارس نظامها الغانباتي القديم، تاركة الرسام وحده مع لوحاته الفظيعة... ترى هل كان في ذلك كله، وببساطة، الكثير من الروعة بالنسبة لإيرس العجوز المسكين ـ وهي الحالة، حسب فرضيتنا الأولى، التي يمكن فيها لفردوس الصبي ذاك أن يكون جحيم شخص آخر، وربما سيبرهن على ذلك.

وا أسفاه على فرضيات كهذه. فالحقيقة أبعد ما تكون عن ذلك. لكن دعوني أخبركم في الحال أن العم الكبير إيرس وجد أكثر من ملاذ له في إليفانتا. لقد وجد، لدهشته ودهشة كل شخص آخر، حقبة من زمالة

عذبة أخيرة. ليس حباً، ربما، بل «شيء ما»، هو أفضل بكثير من اللاشيء. حتى قرب انتهاء أيامنا كلها نصف ـ الراضية.

ذلك أن كثيراً من الرسامين الذين كانوا يأتون ليجلسوا عند قدمي أورورا العظيمة، كانوا يكسبون معيشتهم من مهن أخرى ويعرفون في بيتنا باسم ـ ولنسمّ القلة فقط ـ الطبيب، الطبيبة، المذيع، الصحفي، أستاذ الجامعة، الكاتب المسرحي، مغني الجاز، المحامي، المحاسب... إنه آخر هؤلاء ـ وهو الفنان الذي كان، دون شك، الوارث الحالي لعباءة أورورا الساقطة ـ ذاك الذي تبنى إيرس: وهو شخص أربعيني ذو شعر متطاير، كان حينذاك يلبس نظارات ضخمة ذات عدسات بحجم وشكل التلفاز المحمول، وخلفها تعبير براءة كاملة من النوع الذي يجعلك في الحال تشك بأنه لعوب. لقد أصبح الصديق الحميم للعم الكبير إيرس خلال أسابيع، وفي تلك السنة الأخيرة من حياته، أصبح العم الكبير إيرس نموذج المحاسب النظامي في الرسم، وبرأيي عشيقه أيضاً. فالرسوم هناك يراها الكل. خاصة تلك اللوحة غير العادية بعنوان «لا يمكنك دائماً أن تحقق ما ترغب به» قياس 114×114سم، زيتية على قماش فيها مشهد ـ لشارع بومباي المزدحم، شارع محمد علي، ربما ـ يطل عليه من شرفة في الطابق الأول شخص عار بالطول الكامل هو إيرس داغاما، مصقول ورشيق مثل إله فتي لكن بأشواق شيخوخة غير قابلة للتعبير عنها، وغير معبَّر عنها، غير منجزة وغير قابلة للإنجاز في كل ضربة فرشاة رسمت في النهاية شكله. فيما يتمدد كلب عجوز من نوع بولدوغ ولعل ذلك من خيالي، لكن تحته، هناك ضمن الحشد ـ أجل، تماماً هناك ـ شخصان دقيقان على ظهر فيل مع إعلانات مرسومة على خاصرتيه ـ هل يمكن أن يكونا هناك ـ بل بالتأكيد هما هناك ـ الأمير هنري الملاح وكارمن داغاما، يلوحان للعم الكبير إيرس بأن يلحق بهما في رحلتهما.

(كان ياما كان، في قديم الزمان، كان شخصان في قارب، أحدهما في ثوب الزفاف، والآخر في ثياب عادية، وشخص ثالث ترك وحيداً في غرفة العرس هو العروس على سرير عرسها. لقد خلدت أورورا ذلك المشهد المؤلم، وهنا في لوحة المحاسب، بالتأكيد، كان هناك الأشخاص الثلاثة أنفسهم. فقط وضعهم كان مختلفاً، فالرقصة تغيرت، أصبحت رقصة الموت).

مباشرة بعد اكتمال تلك اللوحة، رحل إيرس بعيداً. ولقد قامت أورورا، كذلك أبراهام، برحلة إلى الجنوب لدفنه، بغض النظر عن عادة سكان المناطق المدارية، حين يذهب الناس بسرعة ليناموا نومتهم الأبدية، إذ خشية أن يؤدي تأخير دفنهم إلى أن يتركوا العالم برائحة نتنة، فإن أمي دعت شركة دفن محدودة تدعى مهالاكسيمي (بشعار: هل الجثة هنا؟ تريدونها هناك؟ حسناً يا عزيزتي، هذا شأنكم،) وضعت إيرس في الجليد من أجل الرحلة، بحيث يمكن دفنه بجانب كارمن في مقبرة العائلة في جزيرة كبرال، حيث يمكن للأمير هنري أن يجده إن اختار أن ينزل من تلال التوابل على ظهر فيله. حين وصل إيرس إلى مثواه الأخير وفتحوا صندوق الألمنيوم المليء بالثلج كي ينقلوه إلى تابوته بدا ـ كما أخبرتنا أورورا ـ مثل «مصاصة مربى زرقاء كبيرة،» إذ كان هناك جليد سميك على حاجبيه وكان أبرد من القبر «لا عليك، عم» غمغمت أورورا خلال صلاة الجنازة التي كان الحضور فيها أورورا وأبراهام فقط. «فأنت ذاهب إلى من سيدفئونك في الحال».

لكن قلبها لم يكن في ذلك. وشجارات الماضي كانت منذ زمن طويل قد أصبحت نسياً منسياً، ومنزل جزيرة كبرال بدا كالمهجور، ولا صلة لها به، حتى الغرفة التي كانت أورورا، كعبقرية فنية، قد غطتها بالرسوم خلال مرحلة «اعتقالها المنزلي»، لم تعد تهمها، إذ كانت قد عادت لموضوعاتها تلك، العديد من المرات، وكانت قد رجعت بشكل هاجسي

إلى الصيغة الرومانسية ـ الأسطورية التي كان فيها التاريخ، العائلة والخيال، كلها تتزاحم مثل حشود كبيرة في تلفاز، أو محطات ركاب، كما عادت أيضاً إلى ذلك الاكتشاف للرؤية البديلة للهند الأم، ليس أم القرية العاطفية التي تمثلها نرجس، بل أم المدينة تلك التي لا قلب لها والمحبوبة مع ذلك، اللامعة والسوداء، الكثيرة التعداد والوحيدة، الساحِرة والمنفّرة، الحامل والخاوية، الصحيحة والزائفة، كذلك الجميلة، القاسية، والتي لا تقاوم كمدينة بحد ذاتها. «والدي كان يفكر أن لدي هنا رائعة من روائع الرسم»، قالت لأبراهام، وهما يقفان في الغرفة ذات الجدران المرسومة. «لكن، كما ترى، هي مجرد خربشات طفلة أولية».

تركت أورورا البيت كما هو بملاءاته المغبرة وأقفاله. ثم لم تعد البتة إلى كوشين، حتى بعد أن ماتت، إذ وفر عليها أبراهام مذلة الطيران بها إلى الجنوب، مثل سمكة مثلجة، لقد باع المكان القديم ليصبح فندقاً متفسخاً متواضع التسعيرة للراجعين الشبان إلى الهند والمتقاعدين ذوي المعاشات غير الكافية حيث يمكنهم إلقاء النظرة الأخيرة على عالمهم. أخيراً أو هكذا سمعت، انهار، ويؤسفني أنه انهار، لكن عند ذلك، كنت أنا، على ما أظن، آخر سلالة عائلتنا الذي يهتم بالماضي بمقدار حبة خردل.

حين توفي العم الكبير إيرس، راودنا كلنا شعور بأننا نصل إلى منعطف. فقد ترك علامة زرقاء جليدية، محدداً بذلك نهاية جيل، كي يبدأ دورنا الآن.

* * *

كنت قد قررت أنني لن أرافق الآنسة جايا بعد ذلك في تسكعها هنا وهناك في المدينة. لكن حتى عملية الاستبعاد تلك أثبتت أنها غير كافية، فالمسروقات ظلت تطلق رنينها في بازار زافيري، لذلك ذهبت أخيراً إلى لمباجان عند البوابة، وبكثير من احمرار الخجل في وجهي لعلمي أنني سأهينه أخبرته بما كنت أعرف. وعندما انتهيت راقبته وهو يرتعش إذ لم

يحدث من قبل أن أخبرت رجلاً بـأن زوجتـه لـصة، تـرى هـل سـيقاتلني دفاعاً عن شرف العائلة، ثم يقتلني في مكاني؟ غـير أن لمباجـان لم ينطـق بحـرف، ثم بـدأ صـمته ينتـشر انطلاقـاً منـه إلى الخـارج، كاتمـاً زمـامير الـسيارات، صـيحات بـائعي الـسجائر، صـرخات أولاد الـشوارع وهـم يلعبون لعبة الطيـارة الورقيـة، ينطـون ويروغـون مـن سـيارات الـشارع، وكذلك الموسيقى الصاخبة المنبثقـة مـن المطعـم الإيـراني، اسـوريانو، هناك فوق التلة، (هكذا كان يدعى بسبب اللوحة الـضخمة المعلقـة علـى مدخله والمكتوب عليها «آسفون، لا يوجد مشروبات، وليس هنـاك مـن أجوبة على أسئلة تتعلـق بـالجوار، لا تمـشيط شـعر، لا مـاء قبـل طلـب الطعام، لا أخبـار أو مجـلات سـينمائية. لا تـشارك في المـواد الـسائلة، لا تدخين، لا اتصالات هاتفية، لا كلام عن الخيل، لا صـرافة، لا رفـع أصوات ـ هكذا نحن، لا طلبـات موسـيقى، فكـل الأنغـام نحـن الـذين نختارها). بل حتى الببغاء الذابل بدا مهتماً برد البواب».

«في عملي، بابا» قال أخيراً لمباجان، «يرى المرء الكـثير مـن الأشـياء التي عليه أن يحترس منها. إنسان يأتي بمجوهرات زائفة، سيدات المـنزل يجب حمايتهن، شخص آخر يأتي بساعات رديئة علـى رسـغه، علـي أن أبعده. شحاذون، متسولون، رعاع، كلهم يأتون. والأفضل أن يذهبوا مـن هنا، وأنا أقوم بعملي. إنني أقف وأواجه الشارع، هو يـسأل وأنـا أجيـب. لكن الآن أعلم أن على المرء أن يكون له عينان في مؤخرة رأسه».

«حسن. انسَ ذلك» قلت بشيء من فجاجة «غضبت؟ إذن دعنـا ننـسى الأمر كله».

«أنت لا تدري، بابـا، لكـن أنـا رجـل يخـشى ـ الإلـه،» تـابع لمبـا، وكأنني لم أتكلم. «أنا أقف خارج هذا المنزل الذي لا يؤمن بإله، أحرسـه ولا أقول شيئاً. لكـن في معبـد ووكـشدار تانـك ومهالاكـسمي، يعرفـون وجهي البائس. الآن يجب أن أذهب وأتقدم إلى الإلـه رام طالبـاً أن يـضع

لي عينين جانبيتين إضافيتين، كما أطلب أذنين صماوين، بحيث لا يمكنني سماع أمور سيئة كهذه».

بعد أن اتهمت الآنسة جايا، توقفت السرقة. لم يقل لي شيئاً، لكن لمبا قام بما يلزم، فانتهت أيام سلبها ونهبها. كما كانت هناك نهاية لشيء آخر. فلمباجان لم يعمل مدرب ملاكمة لي بعد ذلك قط، ولم يعد ينط هنا وهناك في الحديقة صارخاً، هيا، سيد ببغاء، تريد أن تدغدغني دغدغة الريشة؟ هيا، اضرب أقوى ضربة لديك. كذلك لم يعد يرغب بأخذي إلى أزقة مقاتلي الشوارع كي أجرب يدي بأكبر الملاكمين في المدينة. وما إذا كانت مشكلة تنفسي هي سبب ذلك، هي التي أنهت كل ما يتعلق بموهبة الملاكمة الطبيعية لدي، سؤال عليه أن ينتظر سنوات كثيرة قبل أن يجد جواباً. فعلاقاتنا توترت إلى حد كبير ولم تستعد عافيتها حقاً إلى أن حل سقوطي الكبير. خلال ذلك، كانت الآنسة جايا هي تخطط ثم تنجز انتقامها بكل نجاح.

هكذا كانت أيامي في الفردوس: حياة مليئة لكن بغير صديق. بعيداً عن المدرسة، أموت لرفقة أنداد، وفي هذا العالم الذي يصبح فيه الظاهر حقيقة واقعة، ينبغي أن نكون فيه كما نبدو، أصبحت بسرعة بالغاً شرفياً، يكلمني الجميع ويعاملني على هذا الأساس، بعيداً عن العالم الذي كنت منه. ترى كم حلمت بالبراءة! ـ بأيام الطفولة وأنا ألعب الكركيت في ميدان كساوس، بالنزهات البحرية إلى جوهو أو خليج مارفي أو مستوطنة ميلك آيري، للتفرج على السمك في أحواض لتارابوفالا المائية، والتسلي بعذوبة مع الرفاق حول الكيفية التي يمكن بها أكل السمك، للبناطيل القصيرة والأحزمة ذات إبزيم الحية، ونشوة أكل الفستق والخروج بحثاً عن طعام صيني والقبل الغرة الأولى للصبا، ولتعلم السباحة كل صباح أحد في نادي ولينغدون على يد ذلك المدرب الذي كان يحب أن يخيف تلاميذه بتسطيحهم على أرض البركة وجعل الهواء

كله يخرج من رئاتهم. إنها لحياة أكبر من الحياة لطفل صغير، طلعاتها ونزلاتها مثل أفعوانية تتقلب في الجو، ذلك كله كنت قد حرمت منه بسبب حجمي ومظهري. رغم أن بيتي كان يُعرف بأنه جنة عدن، وكنت ما أزال سعيداً هناك.

ـ لماذا؟ ـ لماذا؟ ـ لماذا؟ ـ

ـ ذلك سهل: لأنه كان منزلي.

لذلك، أجل، كنت سعيداً بين مجاهل سكانه البالغين، في خضم أعمال أخواتي وغرائب سلوك والدي، التي كانت تبدو لي وكأنها وقائع عادية وبطريقة ما، لا تزال تبدو كذلك، لا تزال تقنعني بأن فكرة «العادي» هي الغريبة الشاذة، فكرة أن الكائنات البشرية لها حياة عادية يومية... تمضي بعيداً عن أي من أفراد العائلة، فأناقش، لسوف تجد أراضي عجائب رهيبة لم يروضها مثل ـ مثل بيتنا. ولربما كنت على حق ، أو ربما هذا الموقف أيضاً هو جزء من شكواي، ربما هذا ـ ماذا؟ ـ هذا العقل المتمرد اللعين كله أيضاً، نتيجة خطأ أمي.

من المحتمل أن أخواتي كن يقلن ذلك. أوه يا إيناي، مينبي، ميناهي، أيام زمان! كم كان صعباً عليهن أن يكن بنات أمهن. إذ رغم أنهن كن جميلات، إلا أنها كانت أجمل. فالمرآة السحرية في مخدعها لم تفضل الفتيات الأصغر قط. كما كانت ذات دماغ أفضل، موهبة أرفع، وقدرة على أن تسحر أي خاطب لبناتها، يتجرأ ويتقدم إليها، محذِّرة إياه إلى أن تقضي على حظوظ بناتها كلياً، إذ لا يمكن للشاب، وقد بهرته الأم، أن ينظر بعد ذلك إلى إيني أو ميني أو ميناه المسكينة على الإطلاق... كما كان هناك لسانها السليط وافتقارها لكتف تبكي عليها، ورغبتها في أن تتركهن لامتدادات طويلة من الطفولة في عهدة الآنسة جايا، بارزة العظام وقبضتيها عديمتي المرح... نتيجة ذلك، فقدتهن أورورا كلهن، فكما

تعلمون، كل منهن وجدت طريقها الخاص لكي تترك الأم، رغم حبهن الشديد لها، إذ كن يحببنها أكثر بكثير مما تستطيع أن ترد لهن من حب. أحببنها، في غياب حبها التبادلي، أكثر بكثير مما كن يشعرن بأنه مسموح لهن أن يحببن أنفسهن.

فإينا، أكبرهن، إينا ذات الاسم المشطور نصفين، كانت أجمل الأخوات الثلاث، كذلك، وأخشى أن أقول «غبية العائلة،» كما كانت أخواتها يحببن أن يسمينها، فأورورا، الماما السخية اللطيفة دائماً، كانت تلوح بيدها باتجاه إينا أمام أكبر تجمع يحضر من الناس ثم تقول لضيوفها، «هي فقط منظر تنظرون إليه ولا تتكلمون. فتاة مسكينة محدودة الدماغ».

في سن الثامنة عشرة، جمعت إينا كل ما لديها من شجاعة لكي تدعهم يثقبون أذنيها في محل صائغ في شارع ووردن، لكن لسوء الحظ كوفئت على شجاعتها بالتهاب أذنيها: إذ صارت شحمة كل أذن كتلة متورمة، ثم صار وضعها أسوأ نتيجة القرار الذي اتخذته، لحماقتها، بأن تبقي على ثقبها لهما ومسح الصديد عنهما.

في النهاية اضطرت لأن تذهب إلى المستشفى للعلاج كمريضة خارجية طوال ثلاثة أشهر مؤسفة كاملة، مانحة أمها بذلك سلاحاً جديداً تستخدمه ضدها. «ربما كان الأفضل تقطيع أذنيك إلى شرائح،» كانت أورورا توبخها، «ربما كان الأفضل تثبيت الانسداد، لأن هناك انسداداً، أليس كذلك؟ شمع أذن ما أو سدادة، فالشكل الخارجي ممتاز لكن لا شيء يدخل إلى الداخل».

هي بالتأكيد كانت تسد أذنيها إزاء أمها، وتتنافس معها بالطريقة الوحيدة التي كانت تستطيع التفكير بها: استخدام مظهرها. ثم شيئاً فشيئاً راحت تقدم نفسها كنموذج ـ رسم للفنانين الذكور في حلقة أورورا ـ المحامي، عازف السارانجي، مغني الجاز ـ وحين كانت تكشف عن جسدها الخارق للعادة في مراسمهم، وعن قوة جاذبيته، كانت تسحبهم

إلى مدارها في الحال، مثل توابع تسقط من مداراتها لتتحطم على تلالها الناعمة، ثم بعد كل غزو ترتبه لأمها، كانت تكتشف ملاحظة عاشق أو صورة إباحية، وكأنها هندية حمراء شجاعة من الأباتشي، تعرض جلدات ـ رؤوس أمام الزعيم الكبير في خيمته. لقد دخلت ميدان التجارة وكذلك الفن، لتصبح عارضة الأزياء الهندية الأولى وفتاة الغلاف الأولى للكثير من المجلات. شهرتها تزايدت لتنافس شهرة نجمات السينما في هوليوود. لقد غدت إينا الإلهة الصامتة للجنس، مستعدة لأن تلبس أكثر الملابس كشفاً لمفاتن الجسد من تصميم سلالة جديدة من المصممين الشبان الراديكاليين الذين ظهروا في المدينة، ثياب عارية إلى حد أن الكثير من فتيات الطبقة العليا كن ينزعجن. أما إينا التي لا تنزعج فكانت تخطف كل عرض بوركيها المتمايلين يمنة ويسرة، فيما كان وجهها على غلاف مجلة يبيع المجلة بأكثر من ثلث مبيعاتها، لكنها لم تكن تجري مقابلات، صادة كل المحاولات لاكتشاف أسرارها الأشد حميمية، كلون غرفة نومها مثلاً، أو بطلها السينمائي المفضل، أو الأغنية التي تحب ترددها في الحمام. كذلك لم تكن تقبل النصائح المتعلقة بجمالها، ولا تواقيع ولا صور تؤخذ لها. إذ بقيت بعيدة متعالية: بكل بوصة من القشرة الخارجية للمرأة التي جاءت من تل ملابار، سامحة للناس أن يتخيلوها فقط نموذجاً «للضحكة». لقد زاد صمتها من فتنتها، سامحة بذلك للرجال أن يحلموا بنسخهم الخاصة عنها، وللنساء بأن يتصورن أنفسهن بصندلها ذي الشرائط أو حذائها جلد التمساح. وفي ذروة الطوارئ حين كان الشغل في بومباي عادياً تقريباً، باستثناء أن الجميع كانت تفوتهم القطارات، لأنها بدأت تنطلق في مواعيدها تماماً، كذلك حين بدأت جراثيم التطرف الاجتماعي تنتشر دون أن تظهر في المدينة بعد ـ في تلك الفترة الغريبة تم التصويت على أن أختي إينا هي النموذج الأول، وذلك من قبل النساء قارئات المجلات في المدينة، ضاربة السيدة إنديرا غاندي بمعدل 2 إلى واحد.

لكن السيدة غاندي لم تكن المنافسة التي تحاول أن تهزم، فعدت انتصاراتها بلا معنى نتيجة فشل أورورا في أن تلتقط الطعم وتدين تحللها ونزعتها للتعري، إلى أن استطاعت إينا أخيراً أن ترسل لأمها برهاناً موثقاً عن علاقة ـ عطلة نهاية أسبوع مختلسة، كما تبين، في بيت اللورد المركزي في ماثيران ـ مع فاسكو ميراندا. ذلك أصاب الهدف. إذ استدعت أورورا ابنتها الكبرى، لعنتها وسبتها واصمة إياها بالعاهرة الشبقة، مهددة إياها بأن ترميها في الشارع. «لا، ليس عليك أن ترميني في الشارع،» أجابت إينا بكثير من الكبرياء، «ولا تزعجي نفسك، أنا نفسي ذاهبة إليه».

ثم خلال أربع وعشرين ساعة فرت إلى ناشفيل في ولاية تنيسي، مع شاب لعوب هو الوارث الوحيد لما تركه آل كاشوند ليفري من ثروة بعد أن اشترى أبراهام الكثير من أبيه وعمه. إذ كان جمشيد كاشوند ليفري مشهوراً في النوادي الليلية في بومباي باعتباره أكبر مبذر تحت اسم مختصر هو جيمي كاش، ولما كان يحب أن يدعوه بـ «موسيقى الشرق والبلاد»، وهي مجموعة من أغانٍ ذات خنة حول المزارع، القطارات، الحب والأبقار مع فتلة ذات خاصية هندية. الآن، غادر هو وإينا البلاد، حاملين معهما حبهما إلى البلدة، حيث اتخذت اسماً مسرحياً هو غودي (أي اللعبة) غاما ـ وهو استخدام لنسخة مختصرة من اسم أمها العائلي كان يوحي باستمرار بتأثير أمها عليها، فكراً وعملاًـ كما كان هناك تطور آخر. فهي التي كانت أسطورة بقائها صامتة على الدوام، فتحت الآن فمها وصارت تغني، على رأس فريق من ثلاثة مغنين داعمين لها ولاسم العمل الذي وافقت عليه رغم مضمونه الذي يوحي بالخيول، ألا وهو «جيمي كاش والجيجي».

بعد عام عادت إينا إلى البيت مجللة بالخزي. لقد صدمتنا جميعاً. إذ صار شعرها زيتياً مشعثاً كما زاد وزنها أكثر من سبعين رطلاً (انكليزياً) ليست غودي غاما الآن! فمسؤولو الهجرة وجدوا صعوبة كبيرة في أن يصدقوا أنها هي نفسها الفتاة التي يحمل جواز السفر صورتها. زواجها

انتهى ورغم قولها إن جيمي تكشف عن وحش، إلا أننا لم نكن ندري ما فعل، كما تبين أيضاً، مع مرور الزمن، أن شهيتها الجنسية العارمة لرعاة البقر كثيري الصياح، ونزعتها المتزايدة للتعري لم تتناسب تماماً مع الحكام الأخلاقيين لمصائر المغنين في تنيسي، أو بالحقيقة، لم تتناسب مع زوجها جمشيد، ولكي تزيد الطين بلة، غنت مع مغنيات غير مدربات، أصواتهن كأصوات الإوز، كما أنفقت المال بمثل الحرية التي كانت تشارك فيها بمباهج الطبخ الأمريكي، كذلك ازدادت نوبات غضبها أكثر من ازدياد أي شيء آخر فيها. في النهاية، فر جيمي منها، وتخلى عن «موسيقى الشرق والبلاد» ليدرس القانون في كاليفورنيا.

«يجب أن أرجعه»، كانت تتوسل لنا، «يجب أن تساعدوني لتنفيذ مخططي».

المنزل هو المكان الذي يمكنك أن تعود إليه دائماً، بغض النظر عن الظروف المؤلمة التي تركته بها. لم تذكر أورورا شيئاً عن الصدع الذي حدث بينهما قبل عام، بل أخذت الطفلة المسكينة بين ذراعيها. «سنتفق على تلك المسألة،» أراحت ابنتها الباكية. «فقط قولي لنا ماذا تريدين».

«يجب أن آتي به إلى هنا» قالت باكية، «إن يفكر بأنني أموت، سيعود بالتأكيد. أرسلي له برقية تقول إن هناك شكاً بما لا أدري من الأمراض، شيء ما غير معدٍ. نوبة قلبية».

وبذلت أورورا المستحيل كي تمنع نفسها من الابتسام. «ما رأيك» قالت وهي تحضن طفلتها ذات الحجم الجديد، «بنوع من أنواع مرض فقدان الوزن؟».

لكن إينا فاتتها النغمة الساخرة لكلام أمها، «لا، يا غبية» همست في أذن أورورا. «كيف لي أن أخسر مثل هذا الوزن في هذا الوقت؟ لا أريد المزيد من أفكارك السيئة، قولي له،» وهنا أشرق وجهها إلى حد كبير، «سرطان».

* * *

أما ميني: فقد وجدت طريقها للنجاة في السنة التي سافرت فيها إينا. لكن يؤسفني أن أعلمكم أن إينا موراتا الحلوة، ألطف أخواتها فطرة، أصبحت في تلك السنة متعلقة بحب شخصية عظيمة لا تقل عن شخصية يسوع الناصري نفسه، ابن الإنسان، وأمه المقدسة أيضاً. فالفأرة ميني، الفتاة التي كانت دائماً تصدم بسهولة، والتي كانت دائماً أخت كل من يدخل بيتنا من وجوديين، هذه الميني ـ الصغيرة، ذات العينين الواسعتين، التي كانت تدرس التمريض على يد راهبات شارع «ألتامونت» أعلنت عن رغبتها في أن تتخلى عن أورورا، أم لحمها وعظمها، من أجل ماريا غراشيا بلينا، أم الرب، أن تتخلى عن أخواتها لصالح أخوة الرهبنة، وتلتف برداء من حب...

«المسيح» طرحت أورورا، وهي أشد غضباً من أية مرة رأيتها فيها. «تلك هي الطريقة التي تردين لنا بها ما فعلناه من أجلك».

تلونت ميني، فيما كان بإمكانك أن تراها راغبة في أن تقول لأمها أن لا تذكر اسم الرب بهذه الطريقة، لكنها أمسكت لسانها، عاضة على شفتها إلى أن أدمتها، ثم دخلت في إضراب عن الطعام. «دعوها تموت» قالت أورورا بكل عناد. «فالأفضل أن أراها جثة من أن أراها راهبة». لكن طوال ستة أيام، لم تأكل ميني الصغيرة ولم تشرب، إلى أن باتت تصاب بالإغماء كما باتت مقاومتها لأن تستعيد وعيها أشد وأشد. وهكذا، بضغط من أبراهام، لانت أورورا. إذ كان من النادر أن أرى أمي تبكي، لكنها في اليوم السابع بكت إلى أن جفت الدموع من عينيها وتحولت إلى نشجات خشنة متقطعة. هنا استدعيت الأخت حنا من دير غراشيا بلينا ـ والأخت حنا هي التي ساعدتها في كل ولاداتها ـ فوصلت بالهيئة الرزينة لملكة غازية، لكأنها الملكة إيزابيلا، ملكة اسبانيا، وهي تدخل قصر الحمراء كي تقبل استسلام أبي عبد الله الصغير. لقد كانت امرأة عجوزاً كبيرة كسفينة ذات أشرعة بيضاء حول رأسها وطيات من اللحم الناعم

تحت ذقنها. كل شيء يتعلق بها كان يتخذ ترجيعاً رمزياً ذلك اليوم، إذ بدت أشبه بالسفينة التي سترحل بها أختي بعيداً. وعلى شفتها العليا كان ثمة ما يدل على تمرد الإيمان الحقيقي حيث برز منه ما يشبه السهام ـ التي تشير إلى معاناة المؤمن الحقيقي ـ نصف دزينة من شعرات كالإبر. «مبارك هذا البيت»، قالت، «لأنه يقدم عروساً للمسيح». واضطرت أورورا الزغبي لأن تستخدم كل ما لديها من وسائل ضبط النفس كيلا تقتلها في المكان.

على هذا النحو، أصبحت ميني تلميذة راهبة في دير، وحين زارتنا بثوب أودري هبورن في «قصة راهبة»، دعاها الخدم ـ من بين كل التسميات ـ بميني الفأرة. يعنون بذلك الأم الصغيرة، لكنني لم أستطع منع نفسي من رؤية التسمية ساخرة قليلاً، كما لو أن شخصيات ديزني التي رسمها فاسكو ميراندا في جناحنا الخاص بالأطفال، كانت بشكل من الأشكال مسؤولة عن عملية تحول أختي. كذلك فإن هذه الميني الجديدة، هذه الميني المعينة، البعيدة، المركبة ذات الابتسامة كابتسامة الموناليزا وشرارة الإيمان في عينها المثبتة على الأبدية، هذه الميني بدت وكأنها غريبة عني لكأنها باتت فرداً من أفراد جنس مختلف: ملاك أو شهيد أو فأرة ذات بعدين. لكن أختها الكبرى تصرفت كما لو أن شيئاً لم يتغير في علاقتهما، كما لو أن ميني ـ رغم أنها جنِّدت في جيش مختلف ـ ما تزال مضطرة لأن تطيع أوامر أختها الكبرى.

«قولي لراهباتك»، أمرتها إينا، «أن يحجزن لي سريراً في بيتهن الخاص بالتمريض». (فراهبات غراشيا بلينا في شارع ألتاماونت كن اختصاصيات بطرفي الحياة، أي مساعدة الناس للدخول في هذا العالم الآثم والخروج منه).

«إذ يجب أن أكون في مكان كهذا حين يعود حبيبي جيمي كاش».

لماذا فعلنا ذلك؟ ـ ذلك أن الكل اشتركوا في مؤامرة إينا، كما تعلمون، فأورورا بعثت برقية «السرطان»، وميني أقنعت الراهبات في تأمين سرير لها بدافع الشفقة مناقشة أن أي شيء ينقذ زواجاً أي يحمي مؤسسة مقدسة، هو طاهر في عيني الإله، وحين فعلت البرقية فعلها وطار جيمي كاش إلى البلدة، تأكدت القصة. إذ حتى ميناه أختي الثالثة والأقسى التي تم قبولها أخيراً في مهنة محامي بومباي وبتنا نراها أقل وأقل في تلك الأيام، شاركت في اللعبة.

قسمتنا لعينة، نحن آل داغاما، إذ لا بد لكل منا أن يضرب في اتجاه مخالف للآخرين، أن يدعي ملكية أرض يمكننا كلنا أن ندعوها أرضنا. ذلك أنه بعد أعمال أبراهام التجارية وفن أورورا، جاء احتراف إينا لنزعتها الجنسية، واستسلام ميني للإله. أما بالنسبة لفيلومينا الزغبي ـ فقد أسقطت اسم ميناه حالما كان باستطاعتها ذلك، واختفت الطفلة التي كانت تقلد شدو الطيور منذ زمن طويل، رغم أن العائلة، لشدة عنادها، استمرت بإزعاجها نتيجة استخدامها اللقب الكريه كلما زارتنا في المنزل ـ فقد اختارت حياة مهنية من النوع الذي ينبغي على كل ابنة صغرى أن تختاره لكي تلفت الانتباه، أي، الاحتجاج. إذ ما إن تأهلت كمحامية حتى قالت لأبراهام إنها انضمت إلى جماعة نسائية راديكالية من الناشطات، مخرجات الأفلام والمحاميات، هدفها كشف الفضائح المزدوجة للناس غير المرئيين وناطحات السحاب غير المرئية، التي خرج منها بأرباح جمة. لقد ساقت كيلي كولاكار وأعوانه في المجلس البلدي إلى المحكمة، في قضية تمثل معلماً من معالم القضاء دامت سنين كثيرة وهزت مبنى شركة ستيفينز ـ كم عمره؟ ـ قديم، منذ زمن قديم ـ حتى أساساته. بعد سنين، نجحت في وضع النصاب كيكي في السجن، لكن أبراهام الزغبي نجا، وقد عرض على المحكمة صفقة بعد مفاوضات مع السلطات الضريبية أثارت سخط ابنته. لقد دفع غرامة كبيرة

وهو مبتهج، كما شهد لصالح الادعاء ضد حليفه القديم، فمنحه الادعاء مقابل ذلك حصانة تحميه من أية محاكمة، ثم، بعد أشهر، اشترى حجرات كيكي الجميلة بأبخس الأثمان من شركة السياسي السجين المتداعية. كما كانت هناك هزيمة أخرى لميناه، إذ رغم أنها كانت قد أثبتت بكل نجاح وجود أبنية غير مرئية، إلا أنها فشلت في إثبات حقيقة وجود الأناس غير المرئيين الذين بنوها. إذ ظلوا يصنفون كأشباح، يتحركون في المدينة، كأخيلة، باستثناء أن هذه الأخيلة أبقت المدينة في حالة حركة، بناء منازل، تحميل بضائع، تنظيف نفايات، ثم بكل بساطة وبشكل مخيف تموت، كل منها بدورها، دون أن يراها أحد، فيما تتدفق دماؤها الشبحية من أفواهها الشبحية وسط شوارع المدينة ـ المومس، غير المهتمة والحقيقية كلها تماماً.

عندما دخلت إينا مستوصف أخوات ألتاماونت لترقد في سريرها بانتظار عودة جيمي كاش، فاجأتنا فيلومينا كلنا بقيامها بزيارة أختها. كانت هناك أغنية دوري بريفين التي كانت تسمعها كثيراً حينذاك ـ إذ تحصل أحياناً على الأشياء في وقت متأخر قليلاً ـ وفيها تتهم حبيبها بأنه مستعد لأن يموت من أجل الغرباء كلياً، لكنه غير مستعد لأن يعيش معها... حسن، نحن كنا نفكر بالأمر ذاته بالنسبة لفيلو مينانا. وهو ما جعل اهتمامها بالمسكينة إينا مفاجئاً تماماً.

لماذا فعلنا ذلك؟ لأننا فهمنا على ما أظن أن شيئاً ما كان قد تحطم وأن تلك كانت رمية الزهر الأخيرة لإينا في لعبة نرد. لأننا على ما أظن كنا نعلم دائماً أنه على الرغم من أن ميني كانت أصغر حجماً وميناه كانت أصغر سناً، إلا أن إينا هي الأشد هشاشة، وأنها لم تعد كما يجب أن تكون، مذ شطر والداها اسمها إلى شطرين، وأنها بشبقها الجنسي وكل ذلك كانت تتصدع منذ سنين. إذ كانت تغرق، وفي غرقها تمسك بالقش كما كانت تمسك بالرجال، فيما كان جيمي التافه آخر قشة معروضة عليها.

عرضت ميناه أن تأتي بجيمي من المطار، بحجة أنه بعد أن بدأ حياته الجديدة في دراسة القانون، قد يجد من الأسهل عليه أن ينفتح لها. مذعوراً جداً وفتياً جداً بدا حين وصل، ولكي تريحه بدأت تهذر، وهي تسوق به في شوارع البلدة، حول عملها، كفاحها «ضد حكم الذكور» حول قضية العالم غير المرئي، وكذلك حول جهود جماعتها النسائية لمكافحة حالة الطوارئ في المحاكم. كما تكلمت عن المناخ، عن الخوف الذي يتغلغل في الكثير من أنحاء البلاد، عن أهمية الكفاح من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان، قائلة: «إنديرا غاندي فقدت الحق في أن تدعو نفسها امرأة، إذ أصبحت شرطية سرية». ولأنها كانت مستغرقة تماماً في همومها ومقتنعة تماماً بعدالة قضيتها، فقد فشلت في أن تلاحظ أن جيمي كان يتوتر كل دقيقة أكثر وأكثر. فهو لم يكن رجل فكر ـ ومدرسة القانون تبرهن على أنها بحاجة لكفاح شديد ـ أما الأمر الأكثر أهمية أيضاً، فهو أنه لم يكن فيه قطرة دم واحدة من الراديكالية السياسية، وهكذا، كانت ميناه هي الأولى بيننا التي وضعت عصاة في عجلة إينا، حين قالت له إنها وزميلاتها يتوقعن أن يلقى القبض عليهن في أي يوم، ففكر جدياً بأن يقفز من السيارة ويعود مباشرة إلى المطار قبل أن يصبح مجرماً لارتباطه ببنت حماة خطرة إلى ذلك الحد.

«إينا تموت لرؤيتك». قالت ميناه في نهاية حوارها الإفرادي، ثم احمرت لاختيارها تلك الكلمة المجازية. «أعني، لا، هي لا تموت»، صححت قولها بكل حرارة لتزيد بذلك الطين بلة. وساد صمت. «أوه، يا للجحيم، ها نحن وصلنا على أية حال»، لتضيف بعد لحظة «الآن يمكنك أن ترى بنفسك».

عند باب مستوصف ماريا غراشيا بلينا التقت بهما ميني، وهي تبدو أشبه بأودري هيبورن من أي وقت مضى، ثم طوال الطريق إلى أن وصلت إلى الغرفة التي كانت فيها إينا تنتظر مثل بالون منفوخ، راحت

تتكلم عن نار جهنم واللعنة، إلى ـ أن يفرقنا ـ الموت بصوت ملائكي حاد مثل الزجاج المكسور. حاول جيمي أن يقول لها إنه هو وإينا لم يوقعا على نموذج العقد النهائي الكامل، بل اختارا بدلاً من ذلك نمط الزواج المدني الخاص الذي يعقد في أنصاف الليالي مقابل خمسين دولاراً في بهو «نزل الزواج» السريع في رينو، وأنهما تزوجا على وقع موسيقى هانك وليامز بدلاً من الأناشيد الكنسية القديمة أو الحديثة، واقفين ليس أمام مذبح بل بجانب «مركز نخع»، حيث لم يكن هناك كاهن يضفي الصبغة الرسمية على الزواج، بل رجل يلبس قبعة سعة ـ عشرة غالونات ومسدسان كل منهما بست طلقات على وركيه، وأنهما في اللحظة التي أعلنهما فيها زوجاً وزوجة، خطا راعي بقر يطوق عنقه بمنديل مزين بالرسوم خلفهما، ثم بصيحة «يا هو» قوية ضمهما معاً فانغرزت الأشواك في صدرها وأدمته.

لم تكن أختي لتبالي بأعذار دنيوية كهذه. «راعي البقر ذاك،» أعلنت، «كان، ألا ترى؟ ـ رسول الإله؟»

وزادت مقابلته مع ميني ردة فعل ـ الهرب التي كان حوار ميناه الإفرادي قد حث عليها من قبل. ثم، ولا بد أن أعترف، قمت أنا بدوري الغر قليلاً أيضاً. فعندما وصلت ميني وجيمي إلى خارج غرفة إينا، كنت أستند على جدار الممر، أحلم حلم يقظة. وبكل شرود ـ ذهن، وأنا أرى بعين عقلي فتى ضخماً من السيخ يهجم علي في زقاق مزدحم بالناس، بصقت على يدي اليمنى المشوهة، فقفز جمشيد إلى الوراء خائفاً، مصطدماً بميناه، هنا أدركت أنني بدوت أشبه بأخ ينتقم، عملاق بطول ست أقدام ونصف يستعد لأن يصرع رجلاً سبّب لأخته مثل ذلك الشقاء. حاولت أن أعيد يدي إلى حالة السلم، لكنه فهم ذلك على أنه تحدي ملاكم، فاندفع إلى غرفة إينا، ووجهه لوحة كاملة للخوف.

مسرعاً، انزلق قبل أن يتوقف على بعد بوصات قليلة من أورورا الزغبي نفسها. خلف أمي، وعلى السرير، كانت إينا قد بدأت نوبة من الأنين والعنين، لكن عيني جيمي ثبتتا على أورورا، تلك السيدة العظيمة التي كانت حينذاك في خمسيناتها، إلا أن الزمن لم يفعل إلا ما يزيد من فتنتها، فجمّدت جيمي، مثل حيوان أبكم ركزت عليه مصابيح السيارة الأمامية، موجهة أشعة انتباهها الباهرة إليه، دون أن تنبس ببنت شفة، لتحوله إلى عبد من عبيدها. بعد ذلك، حين انتهت المهزلة ـ المأساة تلك، أخبرتني ـ بل عملياً، اعترفت لي ـ أنها لم يكن عليها أن تفعل ذلك، بل كان عليها أن تتنحى جانباً وتدع الزوجة والزوج المفترقين يعملان ما بوسعهما لرأب الصدع بينهما. «لكن ماذا أفعل (وكنت حينذاك نموذجها الذي تثرثر معه وهي ترسم،) أنا فقط أردت أن أرى إن كانت دجاجة عتيقة مثلي ما يزال بإمكانها أن تفتن رجلاً في عز الشباب».

لم يكن باستطاعتي منع ذلك، كانت أمي ـ العقرب تقصد. **فذلك في** طبيعتي.. إينا، خلفها، سرعان ما فقدت السيطرة على نفسها. لقد كانت خطتها المرضية تقضي بأن تستعيد هي جيمي بأن تقول له كم حظها سيئ، وكم كان السرطان منتشراً، خطيراً، ومتمكناً منها، فالغدد اللمفاوية مصابة، والأسوأ أن ذلك كله تم اكتشافه بعد أن فات الأوان، لكن ما إن ركع على ركبتيه طالباً الصفح، وبدلاً من أن تسمح له بأن يتصبب عرقاً بضعة أسابيع، فيما تدعي هي أنها تخضع للعلاج الكيماوي (وكانت مستعدة لأن تتضور جوعاً، وحتى أن يخف شعرها لكي تستعيد حبها). معلنة، في النهاية أن معجزة الشفاء حدثت وأنهما سيعيشان معاً بسعادة طول العمر. بدلاً من ذلك كله، ألغيت هذه المخططات كلها بنظرة الإعجاب غير السوي التي كان زوجها ينظر بها إلى أمها.

في تلك اللحظة تحولت حاجة إينا الماسة له إلى نوع من الجنون. وفي جنونها ذاك ارتكبت الخطأ الذي لا يمكن إصلاحه وهو تسريع خطتها،

إذ صرخت «جيمي... إنها معجزة يا رجل، الآن وقد صرت هنا، أنا شفيت، أنا أعرف ذلك وأقسم عليه. دعهم يجرون لي اختباراً ولسوف ترى. جيمي، لقد أنقذت حياتي. ووحدك أنت من يستطيع فعل ذلك. إنها قوة الحب».

حينذاك نظر إليها مدققاً، فاستطعنا كلنا أن نرى كفة ميزانها تسقط من عينيه. ثم التفت إلى كل منا بدوره فرأى التآمر واضحاً تماماً في وجوهنا. رأى الحقيقة التي لم يعد باستطاعتنا إخفاؤها، فيما أطلقت إينا، وقد انهزمت، شلالاً فريداً من شلالات الحزن. «أية عائلة هذه». قال جمشيد كاشوند ليفري. «أقسم إن فيها مساً من جنون». ثم ترك الغرفة ولم ير إينا بعد ذلك قط.

* * *

فراق جيمي طلقة كان قد تم التنبؤ بها. ومذلة إينا لحظة ـ التحطم في تاريخ عائلتنا. فعند ذلك اليوم وطوال السنة التالية كلها، صارت مجنونة، داخلة في نوع من الطفولة الثانية. فأرجعتها أورورا إلى غرفتها الممتلئة جدرانها برسوم فاسكو، حيث بدأنا ـ كلنا ـ حين تتفاقم حالة جنونها، بإلباسها سترة المجانين كما توضع حشوة على الجدران، لكن دون أن تسمح أورورا بنقلها إلى مصح عقلي. الآن وقد فات الأوان، الآن وقد فقدت إينا عقلها، أصبحت أورورا أعظم الأمهات حباً في العالم، تطعمها بالملعقة بنفسها، تحممها مثل طفلة صغيرة، تحضنها وتقبلها كما لم تحضنها ولم تقبلها حين كانت عاقلة ـ مانحة إياها الحب، إن جاز لنا القول، الذي لو تم منحه لها من قبل، لأشاد، ربما، لدى ابنتها الكبرى القوة التي تمكّنها من مقاومة الكارثة التي دمرت عقلها.

بعد انتهاء حالة الطوارئ بفترة وجيزة، توفيت إينا بالسرطان، إنه السرطان اللمفاوي الذي تطور فجأة تماماً ثم التهم جسدها كله مثلما يلتهم شحاذ طعام مائدة. وحدها ميني التي أكملت تلمذتها الرهبانية،

لتسمى الأخت فلورياس ـ «ذلك يبدو بأشبه نبع فوار، » وقد نخرت له أورورا بازدراء المحبط ـ فلورياس التي كان لديها من الشجاعة ما جعلها تقول لإينا إنها استدعت المرض لنفسها بنفسها وإنها «اختارت نهايتها بنفسها». لم تتكلم أورورا وأبراهام عن موت إينا قط، مكرمين إياها بالسكوت عنها، ذلك السكوت الذي ساعد إينا ذات يوم في أن تصبح الجميلة المشهورة، لكنه كان الآن صمت القبور.

وهكذا، إينا ماتت، ميني ذهبت، وميناه اعتقلت فترة وجيزة. إذ تم القبض عليها يوم انتهاء الطوارئ بالذات. لكن سرعان ما أطلق سراحها، فتعززت شهرتها كثيراً بذلك، إثر هزيمة السيدة غاندي في الانتخابات. لقد أرادت أورورا أن تقول لابنتها الصغرى كم هي فخورة بها، لكن لسبب ما لم تستطع قول ذلك، ربما هي البرودة بشكل ما، ثم تعجل فيلومينا الزغبي في كل تصرف يتعلق بناسها، أفلحا معاً في إيقاف لسان أمها الحبيبة عن النطق. ولم تكن ميناه تزور إليفانتا إلا نادراً، كما كانت قد ابتعدت عني.

* * *

ثمة شخص أخير في العالم سقط في الصدع، إذ طردت ديلي هرمز. فالآنسة جايا هيي، التي كان عملها في المنزل مربية أطفال فتطور إلى مدبرة منزل. استفادت من موقعها لتوجه ضربتها الانتقامية الأخيرة. فمن مرسم أورورا سرقت ثلاثة رسوم لي وأنا صبي، رسوم كانت يدي المشوهة فيها قد تحولت على نحو رائع لتصبح زهرة متنوعة الأشكال، فرشاة رسم، ثم سيفاً.

أخذت الآنسة جايا هذه الرسوم إلى شقة ديلي قائلة إنها هدية من «السيد النالك». بعدئذ قالت لأورورا إنها رأت المعلمة تسرق الرسوم، **واعذريني، سيدتي البيجوم، موقف تلك المرأة من ولدنا ليس بالموقف الأخلاقي**. في اليوم ذاته، زارت أورورا ديلي ورأت الرسوم مؤطرة فضية

وضعتها المرأة العذبة على البيانو، مخفية بذلك صور عائلتها ذاتها، فكان ذلك كل البرهان الذي كانت أمي بحاجة إليه لإثبات جريمة المعلمة. أنا نفسي حاولت أن أتدخل لصالح ديلي، لكن حين ينغلق عقل أمي، ما من قوة على الأرض يمكنها أن تفتحه. إذ قالت لي «على أي حال، أنت الآن أكبر من أن تحتاج إليها، ولم يعد لديها شيء زيادة يمكن أن تتعلمه منها».

بعد أن طردت، قابلت ديلي كل مبادراتي تجاهها بالاحتقار - اتصالاتي الهاتفية، رسائلي - أزهاري. لكن ذات يوم مشيت منحدراً التل إلى المنزل بجانب مخازن فيجي، وحين وصلت إلى هناك لم تسمح لي بالدخول. إذ فتحت الباب بعرض ثلاث بوصات ثم أبت أن تفسح لي في الطريق. فتلك القامة الطويلة، قامتها يؤطرها خشب الساج، ذاك الفك المتمرد، ذلك الطرف بالعين قصيرة - النظر، كان كل ما لقيته من مكافأة لرحلتي التي تصببت فيها عرقاً. «اذهب في طريقك، أنت ولد مسكين». قالت لي، «على أنني أتمنى لك كل الخير في طريقك الصعب». هكذا كان انتقام الآنسة جايا.

(13)

يمكن تقسيم ما يدعى «برسوم المغربي»، التي رسمتها أورورا الزغبي، إلى ثلاث مراحل متميزة: الصور «المبكرة»، وقد تم رسمها بين 1957 و 1977. أي يمكن القول بين سنة مولدي وسنة الانتخابات التي أطاحت بالسيدة غاندي من السلطة، ثم صور «موت إينا» خلال السنين «الرائعة» أو «الرفيعة» بين 1977 و1981، التي أبدعت خلالها اللوحات العميقة المتألقة التي رافقت اسمها أغلب الأحيان، ثم ما يدعى «بالمغربيات القاتمة»، وهي لوحات المنفى والرعب التي رسمتها بعد رحيلي والتي تتضمن لوحتها الأروع، اللوحة الأخيرة التي لم تنجز ولم توقع، بعنوان «تنهيدة المغربي الأخيرة» (170 × 247سم، زيتية على قماش، 1987 حيث التفتت فيها أخيراً إلى الموضوع الوحيد الذي لم تعالجه مباشرة ـ إذ واجهت، بذلك التصوير القاسي، اللحظة التي طُرِد فيها أبو عبد الله من غرناطة، ومعاملتها الخاصة لابنها الوحيد). إنها اللوحة التي كانت، بكل ضخامتها، تجرَّد إلى أساسيات قاسية، بحيث تلتقي كل عناصرها عند وجه في قلبها، وجه السلطان الذي كان يتدفق منه الرعب، الضعف، الخسران والألم، كما تتدفق الظلمة ذاتها، وجه في حالة من العذاب الوجودي يذكّر بعذاب إدوارد منش. إنها لوحة مختلفة عن معالجة فاسكو ميراندا العاطفية للموضوع ذاته، بقدر ما يمكن تخيل ذلك. لكنها كانت أيضاً لوحة السر، ذلك «الرسم المفقود» ـ حيث كانت معالجة كل من فاسكو وأورورا لهذا الموضوع ستختفي خلال بضع سنوات من وفاة أمي، فهي الوحيدة التي سرقت من مجموعة سي. جي بهابها الخاصة، فيما سرقت الأخرى من موروثات الزغبي ذاتها. أيها السيدات والسادة: اسمحوا لي أن أدغدغ اهتمامكم بالكشف أن تلك اللوحة هي التي أخفت فيها أورورا الزغبي، في أيامها الأخيرة، نبوءة موتها. (ومصير فاسكو أيضاً كان مرتبطاً بقصة تلك اللوحة).

إنني، وأنا أسجل ذكرياتي عن دوري في تلك اللوحات، أعـي بـالطبع أن أولئك الذين يجعلـون مـن أنفـسهم نمـاذج رسـم يقـوم عليهـا العمـل الفـني، يمكـن أن يقـدموا، في أفـضل الأحـوال، الجانـب الخطـأ مـن اللوحة، الجانب الـذاتي وغالبـاً المجـروح، بـل أحيانـاً المليء بالحقـد لفسحة العمل المنجز. إذن، ما يمكن للغـضار المتواضـع أن يقـول قـولاً مفيداً عن الأيدي التي شكلته؟ ربما ببساطة هذا: لقد كنـت هنـاك، ولقـد قمت، خلال سنوات الجلوس كنموذج، برسمها أيضاً إذ كانت تنظـر إلي وأنا أرد لها النظرات تماماً.

وذلك ما رأيت: امـرأة طويلـة بـسترتها «الكورتـا» الـتي تـصل إلى منتصف بطة الساق، الملطخة ـ بالدهان والتي هي مـن نـسج مـنزلي، ترتديها فـوق بنطـال فـضفاض كحلـي كالـذي يلبـسه التجـار، حافيـة القـدمين، شـعرها الأبـيض مكـوم علـى شـكل كتلـة فـوق رأسـها، والفراشي تبرز منه ليعطيها المظهر الغريب «للسيدة الفراشـة»، فراشـة أشـبه بكـاترين هيبـورن، أو أجـل ـ نـرجس في نـسخة غـلاف هنديـة مغفلة، قامت بدورها «السيدة تيتلي»: ليست فتية بعد، ليست متبرجـة بعد، وبالتأكيد ليست منزعجة حول عودة «بنكيرتون» المثيرة للـشفقة. كانت تقف أمامي في أقل مراسمهـا بـذخاً، غرفـة تفتقـر كـل الافتقـار لكرسي مريح ودون مكيف هوائي، بحيـث أنهـا كانـت حـارة ورطبـة للغاية مثل سيارة أجرة رخيصة، فيما مروحة سقف بطيئة تدور بكـسل فوق رأسك. لم تبدِ أورورا أية إشارة تتعلق بالطقس اللعين، كذلك أنا لم أفعل ذلك، بالطبع، بل كنت أجلس هنـاك حيـث تـأمرني قائلـة لي كيف أجلس، طالبة مـني ألا أتـذمر أبـداً مـن الآلام الـتي قـد تـصيب أطـرافي في وضـعياتها المختلفـة، إلى أن تتـذكر أن تـسألني إن كنـت أرغب باستراحة. بهذه الطريقة، تسرب شيء من عنادهـا الأسـطوري، تصميمها، عبر القماش ليصل إلي.

إنني الطفل الوحيد الذي أرضعته من صدرها. وقد صنع ذلك فرقاً: إذ رغم أنني كنت أتلقى حصتي من سلاطة لسانها، كان ثمة شيء ما، في موقفها تجاهي، أقل تدميراً من معاملتها لأخواتي، ربما هي «حالتي التي جعلتها ترفض السماح لأحد بتسميتها مرضاً، وذلك رقق قلبها، فالأطباء أطلقوا على سوء حظي في البداية اسماً، ثم آخر، لكن عندما كنا نجلس في مرسمها كفنانة ونموذج، كانت أورورا تقول لي باستمرار إن علي ألا أفكر بنفسي كضحية، كمصاب باضطراب الكبر بالسن قبل الأوان غير القابل للشفاء، بل كطفل سحري، راحل زمني. «فقط أربعة أشهر ونصف في الرحم،» كانت تذكرني، «طفلي أنا،» ثم ما إن بدأت بالخروج حتى خرجت بسرعة. وربما سترحل تماماً وتخرج من هذه الحياة إلى فضاء وزمان آخرين. ربما ـ من يدري؟ ـ هو أفضل». تلك لحظة كانت فيها أقرب ما تكون للاعتراف، للإقرار باعتقادها أن هناك حياة ما بعد الحياة. إذ بدا وكأنها كانت قد قررت أن تكافح الخوف ـ خوفها وكذلك خوفي ـ بالتوفيق بين خطط تخمين كهذه، وذلك بجعل حظي هو المتميز، كذلك تقديمي إلى نفسي وإلى العالم أيضاً كإنسان خاص، إنسان ذي معنى، كينونة خارقة للطبيعة، لا تمت بالفعل لهذا المكان، هذا الزمان، بل حضورها هنا يحدد حياة من حولها والعصر الذي عاشت فيه.

حسن. أنا صدقتها. كنت بحاجة لعزاء وكنت سعيداً أن أتلقى أي عرض يأتيني. لقد صدقتها وقد ساعدني ذلك. (حين علمت بالليلة المفقودة، بعد جائزة اللوتس في دلهي، وقبل أربعة أشهر ونصف من حبلها بي، تساءلت إن كانت أورورا قد قامت بتغطية مشكلة مختلفة، لكني لا أظن أنها كانت كذلك. بل أظن أنها كانت تحاول أن تحول نصف حياتي إلى حياة كاملة، بقوة حب ـ الأم).

لقد أرضعتني، وفي اللوحات الأولى لـ «المغربي» رسمتني وأنا معشش بصدرها: رسوم أقلام الفحم، رسوم الألوان المائية، أقلام «الباستل»

وأخيراً اللوحات الكبيرة الزيتية، أنا وأورورا في وضع يشبه بشكل ما، وعلى نحو يشبه الكفر، سيدة لا رب لها مع طفل. يدي المشوهة صارت ضوءاً متألقاً، مصدر الضوء الوحيد في اللوحة. نسيج ثوبها المتمور تحول إلى ظلال مجردة، السماء زرقاء مثل كوبالت كهربائي. واللوحة كلها ربما ما كان أبراهام الزغبي يأمل به عندما طلب من فاسكو أن يرسم لهنا لوحة قبل عقد من الزمن تقريباً، لأجد أكثر مما كان أبراهام قد تصور يوماً. إذ أظهرت الحقيقة المتعلقة بأورورا، قدرتها الخاصة على خلق عاطفة عميقة وغير أنانية، كذلك عادتها في تعظيم ـ الذات. لقد كانت تكشف الروعة، عظمة سقوطها ـ خارج هذا العالم وتصميمها على أن تتسامى وتعوض نقائصها بالفن. مأساة خفية على شكل فانتازيا، مقدمة بأجمل وأرفع تشكيلات الضوء واللون التي كان بإمكانها أن تبدع. إنها بذرة المس الأساطيري. ولقد سمتها «ضوء ينير الظلمة». «لم لا؟» قالت ثم هزت كتفيها، حين سألها فاسكو ميراندا مع آخرين. «لقد بت مهتمة بصنع لوحات دينية للناس الذين لا يؤمنون بإله». فنصحها:

«إذن، احتفظي في جيبك، بتذكرة سفر إلى لندن، لأنك في هذه المرحلة الملأى بالآلهة العفنة، لا تعلمين متى يمكن أن تفري».

غير أن أورورا ضحكت من نصيحة كهذه، وفي النهاية، كان فاسكو هو الذي فر.

مع نموي، اعتادت أن تستخدمني كموضوع تصوير. هذه الاستمرارية هي أيضاً دليل على الحب. ولكونها عاجزة عن إيجاد طريقة لمنعي من «أن أكبر بسرعة كبيرة»، رسمتني في حالة من حالات الخلود، مانحة إياي الموهبة لأن أكون جزءاً مما سيستمر منها. وهكذا، مثل كاتب ـ الأناشيد، دعوني بذهن سعيد ما أثني عليها. إذ كانت لطيفة. **برحمتها أنا أستمر**... وبالحقيقة إن طلب مني أحد أن أضع إصبعي ـ يدي كلها المشوهة ـ خلقياً ـ على مصدر اعتقادي بأنه رغم تشوه يدي ـ الدبوس

وعدم وديتها، فقد عشت طفولة سعيدة وكأنني في فردوس، ولسوف أثبت ذلك هنا، كما سأقول إن فرحي في الحياة ولد من خلال تعاوننا، من حميمية تلك الساعات الخاصة، حين كانت تتكلم عن كل شيء تحت الشمس، شاردة اللب، وكأنها تعترف أمامي، وبذلك عرفت أسرار قلبها وكذلك أسرار عقلها كلها.

لقد عرفت، مثلاً، كيف وقعت في غرام أبي: الشهوانية العظيمة التي انفجرت من والديَّ كليهما في مستودع إرناكولم ذات يوم لتجبرهما كليهما على أن يجعلا المستحيل ممكناً، سامحين له بأن يأتي ويكون. ما أحببته أشد الحب في والديّ هو تلك العاطفة المتبادلة بينهما، الحقيقة البسيطة في أنها كانت مرة موجودة (رغم أنها مع مرور الزمن بات من الأصعب والأصعب أن تُرى لدى العاشقين الشابين اللذين كانا، وقد تحولا إلى زوجين، يزداد تباعدهما يوماً بعد يوم). ولأنهما أحبا واحدهما الآخر كثيراً، أردت مثل هذا الحب لنفسي، وظمئت له، بل حتى عندما كنت أفقد نفسي في الملاطفات والمداعبات المفاجئة لديلي هرمز، كنت أعلم أنها ليست من أبحث عنها، بل أردت ذلك الشيء الذي يجعلك تتصبب عرقاً كحبات عصير الكزبرة، تتنفس فينطلق لهب الفلفل ـ الحار من شفتيك اللتين تلذعان، أردت حبهما، حب ـ الفلفل، وحين وجدته حسبت أن أمي ستفهم، ثم حين احتججت كي أنتقل، إلى جبل الحب، حسبت أن أمي ستساعد. لكن وا أسفاه!! فقد كنت مخطئاً.

بالطبع، كانت أمي تعرف عن فتيات ـ معابد أبراهام منذ البداية. «فالإنسان الذي يريد الاحتفاظ بالأسرار عليه ألا يثرثر في نومه،» غمغمت على نحو غامض ذات يوم. «وهكذا سئمت من كلام أبيك في نومه، إلى درجة انتقلت معها من غرفته، فالسيدة بحاجة للراحة». وحين أنظر إلى تلك المرأة المشغولة الفخورة بنفسها، أسمعها تقول لي شيئاً آخر يكمن تحت هذه الجمل العرضية ـ اسمعها تقر بأنها، هي التي

رفضت كل المصالحات ولم ترض بأية تسوية، أخلصت لأبراهام وحده، رغم ضعف اللحم البشري الذي جعله عاجزاً عن مقاومة إغراء عينات من السلع التي كان يستوردها من الجنوب. «الرجال المسنون» نخرت ذات يوم آخر، «يسيل لعابهم دائماً على العزباوات أما النساء ذوات البنات الكثيرات فهن الأسوأ». لوهلة من الزمن كنت أصغر وأبرأ من أن أفكر بتلك التلميحات على أنها جزء من العملية التي ظننت أنها من خلالها تدخل في حياة شخصيات لوحاتها، لكن مع الزمن، وبعد أن أيقظت ديلي هرمز شهوتي بحركات يدها، بدأت أفهم المغزى.

لكن على الدوام، كنت أتساءل عن فجوة السنين ـ الثماني بيني وبين ميناه. لذلك، عندما هبط الفهم على روح الطفل لدي بسن الفتى الشاب، مثل لسان من لهب، كنت ـ أنا الذي لم يتمتع بصحبة أولاد مثله، كما وجدت نفسي في سن مبكرة أستخدم مفردات الكبار دون لياقة الكبار أو حنكتهم ـ غير قادر على مقاومة إلغاء اكتشافي: «إذن، توقفت عن إنجاب الأطفال»، صرخت، «لأنه كان يلعب بذيله».

«سأوجه لك ضربة» ردت متوعدة، «تحطم الأسنان في وجهك المنتفخ ـ الوجنتين». لكن الضربة التي تلت ذلك، لم تخلق لي أية مشكلة سنية طويلة ـ الأمد. فلطفها كان كل ما طلبته من إثبات.

ترى لماذا لم تواجه أبراهام حول خياناته هذه؟ إنني أسألك كي تفكر أنها على الرغم من كل أساليبها البوهيمية ذات التفكير الحر، ظلت أورورا الزغبي، في ثنايا قلبها الأعمق، امرأة جيلها، الجيل الذي يجد سلوكاً كهذا محتملاً، وحتى عادياً، لدى الرجل الذي تريحه نساؤه من الوجع فيدفنه تحت تفاهات **تتعلق بطبيعة الوحش وحاجته من حين إلى حين لأن يقوم بحكة**. فمن أجل الأسرة، ذلك المطلق العظيم الذي يمكن لكل الأشياء أن تكون ممكنة باسمه، كانت النساء يشحن بأنظارهن ويبقين حزنهن في صرة معقود عليها في طرف منديلهن، أو مخبأة في

كيس حريري صغير، مثل عملة نقدية صغيرة ومفاتيح بيت. ولعل ذلك كان أيضاً لأن أورورا كانت تعرف أنها بحاجة لأبراهام، بحاجة له كي يشرف على أعمالها التجارية ويتركها تتفرغ لفنها. أجل، ربما كان الأمر بتلك البساطة والسهولة ولا شيء آخر.

(بين معترضتين على كلمة سهولة: في تأملاتي حول قرار أبراهام أن يرحل جنوباً، عندما اتجهت أورورا شمالاً لتلتقي آخر مرة بالسيد نهرو وتثير فضيحة اللوتس، شككت بأن والدي لعب دور الزوج المتساهل. فهل هناك تبادلية تكمن وراء اختياره، هذا الزواج المنفتح الأجوف، هذا الضريح المدهون بالأبيض، هذا الزيف؟ ـ أيها المغربي، ابق هادئاً، ابق هادئاً. فكلاهما كان قد تجاوز كل لوم، وهذا الغضب لا نفع منه، رغم أنه يهز الأرض هزاً).

كم تراها كرهت نفسها، ولا بد، بقيامها باختيار ناعم، وراءه دافع مالي جبان لعقد صفقة شيطانية مع القدر! فالأم ـ من جيلها أولاً ـ تلك التي عرفتها، الأم التي توصلت لمعرفتها خلال تلك الأيام كلها في مرسمها المتقشف، لم تكن المرأة التي تأخذ أي شيء في الحياة بالكذب. إذ كانت صدامية، حقانية لا تخاف. مع ذلك، حين ووجهت بدمار حب ـ عمرها العظيم، وكان عليها أن تختار بين حرب شريفة وسلم كاذب يخدم ـ الذات، أقفلت فمها، ولم توجه لزوجها كلمة غاضبة. بالتالي، نما الصمت بينهما مثل اتهام، ثم تكلم في نومه، غمغمت في مرسمها، ونام كل منهما في غرفة مستقلة. لوهلة من الزمن، بعد أن كاد قلبه يتوقف على الدرجات المؤدية إلى كهوف لونفالا، كانا قادرين أن يتذكرا ما حدث ذات مرة، لكن بعد ذلك، سرعان ما عادت الحقيقة. إنني أقتنع أحياناً بأنهما كليهما كانا يريان اليد المشوهة، عمري المضاعف، وكأن ذلك حكم عليهما ـ طفل مشوه ولد من حب مشوه، نصف ـ حياة ولد من زواج لم يعد كاملاً بعد. وإذا كان هناك أي شبح لفرصة يتصالحان فيها، فإن مولدي جعل ذلك الشبح يولي الأدبار.

في البداية كنت أعبد أمي، ثم صرت أكرهها. الآن، في نهاية قصصنا كلها، أنظر إلى الوراء فأرى أن بإمكاني أن أشعر، على الأقل على شكل اندفاعات من الشفقة نوعاً ما، أنه كان نوعاً من العلاج بالنسبة لابنها وكذلك لظلها القلق.

الشهوة العارمة جمعت أبراهام وأورورا معاً، فيما ضعف الشهوة جعلهما يفترقان، ففي الأيام الأخيرة تلك، كما دونت وصفي لنوبات غضب أورورا، لحدتها وسلاطة لسانها، كنت أسمع تحت طبقات تلك الدراما الفجة نغمات الفقدان المحزنة تلك. لقد صفحت عن أبراهام لخيبة أملها فيه مرة، في مسألة أمه فلوري الزغبي ومحاولتها أخذ ابنها الذي لم يولد بعد. وفي ماثيران حاولت ـ وفي محاولتها أبدعتني ـ أن تصفح عنه مرة ثانية. لكنه لم يحسّن أساليبه، مع ذلك كان هناك صفح ثالث.. ومع ذلك بقيت... هي التي كانت قد خضبت عالمها من أجل الحب، خنقت تمردها الآن، قيدت نفسها بقيود زواج لا حب فيه، على نحو متزايد. إذن لا عجب أن لسانها ازداد حدة.

وأبراهام: لو أنه عاد إليها، هاجراً كل الأخريات، ربما كانت قد وفرت عليه الغرق في عالم ـ موغامبو السفلي حيث كيكي وسكار ومجرمون أسوأ سيأتون لاحقاً؟ ربما هو، مع الانفجار المبارك لحبهما، كان سيخفق في أن يغرق في تلك الحفرة؟.. لا جدوى من أن تحاول أن تكتب مرة ثانية حياة والديك. فمن الصعب للغاية أن تحاول تأطيرهما، وأن لا تقول شيئاً عن حياتك.

* * *

في «المغربيات الأولى»، تحولت يدي إلى سلسلة من المعجزات، وغالباً ما كان جسدي أيضاً يتغير تغيراً عجائبياً، ففي إحدى اللوحات ـ المغازلة ـ كنت مغربياً على شكل طاووس أنشر ذيلي ذا العيون الكثيرة، فيما رسمت رأسها في أعلى جسم دجاجة الطاووس. وفي أخرى

(رسمت حين كنت في الثانية عشرة لكن أبدو وكأني في الرابعة والعشرين)، قلبت أورورا علاقتنا، راسمة نفسها باعتبارها إليانور ماركس الشابة، فيما رسمتني أنا باعتباري والدها كارل. «المغربي وتوسي» كانت فكرة صادمة بالأحرى ـ فأمي تميل لأن تكون فتاة تتعبد، وأنا في وضع أبوي، يمسك بطية سترته ويلبس معطف سهرة وله شاربان مفتولان، أشبه نبوءة لكل ما سوف يحدث تقريباً في المستقبل. «لو كان عمرك ضعف العمر الذي تظهر فيه، وكنت أنا بنصف عمري، لكان بإمكاني أن أكون ابنتك». شرحت أمي التي كانت فوق الأربعين، وفي ذلك الحين كنت أصغر من أن أسمع أي شيء عدا الخفة التي استخدمتها لإخفاء الأشياء الغريبة في صوتها. لكن لم تكن هذه مضاعفتنا الوحيدة أو الصورة الغامضة الوحيدة، إذ كان هناك أيضاً لوحة بعنوان «أموت على قبلة»، وقد صورت نفسها فيها على أنها ديدمونة القتيلة مرمية على سريرها، فيما كنت أنا عطيل المطعون وهو يسقط باتجاهها منتحراً نتيجة وخز ضميره، لافظاً آخر أنفاسه. لقد كانت أمي تصف تلك اللوحات على نحو يحط من الذات، مثلاً، هي «لوحات كليانية،» هدفها تسلية البيت الخاصة: وهو المرادف السخيف لدى الفنان، للحفلات ذات الثياب الخيالية، لكن ـ كما في قصة لوحة ـ الكركيت سيئة السمعة التي يعاد اعتبارها حالياً ـ غالباً ما كانت أورورا في أشد حالاتها مثالية، وأعظم تألق لها، عندما كانت في حالات خفة ـ قلبها الأشد. أما الجنسانية عالية التوتر في كل هذه الأعمال التي لم تعرضها في حياتها، فهي التي صنعت نوعاً من الموجة الصادمة بعد موتها، تلك الموجة التي فشلت فقط في أن تتحول إلى تسونامي كامل، لأنها، هي الجنسانية المتحدية لم تستفز الناس الأتقياء برفضها الاعتذار أو التعبير حتى عن مجرد الندامة.

لكن بعد صورة عطيل، غيرت السلسلة الاتجاه، إذ بدأت أورورا تستكشف فكرة إعادة ـ تصور لقصة أبي عبد الله ـ ليست النسخة

المصادق عليها، بل نسخة أورورا الخاصة، كما قالت لي ـ في إطار محكي، ونحن نقوم بنوع من مزيج بومباي الجديد لدور آخر النصريين، في كانون2 1970، وللمرة الأولى، رسمت أورورا الزغبي قصر الحمراء على تلة ملابار.

كنت في الثالثة عشرة، وفي اللمعة لأولى لنشوتي «بديلي هرمز»، حين رسمت أورورا أولى «المغربيات» الحقيقية، وهي تخبرني عن حلم، رأت نفسها فيه تقف في شرفة، قطار عتيق «مقرقع» في ليل اسباني، وهي تمسك بجسدي النائم بين ذراعيها. فجأة عرفت ـ بطريقة الأحلام طبعاً، دون أن يقول لها أحد، لكن بشيء من اليقين المطلق ـ أنها إن قذفتني بعيداً، مضحية بي، تلك الليلة، إذن ستظل سالمة، لا خطر عليها بقية حياتها. «أقول لك يا صغيري، فكرت بالأمر كثيراً، ثم رفضت العرض في الحلم» وأعادتني إلى سريري. وليس عليك أن تكون خبيراً في تفسير الإنجيل كي تعلم أنها قذفت بنفسها في دور إبراهيمي فدت ابنها به. وأنا حتى في الثالثة عشرة، في بيت الفنانين ذاك، كنت أعرف لوحة ميشيل أنجلو «المنتحبة»، لذلك توصلت إلى الهدف منها أو معظمه. «شكراً جزيلاً ماما»، قلت لها، «لا شكر على واجب» ردت «وليفعلوا أسوأ ما يستطيعون».

هذا الحلم، شأنه شأن أحلام كثيرة جداً، تحقق، لكن أورورا، حين جاءتها فعلاً اللحظة الإبراهيمية تلك لم تفعل ما فعلته في الحلم. إذ ما إن وصلت قلعة غرناطة «الحمراء» إلى بومباي، حتى تحركت الأمور بسرعة على حامل أورورا، وسرعان ما غدت الحمراء ليست الحمراء تماماً، إذ دخلت عناصر من قلاع حمراء خاصة بالهنود، قلاع ـ قصور مغولية في دلهي وأغدا. فامتزجت الروعة المغولية مع الروعة المغربية ذات الطراز الاسباني. كذلك لم تعد هي التلة ملابار تماماً، مطلة على تشوباتي ولم يعد هذا تشوباتي تماماً، إذ بدأت مخلوقات خيال أورورا تظهر ـ وحوشاً، فيلة ـ آلهة وأشباحاً. أما خط الماء، الخط الذي يقسم بين

عالمين، فقد أصبح في كثير من هذه الصور البؤرة الرئيسية لاهتمامها. ملأت البحر بالأسماك، أغرقت السفن، الحوريات، الكنوز، الملوك، وعلى البر، موكب محلي من غوغاء ـ نشالين، قوادين، مومسات بدينات رافعات سواريهن إلى الأعلى حيال الأمواج ـ وشخصيات أخرى من التاريخ، الخيال، الحاضر الراهن أو لا مكان، تحتشد متحركة باتجاه الماء مثل البومباويين على شاطئ الخليج وهم يقومون بنزهاتهم المسائية. عند حد الماء، كانت مخلوقات مركبة غريبة تنزل إلى الماء وتخرج منه. كما كانت في الغالب ترسم خط الماء بطريقة توحي بأنك تنظر إلى لوحة لم تكتمل، لوحة هُجرت، نصف ـ مغطية أخرى. لكن أكان هو عالم الماء يرسم فوق عالم الهواء، أم العكس بالعكس؟ مستحيل أن تتأكد.

«ادعها أرض المغربي» قالت لي أورورا. «هذا الشاطئ، هذا التل وفي أعلاه قلعة. حدائق ـ بسواقي ماء، حدائق معلقة، أبراج مراقبة وأبراج صمت أيضاً. مكان تصطدم فيه العوالم، يدخل واحدها في الآخر ويمسحه. مكان يمكن لإنسان ـ الهواء أن يغرق في الماء، أو ينمّي غلاصم، فيما يمكن للمخلوق المائي أن يغرق بل يختنق أيضاً بسبب الهواء. كون واحد، بعد واحد، بلد واحد، حلم واحد اصطدم بآخر، أو يكون تحته، أو فوقه. ادعه لوح كتابة، وفوق ذلك كله، أنت في ذلك القصر».

(ولقد ظل فاسكو ميراندا بقية حياته مقتنعاً بأنها أخذت الفكرة منه. رسمه اللوحة فوق اللوحة كان مصدر فنها ـ اللوحي، فيما «مغربيّة» البكّاء كان مصدر الوحي بالنسبة للوحاتها ذات العيون الجافة عني، دون أن تثبت هي ذلك أو تنفي. «لا جديد تحت الشمس». كانت تقول. لكن في رؤيتها لتعارض البر والماء وتداخلهما، كان ثمة شيء من كوشين أيام شبابها، حيث كان هناك ادعاء بأن البر جزء من انكلترا إنما يغسله بحر الهند.

لكن لم يكن هناك ما يوقفها. فحول شخصية المغربي في قلعته الهجينة، كانت تنسج رؤيتها، التي كانت بالحقيقة رؤية نسج، أو بصورة أدق، نسج ـ

متداخل. إذ بطريقة من الطرق كانت تلك لوحات جدلية، وبطريقة أخرى، أتراها كانت محاولة لخلق أسطورة عن الأمة الهجينة متعددة الأعراق، مستخدمة إسبانيا العربية لإعادة ـ تصور الهند، ونطاق ـ البحر ـ البر، الذي كان فيه البر يتدفق والبحر جافاً ـ حجرياً، إنما كان مجازاً خاصاً بها ـ أضفت عليه المثالية؟ العاطفية؟ ربما ـ للحاضر والمستقبل الذي كانت تحلم بتطويره ـ هكذا، أجل، كانت النزعة التعليمية هنا، لكن، ماذا بشأن السريالية الواضحة لصورها، لتألق ملك صيادي السمك بألوانه والتسارع الديناميكي لفرشاتها، إذ لم يكن من السهل الشعور بالوعظ في ذلك، بالفرح في مهرجان دون سماع صوت كلب ينبح، أو الرقص على الموسيقى دون الاهتمام بالرسالة التي تتضمنها الأغنية.

أما الشخصيات ـ وهي وافرة جداً خارج القصر ـ فقد بدأت الآن تظهر داخل جدرانه. أم أبي عبد الله، آيكسا العجوز المشاكسة وقد تحولت طبعاً متخذة وجه أورورا، لكن في تلك الرسوم المبكرة، لم تكن تلمَح إلا بالكاد ظلمة المستقبل، جيوش فرناندو وإيزابيلا الغازية مجدداً، ثم في لوحة أو اثنتين كنت ترى في الأفق، بروز رمح يلوح براية، لكن، خلال طفولتي، وخلال معظم أعمالها، كانت أورورا الزغبي تسعى لرسم عصر ذهبي. إذ كان يحتشد يهود، مسيحيون، مسلمون، بارسيون، سيخ، بوذيون، جانيون في الحفلات ذات الملابس الخيالية لرسمها لأبي عبد الله، ثم يقدم السلطان نفسه على نحو أقل وأقل طبيعية، ليظهر بصورة متزايدة على شكل مهرج مقنع مرقع الثياب، فيما يتساقط جلده القديم عنه على شكل بلورات، ليقف مكشوفاً مثل فراشة باهرة الألوان، جناحاها مركبان تركيبة عجيبة من كل الألوان الموجودة في العالم.

مع تحرك لوحات المغربي أبعد وأبعد على هذا الطريق الخيالي، بات من السهل أن لا تكون أمي بحاجة إلي كنموذج، لكنها كانت تريدني هناك، إذ كانت تقول إنها بحاجة إلي، وكانت تدعوني مغربيها ـ التعويذة

ـ حسن الحظ، وكنت سعيداً بوجودي هناك، لأن كشف القصة على أقمشة لوحاتها بدا أكثر شبهاً بسيرة ذاتية لي من قصة حياتي الحقيقية.

خلال سنوات الطوارئ، حين كانت ابنتها فيلومينا تخوض معركتها ضد الطغيان، مكثت أورورا في خيمتها تعمل: ولعل هذا أيضاً كان الدافع لرسمها اللوحات المغربية في تلك المرحلة، إذ ربما رأت في العمل ردها الوحيد على فظاعات المرحلة. لكن، وعلى نحو يثير السخرية تماماً، كانت إحدى لوحات أمي القديمة تدخل ببراءة ضمن معرض أقامه كيكو مودي في معرض لرسوم تافهة حول مواضيع رياضية، قد أثارت ضجة أكثر من أي شيء كان باستطاعة ميناه أن تثيره. فاللوحة، التي تعود لسنة 1940، كانت تدعى «قبلة عباس علي بيك» وكانت تقوم بالأساس على حادثة واقعية حدثت خلال المباراة الثالثة ضد أستراليا، في ملعب برابورن في بومباي.

أورورا تحب الكركيت ـ وفي ذلك الحين كانت نسوة كثيرات تجذبهن تلك اللعبة، كما كان نجوم مشهورون مثل عباس بيك يمثلون بالنسبة للعامة في بومباي أنصاف ـ آلهة ـ وبالصدفة كانت هي في الملعب يوم حدثت القبلة المثيرة ـ للشهقات، القبلة الفضائحية، قبلة الغريبين الجميلين التي حدثت في وضح النهار، في ملعب يعج بالناس، وفي زمن لا تجرؤ دار سينما في المدينة على السماح بعرض قبلة على جماهيرها، مثيرة استفزازية على ذلك النحو. حسن! أمي جاءها الإلهام. فاندفعت إلى المنزل ثم بدأت العمل ولم تتوقف حتى اكتملت اللوحة التي تحولت فيها القبلة الحقيقية الخجول إلى قبلة سينمائية طويلة على الطريقة الغربية. إنها نسخة أورورا ـ التي عرضها كيكو مودي بسرعة وأعيد عرضها على نطاق واسع في الصحافة الوطنية ـ التي يتذكرها الجميع، حتى أولئك الذين كانوا في أرض الملعب ذلك اليوم بدؤوا يتكلمون ـ مع هزة بالرأس تدل على عدم الموافقة ـ عن التحلل والفسق،

عن التمعجات الفالتةِ للقبلة الطويلة التي، كما أقسموا على ذلك، استمرت ساعات، إلى أن جاء الحكام وفصلوا بين الاثنين، مذكرين لاعب المضرب بواجبه تجاه فريقه. «فقط في بومباي»، قال الناس بذلك المزيج ـ من الإثارة والرفض الذي يمكن للفضيحة فقط أن تثير وتمزج. «أية مدينة منحلة.. ياه... اللعنة».

في لوحة أورورا، بدا ملعب برابورن في قمة إثارته وكأنه انغلق على صاحبي القبلة، وكأن الجماهير التي في الملعب انكبت عليهما وفوقهما، تكاد تمحو السماء، ليظهر في قلب الجمهور نجوم سينما جاحظو ـ الأعين ـ قلة منهم كانوا حاضرين بالحقيقة ـ كذلك سياسيون مستعبدون، علماء يشاهدون المباراة ببرود، صناعيون يضربون أفخاذهم بأيديهم ويطلقون نكات بذيئة. حتى الرجل المشهور، الذي يرسمه رسام الكاريكاتور لاكسمان، كان يجثم في القسم الشرقي من الملعب، وهو ينظر بطريقته الحمقاء غير الدنيوية إلى القبلة. هكذا، باتت اللوحة، لوحة كل الهند، لقطة وصول الكركيت إلى قلب الوعي لدى الأمة، وبصورة جدلية أكثر، صرخة الجيل المعبرة عن الثورة الجنسية. فالغلو الصريح للقبلة ـ تماس أطراف المرأة بأطراف الرجل وصدرها بصدره، كل ذلك كان يذكّر بجنسانية النقوش في معابد خاجورا هوفي شانديلا ـ وقد تم وصف ذلك من قبل ناقد فني حر على أنه «دعوة الشباب للحرية، عمل من أعمال التحدي رغم أنف الأمر الواقع،» فيما وصفه معلق صحفي أكثر تحفظاً بأنه «بذاءة ينبغي أن تحرق في ساحة عامة». وقد أرغم عباس علي بيك على الإنكار علناً بأنه رد القبلة للفتاة، كما أن المعلق الصحفي على الكركيت آ. ت. كتب زاوية بارعة في الدفاع عنه، مقترحاً أن على الفنانين الخالصين من هنا فصاعداً أن يكفوا عن تحريك فراشيهم الطويلة لرسم الأشياء الهامة حقاً في الحياة، كالكركيت مثلاً، ثم بعد حين، بدت الفضيحة وكأنها تخفت وتنتهي. لكن في السلسلة العالية من المباريات،

ضد باكستان، لم يسجل علي بيك إلا 1، 13، 19 و1، فسقط من الفريق وقلما لعب بعد ذلك لصالح الهند. لقد أصبح دريئة لرسام الكاريكاتور السياسي الشاب الشرير، رومان فيلدينغ الذي وقّع ـ في معرض للوحات أورورا السحلاتية ـ رسومه الكاريكاتورية برسم ضفدع صغيرة تظهر عادة وهي تقوم بتعليق زائف عند أطراف الإطار. وفيلدينغ ـ الضفدع المعروف سابقاً أكثر باسم ميندوك ـ اتهم بشكل سيء وزائف عباس بيك الموهوب كثيراً والمحترم كثيراً، بأنه ألقى بعصي الكركيت الخاصة في اللعبة ضد باكستان لأنه مسلم، «وهو نفسه الشخص الذي كانت لديه الأعصاب القوية لأن يقبل فتياتنا الهندوسيات الوطنيات». كانت الضفدع المنقطة تقول في الزاوية.

أما أورورا التي صدمها الهجوم على بيك، فقد لفت اللوحة بجريدة ثم خبأتها في المستودع. وإن كانت قد سمحت بعرضها بعد خمس عشرة سنة، فذلك لأنها كانت قد توصلت لأن تفكر بها باعتبارها لوحة مرحلة غريبة. فاللاعب المقصود كان قد تقاعد منذ زمن طويل، والقبلة لم تعد شيئاً يثير غضب الناس كما كانت تفعل تلك الأيام السيئة. لكن ما لم تتكهن به هو أن ميندوك ـ الذي صار سياسياً مشهوراً وأحد مؤسسي حزب «محور مومباي» وهو حزب قومي هندوسي، سمي كذلك تيمناً باسم الإلهة ـ الأم، مومباي، كانت شعبيته تتنامى بسرعة كبيرة بين الفقراء ـ سيعاود الهجوم.

فهو لم يعد يرسم رسوماً كاريكاتورية، مع ذلك، في الرقصة الغريبة القائمة على الجذب والنبذ التي رقصها بعد ذلك مع أمي ـ التي كانت، ولنتذكر ذلك، تستخدم دائماً كلمة «كاريكاتور» كإساءة ـ كان من الممكن دائماً رؤية الرقاقة على كتفه. إذ كان يبدو متردداً فيما إذا كان يريد أن يسقط على ركبتيه أمام الفنانة العظيمة، كبيرة تلة ملابار، أو يسحبها إلى القذارة في الأسفل حيث كان يعيش، ولا شك أن هذا التردد

والغموض هو ما جذب أورورا العظيمة نحوه، أيضاً ـ نحو الشخص الأسود البدين الذي كان يمثل معظم ما كانت تمقته أشد المقت. فكثيرون من أفراد عائلتي كان لديهم ولع بالرشاقة.

اسم رومان فيلدينغ مشتق، طبقاً للحكاية، من اسم أب مجنون بلعبة الكركيت، صعلوك من صعاليك شوارع بومباي كان يتسكع هنا وهناك في صالات بومباي الرياضية متوسلاً أن يعطى فرصة: «من فضلكم، يا سادتي، أعطوا هذا المسكين فرصة كي يلعب بالمضرب، ضربة واحدة فقط. ضربة واحدة فقط؟ أوكي.. أوكي ـ إذن لعبة واحدة فقط؟» ثم يتبين أنه لاعب سيئ.. لكن عندما افتتح ملعب البورابورن سنة 1973، واشتغل حارس أمن، أثبت براعته على مر الزمن في اعتقال وطرد المشاغبين الذين كانوا يقعون تحت نظر ذلك الإنسان الخالد سي. كي نايودو الذي عرفه منذ الأيام القديمة في جيمخانا وكان يمازحه بقوله «حسن، يا سيد ضربة واحد ة ـ لقد صرت خبيراً بالتأكيد في الإمساك بالمشاغبين واعتقالهم...» بعد ذلك صار يعرف دائماً باسم جه. أو. فيلدينغ، وقد تقبل اسمه ذاك بافتخار.

ابنه تعلم درساً مختلفاً من الكركيت (وذلك ما شكل كارثة، كما يقال لوالده)، إذ لم تكن المتعة الديمقراطية بالنسبة إليه أن تكون طرفاً، مهما يكن وضيعاً ومهما يكن هامشياً، في ذلك العالم العزيز. لا: بل هو كشاب، في جحور «الروم» المركزية في بومباي، كان يخطب بأصدقائه عن أصول اللعبة الهندية والتنافس ما بين الجماعات السكانية. «منذ البداية حاول البارسيون والمسلمون أن يسرقوا اللعبة منا». كان يعلن. «لكن عندما صار لنا نحن الهندوس فرقنا وجمعناها معاً. برهنا بالطبع على أنا أقوياء جداً. وطبقاً للنموذج ذاته، يجب أن نقوم بتغييرات ما وراء الحدود. فلزمن طويل للغاية، كنا نستلقي مضطجعين لنسمح لنماذج غير هندية بأن تسرق مسيرة لنا. دعونا فقط نجمّع قوانا، حينذاك من يقف في

وجهنا؟» فحسب مفهومه الغريب، الكركيت لعبة خاصة بجماعة سكانية واحدة أساساً، هي الهندوسية أصلاً، لكن بسبب هندوسيتها، تتعرض باستمرار لتهديدات من جماعات البلاد الغادرة الأخرى، في ذلك تكمن أصول فلسفته السياسية وحزب «محور مومباي» نفسه. بل كانت هناك مرحلة كان رومان فيلدينغ يعتبر تسمية حركته السياسية الجديدة نوعاً من التيمن باسم لاعب الكركيت الهندوسي العظيم ـ جيش رانجي، فخر الإنسانية ـ لكن في النهاية اتجه باتجاه الإلهة ـ مومب ـ إي، مومبا ديفي، مومبابي ـ وبذلك عمل على توحيد النزعة القومية الإقليمية والدينية في فريقه الانفجاري القوي الجديد.

أصبحت الكركيت، الأكثر فردانية من كل رياضة الفرق، وبشكل يثير السخرية تماماً، أساس البنى الداخلية ذات المراتبية الصارمة والستالينية ـ الجديدة «لمحور مومباي» أو «الما»، كما بات يعرف بسرعة بعد ذلك: إذ ـ كما اكتشفت بعدئذ في المقام الأول ـ أن راماان فيلدينغ أصر على تجميع كوادره المكرسة للعبة على شكل «أحد عشرات»، ولكل جماعة من هذه الجماعات الصغيرة «رئيس فريق»، وهي تقسم بالولاء المطلق له، أما مجلس قيادة «الما» فيعرف بأنه فريق الأحد عشر الأول حتى هذا اليوم. كما أصر فيلدينغ على أن يخاطب بكلمة سكيبر «النطاط» منذ البداية.

أما لقبه أيام رسمه للكاريكاتور فلم يكن يستخدم البتة في حضوره. بل كان باستطاعتك أن ترى في شوارع المدينة هنا وهناك رمزه ـ الضفدعي الشهير مرسوماً على الجدران وملصقاً على جوانب السيارات. لكن من الغريب بالنسبة لزعيم سياسي ناجح جماهيرياً، أنه كان رجلاً يكره الإلفة. لذلك، كان دائماً يخاطب بـ«الكابتن» في وجهه، وميندوك في قفاه. في السنوات الخمس عشرة الفاصلة بين هجمتين على «قبلة عباس علي بيك»، كان فعلاً قد نما، مثل رجل يتوصل لأن يشبه حيوانه المدلل. فأصبح نسخة عملاقة من ذلك الضفدع الكرتوني المهجور ـ منذ ـ زمن ـ

طويل. كما كان قد صنع ما يشبه الباحة تحت شجرة «غولمور» في حديقة دارته ذات الطابقين في ضاحية لالغوم، باندرا الشرقية، يحيط به الأعوان والأتباع، بجانب بركة مغطاة بالزنبق ووسط عشرات التماثيل الكبيرة والصغيرة للإلهة مومباي، فيما أزهار ذهبية تطفو في الأسفل لتكلل رؤوس التماثيل، كذلك رأس فيلدينغ. وفي معظم الحالات كان هو الصامت المتفكر، لكن من حين إلى آخر، كانت تثيره ملاحظة من زائر أحمق، فينفجر بخطاب طويل مفاجئ، كلامه بذيء، رهيب وقاتل. وفي كرسيه الواطئ المصنوع من الخيزران وكرشه المندلق حتى ركبتيه، مثل كيس لص يسطو على منازل، ونقيقه ذي الصوت المنطلق من شفتيه الضفدعيتين السمينتين واندفاعة لسانه الصغيرة وهو يلحس طرفي فمه، مع عينيه الضفدعيتين المغطاتين بغطائهما وهما تنظران نظرة الجشع إلى أكداس المال التي قدمها أصحاب الحاجات المراجعون له لتهدئته والتي كان يدرجها بكل شهوانية بين أصابعه الصغيرة السمينة إلى أن يتبسم على مهل ابتسامته الكبيرة التي تبدو فيها لثته الحمراء، فقد كان بالحقيقة ملك الضفادع، راجا البط الرئيسي الذي لا يخالف أحد أوامره.

في ذلك الوقت كان قد قرر أن يعيد كتابة قصة حياة والده، ماحياً الحكاية التي تحكي عن ضربة واحدة فقط من قصته كلها. إذ بدأ يقول لزواره من الصحفيين الأجانب إن والده كان متعلماً، مثقفاً ورجل أدب، على مستوى عالمي، لقب بهذا الاسم «فيلدينغ» كنوع من الاحترام لمؤلف «توم جونز». «أنتم تدعونني محدوداً وضيق الأفق». كان يقرع الصحفيين، «متعصباً ومتحيزاً، تدعونني أيضاً، لكن منذ طفولتي، كانت آفاقي الفكرية واسعة شاسعة، بل كانت ـ ودعوني أحدد ذلك أكثر ـ جوالة».

سمعت أورورا لأول مرة أن لوحتها عادت من جديد لتشعل غضب هذا البرمائي القوي، حين هتف لها كيكو مودي بشيء من الاضطراب من صالة عرضه في معرض «كوفي». لقد أعلن حزب «الما» عن نيته في

تسيير مسيرة إلى معرض كيكو الصغير، بدعوى أنه يعرض بوقاحة صورة إباحية لهجوم جنسي من قبل «رياضي» مسلم على عذراء هندوسية بريئة. ومن المتوقع أن يكون رامان فيلدينغ على رأس المسيرة وأن يلقي خطاباً في الجماهير. الشرطة ستكون حاضرة، لكن بأعداد غير كافية، وخطر العنف، بل إشعال النار في الرواق محتمل تماماً. «انتظر،» قالت له أمي. «وجه ـ الضفدع الصغير هذا، أنا أعلم كيف أثبته. أعطني عشرين ثانية».

خلال نصف ساعة، كانت المسيرة قد ألغيت. وفي بيان محضّر باسم فريق الأحد عشر الأول لـ«الما» أعلن في مؤتمر صحفي عقد على جناح السرعة أنه بسبب مناسبة غودي بادوا، السنة الجديدة المهاراشترية، فقد تم تعليق الاحتجاج ضد الإباحية، خشية اندلاع عنف ـ لا سمح الله ـ يشوه فرح ذلك العيد. إضافة إلى ذلك، وإذعاناً لرغبة الجماهير الغاضبة، فقد وافق معرض مودي على سحب اللوحة المسيئة من العرض. وهكذا، دون أن تغادر إليفانتا، استطاعت أمي أن تستبعد أزمة.

لكن يا أم: ذلك ليس نصراً، إنه هزيمة.

المحادثة الأولى في الحياة بين أورورا الزغبي ورامان فيلدينغ كانت قصيرة وموجهة نحو الهدف. لكن للمرة الأولى لم تسأل أبراهام الإذن بأن تقوم بعملها الوسخ ذاك. بل أجرت اتصالها الهاتفي مباشرة. أنا أعلم ذلك: فقد كنت هناك. كما علمت بعد سنين أن الهاتف على طاولة رامان فيلدينغ كان أداة خصوصية، مستوردة من أمريكا، مهتافه يبدو مثل ضفدع بلاستيكي أخضر لامع ينق نقيقاً بدلاً من الرنين. ولا بد أن فيلدينغ وضع الضفدع قبالة وجهه ثم استمع لصوت أمي ينطلق من خلال شفتيها.

«كم؟ » سألت أمي

فحدد ميندوك ثمنه.

* * *

لقد اخترت أن أسجل الحكاية الكاملة للوحة «قبلة عباس علي بيك» لأن دخول فيلدينغ في حياتنا لحظة ذات دلالة ما، ولأن مشهد الكركيت هذا، لوهلة من الزمن، كان اللوحة التي صارت أورورا الزغبي بسببها، ودعني أقول ذلك بصراحة، مشهورة تماماً. التهديد بالعنف تراجع قليلاً، لكن اللوحة اضطرت لأن تختفي ـ ولم يكن بالإمكان إنقاذها إلا بانضمامها لأولئك المخفيين الكثر في المدينة. مبدأ من المبادئ انحتّ، حصاة نطت نازلة على سفح تل، طق، طق، طق. كما كان هناك انحتاتات كثيرة أخرى كهذه في السنوات التالية والحصاة التي نطت لحقت بها حجارة كثيرة أكبر، لكن أورورا نفسها لم تقم بأية ادعاءات كبيرة ـ سواء على صعيد المبدأ أو النوعية ـ بالنسبة لـ «القبلة».

إذ كانت لعنة روح، تم الحمل بها بسرعة وتنفيذها بخفة. لكنها أصبحت طائر قطرس بحري، ولقد كنت شاهداً على سأمها وكونها تدافع عنها إلى ما لا نهاية، كذلك على غضبها من السهولة التي استبعدت فيها تلك «الزوبعة في فنجان» وصرف الانتباه عن جسم عملها الحقيقي، لقد طالبتها وسائل النشر العامة بأن تتكلم بصراحة عن «الدوافع الأساسية» في حين كانت لديها مجرد نزوات، وأن تقدم بيانات أخلاقية، في حين كان الأمر لديها (مجرد) لعب ومشاعر ومنطق كشاف لا يقهر لفرشاة ولون. كما كانت مضطرة لأن تواجه اتهامات بعدم الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية من قبل مختلف «الخبراء»، في حين قالت بمزاج سيء إن الجهود، عبر التاريخ، التي بذلت لصنع فنانين مسؤولين اجتماعياً أدت إلى العري: فن جرارات، فن بلاط وتفاهات مثل علب الشوكولا. «ذلك ما أكرهه أشد الكره» قالت لي ذات مرة، وهي ترسم بغضب، «لكن بالنسبة لأولئك الاختصاصيين الذين ينبثقون أمامي كأنياب تنين، فإنهم يجبرونني على أن أصبح أنا نفسي واحدة منهم».

كذلك وجدت نفسها فجأة توصف ـ من قبل أصوات من حزب «ما» إنما ليس من قبلهم فقط ـ بأنها «فنانة مسيحية»، بل في إحدى المناسبات وصفت بأنها «فنانة مسيحية متزوجة من يهودي». في البداية، جعلتها صيغ كهذه تضحك، لكن سرعان ما رأت أنها لم تكن مضحكة. فكم من السهل أن يُدمَّر إنسان، عمل عمر كامل وارتباطات ومعارضة تحت ستار هجوم كهذا! «يبدو الأمر»، قالت لي، وهي تقع بالصدفة على صورة لعبة كركيت، «وكأنني لا أملك أي مال في أي مصرف لعين». ثم متذكرة تحذيرات فاسكو، ردت بطريقة غير متوقعة بتاتاً. فذات يوم من تلك الأيام السوداء في أواسط السبعينات ـ وهي السنون التي تبدو في ذاكرتي أشد اسوداداً بسبب القدر الضئيل من الطغيان الذي يمكن رؤيته فيها، ولأن حالة الطوارئ على تل ملابار لم تكن مرئية أيضاً، شأنها شأن ناطحات السحاب غير القانونية والفقراء المدقعين ـ فقد قدمت لي، في نهاية يوم طويل في المرسم، غلافاً يحتوي على بطاقة طائرة، ذهاباً، إلى اسبانيا مع جواز سفر باسمي، عليه تأشيرة دخول إلى اسبانيا، «أبقِه جاهزاً دائماً»، قالت لي «البطاقة يمكن أن تجددها كل سنة، وكذلك التأشيرة. أما أنا فلن أذهب إلى أي مكان. وإذا أرادت تلك الإنديرا التي كانت دائماً تكرهني وترغب في أن تمزقني إرباً، أن تجيء وتحصل علي، فإنها ستعرف أين تجدني. لكن ربما سيأتي اليوم الذي يتعين علي فيه أن آخذ بنصيحة فاسكو. فقط لا تذهب إلى إنكلترا. لقد شبعنا منهم. اذهب وابحث عن لوح تكتب عليه وتمسح. اذهب لترى أرض المغربي».

أما بالنسبة للمباجان البواب فقد كان لديها هدية له: حزام ـ خرطوش جلدي أسود، يتدلى منه بيت مسدس كالذي يستخدمه الشرطة، وبداخل البيت مسدس محشو رصاصاً. بل رتبت له كي يأخذ دروساً بإطلاق الرصاص. أما هديتها لي، فقد التهمتها بشره. بعد ذلك، وبشكل أسطوري، لم أفشل البتة في أن أفعل ما تريد. إذ كنت أبقي بابي الخلفي مفتوحاً وأتأكد

من أن هناك طائرة جاهزة على المدرج، كما بدأت أصبح غير ملتصق بل كلنا صرنا كذلك. ذلك أن الناس بعد الطوارئ بدؤوا يرون الأمور بأعين مختلفة. إذ كنا قبل الطوارئ هنوداً، لكن بعدها صرنا يهوداً مسيحيين.

طُق، طَق، طِق.

* * *

لم يحدث شيء، لم تأت غوغاء إلى البوابة، كما أنه لم يصل ضابط أمن للقيام بدور ملائكة غاندي الخاصة بالانتقام. مسدس لمبا بقي في بيته، لكن ميناه وحدها احتجزت، ليطلق سراحها بعد بضعة أسابيع فقط قائلة إنها عوملت بكثير من اللطف إذ سمحوا لها باستقبال زوار، وتلقي طعام وكتب في زنزانتها. ثم انتهت الطوارئ واستمرت الحياة.

لم يحدث شيء لكن حدث كل شيء. فهناك كان اضطراب في الفردوس. إذ توفيت إينا، بعد جنازتها جاءت أورورا إلى المنزل ثم رسمت لوحة مغربية، الخط فيها بين البر والبحر كف عن أن يكون حداً قابلاً للاختراق. بل رسمته هذه المرة على شكل صدع محدد بخشونة ليس مستقيماً بل متعرجاً، البر فيه يتدفق مباشرة إلى البحر، وعليه آكلو المنغا والسينغاني، شاربو السوائل الحلوة كالسكر التي يمكن أن تشكل خطراً على أسنان الإنسان بمجرد النظر إليها، كذلك عمال المكاتب بناطيلهم المدرجة إلى أعلى وأحذيتهم الرخيصة بأيديهم، وكل محبي المشي الحفاة، يمشون على نسخة من خليج تشوباتي تحت قصر المغربي، ويصرخون، بينما يسحبهم رمل تحت أقدامهم باتجاه الصدع، وذلك جنباً إلى جنب مع النشالين، الأكشاك المضاءة بالنيون لباعة الوجبات السريعة، القرود المدربة بزي الجند الذين يموتون من أجل بلادهم كي يسلوا الحشود المتنزهة. والكل ينسكب في الظلمة المثلمة جنباً إلى جنب مع أسماك البومفريت، قنديل البحر والسرطان. كذلك هناك القوس المسائي للمجرى البحري نفسه بأنواره المتلألئة كعقد لآلئ

مصقولة صار مشوهاً، وحتى أرض التنزه كانت تنسحب باتجاه الخواء. فيما كان المغربي المهرج في قصره فوق التلة، ينظر إلى المأساة في الأسفل، عاجزاً، متنهداً ومسناً قبل أوانه. بينما كانت إينا الميتة تقف شفافة بجانبه، إينا ما قبل ناشفيل، ظاهرة في أوج جمالها الشهواني. هذه اللوحة في عنوانها «المغربي وشبح إينا ينظران إلى الهاوية» كانت بعد ذلك تعتبر الأولى في لوحات «المرحلة الرفيعة» لسلسلة «المغربيات،» تلك اللوحات التي تضج بالطاقة والنبوءات، والتي سكبت أورورا فيها، كل عذاباتها لموت ابنتها، كل الحب الأمومي الذي ظل دون تعبير عنه فترة طويلة من الزمن، إنما كذلك مخاوفها النبوئية الكبرى وحتى «الكساندرية» بالنسبة للأمة، حزنها الشديد على هول ما حدث ذات مرة، على الأمل في هند الأحلام التي كانت حلوة كعصير قصب السكر. كل ذلك كان في اللوحات، أجل وكان فيها غيرتها أيضاً.

ـ غيرة؟ مم، ممن، مم، من أي شيء؟ ـ

كل شيء حدث. لقد تغير العالم، فأوما سراسفاتي وصلت.

(14)

المرأة التي حوّلت، رفعت، حطمت حياتي دخلتها في سباق خيل مهالاكسمي، بعد وفاة إينا بواحد وأربعين يوماً. كان صباح أحد في بداية الموسم البارد لآخر السنة، وطبقاً للتقاليد القديمة ـ كم هو قدمها؟ أنت تسأل، فأجيب بعمر بومباي. «قديمة يا ناس من الزمن القديم» ـ فإن الناس الراقين في المدينة ينهضون باكراً ويأخذون أمكنتهم في ملعب سباق الخيول المحلية الأصلية، سواء على العشب أو بجانب مسار السباق. لم يكن يخطط لسباق، فقط ظلال راكبي الخيول بقمصانهم ذات أغطية الرؤوس اللامعة، والأصداء الوهمية لحوافر خيول ماضية ومستقبلية، والأصوات الواهية لخيول تحمحم... يمكن أن تراها عيون وتسمعها آذان الخيالة، متلألئة مثل آثار واهية للوحة مفرطة الألوان تحت هذا المشهد السباقي الأسبوعي، هذا الاستعراض المظلل لكبار المدينة الفارغين، بسرعة، بأحذية الركض والبناطيل القصيرة، والأطفال مشدودون بالأربطة على ظهور أمهاتهن، أو ببطء يتمشون والعكاكيز بأيديهم، وعلى رؤوسهم قبعات القش البنامية، كان النبلاء، تجار الأسماك والفولاذ يجيئون، كذلك سادة بائعي الأقمشة والشحن بالسفن، أمراء المال والعقارات، ملوك الأرض والبحر وقوى الجو، مع سيداتهم أيضاً، وهن يرفلن بالحرير مشنشلات بالذهب. بعضهم جاء من مسافة أميال، بعضهم جاء في البحر، على متن سفن، كسفن المحيطات تتجه إلى رصيف الميناء. إنه وقت المقابلات العلنية والسرية ـ من أجل صفقات تتم وأيد تتصافح لإتمامها، وقت أمهات المدينة ينظرن إلى شبانها ويخططن لزيجات مستقبلية، ولشبان وشابات يتبادلون النظرات ويقومون باختياراتهم الخاصة. إنه الوقت الذي يجتمع فيه أفراد العائلة ويأتون معاً ليلتقوا بأفراد العائلات الأقوى في المدينة، السلطة، المال، القرابة والرغبة: هذه كلها، مختفية تحت المنافع الأبسط لفسحة ساعة

تمنح الإنسان الصحة، هي القوى الدافعة لسباق الخيل - بلا خيل التقليدي، الأسبوعي المهالاكسمي ذي الميدان الفسيح من الدرجة الأولى، ديربي بدون بندقية تطلق النار إيذاناً ببدء السباق، أو نهاية - مصورة، بل سباق فيه الكثير من الجوائز التي يمكن الفوز بها.

ذلك الأحد، بعد ستة أسابيع من وفاة إينا، كنا نحاول أن نضع نهاية لأحزان العائلة السوداء، وكانت أورورا ترتدي بنطالاً أنيقاً وقميصاً أبيض مفتوح - الرقبة، وفي نيتها أن تعرض تماسك العائلة من خلال مشيها يداً بيد مع أبراهام، الذي كان قد ابيض عرفه وظل ظهره مستقيماً استقامة رائعة. هو في الرابعة والسبعين، كل بوصة منه مهندمة أحسن هندام، أي كبير حقيقي، لم يعد قريباً ريفياً بين مدنيين راقين، بل أرقى وأرفع الجميع، مع ذلك، لم يكن الصباح قد بدأ بشكل يبشر بالخير. ففي طريقنا إلى مهالاكسمي، التقطنا ميني - الأخت فلورياس - التي أعفيت، بناء على أسس من الشفقة، من العبادة الصباحية في دير ماريا غراشيا بلينا، جلست إلى جانبي في المقعد الخلفي، بشعرها المصفف كشعر راهبة مستيقظة من نومها، تسبح بمسبحتها وتغمغم بصلواتها المكتومة، لتبدو - كما فكرت - مثل نسخة عن الدوقة في قصة «أليس»، أجمل بكثير طبعاً لكن متشددة مثلها تماماً: «لقد رأيت إينا في منامي،» أعلنت دون مقدمات «وقد طلبت مني أن أخبركم أنها سعيدة في الجنة وأن الموسيقى رائعة جداً». فاحمرت أورورا كالأرجوان، لكن أبقت شفتيها مطبقتين وفكها مغلقاً. إذ كانت ميني قد بدأت مؤخراً برؤية الرؤى، رغم أن أورورا لم تكن تؤمن بذلك. فنظرة «الدوقة» لابنها الصبي يمكن، إذا ما اختزلت، أن تنطبق على الدوقة المقدسة التي هي أختي، أيضاً: **تفعل ذلك للإزعاج فقط لأنها تعلم أنها تغيظ.**

فقال أبراهام «لا تعكري مزاج أمك، إينا موراتا»، حينذاك جاء دور ميني لكي تعبس، لأن ذلك الاسم كان يمت لماضيها، وليس له صلة بالشخص

الذي صارته، أعجوبة راهبات غراشيا بلينا، أزهد المؤمنات، أقل العاملات شكوى، الأشد فركاً للأرض من بين الفاركات، الأنبل بين الممرضات والأكثر إخلاصاً ـ وكأنها تسعى للتكفير عن حياة مترفة عاشتها ـ اللابسة لأخشن الملابس التحتية وأكثرها إثارة للحك في السلك الرهبني، تلك التي كانت تخيطها بنفسها من أكياس الخيش العتيقة التي تفوح منها رائحة الهال والشاي والتي جعلت جلدها الرقيق يتحول إلى جلد كثير الكدمات والخدوش إلى أن حذرتها الأم الأرفع من أن تعذيب الجسد بشكل مفرط هو بحد ذاته نوع من الحماقة. بعد ذلك التوبيخ، كفت الأخت فلورياس عن ارتداء الخيش على الجلد مباشرة لكن بدأت الرؤى.

وحيدة في حجيرتها، وعلى بطانيتها الصوفية (إذ تخلصت بسرعة من السرير)، كان يزورها في المنام ملاك لا جنس له برأس فيل يصب جام غضبه على الانحلال الخلقي لسكان بومباي الذين كان يقارنهم بسكان سدوم وعمورة ويهددهم بالفيضانات، القحط، الانفجارات والحرائق.، وبأن تلك العقوبات ستمتد مرحلة من الزمن قدرها ست عشرة سنة تقريباً، ومن خلال جرذ أسود ناطق تكهن بأن الطاعون نفسه سيعود، مثل الطاعون الأخير، ليكتسح الجميع. أما رؤية إينا هذه فقد كانت شخصية أكثر بكثير، وفي حين أن الرؤى الأبكر جعلت أورورا تخشى كثيراً على توازن ابنتها العقلي فإن هذه الرؤية الجديدة جعلتها ترى الإشارة الحمراء، ربما ليس ذلك بسبب الظهور الأخير لشبح إينا في أعمالها ذاتها، بل أيضاً بسبب الشعور العام بأنها تطورت منذ وفاة أختها ـ وهو الشعور الذي كان يشاركها فيه كثير من الناس في تلك الأيام القلقة المضطربة ـ وأنه سيتبعها أحد. الأشباح دخلت حياة عائلتنا، عابرة الحدود بين مجازات الفن وحقائق الحياة العادية المشهودة، وأورورا، التي صارت بلا أعصاب، تلوذ بغضبها. لكن ذلك اليوم، باعتباره كان مصمماً لأن يكون يوم وحدة العائلة، عضت أمي، على نحو غير متميز، على شفتها وسكتت.

«إنها تقول الطعام جيد أيضاً،» أضافت ميني، بصورة إعلامية: «كل طعام الآلهة، رحيق الجنة، المن والسلوى، يمكن أن تأكل هناك، دون أن يزداد وزنك...» ولحسن الحظ كان ميدان السباق مهالاكسمي على بعد دقائق قليلة فقط بالسيارة من شارع ألتاماونت.

بعد ذاك راحت أورورا وأبراهام يمشيان يداً بيد كما لم يفعلا منذ زمن طويل، فيما كانت ميني، ملاكنا ذاته، تسير في أعقابهما، وأنا أمشي وراءهم قليلاً متراخياً، مطرقاً برأسي أرضاً كي أتجنب أعين الناس، حاشراً يدي اليمنى عميقاً في جيب بنطالي، رافساً عشب الأرض خجلاً، لأني، بالطبع، كنت أسمع الهمسات والقهقهات من الأمهات الكبيرات وجميلات بومباي الشابات، وكنت أعلم أنني إن مشيت قريباً جداً من أورورا ـ التي كانت تبدو، رغم بياض شعرها وكأنها في الخامسة والأربعين، رغم سنواتها الثلاث والخمسين ـ إذن، بالنسبة إلى متفرج عرضي، مظهرك حقاً، وأنت في العشرين إنما تبدو وكأنك في الأربعين سيجعلك تبدو أكبر سناً من أن تكون ابنها. **أوه، أمسكوا به، مشوه.. غريب.. الشكل.. اضطراب خاص ما... سمعت أنهم يقفلون عليه... عار كهذا في المنزل... كالمعتوه تقريباً... هو وحيد أهله...** هكذا كانت ألسنة القيل والقال تردد، مشحِّمة عجلة الفضيحة. فأناسنا لا يردون رد الرفعة على تشوهات الجسد، أو، بالحقيقة، العقل.

ربما، هم بشكل من الأشكال على حق. أولئك الهامسون في ميدان السباق إذ كنت، بشكل ما، نوعاً من المعتوه الاجتماعي، مفصولاً بطبيعتي عن كل ما هو عادي، وقد صنفني قدري غريباً. بالتأكيد، أنا لم أكن أنظر إلى نفسي كمتعلم من أي نوع. والشكر لتعليمي غير العادي (وبالمعايير التقليدية) غير الصالح إلى حد ميؤوس منه فقد أصبحت نوعاً من العقعق الإعلامي، أجمع لنفسي شذرات المعلومات، من هنا وهناك، كذلك عوامل الإضحاك، الكتب، تاريخ الفن، السياسة،

الموسيقى الأفلام، وأطور أيضاً نوعاً من المهارة في توجيه وترتيب هذه الشذرات التي تثير الشفقة، بحيث تتألق، تلتقط الضوء. ذهب رجل أحمق، أو نثرات لا قيمة لها مستخرجة من منجم طفولتي المنعزلة، البوهيمي الغني؟ لكن ليحكم على ذلك الآخرون.

أهو صحيح أنني بذلت كل جهدي كي ألتصق بديلي، لأسباب منها حية إضافية، أطول بكثير مما ينبغي أن تكون. بعدها، لم تطرح مسألة ذهابي إلى الكلية. إذ كنت أعمل كنموذج رسم لأمي، فيما كان أبي يتهمني بتضييع عمري، لذا بدأت أصر على إدخالي في أعمال العائلة. إذ كان قد مضى الزمن الذي كان يقف فيه أحد، حتى أورورا، في وجه أبراهام. ففي سبعيناته كان ما يزال قوياً مثل ثور، رشيقاً مثل مصارع، وإذا استثنينا نوبات تنفسه الربوية، كان سليم الجسم تماماً بحيث يركب الخيل في ميدان السباق. لقد نسي الجميع أصوله الوضيعة ومشروع السي 50 القديم، مشروع كامونز داغاما الذي كانت قد تمثلته شركة ضخمة تعرف باسم مركب من أوائل أحرف الكلمات هو «مؤسسة سيودي». لقد شجع ابراهام على استخدام هذا الاسم الذي اشتقه من اسم عائلة شوندليفري، وبهذا الاختصار طرد الاسم القديم ليحل محله الجديد. فالصفحات المالية في الجرائد كانت تشير إليه باسم «**السيد سيودي: ـ صاحب المشاريع الجديدة اللامع الذي ورث أملاك كاشوندليفري**». ثم بعد ذلك بدأ بعض شركائه في العمل يدعونه «الصاحب سيودي». ولم يكن أبراهام دائماً يزعج نفسه بتصحيحهم. لأنه كان قد بدأ برسم طبقة جديدة فوق ماضيه... وكأب أيضاً، كان السن قد رسم صورة ـ لوحية على ذكرى الرجل الذي حضن ذات يوم شكلي حديث الولادة وبكى ناطقاً بكلمات مريحة. الآن، كان قد كبر، صار ضخماً، بعيداً، خطراً ومن المستحيل عصيانه.

فحنيت رأسي ثم قبلت عرضه علي منصباً يتيح لي الدخول في عالم التسويق، البيع، الانتشار، من خلال قسم في «شركة مسحوق سوفتو،

تالك» الأطفال المحدودة (الخاصة)، بعد أن اضطررت لجدولة أعمالي مع أورورا حول التزامات مكتبي. لكن عن الوقوف كنموذج وعن الأطفال، لا شيء.

بالنسبة لمسألة العروس، فقد كانت يدي التالفة ـ إعاقة في منطقة خالية من الإعاقة ـ بالحقيقة، نوعاً من الشبح في مائدة أمومية، إذ جعلت السيدات الشابات يرتعشن على نحو يصعب إرضاؤه، مذكرة إياهن ببشاعة الحياة عندما ما كن يسعين، بطريقتهن ذات المنبت الرفيع، للتركيز على جمالها: أف! إنها قبضة مخيفة (أما فيما يتعلق بمستقبلها على المدى الطويل: سأقول فقط: رغم أن لمباجان أراني شيئاً من الإمكانات الحقيقية لقفاز يدي اليمنى القاسي كالهراوة، إلا أنني لم أكن قد اكتشفت ميلي بعد. وسيفي كان ما يزال مغمداً في يدي).

لا، أنا لم أكن أمت لأولئك الأصلاء المتفوقين. فرغم جولاتي المتقطعة مع مدبرة منزلنا السراقة جايا هيي، كنت غريباً في مدينتهم ـ كاسبارهاوسر، موغلي. كما كنت أعرف القليل عن حياتهم. (والأسوأ) أنني لم أكن مهتماً بمعرفة ما هو أكثر. إذ رغم أنني قد أكون غريباً دائماً بين سلالة سباق الخيل تلك، إلا أنني وأنا في العشرين كنت أتحرك على هواي، وبسرعة مضاعفة. لم أعد أشعر بعد وكأنني شاب واقع في شرك من غطاء جلد قديم ـ هذا إذا ما استعرنا لغة صناعة النسيج في المدينة «بالٍ» وحتى «مضروب». فعمري الظاهر، الخارجي، كان ببساطة قد صار عمري.

أو هكذا ظننت، إلى أن جاءت أوما لتريني الحقيقة.

فجمشيد كاشوند ليفري، الذي كان قد غاص على غير توقع في حالة من الاكتئاب الشديد بسبب وفاة زوجته السابقة وخرج من معهد القانون بعدها مباشرة، انضم إلينا في مهالاكسمي، بحسب ترتيبات أورورا، وليس بعيداً عن ميدان سباق الخيل، كان هناك «الثغرة البريطانية» أو «حلوى الثغرة»، التي اعتاد المحيط في بعض الفصول أن يتدفق خلالها، فائضاً على الطوابق

ذات الموقع المنخفض في الخلف، تماماً حيث شيِّد «هورنبي فيلارد» لكي يختم «حلوى الثغرة» (وقد تم ذلك.، حسب مصادر موثوقة سنة 1805). وهكذا فإن الثغرة بين جيمي وإينا كانت ستسد بعد وفاتها، أو هكذا كانت أورورا قد قررت بقوة إرادتها التي لا تقهر.

«هاي، عم، عمة» قال جيمي كاش، وهو ينتظر بسماجة عند عمود ـ النهاية، مصطنعاً ابتسامة مخادعة. بعدئذ، تغير وجهه. اتسعت عيناه، واللون انسحب من وجنتيه الشاحبتين الجميلتين، على أية حال، كما انفتح فمه على مصراعيه. «ماذا حصل لك؟» سألت أورورا، مندهشة. «إنك لتبدو أشبه بذكر إوز على شكل شبح» لكن جيمي المسمّر كالمسحور لم يجب بل ظل فاتحاً فمه دون كلمة.

«تحياتي يا أفراد العائلة» قالت ميناه بصوتها الساحر وهي تقف خلف ظهورنا. «آمل ألا تبالوا يا رجال، فقد جلبت معي صديقة».

* * *

كلنا نحن الذين مشينا مع أوما سراسفاتي حول ميدان سباق مهالاكسيمي، ذلك الصباح، خرجنا بنظرة مختلفة عنها. لكن كانت بضع حقائق قد ترسخت: هي في العشرين من العمر، طالبة فنون متألقة في جامعة م. س. في بارودا. حيث كانت قد فازت من قبل بالكثير من المديح الرفيع من قبل ما يدعى «بمجموعة بارودا من الفنانين، وحيث كان الناقد المشهور جيتا كابور، قد تحرك ليكتب عن تقديره الشديد لنحتها الحجري العملاق لناندي، الثور العظيم في الأساطير الهندوسية، الذي كانت قد كلفت بالعمل به من قبل مضارب البورصة والمليارديرالذي يحمل الاسم نفسه ف. ف. ناندي ـ ناندي «التمساح» نفسه. لقد قارن كابور بين ذلك العمل وأعمال سادة مجهولي الأسماء قاموا بأعمال عجيبة في القرن الثامن، في معبد كيلاش، أعظم كهوف إلورا كلها، لكن أبراهام الزغبي، حين سمع عن التمثال ونحن نتمشى، أطلق ضحكة

كخوار الثور سمعها الجميع. «ذلك التمساح النهري الشاب ف. ف. لا يخجل أبداً» هدر قائلاً. «ثور ناندي، أليس كذلك؟لا بد أنه أحد تلك التماسيح العمياء من أنهار الشمال هناك».

كانت أوما قد قدمت نفسها، بتوصية من صديقة في فرع غوجاراتي التابع لجبهة مكافحة ارتفاع الأسعار للاتحاد النسائي، وهو مكتب صغير مزدحم في مبنى من ثلاثة طوابق قرب محطة بومباي المركزية، تنشط فيه جماعة ميناه من الناشطات النسائيات ضد الفساد، كذلك من أجل حقوق المرأة، وقد اشتهرت لجنة هذه الحركة كثيراً بعد أن طرحت شعارها المشهور «سنحطم هذا السجن،» إلا أنها كانت تدعى، وبكل سخرية، من قبل خصومها بـ «النساء اللواتي ربما ـ ينمن ـ معاً ـ وكن بالحقيقة يخضن المعركة ضد نصف دزينة من الجولياتات (العمالقة). لقد تحدثت عن تقديرها الرفيع لأعمال أورورا الفنية، لكن أيضاً عن أهمية العمل الذي تقوم به جماعات ذات دوافع رفيعة، كجماعة ميناه، في كشفها لشرور حرق ـ العروس وتسييرها دوريات نسائية ضد الاغتصاب، إضافة إلى مجالات أخرى عديدة. عاطفتها ومعرفتها سحرتا أختي الشهيرة بصعوبة إرضائها، لهذا السبب، أحضرتها معها إلى اجتماعنا العائلي الصغير على أرض ميدان السباق في مهالاكسمي.

لكن كان ثمة الكثير الكثير مما هو موضع خلاف. فما لوحظ حقاً أنه خلال ذلك الصباح اللطيف في مهالاكسمي، وجدت القادمة الجديدة طريقة لقضاء بضع دقائق خاصة مع كل منا وبدوره، ثم بعد أن رحلت، قائلة بكل تواضع إنها تطفلت لوقت طويل على اجتماعنا العائلي، فإن كلاً منا كان قد كوّن رأياً قاطعاً عنها. والكثير من هذه الآراء كانت متناقضة تماماً، على نحو لا يمكن التصالح فيما بينها. فأوما، بالنسبة للأخت فلورياس، امرأة تتدفق منها الروحانية كما يتدفق النهر. إنها روح عظيمة، زاهدة ومنضبطة ترى بالوحدة النهائية لكل الأديان، التي يمكن

أن تحل كل خلافاتها، طبقاً لقناعتها، بفضل التألق المبارك للنور الإلهي. بينما هي، حسب رأي ميناه، صلبة كالأظفار ـ وهذا، إن جاء من أختنا فيلومينا، إطراء رفيع ـ وعلمانية مخلصة، ماركسية مؤمنة بحقوق المرأة، التزامها الذي لا يستنفد بالنضال جدّد شهية ميناه للعراك. أما أبراهام الزغبي فقد ألقى بكلا الرأيين جانباً على أن «فيهما الكثير من الحماقة» وأثنى على دماغ أوما المالي الحاد ـ كالموسى وعلى تمكنها من عقد أحدث الصفقات وأهمها في سوق العرض والعمل، فيما اعترف جمشيد، ذو العين الجاحظة والفك المرتخي، بنبرة الهمس أنها تجسيد حي لإينا الراحلة الرائعة، إينا قبل أن تخرب جسمها شطائر «الهمبرغر» في ناشفيل. ثم تابع بنبرة الأحمق الذي كانه، «وحدها هي مثل إينا بصوتها الغنائي ودماغها أيضاً». وللتو بدأ يشرح أن أوما كانت قد انسلت بعيداً خلف المدرج المسقوف لبضع لحظات، وهناك غنت الصبية الجميلة له بأعذب صوت في البلاد كان قد سمعه، لكن أورورا الزغبي كان لديها ما يكفي. «الكل هنا يخوّضون اليوم على هواهم». هدر صوتها. «لكن أنت أيها الولد جيمي، تجاوزت تماماً نقطة اللاعودة. تباً لك! اذهب بعيداً عنا ولا تقرب باب بيتنا».

وهكذا، تركنا جيمي واقفاً في الملعب ونظرة السمكة المندهشة في عينيه.

منذ البداية اعترضت أورورا على أوما، فهي وحدها غادرت ميدان السباق وبرمة شك على شفتيها، كذلك اسمحوا لي أؤكد على هذه النقطة: فهي لم تعط المرأة الشابة أية فرصة، رغم أن أوما كانت متواضعة باستمرار فيما يتعلق بإمكاناتها الفنية، معجبة إلى حد العبادة بعبقرية أمي دون أن تطلب منة أو معروفاً. والحقيقة، بعد انتصارها في معرض الوثائقيات سنة 1978 في كاسل، عندما تخاطف أعمالها أشد متعهدي لندن ونيويورك استنارة، هتفت من ألمانيا لأورورا صارخة عبر الخط

الدولي «لقد جعلت كاسمن وماري بون يقسمان بأن يعرضا أعمالك أيضاً، وإلا، كما قلت لهم، لا يمكن أن أسمح لهما بعرض أعمالي».

مثل إلهة جاءت من آلة حلت بيننا، تخاطب ذواتنا الداخلية. فقط الإلهة أورورا فشلت في أن تسمعها. بحياء جاءت أوما إلى إليفانتا بعد يومين، فأقفلت أورورا مرسمها في وجهها، وكان ذلك ـ إن تكلمنا عنه بلطف ـ ليس بعمل راشد ناضج ولا مهذب. لكن، لكي أعوض عن فجاجة أمي، عرضت أن أري أومابيتنا العتيق، قائلاً لها بكل حرارة «أهلاً ومرحباً بك في بيتنا كلما شئت».

ما قالته لي أوما في مهالاكسمي لم أقله لأحد. إذ كانت قد قالت للاستهلاك العام، وهي تضحك «إن كان هذا ميدان سباق، إذن أريد أن أسابق»، ثم خلعت صندلها، أمسكته بيدها اليسرى، وطارت راكضة على الممر، فيما كان شعرها يتطاير خلفها مثل خطوط ـ سرعة في شريط كرتوني، تاركاً أثراً في الهواء الذي يمر به كأثر طائرة نفاثة في الجو. بالطبع، ركضت وراءها، دون أن يخطر ببالها أنني قد لا أفعل ذلك. ولكن كانت عداءة سريعة، أسرع مني. فاضطررت في النهاية لأن أتوقف، لأن صدري بدأ يصفر ويزمّر. فانحنيت أشهق طلباً للأنفاس، وكلتا يدي تضغطان على رئتي في محاولة مني لتهدئة التشنج. حينذاك عادت إلي ثم وضعت يديها فوق يدي، ومع استقرار أنفاسي، راحت تداعب يدي المشوهة مداعبة خفيفة ثم قالت بصوت هادئ لا يسمع إلا بالكاد «هذه اليد يمكنها أن تهشم كل ما يقف في طريقها. إنني لأشعر بالأمان الشديد وأنا قرب يد كهذه». بعدئذ نظرت إلى عيني ثم أضافت «هنا أرى رجلاً في عز الشباب يمكنني أن أراه وهو ينظر إلي، أية تركيبة!! ياه! روح شابة، إضافة إلى مظهر هذا الرجل الذي يجب أن أقول لك إنه الأكبر سناً الذي صادفته في حياتي. رجل حار أيضاً، أقسم على ذلك».

إذن، هو ذا الأمر، قلت لنفسي متعجباً. وخـزة الـدموع هـذه، الكتلـة التي أشعر بها في بلعومي، هذه الحرارة المرتفعة للدم، فيما كان لتعرقـي رائحة الفلفل، كما شعرت بنفسي، نفسي الحقيقية، تلـك الهويـة الـسرية التي أخفيها طويلاً، إلى حد أنني خـشيت أنهـا لم تعـد موجـودة، تنبثـق ناهضة من زوايا كينونتي وتملأ المركز مني. الآن، أنا لست رجـل أحـد، لكن أيضاً رجلها كلياً، ودون تردد إلى الأبد.

فحين سحبت يديها من يـدي، تركـت خلفهمـا «المغـربي» واقعـاً في الحب.

* * *

صباح زيارة أوما الأولى، كانت أمـي قـد قـررت أنهـا تريـد أن تـرسمني عارياً. فالعري ليس بشيء ذي أهمية في حلقتنا. وعلى مر السنين كـان الكـثير من الرسامين وأصدقائهم قد اتخذوا أوضاع رسم لبعضهم بعضاً وهم عراة.

وقبل فترة ليست بالطويلة، كان مرحاض الضيوف في إليفانتا قد تمـت زخرفته من قبل فاسكو ميراندا بجدارية رسـم فيهـا نفـسه وصـديقه كيكـو مودي بقبعتين مدورتين ولا شيء آخر. فظهر كيكـو نـاحلاً، مـستطيلاً إلى أقصى حد، لكـن النجـاح وسـنوات الفـسق والعربـدة كانـت قـد مـلأت فاسكو لحماً وشحماً كما كان أيضاً هو الرجل الأقصر. اهتمام الرسام كان قد تركز على حقيقة واضحة هـي أن الـرجلين كانـا قـد تبـادلا، علـى مـا يبدو، قضيبيهما. فقضيب فاسكو كان طويلاً، نحيلاً بـشكل مـدهش مثـل قطعة نقانق مبهرة باهتة، في حين كان قضيب كيكو الطويل يتكثف عـضواً داكناً مؤثراً كثيراً بقطره ومحيطه. مع ذلك، أقسم كلا الرجلين إنه لم يكـن هناك أي تماس. «كنت أنا أمسك فرشاة الرسم وهو مدرجة الألوان» شرح فاسكو «ما تراه يمكن أن يكون أكثر ملاءمة؟» إنهـا أومـا سراسـفاتي الـتي أطلقت على الرسم الاسم الـذي اشـتهر بـه لاحقـاً «يبـدوان مثـل لوريـل وهاردن» وقهقهت، فالتصق بهما الاسم.

بعد زيارتنا إلى لوريل وهاردن، وجدت نفسي أخبر أوما عن تاريخ لوحات المغربي، وعن المشروع الجديد للمغربي العاري. فأصغت بجد إلي، وأنا أصف بكل فخار تعاوني الفني مع أمي. حينذاك صعقتني بتلك الابتسامة الهائلة، بتلك الأشعة التي كان باستطاعتها أن تطلقها من عينيها الرماديتين الشاحبتين. «ليس من الصحيح أن تقف عارياً أمام أمك، وأنت في هذا العمر،» قرعتني. «دعنا فقط نتعرف واحدنا إلى الآخر على نحو أفضل، ولسوف أكون أنا من ينحت جمالك هذا من مرمر«كرارا» المستورد. مثل داؤود بيده الضخمة سأجعل هراوتك القديمة الكبيرة العضو الأحبّ في العالم. وحتى ذلك الحين، من فضلك، أيها السيد المغربي، وفِّر نفسك لي».

بعد ذلك غادرت في الحال، دون أية رغبة في أن تزعج الرسامة العظيمة في عملها. ورغم هذا البرهان على نقاء إحساسها وحساسيتها، فإن أمي شديدة الأنانية كانت غير قادرة على أن تجد كلمة طيبة لصديقتنا الجديدة، وعندما قلت لها إنني لن أستطيع أن أقف أمامها عارياً كنموذج لترسمني، بسبب الساعات الطويلة التي كنت مضطراً لقضائها في عملي الجديد في الشركة، انفجرت كالبركان «لا تخدعني بشركتك هذه» صرخت بي «فصيادة السمك الصغيرة تلك هي التي لقطتك بصنارتها مثل سمكة غبية. أنت تظن أنها تريد فقط أن تلهو، لكن سرعان ما سوف تخرجك من الماء وتقليك بالسمنة النباتية لتضع عليك الزنجبيل، الثوم، بزر الكمون وربما رقائق البطاطا إلى جانبك». ثم صفقت باب مشغلها، طاردة إياي إلى الأبد، إذ لم تطلب مني الوقوف أمامها كنموذج مرة ثانية.

أما «الأم ـ والمغربي العاري يرتقب وصول شيمين» فقد كانت لوحة تشكيلية مثلها مثل لوحة فيلازكيز «لاس فيغاس»، لوحة، بتلاعبها بخطوط ـ البصر، كانت بشكل من الأشكال مدينة لي. ففي إحدى

حجرات «قصر حمراء ملابار» الخيـالي، وقبالـة جـدار مزخـرف بنمـاذج هندسية معقدة، كان المغربي يقف عارياً وجلده على شكل أنماط متعددة الألوان من المعيّنات. خلفه وعلى عتبة نافذة متدرجة، كان يقف نسر مـن «برج الصمت»، فيما يستند على الجدار التالي لهذا الإطـار الفظيـع، آلـة سيتار، وفأرة تقضم طبلته المطلية بلون البطيخ. إلى يسار المغربي، كانت هناك أمه الخائفة نوعاً ما، الملكة آيكسا ـ أورورا بثياب داكنة فـضفاضة، تمسك مرآة بالطول الكامل كي تعكس عريه. صورة المرآة كانـت طبيعيـة على نحو جميل ـ فلا مهرج هنا، ولا ادعاء بوجود أبي عبـد الله، بـل أنـا فقط. لكن المغربي ذا جلد المعيّنات لم يكـن ينظـر إلى نفسه في المـرآة. فعند عتبة الباب إلى اليمين، كانت تقف شابة جميلة ـ أوما، طبعـاً، أومـا المتخيلة كإسبانية، على أنها هذه «الشيمين»، أوما التي تدمج جوانب مـن صوفيا لورين «بالسيد» المأخوذ من قصة رودريجـو دي فيفـار، والمقـدم دون شرح إلى الكون المهجن للمغربي ـ وبين يديها المقـدمتين الـداعيتين كانت ثمة عجائب كثيرة ـ أضلاع ذهبية، طيور كلها جواهر، أقزام دقيقـو الأحجام ـ والكل يعوم بشكل سحري في الجو الصافي.

لقد أطلقت أورورا، الغيور، كـأم، مـن حـب ابنـها الحقيقـي الأول، هذه الصرخة من الألم التي تحـاول فيهـا أن تـري ابنـها الحقيقـة البـسيطة المتعلقة به، إذ حكم عليه بالفـشل نتيجـة خُـدع سـاحرة تـدوخ الـرأس، حيث الفئران تنهش احتمال عزف الموسيقى والنسور تنتظر صابرة وجبتـها من الفريسة. فمنذ أن وحدت إيزابيلا زيمينـادا غامـا، وحـتى وفاتهـا، في شخصها شخصيات «السيد» الكمبيادور و«شيمينه»، التقطت أورورا ابنتها مشعل بيل الساقط ورأت نفسها أيضاً، بطلاً وبطلة معاً.

ولأنه كان عليها الآن أن تقوم بهذا الفصل، ـ وعلى المغربي المرسـوم أن يعطى دور شارلتون هستون وامـرأة لهـا وجـه أومـا، كـان لا بـد مـن تعميده بالنسخة المفرنسة من الاسم المتوسط لجدتي ـ فكان ذلـك تقريبـاً

إقـراراً بالهزيمـة، نوعـاً مـن إضـفاء الـصبغة الحميميـة علـى المـوت. الآن أورورا، شأنها شأن الأرملة العجوز، آيكسا، لم تكـن مـن ينظـر في المرآة ـ المرآة، بل هو أبو عبد الله المغربي الذي تنعكس صـورته هنـاك، لكن المرآة السحرية الحقيقية كانت تلك التي في عينيه (عينيّ)، وفي تلك المرآة الغامضة لم يكن هناك من شك في أن الساحرة الواقفـة عنـد البـاب كانت أجمل الكل.

تلك اللوحة، المرسومة مثل الكثير مـن لوحـات المغـربي الناضـجة، بأسلوب الطبقات الخاص بأساتذة الفن الأوروبـيين القـدماء، والهامـة في تاريخ الفن لإدخالها في سلسلة «المغربيات» شخصية «شيمين»، إذ بـدت لي أنها تبين أن الفن، في النهاية، ليس هو الحياة، وأن مـا قـد يـشعر بـه الفنان على أنه حقيقي، ـ مثلاً، هذه الحكاية عن الاستغلال سـيء النيـة، عن سـاحرة جميلـة تـأتي كـي تفـصل بـين الأم وابنـها ـ لم تكـن تحمـل بالضرورة أدنى علاقة بالأحداث والمشاعر والناس في عالم الواقع.

فأوما هي روح حرة، تأتي وتـذهب علـى هواهـا. غياباتهـا في بـارودا مزقت قلبي، لكنها أبت أن تسمح لي بزيارتها. «ينبغي ألا ترى عملـي إلى أن أكون جاهزة لك». قالت لي «أريدك أن تسقط في حـبي أنـا ولـيس في حب ما أعمله». فعكس كل احتمال، وبالنزواتية الملكية للجمـال، كانـت هي، التي استطاعت أن تبادر، واضعة قلبها عند هذا الأحمـق العجـوز ـ الشاب التالف، هامسة في أذني بوعد منـها بـأنني سـأدخل جنتـها، جنـة المتع الأرضية. «انتظر قليلاً،» قالت لي، «انتظر أيها المحبـوب الـبريء، لأنني الإلهة التي تعرف قلبك السري، ولسوف أعطيـك بالتأكيـد كـل مـا تشتهي وتتمنى، بل أكثـر». «انتظـر فقـط بعـض الوقـت» رجـتني دون أن تنبس ببنت شفة عن السبب، لكن حيرتي مسحتها تماماً الإثارة الوجدانيـة لوعودها، «بعد ذلـك وحـتى المـوت سـأظل مرآتـك، الـذات الأخـرى لذاتك، صنوك، امبراطورتك وعبدتك».

ولا بد من أن أعترف أنه أدهشني أن أعلم أنها قامت بعدد من الزيارات لبومباي دون أن تتصل بي، إذ هتفت ميني من غراشيابلينا لتخبرني بصوت راعش أن أوما زارتها لتسألها كيف لمن هو غير مسيحي أن يبدأ حياة مسيحية؟ «أعتقد حقاً أنها ستنضم إلى يسوع المسيح،» قالت الأخت فلورياس «ولأمه المقدسة أيضاً»، وأظن أنني نخرت، فاتخذ صوت ميني نبرة غريبة وهي تقول «أجل، أوما فتاة مباركة، قالت لي كم كانت مهمومة لأن الشيطان كان قد أوقعك في قبضته».

ميناه أيضاً ـ ميناه التي لم تكن تتصل البتة ـ اتصلت لتخبرني عن مقابلات مبهجة مع محبوبتي في الصفوف الأولى من مظاهرة سياسية منعت مؤقتاً هدم بيوت الصفيح البائسة للفقراء البائسين، وهو ما كان سيجري على مساحة مهمّة ضمن مدى النظر لمرتفعات «كوف باريد». والواضح أن أوما كانت تقود المتظاهرين وسكان الصفيح على شكل جوقة مستفزة تنشد «لقد بدأنا التحرك، فماذا هناك نخشاه؟» وبسرعة أسرت ميناه لي ـ ميناه التي لم تكن تبوح بسر ـ أنها شكلت رأياً عن أن أوما سحاقية (وفيلومينا الزغبي لم تكن قد كشفت لأحد عن أسرارها الجنسية. لكن كان من المعروف جيداً أنها لم تخرج يوماً مع رجل، وقد صارت في حدود الثلاثين، كما اعترفت بنوع من الفرح أنها «على الرف» ـ حياة عانس تنتظرني، لكن الآن، ربما اكتشفت أوما سراسفاتي ما هو أكثر من ذلك). «لقد أصبحنا وثيقتي الصلة تماماً ـ تعلم؟» اعترفت مينا بشكل يسبب الإجفال، وبنوع من الخلط بين النزعة البناتية والتحدي. «أخيراً، شخص ما تلفه ويلفك، ثم الثرثرة طوال الليل مع زجاجة روم وعلبتي سجائر، فأخواتي اللعينات لم يكن لهن أي نفع في المضاجعة».

أية ليال؟ متى؟ ففي غرفة ميناه المستأجرة لم يكن هناك مجال كاف لكرسي احتياطي، ناهيك عن الفرشة الإضافية، إذن أين كان بالإمكان أن يحدث ذلك «اللف». «سمعت أنك تدلّي لسانك خارجاً، بالمناسبة،»

همست أختي في أذني وكان تماماً نوعاً مفرط ـ الحساسية بالحب أم تراها كانت تحذرني منه؟ «يا أخي الصغير، دعني أقدم لك نصيحة: لا فرصة. فاذهب واقنص لك دجاجة أخرى، هذه تفضل الدجاجات».

لم أعلم ما أفعل بتلك الاتصالات الهاتفية، خاصة وأن هاتف أوما في بارودا لم يكن يرد أبداً. ثم في انطلاقة الحملة التلفازية التجارية لشركة سوفتو للأطفال، وفي خضم قهقهات سبعة أطفال مرشوش عليهم «التالك» جيداً، كنت بعيد الذهن مشغولاً بهمومي الداخلية إلى حد أنني أهملت المهمة البسيطة التي كلفت بها ـ وهي أن أتأكد، بمساعدة ساعة التوقف، من أن أنوار ـ الكليغ لا تتركز على الأطفال أكثر من دقيقة واحدة من خمس ـ وقد انتفضت من أحد أحلام يقظتي نتيجة غضب فريق التصوير وصرخات الأمهات وعويل الأطفال، حين بدؤوا يتعرضون للقلي، وهم يبقبقون ويتذمرون، فهربت خجلاً وارتباكاً من المشغل لأجد أوما جالسة على درج الباب تنتظرني «دعنا نذهب لنأكل» قالت لي، «أنا أموت جوعاً».

وبالطبع، أرتني خلال الغداء أن لكل شيء تفسيره المعقول تماماً. إذ قالت لي: «أردت أن أعرفك» فيما كانت عيناها مغرورقتين بالدموع. «أردت أن أدهشك بمقدار الجهد الذي بذلته لمعرفة كل شيء هنا ينبغي معرفته، كذلك أردت أن أكون أقرب لعائلتك، أقرب دموياً، أو أقرب بشكل آخر حتى. الآن يجب أن تعلم أن «مينينا» المسكينة منزعجة قليلاً من الإله، فانطلاقاً من الصداقة سألتها بعض الأسئلة ولقد أجابت، العزيزة المقدسة المسكينة، ممسكة بالطرف الخطأ من العصا. أنا راهبة! لا تسخر مني يا سيد! وذلك الخط الشيطاني كان مجرد نكتة، أعني إن كانت ميني من فصيل الإله، فأنا وأنت وكل إنسان عادي من فصيل الشيطان، أليس كذلك؟ كان وجهي طوال الوقت بين يديها، أو يداها تداعبان يديّ، كما كان حالها في لقائنا الأول، فيما وجهها يشع حباً

وألماً إلى حد أنني شككت... وميناه؟» ـ تابعت بإصرار، رغم أنني شعرت أنه أشبه بعمل من أعمال القسوة المخيفة أن أتابع التحقيق مع كائن حبيب ومخلص إلى ذلك الحد. «طبعاً، ذهبت لرؤيتها، من أجلها التحقت بمعركتها، لأنني أستطيع الغناء. وقد غنيت. إذن ماذا؟ «واللف؟» «يا للإله. إن أردت أن تعلم من هي صاحبة السيدة، إذن أنت غشيم تماماً. انظر إلى أختك، الرجل ـ الصلب، وليس إلي. المشاركة في الفراش لا شيء، ففي الكلية، نحن الفتيات نفعل ذلك طوال الوقت. لكن «اللف» هو حلم أختك فيلومينا الندي، اعذرني لكوني صريحة معك. أجل، بصراحة، أنا غاضبة تماماً، أحاول أن أصادقكم وأنتم جميعاً تتهمونني بكوني كذابة ومدحلة مقدسة، بل حتى بمساحقة أختك. ما أنتم، أيها الناس الذين تتصرفون بكثير من القذارة. لماذا لا تستطيعون أن تروا أن كل ما أفعله من أجل الحب» وكانت قطرات كبيرة من الدموع تنساب على وجنتيها، لكن التعاسة لم تؤثر كثيراً على شهيتها السليمة.

«كفى، من فضلك كفى» توسلت معتذراً «أبداً.. أبداً.. لن...» لكن ابتسامتها انفجرت ضمن دموعها، متألقة إلى حد أنني كدت أن أتوقع قوس قزح، ثم تنفست قائلة «ربما حان الوقت لكي أبرهن لك أنني متغايرة كالجحيم».

* * *

بعضهم كان قد شاهدها مع أبراهام الزغبي نفسه، تلتهم شطائر النادي بجانب المسبح في نادي ولينغدون قبل أن تخسر بكل رفعة أمام الرجل العجوز في لعبة غولف. «إنها أعجوبة، أومالك تلك». قال لي بعد سنين، وقد حلق عالياً في جنة عدنه. «شديدة المعرفة، أصيلة تماماً وتحدق عامدة متعمدة بتينك العينين كبركة ـ سباحة. لا، أنا لم أر مثيلاً لهما، منذ أن نظرت إلى وجه أمك أول مرة. الله يعلم كم هذيت حولهما! أطفالي لم يكونوا يهتمون ـ أنت، مثلاً، ابني الوحيد ـ وعلى الرجل، حين يكبر في

السن، أن يحدث أحداً. كنت سأوظفها مباشرة لكنها قالت إن الأولوية لـديها هي للفن. وحق يسوع المسيح! حلمتاها بحجم رأسك!» ثم راح يثرثـر علـى نحو يثير الاشمئزاز في صوته. «ماذا أقول لك يا ولد. النساء هن نقطة ضـعفي طوال حياتي». بعدئذ وعلى نحو مفاجئ مرت سـحابة كـبيرة في وجهـه، ثم همهم، «كلانا فقدنا أمك المحبوبة لأننا تطلعنا إلى فتيات أخريات».

مخططات مصرفية فاسدة على صعيد عالمي، تثبيـت سـوق البورصـة علـى مـستوى موغـامبي ملحمـي ـ فـائق، صـفقات سـلاح بمليـارات الدولارات، مؤامرات تكنولوجيا نووية تـشتمل علـى حواسـيب مـسروقة و«ماتاهاريس» المالديفي، تصدير قطع أثريـة تتـضمن رمـز الأمـة نفـسه، أسد سرناث ذو الرؤوس الأربعة... كم من جوانب عالمه «الأسود»، كـم من تصاميمه الكبيرة كشف أبراهام لأوما سراسفاتي؟ كـم، مـثلاً، كـشف عن صفقات تصدير خاصة لمسحوق «الطفل سوفتو؟» عندما سألته اكتفـى فقط بهز رأسه. «ليس كثيراً، على ما أظن. لا أدري، ربما كل شيء. فقـد قيل لي إنني أتكلم في نومي».

* * *

لكنني أستبق الزمن. فقد حكت لي أوما عن اللعبة التي لعبتها مع أبي، مثنية على حركاته في الغولف ـ «دون تذبذب» ـ في سـنه ـ وكرمـه حيـال فتاة شابة جديدة في المدينة. إذ كنا قد اتفقنا علـى اللقـاء في سلـسلة مـن الغرف ذات السعر المتواضـع في كولابـا أو في جوهـو (فمواقـع المدينـة ذات النجوم الخمس خطرة جداً، إذ هناك الكـثير مـن الأعـين البـصاصة والألسنة ذات المدى الطويل). لكن الأماكن المفضلة لـدينا كانـت غـرف الاعتزال في محطة سكة الحديد ومركز بومباي: ففي تلك الحجرات ذات السقف العالي، الباردة، النظيفة، مغلقة المـصاريع والـتي لا اسـم لهـا، بدأت رحلتي إلى الجنة والجحيم. «قطـارات»، قالـت أومـا «وكـل ذلـك الضجيج من المكاسب والحركة، ألا يشغلك ذلك كله؟».

غير أن من الصعب أن أتكلم عن ممارستنا الحب. إذ حتى الآن، ورغم كل شيء فإن ذكرى ذلك كله تجعلني أرتعش حنيناً لما فقدت. إنني أتذكر سهولة ذلك ورقته، نوعية التجلي الذي يتصف به. مثل باب يفتح في اللحم، لينسكب عبره كون خماسي الأبعاد لا يشك فيه: بكواكبه ذات الحلقات وأذناب مذنباته، مجراته المدوّمة، شموسه المتفجرة، لكن ما يتجاوز التعبير، ما يتجاوز اللغة، كان جسديته البسيطة، حركات الأيدي، توتر العجيزة، تقوس الظهر، الارتفاع والانخفاض فيه، الشيء الذي لا معنى له سوى ذاته والذي يعني كل شيء، ذلك الفعل الحيواني المختصر، الذي يمكن القيام من أجله بأي شيء ـ أي شيء. أنا لا أستطيع أن أتصور ـ لا، حتى الآن، لا يستطيع خيالي التصور ـ أن عاطفة كهذه، حالة جوهرية كهذه يمكن أن تزيَّف.لا، لا أعتقد أنها كانت تكذب علي هناك، بتلك الطريقة، فوق القطارات الذاهبة الآتية. أنا لا أصدق ذلك. لا أصدقه، لا أصدقه، لا أصدق.. أصدق.

فهناك تفصيل مزعج. إذ أن أوما، أومـاي، همست في أذني، ونحن على وشك بلوغ هملايا نشوتنا، أن هناك شيئاً يجعلها حزينة «أمك أنا أحترمها، رغم أنها لا تحبني. لكن...» فشهقت، وأنا مشغول بشيء آخر، محاولاً أن أواسيها «أجل، هي تحبك». لكن أوما، وهي تتصبب عرقاً، تلهث، تلقي بجسدها فوقي وترفعه، كررت أساها. «لا، يا غلامي العزيز. هي لا تحبني، قطعاً لا تحبني». وأعترف أنني في تلك اللحظة من النشوة العالية لم يكن لدي رغبة في هذا الحديث. فانبثقت من شفتي كلمة بذيئة «ضاجعيها إذن». «ما ذلك الذي قلته؟» «قلت ساحقيها، ساحقي أمي». أوه ـ عند ذلك أسقطت الموضوع وركزت على ما كانت تفعله. شفتاها همستا في أذني بأشياء أخرى. أنت تريد هذا يا عزيزي، وهذا، أن تفعل هذا، بإمكانك أن تفعل هذا. إن أردت، إن أردت. يا لله!! أريد أن تدعني أفعله أجل، أجل. أوه...

هذر كهذا من الأفضل المشاركة فيه من أن تسترق السمع إليه، لذلك لن أتكلم زيادة. بل يجب أن أقر ـ وذلك يجعلني أحمر خجلاً ـ أنها، أوما، عادت المرة تلو المرة إلى الموضوع، موضوع عداء أمي لها، إلى أن بدا الأمر وكأنه صار جزءاً مما يثيرها ـ إنها تكرهني، تكرهني. فقل لي ماذا أفعل. كان من المتوقع أن أرد، لكن سامحوني، وأنا في قبضة الشهوة أجبت كما طلبت. انكحيها، قلت لها، انكحيها، هي الكلبة الغبية، الغبية. وأوما: كيف؟ عزيزي يا عزيزي، كيف؟ انكحيها واقلبي عاليها سافلها ومن الجانبين أيضاً ـ أوه، أنت باستطاعتك يا عزيزي الوحيد، إن أردت ذلك، إن قلت فقط إنك تريده ـ أوه، يا لله، أجل، أريده، أجل، يا الله!

وهكذا في لحظة نشوتي الكبرى، نثرت بذور الخراب: خرابي، خراب أمي وخراب بيتنا الكبير كله.

* * *

في تلك الأيام وقعنا كلنا في غرام أوما، ما عدا واحدة، بل حتى أورورا التي لم تكن تحبها، ندمت، لأن حضور أوما في بيتنا كان يأتي معه بأختي أيضاً، علاوة على أنه كان باستطاعتها أن ترى الفرح في وجهي. وبغض النظر عن المرات التي كانت تحضر بها، فقد بقيت أماً وطبقاً لذلك كانت تطري قلبها. كذلك، كانت أورورا جدية في العمل، وبعد أن زار كيكو مودي بارودا ثم عاد يهذي حول أعمال المرأة الشابة، فإن أورورا لانت أكثر وأكثر. في إحدى العشيات النادرة التي باتت أمي تحتفل بها تلك الأيام، تم استقبال أوما كضيفة شرف. «كرمى للعبقرية» قالت «كل شيء يجب غفرانه». نظرت أوما إليها وقد سمعت الإطراء العذب، ثم خجلت. فأضافت أورورا «وإلى الصنف الثاني يجب ألا يعطى شيء حتى ولا قرش واحد. إي.. فاسكو، ماذا تقول بهذا الخصوص؟» حينذاك كان فاسكو ميراندا، الذي صار في خمسيناته،

لا يقضي الكثير من الوقت في بومباي. وحين يظهر، لم تكن أورورا تضيع الوقت في المجاملات، بل تضع في فنه، «فن المطارات»، السم الذي كان غير عادي حتى بالنسبة لأشد النساء سفاهة. فأعمال أورورا لم تكن «ترتحل» البتة. صالات عرض مهمة أوروبية قليلة ـ مثل الستدليك، التيت ـ كانت قد اشترت منها لوحات، لكن أمريكا بقيت مغلقة في وجهها، باستثناء عائلة غوبلر من فورت لودروال التي لولا حماستها الشديدة في جمع اللوحات لكان كثير من الفنانين الهنود قد ظلوا مفلسين، لذلك قد يكون الحسد هو الذي شحذ لسان أمي. «إي، فاسكو، كيف هي تحركاتك «الترانزيتية» الخاصة؟» أرادت أن تقول «هل لاحظت كم من المسافرين لا يتوقفون لحظة لإلقاء نظرة على لوحاتك؟ وما يتخلف عن النفاثة؟ أهو جيد للملكات النقدية؟» حيال هجمات كهذه، كان فاسكو يبتسم ابتسامة واهية ثم يحني رأسه. إذ كان قد جمع ثروة من العملة الأجنبية، وكان مؤخراً قد تخلى عن مقار إقامته وشغله في لشبونة ونيويورك، لكي يبني بيتاً فوق تلة في الأندلس، كان، حسب الشائعات، قد أنفق عليه أكثر من مجموع دخل الفنانين الهنود كلهم طوال عمرهم. هذه القصة التي لم يفعل شيئاً لإنكارها، لم تخدمه إلا برفع عدم شعبيته في بومباي وكثافة هجمات أورورا الزغبي عليه.

محيط خصره كان قد انتفخ، وشارباه كانا علامة تعجب مزدوجة، وشعره المزيّت كان يفرقه فوق أذنه اليسرى تماماً ثم يلصقه على صلعته، قبة لامعة بالبريلكريم. «لا عجب أنك ما زلت أعزب يا ولد،» شاكسته أورورا في مرة أخرى. «إطار احتياطي يمكن أن تتحمله النساء، لكن يا ولد، أنت اشتريت مصنع إطارات «غودبير» كله. ذات مرة، كان هزء أورورا به يتوافق مع رأي الأغلبية. فالزمن الذي كان لطيفاً بالنسبة لحساباته المصرفية، تعامل بقسوة مع سمعته الهندية وكذلك مع جسده. إذ رغم مهماته الكثيرة، فإن كمية عمله كانت حينذاك في حالة سقوط حر، إذ كان ينظر إليه على أنه رقيق وزائف، ورغم أن المجمَّع الوطني

كان قد اشترى زوجاً من لوحاته في الأيام الأولى، إلا أن ذلك لم يحصل منذ سنين. كما أن لوحة من لوحاته لم تكن حالياً في العرض. وبين أشد النقاد حدة والجيل الأصغر من الفنانين، كان ميراندا يعتبر نوعاً من الإخفاق. وبينما كان نجم أوما يرتفع، كان نجم فاسكو ينخفض، لكن عندما كانت أورورا تهاجمه، كان هو يحتفظ بأجوبته لنفسه.

ذلك أن التعاون بين أورورا وفاسكو لم يتحقق البتة، فهي التي كانت تعرف ضآلة موهبته، كانت قد شقت طريقها الخاص، سامحة له بأن يحتفظ بمشغله في إليفانتا كرمى للأيام السالفة فقط، وربما لأنها كانت تستمتع بأن يكون حولها لكي تمزح عليه. أما أبراهام، الذي كان دائماً يشمئز من فاسكو، فقد جاء لأورورا بقصاصات جرائد تحمل أخباراً عنه في الخارج، تثبت أن ميراندا اتهم أكثر من مرة بالسلوك العنيف، وأنه نجا بشق النفس من ترحيله ذات مرة من الولايات المتحدة ومن البرتغال أيضاً، وأنه اضطر ذات يوم لأن يخضع لعلاج مديد في مصحات، وفي مراكز مكافحة إدمان، مستوصفات إعادة تأهيل المدمنين على المخدرات في أوروبا وأمريكا الشمالية. «فتخلصي من هذا المأفون العجوز» توسل إليها.

أما بالنسبة إلي. فقد كنت أتذكر حالات اللطف الكثيرة لفاسكو، عندما كنت طفلاً صغيراً يخاف، وكنت ما أزال أحبه، لكن كان باستطاعتي أن أرى أن أبالسته كانت قد كسبت المعركة على جانبه الخيّر. وفاسكو الذي زارنا في أمسية أوما، ذلك المهرج المنتفخ غروراً في أوبرا هزلية، كان مشهده محزناً بالحقيقة إذ فرقع، عند نهاية الأمسية، حين خفض الكحول من قدراته الدفاعية، «إلى الجحيم بكم كلكم». صرخ، «إنني ذاهب حالاً إلى بيتي في بنينغيلي، وإن كان لدي ذرة من مخ لن أعود إلى هنا أبداً». بعدئذ انطلق يغني أغنية بلا لحن. «وداعاً، فلورا فاونتين أبداً، وداعاً، هتاغاتشوك» ، ثم توقف، طارفاً بعينيه، هازاً رأسه. «لا، ليس تماماً. وداعاً مارين دربيف، وداعاً، فيتاتجي ـ طريق سبهاز ـ

تشاندرا ـ بوز». (وبعد سنين، عندما ذهبت إلى اسبانيا أيضاً، تذكرت أغنية فاسكو غير المكتملة، بل غنيت نسخة منها لنفسي).

غير أن أوما مشت مباشرة إلى ذلك الشخص المتألم الحزين، وضعت يدها على كتفه ثم قبلته على فمه، العمل الذي لم يتوقعه أحد، وبدلاً من أن يكون ممتناً ـ وقد كان هناك الكثير في ذلك الصالون، بما فيهم أنا نفسي، ممن كانت ستسعدهم كثيراً تلك القبلة ـ فإن فاسكو دار حول أوما ثم قال لها «يهوذا، أنا أعرفك. يهوذا مخلصة خانت سيدنا المسيح، أعرفك يا آنسة. لقد رأيتك في تلك الكنيسة». فتلونت أوما أشد التلون. ثم تراجعت. فيما وثبت أنا للدفاع عنها. «أنت، تجعل نفسك أحمق»، قلت لفاسكو، الذي راح يترنح وهو خارج، أنفه في الجو، ثم بعد لحظة سقط بكثير من الجلبة في حوض السباحة.

«جيد. انتهى الأمر». قالت أورورا بخفة، «دعونا نلعب «ثلاث شخصيات، سبعة آثام». لقد كانت لعبتها المفضلة في الصالون. إذ أن عملية انتقاء عشوائية تحدث بقذف قطعة نقود في الهواء تقرر جنس الشخصيات الخيالية الثلاث وعمرها، ثم قصاصات من الورق تلتقط من قبعة تستخدم لتحديد «الإثم» القاتل الذي ارتكبه كل من تلك الشخصيات، أما الصحبة المجتمعة فكان المطلوب منها حينذاك أن ترتجل قصة تتعلق بالآثمين الثلاثة. في تلك المناسبة، تكشفت الشخصيات عن أنها امرأة عجوز، شابة وشاب، وآثامهم هي بالتسلسل الغضب، الغرور والشهوة. وما إن تمت الخيارات، حتى صرخت أورورا الحادة أكثر من أي وقت مضى، والمتأثرة ربما، أكثر مما بدا عليها، بعاصفة فاسكو الصغيرة الأخيرة: «حصلت على واحدة».

فهتفت أوما بإعجاب «أخبرينا إذن».

«حسن، هكذا تسير» قالت أورورا، وهي تنظر مباشرة إلى ضيفتها الشابة. «ملكة عجوز مفعمة بالغضب تكتشف أن ابنها الشهواني الأحمق تغويه منافسة قاتلة، شابة ومغرورة».

«قصة عظيمة» قالت أوما، مشعة بكل رزانة. «واه.. واه! كثير من اللحم على ذلك العظم. أجل، يا سيدي».

«دورك،» قالت أورورا وابتسامة عريضة على شفتيها، كابتسامة أوما. «ما تراه يحدث بعد ذلك؟ ماذا على الملكة العجوز الغاضبة أن تفعل؟ هل عليها، ربما، أن تنفي العاشقين للأبد؟ أم عليها أن تفترق عنهما فقط وتبعدهما عن ناظريها؟»

فكرت أوما ثم قالت: «ليس ذلك بالأمر الحسن تماماً. أظن أنه لا بد من حل دائم أكثر. لأن خصماً كهذا ـ مثل هذه المدعية الشابة المغرورة ـ إن لم يتم إنهاؤها، إن لم يتم اجتثاثها، فإنها ستعمل بالتأكيد على تهشيم الملكة العجوز الغاضبة. ومن المؤكد أنها ترغب بالأمير الشاب الشهواني كله لنفسها، وبالمملكة أيضاً، ولسوف تكون فخورة إن شاركت أمه العرش».

«ماذا تقترحين إذن؟» سألت أورورا، بصوت عذب جليدي في غرفة الرسم الساكنة فجأة. «قلت»، قالت أوما، هازة كتفيها. «من الواضح أنها قصة قتل. بشكل أو بآخر، أحدهم يجب أن يموت. الملكة البيضاء تأخذ البيدق الأسود، تصل به إلى مربع الملكية، فيصبح ملكة سوداء تأخذ الكعكة البيضاء بدلاً منه. ليس هناك من نهاية أخرى، أو ما يمكنني أن أرى على الأقل». فبدت أورورا متأثرة «أوما، أيتها البنت، أنت فتاة سرية. لماذا لم تقولي لي إنك لعبت هذه اللعبة من قبل؟».

* * *

«أنت فتاة سرية...» لم تستطع أمي أن تتخلى عن الفكرة بأن أوما لديها ما تخفيه. «إنها تأتي من لا مكان وتلتصق بعائلتنا». وكانت أورورا مهمومة دائماً ـ كما لم تكن مهمومة، كما قيل في الأيام القديمة حول ماضي فاسكو ميراندا الذي كان موضع تساؤل. لكن من هم أهلها؟ أين أصدقاؤها؟ ما هي حياتها؟ نقلت تلك الشكوك إلى أوما، بينما كانت ظلال مروحة السقف في غرفة الاعتزال تداعب جسدها العاري وأنسام

المروحة تجففه. «لا يمكن لعائلتك أن تتكلم عن الأسرار» قالت أوما. «اعذرني أنا أكره أن أتكلم بسوء عن جماعتك ممن تحب، لكنني لست الشخص الذي لديه أخت مجنونة ماتت من قبل، وأخرى ترى الجرذان تتكلم في دير، وثالثة تحاول أن تفك رباط منامة صديقتها. ثم رجاء: من يشتغل أبوه أشغالاً قذرة ويعلق مع بغايا قاصرات؟ وأم ـ سامحني، يا حبي، لكن يجب أن تعرف ذلك ـ ليس لها حالياً علاقة غرام مع رجل واحد ولا اثنين بل ثلاثة؟».

جلست في السرير. «لمن تراك تتكلمين؟» صرخت بها. «لمن تسكبين سم الحية هذا لكي يبتلعه ثم يرتمي أرضاً؟» فقالت أوما، وهي تعانقني:

«المدينة كلها تتحدث عن ذلك. مسكين «سوفتو».تحسب أنها نوع من الإلهة أو ما شابه. لكن كل الناس يعرفون. رقم1، ذلك البارسي العاق كيكو مودي، رقم 2، فاسكو ميراندا المحتال البدين، والأسوأ رقم 3: إنه ابن الزنى ميندوك، رامان فيلدينغ! ذلك السافل الحقير. أنا آسف لكن السيدة ليس لها طبقة محددة. بل الناس يتهامسون بأنها أغوت حتى ابنها ـ نعم! يا فتاي البربري المسكين، أنت لا تعلم ما هم الناس ـ لكنني أقول لهم هناك حدود، وليس الأمر كذلك. أقسم أنا نفسي على ذلك! لهذا ترى أن سمعتكم الجيدة الآن في قبضتي».

تلك المناسبة كانت شجارنا الأول، لكن حتى وأنا أدافع عن أورورا، شعرت في صميم قلبي بأن اتهامات أوما صحيحة، فإخلاص كيكو الكلبي كان قد آتى ثماره، وفي الوقت نفسه تحمل فاسكو الطويل للإهانات التي توجهها أورورا له كانت في النهاية ذات معنى، إن رؤيت في سياق «علاقة» لكن، علاقة فاسدة. وباعتبار أنها هي وأبراهام لم يكونا يتشاركان فراشاً واحداً، إذن أين كان بإمكان أورورا أن تبحث عن راحتها؟ عبقريتها وعظمتها كانتا قد عرتاها، والنساء القويات يخشين الرجال، وفي بومباي لم يكن هناك إلا القلة من الرجال الذين يتجرؤون

على طلب ودها. ذلك كان يفسر علاقتها بميندوك. فهو خشن، قوي جسدياً، قاسٍ، وواحد من قلة من رجال المدينة الذين لا ترهبهم أورورا. مواجهتها في مسألة «قبلة عباس علي بيك» كانت قد استفزته، وكان قد قبل رشوتها ثم أراد ـ أو هكذا افترضت ـ أن يقهرها بالمقابل. وبعين خيالي رأيتها تثار وتُسحر بمخلوق ـ المجارير ذاك ذي القوة الحقيقية، هذا الهمجي، هذا الرعاعي المشاء. وإذا كان زوجها يفضل بغايا طريق فوكلاند عليها، فهي، أورورا العظيمة، تحقق انتقامها بتسليم جسدها لمخالب فيلدينغ وطعناته، أجل، كان باستطاعتي أن أرى كيف لذلك أن يثيرها، كيف له أن يطلق كل ما فيها من وحشية. ربما أوما على حق، ربما أمي هي عاهرة ميندوك.

ولا عجب، أنها بدأت تبدو وكأنها مصابة قليلاً بجنون العظمة، قلقة لأنها موضع ملاحقة، فحياة سرية معقدة كهذه، وكل ما يمكن أن تخسره إن ظهرت تلك الحياة للنور!! كيكو، المحب ـ للفن، ميراندا ذو الشخصية الغريبة أكثر، ثم الضفدع الضخم، أضف إلى ذلك، عالم أبراهام الزغبي غير المرئي من مال وأسواق سوداء، فتكون لديك صورة الأشياء التي تحبها أمي حقاً، النقاط الأساسية في بوصلتها الداخلية، يكشفها اختيارها للرجال. وإذا ما نُظر إليها من خلال هذه العدسة، فإن عملها يمكن اعتباره نوعاً من اللهو الذي يصرف نظرها عن حقائق شخصيتها القاسية، مثل معطف رائع يغطي روحها القذرة المصنوعة من وحل.

لكن لارتباكي، وجدت نفسي أبكي وفي الوقت نفسه أتهيج ويحدث لي انتصاب من جديد، فألقتني أوما على السرير وفرشخت فوقي، مقبلة الدموع ماسحة إياها، «هل يعرف الجميع ذلك ما عداي؟» سألتها «وميناه؟ مينا؟ من؟» «لا تفكر بأخواتك». قالت، متحركة ببطء وعلى نحو مهدئ. «يا للرجل المسكين! إنك تحب الجميع ولا تريد شيئاً سوى الحب. لو

أنهم فقط يهتمون بك مثل اهتمامك بهم. لكن ينبغي أن تسمع ما يقولون لي عنك. أشياء وأشياء!! كما أنك لا تعلم كم تشاجرت معهم بسببك».

فجعلتها تتوقف «ما الذي تقولينه؟ ما هذا الذي تقولينه لي؟».

«يا للطفل المسكين!»، قالت ملتفة علي مثل ملعقة. كم عبدتها حينذاك! كم كنت ممتناً، في هذا العالم الغادر، أن يكون لي نضجها، رصانتها، حكمتها الدنيوية، قوتها وحبها.

«يا للمغربي المسكين عاثر الحظ. سأكون عائلتك منذ الآن».

(15)

بـاطراد باتـت الرسـوم تقـل ألوانهـا، إلى أن بـدأت أورورا تـشتغل بالأبيض والأسـود وبعـض ظـلال الرمـادي أحيانـاً. فيمـا صـار المغـربي شخصاً مجرداً، نموذجاً تغطيه ماسـات بيـضاء وسـوداء مـن رأسـه حـتى قدميه. الأم آيكسا تظهر سوداء، فيما الحبيبة شيمين بيضاء لامعة، بل إن كثيراً من هذه اللوحات كانت تبدو مـشاهد ـ حـب. فـالمغربي وصـاحبته يمارسان الحب بأوضاع مختلفـة. وقـد تركـا بيتـهما للترحـال في شـوارع المدينة، باحثين عن فنادق رخيصة، مـستلقيين عـاريين في غـرف مغلقـة النوافذ فوق ضـجيج القطـارات الغاديـة الرائحـة. وآيكـسا الأم دائمـاً في مكان ما من هذه اللوحات، خلف سـتار، منحنيـة علـى ثقـب المفتـاح، طـائرة إلى نافـذة جـولات العاشـقين. أمـا المغـربي المرسـوم بـالأبيض والأسود فهو يلتفت باتجاه حبيبته البيضاء، بعيداً عن سيدته السوداء، مـع ذلك كلتاهما كانت جزءاً منه. والآن، في آفاق اللوحات البعيـدة، كانـت هناك جيوش محتشدة، خيـول تطـرق بحوافرهـا الأرض، رمـاح تلمـع، وجيوش تقترب وتقترب على مر السنين.

لكن الحمراء غير مرئية، قال المغربي لحبيبته. حصننا ـ كحبنا ـ لن يـسقط أبداً، إنه بالأبيض والأسود، برهان حي على إمكانيـة اتحـاد الأضـداد. لكـن آيكسا السوداء شقت طريقاً وشيمين البيضاء، طريقاً آخر. ثم بدأتا تمزقانه إلى نصفين: ماسات سوداء وماسات بيضاء كانت تتساقط من جرم يُمـزَّق وكأنهـا قطرات دموع. لقد فصل نفسه بعيداً عن الأم وتعلق بشيمين. وحـين وصـلت الجيوش إلى أسفل التلة، عنـدما تجمعـت تلـك القـوة البيـضاء عنـد خلـيج تشوباتي، انسلت امرأة تلبس عباءة سوداء وعلى رأسـها قبعـة، خارجـة مـن القلعة ثم نزلت التل. في يدها الخائنة مفاتيح البوابة. رآها المراقـب ذو الـساق الوحيدة فحياها. إنها عباءة سيدته. لكن عند أسفل التل، تركت العباءة تـسقط أرضاً، ثم وقفت بالأبيض الناصع وفي يدها الخائنة مفتاح هزيمة أبي عبدالله.

سلمته إلى الجيوش المحاصرة للقلعة، ثم اختفى بياضها في بياضهم. فسقطت القلعة، وبهتت صورتها إلى مجرد بياض.

* * *

في سن الخامسة والخمسين، سمحت أورورا لكيكو مودي أن يعرض سلسلة كبيرة من آخر أعمالها في متحف الأمير ويلز ـ وهي المرة الأولى التي تكرم فيها مؤسسة كهذه فناناً حيا. قطع من اليشب، النحت، المنمنمات والمنسوجات القديمة أفسحت بكل احترام الطريق للوحات أورورا كي تحل محلها. لقد كانت حادثة هامة في حياة المدينة. إذ كانت الرايات التي تعلن عن الحدث منتشرة في كل مكان. (أبولو بندر، كولابا كوزومي، فلورا فاونتين، تشير تشغيت، فيلارد، سهار، سانتا كروز...إلخ...إلخ... أوه يا للضجيج المبارك لمدينتي المفقودة! أمكنة فرت مني للأبد، وكل ما لدي عنها إنما هي الذكرى. سامحوني، رجاء، إن كنت أستسلم لإغراء استعادتها في خيالي، بتسمية أماكنها أمام عيني الشاردتين. مكتبة ثاكار، كعك بومباي، سينما إيروس، طريق بيدير..إلخ..إلخ) فالرمز آ. ز. المصمم خصيصاً لم يكن منه مفر.لقد كان على الفواتير كلية الحضور المرسلة بالطيران، وفي كل الجرائد والمجلات. إنه الافتتاح الذي لم يغب عنه أي من شخصيات المدينة، ففقدان حدث كهذا أشبه بالموت الاجتماعي، إذ بدا نوعاً من التتويج أكثر مما هو عرض فني. ولقد وضع إكليل الغار على رأس أورورا، قيلت فيها المدائح، وأمطرت ببتلات الزهور، الإطراءات والهدايا. لقد انحنت المدينة لها ولامست قدميها.

حتى رامان فيلدينغ رئيس مؤسسة «ما» القوي، ظهر، طارفاً بعينيه الضفدعيتين وقدم كل احتراماته «ليرى الجميع هذا اليوم ما الذي نفعله من أجل الأقليات». قال بصوت عالٍ. «أهي هندوسية من تحظى بهذا

التكريم؟ أهي واحدة من فنانينا الهندوس العظام؟ لا يهم، في الهند، يجب أن يكون لكل جماعة سكانية مكانها، نشاطها أثناء الفراغ ـ فن وكل شيء. الكل: مسيحيون، بارسيون، جانيون، سيخ، بوذيون، يهود، مسلمون. نحن نقبلهم جميعاً. فهذا أيضاً جزء من إيديولوجية رام راجيا، قواعد الإله رام. فقط، عندما تغتصب الجماعات الأخرى أماكن هندوسية، عندما تسعى الأقلية لإملاء أوامرها على الأغلبية، حينذاك نقول إن على الصغير أن يقبل بالانحناء والتحرك أمام الكبير. هذا ينطبق أيضاً على حالة الفن. أنا نفسي فنان بالأصل. لذلك أقول وبيدي شيء من السلطة إن الفن والجمال يجب أن يخدما المصلحة الوطنية أيضاً. سيدة أورورا أنا أهنئك على معرضك المتميز. أما ما سيبقى من الفن، سواء أكان فن نخبة أو جماهير، فناً نبيلاً أو منحطاً، مضخماً ـ للذات أو قاتماً، عالي الروح أو غائصاً في المجارير، روحانياً أم إباحياً، فإنك ستوافقين على أنني متأكد» وضحك هنا للدلالة على أنها نكتة ـ «من أن الزمن وحده سيقرر ذلك».

في الصباح التالي، كانت جريدة «تايمز الهند» (طبعة بومباي)، جنباً إلى جنب مع كل جريدة أخرى في المدينة، تنقل تقارير أخبار بارزة عن الافتتاح الصاخب ومقابلات بحجم طائرة جامبو عن العمل. في هذه المقابلات، بدت حياة أورورا داغاما الزغبي الطويلة والمتميزة تقارب الدمار تماماً. إذ أنها، وقد صارت مألوفة على مر السنين، كانت تنال الكثير من المدح، لكن مع تهجمات جمالية، أخلاقية وسياسية، إضافة إلى تهم تتفاوت ما بين الغطرسة ـ البذاءة وبين عدم صحة نسبتها لها، بل حتى ـ في إحدى المقابلات التي كانت بوحي من مانتو ـ كان الغلاف، كتعبير عن تعاطفات مؤيدة للباكستان، عليه صورة أمي على شكل طائر كبير في السن سميك الجلد، مع ذلك لا شيء كان يهيئها للقول بأنها كانت قد صارت ببساطة، غير ذات علاقة، لكن، في واحدة من هذه

التغيرات سيئة التوجيه إنما الراديكالية أيضاً، التي من خلالها يتكشف المجتمع مباشرة عن أنه بات ذا عقل جديد، انقض نمور الأخوة النقدية، المتوهجون بالتناسق المخيف، على أورورا الزغبي واصفين إياها بأنها «فنانة المجتمع» التي لا تتولف معه، بل هي ضارة بمزاج العصر. في اليوم نفسه، كانت القصة الرئيسية على الصفحة الأمامية لكل جريدة هي قصة حل البرلمان بعد التفكك الذي حدث ما بعد الطوارئ، لحكومة الائتلاف المعارضة لإنديرا، فيما استفادت عدة افتتاحيات من الطباق بين حالتي المتنافستين القديمتين، إذ كان أحد العناوين العريضة على صفحة التايمز الأولى يقول «أورورا تغوص في الظلمة، لكن بالنسبة لإنديرا، ثمة فجر جديد آخر».

لكن في مكان آخر من المدينة، في صالة شيمولد غاندي، كان عمل النحاتة الشابة أوما سراسفاتي يلقى عرضه الأولى في بومباي. رائعة العرض كانت مجموعة من المنحوتات الحجرية، عددها سبعة بطول متر منحوتة بخشونة، مجوّفة كالمغرفة في أعلاها ومملوءة بمواد مسحوقة وافرة الألوان ـ قرمزية، كحلية، زعفرانية، أرجوانية، برتقالية وذهبية. هذا العمل كان بعنوان «تغيرات في استصلاحات لجوهر الأمومة في حقبة ما بعد العلمانية»، وقد كان ضربة الوثائقيات في ألمانيا في السنة السابقة، كما كان قد عاد لتوه بعد أن عرض في ميلانو، باريس، لندن ونيويورك، ثم بعودته إلى الوطن، راح النقاد الذين عاملوا أورورا بكل خشونة، يحيون أوما باعتبارها النجمة الجديدة للفن الهندي ـ شابة، جميلة، يدفعها دافع من إيمانها الديني القوي.

هذه كانت أحداثاً حسية، لكن بالنسبة لي، كانت صدمة المعرضين ذات طبيعة شخصية أكثر. فاستعراضي الأول لعمل أوما ـ إذ حتى تلك اللحظة كانت قد أبقت حظرها لزيارتي لمرسمها في بارودا ـ كان أيضاً اطلاعي الأول على أنها مهتمة بأي معنى بالدين. إذ بدأت حينذاك بإجراء

مقابلات تعلن فيها عن إخلاصها لرام، على نحو مربك، على أقل تقدير، ولأيام بعد افتتاحها العرض، ظلت تقول بأنها مشغولة، لكن في النهاية وافقت على أن تلتقي بي في «غرف الاعتزال» فوق محطة فيكتوريا، فسألتها لماذا كانت قد أخفت جزءاً كبيراً من عقلها عني، مذكراً إياها بقولها: «حتى ميندوك ابن زنى». والآن، الصحف ملأى بما تتفوهين به من أقوال ستكون موسيقى بالنسبة له». فقالت:

«أنا لم أخبرك من قبل، لأن الدين مسألة خاصة. وكما تعلم، ربما كنت أنا إنسانة خاصة جداً جداً، كذلك، أفكر أن فيلدينغ رجل أزعر وثعبان، لأنه يحاول أن يجعل من حبي لرام سلاحاً يضرب به المغول، أي المسلمين. لكن يا غلامي العزيز ـ وكانت مستمرة في أن تطلق علي مثل هذه الصفات، رغم أنني سنة 1979 كنت قد بلغت الثانية والعشرين من العمر، فيما كان جسدي قد صار في الرابعة والأربعين ـ أنت تنظر للأمر من منظار أقلية صغيرة، أما أنا فمن الأمة الهندوسية العملاقة، وكفنانة ينبغي أن ينظر إلي بالمنظار نفسه. يجب أن أجري مقابلاتي الخاصة مع الأصول، وتسوياتي الخاصة مع الحقائق الأبدية. أضف إلى ذلك أن هذا ليس شغلك، يا سيد، لا، ليس على الإطلاق. كذلك، لو كنت متعصبة هكذا، ما تراني، رجاء، أفعل معك؟» وكانت تلك نقطة معقولة.

غير أن أورورا، في اعتزالها الشديد في إليفانتا، كان لها نظرة مختلفة. «فتاتك تلك هي الشخص الأشد طموحاً الذي قابلته في حياتي. اعذرني» قالت لي «وبلا استثناء، إنها ترى كيف تتقلب الريح فتتقلب مواقفها تقلب الريح. انتظر خلال دقيقتين ستقف على منابر منظمة «ما» تصرخ، وملء صوتها كراهية،» حينذاك صار وجهها داكن اللون «تظن أنني لا أعرف كم بذلت من جهد لكي تدمر معرضي؟» قالت بلطف ثم تابعت «تظن أنني لم أتتبع ارتباطاتها مع أولئك الناس الذين كتبوا تلك الإساءات؟».

ذلك كان كثيراً جداً، كان جائراً. فأورورا في مرسمها المفرّغ، لأن كل اللوحات «المغربية» كانت قد أرسلت إلى متحف أمير ويلز ـ واجهتني بعينين خاويتين عبر قماشة رسم لم تمس وفراشٍ تتساقط من شعرها المرفوع على شكل قبة، مثل سهام لم تصب أهدافها. فيما كنت أنا عند عتبة الباب، يتصاعد مني الدخان. لقد جئت من أجل القتال ـ إذ أصبت بصدمة كبيرة من معرضها أيضاً، وإلى أن تم افتتاحه، لم أكن قد رأيت تلك اللوحات أحادية اللون التي كان فيها المغربي ذو المعيّنات و«شيمينه» البيضاء كالثلج يمارسان الحب، بينما كانت أمه تراقبهما، أما هذر أورورا حول أوما ـ الذي كان وافراً تماماً والذي أسخطني داخلياً لأنه كان صادراً عن محظية ميندوك السرية ـ فقد أتاح لي أن أبدأ الرد صارخاً «أنا آسف، معرضك فشل، لكن حتى لو أرادت أوما أن تثبت الملاحظات، يا أمي، كيف كان باستطاعتها أن تفعل ذلك؟ ألا تدركين أنها انزعجت كثيراً لأنهم كانوا يمدحونها على حسابك؟ فتاة مسكينة تحمر خجلاً ولا تجرؤ على المجيء إلى هنا! من البداية، كانت تعبدك، فكافأتها برميها بالأوساخ. اضطهادك جنون بات خارج السيطرة! أما بالنسبة لتتبعك الارتباطات، ترى كيف تظنين سيكون شعوري، حين أرى تلك اللوحات وأنت فيها تبصبصين علينا في غرفتنا؟ ترى كم مضى عليك وأنت تبصبصين وتتجسسين؟».

«أنقذ نفسك من تلك المرأة» قالت أورورا بهدوء، «إنها امرأة مجنونة وكذابة أيضاً. إنها عظاءة مصاصة ـ للدماء، وتحب دمك، لا أنت. إنها ستمتصك كما تمتص المنغا ثم ترميك نواة فقط».

ذلك أرعبني، فصرخت بها «أنت مريضة، مريضة، مريضة في رأسك».

«لست أنا يا بني»، أجابت بنعومة أكثر حتى.«المرأة المريضة، مع ذلك، هناك ـ مريضة أو شريرة، مجنونة أو سيئة أو كلتاهما معاً. ليس باستطاعتي أن أقرر. أما بالنسبة لبصبصتي وتجسسي، فأنا أشعر بالذنب

وأتحمل العبء. إذ استخدمت منذ بعض الوقت، دوم مينتو ليكشف لي حقيقة صديقتك اللغز، فهل أقول لك ما اكتشف؟».

«دومو مينتو؟» قلت وقد سمّرني الاسم في مكاني. إذ بدا، الأمر وكأنها قالت لي «هرقل بويروت» أو «ميغريت» أو «سام سبيد»، أو ربما قالت أيضاً «المفتش غوت» أو «المفتش دار». فالكل كان يعرف الاسم، الكل كان قد شاهد «ألغاز مينتو»، الحياة المهنية لمخبر بومباي السري الشهير. بل كانت هناك سلسلة من الأفلام حوله في الخمسينات من القرن العشرين، أما الفيلم الأخير فكان يتتبع تورطه في جريمة قتل مشهورة (ذلك أنه، نعم، كان هناك ذات مرة، مينتو «حقيقي»، كان فعلاً مخبراً خاصاً،) كان فيها بطل الأسطول ذائع الصيت، المقدم سبرماتي، قد قام بإطلاق النار على زوجته وعشيقها، فقتل الرجل وأصيبت المرأة بجروح خطيرة. إنه مينتو الذي تعقب أثر الزوجين الغادرين إلى عش حبهما وأعطى العنوان للمقدم الغضوب. لكن لتأثره كل التأثر بإطلاق النار، ولصورته غير المثيرة للتعاطف في الفيلم القائم بالأساس على الجريمة، تقاعد الرجل المسن ـ إذ كان كبيراً في السن وأعرج أيضاً ـ من عمله. فتلقفه أصحاب الخيالات الشديدة وخلقوا منه مخبراً سرياً، بطلاً في الجرائد الرخيصة والمسلسلات الإذاعية، محوليه من رجل كبير في السن إلى أسطورة، فما شأن هذا المخبر السري العتيق في حياتي؟

«أجل. الشخص الحقيقي،» قالت أورورا لكن بشيء من اللطف. «الآن تجاوز الرجل الثمانين. كيكو توصل إليه». **أوه، كيكو، واحد آخر من عشاقك! هو العزيز جداً جداً. العزيز كيكو توصل إليه، هو الغالي عليك كثيراً. لقد وضعته مباشرة في العمل.**

«لقد كان في كندا،» قالت أورورا، «متقاعداً، يعيش مع أحفاد له، مضجراً، يحيل حياة الصغار إلى جحيم».

بعدئذ تبين أن المقدم سبرماتي خرج من السجن وسوى الأمور مع زوجته. ماذا تعرف؟ تماماً، هناك في تورنتو كانا يعيشان سعيدين، في النهاية.. بعد ذلك ، وطبقاً لما قاله كيكو، شعر مينتو بالخلاص من شعوره القديم بالذنب، فغادر إلى بومباي، وبالرغم من سنواته المتقدمة، عاد مباشرة إلى العمل، شيئاً فشيئاً. كيكو مروحة كبيرة، وأنا أيضاً. دوم مينتو! عاد، إذن، كما تعلم «إنه الأفضل حقاً». فقلت بكل ما في استطاعتي من سخرية، لكن قلبي، ولا بد أن أعترف، قلبي الخائف تماماً، كان يدق، «رائع، وبماذا عاد شارلوك هولمز بوليوود هذا ليخبرني عن المرأة التي أحب؟» وبكل بساطة قالت أورورا: «هي متزوجة، وحالياً لا تستغفل عاشقاً واحداً أو اثنين، بل ثلاثة عشاق. هل تريد صوراً؟ زوج أختك المرحومة إينا، ذلك الغبي جيمي كاش، كذلك والدك الغبي، وطاووسي الغبي، أنت. »

* * *

«اصغ إلي، لأنني سأقول لك ذلك مرة واحدة فقط»، قالت رداً على استقصاءاتي المستمرة حول خلفيتها. إنها تنحدر من عائلة براهمية جوغارتية محترمة ـ لكن ليست غنية البتة ـ إنما تيتمت وهي صغيرة، فأمها، لشدة اكتئابها شنقت نفسها عندما كانت أوما في الثانية عشرة، وأبوها، معلم المدرسة، جن جنونه إثر المأساة فأشعل في نفسه النار... ثم أنقذ أوما من الفقر المدقع «عم» لطيف، عملياً ليس عماً، بل زميل مدرسة من زملاء والدها ـ دفعت له مقابل تعليمه لها خدمات جنسية (كذلك ليس «بشكل لطيف» أيضاً). إذ قالت، «في سن الثانية عشرة، وحتى الآن تماماً. ولو أطعت قلبي لوضعت سكيناً في عينه، لكن بدلاً من ذلك، أسأل الإله أن يلعنه، ثم ببساطة أدير ظهري. لذلك، يمكنك أن تفهم لماذا لا أختار أن أتكلم عن ماضيّ. ولن أتكلم عنه مرة ثانية».

لكن نسخة دوم مينتو، كما ذكرتها لي أمي، كانت مختلفة نوعاً ما. فطبقاً لما قاله، لم تكن أوما من الغوجارات بل من المهاراشترا ـ أي النصف الآخر من الذات المنقسمة لدولة بومباي السابقة ـ وقد تربت في بونا، حيث كان والدها ضابطاً ذا رتبة عالية في قوى الشرطة. منذ صغرها أبدت أوما مواهب فنية بارزة وقد شجعها والداها، إذ بدون دعمهما لم يكن بالإمكان أن تنجز المعدل المطلوب للحصول على منحة دراسية في جامعة م. س. حيث كانت عموماً موضع ثناء كفتاة استثنائية واعدة. لكن، مباشرة بعد ذلك بدأت تظهر عليها ملامح تدل على روح مشوهة بشكل استثنائي. أما الآن، وقد أصبحت شخصية مشهورة، فقد صار الناس ينفرون أو يخافون من الحديث ضدها، لكن بعد استقصاءات اتسمت بالصبر الشديد، اكتشف دوم مينتو أنها في ثلاث مناسبات وافقت على أن تأخذ علاجاً مكثفاً بهدف التحكم باضطراباتها العقلية المتكررة، إنما في المناسبات الثلاث كانت تتخلى عن العلاج مباشرة بعد أن تبدأه. كما أن قدرتها على تجسيد شخصيات مختلفة جذرياً عن بعضها، بصحبة أناس مختلفين ـ أي أن تصير ما تخمن أن ذلك سيرضي الرجل أو المرأة أكثر (لكن عادة يكون رجلاً) ـ هذه القدرة استثنائية، غير أن هذه الموهبة في السلوك دفعتها أحياناً إلى حالة من الجنون وأكثر. إضافة إلى أنها تخترع قصصاً شخصية معقدة، طويلة وواضحة تماماً، ثم تتمسك بها بكل عناد، حتى عندما تواجه بالتناقضات الداخلية في كلامها الهراء، أو تواجه بالحقيقة، وربما لا تحس البتة بالمعنى الواضح للهوية «الصحيحة» المستقلة عن تلك التلفيقات. لقد بدأ هذا الاضطراب الوجودي ينتشر إلى ما وراء حدود ذاتها كي يصيب بالعدوى، مثل أي مرض سارٍ، كل من تكون على احتكاك بهم، إذ أنها مشهورة في بارودا بتلفيقها الكِذب الحاقد التآمري، مثلاً عن بعض أعضاء فرع الكلية الذين تلفق حولهم بشكل أحمق قصص حب ساخنة، ثم تكتب إلى زوجاتهم

تفاصيل صريحة عن لقاءات جنسية بهم، مما سبّب، في أكثر من حالة، انفصال الزوجين أو طلاقهما. «والسبب في أنها لم تسمح لك بالذهاب إلى كليتها» قالت أمي، «هي أن الكل هناك يكره أعمالها».

إذ كان رد فعل والديها على خبر مرضها العقلي هو التخلي عنها وتركها لمصيرها. وهو رد فعل ليس بغير الشائع، كما كنت أعلم جيداً، فهما لم يقوما بشنق أو حرق نفسيهما ـ فهذه الخيالات العنيفة كانت من بنات عقل ابنة حاقدة غاضبة (وهو شيء مشروع تماماً). أما بالنسبة «للعم» الخسيس، طبقاً لأورورا ومينتو، فإن أوما بعد أن نبذتها عائلتها ـ لكن ليس في سن الثانية عشرة، كما قالت، علقت بسرعة بأحد معارف والدها في بارودا، وهو وكيل شرطة مسن متقاعد، اسمه سوريش سراسفاتي، أرمل عجوز مكتئب أغراه جمال الفتاة دون كبير جهد في أن يتورط في زواج سريع معها في وقت كانت فيه الفتاة التي أنكرها والدها، بحاجة ماسة لأن تحظى باحترام المكانة الزوجية.

بعد زواجهما مباشرة، صار الرجل العجوز عاجزاً تماماً نتيجة سكتة دماغية (وما الذي أدى إلى ذلك؟ سألت أورورا. هل علي أن أفسر لك؟ هل ينبغي أن أرسم لك لوحة؟) والآن يعيش نصف ـ حياة مخيفة، أبكم مشلولاً يهتم به فقط جار موسوس. أما زوجته الشابة فقد أخذت كل ما يملك، ثم لم تفكر به مرة ثانية. والآن، هي في بومباي، بدأت اللعب في الميدان، قوى جاذبيتها، والقدرة على الإقناع في ما تلفقه من قصص، في الذروة. «لذلك عليك أن تخلص نفسك من سحرها،» قالت أمي. «أو أنك ستنتهي. إنها أشبه بجنية من جنيات الرمايانا، ومن المؤكد أنها ستطبخك إوزة صالحة للأكل».

لقد كان مينتو منجزاً تماماً لعمله. إذ أرتني أورورا وثائق ـ تتعلق بميلادها، شهادات زواجها، تقارير طبية سرية حصل عليها دوم مينتو بالرشوة وما إلى ذلك ـ مما لم يدع مجالاً للشك في أن روايته كانت صحيحة بكل تفاصيلها

المهمة. مع ذلك ظل قلبي لا يصدق. «أنت لا تفهمينها»، احتججت لدى أمي، «حسن، هي كذبت فيما يتعلق بوالديها، أنا أيضاً أكذب فيما يتعلق بوالدين من ذلك النموذج، وربما هذا الشرطي السابق سراسفاتي ليس بالملاك كما تقولين، لكن شريرة؟ مجنونة؟ شيطان في قالب بشري؟ ماما، أعتقد أن بعض العوامل الشخصية قد تدخلت».

تلك الليلة، جلست وحيداً في غرفتي، غير قادر أن آكل. إذ كان من الواضح أن علي أن أختار. فإن اخترت أوما، سيكون علي أن أقطع كل علاقة مع أمي، وربما للأبد. لكن إن قبلت بأدلة أورورا ـ وفي غرفتي الخاصة بين جدرانها الأربعة كنت مضطراً، للاعتراف بقوتها الطاغية ـ إذن، سأحكم على نفسي، في كل الاحتمالات، بحياة بلا شريك. وكم كان قد تبقى لي؟ عشر سنين؟ اثنتا عشرة سنة؟ هل كان باستطاعتي أن أواجه مصيري القاتم الغريب وحدي، دون حبيب إلى جانبي؟ ما الذي يهم أكثر: الحب أم الحقيقة؟

لكن إن كان ينبغي تصديق أورورا ومينتو، فإنها لم تكن تحبني، بل هي ببساطة ممثلة كبيرة، مفترسة عواطف، محتالة. كل ما أدركته في الحال أن كثيراً من الأحكام التي كنت قد اتخذتها من قبل عن عائلتي إنما كانت تقوم بالأساس على أشياء كانت أوما قد قالتها لي، فشعرت أن رأسي يفتل، والأرض تنسحب من تحت قدمي. هل صحيح ما يتعلق بأورورا وكيكو، بأورورا وفاسكو، بأورورا ورامان فيلدينغ؟ أهو صحيح أن أخواتي كن يتكلمن بالسوء عني في غيابي؟ وإن لا، إذن، لا بد أن يكون صحيحاً أن أوما ـ يا خير حبيبة! ـ كانت تسعى عامدة متعمدة لإفساد رأيي بأقرب الناس إلي، وبذلك تتمكن من إدخال نفسها بيني وبين أهلي، فأن يتخلى المرء عن صورته الخاصة عن العالم ويغدو معتمداً كلياً على صورة شخص آخر عنه ـ أوليس ذلك وصفاً جيداً، حرفياً لعملية خروج المرء من عقله؟ وهي الحالة ـ حسب طباق أورورا ـ التي كنت فيها أنا المجنون، وأوما الحبيبة، السيئة.

هكذا، وأنا أواجه الاحتمال بأن الشر موجود، سرت تلك الضغينة في حياتي كلها، لتقنعني بأنه حب يواجه فقدان كل شيء أردته من حياتي، فأغمي علي، وحلمت أحلاماً دموية سوداء.

* * *

في الصباح التالي جلست على المصطبة في إليفانتا، محدقاً إلى الخليج المتلألئ. جاءت ميناه لرؤيتي. وبناء على طلب أورورا أيضاً، ساعدت دوم مينتو في استقصاءاته. حيث تبين أن لا أحد من منظمتها في فرع بارودا التقى يوماً من الأيام بأوما سراسفاتي أو علم عن أي علاقة لها بأي نوع من الحملات الناشطة. «إذن حتى تقديمها كان زائفاً» قالت أختي، «بل أقول لك يا أخي الصغير، هذه المرة أمي على حق». «لكنني أحبها،» قلت بشيء من اليأس. «ولا أستطيع أن أكف عن حبها. لا أستطيع».

جلست ميناه بجانبي ثم أخذت يدي اليسرى، لتتكلم بصوت لطيف جداً، وكأنه ليس صوت ميناه، الأمر الذي لفت انتباهي. «أنا أيضاً أحببتها كثيراً،» قالت أختي، «لكن بعد ذلك، سارت الأمور بالطريق الخاطئ. أنا لم أرد أن أخبرك. ليس ذلك من عادتي. لكن، على أي حال، ما كنت لتسمع».

«أسمع ماذا؟»

«ذات مرة جاءت لزيارتي بعد أن كانت معك»، قالت ميناه، وهي تنظر إلى البعيد: «فقالت لي أشياء وأشياء عن: كيف كان الأمر معك. عنك، على أي حال لا يهم. فقد قالت لي إنها لم تحب الممارسة معك. بل قالت أكثر، لكن، إلى الجحيم. ذلك لا يهم الآن. بعدئذ قالت لي شيئاً ما عني. أي أنها راغبة بي، فطردتها، ومنذئذ لا تكلم واحدتنا الأخرى».

فقلت لها بكل فجاجة «لكنها قالت لي العكس. أعني أنت من كنت تلاحقينها».

«وصدقتها؟» ردت ميناه بسرعة، بعدئذ قبلت جبيني، «طبعاً، أنت صدقتها. ترى ماذا تعرف عني؟ من أحب، ما أحتاج؟ وأنت مجنون بحبها، يا أخي المسكين، لكنك الآن ستعقل بسرعة».

«هل علي أن أتخلص منها؟ تماماً على ذلك النحو؟».

فوقفت ميناه، أشعلت سيجارة، سعلت: بصوت مختنق أجش وغير سليم. صوتها القاسي الأول كان قد انسحب ليأتي صوتها الآخر، أداة الصراخ والهتاف. لقد كانت على حق. ما كنت أعرف شيئاً عما تحب وما تكره، حول الخيارات التي كانت تتخذها، حول الأذرع التي تتوجه إليها لكي تستمد منها الراحة، أو لماذا ربما كانت أذرع الرجال ليست مكاناً للمتعة بل للخوف. هي أختي ربما، لكن ماذا يعني ذلك؟ أنا لم أكن أناديها باسمها الأول حتى. «ما هي المشكلة الكبيرة؟» قالت هازة كتفيها، ملوحة بسيجارة كثيرة الرماد وهي تغادر. «التخلي عن التدخين أصعب. ثق بي في هذا الأمر. مجرد إخفاق بسيط أن تترك تلك الكلبة، وكن شاكراً أنك لا تدخن أيضاً».

* * *

«كنت أعلم أنهم سيحاولون أن يحطموا ما بيننا، من البداية عرفت ذلك».

وكانت قد انتقلت إلى شقة في الطابق الثامن عشر ذات منظر مطل على البحر في «كوف باريد». بجوار فندق الرئيس، غير بعيد عن صالة مودي. كانت واقفة يتأكلها الحزن، في شرفة صغيرة، تهتز تحتها أشجار جوز الهند بفعل الريح ثم فجأة انهمر مطر غزير، ومن المؤكد تماماً الآن أن في الطريق رعشة الشفة السفلى الممتلئة شهوانية، وفي الطريق أيضاً أعمالها المائية. «أمك تقول لك ـ إنني مع والدك! ـــ حسن، اعذرني

لكنني مشمئزة، وجيمي كاش أيضاً! عازف الجيتار الأبله ذاك، وفيه وتر مفقود. أنت تعلم تماماً أنه منذ اليوم الأول في ميدان السباق اعتقد أنني تجسيد إلهي لأختك، وهو منذئذ يلاحقني مثل كلب يتدلى لسانه، ثم تفترضون أنني أنا معه؟ يا إلهي! من أيضاً؟ ميراندا ربما؟ تشوكيدار ذي الساق الوحيدة؟ أليس ذلك عاراً وخزياً؟»

«لكن ما قلته عن عائلتك.. وعن «العم»».

«من أين لك الحق أن تعرف كل شيء عني؟ أنت كنت مندفعاً، وأنا لم أرد أن اخبر. يكفي. انتهى الأمر».

«لكنه لم يكن صحيحاً يا أوما، فوالداك على قيد الحياة والعم هو زوجك».

«إنها استعارة. أجل! استعارة تمثل المقدار الذي كانت حياتي سيئة به، تمثل ألمي. فإن كنت تحبني ستفهم ذلك. إن كنت تحبني، لن تعطيني الدرجة الثالثة. بل ستكف عن هز قبضتك البائسة وتضعها هناك، ثم تنهي عبوس هذا الوجه الحلو وتأتي به إلى هنا، لتفعل ما يفعله الأحباب».

«لم تكن تلك استعارة، أوما،» قلت وأنا أتراجع. «بل هي كذبة. وما يخيف في ذلك أنك لا تعرفين الفارق». ثم تراجعت إلى أن عبرت الباب وأغلقته، وأنا أشعر كأنني قفزت تماماً من شرفتها باتجاه أشجار النخيل. ذلك هو ما شعرت، كأنني أسقط. كأنني أنتحر، كأنه الموت.

لكن ذلك كان وهماً أيضاً. فالشيء الحقيقي كان سيحدث لكن بعد سنتين.

***

أشهراً صمدت، أعيش في البيت، أذهب إلى العمل، أصبح ماهراً في فن التسويق وتطوير شركة سوفتو، بل يعينني والدي الفخور مديراً للتسويق. لقد مررت في تقويم الأيام الجوفاء كلها. كما حدثت تغيرات في إيفانتا. فبعد افتتاح معرض الاستعادة، عملت أورورا بشكل نهائي على طرد فاسكو. وقد تم ذلك ببرودة جليدية. إذ ذكرت أورورا حاجتها

الماسة للعزلة، فوافق فاسكو بانحناءة باردة على إخلاء مشغله. إن كانت هذه نهاية علاقة، فكرت في سري، إذن فهي نهاية بشرف وكرامة تماماً: رغم أن برودتها القطبية جعلتني أرتعش، وأعترف بذلك. بعدئذ جاء فاسكو لوداعي فذهبنا معاً إلى غرفة الأطفال القديمة الفارغة منذ زمن طويل، حيث كان كل شيء قد بدأ.

«ذلك كل شيء يا ناس». قال الرجل «لقد آن الأوان لأن يذهب ميراندا إلى الغرب، ليبني قصراً في الهواء». فقد كان ضائعاً في فيضان وجوده الخاص، كما بدا أشبه بانعكاس في المرآة لرامان فيلدينغ الضفدع، ولفمه المبروم ألماً. صحيح أنه كان قد سيطر على صوته، لكنني افتقدت تلك السحابة من المشاعر في عينيه.

«لقد كانت كابوسي، ولا بد أنك خمنت ذلك» قال، وهو يداعب الجدران الصارخة صوراً (باو إزاب إسبلات!) كما كانت بالنسبة إليك في الماضي والآن وكما ستظل في المستقبل، ربما ستشعر ذات يوم بذلك وأنت تواجهه. حينذاك تعال إلي. تعال قبل أن تضرب تلك الإبرة قلبي». طوال سنين لم أكن قد فكرت بالنقطة المفقودة لدى فاسكو، بملكته الثلجية التي هي فلقة من جليد، لكن الآن فكرت أن قلب هذا الفاسكو المتبدل المتورم تلقى من الهجمات التقليدية أكثر من أن يهتم بالإبر. بعد ذلك مباشرة ترك فاسكو الهند مغادراً إلى إسبانيا ثم لم يعد قط.

كذلك طردت أورورا وكيل أعمالها، إذ أعلمت كيكو أنها تعتبره مسؤولاً شخصياً عن «الفشل» الذي أصاب معرضها، باعتباره «فشل علاقاتٍ عامة». فذهب كيكو بكل صخبه ثم صار يأتي كل يوم عند البوابة لمدة شهر مترجياً لمباجان أن يسمح له بالدخول (لكنه كان يُرفَض)، مرسلاً الزهور والهدايا (فترد إليه)، كاتباً رسائل لا نهاية لها (فتلقى أرضاً دون أن تقرأ). إذ قالت له أورورا إنه لم يعد في نيتها أن تعرض أي عمل، لذلك لم يعد هناك أي حاجة للصالة، لكن كيكو ظن،

وعلى نحو يثير الشفقة، أنها تطرده من أجل منافسين آخرين في شيمولد. فراح يتوسل إليها، يرجوها بالهاتف (الذي لم تكن تأتي للرد عليه حين يتصل) بالبرقيات (التي كانت تحرق بالنار بكل ازدراء)، بل حتى من خلال دوم مينتو (الذي تبين أنه شبه أعمى بنظاراته السميكة)، والذي كانت تعليمات أورورا واضحة له: أن يكف عن حمل رسائله لها. أما أنا فلم يكن بوسعي إلا أن أتعجب من اتهامات أوما، فإذا كانت قد تخلصت من هذين العاشقين المزعومين، إذن، ماذا عن ميندوك؟ هل تم التخلص من فيلدينغ أيضاً؟ أم كان هو الوحيد الذي يسكن قلبها؟

أوما، أوما، لقد أوحشتني كثيراً. كما كانت هناك علامات انسحاب: ففي الليل، كنت أشعر بجسدها ـ الشبح يتحرك تحت يدي المشوهة. وبينما كنت أستغرق في النوم (فتعاستي لم تحل بيني وبين الاستغراق في النوم) كنت أرى بعين خيالي مشهداً من فيلم فرناندل القديم، الذي لا يعرف فيه الكلمة الإنكليزية المقابلة «للمرأة»، فيستخدم يديه ليرسم الشكل الأنثوي كثير الانحناءات.

لقد كنت الرجل الآخر في الحلم. «آه» وأومأت برأسي «زجاجة كوكا»، بينما مشت أوما عابرة بنا، هازة وركيها. فيما حدق فرناندل بها ووجه إبهاماً في اتجاه مؤخرتها المبتعدة.

«زجاجتي الكوكا»، قال هو بكبرياء مفهومة.

* * *

حياة عادية، أورورا ترسم كل يوم، لكن لم يعد لي سبيل إلى مشغلها، كما كان أبراهام يعمل ساعات طويلة وعندما سألته لماذا تركني في عالم مؤخرات الأطفال أذوي هناك ـ رغم الزمن المختصر المتاح لي ـ أجاب «الكثير من حياتك مضى بسرعة كبيرة. اعمل معروفاً وتمهل بعض الوقت». ثم في عمل من أعمال التضامن الصامت، توقف عن لعب الغولف مع أوما سراسفاتي، لعله هو أيضاً كان يفتقد سحرها متعدد الجوانب.

صمت في الفردوس: صمت ووجع. السيدة غاندي عادت إلى السلطة، سانجاي يدها اليمنى، وهكذا تبين أنه ليس هناك من أخلاق نهائية في السياسة وشؤون البلاد، فقط الأمور نسبية. لقد تذكرت «القول الهندي» نسخة فاسكو ميراندا حول موضوع النظرية العامة لآينشتاين: **كل شيء نسبي. ليست فقط تموجات الضوء بل كل شيء. لأننا بالنسبية يمكن أن نلوي نقطة، نلوي الحقيقة، نلوي معايير الاستخدام، نلوي عنق القانون، د تساوي م س مربع، حيث د ترمز للسلامة، م لكتلة الأقرباء، وس لسياق الفساد، وهي الثابت الوحيد في الكون ـ ففي الهند حتى سرعة الضوء تتوقف على إسقاط المسؤولية وتقلبات الإمداد بالطاقة**. رحيل فاسكو جعل البيت أكثر هدوءاً فالبيت الصاخب القديم صار أشبه بخشبة مسرح فارغة يجوب فيها طاقم بال من الممثلين الذين خرجوا عن النص، أو ربما كانوا يمثلون على مسارح أُخرى الآن، فقط هذا البيت كان مظلماً.

لكن لم يغب عن بالي ـ والحقيقة، لوقت من الأوقات كان يشغل معظم أفكار يقظتي ـ أن ما حدث كان، بطريقة ما، هزيمة للفلسفة التعددية التي نشأنا عليها كلنا. إذ كانت أوما في قضية أوما سراسفاتي، هي التعددية، بأرواحها المتعددة، بالتزامها الإبداعي إلى حد رفيع بالطواعية للواقع والمرونة اللامحدودة، بإحساسها المشروط حداثياً بالحقيقة، لكن تبين أنها هي البيضة الفاسدة، التي قلتها أورورا ـ أورورا المناصرة طوال حياتها للجماعة ضد الفرد، اكتشفت بمساعدة مينتو بعض الحقائق الأساسية وكانت لهذا السبب على حق. لذلك، أصبحت قصة حب ـ حياتي مثالاً مريراً، استمتع رامان فيلدينغ بما فيه من سخرية، إذ أن الاستقطاب فيه بين الخير والشر كان معكوساً.

في وقت الخواء ذاك، في بداية الثمانينات، كان داعمي الأساسي هو إزكاييل، طباخنا الذي لا عمر له. وكأنه أحس بحاجة المؤسسة لما يبهجها، بدأ برنامجاً غذائياً يجمع ما بين الحنين للماضي واختراع دائرة كبيرة من

الأمل وتحريكها. إذ قبل أن أنطلق إلى شركتي وبعد أن أعود منها، كنت أجد نفسي أنجذب أكثر وأكثر إلى المطبخ، حيث كان يقرفص، بثوبه المقلم بالرمادي وبتكشيرته الصمغية، كي يقذف محتويات مقلاته بكل تفاؤل في الجو ثم يلتقطها، «افرح» كان يهذر مدعياً الحكمة «بابا، صاحبي، اجلس فقط ولسوف نطهو معاً المستقبل السعيد، سوف نهرس توابله، نقشر ثومه، نفصفص هاله، نقطّع زنجبيله، ثم نحمّي سمنة المستقبل ونقلي ذلك المزيج لتنطلق رائحته. افرح! بسب نجاح «الصاحب» في مشاريعه، عبقرية السيدة في لوحاتها، والعروس الجميلة لك! نحن سنطهو الماضي والحاضر أيضاً، ليأتي منه الغد». هكذا تعلمت أن أطبخ لحم الخروف (مقطعاً مفروماً وموضوعاً كحشوة في حبات البطاطا)، كما تعلمت طبخ الفراريج باسم قبطان البلاد، كذلك تكشفت لي أسرار حشو القريدس، أكلة «الدوب»، «الدينغ ـ دينغ». كما أصبحت سيد الكثير من الأكلات التي كان يتقنها طباخنا إزكاييل. ومع تطوافي في كتب الطبخ أعمق وأعمق، في عالم البهارات والتوابل، ارتفعت روحي المعنوية كثيراً بالحقيقة، ليس لأنني شعرت بأن إزكاييل نجح في ضمي، بعد انقطاع طويل، إلى قصة ماضيّ على الأقل، بل في مطبخه، رجعت إلى أيام كوشين التي هجرناها منذ زمن طويل، حيث كان فيها الأب الكبير فرانسيسكو يحلم بأشعة غاما، وسليمان كاستيل يهرب إلى البحر ثم يعود للظهور في آجر الكنيس الأزرق. كذلك قرأت بين أسطر كتبه ذات السترة الزمردية كفاح بيل لإنقاذ شغل العائلة، وفي روائح سحره الطبخي شممت رائحة المستودع في إرناكولم، حيث وقعت فتاة صغيرة في الغرام. لقد بدأت نبوءة إزكاييل تتحقق، إذ ما إن وضعت الأمس خلف ظهري، حتى شعرت بتوقعاتي أفضل بكثير.

«طعام جيد» وابتسم إزكاييل، لاحساً لسانه «طعام يسمّن، حان الوقت لأن تضع قدراً صغيراً على جبهتك، فرجل بلا كرش، لا شهية لديه للعيش».

في الثالث والعشرين من حزيران 1980، حاول سانجاي غاندي أن ينقلب في الطيران على شكل أنشوطة فوق نيودلهي، فغاص مباشرة إلى حتفه. في الحال ومباشرة بعد موته غصت أنا الآخر باتجاه كارثة. فخلال أيام وفاته سمعت أن جمشيد كاش توفي في حادث سيارة على الطريق الذاهب إلى بحيرة باواي، أما رفيقته في السفر فقد ألقيت بعيداً عن السيارة، مصابة ببعض الجروح الطفيفة والرضوض، ولم تكن تلك الرفيقة إلا النحاتة الشابة اللامعة أوما سراسفاتي، التي كان المرحوم، كما يقال، ينوي أن يخطبها في تلك البقعة المشهورة بجمالها. بعد 48 ساعة، ذكرت التقارير أن الآنسة سراسفاتي خرجت من المستشفى ونقلت إلى مسكنها من قبل أصدقاء. لكنها ما تزال، والسبب مفهوم طبعاً، تعاني أشد المعاناة من الحزن والصدمة.

خبر إصابة أوما، أطلق كل المشاعر المتعلقة بها تلك التي قضيت وقتاً طويلاً وأنا أحاول كتمها. فأمضيت يومين وأنا في حالة صراع، لكن ما إن سمعت بأنها عادت إلى «كوف باريد»، حتى تركت المنزل، قائلاً للمباجان إنني ذاهب إلى الحدائق المعلقة أتمشى هناك، ثم أوقفت سيارة أجرة في اللحظة التي غبت فيها عن ناظريه. فتحت أوما الباب، وهي تلبس بنطالاً ضيقاً أسود، مرخية فوقه قميصاً يابانياً معقوداً بشيء من رخاوة على طراز ـ الكيمونو، فبدت مرعوبة كمن وقع في مصيدة. ثم بدا وكأن قوة جاذبيتها الداخلية كانت قد اضمحلت، إذ بدت أشبه بتجمع متزعزع من جزيئات يمكن أن تتطاير متناثرة في أية لحظة.

«هل إصابتك خطرة؟» سألتها.

«أغلق الباب»، أجابت، وحين استدرت باتجاهها، كانت قد فكت القميص وتركته يسقط، قائلة: «انظر بنفسك».

بعد ذلك، لم يعد هناك من شيء يفرقنا. فما بيننا بدا وكأنه ازداد قوة ومتانة خلال انفصالنا. «أوه يا صبي» غمغمت وأنا أداعبها بيدي اليمنى

الملتفة. «أوه، أجل، هكذا، يا صبي، يا صبي» ثم فيما بعد، «كنت أعلم أنك لن تكف عن حبي، فأنا لم أكف. قلت لنفسي، الإرباك لأعدائنا، وليسقط كل من يقف في طريقنا».

ثم اعترفت لي أن زوجها، كان قد مات. فقالت لي «لو كنت امرأة سافلة إذن أجبني لماذا ترك لي كل شيء؟ بعد مرضه لم يعد يعرف أحداً، حتى أنا كان يظنني الخادمة، لذلك رتبت أمر رعايته وغادرت. فإن كان ذلك أمراً سيئاً، إذن أنا سيئة». لذلك، برأتها بسهولة. لا، لست سيئة، يا عزيزتي، يا حياتي، لست أنت.

لم يكن هناك خمش في جسدها. «صحف لعينة،» قالت لي، «حتى أنني لم أكن في السيارة اللعينة، بل كنت أركب سيارتي، وقد أخذتها لأنه كان لدي خطط فيما بعد. إذن، كان هو في مرسيدسه الغبية، وأنا في سوزوكيّ الجديدة. وعلى ذلك الطريق من الدرجة الثانية أراد ذلك العابث المجنون أن يسابق. فيما كان هناك سيارات شحن، حافلات ذات سائقين سكرانين، إضافة إلى عربات تجرها حمير، عربات تجرها جمال وما لا يعلم إلا الله من وسائل نقل».

عندئذ بكت فجففت دموعها. «ماذا كان باستطاعتي أن أفعل؟ فقط سقت مثل امرأة عاقلة وأنا أصرخ به، لا، ارجع، لا. لكن جيمي كان يفتقد شيئاً ما في رأسه. ماذا أقول لك؟ هو لم ينظر، بل بقي على الجانب الخطأ من الطريق، إلى أن وصل إلى زاوية، كانت تتمدد فيها بقرة، حاول أن يتجنبها، فلم يستطع لأن سيارتي كانت هناك فجنح عن الطريق إلى الجانب الأيمن حيث كانت هناك شجرة حور، وخلاص». (هكذا بالعربية) حاولت أن أشعر بالأسى على جيمي لكنني فشلت. «لقد قالت الصحف إنكما كنتما ستتزوجان». فنظرت إلي غاضبة، ثم قالت «لن تفهمني أبداً. جيمي لم يكن شيئاً بالنسبة إلي. بل أنت دائماً كل شيء».

صرنا نلتقي أكثر ما في استطاعتنا، وقد أبقيت مواعداتنا خفية لا تعرف بها العائلة. والظاهر أن أورورا كانت قد استغنت عن خدمات دوم مينتو، لأنها لم تكتشف شيئاً عن لقاءاتنا. مرت سنة بل أكثر من سنة، خمسة عشر شهراً هي أسعد أيام حياتي. «الإرباك لأعدائنا» عبارة أوما المتحدية هذه صارت العبارة التي نستخدمها في اللقاء والوداع.

بعدئذ ماتت ميناه.

هلكت أختي من ـ أي شيء آخر سوى ـ ضيق النفس. إذ كانت تزور معملاً للمواد الكيماوية شمالي المدينة للتحقق من سوء معاملة اليد العاملة النسائية الكبيرة هناك، ومعظمهن من بيوت الصفح في ضاحية دارافي وباريل ـ عندما حدث انفجار صغير على مقربة منها. فـ «اكتمال» الراقود المختوم المليء بالكيماويات الخطرة، إذا ما استخدمنا لغة التقرير الرسمية الخاصة بالتخدير، «تمت تسويته بحل وسط». والنتيجة العملية لهذا الفقدان للاكتمال الكيماوي التام كانت أن انطلق في الجو قدر كبير من غاز آيزورنيت المتيل. إثره ارتمت ميناه أرضاً فاقدة الوعي، بسبب الانفجار، كما استنشقت جرعة قاتلة من الغاز. فيما فشل التقرير الرسمي بتعليل التأخر في استدعاء المساعدة، رغم أنه أدرج سبعة وأربعين سبباً منفصلاً لفشل المعمل في توفير معايير السلامة المطلوبة. كذلك تم لوم عناصر الإسعاف المهيئين لذلك في الموقع لتأخرهم وبطئهم في الوصول إلى ميناه وفريقها. ورغم أنها أعطيت نشقة من صوديوم الثيوسلفات في سيارة الإسعاف، إلا أن ميناه توفيت قبل أن تصل إلى المستشفى. لقد ماتت جاحظة العينين عذاباً، شاهقة، مكافحة من أجل الهواء، بينما كان السم يأكل رئتيها. اثنتان من منظمتها ماتتا أيضاً، الثلاث الأخريات نجون لكن بعاهات حادة دون أن يدفع أي تعويض لهن. إذ خلص التحقيق إلى أن الحادث كان هجوماً متعمداً على منظمة ميناه من «عملاء خارجيين لم تحدد أسماؤهم». لذلك لم يكن المصنع مسؤولاً عن الوفيات ولا مذنباً، فقط كانت ميناه قبل بضعة

أشهر قد نجحت أخيراً في إرسال كيكي كولاتكار إلى السجن لتلاعباته بالأراضي والعقارات، لكن لم يتم اكتشاف أي أثر لارتباط السياسة بالقتل، أما أبراهام، كما ذكِر من قبل، فقد خرج بنفسه من القصة مثل الشعرة من العجين... لكن اسمع. ميناه هي ابنته. ابنته، تمام؟

«الإرباك لـ... » لكن توقفت أوما في منتصف العبارة، وهي ترى مظهر وجهي، عندما ذهبت لأراها بعد جنازة فيلومينا الزغبي. «لا مزيد من ذلك» قلت وأنا أنشج. «لا مزيد من الإرباك، رجاء».

استلقيت في السرير ورأسي في حجرها، فداعبت شعري الأبيض. «أنت على حق» قالت «حان الوقت لكي نبسّط الأمور. أمك وأبوك يجب أن يقبلانا، يجب أن ينحنيا أمام حبنا. حينذاك يغدو باستطاعتنا أن نتزوج، بسرعة. ولسوف يكون هناك وقت سعيد بانتظارنا، وكذلك فنانة أخرى في العائلة».

«هي لن...» بدأت لكن أوما وضعت إصبعها على شفتي.

«بل يجب».

وأوما في هذا المزاج تكون قوة لا تقاوم. حبنا ببساطة أمر لازم. أصرت أوما، إنه متطلب وله الحق في أن يكون كذلك، «عندما أشرح هذا لأمك وأبيك سيلينان ويوافقان. إنهما يشكان بأصلي؟ حسن، إذن، من أجل حبنا سأذهب كي أراهما ـ هذه الليلة ـ وأريهما أنهما على خطأ».

احتججت لكن احتجاجاً واهياً. فالوقت مبكر جداً على ذلك، قلباهما مليئان حزناً على ميناه. غمغمت لها، وليس هناك مجال لنا. إلا أنها ألقت جانباً بحججي كلها. ليس هناك من قلب لا مجال فيه لإعلان حب، قالت لي، تماماً مثلما لا شك في أن الحب الحقيقي لا يمحي. والآن، بما أن السيد سراسفاتي قد مضى ورحل، فأية لطخة تلطخ حبنا سوى أنها تزوجت مرة من قبل ولم تكن عروساً عذراء؟ اعتراضات والدتي ليست معقولة، ترى كيف يقفان في وجه ابنهما الوحيد وفرصته الوحيدة

في السعادة؟ الابن الذي كان عليه أن يحمل أعباء كبيرة مـن يـوم مولـده؟ «هذه الليلة» كررت بحزم. «أنت انتظـر هنـا، وأنـا أذهـب وأقنعهمـا». ثم وثبت واقفة وبدأت ترتدي ثيابها. لكن قبل أن تغـادر ـ كانـت قـد علقـت «المـسجلة» في حزامهـا ووضـعت الـسماعات في أذنيهـا. «اصـفر وأنـت تعمل» قالت مكشرة، واضعة شريطاً في مكانـه، فارتعبـت. لكـنني قلـت بصوت عالٍ «حظ حسن». فقالت «لا يمكنني سماع كلمة»، ثم غـادرت، وما إن ذهبتْ حتى رحت أتساءل بكل كسل لماذا تزعج نفسها بالمـسجلة المتنقلة إن كان لديها جهاز إذاعي كامـل في الـسيارة. ربمـا هـو عاطـل، فكرت، فلا شيء في هذا البلد اللعين يشتغل لفترة طويلة.

بعد منتصف الليل عادت، مترعة حباً. «أعتقد فعلاً أن كل شـيء سـيكون على ما يرام». همست، فيما كنت أستلقي يقظان في السرير. إذ كان التوتر قـد حوّل جسدي إلى فولاذ كثير العقد. «هل أنت متأكدة؟» قلت مـستجدياً منـها المزيد. «ليبسوا هم بالناس الأشرار»، قالت بنعومة بالغة، منزلقـة في الفـراش إلى جانبي. «لقد استمعوا إلي حتى النهاية، وأعتقد أنه بلغهم ما نريد تماماً».

في تلك اللحظة شعرت وكأن حيـاتي تتجمـع معـاً كمـا لم تفعـل مـن قبل، شعرت كما لو أن اللخبطة الفظيعـة الـتي صـنعتها لي يـدي الـيمنى كانت في طريقهـا إلى النهايـة، معيـدة ترتيـب نفـسها علـى شـكل راحـة وأصابع ذات مفاصل وعقد، مفاصل وإبهام. وفي حمـى ابتـهاجي، كـان بإمكاني حتى أن أرقص. بل اللعنة رقصت: صرخت وعربـدت ومارسـت حباً وحشياً معها من الفرح. حقاً هي صانعة أعاجيب حققت مـا لا يمكـن تحقيقه، عند ذاك انزلقنا معاً في الفراش كـي ننـام، يلـف واحـدنا الآخـر بجسده. لكن قبل أن أنسى غمغمت بشكل غامض. «أين المسجلة؟».

«أوه. ذلك الشيء اللعين،» همست في أذني، دائماً تتلـف أشـرطتي، لقد توقفت في الطريق ورميتها في حاوية زبالة.

* * *

في الـصباح التـالي عنـدما عـدت إلى المـنزل كـان أبراهـام وأورورا ينتظرانني في الحديقة، واقفين كتفاً إلى كتف، والعبوس في وجهيهما.

«ما الأمر؟» سألت.

«من هذه اللحظة فصاعداً، » قالت أورورا الزغبي «لم تعـد ابننـا، كـل إجراءات حرمانك من الوراثة بدأنا باتخاذها. ولديك يوم واحد تجمع فيـه أشياءك وتخرج. أنا وأبوك لم نعد نرغب برؤيتك مرة ثانية».

«أنا مع أمك بكل ما في الكلمة من معنى». قال أبراهـام الـزغبي. «إننـا نشمئز منك. والآن اغرب عن وجهنا». (كما كانـت هنـاك كلمـات أقسى بكثير، وأعلى صوتاً، وكثير منها كلماتي أنا، لكنني لن أذكرها هنا).

* * *

جايا؟ إزكاييل؟ لمباجان؟ هل من أحد يخبرني ماذا حدث؟ ما الذي يجـري؟ إنما لم يتكلم أحد، باب أورورا أقفل بالرتاج، وأبراهام ترك المنطقة كلها، معطياً تعليماته لسكرتيريه بألا يعطوه أي اتصال من اتـصالاتي. أخـيراً سمحـت الآنـسة جايا هيي لنفسها بأن تنطق ثلاث كلمات «الأفضل احزم حاجاتك».

لم يشرح أحد شيئاً ـ لا حقيقة طـردي ولا وحـشية أسـلوبه! «جريمـة» الوقوع في حب مجنون مـع المـرأة الـتي تعـارض أمـي! ليقطـع إذن مـن شجرة العائلة، مثل غـصن يـابس، لـسبب تافـه جـداً ـ لا، سـبب رائـع جداً... سبب ليس بالكافي سبب لم يدع لي عقلاً. كنـت أعلـم أن النـاس الآخرين ـ معظم الناس ـ يعيشون في هذه الـبلاد تحـت سـيطرة الوالـدين المطلقة، وفي عالم السينما كانت هذه المشاهد كثيرة. لكننا كنا مختلفين، وبالتأكيد هذا المكان ذو التراتبية الصارمة والتأكيـدات الأخلاقيـة القديمـة ليس مكاني، بالتأكيد هـذا النـوع مـن المـواد لم يكـن جـزءاً مـن سـجل حياتنا! ـ مع ذلك من الواضح أنني كنـت علـى خطـأ، إذ لم يكـن هنـاك مجال لنقاش. اتصلت بأوما أنقل لها الخبر ثم واجهـت مـصيري، ولـيس

أمامي من خيار آخر. فتحت بوابة الفردوس فأشاح لمباجان بناظريه بعيداً، ثم تعثرت وأنا أعبر البوابة، زائغ النظر، فاقد الاتجاه، ضائعاً. أنا لا أحد، لا شيء، لا شيء ذا فائدة عرفته يوماً من الأيام، كما لم يكن باستطاعتي أن أقول بعد إنني عرفته. لقد فرِّغت، فقدت شرعيتي، كنت، ولنستخدم الصفة الغليظة إنما التي بدت فجأة مناسبة، **محطماً**. لقد سقطت من الجنة، والرعب من ذلك حطم الكون، كما تتحطم مرآة. فشعرت كما لو أنني أنا الآخر تحطمت. كما لو أنني وأنا أسقط على الأرض لست نفسي، بل ألف نثرة ونثرة من نفسي، شظايا زجاج تكسر.

بعد السقوط، وصلت إلى بيت أوما سراسفاتي وحقيبة في يدي. حين فتحت الباب كانت عيناها حمراوين، شعرها مشعثاً وسلوكها مضطرباً. «ميلودراما» هندية من طراز قديم كانت تنفجر على واجهة طرقنا المصقولة بالخداع. مثل حقيقة تنفجر داخل طبقة رقيقة من أكاذيب حلوة. اندفعت أوما تعتذر بصوت كله صراخ. جاذبيتها الداخلية كانت قد ضعفت إلى حد كبير، وقد انقسمت الآن فعلاً أقساماً شتى. «يا إلهي ـ لو أنني فكرت ـ لكن كيف يمكنهم ذلك ـ إنه شيء من أيام ما قبل التاريخ ـ من الأزمنة العتيقة ـ لقد ظننت أنهم أناس راقون ـ ظننت أننا نحن المغفلين المتدينين يمكن أن نتصرف على هذا النحو، وليس أناساً من نمطكم أيها العلمانيون العصريون ـ أوه يا إلهي سأذهب وأراهم ثانية. الآن تماماً، سأذهب، وأقسم ألا أراك أبداً...».

«لا» قلت وقد بلدتني الصدمة. «من فضلك لا تذهبي. لا تفعلي أي شيء آخر».

«إذن سأفعل الشيء الوحيد الذي لا تستطيع منعه». أعولت صائحة «سأقتل نفسي. سأفعل ذلك الآن، هذه الليلة، سأفعله من أجل حبي لك، لكي أحررك. عند ذاك سيرجعونك». إذن لا بد أنها أعدت نفسها لذلك مذ تلقت اتصالي الهاتفي. والآن جاء دور التنفيذ.

«أوما، لا تجني،» قلت لها.

«أنا لست مجنونة،» صرخت كالمجنونة «لا تدعني مجنونة. عائلتك كلها تدعوني مجنونة. أنا لست مجنونة. أنا أحب. امرأة تفعل كل شيء في سبيل الحب. ورجل محب لن يفعل أقل من ذلك من أجلي، لكنني لا أطلب هذا. لا أتوقع أشياء عظيمة منك، من أي رجل. أنا لست مجنونة، ما لم أكن مجنونة بك، ادعُني مجنونة حباً ـ وكرمى للإله ـ أغلق ذلك الباب اللعين».

* * *

ثم بدأت تصلي، متحمسة، والدم ظاهر في عينيها، عند الضريح الصغير للإله رام في زاوية غرفة معيشتها، حيث أضاءت مصباحاً وراحت تحركه على شكل دوائر مكثفة في الهواء. فيما وقفت هناك في العتمة المكثفة والحقيبة عند قدمي. إنها تعني ما تقول، فكرت. هذه ليست لعبة. بل ذلك يحدث. إنها حياتي، حياتنا، وهذا شكلها. ذلك شكلها الحقيقي، الشكل الذي يقع ما وراء كل الأشكال، الشكل الذي يكشف عن نفسه فقط في لحظة الحقيقة. في تلك اللحظة داهمني يأس كامل، ساحقاً إياي تحت ثقله. إذ فهمت أنني بلا حياة، فقد أخذت مني. وهم المستقبل الذي كان إزكاييل الطباخ قد أعاده إلي في مطبخه انتصب أمامي متجلياً على شكل وهم. ما كان علي أن أفعل؟ هل كانت هذه هي البلوعة بالنسبة إلي أم اللحظة السامية النهائية لكرامتي؟ هل لدي الشجاعة لأن أموت من أجل الحب، وإن فعلت ذلك هل أجعل حبنا خالداً مخلداً؟ هل باستطاعتي أن أفعل ذلك من أجل أوما؟ هل باستطاعتي أن أفعله من أجل نفسي؟

«سأفعله،» قلت بصوت عالٍ، فوضعت مصباحها أرضاً واستدارت نحوي. «قد عرفت ذلك» قالت «الإله قال إنك ستفعل ذلك. قال إنك رجل شجاعٍ وإنك تحبني، لذلك، بالطبع، سترافقني في رحلتي. ولن تكون جباناً يدعني أذهب بمفردي».

* * *

لعلها كانت دائماً تعلم أن ارتباطها بالحياة ليس بالمكين، وأن الوقت سيأتي حين تكون جاهزة للتخلي عنها. لذلك، منذ طفولتها، ومثل محارب ذاهب إلى المعركة، كانت تحمل روحها على كفها. في حال الأسر، الموت ولا العار. لهذا خرجت من خزانة زينتها بقبضتين مشدودتين. في كل قبضة منهما حبة بيضاء. «لا تسأل» قالت «بيوت رجال الشرطة تحوي الكثير من الأسرار». ثم طلبت مني أن أركع بجانبها أمام صورة الإله. «أنا أعلم أنك لا تؤمن به». قالت، «لكن من أجلي لا ترفض ذلك». ثم ركعت «كي أريك كم أحببتك دائماً حقاً، ولكي أبرهن لك أخيراً أنني لم أكذب عليك قط، سأبتلع الحبة أولاً. فإن كنت صادقاً مخلصاً أيضاً، الحق بي، في الحال، في الحال، إذ أنني سأكون بانتظارك، يا حبي الوحيد».

في تلك اللحظة، تغير فيّ شيء ما. كان ثمة رفض، فصرخت «لا» ثم خطفت الحبة من يدها فسقطت على الأرض، صرخت هي الأخرى ثم غاصت باتجاهها كما غصت أنا. فاصطدم رأسانا. «أ.. و..ه!» صحنا معاً «أوه.. أو.. هو... آي.. آي.. أ... و..».

حين صحا رأسي قليلاً، كانت الحبتان مرميتين على الأرض فخطفتهما، لكن لشدة ألمي المدوِّخ أفلحت في التقاط واحدة فقط. فيما أمسكت أوما بالحبة المتبقية ثم حدقت إليها، وقد فتحت عينيها على اتساعهما، كأنها في قبضة نوع جديد من الرعب، كأنما سئلت ، على غير توقع، سؤالاً مخيفاً، ولا تدري كيف تجيب.

قلت: «لا، أوما، لا تفعلي ذلك. إنه خطأ. إنه جنون».

فلسعتها الكلمة مرة ثانية، وللتو صرخت «لا تقل جنون، إن كنت تريد أن تعيش، فلتعش. لكن ذلك سيثبت أنك لم تحبني يوماً. سيثبت أنك أنت كنت الكذاب، الدجال، الفنان سريع ـ التغير، المناور، المتآمر، المزيف. لا أنا، بل أنت. أنت البيضة الفاسدة، الشخص الشرير، الشيطان. انظر، بيضتي سليمة». وابتلعت الحبة.

ثم كانت لحظة، عبر وجهها تعبير من الدهشة المكثفة الخالصة، تبعه في الحال استسلام، سقطت بعده أرضاً. ركعت إلى جانبها مرعوباً فملأت خيشومي رائحة اللوز المر. وجهها، وهي تحتضر، بدا وكأنه يمر في ألف تغير وتغير، كما لو أن صفحات كتاب كانت تقلب، لتتخلى عنها صفحة صفحة، روحاً بعد روح من أرواحها العديدة، إلى أن جاءت الصفحة الخاوية. فلم تعد أي شيء بعد، على الإطلاق.

لا، أنا لن أموت، كنت قد قررت ذلك من قبل. وضعت الحبة الباقية في جيب بنطالي، أياً كانت ومهما كانت، خيرة أم شريرة، أو لا هذي ولا ذاك، أو كلتيهما معاً، لا أنكر أنني أحببتها، لكن أن تموت، لن يخلد ذلك حبنا بل سيحط من قدره. لذلك سأعيش، كي أكون الحامل المثالي لهوانا، سأبين، من خلال عيشي الحياة، أن الحب يستحق أكثر من الدم، أكثر من العار ـ أكثر حتى من الموت. **لن أموت من أجلك يا أوما، بل من أجلك سأعيش، مهما تكن قاسية تلك الحياة.**

رن جرس الباب، وأنا جالس في الظلمة بجانب جثمان أوما. ثم حدث طرق على الباب، مع ذلك لم يكن هناك جواب، أخيراً صاح صوت عال: **افتح، شرطة**، نهضت فتحت الباب، فكانت فسحة المدرج ملأى ببذلات زرقاء وبناطيل قصيرة، سيقان ناحلة سوداء وركب ذات عقد وأيد تصوب مسدسات. فيما كان مفتش ذو قبعة ـ مسطحة يسدد مسدسه إلى وجهي مباشرة.

«أنت الزغبي، أليس كذلك؟» سأل بأعلى صوته فقلت أنا هو.

«يعني شري موريس الزغبي، مدير التسويق في شركة سوفتو «لتالك» الأطفال المحدودة الخاصة؟».

«أجل»

«إذن، بناء على المعلومات المقدمة إلي، أعتقلك بتهمة تهريب مخدرات، وباسم القانون آمرك أن تمشي أمامي بسلام إلى السيارة تحت».

«مخدرات؟» كررت وكلي شعور باليأس.

«تبادل الكلام ممنوع» صرخ المفتش، دافعاً مسدسه أقرب وأقرب إلى وجهي، «المعتقل لا يسأل، بل يطيع تعليمات المسؤول. أمام سر».

فخطوت بكل طواعية ضمن الحشد ذي العقد. في تلك اللحظة، لمح المفتش للمرة الأولى جسد المرأة الميتة وهي ممددة على أرض الشقة.

* * *

سجن بومباي المركزي

(16)

في شارع لم أسمع به من قبل، وقفت مكبل اليدين أمام مبنى لم أره من قبل، مبنى من الكبر بحيث ملأ مجال نظري كله جدار واحد لا سمات له ولا نوافذ فيه، وكان طريق ضيق إلى يميني، رأيت في نهايته باباً حديدياً صغيراً ـ أو بالأحرى، باباً بدا صغيراً، صغيراً مثل جحر فأرة معدني، أنشئ في ذلك الجدار الحجري المكثف والرمادي إلى حد مخيف. أحد ما دفعني إلى الأمام بعصا الضابط المعتقل، فمشيت طواعية بعيداً عن السيارة التي لا نوافذ لها، والتي كانت قد نقلتني من مشهد الموت ذاك لحبيبتي التي انتحرت. عبرت تلك الفسحة الخاوية، الساكنة وملئي الدهشة. إذ أن الشوارع في بومباي لا تكون أبداً ساكنة، أبداً أبداً لا تكون خاوية ـ فهنا، لا يوجد «هدأة ليل» أو ما شابه، حتى الآن، هكذا افترضت دائماً. ومع اقترابي من الباب رأيت أنه بالحقيقة، كان كبيراً للغاية، كما كان يعلو رأسي بكثير، وأنا أدخله كأنني أدخل كاتدرائية. إذن، كم كان ينبغي أن يكون الجدار واسعاً! قريباً منا، ليمتد فوقنا وحولنا ويحجب القمر القذر عنا. شعرت أن قلبي يغوص إلى الأسفل. وتبينت أنني غير قادر أن أتذكر إلا القليل القليل عن الرحلة. مربوطاً في الظلمة، كنت قد فقدت بكل وضوح الحس بالاتجاه وبمرور الزمن. ما تراه هذا المكان؟ من هم هؤلاء الناس؟ هل هم شرطة حقاً؟ هل كنت متهماً حقاً بتهريب مخدرات، ثم أيضاً الشك بجريمة قتل، أم أنني انزلقت صدفة من صفحة، من كتاب حياة إلى كتاب آخر ـ في حالتي السيئة، وأنا ضائع الاتجاه. ربما كانت سبابة قراءتي قد انزلقت من

جملة من قصتي إلى هذا النص الآخر، الغريب، غير المفهوم، الذي كان ينبسط، بالصدفة، تماماً تحت عيني؟ نعم، من الواضح أن انزلاقاً كهذا حدث. «أنا لست مجرماً» صرخت بأعلى صوتي. «لست أمت إلى هنا، إلى هذا العالم السفلي. هناك خطأ ما».

«كف عن كلامك المخادع هذا، أيها النتن»، أجاب المفتش. «هنا أشكال كثيرة من العالم السفلي، بلاوٍ كثيرة مخيفة، تتحول إلى ظلال ضائعة لا خطأ. أنت وغد مشاكس. ادخل، هيا. رائحتك النتنة رهيبة».

بعد طقات كثيرة وصرير كثير، انفتح الباب الكبير. في الحال بدا الجو ممتلئاً بولولات جحيمية. «أوووه! هاي... هاي.. أروه... أوي..يوي... ياووووه!» دفعني المفتش سينغ دفعة غير احتفالية. «يسار، يمين، يسار، يمين، واحد، اثنان، واحد، اثنان» كان يصرخ. «امش على طول، بيلز... بوبي! فما ينتظرك هو ما بعد الحياة».

ثم قادوني عبر ممرات معتمة تفوح برائحة المفرزات والعذاب، بالحرمان والانتهاكات، من قبل رجال يفرقعون سياطهم، كما بدا لي، ذوي رؤوس وحوش وأفاع سامة كأنها ألسنة لها. بعد ذاك إما أن المفتش تركني أو شخص آخر تحول إلى واحد من أولئك الوحوش المهجنة. حاولت أن أطرح أسئلة على الوحوش لكن تواصلهم لم يكن يمتد إلى ما هو أبعد من الجسد: ضرب، دفع، حتى طرف السوط شعرت به يلسع كالنار كاحل رجلي: ذلك هو مجمل ما كانوا يستطيعون قوله. فتوقفت عن الكلام ثم غصت أعمق وأعمق في السجن.

بعد فترة طويلة من الزمن، وجدت طريقي وقد سده رجل ـ فضيّقت حدقتي ونظرت ـ إنه ذو رأس كرأس فيل ملتحٍ يمسك بيده حلقة حديدية تتدلى منها مفاتيح. فيما كانت الجرذان تمرق مسرعة وبكل احترام حول قدميه. «إلى هذا المكان، نأتي بالناس الكفرة مثلك». قال الرجل الفيل. «هنا، سوف تكفر عن آثامك، سوف نذلك بطرق لم تكن تتصورها قط».

ثم جاءني الأمر بأن أخلع ثيابي. عارياً، مرتعشاً في الليل الحار. ساقني رجل آخر إلى زنزانة. باب ـ حياة كامل، طريق كامل لفهم الحياة ـ أغلق خلفي. فوقفت في الظلمة ضائعاً.

سجن انفرادي، الحرارة فيه زادت من رائحة العفن. البعوض، القش، برك من السوائل، وفي كل مكان في الظلمة، صراصير. قدماي الحافيتان تسحقانها وأنا أمشي. لكن حين وقفت ساكناً، تسلقت ساقيّ إلى الأعلى. فانحنيت مرعوباً أبعدها بيدي، لأشعر بأن شعري يحتك بجدار القفص الأسود. الصراصير تجمعت حول رأسي ثم نزلت على طول ظهري. شعرت بها تدب على بطني ثم تنزل إلى عانتي، هنا بدأت حركة نخع مثل دمية متحركة، ضارباً نفسي، صارخاً فقد بدأ شيء ما يجتاحني ـ شيء كالدنس.

في الصباح وجد بعض النور طريقه إلى الزنزانة، فتراجعت الصراصير لتختفي بانتظار عودة الظلام. لم أكن قد نمت، فالمعركة ضد تلك المخلوقات الشريرة كانت قد استنفدت قواي كلها. سقطت على كومة القش التي كانت فراشي الوحيد فيما أسرعت الجرذان إلى أوكارها في الجدار. كوة صغيرة فتحت في باب الزنزانة «قريباً جداً ستمسك بتلك الصراصير سهلة القصم كي تجعلها طعامك». قال الحارس ضاحكاً «حتى طيور السجن النباتيون يفعلون ذلك في النهاية، وأنت، على ما أظن، لست نباتياً».

حينذاك رأيت أن رأس الفيل الذي توهمته، بسبب غطاء رأس اخترعه من العباءة (بأذنين خفاقتين) وكلاّب (بدلاً من الأنف)، هذا الشخص لم يكن «غانيشا» الأسطوري، بل هو وحش سادي فظيع». «ما هذا المكان؟» سألته، «فأنا لم أر مثله في حياتي».

«أنتم السادة الكبار،» قال الحارس، مرسلاً بازدراء نفثة طويلة من نخام قرمزي لامع باتجاه قدمي الحافيتين. «أنتم تعيشون في المدينة ولا تعرفون شيئاً عن أسرارها، عن قلبها. بالنسبة إليكم، ذلك لا ترونه،

لكنك الآن سترى. أنت في مركزي بومباي. إنه معدة المدينة، أمعاؤها. لذلك، بالطبع، هناك الكثير من الخراء».

«أنا أعرف منطقة بومباي المركزية». احتججت، «محطات سكة الحديد، الأسواق، البازارات، لكنني لم أرَ مكاناً يشبه هذا».

«المدينة لا تعرض نفسها لكل ابن زنى، ناكح ـ أخته، ناكح ـ أمه». صرخ الرجل الفيل قبل أن يغلق الكوة. «لقد كنت أعمى. لكن الآن انتظر ولسوف ترى».

سطل ـ خراء، سطل عصيدة، الانزلاق السريع باتجاه الانحطاط التام: سأوفر عليكم التفاصيل. فأجدادي السابقون، إيرس، كامونز داغاما، فرانسوا وحتى أمي كانوا قد قضوا زمناً في السجون البريطانية، لكن هذا السجن الذي صنع في الهند وما بعد الاستقلال كان يفوق أسوأ تصوراتهم. إذ لم يكن هذا مجرد سجن، بل كان مؤسسة تربوية. فالجوع، الإرهاق، القسوة واليأس معلمون جيدون. ولقد تعلمت دروسهم بسرعة ـ شعوري بالذنب، انعدام قيمتي، تخلي الجميع عني، ربما سأدعو ذلك كله بسببي، إذ لم أكن أستحق أكثر مما لقيت، ونحن نحصل على ما نستحق. تكومت مستنداً على الجدار وجبهتي على ركبتي فيما ذراعاي حول ساقيّ، تاركاً الصراصير تغدو وتروح. «ذلك لا شيء» قال الحارس «انتظر إلى أن تبدأ الأمراض».

كم ذلك صحيح، فكرت. فهنا ستبدأ في القريب العاجل التراخوما، مرض الأذن الداخلية، الكساح، الزحار، مرض المسالك البولية، الملاريا، الكوليرا، الحمى التيفية....إلخ. بل كنت قد سمعت عن مرض قاتل جديد، شيء بلا اسم. العاهرات كن يمتن بسببه ـ وهن يتحولن إلى هياكل عظمية، ثم يسلمن الروح، هكذا كانت الإشاعة ـ التي كان قوادو كماثيبورا يعملون على إخمادها. لكن لم يكن هناك فرصة لكي أحتك بعاهرة.

بينما كانت الصراصير تزحف علي، والبعوض يلسعني، شعرت أن جلدي ينسلخ فعلاً عن جسدي كما كنت قد حلمت بذلك قبل زمن طويل. لكن في هذه النسخة من الحلم، كان جلدي المتقشر يأخذ معه كل عناصر شخصيتي، لأصير لا أحد، لا شيء، أو بالأحرى لأصير ما كانوا قد صنعوا مني. فأنا كنت ما يراه الحارس، ما يشمه أنفي من جسدي، ما بدأت الجرذان، بحماسة متزايدة، تقاربه. أنا زبد جفاء.

حاولت أن أتعلق بالماضي. وفي اضطرابي الشديد، سعيت لأن أحدد على من يقع اللوم، فكان بمعظمه يقع على أمي التي لم يكن باستطاعة والدي أن يقول لها لا ـ إذ أي نوع من الأمهات تلك التي توجه اتهامات كاذبة إلى ابنها لكي تحطمه، وهو ابنها الوحيد؟ ـ لماذا، أيها الوحش؟! ـ أوه. عصر من الوحوش آتٍ إلينا. «كاليوغ»، حين يتخذ شكل «كالي» أحول العينين محمر اللسان، مسبباً لنا الدمار الكامل ـ وتذكرت بابيولف، أم الجنرال تلك التي تخيف أكثر من الجنرال نفسه... آه أورورا كم تحولت بسهولة إلى قاتلة أطفالها ـ بأية حماسة وبرودة أعصاب صممت على أن تكتمي النفس الأخير لابنك الوحيد، لحمك ودمك، أن تلفظيه ملقية به من جو حبك إلى أعماق مكان لا هواء فيه، ليشهق هناك ويهلك رعباً، بعد أن جحظت عيناه وانتفخ لسانه! بودي لو أنك تخلصت مني طفلاً، يا أم قبل أن أكبر وأصبح شاباً ـ عجوزاً، يده كالهراوة. كان لديك القدرة على فعل ذلك ـ إذ قرصة منك ورفسة، قرصة ولطمة كانت تكفي. انظري، بفعل ضرباتك، يكتسب جلد الولد الأسود التوقد الذي يميز الرضوض وآثار السياط. أوه، كم تراه يعول! القمر نفسه اسود بسبب صراخه. لكن أنت بلا رحمة، لا تستنزف قواك. وحين ينسلخ، عندما يصبح شكلاً بلا حدود، روحاً بلا جدران، حينذاك ستشد يداك على عنقه وتضغطان، تضغطان إلى أن يندفع الهواء خارجاً من فتحات جسده المتاحة كلها، فيضرط لتخرج روحه مع ضراطه، تماماً كما أنت ضرطته، يا أمه، ليخرج منك... والآن هاهو رمق وحيد بقي لديه، فقاعة أخيرة راعشة من أمل...

«واه.. واه» صرخ الحارس مسبباً لي الإجفال، بعد أن كنت في حلم من أحلام اليقظة لأعلم أنني كنت أتكلم بصوت عال. «أبقِ أذنيك الكبيرتين لنفسك، أيها الرجل الفيل،» صرخت به. «سمني ما شئت،» أجابني بدماثة «قدرك مكتوب من قبل،» فأذعنت، مقرفصاً، دافناً رأسي بين يدي.

«حالة خاصة بالمقاضاة أنت شكلت». قال الحارس، «قوي جداً يا بيك، اللعنة على القوة، لكن من أجل الدفاع؟ الأم يجب الدفاع عنها، أليس كذلك؟ إذن من يتكلم باسمها؟...» «هذه ليست قاعة محكمة» أجبته وأنا أشعر أنني في قبضة الخواء السقيم الذي يبقى بعد أن ينسحب الغضب. «إن كان لديها نسخة أخرى، إذن دعها تخبر عنها حيث تشاء».

«تمام، تمام» قال الحارس، بنوع من التهدئة الساخرة، «حافظ على العمل الجديد. بالنسبة إلي، قيمة تسليتك حالياً هي رقم واحد».

بعدئذ فكرت بالحب المجنون، بكل حالات الحب المجنون في أجيال غاما ـ الزغبي المتتالية. تذكرت كامونز وبيل، أورورا وأبراهام، والمسكينة أوما هاربة مع عشيقها، جمشيد كاشوند ليفري، بل أدرجت اسم حتى ميني ـ إينا موراتا ـ فلورياس، وهي تجد نشوتها في يسوع المسيح، وبالطبع، فكرت ـ على نحو لا نهائي، مثل طفل يحك جرحه ـ بأوما وبي أنا نفسي، حاولت أن أتعلق بحبنا، بحقيقته، رغم أنه كان هناك أصوات في الداخل تسخر مني لحجم الخطأ الذي ارتكبته معها. **دعها تذهب**. كانت الأصوات تنصح، **على الأقل الآن، بعد كل ما حدث، أوقف خساراتك**. لكنني كنت ما أزال أريد أن أصدق ما يصدقه العشاق: أن الشيء نفسه خير من أي بديل، مهما يكن غير مرغوب به أو مهزوم أو مجنون، أردت أن أتعلق بصورة الحب باعتباره امتزاج روحين، خليطاً، نصراً لأفضل ما فينا ذاك غير النقي، الهجين، المتحد على ما هناك فينا من عناصر معزولة، منفردة، صارمة وعقائدية. النقي هو حب الديمقراطية، انتصار الجزيرة الحيادية، صحبة اثنين على الكثر الخسيسين المؤمنين بالتمييز العنصري.

حاولت أن أرى عدم الحب على أنه غطرسة، إذ من تراه سوى عديم الحب من يمكن أن يصدق أنه كامل، يرى كل شيء، وحكيم في كل شيء؟ أن تحب يعني أن تفقد كونك كلي القوة، كلي العلم. بكثير من الجهل نقع في الحب، فهو نوع من السقوط. نغمض أعيننا، ثم نقفز من أعلى ذلك الجرف على أمل أن نجد محطاً طرياً. لكن ليس هو دائماً بالطري، قلت لنفسي، مع ذلك بدون تلك القفزة لا أحد يأتي للحياة. القفزة ذاتها ميلاد، حتى عندما تنتهي بالموت، في البحث عن أقراص بيضاء، ورائحة اللوز المر تخرج من فم حبيبتك الذي لم يعد فيه أنفاس.

لا، قالت أصواتي، **الحب، مثل أمك، نزل بك إلى الأسفل**. أنفاسي كانت تدخل وتخرج بصعوبة. الربو كان يمزق صدري ويخشخش، وحين تدبرت أمري وغفوت حلمت حلماً غريباً بالبحر. لم أكن حتى ذلك الحين قد نمت، لذا كان خارج سمعي صوت الأمواج. اصطدام الكونين، الهواء والماء، واحدهما بالآخر، لذا كانت أحلامي دائماً تحن إلى صوت الاصطدام ذاك. أحياناً، أرى البحر في أحلامي بلا ماء أو أنه مصنوع من ذهب. أحياناً أراه محيطاً من قماش لوحات مخاطاً مع البر عند حافة الخليج. أحياناً أرى البر مثل صفحة ممزقة والبحر ملمحاً لصفحة مخفية تحته. أي كانت تلك الأحلام تريني ما لا يسرني أن أراه: أنني ابن أمي، ثم ذات يوم استيقظت من حلم - بحري كهذا، كنت فيه أحاول أن افر من مطاردين مجهولين، فوقعت على نفق تحت البحر لا ضوء فيه ثم جاءتني تعليمات من امرأة تغطي رأسها تقول: **اسبح إلى ما وراء حدود أنفاسي**. حينذاك فقط ستكشف الشاطئ الوحيد الذي ستكون في أمان عليه، شاطئ **الخيال ذاته**، فأطعتها بكل رغبة، ثم سبحت بكل ما لدي من قوة حتى كادت تنهار رئتاي. وحين استسلمت أخيراً وراح المحيط يندفع إلى داخلي، استيقظت وأنا أشهق لأجد أمامي الشخص غير المعقول وجوده، الرجل ذا الساق الواحدة، على كتفه الببغاء وخريطة الكنز في يده. «تعال، بابا» قال لمباجان شنديوالا، «آن الأوان لكي تبحث عن حظك، أينما يكن».

* * *

هي لم تكن خارطة ـ كنز، بل الكنز الذهبي ذاته: أي أمر إطلاق سراحي. ليست جواز مرور لصياد ـ حظوظ بل ضربة حظ لم يبحث أحد عنه. إذ أخرجتني من السجن نظيف اليدين، نظيف الثياب. دورة المفاتيح في الأقفال كانت مسموعة وكذلك هذيان الحسد من زملائي السجناء. أما الحارس، السيد الفيلي لبيت الجرذان ذاك، نزل الصراصير المحتشد ذاك، فلم يكن علي أن أراه، بل كانوا هم كالخدم الجبناء المذعنين يلبون طلباتي. في طريقي وأنا خارج، ما من شياطين ذات رؤوس حيوانية حشرت أنوفها في طريقي أو حركت ألسنتها كألسنة الأفاعي. فتح الباب، بحجمه العادي، وكأن الجدار الذي كان فيه مجرد جدار عادي. ما من آلة سحرية كانت بانتظارنا في الخارج، لا، ولا حتى سائقنا هانومان و«البويك» المجنحة ـ بل سيارة أجرة عادية بلونيها الأصفر والأسود. كتب عليها بأحرف بيضاء صغيرة، **مرتهنة لمصرف الخزانة الدولي المحدود.** ركبنا فانطلقت في شوارع مألوفة تتناثر فيها لوحات لصناع أحذية «الميترو»، وسراويل «ستيفري» الصحية، كذلك لوحات إعلانات مضاءة بالنيون عن سجائر روثمانز وشارمينار، صابون النسيم وروكسانا... إلخ... إلخ. ولم أشك لحظة أنني في طريقي إلى تل ملابار، وإن كان هناك من ظل على أفقي المشمس الآخر، فذلك لأنني شعرت أنني مضطر لأن أكرر الحجج القديمة المتعلقة بالندامة والغفران. فغفران والدتي الآن كان بكل وضوح قد حصل، إذن هل يجب أن تكون ندامتي هي الهدية التي سأقدمها لهم في المنزل؟ لكن الابن المبذر كان قد حصل على العجل السمين ـ كان محبوباً ـ حتى دون أن يعتذر. فوقفت أقراص الندامة المرة في حلقي، وفي كل مكان من جلدي. لقد كان هناك عناد طاغٍ يسيطر على دمي. اللعنة على الندم، وقطبت حاجبي، ماذا هناك لأندم عليه؟ ـ عند هذه النقطة سجلت أفكاري حقيقة أخرى هي أننا ذاهبون باتجاه الشمال ـ ليس باتجاه الحضن الوالدي، بل بعيداً عنه. إذن هذا ليس عودة إلى الفردوس بل بالأحرى مرحلة أخرى من مراحل سقوطي.

فبدأت، على نحو يثير الشفقة، أهذر: **لمبا، لمبا، قل لهـذا الزميـل.** فبدأ لمباجان يهدئني. فقط ستأخذ بعض الوقت لترتاح، بابا. بعد تجربتك حالتك العصبية هذه طبيعية. لكن مقابل تهدئة لمباجان كـان هنـاك ازدراء ببغائي. فتوتاه الببغاء كانت تقف عند النافذة الخلفية تسكب علي احتقارها الموجع، إذ ذاك انزلقت إلى الأسفل في مقعدي وأغمضت عـيني، تاركـاً نفسي أتذكر، حين كان المفتش يفحص جثمان أوما، كمـا كـان جـسدي أيضاً موضع فحص. فظهر من جـيبي مـستطيل أبـيض. «مـا هـذا؟» سـأل المفتش، مقترباً مني أكثر (إذ كان أقصر مني بطول الـرأس تقريبـاً) دافعـاً شاربيه باتجاه ذقني. «رائحة» أنفاسك بهارات طازجة؟ وفي الحـال بـدأت أهذر بشكل يائس حول اتفاقات انتحار. «أغلق فمك». أمر المفتش، قاسماً القرص الأبيض إلى نصفين «فقط مص هذه ولسوف نرى».

هذا أخرسني تماماً، إذ لم أتجرأ بعدها أن أفتح شفتي، فـالمفتش كـان قد دفع نصف القرص باتجاه فمي. **لكنه سـيقتلني، يـا سـيدي الطيـب، سيجعلني جثة بجانب حبيبتي التي رحلت.** «في هـذه الحالـة نقـول إننـا وجدنا جثتين». قال المفتش، وكأنه يذكر حقيقـة واضـحة. «قـصة محزنـة لحب اتجه اتجاهاً خاطئاً».

أيها القارئ: لقد قاومت طلبـه، لكـن أيـدياً عـدة أمـسكت بـذراعي، ساقي، شعري في لحظة كنت مستلقياً على الأرض غـير بعيـد عـن أومـا التي كان جثمانها ـ بشكل من الأشكال محاطاً بحـشد مـن ذوي البناطيـل القصيرة التواقين كل التوق لرؤيته. كنت قد سمعت عن أشخاص يموتـون فيما يدعى بشكل ملطـف «مواجهـات شـرطة». فيمـا كانـت يـد المفـتش تقبض على أنفي وتضغط... فتطلب انعدام الهـواء انتبـاهي التـام، وحـين استسلمت للمحتوم، تم القذف! ودخلت الحبة القاتلة فمي.

لكنني لم أمت ـ كما تتصور. فنصف الحبة لم تكن بطعم اللـوز المـر، بل حلوة بطعم السكر، بل سمعت المفتش يقول «الشيطان أعطـى الأنثـى

الحبة القاتلة، بينما ترك لنفسه الحبة الحلوة بطعم السكر. إذن، هي جريمة قتل! الفتح والإغلاق رهيب» وبينما كان المفتش يتحول إلى هاري جامسيت رام سينغ، حاكم بهاينبور الثري، أصبح الرجال ذوو البناطيل القصيرة جميعاً من طلاب المدارس، ومخاوف الإبعاد. لقد أبعدوني، هذا صحيح، بمشية ضفدعية إلى المصعد. وبينما كانت محتويات الحبة القوية تلك تأخذ مفعولها - بسرعة عالية، بناء على أجهزة جسمي المسرَّعة - بدأ كل شيء يتغير «يا هو... أنتم يا زملاء» صرخت ملء صوتي، وأنا أتلوى تلويات تشنجية، فقد وقعت في قبضة هلوسة شديدة «أ.. و... ه.. أقول لكم.. اتركوني».

وهي تطارد أرنباً أبيض، متعثرة باتجاه أرض العجائب عابرة بذباب الخيل الهزاز، كان على الفتاة الصغيرة أن تقوم بالاختيار بين كليني، واشربيني. اذهبوا واسألوا أليس، كما تقول الأغنية القديمة. لكن أليسي، أومواي، كانت قد قامت باختيارها، الذي لم يكن ببساطة مسألة حجم، فقد كانت ميتة ولم تكن لتجيب. «**لا تطرحوا علي أسئلة، سأقول لكم الحقيقة** ضعوا ذلك على شاهدة قبرها. ما كان علي أن أصنع بهاتين الحبتين، القاتلة والمسببة للأحلام؟ هل كانت نية حبيبتي أن تموت، واسمحوا لي، بعد زمن من الرؤى، أن تبقى على قيد الحياة، كي تراقبني، وأنا أموت، بعينين محلقتين إلى السماء بسبب المخدر؟ هل كانت بطلة مآسٍ أو قاتلة، أو بطريقة ما لم تكشف بعد كانت، كلتيهما في الآن نفسه؟ ثمة سر في أوما سراسفاتي أخذته معها إلى قبرها». ففكرت وأنا في سيارة الأجرة المرتهنة تلك، أنني لم أعرفها البتة ولن أعرفها أبداً، لكنها كانت قد ماتت، ماتت والصدمة على وجهها، فيما اجتزت أنا الأزمة، عدت لأولد في حياة جديدة. لكنها كانت تستحق تذكري اللطيف لها، تستحق النفع من الشك، وكل المشاعر السخية الطيبة التي كان باستطاعتي أن أجدها.

فتحت عيني، فوجدت نفسي في باندرا. «من فعل هذا؟» قلت للمباجان «من قام بهذه الخدعة السحرية؟» فهدأني «هــ..س .. بابا، لحظات ولسوف ترى».

رامان فيلدينغ في حديقته يتفيأ بفيء إحدى أشجارها في دارته «لالغوم» وهو يلبس قبعة قش، نظارات شمسية وثياب كركيت بيضاء. كان يتعرق بغزارة وهو يمسك بمضرب ثقيل «درجة أولى» قال بصوته الحلقي الخشن «عمل جيد يا بوركار»، لكن من تراه هذا البوركار؟ رحت أتساءل بعدئذ رأيت لمباجان يأخذ له تحية فأدركت أنني نسيت منذ زمن طويل الاسم الحقيقي للبحار المبتور الساق. إذن، لمبا هو من عناصر الـ «ما» السريين. لقد قال لي إنه متدين، وقد تذكرت نصف ـ تذكر أنه جاء من قرية في مكان ما من مهاراشترا، لكن بدا واضحاً بشكل مخجل أنني لا أعرف شيئاً ذا أهمية عنه، ولم أهتم بأن أعرف. لكن ميندوك اخترقنا وربت على كتف لمباجان «محارب ماهراتا حقيقي،» قال، نافخاً دخان التنبول في وجهي «بومباي الجميلة، مومباي المراثية، أليس كذلك، يا بور كار؟» ثم كشر مبتسماً، فيما لمباجان، الواقف بالاستعداد تقريباً على عكازه، وافق «سيد سكيبر، سيدي». وكان فيلدينغ مسروراً بتعبير عدم المصدق على وجهي. «مدينة من تراها ـ هذه المدينة؟» سألني. «على تل ملابار، أنتم تشربون الوسكي بالصودا وتتكلمون عن الديمقراطية. لكن شعبنا يحرس أبوابكم. وتحسبون أنكم تعرفونه، لكنهم هم أيضاً لهم حياتهم الخاصة ولا يقولون لكم شيئاً. ترى من يبالي بأنماط تلتكم تلك التي لا إله لها؟» «سوخالهاد أولا زيلاتا». لكن أنت لا تتكلم «المراثية». «حين يحترق القضيب اليابس، يلتهم اللهب كل شيء فيه». ذات يوم ستكون المدينة ـ بومبايي الجميلة التي سميت باسم الإلهة، وليست هذه البومباي الوسخة ذات الطراز ـ الانكليزي ـ في حال اشتعال بأفكارنا. وتلة ملابار ستحترق أيضاً، ليعود إلى هناك رام راجيا.

ثم التفت إلى لمباجان. «بناء على توصيتك أفعل الكثير، تهمة القتل مسحت ليحل محلها الموافقة على أنه عمل من أعمال الانتحار. بالنسبة لمسألة المخدرات، وجهت السلطات باتجاه أن الشخصيات الكبيرة لا تتنازل لمثل هذه الأعمال الصغيرة. والآن، تبرر لي لماذا فعلت ذلك».

«سيد سكيبر، سيدي»، قال ذلك، ثم التفت إلي شوكيدار العجوز. «اضربني بابا» قال لي مشجعاً.

فأخذت بخناقي المفاجأة «أرجو المعذرة؟» صفق فيلدينغ بيديه نافد الصبر «أطرش أم ماذا؟» فيما كان على وجه لمباجان ما يشبه تعبير التوسل تقريباً. حينذاك فهمت أنه هيأ نفسه لذلك، جعل نفسه ضعيفاً لكي ينقذني من السجن. بل إنه قامر بكل شيء لكي يقنع ميندوك بأن يحرك الجبل من أجلي. الآن، كما بدا، كان علي أن أرد الجميل وأنقذه، بأن أرتقي إلى مستوى مديحه لي. «بابا، تماماً مثل الأيام القديمة» أغراني، «اضربني هنا، هنا»، أي على طرف الذقن، فأخذت نفساً وأومأت برأسي «حسن، حسن».

«إن سمح السيد لي سأضع الببغاء جانباً». فلوح فيلدينغ بيد فقدت صبرها ثم استقر جالساً، مثل عجينة في كرسي من قصب برتقالي كبير الحجم - مع ذلك كان يصدر أنيناً - وقد وضع بجانب بركة الزنبق. بينما تماثيل الإلهة مومبا ديفي تحيط به من كل جانب تراقب العرض. «انتبه للسانك، لمبا» قلت له ثم سددت له ضربة فسقط أرضاً فاقد الوعي عند قدميّ.

«جيد تماماً»، نعق ميندوك متأثراً أشد التأثر. «لقد قال إن قبضتك المشوهة مثل مطرقة تستحق أن تكون ملكنا. ماذا تعرف؟ فذلك صحيح على ما يبدو؟» ببطء، استعاد لمباجان وعيه، متلمساً فكه. «لاتبال. بابا»، كانت كلماته الأولى. فجأة عاد ميندوك إلى لغته المنمقة «هل تعلم لماذا وافقت على أن تضربه؟» صاح بي «ذلك لأنني قلت هكذا. ولماذا هكذا تمام؟ لأنني أمتلك جسده وكذلك روحه. وكيف اشتريته؟ لأنني أرعى أهله

وأعتني بهم. مع ذلك، أنتم لا تعرفون حتى كم من العائلات لديه هناك في قريته. لكنني أنا أعرف، أعلّم الأطفال وأحل لهم المشاكل الصحية منذ سنين كثيرة، أما أبراهام الزغبي، وذلك العجوز تانا، وسي. بي بهابها والتمساح ناندي، وكيكي كولاتكار وبيرلاس، وساسونزيل حتى الأم إنديرا غاندي نفسها ـ يظنون أنهم مهتمون بالناس، بالإنسان العادي، لكن الحقيقة أنهم لا يهتمون بشيء البتة». بعدئذ سرعان ما عمل ذلك الشخص القميء على أن يبين أنهم كانوا على خطأ. بسرعة فقدت اهتمامي بهذه الخطبة، عندما فتح الحديث عن مسألة حميمية أكثر. «وأنت يا صديقي المطرقة،» قال «لقد نشلتك من بين الموتى. أتكون أفعاي المقدسة الآن؟» فسألته:

«ماذا تريد مني؟» لكن حتى وأنا ألفظ كلماتي، لم أكن أعرف السؤال بل أعرف جوابي. شيء ما كان يأسرني طوال حياتي شعرت به يحررني عندما وافقت لمباجان، شيء ما كان أسرّه لي يعني أن وجودي كله حتى تلك اللحظة بدا دفقة واحدة وغير منجز، رد فعل، يتصف بأنواع مختلفة من الاحتمالات، بينما خلاصي منه انفجر أمام عيني على شكل حريتي الخاصة. فعرفت في لحظة واحدة أنني لم أعد بحاجة لأن أعيش حياة مشروطة، حياة قيد الانتظار، لم أعد بحاجة لأن أكون ما كان قد رسم الأسلاف، التربية وسوء الحظ، بل بات باستطاعتي أن أدخل أخيراً إلى نفسي ـ نفسي الحقيقية التي كان سرها يكمن في ذلك الطرف المشوه الذي كنت أخبئه منذ زمن طويل في ثيابي. لا زيادة! الآن سأشهره بكل افتخار. من هنا فصاعداً سأكون قبضتي. سأكون المطرقة وليس المغربي.

فيلدينغ كان يتكلم، كلماته تأتي سريعة وقاسية. **هل تعرف من هو أبوك الذي يجلس عالياً هناك في برج سيودي؟ هذا الرجل الذي ألقى بابنه بعيداً عن حضنه، هل يمكنك أن تتصور عمق الشر في فعله هذا، عرض خلوه من كل قلب؟ ترى كم لديك من المعرفة عن رئيس عصابة المسلمين الذي يتستر باسم «سكار»؟**

هنا اعترفت بجهلي. فلوح ميندوك بيد طاردة، «ستتوصل لأن تعرف. مخدرات، إرهاب، مسلمون ـ مغول، حواسيب ـ تسليم ـ منظومات ـ أسلحة، فضائح مصرف الخزانة، قنابل نووية. يا للإله رام، كم أنتم الأقليات تلتحمون معاً، كم تعمل عصاباتكم ضد الهندوس. وكم نحن طيبو القلب إذ لا نرى كم أنتم خطرون وكم تشكلون تهديداً لنا. لكن الآن، والدك بعثك لي ولسوف تعرف كل شيء عنه، عن الناس الآليين أنفسهم سأخبرك، صناعة التكنولوجيا العالية، حقوق الأقليات في أن تهاجم الهندوس وتقتلهم، وعن الأطفال كذلك، مسيرة أطفال الأقليات التي ستدفع بأطفالنا المباركين، كي تخرجهم من مهادهم، تصادر طعامهم المقدس. هذه هي خططهم، لكنها لن تفلح، هندوستان: بلاد الهندوس. ولسوف نهزم محور سكار ـ الزغبي، مهما يكلفنا ذلك. سوف نجعل ركبهم القوية تنثني، يا أفعاي المقدسة، يا مطرقتي: هل أنت معنا أم ضدنا، هل ستكون يمينياً أم يسارياً؟ قل: هل أنت معنا أم لست معنا؟»

بلا تردد، اعتنقت قدري. ودون أن أتوقف كي أسأل ما الرابطة التي قد تكون هناك بين خطبة فيلدينغ المعادية لأبراهام وبين الحميمية المزعومة لعلاقته بالسيدة الزغبي، دون تلكؤ أو تأخر، وبكل رغبة، بل بفرح حتى، وثبت على قدمي «**أين أرسلتني يا أم ـ إلى الظلمة، حيث لا تراني عيناك ـ هناك بملء إرادتي سأذهب، الأسماء التي أطلقتها علي ـ منبوذ، خارج عن القانون، قذر، مثير للاشمئزاز، شرير ـ سأحتضنها بين ذراعي وأجعلها أسمائي. اللعنة التي صببتها على رأسي ستكون بركتي، والكراهية التي رششتها على وجهي سأبتلعها وكأنها سم الحب. مخزياً، سأحمل عاري وأسميه فخاري ـ سوف ألبسه، أيتها العظيمة أورورا، مثل حرف قرمزي مكتوب على صدري، الآن وأنا أغوص عميقاً بعيداً عن تلتك، لكنني لست ملاكاً، أنا. عثرتي ليست عثرة إبليس بل هي عثرة آدم، وها أنا أسقط في رجولتي وإنني لسعيد أن أسقط**».

«سيد سكيبر يميني، يا سيدي».

فأطلق ميندوك صوت فرح هائل، وجاهد لكي ينهض عن كرسيه، فجاء إليه لمباجان ـ بوركار ـ ليساعده. «هكذا، هكذا»، قال فيلدينغ «ثمة الكثير من الفائدة لقبضتك تلك. بالمناسبة، أية مواهب أخرى؟»

«الطبخ، يا سيدي»، قلت، متذكراً الأوقات السعيدة في المطبخ مع إزكاييل وكتب طبخه. «حساء الدجاج المتبل بالبهارات على الطراز الانكليزي ـ الهندي، لحم الضأن الخاص بجنوب الهند مع حليب جوز الهند، الطبخ المغولي، الطبخ الكشميري، الكباب المشوي، السمك «الغواني»....إلخ... إلخ. » فكانت بهجة فيلدينغ لا تعرف الحدود، وكان من الواضح أنه رجل يحب الطعام. «إذن أنت عارف حقيقي بكل شيء» قال، خابطاً ظهري، «فلنرَ إن كنت بعد الاختبار درجة أولى، إن كان باستطاعتك أن تأخذ الرقم ستة كلي ـ الأهمية وتجعله رقمك ر. ج. هادلي، ك. د. وولترز. رافي شاستري. كابيل دف (فلاعبو الكركيت الهنود في جولة في أستراليا ونيوزيلاندا، في الوقت الحاضر) وهناك دائماً مجال لشخص مثلك في فريقي».

* * *

هكذا، بدأت خدمتي لرامان فيلدينغ، بما دعاه «محاولة ـ التعرف على ـ موقع ـ الضيف» في مطبخه المنزلي، على نحو لم يسر كثيراً طباخه النظامي، «شاغان خمسة ـ بعضة»، وهو عملاق ناتئ الأسنان بدا وكأنه كان يحمل مقبرة مزدحمة داخل فمه الكبير. «شاغان، بابا، رجل متوحش» قال فيلدينغ معجباً، شارحاً لقب الطباخ، وهو يقدمه لي، «ذات مرة، في مصارعة، قطع أصابع قدم خصمه الخمس ـ بعضة واحدة من أسنانه». فحدق شاغان إلي ـ ليبدو لي أشبه بفزاعة مشعّثة الشعر ليس فيها من تناسق البتة في ذلك المطبخ الذي لم يكن ليحدد مكان لولاه ـ ثم بدأ سن سكاكين كبيرة مغمغماً بما لا يعلم إلا الله. «لكن الآن، هو عسل تماماً،» جأر فيلدينغ «أليس كذلك شاغو؟ كف عن التجهم الآن. الطاهي

الضيف يجب أن يعامل معاملة الأخ. أو ربما لا؟» أضاف بعدئذ ملتفتاً إلي بأجفان مثقلة. «لقد فقد أخاه في مباراة مصارعة وأصابع القدم تلك صحيحة أقسم على ذلك! إذ بدت مثل كرات لحم صغيرة باستثناء الأظفار الوسخة». فتذكرت حكايا لمباجان القديمة عن قطع ساقه إثر عضة فيل خرافي وتساءلت كم من حكايا طويلة كهذه لفقدان ـ أطراف كانت تنتشر في المدينة، رابطة نفسها بباتر أو مبتور. هنأت شاغان على نظافة مطبخه وترتيبه. وقلت لمساعديه إنني لا أتوقع أن أسقط في الاختبار. فحب النظافة والترتيب كان شيئاً مشتركاً بيني وبين صاحب الأسنان الناتئة، هكذا جزمت، دون أن أشير إلى «الخمسة ـ بعضة» كأسلوب يتميز به شخص بشكل من الأشكال، إنما أضفت بهدوء لنفسي، إنها أداة حرب، فأنيابه ومطرقتي متساوية تماماً. أو هكذا لمحت وابتسمت له أعذب ابتسامة. «سيدي، لا مشكلة يا سيدي». قلت بذكاء لرئيسي الجديد «فنحن الاثنين سنكون معاً على خير ما يرام».

في أيام الطبخ لدى ميندوك تلك، علمت شيئاً عن داخل الرجل. نعم، أنا أعلم أن هناك طرازاً، هذه الأيام، أشبه بما يتذكره الناس عن هتلر، والكثير من الناس ضده، طرازاً يقول، لا ينبغي أنسنة من هو غير إنساني. لكن النقطة الأساسية أنهم ليسوا غير إنسانيين. نماذج ميندوك أولاء، طراز هتلر، بل في إنسانيتهم ذاتها، علينا أن نحدد موقع ذنبنا الجماعي، ذنب الإنسانية حيال ارتكابات هذه الكائنات البشرية، فلو كانوا وحوشاً تماماً ـ لو كانت المسألة مسألة «كينغ كونغ» و«غوريلا» يهددان بالدمار إلى أن تقصفهما الطائرات ـ إذن لكان بقيتنا معذورين.

أنا شخصياً لا أرغب بأن أكون معذوراً. لقد اخترت وعشت حياتي، لا أكثر، انتهى! فكل ما أريده أن أتابع تلك القصة.

بين أذواقه الكثيرة غير الهندوسية، كان فيلدينغ يحب لحم الضأن ولحم الماعز والدجاج والكباب: إلى درجة لم يكن يشبع منها كلها. وفي بومباي من

يأكل لحم الضأن هم البارسيون، المسيحيون والمسلمون ـ الذين لم يكن يكنّ لهم، بكثير من الطرق، سوى الاحتقار ـ والذين كان غالباً ما يحييهم لمطبخهم غير النباتي. هذا التناقض لم يكن الوحيد في تركيبة ذلك الرجل الشرس غير المنطقي. فقد كان يحتفظ، وبكل عناية، بواجهة مصقولة من الزيف لكن كل من حوله في المنزل كانوا «غانيشات» قديمة، شيفات، شانديلات[1] تتكشف عن اهتمام خالص بالثقافة الهندية العالية، أما الرسام السابق للكريكاتور فكان ينتمي لمدرسة فنية ذات مرة، ورغم أنه لم يقل ذلك علناً مرة واحدة، إلا أن تأثره كان قد بقي. (غير أنني لم أسأل ميندوك عن أمي البتة، لكن إن كانت، بالحقيقة، قد انجذبت إليه، فإن جدرانه قد قدمت لي الدليل عن سبب جديد لماذا حدث ذلك، ورغم أنه كان دليلاً من نوع آخر أيضاً، إلا أنه كان دحضاً لقوة الفن المتحسنة المزعومة، فميندوك كان لديه تماثيل ولوحات، لكن نسيجه الأخلاقي ظل من نوعية واطئة. حقيقة لو أنه انتبه إليها، لشككت في أنها كانت ستعطيه سبباً للانتحار).

أما متأنقو تلة ملابار فقد كان يهتم بهم أيضاً، اهتماماً أشد مما كان يود أن يعترف به. خلفيتي العائلية كانت تدغدغ كبرياءه: أن يتحول موريس الزغبي ابن أبراهام العظيم الوحيد إلى مطرقة شخصية لديه أمر يريحه كثيراً، سواء حرم من الإرث أم لم يحرم. لقد خصصوا لي جناحاً في منزل باندرا، كما عاملوني دائماً بكل ما يدل على اللطف، الذي لم يكن يشمل أي مستخدم آخر، إذ كانوا يسمحون لي أحياناً بعدم استخدام تعابير الاحترام الشديد بالهندوسية، وكان لي الشرف أن زملائي لم يلمحوا إلى أي نفور من قبلهم إزاء هذه المعاملة الخاصة فافترضت أنهم يقبلون بكل ما يجري ـ الاستخدام النظامي للحمام سواء كان بالماء الساخن أو البارد، هبات اللباس الهندي من لونغيس وكورتا، ثم تقدمات البيرة، فالتنشئة الناعمة تترك بقية من نعومة في القلب.

---

(1) كلها أسماء آلهة هندوسية.

المهم: كم كان يهتم الناس ذوو الدم الأزرق بفيلدينغ. إذ كان سيل دائم من الزوار يأتي من دارات إفيرست وبهافان كانشينجونغا، من دولاجيري نيفاس، بيت نانغابربارت وقصر مناسلو، وكل أفراد الطبقة العليا الآخرين المرغوب بهم. كما أن أرشق القططة وأصغرهن سناً وأجملهن أوراكاً في الضاحية كن يأتين ليجسن في أراضيه في لالغوم، وكلهن جائعات لكن ليس لموائدي، بل ليتعلقن بكلام ميندوك ويحتضن كل مقطع منه. لقد كان ضد الاتحادات لصالح فض الإضرابات، ضد النساء العاملات لصالح ربات البيوت فقط، ضد الفقر، لصالح الفن. كما كان ضد «المهاجرين» إلى المدينة، ويقصد بذلك كل من لا ينطق المراثية، بما في ذلك أولئك الذين ولدوا هناك لصالح سكانها الطبيعيين، ومنهم ـ أنماط المراثية ـ الوسطى الذين نزلوا من حافلاتهم للتو. كذلك كان ضد فساد البرلمان لصالح العمل المباشر، الذي يعني به النشاط شبه العسكري الداعم لأهدافه السياسية ومؤسسة نظام ـ الرشوة الخاصة به. كما كان يسخر من التحليل الماركسي للمجتمع ونضاله الطبقي، محيياً تفضيل الهندوس للاستقرار الطبقي الأبدي. وفي الراية الوطنية، كان لصالح اللون الزعفراني ضد اللون الأخضر، متحدثاً عن العصر الذهبي «السابق للغزوات»، حين كان رجال الهندوس ونساؤهم يتجولون بحرية. «الآن، حريتنا، أمتنا الحبيبة مدفونة تحت أشياء أقامها الغزاة. هذه الأمة الحقيقية هي ما ينبغي أن نستعيدها من تحت طبقات الإمبراطوريات الغريبة».

ولأول مرة سمعت، خلال خدمتي تلك كطاه في مطبخ ميندوك بوجود قائمة من المواقع المقدسة التي بنى الغزاة المسلمون فوقها عامدين متعمدين مساجدهم، كذلك فوق أماكن ولادة مختلف الآلهة الهندوسية ـ ليس أماكن ولادتهم وحسب، بل أيضاً مقارهم الريفية وأعشاش حبهم أيضاً، ناهيك عن أسواقهم ومطاعمهم المفضلة. فأين يذهب يا ترى إله لقضاء أمسية لطيفة في الخارج؟ إذ أن كل المواقع

الرئيسية أقيمت عليها مآذن وقباب كرؤوس البصل، ذلك لا يصح، الآلهة لها حقوق أيضاً وينبغي استرداد طريقتها القديمة في الحياة. أما الغزاة فلا بد أن يطردوا.

الشاب الآتي من ملابار وافق بكل حماسة. نعم، بالحقيقة، حملة من أجل الحقوق الإلهية. ما تراه أحسن من ذلك، حد قاطع أكثر؟ ـ لكن عندما بدؤوا، بطريقتهم الهمجية التصغير من ثقافة الإسلام الهندي التي كانت تتوضع وفق الطراز اللوحي، على وجه الهند الأم، هب ميندوك على قدميه وهدر بهم صارخاً إلى أن انكمشوا متقلصين في مقاعدهم. بعدئذ غنى غزليات وتلا أشعاراً أوردية ـ فايز، جوش، أمثال ـ من الذاكرة وتكلم عن أمجاد «فاتحبور سيكري» والروعة الفائقة لتاج محل. شخص معقد بالحقيقة.

كذلك كان هناك نساء، لكن من المحيط، من أطراف المدينة. يأتون بهن في الليل ويسيل عليهن لعابه، لكنه لم يكن يبدو عليه الكثير من الاهتمام. فدافع ـ السلطة لديه أقوى من دافع ـ الجنس، والنساء كن يضجرنه، بغض النظر عن محاولاتهن المستميتة لجذب انتباهه. كذلك كان لا بد لي من أن أسجل أنني لم أرَ أية علاقة تدل على أمي، كما أن ما شاهدته كان يوحي بأن أية علاقة بينها وبين رب عملي الجديد، لا بد وأنها كانت علاقة قصيرة الأمد.

لقد كان يفضل صحبة الذكور، وكانت هناك أمسيات، يختلط فيها بين أصحابه من جماعة الـ «ما». ذوي العصابات الصفراء ليجري نوع مرتجل من ألعاب أولمبية مصغرة. إذ تحدث مصارعة ـ أيدٍ، مصارعة ـ حصير، منافسات ـ دفع، جولات ملاكمة في غرفة المعيشة. كما كانت الجماعة المجتمعة، وقد حمستها البيرة والروم، تصل إلى حالة التعرق، الشجار، الخشونة وأخيراً تعري من استنزفت قواه. في تلك اللحظات كان فيلدينغ يبدو سعيداً كل السعادة. يلقي بقميصه المزهر أشكالاً ألواناً ثم يتمدد بين

أتباعه، يحك ويخرمش، يتجشأ ويضرط، لاطماً إلية هذا، ضارباً إلية ذاك ومربتاً الأفخاذ. «الآن، ليس باستطاعة أحد مواجهتنا!» كان يجأر وهو يمر بحالة من السعادة الديونيزيسية. «يا للجحيم اللعين!ها نحن كل واحد».

حين كان يطلب مني، كنت أنضم إليهم، وفي تلك الأشواط الليلية من الملاكمة، كانت شهرة المطرقة قد نمت ونمت. فأجسام المجنحين الشباب المتعرقة المزّيتة العارية كانت تصرع أرضاً، وقد لاقت حسابها. (كما كان الأولمبيون المجتمعون، المحتشدون حولنا على شكل مربع تقريباً، يغنون الأرقام بصوت واحد: تسعة... عشرة... كايو!!) كذلك كان «الخمسة بعضة» هو بطل المصارعة بيننا جميعاً.

اسمعوا: أنا لا أنكر أنه كان هناك الكثير حول ميندوك، الذي آثار فيّ ردود فعل عميقة من الغثيان والاشمئزاز، لكنني دربت نفسي على تحمل ذلك. فقد كانت حظوظي معلقة بنجمه. كنت قد رفضت القديم لأنه رفضني، ولم يكن هناك فائدة من اتخاذ مواقف تلك الحياة القديمة في حياتي الجديدة. كما أنني أحببت ذلك. لقد صممت، سأصير هذا الرجل. عن كثب درست فيلدينغ إذ كان لا بد من أن أقول ما يقول، وأفعل ما يفعل. لقد كان الطريق الجديد بالنسبة إلي، المستقبل. وكنت أتعلم شيئاً عنه مثل أي طريق.

أسابيع مرت ثم أشهر. أخيراً انتهت مدة مراقبتي بعد الاعتقال إذ كان علي أن أمر باختبار، غير مرئي. استدعاني ميندوك إلى مكتبه، المكتب ذي الهاتف الضفدعي الأخضر. حين دخلت، رأيت شخصاً يقف أمامي، رهيباً جداً، غريباً جداً، بحيث أنني، في اندفاعة استنارة هائلة، فهمت أنني لم أكن قد تركت حقاً مدينة الأشباح البتة، ذلك السجن المركزي لبومباي، أو بومباي المركزية التي غصت إلى أعماقها عند اعتقالي في «كوف باراد»، والتي خرجت منها، لسذاجتي، وأنا أعتقد أن لمباجان قد أنقذني بسيارة الأجرة الباركة، حاملاً إياي إلى حريتي.

إنه رجل، لكن بأطراف من معدن. الجانب اليساري من وجهه، لوح فولاذي كبير الحجم أرتج بشكل ما، فيما كانت إحدى يديه لامعة ملساء. لوح الصدر الحديدي ذاك الذي بزغ عليّ بالتدريج لم يكن جزءاً من جسده، بل هو تجميل مصطنع متحدٍ للصورة الهوائية التي اصطنعتها الوجنة واليد المعدنيتان. إنه زي دارج. «سلّم على سامي هزاري، المشهور لدينا برجل ـ الصفيح،» قال ميندوك من مقعده خلف طاولة المكتب. «إنه رئيس فريقك رقم 11، وقد آن الأوان لأن تخلع قبعة الطاهي وثوبك الأبيض وتخرج إلى الميدان».

* * *

سلسلة «المغربي في المنفى ـ لوحات «المغربي الأسود» المثيرة للجدل التي كانت وليدة سخرية عاطفية قامت أساساً على الألم. ثم وجهت لها فيما بعد الاتهامات، دون مبرر، بـ «السلبية»، «التشاؤمية» وحتى «العدمية» ـ تشكل العمل الأكثر أهمية في السنوات الأخيرة لأورورا الزغبي. إذ تخلت في هذه اللوحة ليس فقط عن التل ـ القصر وموضوعات الشاطئ البحري في لوحاتها الأولى، بل أيضاً عن فكرة الرسم «الخالص» ذاتها. فكل لوحة كانت تحوي تقريباً عناصر لصق، ومع الزمن، غدت هذه العناصر هي السمات الأشد هيمنة على السلسلة. إذ كان شخص المغربي الذي يجمع بين السارد/ والمسرود، ما يزال موجوداً كالعادة، لكنه راح وعلى نحو متزايد يتصف بالهامشية ويتوضع في بيئة من الأشياء المحطمة والمرمية التي كان الكثير منها «لُقى»، قطع صناديق، أو علب صفيح تم تثبيتها على سطح العمل ثم جرى الرسم فوقها. لكن، وعلى نحو غير عادي، أعادت أورورا تصور «السلطان أبي عبد الله،» وهو غائب عما أصبح معروفاً باللوحات «الانتقالية» لسلسلة «المغربي» الطويلة، في صورة مزدوجة بعنوان «موت شيمين»، وشخصيتها الرئيسية ـ جثة امرأة مربوطة إلى عصا مكنسة ـ محمولة عالياً

في اللوحة اليسرى من قبل حشد، قوي سعيد على شكل تمثال لغانيشا راكب ـ الجرذ، وهو يشق طريقه إلى الماء في يوم مهرجان غانيشا. في الثانية، وهي اللوحة اليمنى يبدو الحشد وقد تفرق، والتركيبة ذاتها معنية فقط بالخليج والماء، حيث تتمدد، بين حطام التماثيل الصغيرة والزجاجات الفارغة والصحف المنقوعة بالماء، امرأة ميتة، مربوطة إلى عصا المكنسة، زرقاء ومنتفخة، خالية من كل جمال وكرامة، مختزلة إلى حالة من الركام المهمل.

وحين ظهر المغربي، كان ظهوره في وسط خرافي إلى أبعد حد، نوع من الساحة المسكونة بعظام وخرق بشرية، استوحت إلهامها من بيوت الصفيح وساكني الأرصفة والأكوام المرقعة الهائلة من أكواخ بومباي وبيوت فقرائها. هنا، كل شيء كان بطريقة اللصق، الأكواخ المصنوعة من فتات المدينة غير المرغوب فيه، الحديد المطعّج الصدئ، قطع الكرتون، امتدادات كثيرة العقد من الخشب، أبواب سيارات مهشمة، مصد ريح لدراجة منسية، بيوت رديئة يتصاعد منها الدخان السام، حنفيات ماء بدأت شجارات قاتلة عليها بين نساء يقفن بالرتل (مثلاً هندوسيات مقابل يهود بني إسحاق)، ثم انتحارات بالكيروسين، حيث الإيجارات غير المدفوعة تجبى بعنف شديد من قبل عصابات البهايا والوثنيين، فيما حياة الناس، تحت الضغط الذي لا يشعر به إلا من هم في أسفل الكعكة، باتت على شكل مركب، مكون من رقع مختلفة مثل بيوتهم، بعضها رقع لصوصية، أخرى رقع عهر، رقع شحاذة أو في حالة الأفراد الأكثر احتراماً، نوع من الأحذية الملمعة. الحلل الورقية، الأقراط، السلال القصبية، القمصان المهلهلة، حليب جوز الهند وكعكات من صابون الكربوليك. لكن أورورا، التي لم يكتب عنها بما يكفي، اندفعت برؤيتها عدة مراحل أبعد. ففي لوحات كان الناس أنفسهم من الزبالة، ملصقات مما تلقيه المدينة كنفاية، وهم ذاهبون

لتنظيف أطرافهم: يكتشفون كومات كبيرة من أطراف أجسام مقطوعة، يتنافسون على ما هم بحاجة إليه وليس لديهم خيار، فكثير منهم يعودون بقدمين يساريتين أو يتخلون عن البحث عن إليات ويثبتون على زوج من الأثداء الممتلئة المبتورة. فيما المغربي قد دخل العالم غير المرئي، عالم الأشباح، عالم الناس الذين لم يوجدوا، وأورورا تتابعه في ذلك العالم مجبرة إياه على الظهور بقوة إرادتها الفنية.

ثم شخصية ـ المغربي، وقد صار وحيداً الآن، بلا أم، يغرق في حالة من الخلود، ليظهر وكأنه مخلوق من ظلال، ينحط إلى لوحات من الفسق والجريمة. في هذه اللوحات الأخيرة، يبدو وكأنه فقد دوره المجازي السابق، كموحّد للأضداد، كحامل معياري للتعددية، كما كف عن الوقوف كرمز ـ مهما يكن تقريباً ـ للأمة الجديدة، لكونه تحول بدلاً من ذلك، إلى شخص شبه رامز للفساد. لقد قررت أورورا على ما يظهر أن أفكار عدم النقاء، الامتزاج الثقافي والاختلاط، التي كانت في معظم حياتها الفنية الأشياء الأقرب لفكرة الخير، هي بالحقيقة قابلة للتشوه وتتضمن احتمال الظلمة مثل احتمال النور. هذا «المغربي الأسود» كان تصوراً جديداً لفكرة الزهرة ـ الهجين البودليرية التي لا يستبعد أن توحي بالشر، وبالضعف: إذ بات شخصاً مسكوناً بأشباح ماضيه التي تعذبه رغم أنه جبُن وطلب منها الذهاب، بعدئذ وببطء تحول هو نفسه إلى شبح، بات شبحاً يمشي ويغرق في المجرد، ثم تسلب منه معيناته وجواهره كآخر أثر من آثار مجده، كما يضطر لأن يصبح جندياً في جيش صغير من جيوش الحرب (هنا، أورورا ـ وعلى نحو مثير للاهتمام تماماً تبقى ولمرة واحدة لصيقة بالحقائق الثابتة تاريخياً عن السلطان أبي عبد الله)، يصغر إلى حد أن يصبح مرتزقاً، بينما كان ذات يوم ملكاً، وبسرعة يصير كينونة مركبة تثير الشفقة ولا اسم لها، شأنه شأن أولئك الذين كان يتحرك بينهم، نفايات تتكوم فوقه وتطمره.

الاستخدام المتكرر كان يعتمد على صيغة اللوحة المزدوجة، وفي اللوحات الثانية من هذه الأعمال، تعطينا أورورا تلك السلسلة الملكية شديدة العذاب غير المحروسة إلى حد مخيف من لوحات ـ ذاتية متأخرة، فيها شيء من غويا وشيء من رامبرانت أكثر بكثير من يأس جنسي وحشي، يوجد القليل من أمثاله في تاريخ الفن كله، فأورورا/ آيكسا تجلس وحيدة في هذه اللوحة بجانب تقويم جهنمي لانحطاط ابنها دون أن تريق دمعة واحدة. وجهها قاسٍ، بل حتى حجري لكن في عينيها، ثمة لمعة رعب ليس لها اسم ـ وكأنها تنظر إلى شيء صدمها من أعماق روحها، شيء يقف أمامها، حيث يمكن لكل من ينظر إلى اللوحات أن يقف بشكل طبيعي ـ كما لو أن العرق البشري ذاته كان يعرض وجهه الأشد سرية ورعباً، وبفعله ذلك، حجّرها، محيلاً لحمها العتيق إلى حجر. صور آيكسا هذه كانت تنذر بالشر وبالانحدار.

في لوحات آيكسا أيضاً، كان يتكرر الموضوعان التوءمان للثنائيات وللأشباح. فآيكسا الشبح تسكن المغربي المصنوع من النفايات، وخلف آيكسا/ أورورا أحياناً، تحوم صور شفافة باهتة لامرأة ورجل. وجهاهما خاويان تماماً. أتراها تلك المرأة هي أوما (شيمين)، أم هي أورورا ذاتها؟ وهل كنت أنا ـ أو بالأحرى المغربي ـ الذكر الشبح؟ وإن لم أكن أنا من هو إذن؟ في هذه اللوحات «الشبحية» أو «المزدوجة»، تظهر آيكسا/ أورورا ـ أم تراني أتوهم هذا؟ ـ وقد قُنصت، مثلما بدت أوما، عندما ذهبت لرؤيتها بعد خبر حادثة جيمي كاش. أنا لا أتصور ذلك، بل أعرف تلك النظرة. إذ تنظر كما لو أن وجهها قد تحول إلى قطع، فيما أناس يطاردونها.

* * *

وكما في اللوحات الأخرى، كانت تتابعني وكأنها ساحرة فوق جرذ، تراقبني من خلال كرتها البللورية وإلى جانبها سعدان مجنح ـ وكأنه حقيقي. أما أنا فأتحرك عبر تلك الأمكنة المعتمة، عبر القمر، خلف الشمس التي أبدعتها في عملها . أنا أسكن خيالاتها، فيما عين خيالها تراني بوضوح، أو تقريباً: لأن هناك أشياء لم يكن باستطاعتها أن تتخيلها، أشياء ليس باستطاعة عينها الثاقبة أن تراها.

ما فقدته من ذاتها إنما كان العجرفة التي كان يكشفها غضبها المحتقر، خوفها من المدينة غير المرئية، من «ملاباريتها» ذاتها. كم كانت أورورا الراديكالية، ملكة القوميين تكره ذلك! إذ كان يشار في سنواتها الأخيرة إلى أنها كانت **سيدة عظيمة** أخرى على التلة، ترشف الشاي وتنظر بنفور إلى الرجل المسكين عند بوابتها... لكن ما افتقدته فيّ كان يظهر في تلك الطبقة السريالية المؤلفة من رجل صفيح، فزاعة ناتئة الأسنان وضفدع جبان، كأصحاب (لأن ميندوك كان جباناً بالتأكيد ـ فهو لم يفعل شيئاً بمادته الخشنة)، كما وجدت للمرة الأولى في حياتي القصيرة ـ الطويلة، شعوراً بأنني عادي، بأنني **لاشيء خاص**، إحساس بكوني بين أرواح لطيفة، بين أناس مثلي، وتلك هي الصفة المحدِّدة للبيت.

كان ثمة شيء يعرفه رامان فيلدينغ، وكان ذلك المصدر السري لقوته: ليس هو بالمعيار الاجتماعي المدني الذي يحن إليه الرجال، بل هو الساخط، كبير الحجم، الخارج عن الحدود ـ الذي يمكن من أجله أن تطلق قوتنا الوحشية. إننا نتوسل الإذن صراحة لكي نصبح أنفسنا السرية.

وهكذا، يا أم: في تلك الصحبة المخيفة، والقيام بتلك الأعمال المخيفة، دون حاجة لخف سحري، وجدت طريقي إلى البيت.

* * *

إنني أقر بذلك: أنا الرجل الذي كان يوجه الضربات الكثيرة. لقد حملت العنف إلى عتبات أبواب كثيرة، مثلما يحمل ساعي البريد بريده. ولقد قمت بأعمال قذرة تماماً، كما كان يطلب مني ومتى كان يطلب مني ـ قمت بتلك الأعمال وسررت بفعلي ذلك. ألم أقل لكم يا ترى بأية صعوبة كنت قد تعلمت الضرب بيدي اليسرى، وكم كان غير طبيعي أن يحدث لي ذلك؟ حسن جداً: لكنني الآن أستطيع أن أكون يمناوياً أخيراً. في حياتي الجديدة وعملي الجديد كان باستطاعتي أن أبعد مطرقتي القوية من جيبي وأحررها كي أكتب قصة حياتي. لقد خدمتني هراوتي جيداً. إذ أصبحت خلال فترة وجيزة أحد المنفذين النخبة في «ما»، جنباً إلى جنب مع رجل الصفيح هزاري وشاغان الخمسة ـ بعضة (الذي لم يكن بالمفاجئ أنه كان شخصاً متعدد المواهب أيضاً ولم يكن باستطاعة المطبخ أن يحتويه). فريق هزاري الأحد عشر ـ الذي كان ثمانية من عناصره الآخرين سفاحين ومجرمين مثلنا نحن الثلاثة ـ ظل لعقد من الزمن فريق فرق «ما» الذي لا يتحداه أحد. إذ إضافة إلى العظمة الخالصة لقوتنا المحررة، كانت هناك مكافآت للإنجاز العالي ومتع رجالية رفاقية والكل من أجل واحد.

ترى هل باستطاعتكم أن تفهموا بأية متعة لففت نفسي في بساطة حياتي الجديدة؟ ولأنني فعلت ذلك، وجدت متعتي فيها. أخيراً قلت لنفسي: قليلاً من الاستقامة، فقد صرت أخيراً ما ولدت لكي تكونه. بأي قدر من الراحة، تخليت عن بحثي الدائم عن العادية التي لم أكن لأحصل عليها، وبأي فرحة كشفت عن طبيعتي العليا للعالم. ترى هل يمكنكم أن تتصوروا مقدار الغضب الذي كنت أختزنه في داخلي نتيجة الحدود والتعقيدات العاطفية لوجودي السابق ـ كم كان هناك من النفور من حالات الرفض من العالم، من قهقهات النساء المسموعة، من سخريات المعلمين، كم كان هناك من الغيظ الذي لا متنفس له من متطلبات حياتي

التي عشتها وكأنني لاجئ، منسحب بالضرورة، بلا أصدقاء، وأخيراً حياة تقتل فيها الأم؟ إنه عمر السخط ذاك الذي بدأ يتفجر من قبضتي. اللعنة! الهلاك! أوه، شيء أكيد أيها السيدات والسادة: أنني كنت أعرف كيف أعطي ومن أجل ماذا. كما كان لدي أيضاً فكرة جيدة عن لماذا. احتفظوا بعدم موافقتكم! ضعوها هناك حيث لا تشرق الشمس. اذهبوا واجلسوا في صالة سينما ولاحظوا أن الشخص الذي يحصل على أكبر قدر من التحيات والهتافات ليس هو الفتى العاشق أو البطل ـ بل هو الشخص ذو القبعة السوداء الذي يطعن بالسكين، يطلق النار، يرفس يلكم وبصورة عامة يشق طريقه عبر الفيلم! **أوه، يا صغيري**. العنف اليوم ساخن، وهو ما **يريده** الناس.

سنواتي الأولى قضيتها وأنا أفض إضرابات معامل النسيج الكبرى، مهمتي المحددة هي أن أشكل جزءاً من فريق هزاري غير الرسمي من المنتقمين المقنعين الطيارين. وبعد أن تحركت السلطات لفض المظاهرات بالعصي والغازات ـ ففي تلك السنين كان هناك اضرابات كثيرة في كل ناحية من المدينة، ينظمها د. داتا سمانت وحزبه السياسي «كمار أغادي» واتخاد عمال نسيج مهاراشترا «جيمي كمغار» ـ كان فريق «ما» الخاص بفض الاضرابات يختار ثم يلاحق فرداً أو مجموعة لا على التعيين من المتظاهرين ثم لا يتوقف حتى يحشرهم في زاوية ويضربهم ما يعتبر «علقة» حياتهم. لقد كنا نعطي فكرة عميقة جداً عن مسألة أقنعتنا، أخيراً رفضنا فكرة استخدام وجوه نجوم «بوليوود» في تلك الفترة لصالح لاعبين جوالين من تراث الناس الهندي الأكثر ارتباطاً بالتاريخ، والذين، كتقليد لهم، صرنا نلبس أقنعة تمثل رؤوس أسود ونمور ودببة. ولقد ثبت أنه قرار جيد إذ أتاح لنا إمكانية الدخول في وعي المضربين على أننا منتقمون أسطوريون. كان علينا فقط أن نظهر في المشهد لكي يطلق العمال العنان لأنفسهم فارين، صارخين، إلى الأزقة المعتمة حيث كنا

نلحق بهم، نبطحهم أرضاً لكي يواجهوا عواقب أعمالهم. وكنتيجة جانبية مهمة لهذا العمل توصلت لأن أعرف أقساماً جديدة كبيرة من المدينة: ففي الـ82 والـ83، لا بد أنني دخلت كل زقاق خلفي في «وورلي»، باريل، بهيواندي وأنا أطارد خَبَث عمال النقابات ونفايات الناشطين والزبد الجفاء من الشيوعيين، إنني أستخدم هذه المصطلحات ليس للازدراء فقط، بل إن كان ذلك ممكناً، بصورة تقنية، ذلك أن كل العمليات الصناعية ينتج عنها فضلات لا بد من طرحها بعيداً، رميها، تطهيرها بحيث يمكن أن تظهر المادة الممتازة، والمضربون كانوا نماذج عن فضلات كهذه. فكنا نبعدهم. وعند نهاية الإضراب يكون هناك ستون ألف وظيفة أقل في المعامل مما كان في بدايته، بذلك كان باستطاعة الصناعيين أن يحدّثوا أخيراً منشآتهم إذ كنا نكشط الوسخ ونترك القوة العاملة العصرية في الخلف. ذلك ما شرحه لي شخصياً ميندوك.

كنت ألطم، في حين كان الآخرون يفضلون الرفس. إذ كنت بيدي العارية أضرب ضحاياي بهراوتي ضرباً شديداً وعلى نحو متسارع ـ كما تضرب سجادة، بغلاً. ومثل الزمن، لم أكن أتكلم. فالضرب هو لغتي الخاصة الذي يجعل من السهل أن تفهم معناه. كنت أضرب الناس ليل نهار وأحياناً بسرعة أجعلهم يفقدون الوعي بضربة ـ مطرقة واحدة، وفي مناسبات أخرى بشكل متمهل أكثر أستخدم يدي اليمنى لضرب المناطق الأطرى وأضحك داخلياً من صراخهم. لقد كانت مسألة كبرياء أن يبقى تعبير المرء الخارجي، سلبياً، محايداً، خاوياً، فمن كنا نضربهم لم يكونوا ينظرون في عيوننا، وبعد أن ننهكهم يتوقف ضجيجهم لفترة من الزمن، إذ يبدو وكأنهم يتوصلون إلى السلام بفضل قبضاتنا، رفساتنا، هراواتنا، فيصبحون هم أيضاً سلبيين، خاوي ـ العيون.

يتغير الإنسان الذي يضرب ضرباً مبرحاً (كما حدس أوليفردايث الحالم قبل زمن طويل) لا محالة. علاقته بجسده، بعقله، بالعالم ما وراء

نفسه تتغير بطرق خفية وعلنية على حد سواء. إذ تطرد الثقة الأكيدة، الفكرة اللعينة عن الحرية إلى الأبد، شريطة أن يعرف الضارب دائماً شغله. وغالباً ما يتحول المضروب إلى حالة ابتعاد. فالضحية ـ وما أكثر ما رأيت هذا ـ تبعد نفسها عن الحادثة، باعثة بوعيها للعوم فوق في الجو، كما يبدو وكأنها تنظر إلى نفسها في الأسفل، إلى جسدها وهو يتشنج وربما يتهشم. بعد ذلك لن يعود المرء للدخول إلى نفسه تماماً أبداً، والدعوات للالتحاق بأي تجمع كبير ـ نقابة أو اتحاد أو ما شابه ـ سيصد باستمرار.

يؤثر الضرب في مناطق مختلفة من الجسم على نواح مختلفة من الروح. فإن تُضرَب فترة طويلة على أخمصي قدميك، مثلاً، يؤثر في الضحك، ومن يضرب هناك لن يضحك مرة ثانية أبداً. كما أن من يعتنقون قدرهم، من يقبلون سحقهم، يقبلونه كرجال ـ فقط أولئك الذين يرفعون أيديهم، معترفين بذنبهم ويقولون نحن مذنبون ـ يمكن أن يجدوا شيئاً من القيمة في التجربة، شيئاً إيجابياً. إذ باستطاعتهم أن يقولوا فقط: «على الأقل تعلمنا درساً».

أما بالنسبة للضارب: فإنه يتغير أيضاً: إذ أن ضرب رجل نوع من المجد، عمل تجلٍ يفتح لك بوابات غريبة في الكون. الزمان والمكان يبتعدان عن مراسيهما، فيما مفصلاتهما، شقوقهما تتسع، كما تكون هناك لمحات عن أشياء مدهشة. إذ كنت، أحياناً، أرى الماضي والمستقبل معاً. وكان من الصعب علي أن أتعلق بتلك الذكريات. ففي نهاية العمل كانت تبهت، لكنني أتذكر أن شيئاً ما حدث، أنه كان هناك رؤى، وذلك خبر يزيدك غنى.

في النهاية كنا نفض الإضراب. ولسوف أوافق أنني كنت أندهش للمدة الزمنية التي كان ذلك يستغرقها، نظراً لإخلاص العمال لذلك الخبَث والزبد والجفاء. لكن ـ كما قال لنا رامان فيلدينغ ـ إضراب المعمل هو الأرضية التي نثبت فيها وجود منظمتنا «ما»، إذ كان يشحذ

عزائمنا ويجعلنا على أهبة الاستعداد. في الانتخابات البلدية التالية، حصل حزب د. سمات على حفنة من المقاعد، فيما حصلت الـ «ما» على أكثر من سبعين مقعداً، وعربة العصابة بدأت تدرج على الطريق.

ترى هل أخبركم أننا ـ تلبية لدعوة المالك الاقطاعي المحلي ـ زرنا قرية قرب حدود غوجارات، حيث كان الفلفل الأحمر المقطوف حديثاً ينتصب حول البيوت وكأنه تلال من التوابل والألوان، وحيث أخضعنا تمرداً للنساء العاملات هناك؟ لكن لا، ربما لا أفعل، فمعدكم صعبة الإرضاء قد تنقلب عاليها سافلها بمادة حارة كهذه. هل سأتحدث عن حملتنا ضد أولئك المنبوذين عاثري الحظ الذين يمنع لمسهم أو ضد «الهاريجان» أو «الداليتز»، ادعهم كما تشاء، هم الذين لحماقتهم ظنوا أن باستطاعتهم أن يفروا من النظام الطبقي باعتناقهم الإسلام؟ هل أصف المراحل التي أعدناهم بها إلى مكانهم على اللوح الاجتماعي. أم تراني أتحدث عن الوقت الذي استدعي فيه فريق هزاري الأحد عشر لتنفيذ عادة «الساتي» القديمة، ثم أفصل لكم كيف أننا في إحدى القرى أقنعنا أرملة شابة في أن تعتلي كومة الحطب التي سيحرق عليها جثمان زوجها؟

لا، لا، لقد سمعتم ما فيه الكفاية. إذ بعد عمل ست سنوات جاد في الحقل الذي جنينا فيه غلالاً وافرة، أمسكت الـ «ما» بالسيطرة السياسية على المدينة، وأصبح ميندوك رئيس بلديتها، بل حتى في أقصى المناطق النائية، حيث أفكار كأفكار فيلدينغ لم تضرب جذورها من قبل، بدأ الناس يتحدثون عن مجيء مملكة الإله رام. ويقولون إن «مغول» البلاد يجب تعليمهم الدرس نفسه الذي تعلمه عمال المعامل بكثير من الألم. كما أن الأحداث على خشبة المسرح الأكبر لعبت دورها في اللعبة الدموية للعواقب التي كان تاريخنا قد أفسح لها في الطريق كي تجيء. أحد المعابد الذهبية كان يؤوي رجالاً مسلحين، هوجم وتم ذبح الرجال المسلحين، والنتيجة هي أن الرجال المسلحين قتلوا رئيسة الوزراء،

ثم هناك نتائج أخرى، غوغاء مسلحون وغير مسلحين، راحوا يطوفون في شوارع العاصمة ويقتلون الناس الأبرياء الذين لا شأن لهم البتة بأي من الرجال المسلحين سوى العمامة، وناس مثل فيلدينغ كانوا يتحدثون عن ترويض أقليات المدينة وأن يخضعوها مرة واحدة وإلى الأبد لحكم رام المحب ـ للقسوة، واكتسبوا زخماً معيناً، قوة إضافية ما.

... كما قيل لي إنه في يوم وفاة السيدة غاندي ـ السيدة غاندي نفسها التي كانت تنفر كثيراً من المجاملات وتردها بحماسة شديدة ـ انفجرت أمي أورورا الزغبي تبكي دموعاً مدرارة...

النصر هو النصر: ففي الانتخابات التي حملت فيلدينغ إلى السلطة، قامت المنظمات العمالية في المعامل بدعم مرشحي الـ«ما». إذ لا شيء هناك مثل أن تبين للناس من هو الرئيس...

وإن وجدت نفسي أحياناً أتقيأ لغير سبب ظاهر، إن تحولت أحلامي كلها إلى أحلام جهنمية، ماذا في ذلك؟ لقد بات لدي إحساس مستمر ومتنام بأن أحداً يلاحقني، أجل ربما بدافع الانتقام، بعدئذ نحيت تلك الأفكار جانباً، إذ كانت تمت لحياتي القديمة، لذلك الطرف المشوه لدي، ولم أكن أرغب بفعل شيء مع مخاوف كهذه، نقاط ضعف كهذه، حينذاك، بل كنت أستيقظ أتصبب عرقاً من الرعب الذي سببه لي الكابوس، أمسح جبيني وأعود إلى النوم.

إنها أوما التي كانت تلاحقني في أحلامي، أوما الميتة، وقد جعلها الموت مخيفة. أوما ذات الشعر ـ الوحشي، العينين البيضاوين، اللسان المتشعب كلسان الحية، أوما التي تحولت إلى شيطان انتقام، تلعب دور ديدمونة تجاهي أنا المغربي وأنا أهرب منها، كنت أركض إلى قلعة حصينة، أغلق أبوابها خلفي وألتفت ـ لأجد نفسي خارجها مرة ثانية، فيما هي تطوف في الجو، فوقي، خلفي، أوما بأنياب غولة حجمها كحجم أنياب فيل. مرة ثانية أجد أمامي القلعة، أبوابها مفتوحة على

مصاريعها، مقدمة لي الملجأ والملاذ، فأجري مرة ثانية، وأصفق الباب خلفي لأجد نفسي ما أزال في الهواء الطلق بغير دفاع وتحت رحمتها. «أنت تعلم كيف بنى المغاربة بيوتهم» كانت تهمس لي. «إنها عمران موزاييكي ذو دواخل وخوارج متداخلة ـ حدائق تشكل القصور أطراً لها وقصور تشكل الحدائق أطراً لها وهكذا دواليك. لكن أنت ـ أنا أحكم على خوارجك من الآن فصاعداً. بالنسبة إليك، ليس هناك من قصور آمنة بعد، وفي هذه الحدائق سأنتظرك. في هذه المناطق الخارجية سأصطادك». بعدئذ كانت تهبط علي فاتحة فمها المخيف.

إلى الجحيم بطفولة ـ تخاف ـ هكذا ـ من ـ الظلمة! أو هكذا، حين أستيقظ من تلك الأهوال، أوبخ نفسي. أنت رجل وينبغي أن تتصرف كرجل، أشق طريقي وأحمل ما ينتج عن ذلك من أعباء ـ وفي بعض الأحيان من تلك السنين، إن كنت أنا وأورورا الزغبي كان لدينا شعور بالملاحقة، فذلك لأنه ـ يا أشد التفسيرات إملالاً! ـ كان صحيحاً. إذ، كما كنت سأعلم بعد وفاة أمي، أن أبراهام الزغبي كان قد أرسل من يلاحقنا طوال سنوات. ذلك أنه كان رجلاً يحب أن تتوفر له المعلومات. ورغم أنني كنت على استعداد لأن أخبر أورورا جل ما كنت أعرفه عن نشاطاتي ـ وبذلك أصبح المصدر الذي تستقي منه رسوم «المنفى». وما تحتاجه من أجل الكرات البلورية ـ مع ذلك، لم يشعر بضرورة أن يذكر أنه دائماً يدقق بحركاتها وسكناتها. ففي شيخوختهما، كانا قد ابتعدا كثيراً واحدهما عن الآخر إلى درجة لا يستطيع سماعه معها، كما لم يكونا يتبادلان إلا القليل القليل من الكلام. على أية حال، كان دوم مينتو، الذي صار الآن في التسعين من العمر، لكنه مرة ثانية كان رئيس وكالة التحقيق الخاصة الأساسية في المدينة، قد أبقانا تحت المراقبة بناء على طلب أبراهام. لكن لا بد لمينتو من أن يأخذ المقعد الخلفي لفترة من الزمن، فالآنسة ناديا واديا تنتظر في الأجنحة.

أجل، كان ثمة نساء، لا أحاول أن أنكر. فتات مائدة فيلدينغ. فأنا أتذكر سميتا، شوبا، ريخا، ارفاشي، آنجو ومانجو من بين كثيرات أخريات. كذلك ثمة عدد مدهش من النساء غير الهندوسيات: دوليس المغبرة قليلاً، ماريات وغورندرات، ولا واحدة منهن كانت تظل طويلاً. أحياناً أيضاً وبناء على طلب الرئيس كنت «أتولى مهام»، أي يتم إرسالي كعنصر حزبي لأمتع سيدة ضجرة غنية في برجها، عارضاً مواهبي الشخصية مقابل هبات تقدم لصناديق الحزب. كما كنت أقبل دفعة مال حين تقدم لي. ولم يكن ذلك يشكل فرقاً بالنسبة إلي. بل كان فيلدينغ يهنئني على «إبداء القدرة الخالصة» لأعمال كهذه.

لكنني لم ألمس ناديا واديا قط. فناديا كانت مختلفة. إذ كانت ملكة جمال ـ ملكة جمال بومباي، ثم الهند، سنة 1987، وفيما بعد، في السنة نفسها، ملكة جمال العالم. في أكثر من مجلة، كانت المقارنات تعقد بين هذه الملكة الواصلة لتوها إلى عرش الجمال وهي في سن السابعة عشرة وبين المرحومة المأسوف عليها إينا الزغبي، أختي التي كان الكثيرون يزعمون أنها تشبهها كثيراً (وحين لمح أبراهام الزغبي إلى أن أوما سراسفاتي فيها شيء من أورورا في شبابها، تلك الفتاة ابنة الخامسة عشرة التي وقع في غرامها وقعة قاتلة، كان خبراً بالنسبة إلي). كان فيلدينغ يريد ناديا الطويلة التي تمشي مثل المحاربين ولها صوت كصوت هاتف متسخ، ناديا الجدية التي منحت نسبة من جائزتها المالية لمستشفيات الأطفال، والتي أرادت أن تكون طبيبة، عندما تتعب من جعل رجال الكوكب كلهم مرضى اشتهاء لها ـ كان يرغب بها أكثر من أي شيء على وجه الأرض. إذ كان لديها ما يفتقر إليه، وما كان يعرف أنه بحاجة إليه في بومباي حتى يكتمل متاعه. لقد كانت تتصف بالروعة، كما دعته بالعلجوم في وجهه وفي احتفال عام، هكذا كان لديها الجرأة ولم تكن بحاجة لترويض.

لقد أراد ميندوك أن يمتلك ناديا، أن يعلقها مثل وسام على ذراعه، لكن هزاري، ملازمه الأشد إخلاصاً - سامي المخيف، نصف الإنسان، نصف الصفيح، أخطأ خطأ شديداً ووقع في غرامها.

أما أنا، الذي صرت لا أبالي بحب النساء، فقد كنت أشعر بكل صدق، بعد وفاة أوما، بأن شيئاً ما انطفأ داخلي، صماماً ما انضرب، فيما كانت «مغادراتي» المهيبة الكثيرة لرب عملي وكذلك «المهمات» كافية لإرضائي، بسهولة - تأتي - بسهولة - تذهب، هكذا كانت الحال. هناك أيضاً كانت مسألة عمري. فعندما دخلت الثلاثين، كان جسمي يدخل الستين، وليست الستون بسن الشباب، على نحو خاص. كان العمر يتدفق على أطرافي المتفتتة ويمتلك المناطق السفلية من كياني. كما كانت صعوبات تنفسي قد ازدادت حينذاك إلى درجة اضطررت معها للتقاعد من أنشطة الأسافين - الطيارة. لا مطاردة بعد في أزقة الضواحي الفقيرة وعلى سلالم الأقبية المعتمة بالنسبة إلي. كذلك الليالي الشهوانية الطويلة لم تعد خياراً لي بعد. في تلك الأيام، صرت في أحسن الأحوال، جواداً عتيقاً محدد المسار بدقة. إذ عرض علي فيلدينغ، عن حب، عملاً في أمانة سره الشخصية التي كانت تتطلب أقل جهد رياضي من أتباعه... لكن سامي، وهو أعمر مني بعقد من السنين، لكن أصغر مني بعشرين سنة جسدياً، سامي، رجل - الصفيح كان ما يزال يحلم، لا مشاكل تنفس هناك، وفي حفلات الرياضة الأولمبية الليلية التي كان يقيمها ميندوك، كان هو أو شاغان الخمسة - بعضة هو الذي يفوز في مباريات قوة الرئتين المرتجلة (حبس النفس، نفخ شيء صغير في أنبوب نفخ معدني طويل، أو إطفاء شموع) كل مرة.

هزاري كان مهاراشترياً مسيحياً. وقد التحق بفريق فيلدينغ لأسباب إقليمية أكثر مما هي دينية. أوه، كلنا لدينا أسبابنا، الشخصية أو الإيديولوجية، فهناك دائماً أسباب. إذ يمكنك أن تحصل على أسباب من

أي بازار، من أي سوق لصوص، أسباب بالجملة، في كل دزينة عشرة أسباب رخيصة، رخيصة كأجوبة السياسيين، تأتي من طرف اللسان: **فعلت ذلك من أجل المال، البذلة الرسمية، من أجل الجماعة، العائلة، العرق، الأمة، الإله.** لكن ما هو الدافع حقاً ـ ما الذي يجعلنا نضرب، نرفس، نقتل، ما الذي يجعلنا نغزو أعداءنا ومخاوفنا ـ لا يوجد أي كلام كهذا يشترى من البازار. آلاتنا أقوى وتستخدم وقوداً أشد قتاماً. سامي هزاري، مثلاً، كانت تدفعه القنابل. فالمتفجرات التي طيّرت له يداً ونصف فك من قبل، كانت حبه الأول، والخطاب الذي كان يبحث عنه ـ دون أن ينجح حتى ذلك الحين ـ في إقناع فيلدينغ بالقيمة السياسية لحملة قصف بالقنابل على الطريقة الإيرلندية، تتم بكل العاطفة التي خطب بها سيرانودي بيرجراك حبيبته روكسانا. لكن إن كانت القنابل هي حب رجل ـ الصفيح الأول، فإن ناديا واديا كانت حبه الثاني.

لقد رتبت مؤسسة بومباي البلدية التابعة لفيلدينغ الأمور بحيث ترسل الفتاة ببعثة كبيرة إلى نهائيات ملكة الجمال في غرناطة، إسبانيا. وفي الحزب، كانت ناديا، البارسية الجميلة ذات الروح الحرة، تحتقر الخط الرجعي المتصلب الذي كان ميندوك يتخذه علناً أمام عدسات التلفاز (ياشري رامان، برأيي الشخصي، أنت لست علجوم ضفادع إلى حد كبير، وأنا لا أعتقد أنني إن قبلتك ستتحول إلى أمير)، كما كانت تصد بصوت عال دعواته التي يغمغمها بسماجة لأن يلتقيا لقاء خاصاً هو وهي). ـ ولكي يخفي هدفه ـ كان يحول مفاتنها عمداً إلى حارسه الشخصي، المعدني بالأحرى، (فيما كنت أنا الحارس الآخر، لكنه كان يوفرني). «قل لي» كانت تهمهم لسامي المشلول المتصبب عرقاً «هل تظن أنني سأفوز!».

لكن لم يكن باستطاعة سامي أن يتكلم. كان يغدو أخرس، فيما يصير صوته غرغرة بعيدة. بينما كانت ناديا تومئ برأسها بكل جد، كما لو أنها كانت مانحة الحكمة الحقيقية.

«حين دخلت مسابقة ملكة جمال بومباي» غمغمت فيما كان سامي يرتجف «قال لي صديقي يا ناديا واديا، انظري إلى تلك الفتيات الجميلات جداً جداً. لا أظن أنك يمكن أن تفوزي. لكن على أي حال وكما ترى، فزت». وكان سامي يترنح تحت وطأة ابتسامتها.

«بعدئذ، حين دخلت مسابقة ملكة الهند، قال لي صديقي، يا ناديا واديا، انظري إلى تلك الفتيات الجميلات جداً جداً، أنا لا أظن أن بإمكانك أن تفوزي، لكن مرة ثانية، وكما ترى، فزت!» وكان معظم من في تلك القاعة يتساءل عن جلالة هذا الصديق الذي لا يراه أحد، لنجد من غير المفاجئ أن أحداً لم يطلب منه مرافقة ناديا واديا إلى هذا الاستقبال. كذلك كان ميندوك يحاول أن يبدو غاية في الروعة بعد أن دعته مؤخراً بالعلجوم. وسامي ـ حسن، سامي كان يحاول فقط أن يتماسك فلا يسقط مغشياً عليه.

«لكن هاهي الآن مسابقة ملكة جمال العالم،» همهمت ناديا، «وأنا أنظر إلى المجلة ذات الصور الملونة لكل تلك الفتيات الجميلات جداً جداً وأقول لنفسي، ناديا واديا، لا أظن أنك يمكن أن تفوزي». ثم نظرت بتحنان إلى سامي، متوسلة طمأنة رجل ـ الصفيح لها، فيما كان فيلدينغ يقف عند مرفقها يائساً، وقد تجاهلته.

انفجر سامي بالحديث «لكن يا سيدتي لا تبالي» غمغم الرجل «فأنت ستقومين بجولة كاملة بالدرجة الأولى إلى أوروبا، ترين أشياء كثيرة عظيمة، تقابلين شخصيات كبيرة عالمية، لكنك ستثبتين نفسك بامتياز وتحملين علم وطننا بكل فخار، نعم! أنا متأكد ـ متأكد. لذلك، يا سيدتي، انسي هذا الفوز. من تراهم أولئك الحكام؟ بالنسبة لنا ـ نحن شعب الهند ـ أنت الفائزة مسبقاً ودائماً». وكان ذلك أبلغ مديح يجري على لسانه في حياته.

كما كانت هناك أغنية حول ناديا واديا بعد أن غزت العالم:

ناديا واديا، قد ذهبت بعيداً

كل الهند معجبة بك

كل العالم جعلته يدوخ

هزمت فتياته لأنك أنت الفتاة

سأشتري لك طوقاً جديداً من الجواهر

فدعيني أكن حارسك الشخصي

أحب ناديا واديا كل الحب

كل الحب، يا ناديا واديا، كل الحب

لم يستطع أحد أن يوقف تردادها وغناءها، وبالتأكيد ليس رجل ـ الصفيح. دعيني **أكن حارسك الشخصي**... لكأن ذلك البيت قد كتب عنه على شكل رسالة من الآلهة، نوعاً من تحديد المصير. كذلك سمعت نسخة بلا لحن عنها تتردد خلف أبواب مكتب ميندوك. أما ناديا واديا بعد انتصارها، فقد أصبحت رمزاً للأمة، مثل «السيدة الحرية» أو «الماريان»، أصبحت خزان فخارنا وإيماننا ـ بذاتنا. كان باستطاعتي أن أرى ذلك الفيلدينغ المتكلف الذي بدأت طموحاته تتجاوز حدود مدينة بومباي، وولاية مهاراشترا، يتخلى عن منصب رئيس البلدية لأحد أفراد حزبه السياسي ليبدأ الحلم باعتلاء خشبة المسرح الوطني، مفضلاً أن تكون ناديا واديا واقفة إلى جانبه. ناديا واديا... كان رامان فيلدينغ، ذلك الرجل المندفع بشكل فظيع، قد وضعها نصب عينيه هدفاً، يريد الوصول إليه.

مهرجـان غانبـاتي كـان علـى وشـك الحـدوث، وكانـت الـذكرى الأربعين للاستقلال فحاولت المؤسسة البلدية التي تتحكم بهـا منظمـة «ما» أن تجعل هذه المناسبة الاحتفال الأشـد تـأثيراً لغانيـشا شـاتورثي سجله التاريخ. إذ تم نقل عبّـاده وتماثيلـهم بالـشاحنات مـن المنـاطق النائية بالآلاف، وشعارات منظمة الـ «ما» على راياتها الزعفرانية تنتشر في أنحاء المدينة كلها. كما شـيد موقـف خـاص للشخـصيات المهمـة قرب «شوباتي» تماماً، وبجوار جسر المـشاة، ثم دعـا رامـان فيلـدينغ ملكة جمال العـالم الجديـدة كـضيفة شـرف، وانطلاقـاً مـن الاحتـرام الخاص ليوم المهرجان، وافقت ناديا. وهكذا، فـإن الجـزء الأول مـن حلمه الخيالي تحقق، إذ كان يقف إلى جانبـها، بينمـا كـان «بلطجيـة» الـ«ما» يمرون مع كوادرهم بالشاحنات، ملوحين بقبـضات مـشدودة، قاذفين ببتلات الزهـور الملونـة في الجـو، وكـان فيلـدنيغ يـرد بـذراع مرفوعة متصلبة وراحة مفتوحة، نسخة أخرى من التحية النازية، تـرى ذلك ناديا واديا فتشيح بوجههـا بعيـداً، لكـن فيلـدينغ كـان في حالـة شديدة من النشوة ذلك اليوم. مع ارتفاع جلبة «غانبـاتي» إلى درجـة لا تحتمل تقريباً، التفت إلي ـ إذ كنت أقف خلفه تماماً مع سامي، رجـل الصفيح لنحمي ظهره في ذلك الموقف الصغير المزدحم ـ ثم جأر بكل قوته «الآن آن الأوان لأن نواجه والـدك. الآن نحـن أقويـاء بمـا يكفـي لمواجهة الزغبي، سكار وأي شخص آخر. فمن يقف في وجهنا الآن يا ترى؟» ولشدة سـروره أمـسك بيـدناديـا واديـا المرتعبـة، تلـك اليـد الطويلة الناحلـة ثم قبّـل راحتـها. «انظـروا! أنـا أقبـل مومبـاي، أقبـل الهند،» صرخ بملء صوته «أنا أقبل العالم».

ولم يكن جواب ناديا مسموعاً فقد طمسه هتاف الجماهير.

* * *

تلك الليلة، سمعت في نشرة الأخبار أن أمي سقطت ميتة وهي ترقص رقصتها السنوية ضد الآلهة. فكان ذلك سبباً لزيادة الثقة لدى فيلدينغ، إذ جعلت وفاتها أبراهام أضعف، وميندوك أقوى. في تقارير التلفاز والإذاعة عنها، بدا أن باستطاعتي أن أكشف نغمة اعتذارية آسفة، كما لو أن المحررين، النعاة والنقاد كانوا واعين لمقدار الخطأ المحزن الذي ارتكبوه بحق تلك المرأة العظيمة المتكبرة ـ ومسؤوليتهم عن انسحابها الحزين في سنواتها الأخيرة. والحقيقة أن نجمها في الأيام والأشهر التي أعقبت موتها، سطع أكثر من ذي قبل. فقد اندفع الناس لإعادة تقييم عملها والثناء عليها بسرعة سيارة إسعاف، الأمر الذي جعلني أشعر بالغضب الشديد، فإن كانت تستحق ذلك الثناء كله، إذن كانت تستحقه من قبل، إذ لم أعرف امرأة أقوى منها، ولا واحدة ذات إحساس أوضح مما كانت وكان إحساسها، لكنها كانت قد جُرحت، وهذه الكلمات ـ التي ربما كانت قد شفتها لو أنها قيلت وهي ما تزال تسمع ـ إنما جاءت متأخرة. فأورورا داغاما الزغبي عاشت بين 1924 ـ 1987 ثم انغلقت الأرقام عليها كما ينغلق البحر.

كما أن الرسم الذي وجدوه على منصبها كان يدور حولي، ففي ذلك العمل الأخير «تنهيدة المغربي الأخيرة»، أعادت إلى المغربي إنسانيته. فتلك اللوحة لم تكن تهريجاً مجرداً، ولا لصق نفايات، بل لوحة لابنها الذي ضاع في منطقة انتقالية مثل خيال جوال: صورة لروح في الجحيم. وخلفه أمه التي لم تعد في لوح منفصل، بل اتحدت من جديد مع السلطان المعذب، لا تقرعه ـ ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً ـ بل تنظر، في عينيها الذعر ويدها ممدودة. ذلك أيضاً كان اعتذاراً جاء بعد فوات الأوان، عملاً من أعمال الغفران لم يعد باستطاعتي أن أنتفع به. لقد فقدتها، فيما زادت اللوحة فقط من ألم الفقدان.

يا أمي، يا أم!! الآن أعلم لماذا طردتني. يا أمي الميتة العظيمة، يا والدتي المغفلة، يا والدتي الحمقاء!

(17)

سيداً أعلى، ضالاً، عنيداً، فوق العالم يثرثـر في حديقتـه المعلقـة في السماء، ثرياً فوق ما يحلم به الأثرياء، كان أبراهام الزغبي في سن الرابعة والثمانين يمد يديه للخلود، بأصابع طويلة كالفجر. ورغم أنه كـان دائمـاً يخشى الموت المبكر، إلا أنه بـرهن عـن جـسم صـلب مقـاوم، وماتـت أورورا بدلاً منه. إذ كانت صحته تتحسن مع كبره في السن. كان مـا يـزال يعرج، كما كانت هناك صعوبات في التنفس، لكن قلبـه كـان أقـوى ممـا كان في أي وقت منذ لونافلا، بصره أكثر حدة وسمعه أفضل حـالاً. كـان يتذوق الطعام وكأنه يأكله للمرة الأولى، وفي صـفقات شـغله كـان قـادراً دائماً أن يشم رائحة الجرذ. ناحلاً، رشـيقاً عقليـاً، نـشيطاً جنـسياً، كـان أبراهام، يحتوي مسبقاً عناصر كل ما هو إلهي ـ إذ كان قـد ارتفـع عاليـاً، ومسبقاً، على القطيع وبالطبع على القانون أيضاً. ليـست شـيئاً بالنـسبة لـه تلك الأغلال الكلامية الملتوية، تلك العمليات المستحقة، تلك الحـدود الورقية. الآن، بعد سقوط أورورا، قرر أن يـرفض المـوت كليـاً، أحيانـاً يجلس متباعد الساقين على أعلى إبرة في وسادة إبـره اللامعـة العملاقـة، في طرف المدينة الجنوبي، وهو يتعجب من مـصيره، مفعمـاً بالمـشاعر، ناظراً إلى الأسفل إلى مياه الليل وهي تتلامع تحت ضوء القمـر، ثم يبـدو وكأنه يرى تحت قناعهـا ذاك، زوجتـه وهـي تـسقط مهـشمة بـين قواقـع السرطانات العنيدة، وسكاكين الأسمـاك اللامعـة، وقـد اجتمعـت كلـها تقطع إلى شرائح بحرها الفتاك. ليس بالنسبة إلي، اعتـرض أبراهـام، فقـد بدأت العيش للتو.

مرة بجانب الشاطئ الجنوبي، رأى نفسه جزءاً من الجمال، نـصفاً مـن حلقة سحرية تكملها تلك الفتاة اللامعة العنيدة. لقـد كـان يخـشى هزيمـة الحب على يد ما هو بشع في هذه الأرض، في البحر، وفي أنفسنا، منـذ كم كان ذلك! ابنتان وزوجـة اخـتطفهن المـوت، وابنـة ثالثـة ذهبـت إلى

يسوع وابن شاب ـ عجوز مضى إلى الجحيم. منذ كم كان هو جميلاً، منذ أن جعله الجمال يتآمر على الحب! منذ متى اكتسبت العهود غير المصدقة الشرعية من خلال قوة رغبتها، وكأنها فحم سحقته دهور طويلة لتحوله إلى جواهر ذات أسطح. لكنها أشاحت بوجهها عنه، هي حبيبته، لم تحافظ على ما يخصها من الصفقة، ففقد نفسه في ما يتعلق به، في كل ما كان دنيوياً، في كل ما كان من الأرض ومن طبيعة الأشياء، وجد الراحة تعويضاً عما كان قد فقده في ما يلمسه، عبر حبها، من أشياء متسامية، مكثفة، تحولية. الآن، وقد ذهبت، تاركة إياه، وفي قبضته العالم، كان يلتف بقوته وكأنها عباءة مذهبة. حروب تنشب، فيفوز بها، شواطئ جديدة تظهر فيسيطر عليها بالقوة. وما كان ليحاكي سقوطها.

جنازة مهيبة أقيمت لها. كان هو يقف إلى جانب نعشها المفتوح في الكاتدرائية ويدع أفكاره تسرح في خطط الكسب الجديدة. فمن أعمدة حياته الثلاثة، الإله، العائلة والمال، كان قد بقي لديه واحد فقط وهو بحاجة إلى اثنين على الأقل. ميني جاءت تودع أمها، لكنها بدت بشكل ما مسرورة جداً. الفرح الخاص بالموت، فكر أبراهام. إنهم يفكرون أنه باب حجرة الإله للمجد. لكنها حجرة خاوية، الأبدية هنا على الأرض والمال لا يشتريها. الخلود هو النسل، وأنا بحاجة لابني الطريد.

* * *

حين وجدت رسالة من أبراهام الزغبي محشورة بأناقة تحت وسادة سريري في بيت رامان فيلدينغ، فهمت للمرة الأولى كم كانت قوته قد اشتدت. «هل تعرف من هو أبوك في برجه العاجي هناك؟» كان ميندوك قد سألني، قبل أن ينطلق بخطاب مجنون حول الروابيص المعادين للهندوس وما شابه. الملاحظة تحت مخدتي جعلتني أتساءل أي شيء آخر يمكن أن يكون أو لا يكون صحيحاً. إذ هناك في محميات العالم السفلي كنت قد تبيّنت، من خلال هذا المثال العرضي لطول يد أبي، أن

أبراهام سيكون خصماً شديداً في حرب العوالم القادمة، السفلية مقابل العلوية، المجارير مقابل السماء: ذلك الصراع بين طبقات السلطة الذي كانت فيه ناديا واديا وبومباي بل حتى الهند كلها تجد نفسها واقعة في شراكه، مثل ذرة غبار بين طبقات من طلاء.

ميدان السباق، كانت الملاحظة تقول، مكتوبة بخط يده. المرج قبل السباق الثالث. أربعون يوماً كانت قد مرت منذ أن وضعت أمي في مثواها الأخير لترتاح فيه وأنا غائب، ومدافع تطلق لها التحية. أربعون يوماً والآن هذا التواصل الذي تم بصورة سحرية، هذا الغصن الذابل من الزيتون. طبعاً، لن أذهب، فكرت أولاً بكبرياء الجريح المتكهن. لكن تماماً كما كان التكهن، ودون إعلام ميندوك، ذهبت.

الأطفال في مهالاكسمي يلعبون ألعابهم المختلفة، مارقين من داخل وخارج أرجل الكبار المحتشدين. ذلك كيف يجب أن يكون واحدنا للآخر، فكرت، تقسمنا الأجيال. ترى هل تفهم حيوانات الغابة الطبيعة الحقيقية للأشجار التي تعيش بينها يومياً؟ في ظاهر الغابة، وسط تلك الجذوع القوية، نلتجئ ونلعب لكن إن كانت تلك الأشجار سليمة أم نخرة، تؤوي شياطين أم ملائكة لا يمكننا أن نعرف. كما لا نعرف سر الأسرار كلها: أننا ذات يوم سنصبح أشجاراً أيضاً مثلما هي اليوم. فيما الأشجار التي نأكل ثمارها ونقضم لحاءها تتذكر بكل حزن أنها كانت ذات مرة حيوانات، تتسلق كالسناجب وتتواثب كالغزلان، إلى أن جاء يوم توقفت فيه عن ذلك، امتدت أرجلها إلى الأسفل، إلى الأرض لتلتصق بها ثم تنتشر وتمتد ثم تنبت الأوراق والأغصان من رؤوسها فوق. إنها تتذكر ذلك كحقيقة، لكنها تعيش واقعها النباتي ذاك، كما ينبغي. إنها تتذكره على شكل حفيف أوراق. **أنا لا أعرف والدي**، فكرت وأنا في المرج قبل الشوط الثالث من السباق. **إننا غريبان، وهو لن يعرفني حين يراني، بل سيمر كالأعمى بجانبي.**

شيء ما ـ حزمة صغيرة ـ دفعت إلى يدي. ثم همس أحدهم بسرعة: «أنا بحاجة لجواب قبل أن نمضي قدماً». كان الرجل يلبس بذلة بيضاء وقبعة قش بيضاء، وقد اندفع داخل الغابة البشرية مبتعداً. فيما كان الأطفال يصرخون ويتعاركون عند قدمي. **ها أنا جئت هنا، جاهزاً أم غير جاهز.**

فتحت الحزمة التي في يدي فرأيت ذلك الشيء الذي كانت تعلقه أوما في حزامها، تلك السماعات التي كانت تزين ذات مرة **رأسها. دائماً تخرب لي أشرطتي. فألقيتها في حاوية زبالة.** كذبة أخرى، لعبة أخرى من لعبات الاستغماية. رأيتها تجري مبتعدة عني، تروغ بين نباتات الغابة البشرية وهي تصرخ صراخ أرنب يزعج الأعصاب، ترى ماذا وجدت حين وجدتها؟ وضعت السماعات في أذني، مطيلاً إياها إلى أن ناسبت أذني. ثم كان هناك زر **التشغيل** أنا لا أريد تشغيلها، فكرت، لا أحب هذه اللعبة.

مع ذلك كبست الزر فسمعت صوتي يقطر سماً ويملأ أذني. ترى هل تعرف أولئك الناس الذين يدعون أنهم أسروا من قبل غرباء وخضعوا لتجارب لا يمكن الكلام عنها وإلى حالات من التعذيب ـ حرمان من النوم، تشريح بدون مخدر، دغدغة مطولة للآباط، إدخال فلفل حار في المستقيم، عرض مفرط لأداءات مراثونية في أوبرا صينية؟

لا، لا بد أن أقول لكم إنني بعد أن أوقفت الاستماع إلى الشريط في مسجلة أوما، شعرت أنني وقعت في قبضة شيطان غير أرضي، تصورت مخلوقاً كالحرباء، عظاءة ذات دم بارد جاءت من مكان ما من الكون، لها شكل بشري، أنثى أو ذكر حسب المطلوب، بهدف سريع هو خلق أكبر قدر من المشاكل، لأن المشاكل طعامها وشرابها ـ رزها، عدسها، خبزها وماؤها. الاضطراب، التفريق، التعاسة، الكارثة، الحزن: كل ذلك على قائمة أطعمتها المفضلة، لقد دخلت فينا ـ هي (في هذه المناسبة) دخلت فينا ـ زارعة الاستياء، مثيرة الحروب، ناظرة فيّ أنا (المغفل، البليد ثلاث مرات) أرضاً خصبة لبزورها الوبائية. أما

السلام، السكينة، البهجة فهي صحارى بالنسبة لها ـ ذلك أنها إن لم تعط بذورها غلالاً تموت جوعاً. إذ أنها تتغذى على انقساماتنا، تصبح أقوى وأقوى بشجاراتنا.

حتى أورورا ـ أورورا التي رأت حقيقتها منذ البدء ـ خضعت في النهاية، فكان ذلك، ولا شك، مكسب فخار لأوما، هي المفترسة العظيمة التي كانت الأشد توقاً لأن تلتهم الفريسة الأكثر تهرباً منها. لم تكن تقول شيئاً لا يشمل أمي. ولمعرفتها ذلك، استخدمت كلماتي ـ بذاءاتي الغاضبة المخيفة المثارة ـ بالشهوة، بدلاً من كلماتها. أجل، كانت قد سجلت ذلك كله، وقد شططنا بعيداً، ترى بأي إغواء قادتني على ذلك الطريق، مستثيرة تلك العبارات القاتلة مني بجعلي أفكر أنها تماماً ما هي بحاجة لسماعه! أنا لا أجد عذراً لنفسي، الكلمات كلماتي، قلت لهم. ولو أنني كنت أقل حماقة، لقلت أقل من ذلك. لكن حبي لها ومعرفتي بمعارضة أمي لها، جعلاني أتكلم في البداية وأنا ساخط، لكن بعدئذ، بنوع من الإثبات لأولوية الحب الرومانسي على علاقة الابن ـ الأم، ولكوني أتحدر من بيت، استخدام البذاءات فيه نوع من البهارات والتوابل لأطباق طعامنا، لم أكن أنفر من استخدام كلمات مثل نكاح وفرج وقضيب... فتابعت بعد ذلك التلفظ بتلك الكلمات البذيئة لأنها، حبيبتي أثناء ممارستنا للحب، سألتني ـ ولكم كانت تسأل ـ أن أقول لها تلك الأشياء، فكم هي شريرة زائفة، كم هي زائفة شريرة ـ يا أشد الناس زيفاً ـ لكي تشفي جروح كبريائها وثقتها بنفسها. حبيبتك تسأل، في ذروة ممارسة الحب، موافقتك على حاجتها، هي تحتاجك، كما تقول، وتحتاجه أيضاً: فهل ترفض؟ حسن، إن كان الأمر هكذا، هكذا، أنا لا أعرف أسرارك، ولا أرغب في معرفة المزيد. لكن ربما لن ترفض. أجل، أنت تقول يا حبي. أنا أيضاً أحتاج. أحتاج.

لقد تكلمت وأنا أشارك بجريمة ممارسة الحب بل في أشد حالاتها خصوصية. الأمر الذي كان جزءاً من حيلة أوما، وسيلتها الضرورية لنهايتها.

خمساً وأربعين دقيقة مسجلة مضاجعتنا، مسلطة عليها الأضواء، كانت مدة ذلك الشريط المحزن الذي ركز خلال عمليات الدق والسحق على الفكرة المهيمنة المثيرة للاشمئزاز: **انكحيها، أجل، أريد ذلك، والله أريد ذلك. انكحي أمي، ساحقيها، انكحي الكلبة النكاحة**. وكل مقطع من تلك المقاطع البذيئة، يدق مسماراً في قلب أمي المحطم.

عندما كانت أورورا غارقة عميقاً في وحل الصدمة، وقد توفيت ميناه لتوها، استغلت تلك المخلوقة لحظتها، مخفية مهمة كراهيتها تحت رداء الحب. قدمت لوالدتي الشريط تلك الليلة، إذ ذهبت إلى هناك من أجل تلك المهمة وليس من أجل هدف آخر، فكان باستطاعتي أن أخمن مقدار ما أصابهما من ذعر وأذى، وما ترك من آثار على صورتي لديهما ـ إذ قضت أورورا ليلها كله على كرسي البيانو في صالونها البرتقالي ـ الذهبي، فيما قضاه أبراهام العجوز، وهو يعصر يديه يائساً متمسحاً بالجدار، يلمح، عبر ممر الباب الظليل، الخدم الخائفين، وهم يتساءلون ما الأمر.

في الصباح التالي، عندما غادرت سرير أوما، كانت هذه تعرف ولا بد ما كان ينتظرني في المنزل ـ الوجوه الرمادية المتجهمة في الحديقة، واليد المشيرة إلى البوابة: **اذهب، اخرج من هنا، ولا تعد أبداً أبداً**. ثم عندما رجعت، مرتبكاً متحيراً، إلى شقتها، كيف كانت ستتجاوز ذاتها! أية تمثيلية قدمتها ذلك اليوم ـ لكن الآن عرفت كل شيء. لا فائدة من أية شكوك بعد. أوما، يا خائنتي الحبيبة، قد كنت جاهزة لتلعبي اللعبة، إلى النهاية، أن تقتليني وتشهدي موتي، فيما تعصف الهلوسات برأسك. فيما بعد، ستعلنين، ولا شك، عن انتحاري المأساوي: «مجرد مشاجرة عائلية محزنة، رجل مسكين رقيق القلب، لم يستطع التحمل، وموت الأخت أيضاً». لكن المسخرة تدخلت. اندفاعة، اصطدام سريع لرأسين ثم،

مثل ممثلة بارعة ومقامرة كنت، تابعت دورك حتى النهاية، لكن أخذت «الجانب الخطأ من رهان الخمسين ـ خمسين. إذ حتى الشر المطلق له جانبه المؤثر. يا سيدتي أنا أرفع لك قبعتي، ثم تصبحين على خير».

تلك الصرخة الأرنبية مرة ثانية، إنها تعلق بالهواء ثم تضعف، تضعف. كما لو أن شراً قديماً غير قادر على تحمل نور الحقيقة، كان يتحلل في الغبار... لكن لا، لن أسمح لنفسي بخيالات كهذه. لقد كانت امرأة، ابنة امرأة. لينظر إليها على هذا النحو.... مجنونة أم شريرة؟ لم يعد لدي مشكلة في ما يتعلق بتلك المسألة. وكما رفضت كل النظريات الخارقة للطبيعة (غزاة غرباء، غيلان تصرخ بصوت أرانب) كذلك لن أسمح لها أن تكون مجنونة. لكن، عظاءات ـ المكان، مصاصو دماء غير الموتى، الأشخاص المجانين كلهم يعذرون من وجهة النظر الأخلاقية، وأوما تستحق المعذرة. كائن بشري **مجنون**. إنني أصر على **جنون** أوما.

هذا أيضاً ما كنا نتشابه فيه. فنحن أيضاً كنا نزرع الريح، لنحصد الأعاصير. إنهم بيننا ـ هم، ليسوا غرباء لكن مجانين ـ يعتاشون على التخريب، وبدون قدر معين من الإيذاء لا يمكن أن يهنأ لهم عيش، وأوماي واحدة من هؤلاء.

ست سنين، ست سنين من أورورا، اثنتا عشرة سنة من المغربي ضاعت. فقد كانت أمي في الثالثة والستين حين ماتت. وأنا نفسي كنت أبدو وكأني في الستين. ربما كنا نبدو أخاً وأختاً، وربما صديقين. «أحتاج إلى جواب». قال والدي في ميدان السباق. أجل، يجب أن يحصل على جواب، وينبغي أن يكون الحقيقة الصريحة، كل شيء عن أورورا وأوما، عن أورورا وعني. عني وعن أوما سراسفاتي، ساحرتي، سأسجل كل شيء وأسلم نفسي إلى حكمه، مثلما يقول برينر، في الهيئة الفرعونية (أي يلبس تنورة قصيرة) كان مولعاً جداً بأن يقول في الوصايا العشر: «إذن، ليسجل ذلك، إذن ليسجل».

* * *

ثم كانت هناك ملاحظة ثانية، وضعتها تحت مخدتي يد غير مرئية. فيها تعليمات ومفتاح رئيسي يفتح مدخل خدمة ما، ليس عليه حراسة في مؤخرة برج كاشوند ليفر، كذلك الباب المؤدي إلى مصعد خاص يفضي بمباشرة إلى الشقة الإضافية في الطابق الحادي والثلاثين. المصالحة تمت والتفسير قُبل، ابن ينضم إلى حضن أبيه، عروة مقطوعة تصلّح من جديد.

«أوه. يا ولداً في سنك!»

«أوه يا أباً في سنك»

وكانت هناك ليلة صافية، حديقة عالية، وحديث لم يسبق أن جرى بيننا من قبل.

«يا بني، لا تخف شيئاً علي. أنا اعرف كل شيء من قبل. فأنا لي عينان تريان وأذنان تسمعان وأعرف كل ما تقوم به من أفعال حسنة وسيئة».

وقبل أن أتمكن من محاولة تقديم أي تبرير، ارتفعت يده، ابتسم وبدأ الهذر قائلاً: «أنا مسرور. فقد غادرتني صبياً وها أنت تعود لي رجلاً. الآن بإمكاننا أن نتكلم رجلاً لرجل. ذات مرة كنت تحب أمك أكثر، وأنا لا ألومك. أنا كنت كذلك أيضاً. لكن الآن جاء دور أبيك، أو بالأحرى، دورنا كلينا. الآن باستطاعتي أن أسأل هل ستضم قوتك إلى قوتي ونأمل بأن نتكلم بكل حرية عن أشياء خفية كثيرة. ففي عمري هذا هناك مسألة الثقة. هناك حاجة للتكلم من القلب، لأن أفتح ما لدي من أقفال، لأن أرفع الستار عن أسراري. أشياء كبيرة قادمة. ذلك الفيلدينغ، من هو يا ترى؟ بعوضة. في أفضل الحالات، «بلوتو» العالم السفلي، ونحن نعلم من غرفة الأطفال التي رسمها ميراندا من هو بلوتو. كلب غبي بطوق. أما الآن، ربما يمكن القول إنه ضفدع».

كان ثمة كلب، في زاوية خاصة من الردهة المحلقة عالياً، كلب محشو من نوع «بولدغ» على عجلات، فتساءلت «إذن احتفظت بجواهرلال القديم، كلب إيرس». «ذكرى من الأيام القديمة. أحياناً، في هذه الفسحة، في هذه الحديقة الصغيرة، آخذ جو ـ جو مشواراً».

الآن، حل الخطر.

إذ بعد أن اتفقت مع أبي أن أكون رجله، أن أعرف ما يعرف وأساعده في مشاريعه، وافقت أيضاً أن أبقى لوهلة من الزمن في خدمة فيلدينغ. وهكذا لكي أغدر بسيدي، من أجل أبي، عدت إلى منزل سيدي. ثم أخبرت ميندوك ـ لأنه لم يكن أحمق ـ بعض الحقيقة: «أمر جيد أن أنهي شجاراً عائلياً، لكن ذلك لا يؤثر بخياراتي». الأمر الذي كان فيلدينغ مستعداً له تجاهي، بسبب ست سنوات من الخدمة، فوافق، وتشكك بالأمر. إذ بدأ منذ ذلك الحين بمراقبتي، كما علمت. والخطأ الأول الذي كنت سأرتكبه سيكون نهايتي. إنني طرف في ساحة معركة، فكرت، وهي حرب لعينة. عندما سمع زملائي في الفريق ـ زملائي القدامى في المعركة، الخبر:

شاغان هز كتفيه، وكأنه يقول: «أنت لم تكن واحداً منا البتة، أيها الولد الثري، لا هندوسي ولا هاراتي. فقط طباخ من سلالة عالية ـ الطبقة وقبضة يد، لقد جئت هنا لتسر تلك المطرقة، منحرف! مجرد نفس أخرى تبحث عن شجار ـ فأنت لا تهتم بقضيتنا مقدار شعرة. والآن، هاهي طبقتك، ميراثك، جاء يرجعك. أنت لن تبقى هنا طويلاً. ولماذا عساك تبقى؟ لقد أصبحت أكبر سناً من أن تقاتل».

لكن سامي هزاري، رجل الصفيح بحلق بي كثيراً إلى حد أنني عرفت في الحال يد من كانت قد زلقت الأوراق تحت مخدتي. ومن تراه كان «زلمة» أبي. فسامي المسيحي، كان قد أغواه أبراهام اليهودي.

إذن حذار أيها المغربي، غمغمت لنفسي. الصراع يقترب، والمستقبل نفسه هو الجائزة. حذار. خشية أن تفقد رأسك التافه في تلك المعركة.

* * *

في وقت لاحق، وفي حديقته العالية فوق، قال لي أبراهام كم من المرات خلال تلك السنين الطويلة، كانت أورورا تحن لأن تبسط يد الغفران ـ تلغي أمرها بالنفي ذاك ـ وتشير لي بأن أعود إلى المنزل. لكن حينذاك كانت تتذكر صوتي، كلماتي المنطوقة التي لم تستطع أن تجعلها غير منطوقة، فيقسو من جديد قلب الأم فيها. حين سمعت هذا، بدأت السنوات الضائعة تفترسني، تشكل هاجساً بالنسبة إلي، ليل نهار. في نومي كنت أخترع آلاتٍ للزمن تسمح لي أن أرجع إلى ما قبل موتها، وكنت أثور غضباً حين أستيقظ، لأن الرحلة التي رجعت فيها إلى الوراء كانت مجرد حلم.

بعد بضعة أشهر من إحباطات كهذه، تذكرت صورة أمي في لوحة لفاسكو ميراندا، وأدركت أنني بهذه الطريقة البسيطة، على الأقل، قد أكون قادراً على استعادتها مرة ثانية: في الفن الطويل الأمد، إن لم يكن في الحياة القصيرة الآن. بالطبع، كانت أعمالها ملأى بالصور الذاتية، لكن لوحة ميراندا المفقودة التي رسم فوقها ثم بيعت، كانت بشكل ما تمثل أمي المفقودة، زوجة أبراهام المفقودة. لو نستطيع فقط أن نكتشفها من جديد! سيكون ذلك أشبه بأن تولد، وهي شابة، من جديد، سيكون ذلك انتصاراً على الموت. أخبرت والدي، وأنا مستثار، بذلك فعبس. «تلك اللوحة!» لكن اعتراضاته وهنت بمرور الزمن، صار باستطاعتي أن أرى رغبة تبزغ في وجهه. «لكنها دمِّرت منذ زمن طويل».

«لم تدمّر» صححت قوله، «رُسم فوقها. فالفنان **باعتباره أبا عبدالله عاثر الحظ (الزغبي) سلطان غرناطة الأخير، يُرى وهو يغادر** قصره، قصر الحمراء، بعنوان **تنهيدة المغربي الأخيرة**. تلك اللوحة، علبة ـ الشوكولاتة لفارس يبكي، التي قالت أمي إنها أسوأ من أي خربشة لرسام في بازار شعبي. استبعادها، ربما، ليس خسارة، بعدئذ يمكن أن نستعيدها».

«نستعيدها، تقول». وكان باستطاعتي القول إن فكرة التخريب المتعمد لعمل ميراندا، لاسيما العمل الذي كان فيه فاسكو قد اختلس حكاياتنا العائلية، إنما كان منشؤها أبراهام العجوز في ملجئه. «ذلك ممكن؟».

«لا بد أن يكون» قلت «فلا بد أن هناك خبراء. إن شئت أسأل عنهم».

«لكن اللوحة ملك بهابها» قال «فهل يبيعها ابن الزنى ذاك؟» «إن كان السعر مناسباً» أجبت، وللإمساك به جيداً، أضفت «لا يهم كم هو ابن زنى كبير، فهو ليس بكبرك».

فقوقأ أبراهام والتقط الهاتف. «الزغبي»، قال للخادم في الطرف الآخر، «السيد موجود؟» ثم بعد لحظة «هاهو ذا السيد. لماذا تغيب عن أصدقائك؟» ثم بعض العبارات ـ تقريباً بصوت النباح قيلت ـ من التفاوض التي كانت فيها الخشونة صادمة، وعلى النقيض من الكلمات التي استخدمها، ناعمة ملتفة من المداهنة والإذعان. بعدئذ توقف مفاجئ، كأن محرك السيارة تعطل بغتة، وحل على جبين أبراهام حيرة محل قبضة اليد، وهو يقول: «سرقت، خلال الأسابيع الأخيرة. سرقت من بيته الخاص».

* * *

ثم جاء خبر من إسبانيا أن الرسام المخضرم المولود في الهند (والغريب المزاج على نحو متزايد) ف. ميراندا، الذي يسكن حالياً في القرية الأندلسية بنينغيلي، آذى نفسه وهو يحاول القيام بعمل غريب هو رسم فيلة كاملة ـ النضج من الأسفل. إذ كانت الفيلة تستخدم في سيرك وقد تم استئجارها ليوم واحد لقاء مبلغ كبير جداً، بهدف أن تتسلق منحدراً اسمنتياً، بني خصيصاً لهذه الغاية من قبل السنيور ميراندا المشهور نفسه (لكن الشاذ مزاجياً)، حيث تقف على لوح من زجاج مقوى بشكل غير معقول، فيما كان على فاسكو العجوز أن يضع حامل

لوحاته تحته. وقد اجتمع الصحفيون ومندوبو التلفاز في بنينغيلي كي يسجلوا هذا العمل الغريب، لكن الفيلة إيزابيلا، رغم أنها معتادة على كل أعمال الحماقات في السيرك، إلا أنه كان لديها من دقة الحساسية ما جعلها ترفض التعاون في ما سماه بعض المعلقين المحليين «عملاً منحطاً» من أعمال «اختلاس النظر تحت البطن» الذي اعتبر أنه يشتمل على نوع من الخلاعة السافلة واللا أخلاق ذات الانغماس ـ الذاتي، وعدم الجدوى من أي شيء فيها. لقد خرج الفنان من مكانه وطرفا شاربيه منتصبان في حالة استعداد. كما كان يلبس، بذلك السخف الذي ربما كان متعمداً، ملابس لا انسجام فيها ولا تناسق ـ أو ببساطة غير مرتبة البتة ـ وهي عبارة عن بنطال تيرولي قصير وقميص مزخرف، فيما كان ساق كرفس يظهر من قبعته. لقد توقفت إيزابيلا في منتصف المنحدر، وفشلت جهود كل مرافقيها في زحزحتها قيد أنملة، فيما كان الرسام يصفق بيديه «فيلة، أطيعي!» وهو الأمر الذي تراجعت الفيلة عند سماعه باحتقار نازلة المنحدر لتدوس على قدم ميراندا اليسرى. وقد كان لدى المحليين الأشد محافظة بين الحشد الذي تجمع ليشهد الحدث، من سوء السلوك، ما جعلهم يصفقون لها.

بعد ذلك، صار لدى فاسكو عرج يضاهي عرج أبراهام، لكن في كل المجالات الأخرى كانت طرقهما مختلفة، أو هكذا بدت للغرباء بالتأكيد، فشل مغامرة الفيلة هذه لم يقلل البتة من الحماسة المجنونة لكبر سنه، وفي الحال، بفضل دفعة من دفعات فعل الخير الأساسية لمدارس البلدية، سمح له أن يقيم على شرف إيزابيلا نافورة ضخمة فظيعة، الماء فيها ينبثق من خرطوم فيلة تتوضع في وسط الساحة خارج ما دعاه فاسكو بـ «قصر الحمراء الصغير». كما سميت الساحة من جديد باسم «ساحة الفيلة» وهو ما أثار غضب السكان القدامى. إذ اجتمعوا في مشرب قريب، يدعى «لاكارمنسيتا» على اسم ابنة الدكتاتور السابق، ثم راح

أولئك السكان يتذكرون بنوع من الحنين للماضي والكثير من الغضب أن الساحة المخربة كانت حتى ذلك الحين تحمل اسم ساحة كارمن بولو، تيمناً باسم زوجة كوديلو المرحومة ذاتها ـ التي كانت مكرمة للساحة كما كانت الساحة مكرمة لها ـ فيما تلطخ الآن سمعتها بهذه الرابطة المشوهة للسمعة، أو هكذا قال أولئك المانحون الرافضون للتسمية بالإجماع. في الأيام القديمة، راح واحدهم يذكّر الآخر، كانت بنينغيلي القرية الأندلسية المفضلة لدى الجنرال، لكن الأيام القديمة تم مسحها من قبل هذا الحاضر القائم على العفو والديمقراطية، الذي يعتبر كل ما مضى وكأنه نفاية يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن. ثم إن نافورة ضخمة كنافورة الفيلة يقيمها غير إسباني، رجل هندي كان عليه في أية حالة أن يذهب ليفعل أذاه ذاك في البرتغال وليس اسبانيا، نظراً لأصله الغواني وعلاقة البرتغال بغوا ـ حسن!! ـ لقد سجلوا أنه غير محتمل البتة. لكن ما تراه يفعل المرء مع فنانين يجلبون العار لبينيغيلي ويلطخون اسمها بما يأتون به من نساء وأساليب آلهتهم الأجنبية الفاسقة ـ صحيح أن هذا الميراندا كان يدعي أنه كاثوليكي، لكن ألم يكن معروفاً أن الشرقيين كلهم وثنيون تحت جلودهم؟

لقد أنحى الحرس القديم باللوم على فاسكو ميراندا بسبب معظم التغيرات التي حدثت في بنينغيلي، وإن سألت يوماً هؤلاء المحليين أن يحددوا اللحظة التي بدأ بها خراب بلدتهم، فإنهم سيختارون ذلك اليوم الفظيع الذي صعدت فيه الفيلة المنحدر، لأن تلك القصة الغريبة غير المألوفة إنما واسعة الانتشار جلبت انتباه كل ركام العالم البشري لبنينغيلي، وخلال بضع سنوات، صارت تلك القرية الهادئة، التي كانت المنتجع الجنوبي المفضل لدى القائد المرحوم، مكان راحة لكل حثالة العالم من ناس عاديين ومنفيين وعابرين. أما رئيس الحرس المدني في البلدة، الرقيب سلفادور مدينه، وهو خصم عتيد للمقيمين الجدد فكان

يعطي رأيه لكل من يسأل ومن لا يسأل. «البحر الأبيض المتوسط، الشافي من كل الأمراض، يموت من الوسخ». كان يبدي رأيه، وعلاج البحر الآن، الأرض ـ أرض العلاجات الشافية ـ تهلك أيضاً.

لكن في محاولة منه لكسب رضى رئيس الحرس، أرسل فاسكو ميراندا إليه مرتين هدية عيد الميلاد، هبة مالية وكحولاً، غير أن «مدينه» لم يهدأ. إذ أعاد شخصياً المال والكحول إلى فاسكو ثم قال له في وجهه: «الرجال والنساء الذين يتركون مواطنهم الأصلية ليسوا بالبشر، بل هم إما شيء ينقصه الروح، أو لديهم شيء آخر زيادة عنا داخلهم ـ شيء من بزرة شيطانية». بعد تلك الإهانة، اعتزل فاسكو ميراندا خلف جدران عالية لبيت كالقلعة وعاش حياة الاعتكاف. ثم لم يره أحد بعد ذلك في شوارع بنينغيلي. أما الخدم الذين استخدمهم (وفي تلك الأيام كان الكثير من الشبان والشابات في جنوب اسبانيا ـ المبتلاة من قبل بمشاكل البطالة ـ ينحدرون من مناطق لامانشا واكسترامادورا التي لا عمل فيهما، وكلهم توق لأن يعملوا في المطاعم، الفنادق أو الخدمة المنزلية، لذلك كان خدم المنازل متوفرين تماماً في بنينغيلي مثلما هم متوفرون في بومباي) فقد كانوا يتكلمون عن أنماط مخيفة من تصرفاته التي كانت تتصف بفترات من السكينة والانسحاب التام تقطعها فترات أخرى من الخطب العصماء التي يلقيها حول مواضيع عويصة غير مفهومة وسلوك معقد غريب. كما كان هناك الكثير من أكواز الشراب الضخمة والهبوط إلى حالة شديدة من الاكتئاب، يهاجم خلالها بشكل جنوني سوء حظه الوحشي في الحياة، وبصورة خاصة حبه لامرأة تدعى أورورا الزغبي، وخوفه من «إبرة مفقودة»، يعتقد أنها تشق طريقها باتجاه قلبه. لكنه كان يدفع جيداً، وبكل دقة، لذلك بقي خدمه.

ربما لم تكن حياة فاسكو وأبراهام تختلف كثيراً في النهاية. فبعد موت أورورا صار كلاهما معتزلين، أبراهام في برجه العاجي وفاسكو في

قلعته، وكلاهما سعى لدفن ألمه لفقدانها تحت غطاء من نشاط جديد، مشاريع جديدة، بغض النظر عن مقدار إساءة فهمهما. كذلك كلاهما، كما سأعلم فيما بعد، كان يزعم أنه يرى شبحها.

* * *

«إنها تمشي في كل مكان هنا، وأنا أراها»، اعترف أبراهام في حديقته المعلقة مع كلبه المحشو، مدفوعاً ـ بالرؤية للمرة الأولى في حياته وبعد عمر من الشك المطلق بموضوعها، بأن يقبل بإمكانية الحياة بعد الموت، يتلفظ بها لسانه غير المتدين. «هي لا تنتظرني، بل تروغ مني بين الأشجار». فالأشباح مثل الأطفال تحب أن تلعب لعبة الاستغماية. «هي ليست مرتاحة. أنا أعلم أنها ليست مرتاحة. فماذا بوسعي أن أفعل من أجل سلامتها؟» بالنسبة إلي، كان أبراهام هو الذي يبدو مضطرباً، غير قادر على أن يتعود على فقدانها. «ربما إن وجدت أعمالها، وجدت راحتها،» قال مفترضاً، ثم تبع ذلك بحث الزغبي الشديد، تحت شعار كل أعمال أورورا يجب أن تجمع ـ مئات عديدة من اللوحات ـ ثم تمنح للأمة كهبة شريطة أن تبنى صالة لها في بومباي للاحتفاظ بها وعرضها بشكل مناسب. لكن إثر مجازر ميروت وأعمال الشغب بين الهندوس والإسلام في دلهي القديمة وأماكن أخرى، لم يعد للفن الأولوية لدى الحكومة، كما أن المجموعة ـ ما عدا بعض اللوحات الأساسية التي وضعت في المعرض في الصالة الوطنية في دلهي ـ اختفت. كذلك لم تكن السلطات المدنية في بومباي، لكونها تحت سيطرة ميندوك، مستعدة لرصد الأموال اللازمة التي لا توافق عليها مالية الحكومة المركزية. «إذن، اللعنة على كل السياسات» صرخ أبراهام «مساعدة ـ الذات هي السياسة الأفضل»، ووجد داعمين آخرين ينضمون إليه في المشروع، إذ كانت هناك أموال من مصرف الخزانة المتوسع بسرعة، ومن المضارب الكبير في البورصة ف. ف. ناندي، الذي كانت غزواته في أسواق النقد

العالمية بحجم غزوات جورج سوروس وتتطلب موقعاً خرافيّاً، والأكثر من ذلك أنها جاءت من مصادر من العالم الثالث. «التمساح يصبح بطل ما بعد المرحلة الاستعمارية بالنسبة لشبابنا». قال لي أبراهام! هـ..ي... ه.. ي!! يا لتقلبات القدر! الموقع الرئيسي وجد ـ أحد البيوت البارسية قديمة العهد والباقية على قيد الحياة فوق تل كومبالا (كم عمره؟ ـ قديم يا رجل.. من العهد القديم). فتم تعيين منظِّرة فنية شابة لامعة، من المعجبين بأعمال أورورا، زينات فاكيل، المؤلفة السابقة لدراسة مستفيضة للملابس المغولية، حمزة ناما، كمشرفة عامة. في الحال، عملت د. فاكيل على وضع قائمة شاملة بأسماء اللوحات، وبدأت العمل أيضاً لإنجاز تقييم نقدي مرافق، وهو ما منح السلسلة المغربية ـ بما في ذلك اللوحات الأخيرة التي لم يرها أحد من قبل ـ مكانها المركزي الصحيح في المجموعة، كما قامت بفعل الكثير لتثبيت مكانة أورورا في صفوف الخالدين. إرث الزغبي تم افتتاحه للعموم تماماً بعد ثلاث سنوات من وفاة أورورا المحزنة، تبع ذلك قدر ما من الجدل قصير العمر، الذي لا مناص منه، في ما يتعلق، مثلاً، باللوحات المغربية الأولى التي كان فيها، بالنسبة لبعض الأعين، نوع من سفاح القربى ـ تلك «الرسوم ـ السريعة» التي كانت قد رسمتها بشيء من الخفة قبل زمن طويل. لكن، عالياً في برج كاشوندليفري، كان شبحها ما يزال يمشي.

حينذاك بدأ أبراهام يعبر عن اقتناعه بأن موتها لم يكن محض صدفة، كان الجميع قد افترضوها. إذ قال، وهو يلمس عينه برفق، وبصوت راعش، أن من يهلكون نتيجة عمل شرير يتطلبون نوعاً من الاستقرار قبل أن يجدوا راحتهم. ثم بدا وكأنه يعلق أكثر وأكثر بأشراك الأسطورة، غير قادر، بالظاهر، على تقبل حقيقة موت أورورا. فهذا الانزلاق، في الظروف العادية فيما كان يدعوه دائماً بالطريقة السحرية، كان قد صدمني أشد صدمة، لكن أنا أيضاً كان يمسك بي هاجس بقبضة قوية. فأمي ماتت، مع ذلك، كنت

بحاجة لأن أرأب الصدع. وإن كانت قد ماتت دون تذكر، إذن لا يمكن أبداً أن يكون هناك مصالحة، بل فقط تلك الحاجة الناهشة المتطلبة، وذلك الجرح الذي لا يمكن أن يندمل. لذلك لم أعارض أبراهام، عندما تكلم عن الأشباح في حدائقه المعلقة. بل كنت آمل حتى ـ نعم! ـ أن أسمع خشخشة أساور رجلين، وحفيف ملابس خلف شجيرة. أو، وهو الأفضل بالطبع، عودة أزمنتي المفضلة، أيام الرسم المبعثرة، وفراشي الرسم تنبق من شعرها الفوضوي المرفوع كالكتلة عالياً.

بل حتى عندما أعلن أبراهام عن أنه طلب من دوم مينتو أن يعيد، بطلب خاص، فتح تحقيق حول سقوطها ـ مينتو من بين كل الناس، الأعمى، خالي الفم من الأسنان، الراكب كرسياً متحركاً، الأطرش، الذي كان ما يزال حياً رغم أن سنه كان يقارب القرن من الزمان، من خلال آلات الميز الغشائي، ونقل الدم الدوري وحبه الذي لا يشبع ولا يتناقص للبحث والاستقصاء الذي جعله في رأس شجرة مهنته تلك! ـ لم أبدِ أي اعتراض. دع الرجل يفعل ما يمكن أن يهدئ روحه المضطربة، فكرت. كذلك، ولا بد من قول هذا، لم يكن من السهل معارضة أبراهام الزغبي، ذلك الهيكل العظمي المتصلب. إذ بقدر ما كان يمنحني من الثقة، ويفتح لي دفاتر حساباته المصرفية، دفاتره السرية وقلبه أكثر، بقدر ما صرت أخشى منه أكثر.

«فيلدينغ، لا بد أنه هو،» صرخ بشكه في وجه مينتو في حديقته المعلقة. «**أما بالنسبة لمودي، فهو شخص لا يتصف بما يحتاجه ذلك العمل. ابحث عن فيلدينغ، المغربي هنا سيقدم أية مساعدة قد تحتاجها**».

وهكذا تفاقم خوفي، إن كان رامان فيلدينغ ـ مذنباً أم بريئاً ـ يشك لحظة واحدة بأنني أتجسس عليه، مع احتمال نظرتي إليه كمجرم في جريمة قتل مزعومة، إذن لن تجري الأمور على ما يرام بالنسبة لي. مع ذلك، لم أستطع أن أرفض طلب أبراهام، أبي الذي استعدته من جديد.

لكن بشيء من العصبية، حضرت نفسي أخيراً لطرح سؤال غير لطيف: «لماذا ميندوك؟ ـ ما هو دافعه، ما الباعث الذي لديه..؟».

«الصبي يريد أن يعلم لماذا أشك بابن الزنى الضفدعي ذاك». صاح أبراهام الزغبي بين قوقأتين مخيفتين، كما حطم فخذ مينتو العجوز وهو يلطمه أيضاً. «ربما يفكر أن أمه كانت قديسة، فقط أبوه السيئ الذي شرد من الحظيرة. لكنها جربت معظم الأشياء الموجودة في البناطيل، أليس كذلك؟ مدى اهتمام قصير. وجهنم لا تغضب مثل ضفدع يُحتقر».

رجلان مسنان يضحكان ضحكاً مزعجاً. اتهامات للأم بالخيانة وكذلك جريمة قتل، شبح يجوس في الليل، وأنا، لقد خرجت عن طوري. لكن لم يكن هناك مكان أفر إليه، ولا مكان لأختبئ فيه. كان هناك فقط ما كان علي أن أفعل.

«أيها الأب الكبير، لا تهتم» همس مينتو، مختلساً النظر عبر الزجاج الأزرق، كما كان يتكلم بنعومة مثلما كان أبراهام يتكلم بصوت جهير. «هذا الفيلدينغ، اعتبره ممسوكاً به، مسحوباً ومعلقاً».

* * *

يصنع الأطفال من آبائهم خرافات، يعيدون صنعهم طبقاً لحاجاتهم الطفولية وحقيقة الأب ثقل يمكن للقلة من الأطفال أن يحملوه.

إنها الحكمة التقليدية للمرحلة التي كانت فيها العصابات (الإسلامية بالتحديد) ـ تتحكم بالجريمة المنظمة في المدينة، ولكل منها رئيس حاكم أو أب، تضعفها الصعوبات التقليدية في تشكيل أي نوع من النقابة الدائمة أو الجبهة المتحدة.

تجربتي أنا مع منظمة الـ «ما»، العاملة في أفقر أحياء المدينة كي تكسب أصدقاء وتبني دعماً، كان يوحي بشيء مختلف. لقد بدأت أرى تلميحات وإشارات لشيء ما يقع في الظل، شيء مخيف لا أحد يستطيع الكلام عنه ـ طبقة مخيفة ما تحت ـ سطح ـ ما يبدو ـ أنه موجود. فقلت

لميندوك إن العصابات قد تحقق في النهاية نوعاً من الوحدة، وإنه قد يكون هناك نوع من أسلوب ـ المافيا الواحد في المكان، يشرف على اللعب كله في المدينة، لكنه ضحك مني احتقاراً. «حسبك ضرب الرؤوس، يا مطرقة. دع الأشياء الأعمق للعقول الأعمق. الوحدة تحتاج للنظام، ونحن نحتكر تلك البضاعة. أما أولئك الناكحون ـ أخواتهم فسيظلون يتشاجرون لأتفه الأمور إلى أن تسقط السماء على الأرض».

لكن الآن، سمعت بأذني دوم مينتو يسمي أبي بالأب الأكبر لهم كلهم، موغامبو! اللحظة التي سمعت فيها ذلك، علمت أنه صحيح. فأبراهام كان آمراً طبيعياً، مفاوضاً بالفطرة، صانع ـ صفقات لصانعي ـ الصفقاتِ، يقامر بأعلى الرهانات. بل كان يرغب، عندما كان شاباً، بأن يراهن بابنه الذي لم يولد بعد. أجل، القائد الأعلى موجود، والعصابات الإسلامية موحدة تحت قيادة يهودي من كوشين. الحقيقة استثنائية دائماً تقريباً، فلتة غير معقولة، ليست عادية البتة، وليست ما توحي به الحسابات البتة. في النهاية، يفقد الناس التحالفات التي يحتاجونها، إنهم يتبعون الرجال الذين يستطيعون قيادتهم في الاتجاهات التي يرغبون بها. وقد حدث لي أن فكرت أن هيمنة أبي على «سكار» وعصابته كانت مقراً أسود ساخراً من علمانية الهند ذات الجذور العميقة. الطبيعة ذاتها لهذا الحلف من الجماعات السكانية المتداخلة ذات المصالح ـ الذاتية المشؤومة جعلت نوعاً من الكذب رؤية ميندوك لحكم اللاهوتيين الذي يمكن فيه لطائفة الهندوس أن تحكم، في حين أن الطوائف الأخرى كلها تحني لها هاماتها المهزومة.

فاسكو قال ذلك منذ سنين: الفساد هو القوة الوحيدة التي نملكها والتي يمكنها أن تهزم التعصب. وما كان على شفتيه، ذاك الذي لا يتعدى هذر سكران، حوّله أبراهام الزغبي إلى واقع حي، إلى وحدة الكوخ والأبنية العالية، جيش المحتالين الذين لا يؤمنون بإله والذين يمكن أن يأخذوا أي شيء ثم يخفوه مما ترسله الجماعة المؤمنة ـ بالإله في طريقهم.

ربما.

لقد ارتكب رامان فيلدينغ من قبل خطأ قاتلاً ألا وهو إعطاء خصمه قيمة أقل مما يستحق. لكن أكان أبراهام الزغبي أكثر حكمة؟ الدلالات المبكرة لم تكن جيدة. «بعوضة» كان يسمي ميندوك. «كلب غبي ذو طوق».

وإذا كان الطرفان قد أعلنا الحرب، ألأن كلاً منهما كان يعتقد أن من السهل أن يهزم الخصم؟ وإذا كان كلا الطرفين على خطأ؟ ماذا إذن؟

هرمجدلون ... المعركة النهائية الحاسمة.

* * *

في مسألة مخدرات سوفتو للأطفال وتلك الفضيحة، كان أبراهام ـ كما ثبت خلال الجلسات القصيرة مع الابتسامة العريضة التي لا تعرف الخجل ـ قد تلقى تبرئة تامة من قبل سلطات التحقيق. «وثيقة نظيفة سليمة...» نعب كالبوم، «زوج من الأيدي، نظيف أيضاً. فالأعداء قد يحاولون جري إلى الأسفل، لكن عليهم أن يبذلوا جهداً أكبر بكثير». ولم يكن هناك سؤال حول محاولة شركة «تالك» لمسحوق الأطفال، استخدام صادراتها كغطاء كي ترسل إلى ما وراء البحار مساحيق بيضاء مربحة أكثر، وعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلها ضباط مكافحة المخدرات، كان من المستحيل إثبات أن أبراهام كان على معرفة بأية أنشطة غير قانونية. بعض الموظفين الصغار في الشركة ـ في أقسام التعليب والإرسال ـ كان قد ظهر، بالحقيقة، أنهم على سجل العاملين بتهريب المخدرات، لكن ما عدا ذلك، كانت التحقيقات كلها تصطدم ببساطة بالحائط. فأبراهام سخي في الاهتمام بعائلات من يذهبون إلى السجن ـ «ولماذا يا ترى تعاني عائلات ـ أطفال، آباؤهم ذوو أنشطة؟» كان يقول ـ وفي النهاية، أغلق ملف القضية دون ثبوت أية تهمة ضد

الشخصيات الكبيرة التي كان المقصود مسحها، على الأقل من قبل فيلدينغ ومؤسسته التي تتحكم بالمدينة، وبقيت المسألة مسألة إزعاج. كما أن سيد المخدرات المعروف باسم «سكار» بقي حراً طليقاً، إذ تقول الفرضية إنه لجأ إلى مكان في الخليج العربي، لكن كان لدى أبراهام الزغبي خبر مختلف بالنسبة إلي. «كم سنكون أغبياء إن لم يكن بمستطاعنا ترتيب مسائل الهجرة من دخول وخروج،» صاح وهو يحدثني. «طبعاً باستطاعة جماعتنا أن يخرجوا ويدخلوا متى شاؤوا وأينما شاؤوا. ثم إن ضباط مكافحة المخدرات بشر مثلنا أيضاً. برواتبهم الضئيلة، من الصعب عليهم تغطية نفقاتهم. فماذا أقول لك؟ من واجب من يملك الثروة أن يكون سخياً. ودورنا الضروري هو أن نفعل الخير . **النبل يتطلب ذلك**».

انتصار أبراهام الزغبي في قضية سوفتو للأطفال كانت ضربة لفيلدينغ، الذي كان يحثني باستمرار على أن أدفع أبي لتقديم معلومات تتعلق بالأنشطة ذات الصلة بالمخدرات. لكنني لم أكن بحاجة لأن أدفعه. فقد كان أبراهام مصمماً على أن يفتح قلبه لي ولقد قال لي بكل بساطة أن فوز السوفتو لم يكن بدون تكاليف على المدى ـ الطويل. مع إغلاق طريق مسحوق «التالك»، كانت هناك عملية أكثر خطورة ينبغي أن تتم بسرعة ما، وبين أسنان تفتيش الشرطة المكثف. «تكاليف الإقلاع كانت مضحكة،» أسر لي، «لكن ماذا تفعل؟ في الشغل، كلمة الرجل هي ميثاق، وقد كان هناك عقود يجب أن تنفذ». لقد كان «سكار» ورجاله يعملون طوال الوقت لتهيئة الطريق الجديد الذي كان ينتهي إلى المجاهل الغبراء لران كوتش (وذلك يتطلب رشوة ضباط الغوجارات والمهاراشترا أيضاً). ثم زوارق صغيرة يمكن أن تنقل «التالك» إلى سفن شحن تنتظر. غير أن الطريق الجديد كان أبطأ وأكثر خطورة. «فقط فجوة ـ توقف،» قال أبراهام، «لكن مع الوقت سنجد أصدقاء جدداً في محطة الشحن الجوي».

كنت أذهب إلى «عدنه» الزجاجية العالية في الليل فيحكي لي حكاياته الأفعوانية تلك التي كانت أشبه بقصص الجن بطريقة من الطرق: حكايات جن الوقت الحاضر، حكايات أمور غير عادية على الإطلاق تروى بطريقة عادية للغاية، نبرة مدير مناوب قديم. (إذن هذا كان ما يعنيه والدي البري بدفن نفسه في العمل كي يساعده على تحمل فقدانه. هذا ما فعله لكي يخفف من أمله!)... كذلك ظهرت بقوة عمليات تسليح، رغم أن الأنشطة العلنية لمؤسسته الكبيرة لم تكن تتضمن تجارة كهذه. فدار التسليح الشمالية الشهيرة كانت تفاوض لتزويد الهند بنطاق من المنتجات المصممة بكل براءة ونقاء، لكن الفتاكة بالطبع. المبالغ النقدية التي كانت تدور حولها تلك المفاوضات كبيرة جداً ذات معنى، وكما هي الحال بالنسبة لمبالغ كهذه من رأس المال، كانت كتل معينة من المال تفلت من الكمية الأساسية وتبدأ بالانحدار على سفح الجبل. ما كانت بحاجة إليه إنما هي وسيلة محنكة تسهل الطريق أمام تلك الكتل المتساقطة بطريقة مفيدة خصوصاً لأولئك الذين لهم علاقة بالمفاوضات. أما المشاركون في المفاوضات فكانوا ذوي نقاء شديد يمتلكون من الدقة ما جعل من المستحيل تماماً بالنسبة إليهم أن يستهينوا بهذا الركام من الربح، حتى في حساباتهم المصرفية. فلم تلحق بأسمائهم الرفيعة أية لطخة تلوث، ولا همسة تهمس! «هكذا!» قال أبراهام بهزة صغيرة من كتفه، «نحن نقوم بالعمل الوسخ، لكن الكثير من العائدات تنتهي إلى جيوبنا أيضاً».

لقد تبين أن «سيوديكورب» أبراهام ـ كما كانت معروفة حينذاك، عالمياً ـ هي لاعب أساسي في مصرف الخزانة الدولية، الذي صار في نهاية الثمانينات من القرن العشرين، مؤسسة تمويل دولية من العالم الثالث تنافس المصارف الغربية الكبرى، من حيث موجوداتها وعمليات التحويل لديها. ذلك أن العمليات المصرفية التي كانت في طور السبات تقريباً، والتي تولاها من الأخوين كاشوندليفري، أعاد تحريكها بشكل لامع، كما أن ارتباطاته مع

المصرف ومشاريعه جعلته أعجوبة المدينة. «فالأيام القديمة لتهيئة نظام مرور ـ الدولار من أجل الاقتصادات المحصورة ـ بالسلة ولت تماماً،» هتف والدي. «لا مزيد بعد من ذلك التعاون المصرفي الضعيف بين الجنوب والجنوب. هيا أيها الأولاد الكبار. هاتوا! دولار، مارك ألماني، فرنك فرنسي، ين ـ لتأت كلها. الآن، سنهزمهم في لعبتهم ذاتها» لكن رغم صراحته الشديدة معي، كان لا بد أن تمر سنون قبل أن يعترف أبراهام الزغبي بأن هناك تحت هذه الرؤية النقدية اللامعة تختفي طبقة أخرى من الأنشطة: العالم السري الذي لا مناص منه والذي كان موجوداً، تحت كل شيء عرفته يوماً بانتظار الكشف عنه ـ وإذا كانت حقيقة كينونتنا هي أن هناك الكثير من الحقائق الخفية خلف حُجُب «المايا» من عدم المعرفة والوهم، إذن، لماذا لا يكون هناك جنة وجحيم أيضاً؟ لماذا لا يكون هناك إله وشيطان وكل ذلك الشيء المبارك ـ الملعون؟ إن كان الكشف هكذا، لماذا الكشف؟ ـ رجاء. ليس هذا وقت مناقشة اللاهوت. الموضوع المطروح الآن هو الإرهاب والجهاز النووي السري.

بين أكبر زبائن مصرف الخزانة الدولي كان ثمة عدد من السادة والمنظمات التي أدرجت أسماؤها في قوائم المطلوبين الأشد خطراً من كل بلد في العالم الحر ـ لكن الذين هم أنفسهم بدوا، بشكل غامض، أحراراً يذهبون ويأتون، يحمّلون طائرات تجارية ويزورون مصارف فرعية ويتلقون علاجات طبية في بلدان يختارونها، دون أن يخشوا اعتقالاً أو إزعاجاً. حسابات الظل هذه كانت تحفظ في أضابير خاصة، تحميها سلسلة كاملة من كلمات السر، «قنابل» ناعمة الخردة وآليات دفاعية أخرى، لا يمكن الوصول إليها نظرياً، على الأقل من خلال الحاسوب الأساسي، غير أن هذه الاحتياطات لم تكن شيئاً، وهذا الزبون التافه كان يبدو إيجابياً كالملاك، حين يوضع بجانب الاحتياطات المتخذة لحمايته وحماية الشخصيات ذات العلاقة بمشروع مصرف الخزانة الأكبر: أي بالتحديد، التمويل والتصنيع السري لسلاح نووي على نطاق واسع

لبعض البلـدان النفطيـة الغنيـة، وحلفائهـا الإيـديولوجيين. ذراع أبراهـام صارت طويلة بالحقيقة. وإذا كانت هناك كمية من الأورانيوم المخصّب أو البلوتونيوم يجب امتلاكها، يكون لمصرف الخزانة إصبع في تلك الفطـيرة الساخنة، وإذا كان نظام التسليم طويل ـ المدى وصـل بـصدفة مـا وعلـى نحو غير متوقع إلى السوق في البلدان الهامشية للاتحاد الـسوفيتي المنـهار حديثاً، فإن أموال مصرف الخزانة تتحرك بشكل تسللي غير مرئي، تحـت السجاد، عبر الجدران، باتجاه كشك البائع. وهكذا أخيراً، كانـت مدينـة أبراهام غير المرئية، التي بناهـا أنـاس غـير مـرئيين ليقومـوا بأفعـال غـير مرئية، تقترب من اكتمالها، وكانت تصنع قنبلة غير مرئية.

في أيـار 1991، حـدث انفجـار ـ رآه ـ الكـل تمامـاً في «اميـل نـادو» فأضاف اسم السيد راجيف غاندي إلى قائمـة مـوتى عائلتـه الـذين ذهبـوا قتلاً، وأبراهام الزغبي ـ الذي كانت قراراته أحياناً غامـضة، غـير مفهومـة توحي بأنه يعتقد عملياً أنه صار موضع هزل ـ اختار ذلك اليـوم المخيـف لكي «يوجز» لي قصة وجود مشروع القنبلة الهدروجينية السري. في تلـك اللحظة، تغير شيء ما داخلي. ولقد كان تغيراً لا إراديـاً، لم يجـئ نتيجـة إرادة أو اختيار بل نتيجة عمل أعمق، لا واعٍ قامت به نفسي. كنت أستمع بكل حرص، فيما كان يتكلم في تفاصيل محددة (المشكلة الرئيـسية الـتي يواجهها المشروع، اليـوم، كمـا لاحـظ، هـي الحاجـة لحاسـوب فـائق السرعة قادر على الإشراف على برامج إطـلاق الأسـلحة المعقـدة، الـتي لا يمكن بدونها للقـذائف أن تـصيب أي شـيء يفتـرض أن تـصيبه، وفي العالم كله، يوجد أقل من دزينتين من حواسيب كهذه ذات «نظـام هـدف عائم» ومعدات وصول عالية تتيح لها إمكانية القيام بـستة وسـبعين مليـون حساب في الثانية. عـشرون مـن هـذه الحواسـيب موجـودة في الولايـات المتحدة. ذلك يعني أن واحداً من الثلاثة أو الأربعـة الباقيـة ـ مـن أجهـزة كهذه موجود في اليابان ـ وينبغي الحـصول عليـه إمـا عـن طريـق منظمـة

جبهية يصعب اختراقها، بحيث تخدع منظومات الأمن الراقية إلى حد كبير والتي تحيط بعملية بيع كهذه، أو يتم سرقته، ليصبح غير مرئي ثم يتم تهريبه إلى المستفيد ـ النهائي من خلال سلسلة معقدة على نحو غير معقول من مسؤولي الضرائب الفاسدين، والفواتير المزورة للتحميل والتفتيش الصوري). لكنني سمعت، وأنا أصغي له، صوتاً في داخلي يرفض رفضاً قاطعاً لا تفاوض فيه، مثلما رفضت الموت الذي كانت أوما سراسفاتي قد خططته لي، إذ اعتقدت في ذلك الوقت أنني اجتزت حدود ما هو مطلوب مني نتيجة الإخلاص العائلي. فهناك، وهو ما فاجأني، كان إخلاص آخر له الأولوية. ولقد فوجئت، إذ بعد كل ما نشأت عليه في إليفانتا، حيث كل الروابط الجماعية تم تفكيكها عمداً، وفي بلاد كل مواطن فيها له ولاء ثنائي غريزي لمكان بعينه ودين بعينه، كنت أنا قد صُنعت على شكل إنسان ـ لا مكان له ولا جماعة، وكنت فخوراً بذلك كما يمكنني القول. لذلك، وجدت نفسي، بنوع من الإحساس الحاد بما هو غير متوقع، أقف في وجه أبي الهائل القاتل.

لكنه كان يقول، «... وإذا تم اكتشافنا ونحن نهربه، فإن كل اتفاقيات المساعدة، امتيازات الأمة ـ المفضلة، والاتفاقات الاقتصادية بين حكومة وحكومة أخرى، ستلغى مباشرة».

أخذت نفساً ثم غصت «أظن أنه كان عليكم أن تعرفوا من كانت هذه القنبلة تهدف لأن تحول إلى نتف، غير السيد راجيف، وأين؟».

حجراً صار أبراهام، جليداً ولهباً كان، فهو الإله في فردوسه، وأنا إبداعه الأعظم، وضعت يدي على ورقة ـ تين العار المحرمة. «أنا رجل أعمال». قال أخيراً. «ما ينبغي أن أفعله أفعله». **فأنا ما أنا عليه.**

«ما يدهشني: قلت ليهوذا ـ الظل ذاك، كلي القوة المضاد ذاك، ذلك الثقب الأسود في السماء، لأبي «المعذرة، لكنني أكتشف أنني يهودي».

* * *

في ذلك الحين، لم أكن أعمل بعد لدى ميندوك، لذلك كان شاغان على حق، كما أفترض ـ فالدم في أوردتي أثبت أنه أكثف من الدم الذي كنا قد أرقناه معاً. ولم أكن أنا، بل فيلدينغ هو الذي اقترح، ليس بدون القليل من الرفعة، أننا وصلنا إلى مفترق طرق. ربما، كان يعلم أنني لست مستعداً لأن أتجسس على أبي لحسابه، وربما حدس بأن معلومات حول أنشطته قد تكون في حالة تسرب في الاتجاه المعاكس. كذلك لا بد من أن يضاف أن شهيتي للعمل المكتبي لم تكن كبيرة. إذ رغم تعودي في صباي على الأناقة، فإن دافعي إلى كل ما هو غير استثنائي كان يتناسب تماماً مع المهام الآلية المتواضعة التي كنت أكلف بها، وكانت «هويتي السرية» ـ أي ذاتي اللا أخلاقية الحقيقية، غير المروَّضة ـ قد تمردت أشد التمرد على ضجر الأيام المكتبية. إذ لم يكن هناك شيء يمكن فعله مع رجل خارق للطبيعة، عجوز، سوى الابتعاد عنه. «اذهب واسترح» قال لي فيلدينغ، واضعاً يده على رأسي. «لقد حصلت على ذلك». ولقد تساءلت إن كان أحد قد أخبره أنني قررت ألا أكون عرضة للقتل، أو العكس: أن سكين رجل الصفيح أو أسنان «الخمسة ـ بعضة» يمكن في المستقبل القريب أن تداعب بلعومي. وهكذا، قلت لهم وداعاً وغادرت. لا سفاحين قتلة في إثري. ليس حينذاك. لكن شعوري بأنني ملاحق كان مستمراً.

الحقيقة أن الخطط العامة لميندوك سنة 1991، كانت ذات شأن ببرامج عمل وطنية ـ دينية أكثر مما لها شأن بمنبر بومباي المحلي الأصلي، ـ من أجل المهراتا، الذي كان قد أوصله للسلطة، ففيلدينغ، أيضاً، كان له تحالفات مع الأحزاب الوطنية ذات العقل المشابه لعقله، المنظمات شبه العسكرية وما إلى ذلك من تنظيمات شمولية. في هذا الطور الجديد من نشاط الـ «ما» لم يكن لي مكان. أما زينات فاكيل في إرث الزغبي ـ حيث بدأت أقضي قدراً كبيراً من وقتي، أتجول في عوالم ـ أحلام أمي، متابعاً إعادة ـ حلم أمي بي عبر المغامرات التي كانت قد صممتها من أجلي ـ

زينات اليسارية الذكية التي لم أخبرها شيئاً عن علاقاتي بميندوك، فلم تكن تشعر إلا بالاحتقار لخطاب رام ـ راجيا. «أي هراء. أقسم على ذلك» كانت تعترض. «نقطة أولى: دين، فيه ألف إله وإله، فجأةٍ يقررون فيه أن شخصاً واحداً فقط هو المهم. ثم ماذا عن كلكوتا، مثلاً، حيث لا يعبدون رام؟ أغبياء جداً. نقطة ثانية: في الهندوسية كتب مقدسة كثيرة، لا كتاب واحد، لكن فجأة، يغدو الراماي، كل شيء. إذن، أين الجيتا؟ أين كل البورانيين؟ كيف يجرؤون أن يلتفوا على كل شيء بهذه الطريقة؟ نكتة لعينة. النقطة الثالثة: بالنسبة للهندوس، ليس هناك مطلب لأن تكون العبادة جماعية، لكن بدون ذلك، كيف لهذه الأنماط أن تجمع حشودها الحبيبة؟. ثم فجأة نسمع بهذه الدعوة لاجتماع جماهيري، ويتم الإعلان عنه بالطريقة الوحيدة التي تبين إخلاصاً حقيقياً من الطراز الأول. إله عسكري واحد، كتاب واحد، وحكم غوغاء: ذلك ما صنعوه بالثقافة الهندوسية، بجمالها ذي الرؤوس العديدة، وسلامها».

«زيني، أنت ماركسية». استنتجت، «هذا الحديث حول الإيمان الحقيقي حطمه الحظ من القدر القائم عملياً، الذي كان عادة الأغنية المعيارية للرجال. ترى أتظنين أن الهندوس، السيخ، المسلمين لم يقتلوا بعضهم بعضاً من قبل؟».

«ما بعد الماركسية،» صححت لي «ومهما تكن صحيحة أو غير صحيحة في مسألة الاشتراكية، فإن هذه الحركة شيء جديد حقاً».

وجد رامان فيلدينغ الكثير من الحلفاء غير المتوقعين. فإضافة إلى المتسمين بالعاطفة المفرطة، كان هناك أصحاب المجازات السريعة في تل ملابار الذين ينكّتون في حفلات عشائهم حول «تلقين الأقليات درساً» و«وضع الناس في أماكنها الصحيحة». لكن هؤلاء هم الناس الذين كانوا في النهاية، يطالبون بما يجب أن يصبح شيئاً مسلماً به في قضية واحدة هي منع الحمل. لقد تدبر أمره وكسب دعم المسلمين على الأقل، بل

المدهش أكثر، أنه كسب دعم راهبات ماريا غراشيا بلينا أيضاً. هندوس، مسلمون وكاثوليك، على حافة صراع مجتمعي عنيف، يتحدون مؤقتاً نتيجة كرههم المشترك لكل وسائل منع الحمل. أما أختي ميني ـ الأخت فلورياس ـ فلا حاجة للقول إنها كانت نشطة في المعركة.

منذ فشل الحملة الهادفة لإدخال وسائل منع الحمل بالقوة في منتصف السبعينات، كان موضوع تنظيم العائلة شائكاً في الهند. لكن، مؤخراً جرت مبادرة من أجل عائلات أصغر تحت شعار (نحن اثنان وطفلانا اثنان). فاستخدم فيلدينغ هذا الشعار كي يشن حملة خاصة به. إذ ذهب عمال «الما» إلى بيوت الفقراء وأكواخ الصفيح لكي يقولوا للهندوس إن المسلمين يرفضون التعاون مع السياسة الجديدة. «إن كنا نحن اثنين وطفلانا اثنين، فهم اثنان وأطفالهم اثنان وعشرون، إذن، قريباً سيفوقوننا عدداً ويرموننا في البحر». فكرة أن ثلاثة أرباع المليار من الهندوس يمكن أن يفوقهم عدداً أطفال مئة مليون مسلم إنما كان يضفي عليها الشرعية على نحو غريب خطاب الكثير من الأئمة والزعماء المسلمين الذين كانوا يبالغون عن عمد بعدد المسلمين الهنود، في محاولة منهم لزيادة أهميتهم وإحساس الجماعة بالثقة ـ بالنفس، هم الذين كانوا مولعين أيضاً بالإشارة إلى أن المسلمين كمقاتلين، أفضل بكثير من الهندوس. «ستة هندوس مقابل واحد منا» كانوا يصرخون في جموعهم المحتشدة. «حينذاك سنكون على سوية واحدة، على الأقل، حينذاك سيكون شيء من القتال قبل أن يلوذ الجبناء بالفرار». الآن، هذه اللعبة المتعلقة بالأعداد الخيالية اتخذت شكلاً جديداً.إذ بدأت الراهبات الكاثوليكيات يطفن، ذاهبات آتيات في أكواخ بومباي المركزية والأزقة الوسخة لبيوت صفيح دارافي، محتجات بشدة على ضبط النسل. ولا واحدة منهن عملت ساعات أطول، أو ناقشت بحماسة أكثر من اختنا فلورياس. لكن بعد حين، انسحبت من الخط الأمامي، لأن راهبة أخرى اختلست السمع لشرحها لساكنات الصفيح المذعورات بأن للإله طرقه الخاصة في ضبط أعداد

أناسه، وأن رؤاها تؤكد أنه في القريب العاجل سيموت الكثيرون منهن، على أية حال بسبب العنف والأوبئة القادمة. «وأنا نفسي سأُحمَل بعيداً إلى الجنة»، كانت تشرح بعذوبة، «أوه، كم أتطلع بشوق لذلك اليوم!».

* * *

في عيد رأس السنة لـ1992 صرت في سن الخامسة والثلاثين، أي السبعين، وهي علامة مشؤومة دائماً انقضاء مدة العمر التوراتية، خاصة في بلاد، متوسط العمر فيها أدنى بكثير مما يسمح به العهد القديم. أما بالنسبة للسنين فقد كانت ستة أشهر باستمرار تتلف سنة كاملة بالفعل، لحظة يكون لها حدة إضافية خاصة، ترى كم من السهل على العقل البشري أن «يضفي الصبغة العادية» على ما هو غير عادي، وبأية سرعة يصبح ما هو غير قابل للتفكير ليس قابلاً للتكفير به وحسب، بل شيء عادي أيضاً لا يستحق التفكير به ـ هكذا حالتي، ما إن تم تشخيصها على أنها «غير قابلة للشفاء»، «حتمية، لا مناص منها» وعبارات كثيرة من هذا النوع، حتى غدا الأمر أتفه حتى من أن أفكر به أنا نفسي. وهكذا، صار كابوس حياتي المقسومة نصفين، بكل بساطة، حقيقة، ولم يعد ثمة ما يقال عن حقيقة إلا أنها كذلك ـ إذ هل يمكن للمرء أن يجادل حول حقيقة، يا سيد؟ ـ لا، أبداً ـ هل يمكن للمرء أن يمطها، يقلصها، يدينها، يطلب منها المعذرة؟ لا، أم هل يمكن أن يكون من السخف بحيث يفعل ذلك ـ كيف إذن ينبغي أن نقارب كينونة متصلبة جداً، مطلقة جداً؟ ـ يا سيد ليس المهم أن تقاربها أو تدعها وشأنها، المهم أن تقبلها، وتسير في طريقك ـ لكن ترى ألا تتغير الحقائق أبداً؟ ألا تحل محل الحقائق القديمة حقائق جديدة، مثل مصابيح الكهرباء، مثل الأحذية، السفن وكل شيء مبارك آخر؟ ـ إذن، إن كان الأمر هكذا، سيتبين لنا هذا فقط ـ أنها لم تكن حقائق البتة لنبدأ بها، بل هي مواقف، توضعات صورية زائفة. فالحقيقة الحقيقة ليست شمعتك التي تحترق، وهي تسبح

في بركة من الشمع، ولا هي مصباحك الكهربائي، ذو الأسلاك الدقيقة للغاية التي تتوهج، والتي يكون عمرها قصيراً وعليك أن تستبدلها بعد ذلك، ولا هي مصنوعة من جلد حذائك الاعتيادي الذي ينبغي ألا يكون فيه أي ثقوب، بل هي تشع! تمشي! تقوم! ـ أجل ـ إلى الأبد وكل يوم.

بعد عيد ميلادي الخامس والثلاثين أو السبعين، صارت حقيقة حياتي الكبرى حقيقة يستحيل التخلص منها ببعض العلاجات المتعلقة بالقسمة والنصيب، الكارما أو القدر. فقد كنت أحملها عبر سلسلة من التوعكات والإدخال إلى المستشفيات التي لن أزعج القارئ نافد الصبر بالحديث عنها، ما عدا أنني سأقول إنها أثرت علي بحقيقة كنت قد أشحت نظري عنها منذ زمن طويل: **وهي أنني لن أعيش طويلاً**. تلك الحقيقة البسيطة كانت تعلق خلف أجفاني بأحرف من نار كلما مضيت لأنام، كما كانت الشيء الأول الذي أفكر به بعد أن أفيق. **إذن، ما تزال حياً اليوم، فهل ستكون كذلك غداً**؟ صحيح، يا صديقي القارئ نافد الصبر: رغم أنه غير جميل وغير بطولي أن أقول هذا، إلا أنني بدأت أعيش الخوف من الموت دقيقة بدقيقة. إنه وجع أسنان لا يهدئه زيت قرنفل ولا أية وصفة توصف.

إحدى نتائج مغامراتي في الطب هي أنها جعلتني غير قادر جسدياً على فعل ما كنت قد تخليت عن أملي بأن أفعل، ألا وهو أن أصبح أباً وأنا نفسي، وبذلك أخفف ـ إن لم أتخلص ـ من أعباء كوني ابناً. هذا الإخفاق الأخير أثار غضب أبراهام الزغبي الذي كان في تسعيناته وكان أفضل صحة من ذي قبل، إلى حد أنه كان عاجزاً عن إخفاء غضبه تحت ذلك المظهر الزائف من التعاطف أو الاهتمام. «الشيء الوحيد الذي كنت أريده منك» نطقها أخيراً وهو جالس على جانب سريري في مستشفى خليج كاندي، «لا تستطيع أن تعطيني إياه الآن». ولقد حلت درجة من البرودة في علاقتنا منذ أن رفضت التورط في العمليات الخفيفة لمصرف الخزانة، لاسيما تصنيع ما دعي بالقنبلة الإسلامية. «ستكون بحاجة إلى قلنسوة اليهودي

الآن» سخر مني أبي، «كذلك إلى تمائم وتعاويذ. دروس بالعبرية ورحلة بلا عودة إلى أورشليم؟ فقط. رجاء، دعني أعلم، فكثير من يهودنا في كوشين، بالمناسبة، يتذمرون من التمييز العنصري الذي يعاملون به هناك، في وطنك غالي الثمن قرب البحر». أما أبراهام، خائن العرق، الذي كان يكرر على نطاق هائل ومخيف الحديث عن إدارة ظهره لأمه ولطائفته، وخروجه من بلدة اليهود إلى حضن أورورا الكاثوليكية، أبراهام ثقب بومباي الأسود، فقد رأيته يلتف بالظلمة، نجماً منهاراً يمتص الظلمة حوله، فيما كانت كثافتها تزداد. لا ضوء كان يتسرب من أفق ـ حضوره، كما كان قد بدأ يخيفني منذ زمن، أما الآن فقد غرس في داخلي الرعب، وفي الوقت نفسه الشفقة التي يتعذر على كلماتي أن تصفها.

مرة ثانية أقول: لست بالملاك. لقد بقيت بعيداً عمداً عن أعمال مصرف الخزانة الدولي، لكن امبراطورية أبراهام كانت واسعة شاسعة، تسعة أعشارها مخفية تحت سطح الأشياء. كان لدي الكثير مما أفعله. وقد أصبحت ساكن الطبقات العليا من برج كاشند ليفري، حيث لم أحصل على القليل من الرضى من المباهج القرصانية، لكوني ابن أبي. لكن بعد انتكاساتي الطبية بات واضحاً أن أبراهام بدأ يبحث عن آخرين من أجل بعض الدعم. لاسيما، آدم براغانزا، الناضج قبل أوانه، الذي كان في سن الثامنة عشرة، له أذنان بحجم أطباق الأقمار الصناعية، والذي كان يرتفع في مراتب «سيوديكورب» بسرعة كبيرة إلى حد أنه كان ينبغي أن يموت من الانحناءات.

و«السيد آدم»، اكتشفت بالتدريج في سياق دردشاتي آخر الليل مع والدي ـ الذي ظل يستخدمني كنوع من الكاهن الذي يعترف أمامه بذنوب حياته الكثيرة ـ شاب ذو ماض متفاوت إلى حد مدهش. إذ يبدو أنه كان بالأصل الابن غير الشرعي لسفاح من بومباي وساحرة جوالة من شاديبور. تم تبنيه بشكل غير رسمي، ولبعض الوقت، من

قبل رجل من بومباي مات ـ بوصفه ـ مفقوداً. إذ اختفى منذ أربع عشرة سنة، بعد فترة وجيزة من معاملته الوحشية، كما زعم، من قبل مندوبي الحكومة خلال فترة الطوارئ 1977 ـ 1974، منذئذ نشأ الصبي وتربى في ناطحة سحاب زهرية في خليج كاندي لدى سيدتين مسيحيتين غوانيتين كبيرتين في السن كانتا قد أثرتا بسبب نجاح مخللاتهما المعروفة باسم مخللات برغانزا. ولقد أخذ اسمه من هاتين السيدتين المسنتين، ثم بعد أن رحلتا، تولى هو نفسه إدارة المعمل. بعد فترة وجيزة، حين كان ما يزال في السابعة عشرة، إنما أثبت مهارته في الإدارة وكأنه في الثلاثينات، جاء إلى «سيوديكورب» ساعياً لتوسيع رأسماله، آملاً أن يضع مخللات السيدتين العجوزين الأسطورية وسلطتهما المبّهرة في السوق العالمية تحت الاسم المشهور «مخللات براغ». وعلى العلبة المحدَّثة التي جاء بها إلى أبراهام، لكي يريها لجماعته، كان هناك شعار: **ثمة الكثير مما تتفاخر به.**

الأمر الذي كان، كما قيل ينطبق كثيراً على الولد العجيب نفسه. ففي طرفة عين، على ما يبدو، باع المعمل لأبراهام، الذي سرعان ما رأى احتمال الصادرات الضخمة من تلك المادة، خاصة إلى البلدان ذات السكان الهنود غير المقيمين. الآن، صار الشاب غنياً بشكل مستقل، لكن في سياق اجتماعه الأول مع السيد الزغبي العجوز نفسه، أثر كل التأثير بوالدي، بما لديه من معرفة سواء في نطاق شغله الأخير ونظريات الإدارة، أو في ميدان الاتصالات الجديدة وتقنيات الإعلام التي كانت قد بدأت لتوها بالظهور في القطاع الهندي، بحيث دعاه أبراهام في الحال لأن ينضم إلى عائلة «سيودي»، بمستوى نائب رئيس، مع مسؤولية خاصة عن الابتكارات التقنية والسلوك التعاوني. كما بدأ برج كاشوندليفري يعج بأفكار الفتى الجديدة التي تطورت، على ما يبدو، بناء على دراسته

لممارسات الأعمال التجارية في اليابان، سنغافورة وبلدان حوض «المحيط الهادئ»، «المركز العالمي للألفية الثالثة»، حسب تسميته. وسرعان ما صار شعاره «لكي نزيد إلى أقصى مدى استخدامنا للطاقة البشرية، فإن غرس شعور ـ النحن ـ فينا هو المفتاح»، هذا الشعار صار أسطورياً كما كانوا يرددونه بشكل نموذجي. لذلك كان المدراء التنفيذيون «يشجِّعون، أي يُعطون تعليمات بأن يقضوا عشرين دقيقة في الأسبوع على الأقل، على شكل جماعات صغيرة تتألف واحدتها من عشرة أو اثني عشر، تحتضن واحدتها الأخرى. المزيد من التشجيع قدِّم لفكرة أن كل مستخدم يجب أن يقدم «تقييمات» شهرية لنقاط ضعف زملائه ونقاط قوتهم ـ بالتالي تحول المبنى إلى برج انسلالات مرائية. «سنكون مؤسسة استماع» أعلمنا آدم جميعاً، «ما تقولونه نأخذه بكل عناية بعين الاعتبار». أوه، يا لتلك الآذان التي كانت تستمتع وتستمع. أي سم، أي قذارة كانت ستسقط في أعماقها الواسعة. «المنظمات الكبرى كلها خليط غير متجانس من صانعي ـ المشاكل، مطلقي النار ـ على المشاكل والناس السليمين». قال أحد شعارات آدم «ما تتوقعه إدارتنا هو أن يتطوَّر صانعو ـ المشاكل، بمساعدتكم». ولقد أحب أبراهام هذه المادة. «عصر حديث» قال لي، «إذن لغة حديثة، أنا أحب ذلك تماماً، هذا الولد ذو أذن طازجة ووقفة رجل ـ صلب. إنه يصنع القفزة المشتركة».

أما وقفاتي أنا، الرجل ـ الصلب، فقد كانت من نوع مختلف. ربما، بنظر أبراهام، نوع فات أوانه ـ على أية حال كان كل شيء قد انتهى بالنسبة إلي. ولم يكن هو الوقت المناسب كي أتحول إلى آدم براغانزا الشاب، فظللت صامتاً وابتسمت. ثمة آدم جديد في عدن، فقد دعا والدي الشاب إلى ردهة في أعلى السطح وخلال أشهر ـ أسابيع، أيام ـ كانت مؤسسة «سيوديكورب» تتحول إلى مؤسسة حواسيب، أي لم يعد

هناك أسلاك، بل بصريات ـ ليفية، أطباق، توابع، اتصالات من بعيد من كل نوع، وخمّن من كان يدير العرض الجديد؟ «نحن سنضع **بصمة قدمنا على العالم**»، قال أبراهام مشع الوجه، فخوراً بمعرفة مضمون الكلمة الجديدة. «أي قرويين هم أولئك المحليون الذين يتكلمون عن حكم رام!! لا، ليس الحكم لرام راجيا بل لوسائل الاتصال الحديثة ـ إنها ورقتنا الرابحة في اللعبة».

للتو أدركت ما في كلام أبي من شعارات الفتى الشاب، أبراهام كان على صواب، فقد وصل المستقبل. كان ثمة جيل ينتظر كي يرث الأرض، غير مبالٍ بشيء من اهتمامات الناس القدماء. «إنه مكرس لمتابعة الجديد، للكلام عن حديث المستقبل الخالي من العاطفة، المزدوج والغريب ـ تغير كامل بعيد عن هتافاتنا الميلودرامية، ولا عجب أن أبراهام المستنزف اتجه باتجاه آدم. إنه ميلاد عصر جديد في الهند، حين كان المال، وكذلك الدين، يحطمان كل الأغلال التي تكبل رغباته، إنه زمن الحياة الشهية الجائعة لكل ذي طمع وليس زمن الحياة الخاوية الضائعة».

بدأت أشعر وكأنني رقم متأخر، ولد على عجل، ولد خطأ، مدمّراً ثم نما وكبر بسرعة كبيرة ليتحول إلى وحش في الطريق. حينذاك، التفت باتجاه الماضي، باتجاه فقدان الحب. ذلك أنني حين كنت أنظر إلى الأمام، كنت أرى الموت ينتظرني هناك، الموت الذي ظل أبراهام يخدعه دون جهد، ربما لكي يأخذ الابن بدلاً من الأب الخالد.

«لا تظهر بائساً لعيناً هكذا»، قال أبراهام الزغبي. «ما تحتاجه هو زوجة، امرأة جيدة تمسح الهم عن جبينك. إذن الآن، الآنسة ناديا واديا، فما رأيك؟!».

* * *

ناديا واديا!

خلال سنة ولايتها كملكة جمال العالم، كان رامان فيلدينغ يتابعها. وكان يخطب ودها بإرسال الأزهار لها، الهواتف التي بلا أسلاك، عدسات التصوير التلفازي، وأفران «الميكروويف». لكنها كانت تردها. كما كان يدعوها لكل حفل استقبال، لكن بعدما فعله في عيد غانباتي، كانت باستمرار ترفض دعواته. رغبة فيلدينغ بناديا واديا كانت قد تسربت إلى الأمة من خلال كاتب زاوية في صحيفة «الظهيرة»، وهو حفيد كاتب أسبق كتب عن «إشعاعات غاما» في جريدة «تأريخ بومباي»، وبفعله ذلك، وضع نهاية للحياة اللامعة التي كان يعيشها جدي الأكبر فرانسيسكو داغاما. بعد ذلك صار رفض ناديا واديا لأن يمتلكها ميندوك، لدى نوع معين من سكان بومباي، رمزاً لمقاومة أكبر ـ صار بطولياً وله طابع سياسي. فقد ظهرت رسوم كاريكاتورية، في تلك المدينة التي كان فيلدينغ يزعم أنها «تسير وكأنها سيارته الخاصة»، تصف تمنع ناديا واديا بأنه رهان على وجود بومباي الأخرى الأكثر حرية. إذ كانت تجري مقابلات وتتعهد. «**لن أقبله حتى لو كان الضفدع الأخير في البلدة... بطة،» هذا ما يدل عليه اسمه «ميندوك»، وكانت** ناديا تأخذ دروساً في الملاكمة... كما كانت اللعبة مستمرة.

أمران حدثا.

الأول: أن فيلدينغ، وقد نفد صبره، فكر بوضع من يخيف ملكة الجمال العنيدة، لكن، للمرة الأولى في قيادته الطويلة التي لا شك فيها للـ«ما» واجه ثورة يقودها سامي هزاري ويدعمها بالإجماع كل «قباطنة فرق» «العمليات الخاصة» في المنظمة. إذ قام رجل الصفيح، على رأس جماعة، بزيارة فيلدينغ في مكتبه ذي الهاتف ـ الضفدعي. «لا للعب الكركيت يا سيدي»، كان نقدهم الشديد. فانحنى ميندوك أمامهم، لكنه بعد ذلك راح يراقب سامي بالنظرة نفسها التي رأيتها في عينيه، عندما

أخبرته بمصالحتنا العائلية. وهو محق في أن يفعل ذلك، لأن سامي كان قد تغير. ثم خلال فترة ليست بالطويلة، تم إبعاده من محراب دعم ـ اللعب الذي كان فيه طوال حياته، لتجبره الأحداث والعذابات، التي كان يشعر بها في قلبه، لأن يقوم، في الدراما الكبرى، التي كانت في ذلك الحين قيد التمثيل، بدور رئيسي لا ينسى.

الثاني: لم تعد ناديا واديا ملكة جمال العالم الحاكمة، فقد صار هناك ملكة هند جديدة، وملكة بومباي جديدة. صارت ناديا واديا قصة قديمة، أغنيتها لم تعد تغنى في المذياع أو التلفاز الهندي: فالتلفاز يتجاهل الملكة التي تسقط. كذلك لم تلتحق ناديا واديا بأية كلية طبية، وصديقها الذي غالباً ما كانت تتحدث عنه اختفى في زرقة السماء، أما احتراف التمثيل فكان ما يزال جنينياً. بينما النقود تذهب بسرعة في بومباي. ناديا واديا، وهي في الثامنة عشرة، صارت ماضياً، مفلسة، بلا موجه، تسير على غير هدى. عند هذه النقطة قام أبراهام الزغبي بحركته، عارضاً عليها وعلى أمها الأرملة، شقة فاخرة في الطرف الجنوبي من طريق كولابا، إضافة إلى راتب سخي تقبضه كل شهر. لم تكن ناديا واديا بعد في وضع قوي للتفاوض، لكنها لم تكن قد فقدت شيئاً من كبريائها ـ فعندما زارت أبراهام في إليفانتا لمناقشة عرضه ـ وسرعان ما وصل الخبر إلى مسامع ميندوك، عن طريق لمباجان، العميل المزدوج الواقف عند بوابته! لكن أثار ذلك غضب هذا الرئيس الشرير ـ تكلمت بكل كرامة.

«إنني أقول لنفسي، يا ناديا واديا، ما تراه ذلك السيد الكريم يطلب مقابل معروف كهذا؟ ربما يطلب شيئاً لا يمكن لناديا واديا أن تقدمه، حتى لأبراهام الزغبي العظيم نفسه».

تأثر أبراهام كل التأثر، ثم قال لها إن مشروعاً مثل «سيوديكورب» بحاجة إلى وجه ودود يعرفه الناس. «انظري إلي» بدأ كلامه. «ألست رجلاً عجوزاً رهيباً؟ فقط الآن عندما يفكر الناس بشركتنا، يفكرون بهذا العجوز الأحمق. من الآن فصاعداً، إن وافقت، سيفكرون بك».

«إذن ستصير ناديا واديا هي وجه «سيوديكورب»، في الإعلانات التجارية، الملصقات، كذلك بشكل شخصي، ستحضرين أنت كل الأحداث الكثيرة التي تتم برعاية المؤسسة من حفلات أزياء، مباريات كركيت دولية، كتاب غنيس لمؤتمرات الفائزين بالأرقام القياسية، معرض الألف الثالثة، مباريات المصارعة العالمية...إلخ». بذلك، خرجت ناديا من المجارير لتعود إلى الشهرة الشعبية التي كان يستحقها جمالها. وهكذا، كان أبراهام هو الذي سجل لها انتصاراً آخر على فيلدينغ، ثم عادت أغنية ناديا واديا، وقد أطلق سراحها لتتردد مع مزيج من الرقص الذي يدق الآذان وعزف البيانو الحار ـ الحار، إلى تلفاز مزالا، لتحتل رأس ما يعرض من أغانٍ.

انتقلت ناديا واديا وأمها فاديا واديا إلى شقة طريق كولابا. على جدار غرفة معيشتهما علق أبراهام لوحة وحيدة من رسم أورورا الزغبي لم تستطع زينات فكيل أن تعرضها في الصالة الواقعة على تل كمبالا. إنها اللوحة التي تظهر فيها شابة جميلة وهي تقبل لاعب الكركيت الوسيم بنوع من العاطفة سبّب الكثير من المشاكل، ذات يوم. «أوه! كم هي رائعة!» قالت ناديا واديا، مصفقة بيديها، حين رفع أبراهام شخصياً الستارة عن لوحة «قبلة عباس علي بيك». ناديا واديا وفاديا واديا تحبان الكركيت «ألسنا كذلك يا فاديا واديا؟».

«صحيح تماماً» قالت فاديا واديا. «الكركيت لعبة الملوك».

«أوه، يا فاديا السخيفة» قرعتها ناديا «لعبة الملوك هي الخيول. على فاديا أن تعرف ذلك. أما ناديا فتعرفه».

«استمتعي يا بنتي،» قال أبراهام الزغبي، مقبلاً أعلى رأس ناديا وهو يغادر. «لكن رجاء، بالنسبة لأمك، قدراً أكبر قليلاً من الاحترام».

لم يضع إصبعاً عليها، بل لم يكن أي شيء سوى السيد النبيل الكريم. بعدئذ وعلى نحو مفاجئ تماماً، عرضها علي، وكأنها ملكه يقدمها لمن يشاء، هبة من هباته، زوجة تافهة.

فقلت لأبراهام إنني سأزور آل واديا وأناقش اقتراحه. كانت المرأتان تنتظرانني في شقتهما العالية في شارع كولابا، وقد بدا عليهما الخوف. ناديا واديا تلبس ما يلبس عادة في مناسبة عيد الميلاد، مع جواهر ـ أنف وكل شيء.

«والدك كان جيداً جداً معنا». بدأت فاديا واديا، ومشاعر الأمومة تطغى على متطلبات وضعها. «هو بالتأكيد سيد محترم، لكن ابنتي ناديا واديا تستحق الأصغر منه سناً... رجلاً في سن الشباب».

بشيء من الغرابة، كانت ناديا واديا تنظر إلي «أتراها قابلتك ناديا واديا في مكان ما من قبل؟» سألت، نصف ـ متذكرة غانباتي. تجاهلت ذلك السؤال، ثم وجهت نفسي باتجاه المسألة قيد البحث، شارحاً: المشكلة أنهما كانتا تعيشان تحت رعاية واحد من أقوى الرجال في الهند. فهل عليهما أن ترفضا عرض ابنه الوحيد إن طلب الزواج؟ في هذه الحالة، يحتمل كثيراً أن يسحب الأب العجوز رعايته وحمايته. والقليل من الأيدي يمكن أن تمتد إليهما بعد ذلك، خشية الإساءة للزغبي الكبير. ولعل الطرف الوحيد الذي سيهتم، هو سيد معين كان ذات مرة، رسام كاريكاتور، اعتاد أن يوقع على أعماله برسم ضفدع...

«أبداً» صرخت ناديا واديا «أنا أصبح السيدة ميندوك؟ هذا أبداً لن يحدث. أولاً أنا سأطلب من فاديا واديا أن تمسك بيدي، ثم نقفز معاً من هذه الشرفة، تماماً هنا، انظر».

«لا حاجة لا حاجة»هدأتها. «فكرتي أفضل قليلاً.على ما أظن». ثم كان ما اقترحته خطبة بالاسم فقط. أبراهام سيسره ذلك، ولسوف تكون هناك علاقات عامة ممتازة، كما يمكن إطالة فترة الخطبة إلى ما لا نهاية. كذلك أخبرتهما بسر وجودي المتسارع، فقلت من الواضح أنني لن أعيش طويلاً وما إن أموت حتى تحصد كلتاهما منافع كبيرة لكونهما مرتبطتين بعائلة الزغبي، التي كنت الوارث الوحيد لثروتها الضخمة. بل حتى لو عشت بما يكفي لأن يصبح الزواج ضرورياً، فإنني أتعهد أن تبقى ترتيباتنا

الأفلاطونية كما هي. فقط أطلب موافقة ناديا على أن تحافظ على مظاهر الزواج. «والبقية ستكون سراً بيننا».

«أوه، ناديا واديا، انظري كم نحن فظتان! خطيبك الوسيم يزورنا ولا نقدم له حتى قطعة صغيرة من الكعك».

* * *

لماذا فعلت ذلك؟ لأنني عرفت أن ما أقوله صحيح، فأبراهام سيعتبر الرفض إهانة شخصية له ويرميهما في الشارع. ولأنني كنت معجباً بموقف ناديا واديا من فيلدينغ، كذلك بالطريقة التي كانت تعامل بها والدي سيئ السمعة فسقاً، ولأنها أوه! كانت جميلة جداً وشابة، فيما ذلك سيحمل لها الخراب. وربما لأنني بعد سنوات الضعف والفساد التي عشتها، كنت أبحث عن تقديم فدية، أردت أن أتطهر من آثامي.

فدية من أجل ماذا؟ تتطهر مم؟ لا تسألوني أسئلة عويصة. لقد فعلتها، وكفى. خطبة موريس الزغبي، الابن الوحيد للسيد أبراهام الزغبي والمرحومة أورورا داغاما، على الآنسة ناديا واديا، الابنة الوحيدة للسيد المرحوم كباديا واديا، والسيدة فاديا واديا، تم الإعلان عنها في بومباي كلها، وفي مكان من المدينة، كان رجل الصفيح يسمع الخبر، فنما الشر وترعرع في قلبه المحطم هو الذي كان بلا قلب.

أقيم حفل الخطبة في التاج، طبعاً، وكان حفلاً سخياً من حفلات بومباي بالتأكيد. حضر ذلك الحفل أكثر من ألف مدعو، أصدقاء وغرباء، بمن فيهم أختي الأخيرة، الأخت فلورياس، التي كانت قد صارت أكثر من غريبة في ذلك اليوم. ثم زلقت «ألماسة خرافية»، كما وصفتها الصحف، على تلك الإصبع الجميلة للفتاة الجميلة وبذلك اكتمل ما كانت الزاوية الصحفية «واسبيجي» قد دعتها «بالخطبة المدهشة العجيبة لغروب الشمس والفجر». لكن أبراهام الزغبي ـ ذلك الرجل العجوز الأشد حقداً والأبرد قلباً ـ كان، بشيء من دعابته السوداء

المألوفة، قد أعد وخزة صغيرة لذيل ذلك المساء. إذ، بعد أن اكتملت طقوس الخطبة العامة، والتقط المصورون ما يكفيهم من الصور لجمالها ـ الذي ـ لن يشع ـ بعد ـ ذلك ـ أبداً، وأتخموا تماماً، خطا أبراهام باتجاه المنصة، طالباً الصمت، لأن لديه إعلاناً سيقدمه.

«موريس، أيها الابن الوحيد لي، ويا ناديا التي ستكون أجمل كنة لي» نعب بصوت كالغراب. «دعاني أغامر وآمل أنكما قريباً ستمنحان هذه العائلة المنقرضة على نحو محزن بعض الأعضاء الجدد». ـ أوه، يا أباً خالي ـ القلب ـ «عل العجوز يستمتع، لكن، في غضون ذلك، أنا نفسي لدي عضو جديد أقدمه».

فحدث كثير من الحيرة، كثير من التوقع، هنا قوقأ أبراهام ثم أومأ برأسه. «نعم ابني المغربي، أخيراً يا ولدي سيكون لك أخ أصغر تدعوه أخي».

في تلك اللحظة، انفتحت الستائر، كأنما بأمر وبصورة مسرحية، فظهر هناك تماماً خلف المنصة الصغيرة، آدم برغانزا ـ نفسه ذو الآذان الكبيرة قليلاًـ ثم خطا إلى الأمام.

بين الشهقات العالية الكثيرة. كانت شهقة ناديا واديا وفاديا واديا، وشهقتي أنا.

هناك قبله أبراهام على وجنتيه كلتيهما، ثم على الشفتين. «من الآن فصاعداً» قال للغلام أمام نخبة المدينة المجتمعة، «ادعُ نفسك آدم الزغبي ـ يا ابني الحبيب».

(18)

بومباي مركزية، ولقد كانت كذلك منذ أن نشأت: بنت زنى لعرس إنكليزي ـ برتغالي، مع ذلك هي المدينة الأكثر هندية بين المدن الهندية. في بومباي اجتمع كل الهنود وامتزجوا، في بومباي، أيضاً، كل الهند التقت بما ليس بالهند، بما جاء عبر المياه السوداء ليتدفق في أوردتنا، كل شيء شمال بومباي كان الهند الشمالية وكل شيء جنوبها كان الهند الجنوبية، إلى شرقها كان يقع شرق الهند وإلى غربها غرب العالم، بومباي مركزية. كل الأنهار تتدفق إلى بحرها البشري. إنها محيط من الحكايات، كلنا رواتها، والجميع يتكلمون في آن معاً.

أي سحر كان يحرِّك في ذلك الحساء الإنساني. أي تناغم ظهر من ذلك التنافر!! في البنجاب، أسام، كشمير، ميروت ـ في دلهي، كلكوتا ـ كانوا يقطعون من حين إلى حين، حناجر جيرانهم ثم يأخذون مرشات ساخنة أو حمامات تبقبق حمراء في كل ذلك الدم الذي يرغي ويزبد. يقتلونك لأنك تختن ـ ويقتلونك لأنك لا تختن. الشعر الطويل يسبب لك القتل والشعر القصير يعود عليك بالقتل. البشرة الفاتحة تعارك البشرة الداكنة وإن تكلمت اللغة الخطأ يمكن أن تفقد لسانك المعوج. في بومباي لا تحدث أشياء كهذه أبداً ـ هل تقول أبداً؟ ـ حسن: أبداً كلمة تدل على الإطلاق التام. بومباي لا تقع خارج بقية البلاد. ما يحدث في مكان آخر، كمسألة اللغة مثلاً، يحدث أيضاً في شوارعها. لكن في الطريق إلى بومباي، كانت أنهار الدم تتمدد عادة، أنهار أخرى تصب فيها، وهكذا لا تصل إلى بومباي حتى تكون التشوهات قد صارت طفيفة نسبياً ـ أتراني شديد العاطفية؟ الآن، وقد تركت كل شيء خلفي، أتراني فقدت فيما فقدت الرؤية الواضحة أيضاً؟ ـ من الممكن قول ذلك، لكنني مازلت عند كلمتي. يا مجمِّلي المدينة، ألم تروا أن ما هو جميل في بومباي لا يمت لأحد، بل يمت للجميع؟ ألم تروا أن العجائب اليومية لـ «عش ـ ودعني ـ أعيش» تزحم شوارعها المزدحمة أصلاً؟

بومباي مركزية. في بومباي، وبينما كانت أسطورة تأسيس الأمة القديمة تبهت وتغيب، كانت هند ـ الإله ـ الجديد، وشيطان الجشع، تولد من جديد. ثروة البلاد تتدفق إلى مصارفها، مرافئها. وأولئك الذين يكرهون الهند، أولئك الذين يسعون لدمارها، مضطرون لأن يدمروا بومباي: ذلك تفسير واحد لما حدث. حسن، حسن، الأمر قد يكون كذلك. ولعل ما انطلق في الشمال (ولنسمّه، لأنني يجب أن أسميه، أيوديا) ـ ذلك الحمض القارض للروح، تلك الحقنة السامة التي دخلت مجرى دم الأمة، عندما سقط مسجد بابري ووضعت مخططات لإقامة معبد رام الجبار في مكان الولادة المزعومة للإله، مثلما اعتادوا أن يقولوا في دور سينما بومباي، **الملء بسرعة** ـ إذ كانت السرعة في هذه المناسبة شديدة التركيز، بل حتى قوى التمديد في المدينة الكبيرة لم تستطع إضعاف تركيزها بما يكفي. وهكذا، هكذا، أولئك الذين يجادلون على هذا النحو، كان لديهم نقطة، لا يمكن نكرانها أيضاً. في إرث الزغبي، أرتني زينات فاكيل موقفها الساخر المعتاد من المشاكل، إذ قالت «أنا ألوم القصص. فأتباع قصة ما هدموا قطعة مما يؤمن به قوم قصص أخرى، وحدث الاصطدام.إنها الحرب! فيما بعد سيجدون سرير فياسا تحت بيت إقبال، وخشخاشة ابن فالميكي تحت قبة ميرزا غالب. لذلك، أقول: حسن، إني أفضل أن أقاتل من أجل شعراء كبار، لا من أجل آلهة».

لقد كنت أحلم بأوما ـ أوه يا للاوعي الخائن! ـ فأوما كانت قد نحتت عملها المبكر، ثور نانديي الكبير. مثل الثور، فكرت حين استيقظت، ومثل كريشنا الأزرق ذي شهرة ـ الناي ـ والحلاَّبة، كان الإله رام تجسيداً لفيشنو، فيشنو، أشد الآلهة تحولاً وتموّراً. لذلك، يجب أن يسود «حكم رام» الحقيقي ليس فقط على حقائق الطبيعة البشرية، المتغيرة ـ الشكل، غير الثابتة والمتحولة، وليس على الطبيعة البشرية ذاتها وحسب، بل على الإلهية أيضاً. هذا الشيء الذي دعي إليه باسم الإله العظيم كان يتدفق إلى جوهره

وإلى جوهرنا أيضاً ـ لكن عندما يبدأ جلمود التاريخ بالتدحرج، لا يظل أحد مهتماً بمناقشة نقاط تافهة كهذه، فالقوة الماحقة تكون قد أفلتت.

... وإذا كانت بومباي مركزية، فقد يكون ما حدث له جذور في مشاجرات بومباي. موغامبو ضد ميندوك، المبارزة المنتظرة ـ منذ زمن طويل، جولة مصارعة من الوزن الثقيل كانت ستبدأ مرة واحدة وللكل. أية عصابة (إجرامية ـ مشاريعية أو اجرامية ـ سياسية) ستسيطر على المدينة. لقد رأيت شيئاً كهذا حدث، وبإمكاني أن أدون فقط ما رأيت. عوامل خفية؟ تدخل أيدٍ أجنبية / سرية؟ ذلك ما أتركه للمحللين الأكثر حكمة كي يكشفوه.

سأقول لكم ما أفكر به ـ ما لا يمكنني، بالرغم من نشوئي طوال عمري ضد كل ما هو غيبي خارق للطبيعة. أن أكف عن الاعتقاد به. إذ بدأ شيء ما عندما سقطت أورورا الزغبي ـ ليس حقداً وحسب، بل هو تمزق طويل عريض في نسيج حياتنا كلها. هي لن ترتاح، لذلك سكننا شبحها دون أن يكل أو يمل. أبراهام الزغبي يراها على نحو متزايد أكثر فأكثر، تعوم في حدائقه المعلقة، تطالب بالانتقام. ذلك ما أفكر به حقاً. ما تبع ذلك إنما كان الأخذ بثأرها. فقد كانت تحوم فوقنا في الجو غير مجسدة، أورورا البومباوية في عزها، وما كان يسقط علينا كالمطر إنما هو غضبها. ابحث عن المرأة، أقول أنا. وانظر: شبح أورورا يطير في الهواء الناري. ثم تمسك بناديا أيضاً ـ فناديا واديا، خطيبتي، مركزية أيضاً بالنسبة للحكاية.

إذن، كان هذا صراعاً من الطراز ـ المهاراباتي، حرب طروادة، تصف فيها الآلهة إلى هذا الجانب أو ذاك وتلعب دورها؟ لا، يا سيدي، لا يا سيدتي. فهناك، لا مكان للآلهة القديمة، بل أشخاص، قدر كبير منا، أبراهام ـ موغامبو ورجاله من أمثال سكار، ميندوك ورجاله من أمثال «الخمسة ـ بعضة». كلنا. أورورا، مينتو، سامي، ناديا، أنا. فنحن لا نستحق أن يفكر أحد بنا ككينونة، كمقام مأساوي. وإذا كانت كارمن

لوبو داغاما، خالتي الكبرى التعيسة صحراء، قامرت ذات مرة من أجل حظها مع الأمير هنري الملاح، فليس هناك من حاجة لأن نسمع أصداء فقدان «يوديستيرا» لمملكته نتيجة رمية زهرة قاتلة. ورغم أن الرجال كانوا يتعاركون من أجل ناديا واديا، إلا أنها لم تكن هيلين ولا سيتا، بل مجرد فتاة جميلة في موقعٍ ساخن، ذلك كل شيء. المأساة ليست في طبيعتنا، المأساة تجري تماماً، على صعيد كبير، على صعيد الأمة، لكن أولئك الذين قاموا بأدوارنا ـ ولأقل ذلك بصراحة، إنما كانوا مهرجين، ويا للمهرجين! المضحكين الهزليين الذين دخلوا مسرح التاريخ بسبب الافتقار للرجال الكبار. فالحقيقة، كان هناك ذات مرة عمالقة على مسارحنا، لكن في نهاية عصر الكدح، لا بد للسيد التاريخ أن يعمل بما يتوفر له. وجواهرلال، في تلك الأيام الأخيرة، كان فقط اسماً لكلب محشو.

***

انطلاقاً من طيبة قلبي، تقربت من «أخي» الجديد واقترحت عليه غداء ـ تعرف ـ أفضل. حسن، يا أعزائي، عليكم أن تسمعوا ما حدث. «فآدم الزغبي» ـ وهو الاسم الذي لم أستطع التفكير به دون وضعه بين قوسين ـ دخل في حالة اهتياج شديد من رعب التسلق ـ الاجتماعي. ترى هل علينا أن نكون بولينيزيين في امتداد أوبراوي؟ لا، لا، هو مجرد غداء «بوفيه»، وبإمكان المرء أن يقيِّم التملق قليلاً. ربما هي مجرد عضة في ردهة بحر تاج؟ لكن، لدى التفكير ثانية، كثير جداً من الدول الحاجزة القديمة تحيي من جديد أمجاداً ذاوية. إذن ماذا عن السورينو؟ إنه قريب من المنزل، ومنظر جميل، لكن يا عزيزي، كيف تتحمل ذلك النكد القديم للمالك؟ لا، نحن كنا بحاجة لمكان فيه قدر أقل من الضجة، ولكي يتكلم المرء بشكل خاص، يجب أن يكون قادراً على التسكع. صيني، إذن؟ ـ أجل، لكن من المستحيل أن تختار بين النانكينغ والكاملنغ. القرية؟ كل ذلك الإنشاء الصدئ ـ الزائف، يا صغيري: يمر

بسرعة. ثم بعد مفاجأة مضطربة طويلة (إذ لم أقدم إلا نماذج فقط)، استقر الرجل ـ أو بالأحرى «غطس» ـ في الطبخ القاري الشهير في المجتمع. ومرة ثانية كان يلعب، وفق الزي الدارج، بورقة.

«وسكي ديمبل! بسيطة! ديمبل! عظيم جداً أن أراكن يا فتيات تتكلمن من جديد. أوه.. حسن، كاليدازا، خمرة فرنسية، طبق فضي، والآن، إذن، يا مغربيٍّ العزيز ـ لا بأس أن أدعوك مغربياً؟» يا مغربي أنا آسف، آسف، الآن أنا لك كلياً بشكل كامل، أقسم على ذلك. قبلاتي، قبلاتي ـ أوه، فقط هات لنا ما تفكر به، فنحن نضع أنفسنا تحت تصرفك كلياً. فقط لا زبدة، لا مواد مقلية، لا لحم مدهن وابعد عن الباذنجان. فالإنسان لديه قوام يجب أن يحافظ عليه، أليس كذلك؟ ـ أخيراً، يا أخ! أية أوقات ستكون لدينا؟ أية مازة رائعة؟ مزاح! مزاح. هل تدخل إلى المواقع الليلية؟ انسَ موقع منتصف الليل، الألف وتسعمائة، ستوديو 29، الكافيرن كلها، انتهت يا صغيري، أنا الآن أفتش في موقع الأحداث الجديد، إننا ندعوه و3، أي شبكة العالم الواسعة أو ربما الشبكة فقط.

وإن كنت ذا وجه متحجر قليلاً، سريع الغضب قليلاً، ماذا في ذلك؟ أشعر أن لدي مبرراتي. إذ كنت أراقب المقصف الذي يعمل بلا توقف، كذلك عرض الحجب ـ السبعة الذي كان يقدمه آدم الزغبي، كما شاهدته وهو يراقبني، لقد فهم بالسرعة الكافية أن عمل السيد البارد لم يكن لعباً، فأدار حديثه بصوت واطئ وبصيغة تآمرية «هـ.. ي.. يا أخ، إن لك تاريخاً قتالياً ساخناً تماماً، أو هكذا سمعت. شيء غير معتاد أبداً بالنسبة لكم، أنتم أولاد اليهود. كما كنت أحسب أنك مترفع، لك أربع أعين في ميدان التآمر للهيمنة الدولية على العالم».

ذلك لم يجد نفعاً أيضاً، إذ غمغمت بشيء ما حول اليهود المرتزقة المحاربين الذين فعلوا الكثير لتأسيس وجود ـ للجماعة على شاطئ ملابار، ولقد أحس بالنغمة الجليدية في صوتي. «هـ... ي... هيا... يا أخ،

ألم تشعر أنها مجرد مداعبة؟ هـ.. ي.. هذا أنا ـ مادو، ميهر، روشي، هـاي. يفرحن كثيراً حين تـراك الفتيـات، قـابلن أخـي الكـبير. اسمعـن، هـذا فـتى مجنون، فتى ممن عليكن أن تخطفنه خطفاً ـ يا مغربي، يا رجـل، بمـا تـراك تفكر؟ فقط بفتيات الغلاف وعارضات الأزياء القمة، أم بأختنا إينا التي توفيت وفاة محزنة. تعلم ماذا؟ أظن أنهن يبحثن عنك، سيدات الطبقة الراقية».

حول موضوع «آدم الزغبي»، عقلي انغلق بسرعة، لقد تغـير الآن مـن جديد. أصبح رجل أعمال، محترفاً. «يجب أن تركز وضعك المالي، كما تعلم. أبوك، ومن المحزن قول ذلك، ليس بصغير السن. وأنا حالياً أمـوّل حاجاتي الشخصية من خلال مناقشات مفصلة مع رجاله».

ذلك أنهى المسألة. شيء ما يتعلق بآدم كان قد صدمني من قبـل، الآن عرفت ما هو. رفضه أن يتكلم عن ماضيه، السهولة التي تتغير بها خطواتـه وهو يحاول أن يتودد ويتزلف، الحسابات الباردة لتحركاته: أجـل، كنـت قد وقعت على حالة كهذه ذات مرة، رغم أنها لم تكن متمرسة على فنون الحرباء أكثر بكثير منه، هنا ارتكب أخطاء أقل بكثير، فقد تذكرت، بشيء من رعشة، حلمي القديم ذاك، بمن كانت تقتات ـ المشاكل، بمن كان لها شكل بشري. المرة الماضية، سيدة. هذه المرة رجل. عود على بدء.

«لقد عرفت من قبل امرأة مثلك»، قلت لآدم، «لكن، يا أخ، ما يـزال هناك الكثير مما ينبغي أن تتعلمه».

«حسن، أف». اندفع آدم. «عندما يقدم واحدنا عرضاً كهـذا، لا أدري لماذا يمكن للآخر أن يعتبره إهانة. ذلك موقف تثـار مـن ورائـه مـشكلة، عرض سيء، تحرك مهني سيء أيضاً. لقـد سمعـت أنـك تتـصرف بكـل استهتار مع الأب العزيز أيضاً، وفي سنه. لحسن حظـه أن أحـد ولديـه، على الأقل، يرغب في قضاء الحاجات دون ثرثرة أو كلام».

* * *

كان سامي هزاري يسكن في ضاحية أنديري، المحاطة بشبكة عشوائية من الصناعات الخفيفة ـ ملابس جلدية، سدادات زجاجات كولا، زيت طبخ، وحتى ستوديو سينما صغير غالباً ما يستخدم في الإعلانات التجارية. بيته، وهو كوخ ريفي خشبي من طابق واحد، مهدد منذ زمن طويل بالهدم، لكنه ما يزال قائماً، وفق الزي الدارج في حياة بومباي، منسلاً بين مصانع خلفية نتنة الرائحة ومجموعة صفراء من بيوت أصحاب الدخل ـ المنخفض، وكأنه يبذل كل ما لديه من جهد لكي ينجو من التهديد بالهدم. الليمون والفليفلة الخضراء معلقان على عتبة الباب، لطرد الأرواح الشريرة. كذلك تقاويم فات عهدها تظهر فيها صور ملونة لامعة للإله رام وغانيش ذي رأس الفيل، وطوال سنوات كثيرة كانت هي الزخارف الوحيدة، لكن الآن، كان هناك صور لناديا واديا مأخوذة من المجلات تغطي كل الجدران الخضراء ـ الزرقاء. كما كان هناك أيضاً صور من مجلة المجتمع لخطبة الآنسة واديا والسيد الزغبي في فندق تاج. في هذه الصور كان وجهي قد شطب شطباً شديداً بقلم حبر أو تم حكه بطرف سكين. وفي صورة أو صورتين، كان رأسي قد قطع تماماً. كما تمت خربشة كلمات بذيئة على صدري.

لم يكن سامي قد تزوج قط. بل كان يشارك في بيته هذا قزماً كبير الأنف، أصلع، يدعى ديرندرا، هو ممثل سينمائي لأدوار صغيرة ادعى أنه قام بالتمثيل في أكثر من ثلاثمائة فيلم طويل، طموحه في الحياة هو أن يسجل رقماً قياسياً في كتاب غنيس عن أكبر ظهور سينمائي له بين الممثلين. ديرندرا هذا كان يطبخ، ينظف البيت لسامي الشرس، بل حتى يزيت له يده ـ الصفيح حين اللزوم. وفي الليل، على ضوء المصباح الكازي، كان يساعد رجل الصفيح في هوايته الصغيرة، القنابل النارية، القنابل الموقوتة، الزنادات الهزازة والقنابل المتأرجحة: فالمنزل كله ـ بخزائنه، زواياه، أركانه، بل حتى الثقوب الخاصة المتعددة التي حفرها

الرجلان تحت الأرضية لغرفة إقامتهم الوحيدة التي غطيت بالألواح بعدئذ من أجل السرية ـ أصبحت مستودع أسلحة خصوصياً . «فإذا جاؤوا لمداهمتنا»، قال سامي لقزمه الصغير برضى ذاتي شرس، قاتل: «يا ولد، يا سيد، سنخرج بدويّ بالتأكيد».

كان يا ما كان في قديم الزمان، كنت أنا وسامي زميلين بأيدٍ لا تضاهى وكل منا يفكر بالآخر على أنه أخ بالدم، ولبضع سنوات خلت، كنا نشكل رعباً بالنسبة للمدينة، فيما كان ديرندرا، ذو حجم البداينت (مكيال صغير)، يمكث مثل امرأة غيور في المنزل يطهو الوجبات التي كان سامي، العائد منهكاً من أعمالنا، يلتهمها دون أن يقول كلمة شكر لقزمه، وقبل أن يستغرق في نوم عميق، يملأ الغرفة بتجشؤاته وضراطه. لكن الآن، كانت هناك ناديا واديا، وكان سامي مسحوراً على نحو يثير الشفقة بفتنة تلك السيدة التي لا سبيل إليها، خطيبتي، كما كان جاهزاً ـ أو هكذا أوحت جدرانه ـ لأن يفجر رأسي الكريه.

كان يا ما كان، في قديم الزمان، كان سامي هو الذراع اليمنى لرامان فيلدينغ، نطاطه الخارق. رجل الرجال بالنسبة إليه. لكن حينذاك، كان ميندوك نفسه مسكوناً بناديا. وكان قد أمر سامي بأن يخفف من تعلقه بها قليلاً، بعد أن قاد هذا ثورة. ولبضعة أشهر ظل ميندوك يضع سامي حيث يمكنه أن يراه، يراقبه، بتينك العينين الميتتين الباردتين، اللتين تشبهان الأعين التي تراقب بها الضفادع فرائسها التي تئز. بعدئذ استدعى رجل الصفيح إلى مكتبه الداخلي ذي الهاتف ـ الضفدعي، ثم أعطاه الأمر بطرده، قائلاً:

«صار ينبغي أن تترك، أيها الرياضي. إذ لا أحد أكبر من اللعبة، أليس كذلك؟ لكن أنت، بدأت تكتب قواعدك الخاصة».

«لا يا سيدي، لا، يا سيدي، السيدات وطريو العود ليسوا بالمقاتلين، يا سيدي».

«لعبة الكركيت تغيرت، يا رجل الصفيح»، قال ميندوك بنعومة. «وأنا أرى أنك من عصر السادة. لكن، سامي، يا ولدي، الآن، هي حرب شاملة».

أنديرا هي الظلمة، وفي أنديري، كان سامي يجلس صامتاً ساعات طويلة ملتفاً بالظلمة. في الأيام الأولى من افتتانه بناديا واديا، كان يرقص أحياناً حول البيت، رافعاً أمام وجهه، مثل قناع، صورة ملونة على صفحة كاملة لناديا فتح فيها ثقوباً للنظر، بحيث يمكنه أن يرى العالم من خلال عينيها، ثم يغني آخر أغاني الأفلام بصوت بناتي مزيف. «ماذا تحت قميصي؟» كان يغني هازاً جذعه بشكل موح «ماذا تحت سترتي؟» وذات يوم، مدفوعاً إلى حد الجنون باستمرار صاحبه في تركيزه على ناديا. وبنوعية صوته المخيفة أيضاً، صرخ ديرندرا راداً: «حلمتان، لها حلمتان تحت قميصها اللعين، أو ماذا تظن؟ بالونات حزب لعينة!» لكن سامي تابع الغناء دون أن يرف له جفن. «الحب» قال كمن يغرد. «الحب هو ما تحت سترتها».

لكن الآن، كانت أيام غنائه قد ولت على ما يبدو. وكان ديريندرا الصغير يتلوى حول القاعة، طابخاً، مازحاً، قائماً بخدعه الاحتفالية ـ وقوف على اليدين، شقلبة إلى الوراء، تشويه وجه ـ محاولاً بذلك أن يبهج سمي، بل يذهب أبعد من ذلك فيغني أغنية ـ السترة التافهة، تاركاً جانباً كرهه لناديا واديا، هذه الصورة الخيالية المسمرة التي لا يعرف أحد من أين جاءت، لكن خلال فترة قصيرة، دمرت حياتهم. بيد أن ديرندرا الصغير كان هو أيضاً لا يشارك سامي أفكاره علماً أن ناديا واديا كانت الأنثى الوحيدة التي يمكنه، عن رغبة، أن يسبب لها أذى شخصياً.

أخيراً، وجد ديرندرا، كلمة السر «افتح ـ يا سمسم» التي أعادت ـ الحيوية إلى سامي هزاري الكئيب، فوثب فوق الطاولة، وضع ما يشبه تمثال حديقة صغيراً ثم لفظ الأحرف السحرية بصوت عالٍ «ر. د. إكس».

لم تكن الولاءات المزدوجة مشكلة لدى سامي في يوم من الأيام. ألم يكن يقبض المال من أبي ويتجسس طوال سنوات على ميندوك؟ الفقير يجب أن يشق طريقه، ودعم كلا الطرفين ليس بالفكرة السيئة. لا، الولاءات المزدوجة تمام: لكن لا ولاءات البتة؟ ذلك هو المحيِّر. فقضية ناديا واديا هذه حطمت، بشكل من الأشكال، كل روابط رجل ـ الصفيح مع فريق هزاري الأحد عشر، «مع منظمة الـ «ما» ككل، مع أبراهام، ومعي. إذ صار يلعب لنفسه، وفي ذهنه إن لم يستطع الحصول عليها، لماذا يحصل عليها أي رجل؟ وإن كان منزله سينهدم، لماذا لا تتفتت منازل وأبراج أخرى وتسقط؟ نعم. هو ذاك. لقد كان يعرف أسراراً، وكان يصنع قنابل. هذه هي قدراته، إمكاناته الباقية. «سأفعل ذلك» قال بصوت عالٍ. وكل من آذاه سيشعر بوطأة يده، هو رجل ـ الصفيح.

«أعمال بهلوانية يمكنها ضمان ذلك»، قال ديرندرا «درجة أولى. وللزبائن القدامى، حسم أسعار». فريق الزوج والزوجة، الاختصاصيين في سلسلة ـ العمليات في الاستديو السينمائي القريب ـ اللذين يؤمّنان الأعمال الضوئية والانفجارية غير المؤذية ـ كانا، وبشكل خاص أكثر، متورطين في إتاحة الإمكانية للحصول على الشيء الحقيقي. لقد كانا صغيرين ولا شك. لكن طوال سنوات عديدة ظلا الممولين اللذين يعتمد عليهما رجل ـ الصفيح أشد الاعتماد للحصول على الجلينغنايت (نوع من الديناميت)، الـ ت. ن. ت، المؤقتات، المفجرات، الصمامات. لكن إر. د. إكس. مفجر!! ألاعيب بهلوانية يجب أن تصعد في الجو! بالنسبة للإر. د. إكس. يجب أن يكون جيب المرء عميقاً، كما ينبغي أن تكون اتصالاته على أعلى مستوى. كذلك ينبغي تجنيد زوج سلسلة ـ العمليات ذاك بحزمة ثقيلة من النقود. وإذا ما جيء بالإر. د. إكس إلى بومباي، بكميات مناسبة تتيح للاعبي البهلوانات إمكانية بيع جزء منها بصورة جانبية، ستحدث مشكلة خطيرة في البلد.

«كم؟» سأل سامي

«من يدري؟» صرخ ديرندرا، ناطاً في مكانه، «خيول تكفي للعبتنا. ذلك أكيد».

«أنا أدخر ذهباً». قال سامي هزاري. «كذلك هنا نقود. ولديك أيضاً: بيضة ـ عش».

«حياة الممثل قصيرة». احتج القزم «هل ستدعني أموت جوعاً في سنوات التخفي؟»

«لا تخفي بالنسبة لنا»، أجاب رجل الصفيح «إذ سرعان ما نتحول إلى لهب مثل الشمس».

* * *

لم نتناول أنا وأخي غداء معاً بعد ذلك. أما «أبونا» فكانت سنوات تغذية البلاد بدم الحياة قد ولت تقريباً. لقد سبق لأمي أن كانت زارعة وقد حان الوقت لأن يحصد أبي.

قصة السقوط الشاقولي لأبراهام الزغبي من قمة حياة بومباي ذاتها صارت معروفة تماماً، إذ أن سرعة وحجم الارتطام ضمنا انتشارها الواسع. من تلك القصة، الحكاية، كان ثمة اسم غائب تماماً، فيما كان اسم آخر يتكرر في كل الفصول، المرة تلو المرة. الغائب: اسمي، اسم الولد الذكر البيولوجي الوحيد لأبي.

المتكرر: «آدم الزغبي»، المعروف قبل ذلك باسم «آدم برغانزا»، وقبل ذلك:«آدم سيناء»، وقبل ذلك؟ لقد كشفت وسائل الإعلام بحيلها العجيبة، ثم أعلمتنا فيما بعد، أن والديه البيولوجيين كانا يحملان اسم «شيفا» و«بارفاتي»، ويعتبران ـ واسمحوا لي أن أنقر على هذا الوتر ـ أذنيه الكبيرتين للغاية بالحقيقة، أذنين غانيشيتين، إن سمحتم لي بأن أقترح؟ رغم أن اسم «دمبو» أو «غوفو»، «موتو» أو«كروكو» ـ أو دعونا نستقر على اسم «سابو» ـ قد يكون اسم الولد الفيلي البغيض.

وهكذا، ابن القرن الحادي والعشرين ذاك، محدث النعمة، قاطع المجازات ـ السريع، أثبت أنه ليس مغتصباً مخطِّطاً وحسب، بل خسيس ـ فكر أنه لن يمسك به أحد، لذلك أمسك هو بقضية مثيرة للضحك. فيما شخص آخر، تواطأ معه في القضية كلها. نعم. وصول آدم إلى عائلتنا أطلق لديه سلسلة من ردود الأفعال ألقت أرضاً بسيد «سيوديكورب» العظيم من مجثمه العالي. اسمحوا لي هنا، إن شئتم، أن أروي لكم، مبعداً كل أثر للشماتة عن صوتي، قصة الأضواء الرئيسية التي سلطت يوم الافتتاح العملاق على أعمال العائلة.

عندما ألقي القبض على الممول الأعلى فــ. ف. ناندي «التمساح» ووجهت إليه التهمة الخارقة للعادة: رشوة وزراء أساسيين في الحكومة، مقابل أن يمولوه بعشرة ملايين إثر عشرة ملايين روبية من أرصدة المال العام الذي كان يقصد منه عملياً «تثبيت» سوق بورصة بومباي ذاتها، فإن من ألقي القبض عليه أيضاً وفي الوقت نفسه صاحب الاسم المذكور أعلاه ـ ذاك الذي يدعى «شري ـ آدم الزغبي» الذي زُعم أنه «رجل الحقيبة» في القضية، حاملاً حقائب تحوي مبالغ ضخمة من الأوراق النقدية المستعملة والخارجة من ـ التسلسل، إلى المقرات الخصوصية لعدد من أبرز رجال الدولة، ثم ينساها «بالصدفة» هناك، كما أوضح ذلك بكل مكر في أدلته الدفاعية.

غير أن التحقيقات في الأنشطة الأوسع لشري آدم الزغبي ـ والتي قامت بها بكل حماسة قوة من الشرطة، مختصة بأعمال الاحتيال، النصب وما شابه، وذلك بضغط شديد من الحكومة المركزية المنزعجة كثيراً، إضافة إلى مؤسسة بومباي البلدية التي تتحكم بها منظمة الـ «ما»، والتي طلبت على لسان رئيسها السيد رامان فيلدينغ بأنه «ينبغي تنظيف وكر الأفاعي السامة من كل ما فيه من أفاع، بكل حيوية وسرعة» ـ وهكذا سرعان ما انكشف تورطه بفضيحة أكبر بكثير حتى. فخبر عملية الاحتيال العالمية

الواسعة التي قام بها رؤساء مصرف الخزانة الدولي، واختفاء موجوداته في ما دعي «بالثقوب السوداء» وكذلك الادعاء بتورطه مع منظمات إرهابية، واختلاسات بمقياس كبير لمواد ومقذوفات وآليات إطلاق وكذلك تكنولوجيا عالية لمعدات صلبة ولينة للحواسيب، كانت لتوها قد بدأت تصل إلى آذان الناس المذهولين، وقد ظهر اسم الابن بالتبني لأبراهام الزغبي في سلسلة من الفواتير المزورة التي صدرت مرتبطة بالقضية الحاسمة لتهريب حاسوب خارق للعادة سرق من اليابان إلى مكان لم يذكر اسمه في الشرق الأوسط. مع انهيار مصرف الخزانة، حيث وجد عشرات آلاف المواطنين العاديين، بدءاً من سائقي سيارات الأجرة وحتى أصحاب وكالات الأنباء وحوانيت الزوايا، ممن لهم علاقة بذلك المصرف، أنفسهم مفلسين تماماً فيما استمرت التفاصيل في الظهور، عن التورط الشديد لذراع «سيوديكورب» المصرفية اليمنى وبيت كاشوند ليفري مع المسؤولين الرئيسيين في المصرف المحطم، والكثير ممن كانوا يتقعون في السجون البريطانية والأمريكية. في الحال بدأت أسهم «سيوديكورب» سقوطاً حراً، وأبراهام ـ حتى أبراهام ـ مُسح مسحاً.

في الوقت الذي فاحت فيه رائحة فضيحة النقد ـ من أجل ـ التسلح، والمزاعم القوية المتعلقة بتورطه الشخصي في الجريمة المنظمة بعثت به إلى المحكمة لمواجهة تهم إجرامية بما في ذلك أعمال عصابات، تهريب مخدرات، غسل «أموال سوداء» على نطاق واسع، تحطمت الإمبراطورية التي بناها من ثروة داغاما، إذ راح أهل بومباي يشيرون إلى برج كاشوند ليفري بنوع من الخوف والصدمة ويتساءلون متى يتصدع ويسقط أرضاً.

في قاعة محكمة مصفحة الجدران بألواح الخشب، أنكر والدي، ابن التسعين سنة، كل التهم. «أنا لست هنا لأشارك في فيلم سينمائي كفيلم العراب، كما يفعل بعض الناس هنا في الهند، موغامبو مثلاً». قال، منتصب القامة متحدياً ومبتسماً ابتسامته الساحرة، تلك التي ميزتها أمه

فلوري قبل سنين، باعتبارها ابتسامة رجل يائس. «اسألوا الجميع من كوشين إلى بومباي من هو أبراهام الزغبي، ولسوف يقولون لكم إنه سيد محترم يعمل في تجارة البهارات والفلفل. هنا أقول لكم من أعماق روحي: ذلك كل ما هو في قلبي، كل ما كنته في يوم من الأيام. إذ قضيت حياتي كلها في تجارة التوابل».

وبكفالة مقدارها عشرة ملايين روبية، رغم كل اعتراضات الادعاء العنيدة، خرج أبراهام. «لا أحد يرسل رجلاً من أرفع شخصيات مدينتنا إلى سجن عمومي إلى أن يدان بأنه مذنب». قال سيد العدالة كشروالا، فانحنى أبراهام احتراماً للمحكمة. إذ كان ما يزال هناك أمكنة يمكن لذراعه أن تصل إليها. ولكي يقدم الكفالة، وضعت وثائق ملكية حقول التوابل التابعة لعائلة داغاما كضمان، لكن أبراهام انطلق حراً، عائداً إلى إليفانتا، ثم إلى مقر موته. هناك جلس وحيداً في المكتب المعتم بجوار حديقته العالية في الجو، ليتوصل إلى القرار نفسه الذي توصل إليه سامي هزاري في بيته البائس في أنديري: إن كان سينهار، إذن سيفعل ذلك بكل البنادق التي تلعلع. في المذياع والتلفاز كان رامان فيلدينغ ينعق كالبوم حول سقوط الرجل العجوز. «وجه فتاة جميلة في التلفاز لن ينقذ الزغبي الآن» قال، ثم انطلق على نحو مدهش بأغنية «حين يأتون كباراً. إذن يسقطون بشدة. بشدة. ناديا واديا، بشدة». بسبب ذلك أطلق أبراهام صرخة مزعجة حاسمة ثم مد يده إلى الهاتف.

اتصالان قام بهما أبراهام تلك الليلة، ثم تلقى واحداً فقط. فسجلات شركة الهواتف بينت بعد ذلك أن الاتصال الأول جرى مع رقم في أحد بيوت الدعارة على طريق فوكلاند يقع تحت سيطرة رئيس العصابة المعروف، «سكار». لكن ليس هناك دليل على إرسال أية امرأة إلى مكتب أبراهام أو إلى مسكنه في تل ملابار، إذ يبدو أن رسالته كانت من نوع آخر.

في وقت لاحق من تلك الليلة ـ تماماً بعد منتصف الليل ـ كان دوم مينتو، وقد صار فوق المائة سنة من العمر، هو المتصل الوحيد بأبراهام، لكن ليس هناك تسجيل حرفي لمحادثتهما، إنما رواها لي أبي. فقد قال إن مينتو لم يكن بحالة المشاكسة المألوفة ولا بروحه المتهيجة، بل كان منخفض المعنويات، قانطاً كما تكلم علناً عن الموت. «ليأت الموت! بالنسبة إلي كل الوجود كان فيلماً خاوياً». ذكر مينتو على نحو متكرر. «لقد رأيت ما يكفي مما هو الأبذأ والأقذر في حياة البشر». في الصباح التالي وجد المباحثي العجوز ميتاً على طاولته. «لعبة وسخة» قال الضابط المفتش سينغ، «لا يشك بأحد».

الاتصال الثاني كان معي. وبناء على طلبه وصلت إلى البرج المهجور في صلب الليل، مستخدماً مفتاحي الرئيسي لأدخل وأستخدم مصعده الخاص. ما قاله لي في غرفته المعتمة جعلني أقل تأكداً من المفتش حول طبيعة موت دوم مينتو. فقد أسر لي أن سامي هزاري الذي لم يكن راغباً، على ما يبدو، في أن يراه أحد في جوار الأماكن التي يمر بها أبراهام عادة ـ كان قد زار مينتو وحلف برأس أمه أن موت أورورا الزغبي تم بعقد ـ قتل نفذه شخص يدعى شاغان «الخمسة ـ بعضة»، بناء على طلب فيلدينغ.

«لكن لماذا؟» صرخت، فلمعت عينا أبراهام. «لقد حكيت لك عن أمك، يا ولد. تذوق الشيء، ثم ترمي بالطبق دون أن تكمله، تلك هي سياستها مع الطعام. وكذلك الرجال، لكن مع ميندوك، كانت قد نهشت من الثمرة الخطأ. الدافع جنسي، جنسي، جنسي... إنه انتقام». ولم أكن قد سمعته في حياتي يتكلم بمثل تلك القسوة. إذ كان واضحاً أن ألمه بسبب خيانتها كان ما يزال يلف في أمعائه ألماً فظيعاً اضطره لأن يتكلم عن ذلك الموضوع مع ابنه.

«وكيف؟» كنت بحاجة لأن أعرف. الجواب الذي قاله لي هو سهم يحقن تحت الجلد في العنق، من الحجم المستخدم لتخدير الحيوانات الصغيرة ـ ليس الفيلة بل القطط الوحشية، ربما، أطلق من خليج تشوباتي خلال الجنون الذي حدث في غنباتي، فجعل رأسها يفتل، ثم سقطت، بجانب الصخور التي يغسلها المد. لا بد أن الأمواج قد جرفت السهم بعيداً، وفي كل ذلك الخراب لم يلحظ أحد ـ ولم يبحث أحد عن ـ ثقب صغير في جنب رقبتها.

هنا تذكرت: لقد كنت في موقف للشخصيات الهامة مع سامي وفيلدينغ ذلك اليوم، لكنِ شاغان لم يكن له أي أثر، شاغان الذي كان هو وسامي بطلي نفخ ـ الأنبوب في ألعاب ميندوك المنزلية، «لكن هذا لم يكن نفخ ـ أنبوب» فكرت بصوت عالٍ. «أبعد بكثير، إنه إطلاق».

هز أبراهام كتفيه، ثم قال «إذن، بارودة ـ سهام. والتفاصيل كلها في جعبة سامي، مينتو كان سيأتي بها في الصباح، كما تعلم». ثم أضاف «أن ذلك لن يصمد في المحكمة».

«لا حاجة لأن يصمد،» أجبته، «هذه المسألة لن يبت بها محلفون أو قضاة». مينتو مات قبل أن يتمكن من جلب شهادة سامي إلى أبراهام. كما أن الوثيقة اختفت من بين أوراقه. المفتش سينغ لم يشك بلعبة وسخة، لكن تلك كانت مسألة تخصه. أما أنا فقد كان لدي ما أفعله. فشبح أمي المضطرب، عكس كل توقع، كان يحوم حول كتفي، صارخاً بالدمار. **الدم يحتاج للدم، فاغسل جسدي بدماء قتلتي الحمراء ودعني أستريح.**

* * *

الجامع في أيوديا تم تدميره. الأميون، المتعصبون أو لنقل البديل: تجمع «المحررون المخلصون للموقع المقدس» (التافهون بالنسبة لكل ذوق) حول مسجد بابري الذي يعود للقرن السابع عشر ثم هدموه حجراً حجراً بأيديهم العارية، بأسنانهم، بالقوة العنصرية لما دعاه السيد ف. نيبول موافقاً على ما فعلوا، «بيقظة التاريخ»، فيما كان أفراد الشرطة، كما بينت صور الصحافة، يقفون جانباً، يراقبون قوى التاريخ، وهي تعمل عملها الماسح ـ للتاريخ. رايات زعفرانية كانت مرفوعة. كما كان هناك أناشيد وترانيم «راغوباتي راغافا راج رام... إلخ». لحظة من هذه اللحظات، الأفضل أن توصف بأنها غير قابلة للتصالح: فرح ومأساة معاً، شرعية وغير شرعية معاً، طبيعية ومدبرة معاً، لقد فتحت أبواباً ثم أغلقتها. كما كانت بداية ونهاية، تماماً كما تنبأ بذلك كامونز داغاما قبل زمن طويل: مجيء رام، المدق الساحق.

لا أحد كان باستطاعته أن يتأكد. بعض المعلقين تجرؤوا لأن يشيروا إلى أن بلدة أيوديا الحالية تقوم في الموقع نفسه لأيوديا الأسطورية، موطن الإله رام في الرامايانا. كذلك لم تكن هناك فكرة لوجود مسقط رأس رام، الرامجانا بومي، حسب التراث القديم ـ ولم تكن بعمر مئة سنة، بل عملياً كان أحد العبدة المسلمين في جامع بابري القديم هو الذي زعم أول مرة أنه أبصر رؤيا للإله رام هناك، وكان المسلمون والهندوس على السواء، ولحين من الزمن يتشاركون في الموقع المتنافس عليه دون ضجيج... بل إلى الشيطان بخبر قديم كهذا!! من تراه يهتم بتلك الشعارات المنشطرة غير السليمة؟ البناء سقط، وجاء وقت العواقب، بلا نظرات إلى الوراء: لأن ما حدث لاحقاً، ليس ما كان يمكن أو لا يمكن أن يحدث من قبل.

ما حدث لاحقاً: في بومباي كان هناك سطو ليلي على إرث الزغبي. وكان اللصوص سريعين ومحترفين، بحيث تبين أن جهاز الإنذار في

الصالة تم تعطيله على نحو ميؤوس منه وفي أكثر من منطقة كان مصاباً بخلل تام. وهكذا سرقت أربع لوحات، كل ما يمت لحلقة المغربي، تم اختيارها مسبقاً بكل بساطة ـ لوحة من كل مرحلة من المراحل الرئيسية الثلاث، وكذلك اللوحة الأخيرة غير المكتملة إنما الرائعة «تنهيدة المغربي الأخيرة». حاولت المشرفة زينات فاكيل عبثاً أن تقنع المحطات الإذاعية والتلفازية أن تنقل الخبر، لكن أحداث أيوديا وآثارها اللعينة كانت تعج بها الأمواج الصوتية. ولولا رامان فيلدينغ، لما كان أحد قد سمع بفقدان هذه الكنوز الوطنية على الإطلاق. فرئيس الـ «ما»، أثناء تعليقه على دور دارشان ربط بين هدم الجامع واختفاء اللوحات. «حين تختفي أعمال فنية غريبة كهذه من أرض الهند المقدسة، لا يحزن أحد على ذلك» قال الرجل. «وإذا كان على الأمة الجديدة أن تولد فهناك الكثير من تاريخ الغزاة الذي ينبغي أن يمسح».

وهكذا، صرنا الآن غزاة، أليس كذلك؟ بعد ألفي سنة، كنا ما نزال لا نمت للبلاد، والحقيقة كان ينبغي «مسحنا» سريعاً ـ وهو نوع من «الإنهاء» الذي لا حاجة لأن يتبعه أي تعبير عن الندم أو الحزن. إساءة ميندوك لذكرى أورورا جعلت تنفيذ ما عزمت عليه أسهل علي.

مزاج القتل الذي سيطر علي لا يمكن أن يعزى بشكل صحيح إلى العودة لصفات الأسلاف، ورغم أنه جاء بوحي من موت أمي، إلا أن هذا قلما كان تكراراً لصفات كانت قد قفزت بضعة أجيال! بل قد يكون بالإمكان تصنيفه على أنه نوع من إرث المصاهرة. ترى، ألم تكن زيجة بعد زيجة قد أدخلت العنف إلى بيت داغاما؟ فإبيفانيا جلبت عشيرتها «المنيزيز» القتلة وكارمن جلبت أهلها آل «لوبو» الفتاكين أيضاً. وأبراهام كانت لديه غريزة القاتل منذ البدء رغم أنه كان يفضل استخدام الآخرين لتنفيذ طلباته. وحدهما جداي لأمي المحبان للحق، كاموئز وبيل، كانا بريئين من تهمة كهذه.

أما علاقاتي الغرامية فقلما كانت تشكل تحسناً. أنا لا أنحو بأية لائمة على ديلي الحلوة، لكن ماذا عن أوما التي حرمتني من حب أمي من خلال إقناعها لها بأنني أضمر عواطف غير نقية؟ ماذا عن أوما، مشروع القاتلة، التي فشلت فقط في أن تقتلني بسبب حادثة عرضية وقعت فيها الحبتان على الأرض واصطدم الرأسان واحدهما بالآخر؟

لكن في النهاية، لا حاجة لأن ننحو باللائمة على الأسلاف أو من نحب. حياتي المهنية كضارب للرجال ـ المرحلة التي عشتها كمطرقة مدمرة ـ لها أصولها في عمل الطبيعة التي أودعت الكثير من القوة في يدي اليمنى التي لولا تدخلها لكانت بلا قوة. صحيح أنني حتى ذلك الحين، لم أكن قد قتلت أحداً، لكن بناء على ثقل وطول المدة الزمنية للضربات التي كنت أوجهها، لا يمكن أن يعزى ذلك إلا للحظ. أما في قضية رامان فيلدينغ، فإذا كنت قد عهدت لنفسي بأن أكون القاضي والمحلفين والجلاد، فذلك لأن طبيعتي ذاتها كانت تفرض علي أن أفعل ذلك.

الحضارة هي براعة اليد التي تخفي طبائعنا عن أنفسنا. ويدي، أيها القارئ النبيل، كانت بحاجة إلى براعة، لكنها كانت تعلم أي نوع من الأشياء هي.

إذن، شهوة ـ الدم كانت في تاريخي، كما كانت في عظامي. لهذا لم يتزعزع قراري لحظة واحدة. سأنتقم ـ أو أموت وأنا أحاول الانتقام. أفكاري كانت تدور مؤخراً وباستمرار حول الموت. هنا، أخيراً، كانت الطريقة لإعطاء معنى لنهايتي الضعيفة في الحالة الأخرى. لقد أدركت بنوع من المفاجأة المطلقة أنني كنت مستعداً لأن أموت، طالما كان فيلدينغ قد تحول إلى جثة قريبة مني. وهكذا، أصبحت قاتلاً متعصباً أيضاً (أو منتقماً على حق، فاختر ما شئت).

العنف هو العنف، الجريمة هي الجريمة، وخطأان لا يساويان الصح: فثمة حقائق كنت مدركاً لها تماماً. كذلك: بنزولك إلى مستوى خصمك

تفقد الأرض العالية التي كنت تقف عليها. وفي الأيام التي أعقبت هدم مسجد بابري، دمّر المسلمون الغاضبون عن حق/ القتلة المتعصبون (مرة أخرى، اختر ما يحلو لك) معابد هندوسية وقتلوا هندوساً في الهند وفي الباكستان أيضاً. هنا تبرز نقطة حول اندلاع العنف المجتمعي، لا أهمية لطرحها كسؤال: «من بدأ ذلك؟» فالتصرفات القاتلة تنفي عن الجماعة أية إمكانية للتبرير، ناهيك عن العدالة. إنها تنبثق بيننا، يساراً ويميناً، هندوساً ومسلمين، سكيناً ومسدساً، قتلاً وحرقاً، سلباً ونهباً، ورفعاً في الأجواء الدخانية لقبضاتهم المشدودة الدامية. بيوتهما كليهما ملعونة بما قاموا به من أعمال، فكلا الجانبين يضحيان بالحق لصالح أية نثرة من فضيلة، إنهم كلهم بلاء لبعضهم بعضاً.

ولا أبرئ نفسي. فقد كنت رجل عنف لفترة طويلة من الزمن، وفي الليلة التي أعقبت الإساءة التي وجهها رامان فيلدينغ على التلفاز، وضعت نهاية لحياته اللعينة. وفي فعلي ذلك، جعلت اللعنة تنصب علي.

* * *

في الليل، كانت الأسوار المحيطة ببيت فيلدينغ محروسة بدوريات تقوم بها ثماني فرق، كل فريق يتألف من اثنين من الكوادر الضاربة التي تعمل على شكل نوبات، مدة كل نوبة ثلاث ساعات، وقد كنت على معرفة بمعظم أسماء حلقتهم الداخلية. أما الحدائق فكان يحميها أربعة كلاب ألزاسية تمزق ـ الحناجر (غافا سكار، فينغار كار، منكاد، ولكي يبعد صاحبهم أي دليل على تعصبه، كان هناك أزاري).

هذه الكلاب جاءت إلي لكي أداعبها، وهي تلوح بأذنابها.

عند الباب المؤدي إلى البيت كان هناك حراس آخرون، وكنت أعرف هؤلاء السفاحين أيضاً ـ زوجاً من العمالقة الشبان اسم الأول بادمود والثاني سنيزو ـ لكنهما فتشاني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي على أية حال، ولم أكن أحمل أي سلاح، أو على أية حال، لم أكن أحمل سلاحاً يمكنهم

أخذه مني. قالا لي شيئاً عن عملهما وضرورة تفتيش كل من يدخل، فلم أعلق على ذلك. بل قلت إني آسف لأنني أفتقد سامي، وكيف هو «الخمسة ـ بعضة» ذلك العجوز؟ فقال سنيزو «هو يشعر بالأسى على هزاري أيضاً»، وقد ذهبا معاً لتناول المشروب، لكن زميله ضرب قفا رأسه بيده فصمت. «إنه زكام غريب». تذمر وهو يعصر أنفه بين إبهامه وسبابته وينفخ بشدة، فتناثر المخاط في كل الاتجاهات وتراجعت بسرعة مبتعداً.

إنها ضربة حظ، إذ لم يكن شاغان في المنطقة، هو الذي يملك حاسة سادسة بل سابعة تجاه المشاكل، وحظي في التغلب عليه وعلى فيلدينغ ثم الفرار دون إثارة ضجة عامة، شبه معدوم. لقد جئت دون أن أتوقع أفضل من ذلك. فهذا الغياب الميمون أتاح لي فرصة على الأقل لكي أخرج من المنزل حياً.

سألني بادمود عن شغلي، فكررت ما قلته عند البوابة «لأذني سكيبر فقط» فبدا وكأنه انزعج «لا مجال» فعبست. «إذن، سيقع ذلك على رأسك حين يكتشفه». استسلم أخيراً «من حسن حظك، سكيبر يعمل متأخراً بسبب الأحداث في البلد». قال بشيء من السخط «انتظر ولسوف أسأل». بعد بضع لحظات عاد ثم أشار بإبهام ساخط باتجاه الملاذ الداخلي.

كان ميندوك يعمل على ضوء مصباح وحيد أصفر. رأسه الكبير بنظاراته نصف ـ منار، نصف معتم. بينما كتلة جسمه الكبيرة تندمج مع العتمة. أهو وحيد؟ من الصعب التأكد. «مطرقة، مطرقة» نعب كالبوم «ترى كيف أتيت الليلة، كرسول لأبيك أم خائن لقضيته اللعينة؟»

«رسول» قلت مومئاً برأسي «إذن، قل رسالتك».

«لأذنيك فقط،» قلت له «ليس للاقطات الصوت». فقبل سنين عديدة كان فيلدينغ قد تكلم بإعجاب عن قرار الرئيس الأمريكي نيكسون أن يزرع مكتبه لاقطات صوت. «الرجل لديه إحساس بالتاريخ» قال يومذاك «وشجاعة أيضاً. كل شيء على المسجلة». وكنت قد استنتجت أن تلك الأشرطة ساعدت في إنهاء رئاسته. لكن فيلدينغ رد معترضاً. «ما أقوله لا

يمكن أن يلغيني». صاح مدعياً. «إيديولوجيتي هي حظي، وذات يوم سيدرس التلامذة الصغار أقوالي في المدرسة».

لذلك: **لا للاقطات الصوت،** فابتسم ابتسامة من الأذن إلى الأذن، ليبدو في بركة الضوء التي كان يسبح بها أكثر شبهاً بقط تشيشاير منه بضفدع. «أنت تتذكر الكثير الكثير يا مطرقة». قال لي بولع، «لذلك. تعال، تعال يا عزيزي. اهمس في أذني بلا شيء عذب».

كنت قد كبرت وقد انزعجت وأنا أسير إليه. لعل ضربة يدي اليمنى قد ولت. **أعطني القوة،** صليت للا أحد على نحو خاص: لشبح أورورا، ربما. **مرة واحدة أخيرة. دعني أظل ممتلكاً لضربة مطرقتي.** الهاتف ـ الضفدعي الأخضر كان يحدق بي من موضعه. يا إلهي، كم كرهت ذلك الهاتف. انحنيت باتجاه ميندوك الذي قذف بيده اليسرى بعيداً وبسرعة كبيرة أمسك بي من شعر قذالي، حاشراً فمي بالجانب اليساري من رأسه. اختل توازني لحظة من الزمن، ثم أدركت بشيء من الرعب أن يدي اليمنى، سلاحي الوحيد، لم يعد باستطاعتها الوصول إلى الهدف. لكن وأنا أقع على حافة المكتب، كانت يدي اليسرى، تلك اليد اليسرى ذاتها التي كنت مضطراً لأن أجبر نفسي، طوال حياتي، وضد طبيعتي، على أن أتعلم كيف أستخدمها ـ اصطدمت، بالصدفة، بالهاتف.

«الرسالة من أمي» همست، ثم ضربت وجهه بالضفدع الأخضر. لم يطلق صوتاً، بل إن أصابعه حررت شعري، لكن الهاتف ـ الضفدعي استمر بالرغبة في تقبيله، لذلك جعلته يقبله بأشد ما أستطيع، ثم أشد فأشد، إلى أن تناثرت قطعه البلاستيكية وبدأ الجهاز يتفتت في يدي. «وسيلة احتيال لعينة رخيصة»، فكرت ثم وضعته على الطاولة. كيف ذبح الإله رام خاطف سيتا، رافان، ملك لانكا:

طويلاً استمرت المعركة دون حسم، إلى أن قام راما لشدة غضبه
بجعل سلاح براهما المميت يشتعل بنار سماوية

السلاح الذي أعطاه للبطل القديس أغاستيا
مجنحاً، كسهم برق من إندرا، فتاكاً كصاعقة من السماء
ملتفاً بالدخان والبرق اللاهب، مسرعاً من القوس المحدب
اخترق قلب رافان الحديدي، فصرع البطل ليسقط أرضاً بلا حياة...
فيما صوت مبارك من السماء اللامعة سقط على ابن راغو الشجاع
«يا بطل الحق والصواب! الآن أنجزت مهمتك النبيلة!»
وكيف ذبح أخيل هيكتور، قاتل بتروكلوس:
عندئذ رد هيكتور ذو الخوذة اللامعة
وقد ولت قوته كلها «أرجوك، أبق علي حياتي:
أتوسل لركبتيك، بحق أبويك، لا تتركني لكلاب
الآخيين بجانب السفن تأكلني...».
لكن أخيل الرفيع رد عليه متجهماً:
«لا تتوسل إلي أيها الكلب بركبتيّ أو بوالديّ
بودي فقط لو كان عندي القلب والإرادة
لأن أجردك من لحمك هذا وآكله نيئاً
جزاء كل ما فعلته بي! هنا، لا أحد
سيبعد الكلاب عنك...
بل إن الكلاب والطيور هي التي ستلتهمك كلك».

إنك ترى الفارق. فحيث استخدم رام آلة ـ الهلاك السماوية، كنت أنا مضطراً لأن أستخدم وسيلة اتصال ضفدعية. بعد ذلك، لم أتلق أي كلام سماوي يهنئني على عملي، أما بالنسبة لأخيل: فلم يكن لدي وحشية النهش الداخلية التي كانت لديه (وذلك يذكرني بهند، إن أمكنني القول، آكلة الأكباد في مكة، تلك التي التهمت كبد البطل الميت حمزة)، ولا التفاتة عبارته الشعرية. لكن كلاب الآخيين كان لها نظيراتها المحلية...

بعد أن قتل رام رافان، رتب بروح الفارس جنازة محترمة لخصمه. الذي سقط، أما أخيل، الأقل نبلاً بكثير من أولئك الأبطال الرفيعين، فقد ربط جثة هيكتور «بذيل عربته» وجره ثلاث مرات حول قبر بتروكلوس. فيما أنا الذي لم أكن أعيش في زمن بطولي، لا كرمت جسد ضحيتي ولا دنسته بل كانت أفكاري تنصب على نفسي، على حظوظي بالنجاة والفرار، فبعد أن قتلت فيلدينغ أدرته في كرسيه، بحيث يكون وجهه بعيداً عن الباب (رغم أنه لم يكن قد بقي له وجه). ثم رفعت قدميه على رف كتب وطويت ذراعيه على جروحه الطرية، بحيث بدا وكأنه مستغرق في النوم، منهك نتيجة ما قام به من أعمال. بعدئذ، وبسرعة كبيرة، بحثت عن آلات التسجيل، فكانت هناك اثنتان، لكي تدعم واحدتهما الأخرى.

لقد كان من السهل علي أن أجدهما. ففيلدينغ لم يترك لشدة حماسته التسجيل سراً، وخزانات مكتبه ـ التي لم تكن مقفلة ـ كشفت لي ملفات الأشرطة التي تدور ببطء، مثل دراويش الصوفية، في الظلام. فقطعت أطوالاً كافية من الشريط ثم حشوت بها جيوبي.

لقد آن الأوان للذهاب، لذلك غادرت الغرفة ثم أغلقت الباب بعناية مفرطة. «لا تزعجوه»، همست لبادمود وسنيزو «سكيبر يريد أن يغفو بعض الوقت». ذلك سيؤخرهما فترة من الزمن، لكن هل كان لدي زمن كافٍ لكي أغادر المكان؟ لقد سبق لي أن تصورت صراخاً، صفيراً، طلقات نارية، ثم أربعة لاعبي كركيت تحولوا إلى كلاب تنخر بصوت عال ثم تنقض على بلعومي. بدأت قدماي تسرعان، فأبطأتهما، ثم توقفت. جاءت الكلاب الأربعة تتمسح بي وتهز ذيولها، فركعت وحضنتها، بعدئذ نهضت، تركت الكلاب وتماثيل مومباديفي خلفي، خرجت من البوابة وركبت سيارة المرسيدس بينز التي كنت قد أخذتها من موقف السيارات في برج كاشندليفري. وبينما كنت أسوق مبتعداً، كنت أتساءل من سيقبض علي أولاً: الشرطة أم شاغان «الخمسة ـ بعضة». بالإجمال، كنت أفضل الشرطة. **جثة ثانية. سيد زغبي، إهمال. الإهمال رهيب.**

من خلفي جاءني صوت حيوان هادر، باستثناء أنه ما مـن حيـوان كـان قد هدر بمثل ذلك الصوت، فيما فتلت يد عملاق سيارتي فـتلاً، مـرة، مرتين قاذفة بعيداً بنوافذي الخلفية. ثم توقفت المرسيدس، وقـد صـارت في الاتجاه المعاكس. كانت الشمس قد بزغت، وكان الشيء الأول الـذي فكرت به «الحيوان الفظ والنجار»: القمر يضيء بـشيء مـن تجهـم/ لأنـه يفكر بالشمس/ إذ لم يكـن لـديها مـا يـدعوها لأن تكـون هنـا/ بعـد أن انقضى النهار/ وقاحة منها/ قال القمر. أن تـأتي وتفـسد اللعبـة». فكـرتي الثانية هي أن طـائرة سـقطت علـى المدينـة. فقـد كـان هنـاك لهـب عـال وصراخ. وللمرة الأولى أدركت أن شيئاً ما حدث في مـسكن فيلـدينغ. إذ عاد إلي صوت سنيزو وهو يخلط في إنكليزيته عباساً بدباس.

احتراماته الأخيرة، احترامات محاربه العجوز الذي ولى. كيـف هـرّب سامي يا ترى هذه المعدات من تفتيش الحرس؟ لكن لم يأتني إلا جـواب واحد. **داخل طرفه المعدني**. ذلك يعني أنها كانت صغيرة الحجم تمامـاً. لا مجال لأصابع الديناميت هناك. مـاذا إذن؟ بلاسـتيك. إر. دي. إكـس، سمتيكس؟ «مرحى، سامي» فكرت «عمل منمنمات آ؟ يا للعجـب! فقـط الأفضل، المادة الأخيرة لميندوك». مـن تـراه لا يـصرف مـن الخدمـة أي أحد آخر بسرعة. لقد خطر لي أنني قتلت رجلاً ميتـاً. حـتى، إن كـان مـا يزال حياً عندما وصلت إليه، كان سامي قد هزمني بالضربة القاضية.

عدة لحظات استغرقت قبل أن أستوعب أنه لم يكن قـد بقـي الكـثير مـن ميندوك. فسامي جيد إلى حدّ كافٍ للتأكـد مـن ذلـك. لهـذا الـسبب، قـد لا يطالني الشك في ارتكاب أية جريمة على الإطلاق. ورغم أنني كنـت الرجـل الأخير الذي رأى رامان فيلدينغ حيـاً، إلا أنـه لم يكـن لـدي أي شـك بـأنني سأجيب على أية أسئلة تطرح علي بكل طواعية. اسـتجابت الـسيارة لتـشغيلي لها من أول مرة. الجو كان مثقلاً بالـدخان وبكـل الـروائح الكريهـة الأخـرى التي كان بالإمكان تحديد هويتها. فيما كـان كـثير مـن النـاس يركـضون. إنـه

الوقت المناسب للمغادرة، لكن حين عكست اتجاه السيارة في الشارع، تصورت أنني أسمع نباح كلاب جائعة، ألقيت لها، على غير توقع، قطع كبيرة من اللحم، ما يزال معظمها على العظم. كذلك، خفق أجنحة نسور.

* * *

«سافر» قال أبراهام الزغبي «افعل ذلك بسرعة، وامكث في الخارج». لقد كانت تلك مشيتي الأخيرة معه في الحديقة المعلقة. إذ قدمت له تقريري عن الأحداث القاتلة في باندرا. «إذن، هزاري مدفع سائب» قال والدي. «لا يهم. قضية جانبية، مموّل ما يتعامل بصورة جانبية، وينبغي معرفة ذلك. لكن، هذا ليس شغلك. الآن، أنت لا يقيدك أي قيد. لذلك، وداعاً، ارحل حين تستطيع أن تفعل ذلك، ارحل». «ماذا سيحدث هنا؟» «أخوك سيتعفن في السجن. كل شيء سينتهي. أنا أيضاً منتهٍ. لكن نهايتي: لم تبدأ بعد».

أخذت تفاحة ناضجة من سلة الفواكه، ثم سألته سؤالي الأخير «ذات يوم قال لك فاسكو ميراندا، هذه البلاد ليست لنا. في ذلك الوقت، قال لك ما تقوله لي الآن، يا رجال ماكولي، ارحلوا. إذن، هل كان على حق يا ترى؟ أن نذهب إلى الغرب؟ذلك هو الأمر؟».

«أوراقك جاهزة؟» سألني أبراهام الذي بدا، وقد انتهت سلطته، أنه يهرم أمام عيني، مثل أي خالد يضطر أخيراً لأن يخطو خارج البوابات السحرية لشانغري لا. نعم، أجبته مومئاً برأسي. أوراقي جاهزة. تلك السمة على جواز سفري التي جددت كثيراً إلى إسبانيا، والتي كانت تركة أمي بالنسبة إلي. تلك النافذة إلى العالم الآخر.

«إذن، اذهب واسأله بنفسك»، قال أبراهام، مبتسماً ابتسامته اليائسة وهو يمشي مبتعداً عني داخل الأشجار. فتركت التفاحة تسقط من يدي واستدرت لكي أرحل.

«أوه، موريس،» ناداني من بعيد، دون خجل، مكشراً، مهزوماً. «أحمق غبي لعين. من تظن أنه سرق تلك اللوحات، إن لم يكن ميرانداك المعتوه؟ اذهب وابحث عنها يا ولد. اذهب واكشف ألواحك الثمينة. اذهب لترى بلاد المغربي». ذلك كان آخر أمر له، وأقرب حالاته لكي يعلن فيها عن عاطفة: «خذ الكلب اللعين». حينذاك غادرت تلك الحديقة السماوية وجواهرلال تحت ذراعي. كان الفجر تقريباً. كما كان هناك حافة حمراء تحد طرف الكوكب، وتفصلنا عن السماء، فبدا وكأن شيئاً ما، أو أحداً ما كان يبكي.

* * *

بومباي انفجرت إلى قسمين، هاهو ذا ما أخبروني به: ثلاثمائة كيلو غرام من متفجرات الإر.دي. إكس، تم استخدامها. ألفان وخمسمائة كيلو أخرى تم وضع اليد عليها فيما بعد، بعضها في بومباي، وبعضها الآخر في شاحنة قرب بوبال. كما تم اكتشاف مفجرات، مؤقتات، وكل مستلزمات الشغل أيضاً. لم يكن هناك ما يماثل ذلك في تاريخ المدينة. لا شيء بمثل برودة الدم تلك، بمثل تلك الحسابات، بمثل تلك القسوة. تفجير! وتبددت حمولة حافلة من التلاميذ الصغار. تفجير! وراح مبنى شركة الهند للطيران، تفجير! تطايرت قطارات، مقرات إقامة، بيوت، أكواخ، أحواض مرافئ، ستوديوهات ـ سينما، معامل، مطاعم. تفجير! تفجير! تفجير! أماكن صرافة، أبنية مكاتب، مستشفيات، أشد شوارع التسوق ازدحاماً في قلب المدينة، بينما كانت الأجساد تتناثر إرباً إرباً في كل مكان. دم إنساني وحيواني، أحشاء، عظام، فسكرت النسور لما التهمته من لحم، ثم جثمت فوق السطوح، تنتظر أن تعود لها الشهية.

من فعل ذلك؟ كثير من أعداء أبراهام ضُربوا ـ شرطة، كوادر منظمة الـ «ما» منافسون مجرمون، تفجير!! وكان والدي في ساعة القضاء عليه قد أجرى اتصالاً هاتفياً، فبدأت المدينة تتفجر. لكن هل كان بإمكان حتى أبراهام، بكل ما لديه من موارد ضخمة، أن يخزن مثل ذلك القدر من المتفجرات؟ كيف يمكن لعصابة تحارب أن تفسر ذلك القدر الكبير

من القتلى الأبرياء؟ مناطق إسلامية وهندوسية هوجمت على حد سواء، رجال، نساء، أطفال كلهم هلكوا، ولم يكن هناك أحد يفسر لماذا قتلوا؟ أي شيطان انتقام كان قد ركب الأفق ليمطر ناراً على رؤوسنا؟ ترى، هل كانت المدينة وبكل بساطة تقتل نفسها؟

أبراهام ذهب إلى الحرب، تاركاً لعنته تسقط في كل مكان استطاع الوصول إليه. لكن ذلك كان بعضاً منه ولم يكن كافياً، لم يكن كل شيء. فأنا لا أعلم كل شيء. بل أقول لكم ما أعلم.

هاكم ما أريد أن تعلموا: ترى من قتل إليفانتا، من أجرم بحق بيتي؟ من فجره نثاراً صغيراً؟ لمباجان تشانديوالا، بوركار، الآنسة جايا هيي وإزكاييل ذو الطبخات السحرية، جنباً إلى جنب مع الآجر والملاط؟ أهو ثأر لفيلدينغ الميت، أم هو انتقام هزاري ذي الحربة الطليقة، أم تراها حركة ما أعمق للتاريخ، أعمق بكثير، حيث لا أحد منا، نحن الذين أمضينا وقتاً طويلاً في العالم السفلي، يمكنه أن يراها؟

بومباي مركزية، ولقد كانت دائماً كذلك تماماً مثلما حاصر «الملوك الكاثوليك» المتعصبون غرناطة ثم انتظروا سقوط الحمراء، هكذا كانت البربرية تقف الآن على أبوابنا. **أوه، بومباي! أيتها الأولى في الهند! يا بوابة الهند! يا نجمة الشرق ووجهها إلى الغرب**، مثل غرناطة ـ غرناطة العرب ـ كنت مجد زمانك. لكن زمناً أشد اسوداداً حل بك، ومثلك مثل أبي عبد الله، آخر سلطان من بني نصر، الذي كان أضعف من أن يدافع عن كنزه العظيم، كذلك نحن أيضاً، ، ثبت أننا ضعفاء. لأن البربرية لم تكن على أبوابنا وحسب، بل تحت جلودنا أيضاً. إذ كنا خيولاً خشبية، نحمل هلاكنا داخلنا. لعل أبراهام الزغبي أشعل الفتيل أم هو سكار: هؤلاء المتعصبون أم أولئك، مجانيننا أم مجانينكم، لكن التفجيرات كانت تمزق أجسامنا نحن، كلانا كنا مفجرين للقنابل وقنابل، التفجيرات شر صنعناه بأيدينا ـ ولا حاجة لأن نبحث عن تفسيرات خارجية. رغم أنه كان هناك وما يزال شر خارج حدودنا كما هو

داخلها أيضاً. لقد قطعنا أرجلنا بأيدينا وبأيدينا وصنعنا سقوطنا. والآن، يمكننا فقط أن ننوح وندب، أخيراً، ما كنا فيه من ضعف، فساد، صغر شديد وحقارة كان أشد بكثير من أن يسمح لنا بأن ندافع.

ـ عفواً، رجاء، انفجار. امتد بعيداً. المغربي العجوز لن يتنهد مرة أخرى.

* * *

قتلت الدكتورة زينات فاكيل في الحريق الذي دمر صالة إرث الزغبي فوق تلة كمبالا، دون أن تبقى بعد ذلك لوحة واحدة، وبذلك تحددت أمي بمنطقة أقرب إلى عالم القدم الذي لا يمكن استرجاعه ـ بأطراف تلك الحديقة الجهنمية الملأى بالظلال اليائسة لأولئك ـ الذين باتوا الآن بلا رؤوس ولا أذرع مثل تماثيلهم ـ الذين اختفى عمل حياتهم كله وزال. (إنني أفكر بسيمابوي، المعروف عندنا بحفنة من اللوحات فقط). لكننا نجونا من الفضيحة. فقد كان هناك إعادة دائمة من الإرث إلى المتحف الوطني في دلهي، وما يزال هناك، لوحات تواجه لوحات أمريتنا شيرجيل بكل ثقة. لوحات أخرى بقيت. أربعة رسوم مبكرة من شيبكالي «أوبر ذا غور غور»... واللوحة الحادة المؤلمة «الأم والمغربي العاري» التي كانت بمحض الصدفة معارة في الهند أو في الخارج، كذلك، وعلى نحو يثير السخرية، كانت لوحة الكركيت المزعجة معلقة على جدار غرفة آل واديا، «قبلة عباس علي بيك»، إضافة إلى لوحة «ستديلجيك»، لوحة «تيت»، ومجموعة غوبلر. كذلك كانت هنالك بعض لوحات «المرحلة الحمراء»، ضمن ملكيات خاصة (وكم هو مثير للسخرية أنها كانت قد دمرت هي نفسها معظم هذه اللوحات).

إذن بقيت لها أعمال أكثر من سيمابوي، لكن كلها كانت مجرد نثرة من الإنتاج الإجمالي لتلك المرأة غزيرة الإنتاج.

أما اللوحات الأربع المسروقة لأورورا فقد باتت تشكل الآن قسماً حاسم الأهمية من كتلة عملها الباقية.

* * *

في صباح التفجيرات، ردت ناديا واديا على جرس بيتها وفتحت الباب بنفسها، لأن الخادمة كانت قد خرجت مع الفجر للقيام بشراء بعض السلع ثم فشلت في أن تعود. فوجدت أمامها في الباب صورتين كرتونيتين. قزماً يلبس الخاكي ورجلاً ذا وجه ويد من معدن. صرخة وقهقهة اصطدمتا في حنجرتها. لكن قبل أن تستطيع أن تطلق أي نوع من الأصوات، كان سامي هزاري قد رفع سيفاً قصيراً ثم شطب به وجهها مرتين بخطين متوازيين يمتدان من أعلى اليمين إلى أسفل اليسار، متجنباً، فعل الخبير، أن يصيب عينيها. فسقطت على حصيرة الباب، وحين استعادت وعيها كان رأسها في حجر أمها المهتاجة، دمها على شفتيها، ومهاجماها المجهولان اختفيا، بلا عودة وإلى الأبد.

* * *

في تفجيرات القنابل، هلك المعلم الكبير خسرو، وناطحة السحاب الزهرية في خليج كاندي، حيث كان «آدم الزغبي» قد رفعها ثم دمرها أيضاً. كما وجدت جثة شاغان «الخمسة ـ بعضة» في مجارير باندرا، وقد فتحت ضربات سيف فتحات كبيرة في عنقه. كذلك محلات «دباس» في «دوبي تلاد»، سينمات، مقاهٍ، محلات عامة، كل هذا لم يعد بعد. كما تبين أن الأخت فلورياس، الوحيدة الباقية من السلالة، كانت على خطأ، فيما يتعلق بالمستقبل، فالقنابل طالت دير غراشيا بلينا وحضانته، وميني كانت بين القتلى.

تفجير! تفجير! لكن ليس فقط الأخت، الأصدقاء، اللوحات، والمساكن المفضلة، بل أيضاً الشعور نفسه تمزق إرباً إرباً. إذ عندما صارت الحياة رخيصة جداً، عندما بدأت الرؤوس تتدحرج في الميادين، والأجسام التي بلا رؤوس تتراقص في الشوارع، كيف يمكن للإنسان أن يهتم بأي مخرج؟ كيف يهتم بأي خروج مهم له نفسه؟ بعد كل فظاعة كان يأتي ما هو أفظع، فقد صرنا، مثل المدمنين، بحاجة على ما يبدو لزيادة كل جرعة. الكارثة أصبحت عادة المدينة المألوفة، وكلنا تعودنا

عليها، على أفاعيها السامة، على قتلاها. متحجر العواطف ـ ولأستخدم الكلمة التي تستخدم كثيراً وعلى نحو مناسب ـ مصدوماً، دخلت حالة نأي بعيد، إلهية، فالمدينة التي عرفتها كانت تموت، والجسم الذي سكنته، الشيء نفسه، إذن ماذا؟ ليكن ما يكون..

وانظر، ما كان سيحدث، ما قد حدث. سامي، رجل الصفيح ـ وديرندرا الصغير يعدو بكل تصميم إلى جانبه، سارا إلى جهة برج كاشند ليفري، المتفجرات مربوطة إلى جذوعهم، أرجلهم، ظهورهم. ديرندرا يحمل مفجرين، وسامي يلوّح بسيفه. الحراس رأوا الهيروئين وقد جعل المهاجمين أشجع من أن يقف في وجهيهما شيء، فولوا الأدبار مذعورين. ركب سامي وديرندرا المصعد الذي لا يتوقف حتى الطابق الحادي والثلاثين. رئيس الأمن رن جرس الإنذار لأبراهام الزغبي، محذراً إياه، صارخاً صرخات لتبرئة ـ النفس، لكن أبراهام قاطعه في الحال «أخلوا المبنى»، وكانت تلك آخر كلمات نطقها.

عمال البرج بدؤوا ينتشرون كالمجانين في الشارع. لكن بعد ستين ثانية كانت الردهة الكبيرة في أعلى البرج تتطاير متناثرة مثل ألعاب نارية في الجو، فيما بدأ مطر من سكاكين زجاجية يتساقط، ليطعن كل من يصادفه من العمال الذين كانوا يركضون، في الرقاب، الظهور، الأفخاذ، مخترقاً كالرماح أحلامهم، حبهم، أملهم. في إثر السكاكين الزجاجية، كانت هناك أمطار رياح موسمية أخرى. فالكثير من العاملين طالهم الانفجار في البرج. المصاعد لا تعمل، والسلالم انهارت، كما كان هناك نيران وسحائب من الدخان الأسود القاتل. كذلك كان هناك من يئسوا، ولخشيتهم من النار، ألقوا بأنفسهم من النوافذ ليصنعوا حتفهم بأنفسهم.

أخيراً، انهمرت حديقة أبراهام مثل مطر البركة. تراب مستورد، عشب ـ مرج إنكليزي وأزهار أجنبية ـ زعفران، نرجس، ورود، خطمي، لا ـ تنسني ـ كلها تساقطت باتجاه الأرض المستصلحة في الخليج الخلفي:

أيضاً ثمار أجنبية. فيما ارتفعت الأشجار كلها عالياً في الجو قبل أن تعوم نازلة إلى الأرض، مثل أبواغ عملاقة. كما أن ريش طيور غير هندية ظل يتطاير في الجو طوال أيام.

حبوب فلفل، كمون كامل، عصي قرفة، هال، كلها اختلطت بالأزهار والطيور المستوردة ثم راحت تتراقص رات ـ تات على الطرق والأرصفة مثل حبات بَرد معطرة. لقد كان أبراهام يحتفظ دائماً بأكياس توابل كوشين في متناول يده. وعندما يكون وحيداً أحياناً يفتح تلك الأكياس، يغوص بذراعين ملؤهما الحنين إلى أعماقها العاطرة. بذور الحلبة، الحبة السوداء، الكزبرة والحلتيت كلها تساقطت فوق بومباي. لكن الفلفل الأسود، أكثر من الكل. ذهب ملابار الأسود، هو الذي كان قد وقع منذ الأبدية وقبل يوم، المدير المناوب وفتاة في الخامسة عشرة من عمرها، في حبه، حب الفلفل.

* * *

لنشكل طبقة، كتب ماكولي سنة 1835 في محضر يدور حول التعليم، **من أشخاص، دمهم ولونهم هندي، لكن آراءهم إنكليزية، كذلك أخلاقهم وتفكيرهم.** لكن لماذا من فضلك؟ **أوه، لكي يكونوا مترجمين بيننا وبين ملايين الهنود الذين نحكمهم.** وكم ستكون مثل هذه الطبقة من الأشخاص أو يجب أن تكون ممتنة شاكرة! إذ أن اللهجات في الهند فقيرة وفجة، **كما أن رفاً واحداً من مكتبة أوروبية جيدة يساوي الأدب الوطني بكامله.** تاريخ، علوم، طب، علم فلك، جغرافيا، دين كلها أيضاً موضع سخرية. هل يشعر البيطار الانكليزي بالعار... هل يثير الضحك لدى الفتيات في مدرسة داخلية إنكليزية..

بالتالي، فإن طبقة رجال محضر ماكولي كانوا سيكرهون أفضل ما في الهند. لا، فاسكو كان على خطأ، فنحن لسنا ولم نكن قط تلك الطبقة. الأفضل والأسوأ كانا فينا، يتعاركان داخلنا، كما كانا يتعاركان على

الأرض بصورة عامة. الأسوأ انتصر لدى بعضنا، لكن ما يزال بإمكاننا أن نقول ـ صادقين ـ إننا نحب الأفضل.

حين حلقت طائرتي فوق المدينة، كان باستطاعتي أن أرى أعمدة الدخان. لم يكن قد ظل ما يربطني ببومباي بعد. فهي لم تعد بومبايي أنا، لم تعد مدينتي الخاصة، لم تعد مدينة البهجة الخليطة، المزيجة، شيء ما كان قد انتهى (أتراه العالم؟) وما تبقى، لم أكن أدري، لقد وجدت نفسي أتطلع إلى اسبانيا ـ إلى مكان آخر. كنت ذاهباً إلى المكان الذي أبعدت عنه، قبل قرون. ألا يحتمل أن يتبين أنه وطني المفقود، مكان ـ راحتي، أرض ميعادي؟ ألا يحتمل أن يكون أورشليمي؟

«إيه، جواهرلال؟» لكن الكلب المحشو في حجري لم يكن لديه ما يقوله. بيد أنني كنت مخطئاً في شيء واحد: نهاية عالم ما ليست نهاية العالم. فخطيبتي السابقة ناديا واديا ظهرت في التلفاز بعد بضعة أيام من الهجوم عليها حين كانت الندوب في وجهها ما تزال واضحة، ومظهر التشوه كان بيّناً أيضاً مع ذلك كان جمالها ما يزال مؤثراً. شجاعتها واضحة تماماً، بحيث أنها بطريقة من الطرق، بدت أجمل من ذي قبل، وكان المذيع يحاول أن يسألها عن محنتها لكنها في لحظة خارقة للعادة، أشاحت بوجهها عنه لتتكلم مباشرة إلى عدسة التصوير وقلب كل مشاهد. «لذلك سألت نفسي، ناديا واديا، أهي النهاية بالنسبة لك؟ هل أسدلت الستائر؟ ولوهلة من الزمن فكرت، آخ، أجل، كل شيء انتهى، خلاص (هكذا بالعربية). لكن بعدئذ سألت نفسي، ناديا واديا، ماذا تقولين، يا امرأة؟ في الثالثة والعشرين تقولين إن الحياة كلها انتهت؟ أي كلام هراء، يا ناديا واديا! هيا، يا فتاة، تماسكي، تمام؟ المدينة ستبقى، أبراج جديدة سترتفع، أيام أفضل ستأتي. وها أنا الآن أقول كل يوم، ناديا واديا، المستقبل يشير لك، يناديك، فاسمعي نداءه».

تنهيدة المغربي الأخيرة

(19)

ذهبت إلى بينغيلي، لأن والدي قال لي إن فاسكو ميراندا، الرجل الذي لم أره منذ أربعة عشر عاماً ـ أو ثمانية وعشرين، بحسب تقويمي الزمني الشخصي السريع ـ كان يسجن أمي الميتة هناك، أو إن لم تكن أمي، فالجزء الأفضل مما بقي منها. وأفترض أنني آمل بأن أسترد تلك اللوحات المسروقة، وبفعلي ذلك أشفي شيئاً ما في نفسي قبل أن أصل إلى نهايتي.

لم أكن قد ركبت طائرة من قبل، لذلك كانت تجربة المرور عبر الغيوم ـ وكنت قد غادرت بومباي في يوم غائم نادر ـ شبحية تماماً مثل صور ما بعد الحياة في السينما، الرسوم، كتب القصص التي تبعث الرعشة. هل كنت مسافراً إلى بلاد الموتى؟ فقد كنت نصف ـ متوقع أن أرى زوجاً من الأبواب اللؤلؤية التي تنتصب فوق حقول من الركام الخفيف خارج نافذتي، ورجل يمسك بدفتر حساب مزدوج، فيه ذنوبي وفضائلي. لقد استغرقت في النوم، وفي أحلامي عالياً في السماء، تلك التي رأيتها أول مرة، علمت أنني بالحقيقة، كنت قد تركت أرض الأحياء. ربما كنت قد مت في أحد التفجيرات، مثلي مثل الكثيرين من الناس والأماكن التي كانت تهمني. عندما استيقظت، كان يتملكني إحساس بأنني اخترقت حجاباً ما كان ما يزال متلبثاً داخلي. فيما كانت فتاة ودودة تعرض علي طعاماً وشراباً. قبلتهما كليهما. كما أن الزجاجة الصغيرة من نبيذ ريوجا كانت لذيذة لكنها صغيرة جداً، فطلبت المزيد.

«أشعر وكأنني انزلقت في الزمان،» قلت للمضيفة الودودة بعد حين. «لكن ما إذا كان ماضياً أو مستقبلاً، لا يمكنني القول». فطمأنتني:

«كثير من المسافرين يشعرون كذلك. فأقول لهم لا هذا ولا ذاك. الماضي والمستقبل حيث نقضي جل حياتنا. والواقع، ما نذهب عبره في هذه الأكوان الصغرى التي تشكلها ذواتنا، إنما هو شعور مضلل لانزلاقنا بضع ساعات في الحاضر». اسمها كان إدوفيجيس ريفوجيو، طبيبة علم نفس من جامعة كمبلوتنس في مدريد. نوع من انفلات الروح كان قد قادها لأن تترك جانباً ما حصلته من تعليم وتتخذ هذا الطريق المشّائي في الحياة، إذ أسرت لي بكل حرية أنها جلست لبضع دقائق في المقعد الفارغ خلفي وأخذت جواهرلال إلى حجرها.

«شانغهاي! مونتيفيديو! ينابيع أليس! هل تعلم أن الأماكن وحدها تبوح بأسرارها، بأدق أسرارها، إلى أولئك الذين يكونون عابرين فقط؟ كما أن من الممكن تماماً أن تبوح بأسرارها إلى غريب تماماً تواجهه في محطة حافلات ـ أو على متن طائرة ـ أسرار حميمية قد تجعلك تحمر خجلاً إن لمحت بها تلميحاً لمن تعيش بينهم. أي كلب محشو لذيذ، بالمناسبة! أنا نفسي لدي مجموعة من الطيور الصغيرة المحشوة، ومن البحار الجنوبية، رأس محنط خالص. لكن السبب الحقيقي وراء سفري،» وهنا مالت علي بشدة، «إنما هو المتعة التي أشعر بها من الاختلاط بالآخرين، ففي بلاد كاثوليكية مثل إسبانيا، ليس من السهل أن أحصل على بغيتي». حتى حينذاك ـ بسبب اضطرابي الداخلي وأنا طائر ـ لم أفهم أنها كانت تعرض علي جسدها. وكان عليها أن تفصح أكثر. «في هذه الرحلة الجوية، نحن نساعد بعضنا بعضاً،» قالت لي «فزملائي سيقومون بالمراقبة ويتأكدون أن لا أحد سيزعجنا». ثم قادتني إلى المرحاض الصغير حيث مارسنا الجنس بسرعة، وقد بلغت نشوتها إثر بضع حركات سريعة، بينما لم أستطع أن أفعل ذلك على الإطلاق،

خاصة حين بدت وكأنها فقدت كل اهتمام بي لحظة قضت وطرها مني. بكل سلبية تقبلت الوضع ـ لأن السلبية كانت تمسك بي بقبضتها ـ بعدئذ قمنا كلانا بتسوية هندامنا ثم خرجنا، كل منا في طريق. بعد وهلة شعرت بدافع شديد لأن أتكلم معها أكثر. لأثبت صورة وجهها في ذهني وصوتها في ذاكرتي ذاك الذي بدا وكأنه ضعف كثيراً، لكن امرأة مختلفة ظهرت لي رداً على ضوء صغير أشعلته بالضغط على زر يحمل صورة بالخطوط لكائن بشري. «أريد إديفوجيس»، شرحت، فعبست المضيفة الشابة «المعذرة؟ هل قلت ريوجا؟» في الطائرة، الصوت يتغير، وربما كنت قد غمغمت كلماتي على نحو غير مفهوم، فكررت بطريقة واضحة تماماً، «إديفوجيس ريفوجيو، عالمة النفس».

«لا بد أنك كنت تحلم يا سيدي،» قالت المضيفة الشابة بابتسامة خاصة. «فليس في الطائرة مضيفة بهذا الاسم». وحين أبديت إصراراً أنها كانت هنا، وربما رفعت صوتي قليلاً، جاء رجل بأطواق ذهبية حول كميه، مسرعاً إلي. «اهدأ واجلس بسكون». أمرني بخشونة، دافعاً إياي من كتفي.

«في سنك، يا جد ومع تشوهك! يجب أن تخجل من أن تقوم بمثل هذه الأعمال مع فتيات محتشمات، فأنتم الهنود كلكم تحسبون أن النساء الأوروبيات عاهرات». كنت خائفاً، لكن حينذاك وقد نظرت إلى المرأة الشابة الثانية، رأيت أنها تمسح زوايا عينيها بمنديل، فقلت لها معتذراً: «آسف أنني سببت إزعاجاً كهذا. دعيني أسحب، هنا والآن ودون مواربة، كل طلباتي». «ذلك أفضل» قال الرجل ذو غطاء الرأس. «ونظراً لأنك رأيت خطأ أساليبك لن نقول المزيد عن الأمر». ثم انصرف مع المرأة الثانية التي بدأت تبدو مبتهجة تماماً. والواقع أنهما حين غابا في الممر، كانا يقهقهان على ما يبدو تاركين لدي انطباعاً بأنهما يضحكان عليّ. إذ لم أستطع أن أجد تفسيراً لما حدث، لذلك عدت لأستغرق هذه المرة في نوم

عميق لا أحلام فيه. بعد ذلك لم أر إديفوجيس ريفوجيو مرة ثانية قط. فسمحت لنفسي بأن أتصور أنها كانت نوعاً من أشباح الهواء، جاءت إلي بناء على رغبتي. ولا شك أن حوريات كهذه كانت تطوف في الجو هنا، فوق الغيوم، وكان بإمكانهن أن يخترقن جدران الطائرة حين يشأن.

لقد دخلت، كما سترى، حالة ذهنية غير مألوفة. فالمكان، اللغة، الناس والعادات التي كنت أعرفها كلها ابتعدت عني، بعمل بسيط هو ركوبي هذه المركبة ـ الطائرة، وتلك، بالنسبة لمعظمنا، هي المراسي الأربع للروح. فإذا أضاف المرء آثار أهوال الأيام الأخيرة وبعضها قد تأخر، إذن، ربما كان بالإمكان أن ترى لماذا شعْرت وكأن جذور نفسي كلها اقتلِعت مثل جذور تلك الأشجار التي طارت من ردهة أبراهام. لقد منحني العالم الجديد الذي أدخله تخديراً رمزياً، طلقة تخديرية. وعلي أن أتذكر أنني لا أعرف شيئاً، لا أفهم شيئاً. أنا وحيد في غموضي، لكن على الأقل هناك طلب، علي أن أتعلق به، ذلك هو اتجاهي، ومن خلال متابعتي بكل ما لدي من طاقة يمكنني أن أدخل، مع الزمن، هذا الجو الأجنبي السريالي الذي لم أكن قد بدأت بفك رموزه بعد.

في مدريد، غيرت الطائرة، فانتعشت لأن أترك خلفي ذلك الطاقم الغريب لتلك الطائرة. ثم على الطائرة الأصغر بكثير، احتفظت بنفسي لنفسي، حاضناً جواهر لال، ومجيباً على كل عروض الطعام والشراب بهزة نفي قصيرة من رأسي. حين وصلت إلى الأندلس، كانت ذكرى رحلتي الجوية العابرة للقارات قد ضعفت. فلم يعد باستطاعتي أن أستحضر في ذهني وجوه أو أصوات المضيفين الثلاثة الذين، بت مقتنعاً حينذاك، أنهم تآمروا علي لكي يجعلوا مني نكتة يضحكون عليها، وقد اختاروني، ولا شك، لأنها كانت رحلتي البكر، وهي حقيقة ربما كنت كشفتها لإدوفيجيس ريفوجيو ـ نعم، لأنني، وأنا أفكر بذلك، أشعر بأنني متأكد أنني كشفتها لها. والظاهر أن السفر جواً لم يكن منعشاً تقريباً

كما قالت إدوفيجيس، فأولئك الذين حكم عليهم بقضاء ساعات طويلة متغيرة في الجو، يتعين عليهم أن يضفوا شيئاً من البهجة على حياتهم، شيئاً من الإثارة الجنسية، وذلك باللعب على ناس أغرار مثلي. حسن، حظ حسن لهم! لقد علموني درساً يتعلق بإبقاء قدمي على الأرض، ثم بالنهاية، وانطلاقاً من حالتي كهرِم متداعٍ، فإن تقدمتي الجنسية يمكن تصنيفها على أنها عمل خيري إيجابي تماماً.

خرجت من الطائرة الثانية إلى ضياء الشمس المتألق والحر الشديد ـ لكن ليس ذلك «الحر العفن»، الثقيل والرطب، الذي أعرفه في مدينتي، بل هو حر جاف خفيف، كان التنفس فيه أسهل بكثير على رئتي المخرّبتين المحطمتين. رأيت أشجار ميموزا مزهرة وتلالاً مغطاة ببساتين الزيتون، لكن شعور الغربة لم يتركني. إذ بدوت، وكأنني لم أصل تماماً، أو لم أصل كلي، أو ربما المكان الذي نزلت فيه لم يكن المكان الصحيح ـ تقريباً، لكن ليس تماماً. فقد شعرت بأنني دائخ أطرش، هرم. عن بعد كانت ثمة كلاب تنبح، وكان في رأسي صداع. كنت ألبس معطفاً جلدياً كبيراً وكنت أتصبب عرقاً، فقد كان علي أن أشرب بعض الماء أثناء الرحلة.

«عطلة؟» سألني رجل ببذلة رسمية، عندما جاء دوري.

«نعم»

«ماذا ستشاهد؟ وأنت هنا يجب أن تذهب لمشاهدة آثارنا العظيمة».

«آمل أن أشاهد بعض لوحات رسمتها أمي»

«ذلك أمل مفاجئ. أليس لديك صور كثيرة لأمك في وطنك؟»

«ليس صوراً لأمي بل لوحات من رسمها».

«لا أفهم. أين أمك؟ أهي هنا؟ في هذا المكان أم في مكان آخر؟ هل تزور أقرباء؟»

«هي ميتة. كذلك كنا قد اختلفنا، وهي الآن ميتة».

«موت الأم شيء رهيب. رهيب. والآن تأمل أن تجدها في بلد أجنبي أمر غير مألوف. ربما لن يتوفر لك وقت للسياحة».

«لا، ربما لا».

«يجب أن توفر الوقت. يجب أن ترى معالم بلدنا العظيمة. بشكل محدد! إنه ضروري أتفهم؟»

«نعم أفهم».

«ما هذا الكلب؟ ولماذا هذا الكلب؟»

«إنه رئيس وزراء الهند السابق. تحول إلى هيئة كلب».

«لا عليك».

لم أكن أتكلم الإسبانية، لذلك لم أكن قادراً أن أتفاهم مع سائقي سيارات الأجرة. «بنينغيلي» قلت. فهز السائق الأول رأسه، ومضى بعيداً، باصقاً بغزارة. الثاني نطق برقم لم يكن له أي معنى لدي. إذ كنت قد جئت إلى مكان لا أعرف فيه أسماء الأشياء أو دوافع أعمال الناس. الكون عبث. وليس باستطاعتي أن أقول «كلب» أو «أين» أو «أنا إنسان»، إضافة إلى أن رأسي كان سميكاً مثل حساء.

«بنينغيلي»، كررت، ملقياً حقيبتي في مؤخرة سيارة الأجرة الثالثة، ثم تبعتها وجواهرلال تحت ذراعي. كشر السائق مبتسماً ابتسامة كشفت عن أسنان ذهبية رائعة. لكن أسنانه تلك لم تكن مصنوعة من الذهب بل مبرودة على شكل مثلثات تهدد بالخطر. إلا أنه بدا من نوع بهيج كفاية. إذ أشار إلى نفسه قائلاً: «فيفار» ثم أشار إلى الجبال «بنينغيلي» فإلى سيارته. «حسن يا رفيق. سنسير ذلك الطريق». حينذاك أدركت أننا كلينا مواطنان في هذا العالم. لغتنا المشتركة هي حطام اللغة المستخدمة في الأفلام الأمريكية المخيفة.

تقع قرية بنينغيلي في «البوجرس»، وهي أحد رؤوس سلسلة مورينا الجبلية التي تفصل الأندلس عن اللامنشا. بينما كنا نتسلق تلك التلال رأيت الكثير من الكلاب تقطع الطريق عابرة ـ بعدئذ علمت أن الأجانب الذين يقيمون هنا فترة من الزمن، مع عائلاتهم وحيواناتهم المدللة، يرحلون، وفق طراز حياتهم المتقلب السريع، تاركين كلابهم لمصيرها. لذا كانت المنطقة ملأى بالكلاب الأندلسية، خائبة الأمل والميتة جوعاً. حين سمعت ذلك، بدأت أشير لها وإلى جواهر لال، قائلاً له: «فكر بنفسك كم أنت محظوظ، هنا فقط من أجل النعمة».

دخلنا بلدة أفيلاندا الصغيرة، والمشهورة بحلقات مصارعة الثيران التي يعود عمرها إلى ثلاثمائة سنة، فأسرع فيفان السائق بسيارته، ثم فسر ذلك قائلاً «بلد لصوص». «طب سيء». البلدة التالية كانت إيراسمو، وهي قرية أصغر من أفيلاندا، لكنها أساسية تماماً، بحيث تفخر ببناء مدرسة كبيرة الحجم نقش على بابها كلمتا ليكتورا ـ لوكورا. سألت السائق إن كان بإمكانه ترجمة الكلمتين فوجد، بعد شيء من تردد الكلمات التالية: «ليكتورا، قراءة، قراءة ليكتورا».

«ولوكورا؟»

«هي الجنون، يا رفيق».

امرأة تعصب رأسها بمنديل أسود، بصبصت إلينا بشيء من شك وسيارتنا تخبط في شوارع إيراسمو المحجرة. نوع من اجتماع عاطفي كان يجري تحت شجرة وارفة في الساحة. شعارات ورايات منتشرة في كل مكان، فنسجت عدة شعارات منها، مفترضاً أنها شعارات سياسية، لكن تبين أنها كلام غير عادي، أبعد بكثير. «الناس بالضرورة مجانين، إلى حد أنه سيكون من الجنون ألا يكون المرء نفسه مجنوناً». قالت إحدى اللافتات. لافتة أخرى كانت تعلن: «كل شيء في الحياة متنوع جداً،

معاكس جداً وغامض جداً، إلى حد لا يمكن معه أن نكون متأكدين من أية حقيقة». وثالثة قالت بكل بساطة: «كل شيء ممكن». إذ بدا أن صف فلسفة من جامعة قريبة هو الذي جاء بفكرة الاجتماع في هذه القرية، بسبب اسمها لمناقشة الأفكار الريبية الجذرية لبليز باسكال، المادح السخيف القديم نفسه لإيراسموس ولمارسيليو فيسينو. حماسة الفلاسفة وحميتهم كانت شديدة إلى حد أنها جمعت حشوداً. فسكان قرية إيراسمو كانوا يستمتعون بالانخراط في هذا الجانب أو ذاك من النقاش ـ نعم. العالم هو ما تكون عليه الحال ـ لا، هو ليس كذلك! ـ أجل، البقرة كانت في الحقل عندما لم ينتبه المرء لذلك ـ لا، أحد ما ترك بكل سهولة الباب مفتوحاً! ـ بند، الشخصية متجانسة، وعلى الناس أن يكونوا مسؤولين عن أعمالهم! ـ العكس، تماماً: فنحن كائنات متناقضة إلى حد أن مفهوم الشخصية ذاته التغى، كف، بعد التفحص الدقيق، عن أن يكون له معنى! ـ الإله موجود! ـ الإله مات ـ وربما المرء مضطر، بالحقيقة، لأن يتكلم بكل ثقة عن أبدية الحقائق الخالدة: عن مطلقية المطلق! ـ حزن جيد، لكن ذلك هو أكثر الأشياء صبيانية، إن تكلمنا بالنسبية طبعاً! ـ أما فيما يخص كيف على السيد المحترم أن يرتب نفسه داخل ثيابه الداخلية، استنتجت السلطات الرئيسية كلها أن عليه أن يرتبها إلى اليسار ـ شيء مضحك! إذ من المعروف جيداً، بالنسبة للفيلسوف الحقيقي، أن اليمين فقط ينفع ـ الطرف الكبير للبيضة هو الأفضل ـ ذلك سخف يا سادة! الطرف الصغير أفضل دائماً! ـ «فوق»، أنا أقول، لكن من الواضح يا سيدي العزيز أن القول الصحيح فقط هو: «تحت» ـ حسن، إذن، «داخل» ـ «خارج»، «خارج» ـ «داخل»...

«ناس مضحكون في هذه البلدة العتيقة»، عبر فيفار عن رأيه، ونحن نغادر البلدة. طبقاً لخارطتي، كانت بنينغيلي هي القرية التالية، لكن عندما تركنا إيراسمو، بدأ الطريق ينحدر على سفح التل بدلاً من أن

يصعد ويستمر على طول، ففهمت من فيفار أنه منذ أيام فرانكو، كانت إيراسمو مع الجمهوريين وبنينغيلي مع الفلانج (حزب فرانكو)، نتيجة ذلك كانت كراهية لا حدود لها قد قامت بين سكان البلدتين، كراهية من العمق بحيث رفضوا شق طريق بين البلدتين. (وحين مات فرانكو، أقام أهل إيراسمو حفلة كبيرة، لكن أهل بنينغيلي أعلنوا الحداد العظيم، باستثناء مجموعة من «الطفيليين» أو «الغرباء» الذين لم يكونوا يعرفون ما حدث حتى إلى أن بدؤوا يتلقون اتصالات هاتفية قلقة من أصدقاء في الخارج).

لذلك، كان علينا أن نسير طريقاً طويلاً، منحدرين على تل إيراسمو ثم صاعدين طريقاً طويلاً على التل الثاني. وفي النقطة التي يلتقي فيها الطريق الآتي من إيراسمو بطريق عام ذي أربعة مجازات وأكثر روعة، كانت هناك ملكية خاصة رائعة مسيجة بأشجار الرمان والياسمين المزهر. كما كانت على البوابة طيور طنانة. وعلى مسافة، كان بإمكانك أن تسمع الصوت البهيج لضربات كرات التنس. فيما كانت لوحة فوق قوس الباب تقول «ملعب بانشو فيالكتادا للتنس».

«ذلك البانشو، أوه» قال فيفار، محركاً إبهامه باتجاه الملعب. «شخصية هامة». إذ كان بانشو هذا، المكسيكي الأصل، واحداً من عظماء مرحلة ما قبل ـ الانفتاح يلعب مع «هود» و«روزوول» و«غونزاليز» في حلقة المؤيدين، لذلك وقع عليه الحظر بعد أحداث «السلام الكبير» التي كان له يد فيها بالتأكيد. لقد كان نوعاً من الشبح المجيد، يحوم على أطراف بريق الشهرة، فيما أناس أصغر منه يحملون المشاعل الكبيرة عالياً. وكان قد مات بسبب سرطان المعدة قبل عدة سنوات.

إذن، هنا كان يلعب، يعلم التنس ـ والكرة الطائرة للسيدات الغنياتِ، فكرت في سري: منطقة انتقالية أخرى، تلك نهاية رحلته العابرة للكوكب، فما تراها ستكون نهاية رحلتي؟

ورغم أنه كان باستطاعتي أن أسمع ضربات كـرات التـنس، إلا أنـه لم يكن بالإمكان رؤية أحد في ساحة الغـضار الحمـراء. لا بـد إذن أن هنـاك ساحات أخرى خارج ساحة رؤيتنا، قررت. «لكن من يدير النادي الآن؟» سألت فيفار، فأومأ برأسه بكل حمية، مبتـسماً ابتـسامته الهائلـة: «نعـم، فيالكتادا طبعاً» أصر الرجل «ابن بانشو، والشيء نفسه».

* * *

حاولت أن أتصور هذا المشهد، كما كان ربمـا، عنـدما كـان أسـلافنا البعيدون هنا، فلم أجد الكثير مما يمكن طرحـه مـن المـشهد ـ الطريـق، الظل الأسود لثور أوزبورني يراقبني مـن عـلٍ، وبعـض أعمـدة الكهربـاء والهاتف، إضافة إلى بعض سيارات «سيت» ومركبات «رينو». بنينغيلي هي شريط من جدران بيضاء وسقوف حمراء، تقع فوقنا على سفح تلتها، بادية كما كانت تبدو قبل تلك القرون كلها. **أنا يهودي من أسبانيا مثل الفيلسوف ابن ميمون،** قلت لنفسي لأرى إن كان للكلمات رنين حقيقي. لكنها بدت جوفاء خاوية. بل إن شبح ابن ميمون سخر مني. **أنا مثل جامع قرطبة الذي صار كنيسة كاثوليكية،** جربت القول. **قطعة من العمارة الشرقية، ألصق في وسطها كاتدرائية باروكية.** فبدا ذلك خطأ، أيضاً.

أنا لا أحد من لا مكان، مثل لا أحد يمت إلى اللا شيء. فبدا ذلك أفضل.

بدا صحيحا. إذ كانت قد أفلتت كذباتي كلها. كنت قد وصـلت إلى مـا هو ضد أورشليم، ليس الوطن بل بعيداً عنه. المكان الذي لا أرتـبط بـه، بل أنفلت منه.

رأيت بيت فاسكو الغريب، بجدرانه الحمراء، يهيمن على عرف التـل فوق البلدة. ولقد أدهشني على نحو خاص برجـه العـالي، العـالي الـذي كان أشبه بشيء خارج من قصة جن، يتوّجه عش عملاق لمالك الحزين، رغم أنني لم أر أياً من تلك الطيور المهيبـة المترفعـة. لا شـك أن فاسـكو رشا مسؤولي التخطيط في البلدة كي يسمحوا له ببناء شيء مـا لا يتماشـى

مع تلك البرودة البيضاء المتدنية للبيوت الأخرى في المنطقة. فالصرح كان عالياً مثله مثل البرج التوأم الذي يزين كنيسة البلدة، كأن فاسكو هيأ نفسه لكي ينافس الإله، وهذا، كما علمت أيضاً جعل له أعداء كثيرين في البلدة. قلت لفيفار، سائق السيارة أن يأخذني إلى «الحمراء الصغيرة». فشق طريقه عبر شوارع القرية الملتفة، التي كانت خالية، ربما لأنه كان وقت القيلولة. لكن الجو كان مليئاً بضجة حركة السير والمشاة ـ صراخ، زمامير، شحطات كوابح. وحول كل منعطف، كنت أتوقع أن أجد حشداً من الناس أو زحمة سيارات أو كليهما. لكن بدا، وبشيء من حسن الحظ، أننا تجنبنا تلك المنطقة من القرية «والحقيقة أننا كنا قد ضعنا. لكن حين مررنا بمشرب ما، هو اللاغوبر نادورا، للمرة الثالثة، قررت أن أدفع أجرة السيارة وأمشي بقية الطريق على قدمي رغم تعبي ورغم الاضطراب المؤلم الذي كان يئز «كذيل ـ نفاثة» في رأسي. انزعج السائق كثيراً لطردي إياه بتلك السرعة وربما، بسبب جهلي بالعملة والعادات المحلية، قد أكون أعطيته أقل مما يستحق».

«عسى أن لا تجد ما تبحث عنه»، صرخ في إثري، بإنكليزية صحيحة، صانعاً بيده اليسرى علامة القرنين فوق رأسه. «عسى أن تظل ضائعاً في هذا الضباب الجحيمي، في هذه القرية الملعونة منذ ألف ليلة وليلة».

دخلت اللاغوبر نادورا كي أسأل عن الاتجاهات. فعيناي، اللتان كانتا قد انحولتا، بسبب اللمعان الحاد، كحد ـ الموسى، والناجم عن انعكاس الضوء على جدران بنينغيلي البيضاء، استغرقتا برهة من الزمن كي تتكيفا مع العتمة داخل المشرب، حيث كان عامل المشرب بمريلته البيضاء يلمِّع كأساً. كما كان هناك بضعة أشكال لرجال مسنين قرب مؤخرة الغرفة العميقة الضيقة. «هل من أحد يتكلم الإنكليزية؟» سألت، فكان الأمر وكأنني لم أتكلم. «عفواً» قلت، وأنا أقترب من عامل المشرب، نظر مباشرة في وجهي ثم أشاح بوجهه. ترى هل أصبحت

مخفياً لا تراني العين؟ لكن لا، من الواضح لا، فلقد كنت ظاهراً تراني العين لذلك السائق سيء المزاج، فيفار، كذلك كانت نقودي. شعرت بشيء من الغضب فمددت جذعي عبر المشرب كي أنقر على ظهر العامل. «منزل السنيور ميراندا» لفظت كلماتي بعناية، «أي طريق إليه؟».

فأطلق الرجل ذو الخصر السميك الذي كان يلبس قميصاً أبيض وصدرية خضراء، وله شعر أسود مسترسل إلى الوراء، نوعاً من الأنة ـ احتقار؟ كسل؟ اشمئزاز؟، ثم خرج من وراء مشربه. وقف عند عتبة الباب ثم أشار. فغدا باستطاعتي، أن أرى أن قبالة مدخل المشرب، ثمة زقاق ضيق يمر بين صفين من البيوت. في نهاية الزقاق، كان هناك الكثير من الناس يتحركون بسرعة ذهاباً وإياباً. لا بد أن ذلك هو الحشد الذي كنت أسمع ضجته. لكن كيف فاتني أن ألاحظ هذا الزقاق من قبل.. لا بد أنني كنت في حالة أسوأ مما كنت قد فكرت.

حملت حقيبتي المتزايدة ثقلاً طوال الوقت، ساحباً جواهرلال من رأسه إلى جانبي ـ لتقرقع دواليبه وتطقطق على حجارة الطريق غير المستوية. ورحت أشق طريقي نازلاً الزقاق الضيق لأجد نفسي في طريق عام أبعد ما يكون عن الإسبانية، شارع «مخصص للمشاة» مليء بأناس غير إسبان ـ أغلبيتهم رجال كبار في السن، مع ذلك يبدون نظيفين بلا أية شائبة، والأقلية شبان، حقراء بصورة محسوبة على طريقة الطبقة الواعية ـ للأزياء ـ ممن لا يهتمون، بكل بساطة، بالقيلولة أو أية عادات محلية أخرى. هذا الطريق العام، كما اكتشفت، كان معروفاً من قبل السكان المحليين باسم شارع «الطفيليين»، على جانبيه تصطف أعداد كبيرة من المحلات الغالية ـ غوتشي، هرمز، أكواسكوتم، كاردن، بالوما بيكاسو ـ وكذلك أماكن ـ أكل تتراوح بين بائعي الفطائر الاسكندينافية وبائعي مأكولات شيكاغو ذات الأعلام المخططة بالشرائط والنجوم. وقفت في وسط حشد يعبر بي في كلا الاتجاهين، متجاهلاً وجودي تماماً على

طريقة أهل المدن أكثر من طريقة أهل الريف. سمعت أناساً يتكلمون الإنكليزية، أمريكيين، فرنسيين، ألماناً، سويديين، دنماركيين، نرويجيين وما يمكن أن يكونوا إما هولانديين أو أفغاناً. لكن هؤلاء لم يكونوا زواراً، إذ لم يكونوا يحملون آلات تصوير، بل كانوا يتصرفون كما يتصرف الإنسان في أرضه. فهذا القسم المسلوخ من بنينغيلي صار لهم. ولم يكن باستطاعتك أن ترى إسبانياً واحداً هناك، ففكرت «لعل هؤلاء الغرباء مغاربة جدد، وأنا واحد منهم، وصلت في النهاية إلى هنا بحثاً عن شيء ما لا يهم أحداً سواي، وقد أبقى هنا إلى أن أموت. لكن ربما في شارع آخر، يخطط السكان المحليون لغزو جديد، ولعل كل ذلك سينتهي، عندما نساق، مثل سابقينا، إلى السفن الراسية في ميناء قادش».

«لاحظ، رغم أن الشارع مزدحم، إلا أن أعين أولئك الذين يزحمونه خاوية». قال صوت عند كتفي. «وقد يكون من الصعب عليك أن تشفق على تلك الأرواح الضائعة، اللابسين أحذية من جلد التمساح وقمصاناً رياضية ذات تماسيح على حلمات أثدائهم، لكن الشفقة هي المطلوبة هنا. اغفر لهم آثامهم، لأن مصاصي ـ الدماء هؤلاء هم في جهنم مسبقاً».

طويلاً، رشيقاً، وسيداً ذا شعر فضي، كان المتكلم، يلبس بذلة كتانية بلون الزبدة وعلى وجهه تعبير ساخر على الدوام. الشيء الأول الذي لاحظته فيه هو لسانه الضخم الذي بدا فمه غير قادر على احتوائه. فهو باستمرار يلحس شفتيه بطريقة ساخرة متشككة. كما كان له عينان زرقاوان لامعتان جميلتان ليستا خاويتين بالتأكيد، بل بدتا مفعمتين بكل شكل من أشكال المعرفة والأذى. «تبدو متعباً» قال لي بشكل رسمي «اسمح لي أن أقدم لك قهوة وعملاً، لا بد أنك ترغب به، هو أن أكون مترجمك ودليلك». اسمه غوتفريد هلسينغ، يتكلم اثنتي عشرة لغة ـ «أوه، الدزينة المألوفة»، قال بكل خفة، وكأن لغاته كانت محاراً ـ لكن على الرغم من أنه كان له سلوك رجل ألماني ذي رفعة، إلا أنني لاحظت أنه تنقصه الموارد الكفيلة بتنظيف اللطخات على بذلته. فقبلت، قبول المتعب، دعوته.

«من الصعب أن تغفر للحياة الوطأة الثقيلة التي تنزل بها الآلات الكبيرة على أرواح أولئك الذين يعيشونها»، قال بغير اهتمام، عندما جلسنا في مقهى تظللنا مظلة، إلى طاولة عليها فناجين قهوة سوداء سادة وكؤوس «فلونادور». «كيف تغفر للعالم جماله الذي يغلف بشاعته فقط، نبله ذاك الذي يستر قسوته فقط، وهمه ذاك المستمر دون فاصل وكما الليل يعقب النهار، إن جاز لنا لقول ـ في حين أن هناك في الحياة الواقعية، سلسلة من التمزقات تنزل برؤوسنا التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها، مثل ضربات فأس الحطاب؟»

«المعذرة، يا سيدي» قلت، مختاراً كلماتي بدقة، كيلا تصدر عني أية إساءة. «أرى أنك رجل تعيش حياة التأمل والتفكير: لكنني أنا واصل لتوي من رحلة طويلة لم تكتمل بعد، وما أحتاجه حالياً لا يسمح لي بترف أكل الدهون...».

مرة ثانية، راودني شعور بأنني غير موجود. إذ تابع هلسينغ بكل بساطة حديثه، دون إبداء أي انطباع بأنه سمع كلمة مما قلت. «هل ترى ذلك الرجل؟» قال، مشيراً إلى شخص عجوز، ذي مظهر إسباني، على غير توقع، يشرب البيرة في مشرب مقابل في الشارع. «لقد سبق له أن كان رئيس بلدية بنينغيلي. لكن، خلال الحرب الأهلية، وقف إلى جانب القضية الجمهورية، جنباً إلى جنب مع أهل إيراسمو ـ هل تعرف إيراسمو؟».

لكنه لم ينتظر جوابي، بل تابع، «بعد أن تم تجميع رجال الحرب أمثاله، من المواطنين البارزين الذين عارضوا فرانكو، في مدرسة إيراسمو، أو في ملعب مصارعة الثيران في أفيلاندا، وأطلقت عليهم النار، قرر هو أن يذهب ويختبئ. وقد كان في منزله مخبأ صغير خلف خزانة ثياب، فقضى هناك أيامه، في الليل، كانت زوجته تغلق مصاريع النوافذ فيخرج. الناس الوحيدون الذين كانوا يعرفون السر هم زوجته، ابنته وأخوه. وكانت زوجته تنزل الطريق كله إلى أسفل التل لتشتري الطعام

بحيث لا يرى الجيران أن ما تشتريه يكفي اثنين. ولم يكن باستطاعتهما أن يمارسا الحب لأنهما كاثوليكيان ورعان، لا يستطيعان استخدام مانع حمل، وعواقب أن تحبل ستكون فتاكة بالنسبة لهما كليهما. ولقد استمرا على هذا المنوال ثلاثين سنة، إلى أن صدر العفو العام».

«ثلاثون سنة في المخبأ» انفجرت صارخاً، وقد أمسكت الحكاية بتلابيبي رغم تعبي. «أي عذاب لا بد أنهما عاشاه!!»

«لا، لم يكن شيئاً بالمقارنة مع ما حدث بعد أن ظهر». قال هلسينغ. «فحينذاك، كانت بلدته الحبيبة «بنينغيلي» قد صارت خزاناً مليئاً بهذا الغوغاء الدولي، بالإضافة إلى ذلك، كان من بقي من جيله من الأحياء ما يزالون من أنصار فرانكو، فرفضوا أن يتكلموا كلمة واحدة مع عدوهم القديم. زوجته ماتت بالإنفلونزا، وأخوه بداء السل، فيما تزوجت ابنته وانتقلت إلى اشبيلية. في النهاية تم اختزال الرجل ليصبح مجرد جالس هنا بين الطفيليين، إذ لم يعد له مكان بين قومه. فكما ترى بات غريباً، بلا جذور أيضاً. وتلك هي الطريقة التي كافأته بها مبادئه».

نجوى هلسينغ لنفسه توقفت فترة وجيزة من الزمن، وهو يعبر عن احتقاره لحكاية رئيس البلدية، فانتهزت وقفته تلك كي أسأله عن الطريق إلى منزل فاسكو ميراندا. نظر إلي، وحيرة واهية في عينيه، كما لو أنه لم يفهم ما قلت. ثم، بهزة خفيفة طاردة من كتفيه، التقط خيط روايته من جديد. ثم تابع: «أنا أيضاً كان لي مكافأة مماثلة. إذ هربت أثناء حكم النازيين من بلدي وقضيت عدداً من السنين متجولاً في أمريكا الجنوبية، مهنتي التصوير. في بوليفيا، ألفت كتاباً يبين مخاطر مناجم الصفيح. في الأرجنتين، صورت إيفا براون ذات مرة في حياتها وأخرى بعد موتها. لكنني لم أعد إلى ألمانيا لأنني شعرت أعمق المشاعر بتلوث ثقافتها، نتيجة ما كان قد حدث هناك، إذ شعرت أن غياب اليهود أحدث ما يشبه الصدع الكبير، رغم أنني لست يهودياً».

«أنا نصف يهودي». قلت بغباء، فلم يعرني هلسينغ أدنى اهتمام.

«أخيراً، في الظروف المالية المختزلة، جئت إلى بنينغيلي، لأنني هنا أستطيع ببساطة تحمل المعيشة براتبي التقاعدي الضئيل. لكن حين سمع الطفيليون بأنني ألماني وأنني كنت في أمريكا الجنوبية، بدؤوا يدعونني بـ«النازي». ذلك هو اسمي عندهم الآن. وهذه هي مكافأتي في الحياة لمعارضتي أفكاراً شريرة معينة، المكافأة التي تعلق حول رقبتي في شيخوختي. لهذا، لم أعد أتحدث مع الطفيليين. لم أعد أكلم أحداً منهم. وأية صدفة نادرة، يا سيدي، أن تكون أنت هنا لكي نتحادث! فالرجال المسنون كانوا ذات مرة فاعلي ـ شر من مرتبة متوسطة في هذه الأرض: بينما رؤساء العصابات، من المرتبة الثانية، مروضو ـ النقابات مرتبة ثالثة، والعنصريون مرتبة رابعة. أما النساء فهن من النمط الذي تثيره الجزمات العسكرية وتخيب آمالهن بظهور الديمقراطية، فيما الشباب تافهون: مدمنون، متسكعون، منتحلون صفات الغير وعاهرات. كلهم موتى، الكبار والصغار، لكن بسبب تقاعدياتهم وما يأتيهم من علاوات، ما يزالون قادرين على الدفع ويأبون أن يستلقوا في قبورهم. لذلك يذرعون هذا الشارع ذهاباً وإياباً، يأكلون، يشربون، ويتقولون الأقاويل عن دقائق حياتهم البغيضة. لاحظ، رجاء، أنك لا ترى مرايا هنا. إذ لو كان هنا مرايا، لما كانت ستعكس صورة أي من هؤلاء الواقعين في الشرك، وحين فهمت أن هذه هي جهنمهم، كما هي جهنمي، تعلمت أن أشعر بالأسى عليهم. هكذا هي بنينغيلي، موطني».

«وميراندا...» كررت بصوت واهٍ، ظاناً أنه سيكون من الأفضل أن لا أخبر هلسينغ بالكثير عن حياتي السليمة أخلاقياً.

«ليس هناك أدنى فرصة بالنسبة إليك لأن تلتقي بالسنيور فاسكو ميراندا، المقيم الأعظم في بلدتنا والأشد هولاً». قال هلسينغ، وهو يبتسم برقة «كنت آمل أن تكون قد فهمت التلميح، لعدم إجابتي على

سؤالك الذي كررته أكثر من مرة، لكن نظراً لأنك لم تفهمه، فإن علي أن أقول لك مباشرة هنا تطارد إوزة برية، ولما كان دون كيشوت سيقول: أنت تبحث عن طيور هذه السنة في أعشاش السنة الماضية. لا أحد يرى ميراندا من الشهر إلى الشهر، ولا حتى خدمه. من فترة قريبة، كانت امرأة تسأل عنه ـ شيء صغير جميل ـ لكنها لم تترك مكاناً ولم تدع أحداً إلا توسلت إليه، لكن يقولون...» فقاطعته:

«أية امرأة؟ منذ متى؟ كيف علمت أنها لم تدخل؟» فأجاب متلمظاً بشفتيه: «مجرد امرأة، أما منذ متى، فليس قبل وقت طويل، قبل فترة فقط ـ وهي لم تدخل لأن أحداً لم يدخل. هل تسمعني؟ يقولون إن كل شيء دخل ذلك البيت صار عفن الرائحة، كل شيء. إنهم يعبئون الساعات لكن الزمن لا يتحرك. فالبرج الكبير أغلق بالقفل والمفتاح منذ سنين، ولا أحد يصعد هناك إلا، ربما، الرجل العجوز المجنون نفسه. كما يقولون إن الغبار في غرف البرج يصل إلى ركبتيك، لأنه لا يسمح للخدم بتنظيفها. كذلك يقولون إن جناحاً بكامله من ذلك القصر الضخم تغزوه شجيرات «الكريوسوت»، الغوبر نادورا، كما يقولون...».

«أنا لا يهمني ما يقولون». صحت، وقد رأيت أنه آن الأوان لأن أتخذ موقفاً أقوى. «لزام علي أن أرى ذلك الرجل. ولسوف أستخدم هاتف المقهى كي أتصل به». «لا تكن غبياً». قال هلسينغ «لقد قطع الهاتف منذ سنين».

* * *

امرأتان اسبانيتان أربعينيتان جميلتان، بمريلتين بيضاوين على ملابس سوداء، ظهرتا بشكل من الأشكال عند مرفقي. «للأسف لم نستطع منع أنفسنا من التنصت لحديثكما،» قالت النادلة الأولى، بإنكليزية ممتازة. «وإن تعذرني لتدخلي، فإنني مضطرة لأن أشير إلى أن هذا النازي مخطئ تماماً. ففاسكو يحتفظ بخطه الهاتفي، مع جهاز مماثل يرد، وبخط برقي أيضاً، وإن كان لا يجيب على ما يرده من رسائل. لكن صاحب المقهى

هنا، وهو دنماركي خسيس الروح يدعى أولي، لا يسمح لضيوف المقهى باستخدام الهاتف لأي سبب».

«ساحرتان! غولتان!» صرخ هلسينغ بغضب مفاجئ. «ينبغي غرس وتد في قلب كل منكما».

«عليك حقاً ألا تقضي أي وقت بعد، مع هذا الرجل الوضيع القميء». قالت النادلة الثانية التي كانت لغتها الإنكليزية أنقى حتى من رفيقتها، والتي كانت سيماؤها أكثر صفاء بقليل أيضاً. «الجميع هنا يعرفونه. إنه متعصب بغيض يلف ويدور، فاشيّ طوال حياته، يدعي الآن أنه ضد الفاشية، كما أنه يتحرش بالنساء اللواتي يرفضنه دائماً، ثم يكيل لهن السباب والإهانات في كل فرصة تتاح له بعد ذلك. ولا شك أنه سيلفق كل أنواع الحكايات عن نفسه وعن قريتنا الجميلة. وإن شئت، يمكنك أن تأتي معنا، إذ أننا أنهينا خدمتنا للتو وبإمكاننا أن نصحح الانطباع الخاطئ الذي تركه لديك. ذلك أن كثيراً من المتعصبين، للأسف، يقيمون في بنينغيلي، ويلفلفون أنفسهم بالكذب وكأنه شال شتاء».

«اسمي فليسيتاس لاريوس، وهذه نصف ـ أختي رنيغادا» قالت النادلة الأولى. «وإذا كنت تسعى لرؤية فاسكو ميراندا، فعليك أن تعرف أننا مدبرتا منزله، منذ أن جاء إلى البلدة. نحن، بالحقيقة، لا نخدم الطاولات في مشرب «أولي» هذا، بل اليوم، قمنا بهذا العمل كمعروف، لأن نادلاته النظاميات مريضات. ولا أحد يمكنه أن يخبرك عن فاسكو ميراندا أكثر منا».

«خنزيرتان! بنتا آوى!» صرخ هلسينغ من جديد. «إنهما تأخذانك لكي تركبهما فقط، كما تعلم. فهما تعملان هنا من أجل البخشيش، منذ سنوات، ينحنين ويكشطن، يغسلن ويكنسن، والمالك، بالمناسبة، ليس دنماركياً، بل قائد زورق متقاعد من الدانوب، يدعى أولي».

لكنني كنت اكتفيت من هلسينغ. كما كانت المرأتان قد خلعتا مريلتيهما، ووضعتاهما في سلتي قش كبيرتين تحملانهما، ثم همتا بكل بساطة بالمغادرة. نهضت ثم قدمت اعتذاراتي. «هل كل ما قمت به من عمل تجاهك لا يساوي شيئاً؟» قال الشخص الرديء «لقد عملت دليلاً لديك، وهذا جزائي؟».

«لا تعطه شيئاً» نصحتني رنيغادا لاريوس. «إنه يحاول دائماً أن يبتز الغرباء ويأخذ نقودهم، مثل أي شحاذ في الطريق». فقلت وأنا أضع ورقة نقدية على الطاولة «سأدفع قيمة المشروبات على الأقل».

«سوف تمضغان قلبك وتحبسان روحك في زجاجة من بللور» حذرني هلسينغ بكل وحشية. «لا تقل إنني لم أحذرك. فاسكو ميراندا روح شريرة، وهاتان أليفتاه. فحذار! لقد رأيتهما تتحولان إلى وطواطين...».

ورغم أنه كان يتكلم بصوت عالٍ، إلا أن أحداً في ذلك الشارع المزدحم لم يوله أدنى اهتمام. «لقد اعتدنا عليه هنا». قالت فليسيتاس. «لذا نتركه يهذر، ثم نمضي إلى الرصيف الآخر. وغالباً ما يعمد رئيس الحرس المدني، سلفادور مدينه، إلى حبسه طوال الليل، لتبريده وتهدئته».

***

هنا لا بد أن أعترف أن جواهرلال، الكلب المحشوّ كان قد رأى أفضل أوقاته، فمنذ أن بدأت جره على دواليبه في كل مكان، فقد معظم إحدى أذنيه، كما فقد اثنتين من أسنانه. مع ذلك، فإن رنيغادا ذات القوام الألطف بين صاحبتيّ الجديدتين، أفرطت في الثناء عليه، كما كانت تجد طرقاً للمسي غالباً على الذراع أو الكتف، مؤكدة بذلك عواطفها. غير أن فليسيتاس حافظت على هدوئها، إنما كان لدي انطباع بأنها لا توافق على تلك اللحظات من التماس الجسدي.

دخلنا منزلاً صغيراً من طابقين في شارع شديد الانحدار، يحمل اسم شارع المرايا رغم أن الأبنية القائمة على جانبيه كانت أكثر تواضعاً من أن تتباهى بالشرفات ذات المرايا التي من غير المحتمل أن يكون قد أخذ اسمه منها. مع ذلك، كانت لوحة الشارع (المكتوبة بأحرف بيضاء على أرضية فخمة زرقاء) بقيت لا تدل على التوبة والندامة. بل كانت دليلاً أبعد على أن بنينغيلي كانت مكاناً للحالمين وللأسرار أيضاً. ففي البعد، في أعلى ذلك الطريق، كان باستطاعتي أن أتبين الهيكل العام لنافورة كبيرة كريهة. «إنها ساحة الفيلة». قالت رنيغادا، بكل ود. «البوابة الرئيسية لمقر ميراندا فوق، هناك».

«لكن لا فائدة من قرع الباب أو رن الجرس، إذ لا أحد سيرد»، تدخلت فليسيتاس، بشيء من العبوس المغتم. «سيكون من الأفضل أن تدخل هنا وتستريح. إن لك مظهر المتعب، واعذرني، مظهر رجل ليس على ما يرام».

«من فضلك»، قالت رنيغادا، «اخلع حذاءك» لكنني لم أفهم الغاية من هذا الطلب ذي الصبغة الدينية نوعاً ما، غير أنني أذعنت، فقادتني إلى غرفة صغيرة، أرضها، سقفها، جدرانها، كلها مغطاة بالسيراميك، حيث رسمت عليه باللون الأزرق الكثير من المشاهد الدقيقة. «ما من بلاطتين تتشابهان» قالت رنيغادا بافتخار. «كما يقال إنها كل ما بقي من كنيس يهودي قديم كان في بنينغيلي، تم تدميره بعد طرد اليهود النهائي. كذلك يقال إن لديها المقدرة لأن تريك المستقبل، إن كان لديك عينان تريانه».

«كلام حشو، هراء»، ضحكت فليسيتاس، التي كانت أثخن بنية وأخشن مظهراً من الاثنتين، مع غمازة كبيرة تعيسة في ذقنها، كما كانت أيضاً أقل رومانسية. «البلاطات رخيصة وليست قديمة على الإطلاق. هذا الأزرق الهولندي كان قيد الاستعمال محلياً منذ زمن طويل، أما بالنسبة للإخبار ـ بالحظ، فذلك مجرد كلام نفاية، هراء. لذلك كفي عن هذرك عزيزتي رنيغادا، ودعي الرجل المتعب يرتاح».

لم أكن بحاجة لدعوة أخرى لكي أرتاح ـ فالأرق، حتى في أسوأ الأوقات، لم يكن مشكلتي قط ـ لذلك ألقيت بنفسي وأنا بكامل ثيابي على السرير الضيق في الغرفة ذات البلاط. وفي الثواني التي سبقت نومي، وقعت عيناي على بلاطة معينة قرب رأسي، رأيت فيها صورة أمي وهي تحدق إلي، مبتسمة لي ابتسامة أنيقة، فناداني الدوار وسرعان ما فقدت وعيي.

حين أفقت كانت ثيابي قد نزعت عني، فيما انزلق قميص نوم طويل على جسمي. تحت قميص النوم هذا كنت عارياً تماماً. مدبرتا البيت زوج جريء، فكرت، لكن كم تراني كنت مستغرقاً في نومي!! ــ بعد لحظة تذكرت أعجوبة البلاطة، لكن حاولت قدر المستطاع فلم أجد شيئاً يشابه حتى من بعيد الصورة التي كنت متأكداً أنني رأيتها قبل أن أغفو. «العقل يقوم بحيل غريبة عندما يغوص باتجاه النوم». ذكّرت نفسي وخرجت من السرير. كان الوقت نهاراً، ومن الغرفة الرئيسية للبيت الصغير كانت تأتي رائحة نفاذة لا تقاوم لحساء العدس، كما كانت فليسيتاس ورنيغادا على الطاولة، فيما كان هناك مكان ثالث وضعت عليه من قبل زبدية كبيرة ينطلق منها البخار. جلست فراحتا تراقبانني بسرور وأنا أبتلع الملعقة تلو الملعقة من الحساء.

«كم ظللت نائماً؟» سألتهما، فنظرت كل منهما نظرة سريعة.

«يوماً كاملاً»، قالت رنيغادا، «الآن نهار جديد».

«هراء». خالفتها فليسيتاس. «أنت لم تنم إلا بضع ساعات. نحن مازلنا في اليوم نفسه». «نصف ـ أختي تشاكسك» قالت رنيغادا. «أنا فعلاً، لم أرد أن أصدمك. وذلك هو السبب لماذا خفضت مقدار الزمن. الحقيقة أنك نمت طوال ثمان وأربعين ساعة على الأقل».

«بل الأصح ثمان وأربعون طرفة عين». قالت فليسيتاس، «رنيغادا، لا تربكي الرجل المسكين».

«لقد غسلنا وكوينا ثيابك»، قالت رنيغادا، مغيرة الموضوع. «آمل ألا يزعجك ذلك!».

لم تكن آثار الرحلة قد انتهت بعد، حتى بعد أن ارتحت. فإن كنت حقاً قد دخلت يومي الثاني بعد الرحلة، لا بد أن يكون فقدان اتجاه معين متوقعاً. لذا وجهت أفكاري في الحال إلى الشغل.

«يا سيدتيَّ، أنا شديد الامتنان لكما» قلت بكل أدب. «لكن الآن علي أن أطلب منكما نصيحة ملحة. فاسكو ميراندا صديق قديم للعائلة، وأنا بحاجة لرؤيته في قضية عائلية مهمة، فاسمحا لي أن أقدم نفسي، موريس الزغبي، من بومباي، الهند، في خدمتكما». في الحال شهقتا. «الزغبي!» غمغمت فليسيتاس، هازة رأسها وكأنها غير مصدقة. «أنا لم أفكر البتة بأن أسمع من شفتي إنسان آخر ذلك الاسم الكريه الكريه»، قالت رنيغادا لاريوس، وقد تلون وجهها على نحو يتلامع، وهي تتكلم.

وكانت تلك هي القصة التي حاولت أن أغريهما بروايتها لي.

عندما جاء فاسكو ميراندا أول مرة إلى بنينغيلي كرسام ذي شهرة عالمية، عرضت نصفا ـ الأختين (وكانتا في ذلك الوقت في منتصف عشريناتهما) خدماتهما عليه، فاستخدمهما في الحال. «ولقد قال إنه سر كثيراً لتمكننا من الإنكليزية ولمهاراتنا في الأعمال المنزلية، لكنه سر أكثر لشجرة عائلتنا». قالت رنيغادا بشكل مفاجئ. «فوالدنا جوان لاريوس كان بحاراً وأم فليسيتاس كانت مغربية، بينما أمي أنا من فلسطين. لذلك، فليستاس نصف عربية، وأنا، من جهة أمي، نصف يهودية».

«إذن، لدينا أنا وأنت شيء مشترك بيننا». قلت لها «لأنني أنا أيضاً، لدي خمسون بالمئة في ذلك الاتجاه». فبدت رنيغادا مسرورة على نحو غير عادي. كان فاسكو قد قال لهما إنهم سيجددون في «حمرائه الصغيرة» الثقافة المتعددة الخرافية للأندلس القديمة، وإنهم سيكونون أشبه بعائلة بدلاً من سيد وخادمتين.

«لقد ظننا أنه شبه معتوه بالطبع،» قالت فليستاس «لكن الفنانين كلهم كذلك، أليس الأمر هكذا؟ إلا أن ما عرضه علينا من نقود كان فوق المعدل». فأومأت رنيغادا برأسها موافقة. «على أي حال، كان الأمر نوعاً من حلم يقظة، مجرد كلام. فقد كنا دائماً رئيساً وخدماً في تعاملنا. بعدئذ صار مجنوناً أكثر وأكثر، يلبس على غرار سلطان في الأزمنة القديمة، ويتصرف على نحو أسوأ من أي حاكم مستبد مطلق الصلاحية من أولئك المغاربة الكفار».

حينذاك كانتا تذهبان كل صباح تنظفان المكان على أفضل نحو. أما الجنيناتية فقد طردوا، والحديقة التي كانت تروى والتي كانت صورة مصغرة عن «جنة العريف» الأشبه بالجوهرة، والمشهورة أيام زمان، ماتت تقريباً. الطباخون ومعاونوهم طردوا أيضاً منذ زمن طويل، فيما جعل فاسكو المرأتين لاريوس تتبضعان حاجيات البيت: «جبن، نقانق، خمر، كعك». قالت فليسيتاس «ولا أظن أن كثيراً من البيض استهلك في ذلك البيت، هذا العام».

ثم، منذ الإهانة التي وجهها له سلفادور مدينه قبل ما يزيد عن خمس سنوات، انسحب فاسكو واعتزل الناس. إذ يمضي أيامه حابساً نفسه في شقته في البرج العالي التي لا يسمح لهما بالدخول إليها تحت طائلة الطرد الفوري. وقد قالت رنيغادا إنها رأت زوجاً من اللوحات في مشغله، عملين من أعمال الكفر، حيث حل يهوذا محل المسيح على الصليب، لكن، لوحتا «المسيح ـ يهوذا» هاتان ظلتا هنا أشهراً، نصف منتهيتين، ومهجورتين على ما يظهر. إذ لم يبدُ أنه كان يعمل بأية لوحة أخرى. ولم يعد يسافر كما كان يفعل من قبل، لكي يرسم جداريات في قاعات السفر في المطارات وردهات الفنادق في العالم. «لقد اشترى مقداراً كبيراً من معدات ذات تقنية عالية،» أسرت لي «آلات تسجيل، ثم أداة من تلك الأدوات الخاصة بالأشعة السينية. إنه، بآلات التسجيل،

يصنع أشرطة غريبة، كلها سحق، دق، صراخ وخبط. ثم يشغلها بأعلى صوت في برجه ويخيف طيور مالك الحزين مبعداً إياها عن أعشاشها» «وجهاز الأشعة السينية؟» «ذلك لا أعرف شيئاً عنه. ربما سيصنع فناً من تلك الصور التي يراها من خلالها».

«ليس ذلك بالأمر السليم». قالت فليسيتاس «فهو لا يرى أحداً، لا يرى أحداً» ومنذ أكثر من سنة، لم تكن فليسيتاس ولا رنيغادا قد رأتا رب عملهما. لكن أحياناً في الليالي القمراء، كان من الممكن رؤيته من القرية لابساً عباءته، وهو يمشي على الأسوار العالية لمنزله، مثل شبح بدين بطيء الحركة.

«وماذا عن» اسمي الكريه «؟» سألت.

«ثمة امرأة»، قالت رنيغادا أخيراً. «المعذرة، ربما هي خالتك؟»

«بل هي أمي،» قلت، «رسامة، والآن، توفيت».

«عليها الرحمة،» تدخلت فليسيتاس

«فاسكو ميراندا حاد جداً تجاه هذه المرأة»، قالت رنيغادا بنوع من الاندفاع، كما لو أنها كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنها أن تجعل نفسها تتحدث عن الموضوع. «أظن أنه كان يحبها كثيراً جداً، أليس كذلك؟»

فلم أقل شيئاً.

«أنا آسفة، أرى أن الأمر صعب عليك، شيء صعب، ابن، أم، فأنت لا يمكنك أن تفضحها، لكنني أظن أنه كان... كان.. كان.».

«عشيقها»، قالت فليسيتاس بفجاجة فاحمرت رنيغادا.

«أنا آسفة إن كنت لا تعرف ذلك» قالت، واضعة يدها على ذراعي اليسرى.

«من فضلك، تابعي،» كان جوابي.

«بعدئذ قست عليه، ثم طردته بعيداً. منذئذ، نما داخله نوع من الكراهية، رأيتها تزداد، وتزداد حتى تملكته تماماً».

«ليس ذلك بالشيء السليم». قالت فليسيتاس مرة ثانية. «فالكراهية تحرق الروح». «والآن، أنت» قالت رنيغادا «أظن أنه لن يوافق على مقابلة ابن أمك. كما أعتقد أن الاسم الذي تحمله، سيكون أكثر بكثير من أن يستطيع تحمله».

«لقد رسم صور حيوانات وأبطال خارقين على جدار غرفتي، وأنا طفل». قلت «وعليه أن يراني. سوف يراني».

نظرت فليسيتاس ورنيغادا واحدتهما إلى الأخرى مرة ثانية، نظرة العارفتين، فتخليت عن النظر، قائلاً:

«يا سيدتيَّ، أنا أيضاً، لدي قصة أحكيها لكما».

* * *

«منذ حين من الزمن جاءت رزمة»، قالت رنيغادا حين أنهيت قصتي، «أو ربما هي لوحة. لا أدري. ربما هي اللوحة التي تقع لوحة أمك تحتها. لقد أخذها إلى البرج فوق، لكن أربع لوحات كبيرة؟ لا»، لا شيء من هذا القبيل حدث:

فقلت: «ذلك حدث منذ فترة قريبة جداً، السرقة حديثة جداً. يجب أن تراقبا من أجلي. فكما هي الأمور، وكما فهمت الآن، لست في عجلة لأن أقدم نفسي وأذهب إليه. ذلك سيخيفه، فيبعد اللوحات من هنا. لذلك عليكما أن تراقبا، رجاء، وعلي أنا أن أنتظر».

«إن رغبت أن تسكن في هذا البيت». قالت فليسيتاس، «يمكننا أن نتوصل إلى ترتيب ما إن ترغب». وهو ما أشاحت رنيغادا ببصرها بعيداً عند سماعه.

«لقد جئت في رحلة حج عظيم»، قالت دون أن تلتفت بوجهها. «ابن يبحث عن كنوز أمه المفقودة. يبحث عن الشفاء والسلام. وواجبنا، كنساء، أن نساعد رجلاً كهذا في إيجاد ما يبحث عنه».

وهكذا، طوال شهر ونيف بقيت في منزلهما، خلال هذه الفترة كنت موضع رعاية شديدة واستمتعت بصحبتهما. لكنني لم أعرف إلا القليل القليل عن حياتهما. فوالدة كل منهما كانت ميتة، لكنهما لم تكونا ميالتين للحديث في الأمر، لذلك تركته طبعاً، دون أن أثيره. وعلى ما يظهر لم يكن لهما أخوة ولا أصدقاء. كذلك لم يكن هناك عشاق. مع ذلك كانتا تبدوان سعيدتين تماماً، ولا تنفصلان أبداً. إذ كانتا تغادران للعمل في الصباح تمسك واحدتهما بيد الأخرى، ثم تعودان معاً في الحالة نفسها أيضاً. كما كانت هناك أيام وأنا في وحدتي أشعر بما يشبه الرغبة برنيغادا تتشكل لدي، لكن دون أن تحدث مناسبة واحدة أنفرد فيها معها، لذلك كنت غير قادر على دفع الأمور أبعد، فكل ليلة، بعد العشاء، كانت نصفا ـ الأختين تصعدان إلى الطابق العلوي، إلى السرير الذي كانتا تتشاركان فيه وكنت أسمع غمغماتهما وحركات جسديهما التي تستمر إلى وقت متأخر من الليل، مع ذلك كانتا دائماً تنهضان قبل أن أتحرك من فراشي.

أخيراً تملكني الفضول تماماً، فسألتهما عند العشاء لماذا لم تتزوجا. «لأن كل الرجال في هذه الأنحاء موتى من رقابهم وما فوق». ردت رنيغادا بجواب كطلقة النار، ناظرة إلى أختها نظرة عنيفة. «ومن الرقبة وما دون أيضاً».

فقالت فليسيتاس «نصف ـ أختي خيالية جداً، كالعادة. لكن الصحيح أننا لسنا مثل الناس الذين هم حولنا، لا أحد من عائلتنا كان موجوداً. الآخرون موتى الآن ولا نرغب في أن تخسر واحدتنا الأخرى من أجل زوج. علاقتنا علاقة وثيقة. فكما ترى، مواقفنا لا يمكن فهمها بسهولة من قبل معظم الناس في بنينغيلي. مثال على ذلك، نحن سعيدتان بانتهاء نظام فرانكو وعودة الديمقراطية. كذلك، إن تكلمنا بصورة شخصية أكثر، نحن لا نحب التدخين

ولا الأطفال. والكل هنا يجن بهما كليهما. المدخنون يمضون باتجاه المباهج الاجتماعية وينفقون النقود من جيوبهم لكي يحصلوا على متعة حسية حميمية ما، مثل إشعال سيجارة صديق، لكننا نحن الاثنتين نكره الاستيقاظ وتلك الرائحة عالقة بثيابنا. أو نذهب إلى النوم ورائحة الدخان الكريهة عالقة بشعرنا. أما بالنسبة للأطفال، فيفترض أن تفكر بأنك لا تستطيع أن يكون لديك الكثير منهم، لكن، نحن ليس لدينا أية رغبة في أن نقع في أشراك أطفال ينطون ويزعقون مثل سجانين صغار. وإذا أمكنني القول، نحن نحب كلبك على نحو خاص لأنه محشو، ولذلك لا يحتاج لأية عناية منا».

«لكنكما رعيتماني خير رعاية،» ناقشت.

«هذا شغل». تدخلت فليسيتاس، «وأنت ضيف تدفع».

«بالتأكيد، لكن لا بد أن يكون هناك رجال يحبونكما لذاتكما دون أن يرغبا بتأسيس عائلات» تابعت بكثير من الإصرار. «وإذا كان رجال بنينغيلي يتبعون سياسة خاطئة، لماذا لم تذهبا إلى إيراسمو، مثلاً؟ فقد سمعت أنهم مختلفون عن الناس هنا».

«بما أنك تقدمت كثيراً، طالباً جواباً» أجابت فليسيتاس. «أقول لك إنني لم ألتق برجل يمكنه أن يراني امرأة بذاتها. أما بالنسبة لإيراسمو، فليس هناك طريق إليها من هنا».

تلك اللحظة، لقطت تعبيراً غريباً في عين رنيغادا. ربما هي لا توافق على كل ما قالته نصف ـ أختها. بعد ذلك الحديث، سمحت لنفسي أن أتصور، خلال ليالي وحدتي أن الباب قد ينفتح في أية لحظة وتنزلق رنيغادا داخل سريري المفرد، عارية بلا أي لباس تحت قميص نومها الطويل... لكن ذلك لم يحدث البتة. فكنت أستلقي بمفردي، أستمع للحركات والغمغمات التي كانت تجري فوق رأسي الأرق تماماً.

* * *

خلال شهر انتظاري ذاك، كنت أتجول في شوارع بنينغيلي ـ أحياناً وأنا أجر جواهرلال خلفي، لكن أكثر الأحيان بمفردي ـ وأنا في قبضة ضجر قارص جعل من المستحيل بالنسبة إلي أن أستقر على الماضي. فكنت أتساءل إن صارت نظرتي مثل نظرة العين الخاوية ذاتها، تلك التي يتميز بها الكثيرون ممن يدعون بالطفيليين الذين كانوا، على ما يبدو، يقضون أيامهم، وهم يتزاحمون صاعدين نازلين «شارعهم»، يشترون الملابس، يرتادون المطاعم، يشربون في المشارب، ويتكلمون بغضب طوال الوقت، بنوع من الغياب الغريب لحسن السلوك الذي يوحي بلا مبالاتهم التامة تجاه مواضيع أحاديثهم. مع ذلك، كانت بنينغيلي قادرة على ما يبدو، على حبك سحرها على أولئك الذين لم يكونوا معتمي الأعين، إذ حيثما صدف ومررت بصاحب اللعاب السائل العجوز غوتفريد هلسينغ، كانت عيناه تبرقان وهو ينظر إلي، ثم يلوح لي بيده محيياً ويصرخ مع غمزة العارف.

«حقاً ينبغي أن تكون لنا محادثة أخرى من محادثاتنا الممتازة في وقت قريب!» وكأننا خير صديقين. فخلصت إلى أنني وصلت إلى مكان يأتي إليه الناس كي ينسوا أنفسهم، كي يعيشوا نوعاً من الحلم بما، ربما، كانوا ذات يوم، ولكي يغيبوا بأنفسهم تماماً عما كانوا قد صاروا. بالتالي، هم إما أن يكونوا كذابين، مثل هلسينغ، أو في حالة من الإغماء التخشبي مثل «الطفيلي المكرم» رئيس البلدية السابق الذي كان يجلس بلا حراك على كرسي ثلاثي القوائم عند باب المشرب الخارجي، من الصباح إلى المساء ولا ينبس ببنت شفة، وكأنه مازال مختبئاً في مخبئه، وحيداً مختفياً خلف خزانة خشبية كبيرة في بيت زوجته التي توفيت. فجو الغموض الذي يلف المكان كان جو عدم معرفة، وما بدا أشبه بلغز كان بالحقيقة نوعاً من الخواء. وأولئك الجوالون مقتلعو الجذور كانوا قد صاروا، بمحض اختيارهم، آلات بشرية، بإمكانهم أن يحاكوا الحياة البشرية لكن ليس بإمكانهم أن يعيشوها.

أما السكان المحليون ـ أو هكذا خمنت ـ فقد كانت تربكهم النوعية المخدّرة للبلدة أقل مما يربكهم الطفيليون. لكن المزاج السائد للاغتراب الفارغ وفتور الهمة كان يؤثر فيهم إلى درجة ما. وكان لا بد من سؤال فليسيتاس ورنيغادا ثلاث مرات حول زيارة المرأة الشابة التي ذكرها هلسينغ، والتي كانت تبحث عن فاسكو ميراندا قبل زمن ليس بالطويل. في المناسبتين الأوليين هزتا أكتافهما وذكرتاني بأن هلسينغ لم يكن موضع ثقة، لكن عندما عدت إلى الموضوع، ذات مساء، نظرت إلي رنيغادا رافعة بصرها عما كانت تخيطه ثم انفجرت «أوه، نعم، يا إلهي الآن أنا أفكر بها. امرأة جاءت ـ نمط بوهيمي، نوع من المختصة بالفن من برشلونة، مرممة لوحات أو شيء من هذا القبيل. على أنها لم تتوصل إلى شيء بأساليبها اللعوبة، ولا بد أنها الآن قد عادت إلى كتالونيا حيث تمتّ».

مرة ثانية داهمني شعور طاغٍ بأن فليسيتاس لم توافق على عدم حنكة نصف ـ أختها. فقد حكت غمازتها وبرمت شفتيها، لكن دون أن تقول شيئاً. «إذن هذه المرأة الكتالانية استطاعت أن ترى فاسكو، في النهاية؟» قلت. وقد أثارني التحقق من ذلك. «نحن لم نقل ذلك» تدخلت فليسيتاس بسرعة. «ليس هناك أية أهمية لمناقشة هذا الموضوع أكثر». فلوت رنيغادا رأسها بنوع من الخضوع وعادت إلى شغل إبرتها.

في تجوالاتي، كنت أواجه أحياناً رئيس الحرس الذي يتعرق بغزارة، سلفادور مدينه، والذي كان يعبس في وجهي باستمرار، ويبعد قبعته لكي يحك شعره المنتقع بالعرق، وكأنه يحاول أن يتذكر أي شيطان يمكن أن أكون. لم نتبادل كلمة واحدة معاً، جزئياً لأن إسبانيتي كانت ما تزال ضعيفة، رغم أنها كانت تتحسن ببطء، سواء من خلال الدراسة الليلية للكتب أو من خلال الدروس اليومية التي كانت تعطيني إياها الأختان لاريوس مقابل زيادة في فاتورتي الأسبوعية التي أدفعها لقاء الطعام والسكن، والشكر كله لهما، وجزئياً لأن اللغة الإنكليزية كانت قد غابت

عن كل محاولات سلفادور مدينه الإمساك بها، مثل مجرم ذي مكانة يبقى دائماً على مسافة خطوتين أمام القانون.

لكن كان يسعدني أن مدينه لم يكن معنياً كثيراً بي إلى حد أنه كان على استعداد لأن ينساني مباشرة، لأن السلطات الهندية، كما بدا الأمر، لم تعبر عن أي اهتمام بتحركاتي وتجولاتي. فذكرت نفسي بأنني مؤخراً كنت قد ارتكبت جريمة قتل، لكن فكرت أن الانفجار في منزل ضحيتي نجح بكل وضوح في طمس فعلتي. فالعنف الأشد للقنبلة تم رسمه فوق المشهد الذي شاركت في صنعه واختفى إلى الأبد عن أعين المحققين. إثبات آخر على أنني لم أكن موضع شك، جاء من حساباتي المصرفية، فخلال السنوات التي قضيتها في برج أبي تدبرت أمري وأودعت مبالغ كبيرة في مصارف ما وراء البحار، بما في ذلك حسابات مرقومة في سويسرا (وهكذا ترى أنني لم أكن ذلك الأحمق المغفل الذي كان يظنه «آدم الزغبي»). وعلى حد علمي لم يكن هناك أية محاولة حديثة للتدخل بترتيباتي، على الرغم من أن جوانب كثيرة جداً من «سيوديكورب» المهشمة كانت تخضع للتفتيش، وكثيراً من الحسابات المصرفية وضعت تحت إدارة مستلم رسمي أو حجبت.

مع ذلك، كان أمراً غريباً أن الجريمة ـ جريمة القتل بالنهاية، القتل الأشد سوءاً، والجريمة الوحيدة التي كنت مسؤولاً عنها ـ انزلقت بكثير من السرعة إلى مؤخرة دماغي. ربما كان اللاوعي لدي قد رضي بالمرجعية الكبرى، بواقع القنابل المتفجرة الذي طغى بكل نجاح ومسح لوحي الأخلاقي مسحاً تاماً. ولعل هذا الغياب للشعور بالذنب ـ هذا الإحياء الأخلاقي المعلق ـ كان هبة بنينغيلي إلي.

جسدياً، أيضاً، كنت أشعر وكأنني في حالة خواء، في منطقة بلا زمن، أو ساعة مائية توقف ماؤها عن التدفق. بل حتى الربو كان قد تحسن لدي. فكم كان صدري محظوظاً، فكرت، أن أقيم في منزل، ساكنتاه لا تكرهان

شيئاً كالتدخين، بل هما الوحيدتان اللتان لا تدخنان في البلدة ـ إذ كان صحيحاً أنني في كل مكان أذهب إليه، كان الناس ينفخون دخانهم مثل المجانين. ولكي أتجنب رائحة الدخان الكريهة، كنت أتجول في الشوارع الأشبه بالنقانق، حيث الخبازون، حوانيت القرفة ذات الرائحة اللطيفة وروائح اللحم اللذيذة، المعجنات والخبز الطازج، ثم أسلم نفسي لقوانين البلدة الخفية. إذ كان حداد القرية الذي كان اختصاصه أن يصنع السلاسل والأغلال لسجن أفيلاندا، يومئ لي برأسه كما يومئ لكل المارة ثم ينادي بإنكليزية المنطقة ذات اللكنة الإسبانية الثقيلة «ما تزال تمشي طليقاً، آ؟ ذات يوم ستكون هكذا، هكذا،» يقول ذلك ثم يقعقع بسلاسله الثقيلة وينفجر ضاحكاً. وبما أن إسبانيتي تحسنت، فقد صرت أشرد بعيداً عن شارع الطفيليين. بذلك أخذت بضع لمحات عن الذات الأخرى لبنينغيلي، تلك القرية التي هزمها التاريخ والتي كان الرجال فيها يتمشون ببذلاتهم المتصلبة مع خطيباتهم، وهم متأكدون من عدم إخلاص أولئك العذارى العفيفات، القرية التي كانت حوافر خيل أولئك الفرسان الذين يحبون المنازلة والذين ماتوا منذ زمن طويل تسمع فيها، وهي تعدو منحدرة الشوارع المرصوفة بالحجارة في الليل. كما بدأت أفهم لماذا تقضي فليسيتاس ورنيغادا لياليهما في المنزل، وقد أغلقتا مصاريع نوافذهما، تكلم واحدتهما الأخرى همساً، فيما كنت أدرس الإسبانية في غرفتي الصغيرة المريحة.

***

يوم الأربعاء من أسبوعي الخامس في بنينغيلي، عدت إلى مسكني، بعد مشوار حدث فيه أن قامت امرأة فظة بساق واحدة بدفع كراس إلى يدي غير الراغبة، رخيص الورق والغلاف يعدد الطلبات المضادة للإجهاض. «إنكم لتعانون أيها الأطفال الصغار، وهي الحرب الثورية بالنسبة للمسيحيين الذين لم يولدوا بعد». ثم دعتني إلى اجتماع. التفت إليها مقاتلاً، لكنني تذكرت في الحال الأخت فلورياس، التي صفت إلى جانب المؤيدين للحياة في أكثر

مناطق بومباي ازدحاماً، والتي ذهبت إلى مكان، حالات الحمل غير المرغوبة فيه لم تعد مشكلة على ما يفترض، ميني المتعصبة العذبة، فكرت، آمل أن تكوني سعيدة الآن، كما فكرت أيضاً بمدربي في فن المصارعة الهام، لمباجان شنديوالا ذي الرجل الواحدة أيضاً، وبتوتاه تلك البغاء التي كنت أشمئز منها دائماً، والتي اختفت بعد تفجيرات بومباي، فلم يرها أحد بعد ذلك. وفيما كنت أفكر بالطائر الذي اختفى، سيطر علي شعور هائل بالحنين والحزن، فبدأت أبكي في الشارع، مما ارتعب له العسكري الشاب وأزعجه، فأسرع يبتعد ثم ينضم إلى زملائه في وكرهم.

لذلك، كان المغربي الذي عاد إلى بيت الأختين لاريوس الصغير في شارع المرايا، رجلاً تغير، رجلاً استعاد، بالمصادفة، عالم المشاعر والألم. كما أن العواطف، التي كانت مخدرة منذ زمن طويل، عادت تفيض داخلي مثل مياه طوفان، لكن قبل أن أتمكن من تفسير هذا التطور لسيدتي بيتي، انطلقتا في حديث شديد الحماس، تقاطع واحدتهما الأخرى لعجالتهما في إخباري بأن الرسوم المسروقة وصلت بالحقيقة، كما هو متوقع، إلى «الحمراء الصغيرة».

كانت هناك سيارة «فان» بدأت رنيغادا.

ـ «في عز الليل، مرت تماماً بجانب بابنا ـ» أضافت فليسيتاس».

ـ لذلك لففت رأسي بمنديلي وخرجت أركض.

ـ وأنا ركضت أيضاً.

ـ فرأينا البوابة الكبيرة تنفتح»

ـ وسيارة «الفان» تدخل إلى البيت الكبير.

ـ واليوم في المواقد، هناك مقادير كبيرة من الخشب الرخيص.

ـ مثل خشب التغليف، كما تعلم.

ـ لا بد أنه طوال الليل كان يفكه ويقطعه.

ـ وفي النفايات كان هناك أكوام، من تلك المادة البلاستيكية.

ـ من تلك التي يحب الأطفال أن يجعلوها تفرقع.

ـ لفافة ـ فقاعة، تلك هي.

ـ أجل، لفافة ـ فقاعة، وألواح مطعوجة وأغطية معدنية أيضاً.

ـ كذلك، كان هناك رزم كبيرة في تلك السيارة، وأي شيء آخر يمكنها أن تكون؟

لم يكن ذلك برهاناً ثابتاً، لكنني علمت أن ذلك أقرب ما أتوقع الحصول عليه من يقين، في قرية الشك وعدم اليقين هذه. وللمرة الأولى بدأت بتخيل لقائي مع فاسكو ميراندا. فذات مرة كنت طفلاً يحب أن يجلس عند قدميه، الآن، كلانا كبير في السن، يقاتل من أجل المرأة ذاتها، كما يمكنك القول، والقتال لن يكون أقل حماسة، لأن السيدة قيد السؤال قد ماتت.

لقد آن الأوان للتخطيط من أجل الخطوة الأولى. «إن كان لن يراني، سأضطر لأن أدخل خلسة، لأن تهرِّباني». قلت للأختين لاريوس «وليس باستطاعتي أن أرى طريقة أخرى».

في الصباح التالي وفي وقت مبكر جداً، بينما كانت الشمس ما تزال وراء أعراف الجبال النائية، صحبت رنيغادا لاريوس إلى العمل. فليسيتاس الأثخن عظماً والأكبر حجماً من بين الأختين أعطتني أوسع تنورة سوداء وسترة لديها. وفي قدمي لبست صندلاً مطاطياً لا اسم له جئت به من الناحية الاسبانية من البلدة. ثم حملت على مرفق ذراعي اليمنى سلة تحوي ملابسي، مخفية تحت نسق من مسّاحات الغبار، الاسفنج والبخاخات، كما كانت يدي اليمنى. مثلها مثل رأسي، مخفية تحت منديل أمسكت به يدي اليسرى بإحكام كي تثبته في مكانه. «أنت صورة بائسة لامرأة زائفة،» قالت فليسيتاس لاريوس، وهي تفحصني بعينها النقادة على الدوام. «لكن لحسن الحظ أنه ما يزال هناك عتمة

وليس أمامك مسافة بعيدة لتقطعها. احنِ ظهرك قليلاً وخل خطواتك قصيرة. تباً لك، فنحن نغامر بمعيشتنا من أجلك، وآمل أن تعرف ذلك».

«من أجلِ الأم المتوفاة» صححت رنيغادا نصف ـ أختها. «فكلتانا لدينا أم ميتة أيضاً. ذلك هو السبب لماذا نتفهم قضيتك». «سأترك كلبي في رعايتك،» قلت لفليسيتاس «ليس هناك مشكلة؟».

«أنت على حق تماماً، ليس هناك مشكلة»، قالت مهمهمة «سيذهب مباشرة إلى تلك الخزانة لحظة تخرج من الباب، ولا حاجة بك لأن تتصور انه سيخرج قبل أن تعود. فنحن في هذا البيت أعقل بكثير من أن نخرج في مشوار مع كلب محشو».

ودعت جواهرلال، لأن رحلته ستكون طويلة أيضاً. ويستحق مصيراً أفضل من خزانة مطبخ في بلاد أجنبية. لكن خزانة المطبخ كانت جاهزة بانتظاره وكان علي أن أنطلق لأقدم نفسي لفاسكو ميراندا، فيما أصبح جواهرلال، بالنهاية، كلباً أندلسياً مهجوراً آخر.

* * *

تجربتي الأولى لارتداء ملابس امرأة ذكرتني بقصة إيرس داغاما وهو يلبس ثوب زفاف عروسه وينطلق لقضاء ليلة وحشية بصحبة الأمير هنري، الملاح. لكن، كم كانت هذه الخيوط السوداء لما ألبس أدنى بكثير من ثوب إيرس الخيالي، وكم كنت أقل تناسباً بكثير مع ثياب كهذه! حين انطلقنا، قالت لي رنيغادا لاريوس إن رئيس البلدية السابق للقرية ـ ذلك الشخص نفسه الذي كان يجلس حينذاك، بلا اسم، بلا أصدقاء، وهو يرشف القهوة في شارع الطفيليين ـ أجبر ذات مرة على أن يمشي في تلك الشوارع، وهو يلبس ثياب جدته، لأن بيته، حوالي نهاية أسره، كان مخططاً له أن يهدم وكان على العائلة أن تنتقل منه. لذلك، كان هناك من سبقني محلياً للتنكر بزي النساء.

تلك كانت المرة الأولى التي أنفرد فيها برنيغادا، دون أن تكون فليسيتاس قريبة منا تراقبنا، لكن رغم أنها رمقتني بسلسلة من النظرات ذات المعنى الصريح إلا أنه كان هناك ما يكبحني (سواء أكانت ملابسي النسائية أو العصبية التي كنت أشعر بها لعدم قدرتي على التكهن بما ينتظرني مباشرة) مانعاً إياي من أن أستجيب. وصلنا إلى مدخل الخدم المؤدي إلى «الحمراء الصغيرة» دون أن يلحظنا أحد، على علمي، رغم أنه كان من المستحيل التأكد مما إذا كانت هناك عيون تتلصص، مراقبة من النوافذ المعتمة لشارع المرايا، ونحن نصعده باتجاه نافورة الفيلة البغيضة وغير المتجانسة التي أقامها فاسكو.

فوق جدران البيت الغريب لمحت شيئاً أخضر يطير. «أهناك ببغاوات في إسبانيا؟» همست لرنيغادا، لكنني لم أحصل على جواب. ربما كانت متجهمة لرفضي استغلال تلك الفرصة النادرة ومغازلتها.

مفتاح إلكتروني صغير كان هناك تحت حصيرة بجوار الباب، وضعته رنيغادا في الجدار الطيني الأحمر، ثم ضربت بسرعة سلسلة من أربعة أرقام. فانفتح الباب مباشرة ودخلنا ملاذ ميراندا.

في الحال راودني شعور قوي بأنني «رأيته سابقاً» كما بدأ رأسي يفتل، وحين استعدت توازني قليلاً، دهشت من المهارة التي صاغ بها ميراندا داخل بيته الغريب على غرار رسوم المغربي لأورورا الزغبي. ثم وجدت نفسي أقف في ساحة، داخلها باحة مركزية مرصوفة بالآجر وعلى جوانبها كلها أروقة ذات أقواس، وعبر نوافذ الجانب البعيد، كان باستطاعتي أن أرى سهلاً واسعاً، يلمع تحت ضوء الفجر مثل المحيط. قصر يحيط به سراب البحر، نصف ـ عربي، نصف مغولي، يدين بشيء ما لشيريكو، إنه المكان نفسه الذي صورته لي أورورا ذات مرة باعتباره المكان الذي يصطدم فيه عالمان، يسيل واحدهما إلى الآخر، ويخرج واحدهما من الآخر، غاسلاً إياه تماماً. المكان الذي يمكن لإنسان ـ الهواء أن يغرق في

الماء، أو يصنع لنفسه غلاصم، والذي يمكن لمخلوق الماء أن يسكر، ويختنق أيضاً في الهواء. «فحتى في حالته الراهنة من الخراب الطفيف وتلف حدائقه، وجدته حقاً مورستان، أرض المغربي».

في غرفة تقع بعد الغرفة الخاوية وجدت أطر لوحات أورورا وقد أعيدت إلى الحياة، متوقعاً نصف ـ توقع أن تمشي شخصياتها ثم تروي حكاياتها الحزينة أمام عيني غير المصدقتين، كذلك، متوقعاً نصف توقع أن ينمو جسدي على شكل ذلك المغربي ذي المعينات متعددة الألوان الذي كانت مأساته ـ مأساة التعددية التي دمرتها الفردية، هزيمة الكثيرين على يد فرد واحد ـ نتيجة لمبدأ التوحيد. وربما يمكن ليدي المشوهة أن تتحول، في أية لحظة، إلى زهرة أو ضوء أو لهب! فاسكو، الذي كان دائماً يعتقد بأن أورورا اختلست فكرة لوحات المغربي من لوحته التي رسم فيها فارساً ـ يبكي، فأنفق الثروات، وصرف كل الطاقة التي كانت وليدة أعمق الهواجس كي تتناسب رؤيته مع رؤيتها. ترى هل شيد ذلك البيت من الحب أم الكراهية؟ وإذا كان ينفي تصديق القصص التي سمعتها، فإن ذلك كان لوحاً حقيقياً، غضبه الشديد الحالي يغطي فيه ذكرى عذوبة ورومانسية قديمة مفقودة. إذ كان هناك شيء ما لاذع في المكان، شيء من الحسد في لمعان المحاكاة. لكن حين ذهبت آثار الصدمة الأولى، وظهر ضوء النهار، بدأت أرى العيوب في التصميم الكبير. ففاسكو ميراندا كان ما يزال الرعاعي نفسه الذي كانه دائماً، وما كانت أورورا قد تصورته بكل وضوح وروعة، أخرجه فاسكو بألوان يمكن رؤيتها، مع تألق ضوء النهار، على أنها تفتقد الصحة قليلاً لكنها حيوية إلى حد أنها تفرق بين المقدرة السارة المناسبة وغير المناسبة على نحو فج. حاسة التناسب في البناء كانت ضعيفة أيضاً وخطوطه تفتقد الانسجام. لا، لم يكن أعجوبة، بالنتيجة. انطباعاتي الأولى كانت واهمة، والوهم كان قد زال مسبقاً. فـ «الحمراء الصغيرة» بحجمها الكبير وتوهجها لم تكن مدينة المغربي الجديدة، بل هي منزل دعيّ قبيح.

غير أنني لم أرَ أثر اللوحات المسروقة، ولا الآلات التي حدثتني عنها رنيغادا وفليسيتاس. فالباب المؤدي إلى البرج العالي كان مغلقاً بإحكام. وفاسكو لا بد أنه كان هناك مع بدعه وأسراره المسروقة.

«أريد أن أغير ملابسي» قلت لرنيغادا «إذ لا أستطيع أن أواجه ابن الزنى العجوز ذلك بهذه الملابس».

«هيا، غيِّر» أجابت بجرأة تقارب الوقاحة. «فليس لديك شيء لم أره من قبل». والحقيقة أن رنيغادا تغيرت منذ أن دخلنا «الحمراء الصغيرة،» إذ أصبح سلوكها تملكياً، مستبداً. لا شك أنها أحست بالنفور المتنامي الذي كنت ـ بعد بضع صيحات من الفرح ـ أفتش به الأماكن الخاصة التي كانت تهتم بها طوال سنين عديدة. ولم يكن غير طبيعي بالنسبة لها أن تنزعج بسبب افتقاري للحماسة للمكان. مع ذلك، كانت تلك ملاحظة فاضحة لا خجل فيها لكنني لم أكن لأقف عندها.

«كوني حذرة فيما تقولين»، حذرتها، ثم دخلت إلى الغرفة المجاورة لتكون لي بعض الخصوصية، متجاهلاً نظرتها الغاضبة. لكن وأنا أغير ثيابي شعرت بنوع من الضجة آتية من مسافة بعيدة. إنها أسوأ أنواع الضجات ـ مزيج من صرخات نسائية، صيحات ألم ارتجاعية، ولولات جنس غير محدد، أصوات عويل ودق من صنع حاسوب. كذلك طقطقة خلفية ورنين خطرت لي معه صورة مطبخ يضربه زلزال. لا بد أن هذه «موسيقى الطليعة» التي ذكروها لي من قبل. إذن فاسكو ميراندا مستيقظ.

كانت الأختان قد ذكرتا لي من قبل، وبكل وضوح، أنهما لم تريا رئيسهما المعتكف منذ أكثر من سنة، لذلك دهشت كل الدهشة، حين خرجت من غرفة تغيير ملابسي لأجد فاسكو بجسمه الضخم ذاته ينتظرني في الساحة المخططة كرقعة الشطرنج، وإلى جانبه مدبرة منزله، لا ليست فقط إلى جانبه، بل تداعبه، عابثة، بمنفضة من ريش، فيما هو يقهقه ويتلوى استمتاعاً. والحقيقة أنه كان يلبس ثوباً خيالياً مغربي الطراز،

تماماً كما وصفته نصفا ـ الأختين، بسراويله الأشبه بالكيس والصدارية المزخرفة المفتوحة، وقد لبسها فوق قميص منفوخ «كالبالون»، لا ياقة له، فبدا مثل كتلة مترجرجة من راحة الحلقوم التركية. أما شارباه فكانا قد تضاءلا ـ إذ كانت صواعدهما ذات الشعر المشمّع ـ الصلب قد اختفت تماماً ـ ورأسه كان أصلع، مبقّعاً مثل سطح القمر.

«هـ.. ي.... هـ .. ي» غنى ضاحكاً، مبعداً بحركة سريعة من يده، منفضة رنيغادا الريشية. «مرحباً يا مغربي، سلاماً يا ولدي. تبدو خائفاً: جاهزاً لأن تسقط أرضاً ميتاً، لحظة رؤيتك لي. ألم تكن سيدتاي الاثنتان تغذيانك بشكل مناسب؟ ألم تعجبك هذه العطلة الصغيرة؟ كم مضى عليك هنا حتى الآن؟ أما سنواتي أنا ـ فهي أربع عشرة، حسن، مدة لا تليق بك».

«لو كنت أعرف أنه... يمكن الوصول إليك... هكذا» قلت وأنا أنظر بغضب إلى مدبرة منزله. «لكنت تخلصت من هذه التمثيلية الغبية. لكن يبدو أن التقارير المتعلقة باعتكافك كان مبالغاً بها كثيراً».

«تقارير من؟» سأل بغير ذكاء. بعدئذ تابع «حسن، ربما، لكن فقط فيما يتعلق ببعض التفاصيل الصغيرة». قال بصوت استرضاء، صارفاً رنيغادا بعيداً. فوضعت هذه المنفضة دون كلمة وتراجعت إلى ركن من أركان الساحة.

«صحيح أننا نقدر في بنينغيلي الخصوصية كثيراً ـ كما تقدرها أنت تماماً، آخذين بعين الاعتبار الضجة التي أثرتها حول تغيير ملابسك بتلك الخصوصية التامة! رنيغادا هناك تسلت كثيراً ـ لكن عم كنت أتكلم؟ آه، نعم. ألم تلاحظ أن بنينغيلي يتم تعريفها بما ينقصها ـ وذلك خلافاً لكثير من المناطق، خلافاً للشاطئ كله بالتأكيد، فهي خالية من الزوائد كالملاهي الليلية، الحفلات التي تقام على شرف السياح، سيارات الأجرة، صرافي العملة وبائعي قبعات القش. فرئيس حرسنا الممتاز،

الرقيب سلفادور مدينه يبعد كل هذه الأهوال، بدوريات ليلية يقوم بها على أزقة القرية المعتمة الكثيرة، بحثاً عن أي صاحب مشروع يسعى لإدخالها. بالمناسبة، سلفادور مدينه، يكرهني كرهاً أعمى كما يكره كل القادمين الجدد إلى البلدة، لكنه يحب كل المهاجرين المستقرين ـ جيداً، يحب الغالبية العظمى من الطفيليين ـ وإنني أحيي سياسته بطرد الموجة الجديدة من الغزاة، الآن، وقد صرنا في الداخل، الصحيح تماماً أن يغلق أحد ما الباب خلفنا».

«ألا تجدها مثيرة للإعجاب، بلدتي بنينغيلي؟» تابع وهو يمد ذراعاً على نحو غامض باتجاه المحيط ـ السراب الذي كان يُرى عبر نوافذه. «وداعاً للقذارة، للمرض، للفساد، للتعصب، لنظام الطبقات، لراسمي الكاريكاتور، للعظاءات؛ لموسيقى المسجلات، وقبل كل شيء، لعائلة الزغبي! وداعاً لأورورا العظيمة والقاسية ـ وداعاً لأبيـ...ي .. المحتال المليء بالاحتقار!».

«ليس تماماً،» خالفته، «إذ أرى أنك متعب، نجحت، كما يمكنني القول نجاحاً محدوداً ـ في إشادة عالم أمي الخيالي حولك، في استخدامه كورقة ـ تين كي تخفي عدم كفاءتك، ثم هناك أيضاً هذا الزغبي الباقي لتواجهه، ومسألة صغيرة، هي لوحات مسروقة، بحاجة إلى حل».

«إنها في الطابق العلوي،» قال فاسكو، بهزة من كتفيه. «ينبغي أن تسر أنني سرقتها، بل أية ضربة ـ حظ بالنسبة إليها... لذا عليك أن تركع على ركبتيك وتشكرني. فلولا عصابة المحترفين التابعين لي، لذهبت كلها طعاماً للنيران».

«أنا أطلب أن أراها في الحال». قلت بثبات. «بعد ذلك، ربما يتمكن سلفادور مدينه من أن يؤدي لي خدمة. ربما يمكننا أن نرسل مدبرة منزلك، رنيغادا لاستدعائه، أو حتى استخدام الهاتف».

«على كل حال، دعنا نصعد إلى الأعلى ونأخذ نظرة»، قال فاسكو، وهو يبدو غير مهتم. «لكن اعمل معروفاً، امش على مهل لأنني بدين. أما بالنسبة للبقية فأنا متأكد أنك لا ترغب حقاً في أن تعدو راكضاً إلى القانون. ففي حلقاتكم أيهما أفضل: أن تحصل على الشيء من داخل أم من خارج؟ من داخل ـ أنا متأكد. عدا عن ذلك، فإن رنيغاداي الحبيبة لن تفضحني. ثم، ألم ينقل لك أحد؟ ـ خط هاتفي مقطوع منذ سنين».

* * *

«رنيغاداي الحبيبة: هل قلت ذلك؟».

«وفليسيتاسي الحبيبة أيضاً.. فهما لن تؤذياني من أجل العالم كله».

«إذن، نصفا ـ الأختين هاتان لعبتا معي لعبة قذرة».

«هما ليستا نصف ـ أختين، أيها المغربي المسكين. بل هما عشيقتان».

«واحدتهما عشيقة الأخرى؟»

«منذ خمسة عشر عاماً، أربعة عشر عاماً منها لدي. كم من السنين اضطررت لأن أسمع كلامكم، الهراء أيها الناس حول الوحدة في التنوع وما لا أدري من كلام عفن.. لكن الآن، أنا فاسكو، مع فتاتيّ هاتين، قد أبدعنا ذلك المجتمع الجديد».

«لا يهمني شغلك في الفراش. دعهما تنطان عليك مثل فراش رخو. ماذا يعنيني من الأمر؟ إنها خدعك التي تجعلني أجن»

«لكن كان علينا أن ننتظر الرسوم، أليس كذلك؟ وهذه ليست بالخدعة. ثم كان علينا أن نحصل عليك هنا دون أن يعلم أحد».

«وما الغاية؟»

«ما الغاية؟ ماذا تظن؟ أتخلص من كل زغبي أضع يدي عليه، أربع لوحات وشخص ـ هو السلالة اللعينة كلها، كما يحدث ـ مع دوي، دوي، دوي، أو لنقلها بطريقة أخرى، خمسة ـ بعضة».

«مسدس؟ فاسكو، هل أنت جاد؟ مسدس، تسدده إلي؟».

«فقط شيء صغير. لكنه في يدي. فأية ضربة ـ حظ بالنسبة إلي وأي سوء ـ حظ بالنسبة إليك!»

* * *

لقد تم تحذيري من قبل. **فاسكو ميراندا روح شريرة، وهاتان الفتاتان أليفتاه. لقد رأيتهما تتحولان إلى وطواطتين.**

لكنني وقعت في الشبكة منذ البدء. فكم هناك من أهل القرية متحالفون معه، تساءلت. ليس سلفادور مدينه الذي بدا نظيفاً. غوتفريد هلسينغ؟ صحيح فيما يتعلق بالهواتف، لكن مشوش فيما يتعلق بالأشياء الأخرى. والبقية؟ هل تآمروا كلهم ضدي في هذه المهزلة الصامتة، منفذين أوامر فاسكو الملزمة؟ كم من المال دفع؟ أم أنهم كلهم أعضاء في جمعية ماسونية سرية ـ «أبوس داي» أو ما شابه؟» وإلى أين امتدت المؤامرة؟ ـ إلى سائق سيارة الأجرة، إلى ضابط الهجرة، إلى طاقم الطائرة الغريب في الرحلة الجوية من بومباي؟ ـ خمسة ـ بعضة، قال فاسكو. هو قال ذلك. إذن هل تمتد استشعارات هذا الحادث رجوعاً إلى الدارة التي فجرتها القنابل في باندرا، هل هذا هو انتقام الضحايا؟ لقد شعرت بعقلي ينزلق فالتاً من مراسيه ثم يمسك بافتراضاتي التي لا أساس لها ولا قيمة، كما هي تماماً. العالم غامض، مجهول. والحاضر لغز بحاجة إلى حل.

* * *

«هكذا كان لون رينجر وتونتو في وادٍ مسدود أمامهما، يحيط بهما الهنود الأعداء» قال فاسكو ميراندا، نافخاً، صاعداً الدرج خلفي، و«لون رينجر يقول: لا فائدة، تونتو. نحن محاصرون». فيجيب تونتو «ما تعني بـ«نحن»، أيها الرجل الأبيض؟»

فوقنا في الطابق العلوي، كان مصدر الموسيقى الارتجاعية الزاعقة التي كنت أسمع. وكانت ضجة غير أرضية، معذَّبة ـ أو بالأحرى معذِّبة ـ سادية، قاسية بعيدة. تذمرت منها في بداية صعودنا السلم، لكن فاسكو مسح اعتراضاتي ملقياً بها جانباً. «في بعض أنحاء الشرق الأقصى». قال لي الرجل «موسيقى كهذه تعتبر مثيرة جنسياً إلى حد بعيد». لكن مع صعودنا الدرج، كان على فاسكو أن يتكلم بصوت أعلى كي أستطيع سماعه، فيما بدأ رأسي يضرب.

«وهكذا، أقام لون رينجر وتونتو مخيماً لقضاء الليل» صرخ متابعاً حديثه. «أشعل النار، تونتو». قال رينجر «حاضر، سيدي». «أحضر الماء من الجدول، تونتو»، «حاضر سيدي»، «اعمل قهوة، تونتو»، وهلم جراً، وهلم جراً، لكن فجأة يهتف تونتو باشمئزاز، فيسأله لون رينجر «ما المسألة؟» «أخ» يجيبه تونتو. وهو ينظر إلى نعل حذائه، «أظن أنني دست على كومة من الزبل».

تذكرت نصف ـ تذكر سائق سيارة الأجرة فيفار، بطل الفيلم ـ الغربي الذي كان يحمل اسم راعي بقر مصفح بالدموع من العصور الوسطى، فارس اسبانيا الثاني في العظمة ـ أقصد «السيد»، رودريغودي فيفار وليس دون كيشوت ـ وهو يحذرني من بنينغيلي، متشدقاً بالكلام مثل جون واين وإيلي والاش في فيلم «السبعة الرائعون». «كن حذراً يا رفيق ـ فهناك بلد الهنود الحمر».

لكن أتراه قال ذلك حقاً؟ أهي ذكرى زائفة أم حلم نصف ـ منسي؟ لم أعد متأكداً بعد من أي شيء، إلا ربما، من أن هذا كان بلد هنود حمر وأنني كنت محاصراً وأن الزبل تحت قدمي كان عميقاً تماماً.

بطريقة من الطرق، كنت في بلد للهنود الحمر طوال حياتي، تعلمت أن أقرأ لوحاته، أتبع طرقه، أستمتع بكثافته، بجماله الذي لا ينفد، مناضلاً من أجل الأرض، باعثاً إشارات الدخان، ضارباً طبوله، دافعاً

إلى الأمام حدوده، شاقاً طريقي عبر مخاطره، آملاً أن أجد أصدقاء، خائفاً من قسوته، مشتاقاً لحبه. فحتى الهندي لا يكون آمناً في بلد هندي، حتى لو كان أقوى أنواع الهنود - يلبس النوع الخطأ من غطاء - الرأس، يتكلم اللغة الخطأ، يرقص الرقصات الخطأ، يعبد الآلهة الخطأ، يسافر مع الصحبة الخطأ. وتساءلت كم ينبغي أن يكون أولئك المحاربون الذين يحيطون بالرجل المقنع ذي الرصاصات الفضية، حذرين تجاه زميله ذي الريش على رأسه. في بلد الهنود الحمر لا مكان لرجل لا يريد أن ينتسب لقبيلة، رجل يحلم بالتحرك ما وراءها، يسلخ جلده ويكشف هويته السرية - سر هوية كل رجل - وهم يقفون أمام الشجعان المطليين بطلاء - الحرب لكي يكشفوا الوحدة المجردة والمتصارَع عليها للحم.

* * *

لم تصحبنا رنيغادا في صعودنا إلى البرج. إذ ربما كان على الخائنة الصغيرة أن تنط راجعة إلى أحضان عشيقتها ذات الغمازة كي تشمتا بوقوعي في الفخ. ضوء خافت كان يرشح إلى السلم الحلزوني من خلال نوافذ ضيقة أشبه - بالشقوق. الجدران بسماكة متر على الأقل، لتضمن أن يظل البرج بارداً بل شديد البرودة حتى، العرق جف على عمودي الفقري فشعرت برعشة خفيفة. فيما كان فاسكو يعوم صاعداً الدرج خلفي، نافخاً زافراً، مثل شبح منتفخ يحمل مسدساً. هنا، في قلعة ميراندا، هاتان الروحان المنزاحتان من مكانهما، آخر آل الزغبي وعدوه المخبول، سيقومان بالخطوات الأخيرة من رقصتهما الشبحية. الكل ميت، كل شيء ضائع، وفي شفق الصباح، لم يكن هناك المزيد من هذه الحكاية الشبحية الأخيرة. هل هناك رصاص فضي في مسدس فاسكو ميراندا؟ يقولون إن الرصاص الفضي هو ما تحتاجه لقتل كائن خارق للطبيعة. وهكذا، إن كنت أنا قد صرت شبحاً أيضاً، إذن ستكون مجدية معي.

مررنا بما لا بد أنه كان مرسم فاسكو، فلمحت عملاً غير مكتمل: لرجل مصلوب أنزلوه عن الصليب ثم مددوه في حجر امرأة تبكي، مع قطع من الفضة ـ لا شك أن عددها كان ثلاثين ـ تفر من يديه الميتتين. هذه اللوحة المضادة ـ للمنتحبة لا بد أن تكون واحدة من لوحات «المسيح ـ يهوذا» التي حكتا لي عنها. لقد كانت لمحة سريعة، لكن الشعور المتوهج بتقليد «إلفريكو» في الرسم سبب لي ما يشبه الغثيان، جعلني آمل بأن يكون فاسكو قد هجر المشروع نهائياً.

في الطابق التالي، سار فاسكو بي إلى غرفة رأيت فيها، وقد قفز قلبي من مكانه، لوحة غير مكتملة من عيار مختلف تماماً: لوحة أورورا الزغبي الأخيرة، إعلانها المضني لحب ـ الأم الذي كان بإمكانه أن يتصاعد ويصفح عن الجرائم المفترضة لابنها الحبيب، «تنهيدة المغربي الأخيرة». كذلك كان في الغرفة قطعة كبيرة فهمت أنها جهاز الأشعة السينية، كما كانت معلقة على أحد الجدران عدة صور سيئة، يبدو أن فاسكو كان يتفحص اللوحة المسروقة، جزءاً جزءاً. كما لو أنه يكتشف بالنظر تحت سطحها ولو بشكل متأخر، سر عبقرية أورورا، ليسرقه لنفسه أو أنه كان يبحث عن المصباح السحري.

أغلق فاسكو الباب، فلم يعد باستطاعتي أن أسمع الموسيقى التي تفلق ـ الأذن. ببساطة، كانت الغرفة مانعة للصوت تماماً. لكن الضوء في تلك الحجرة ـ ذات النوافذ ـ الشقوق كان يحجبه قماش أسود، بحيث لم يكن هناك سوى حزمة الضوء البيضاء التي تبهر العيون والتي تنبعث من جدار الصور السينية ـ والتي كانت مزعجة تماماً مثل الموسيقى الزاعقة تلك. «ماذا تفعل هنا؟» سألت فاسكو، بصوت تعمدت أن يكون غير مهذب ما استطعت. «تتعلم الرسم؟»

«أرى أنك طورت لسانك لتكتسب سفاهة آل الزغبي» أجاب فاسكو، «لكنه عمل طائش أن تسخر من رجل معه مسدس محشو رصاصاً، يا رجل، والأكثر من ذلك أنه سيؤدي لك خدمة ويحل لغز موت أمك».

«أنا أعرف حل ذلك اللغز». قلت، «وهذه اللوحة لا شأن لها بذلك».

«أنتمٍ حزمة من المتغطرسين، يـا آل الـزغبي». تـابع فاسـكو ميرانـدا، متجاهلاً ملاحظاتي. «بغض النظر عن مقدار السوء الذي تعاملون الإنـسان به، تكونون واثقين من أنه سيستمر في العناية بكم. أملك فكـرت بي علـى ذلك النحو. بعد أربع عشرة سنة من الـصمت، تـأتيني صـرخة استغاثة». «أنت تكذب»، قلت له، «إذ لم يكن بإمكانك أن تساعدها بأي شيء».

«لقد كانت خائفة» قال، متجاهلاً إياي مرة ثانية. «أحد ما كـان يحـاول قتلها، قالت لي. أحد مـا كـان غاضـباً وغيـوراً وقاسـياً تمامـاً إلى درجـة محاولة اغتيالها. إذ كانت تتوقع أن تُقتل في أية لحظة».

في تلك اللحظات، كنت أحاول أن أصطنع شكل احتقـار لـه، لكـن كيف كان باستطاعتي ألا أثار وأنـا أتـصور أمـي في حالـة رعـب كهـذه ـ وعزلـة كهـذه ـ إلى حـد أنهـا لجـأت إلى ذلـك الـشخص البـالي، ذلـك المجنون المغترب منذ زمن طويل، من أجل المـساعدة؟ كيـف تـراني لم أستطع رؤية وجهها بعين خيالي وقد شوهه الخوف؟ إنهـا تـذرع مـشغلها جيئة وذهاباً، عاصرة يديها، يجفلها كل صوت، وكأنه نذير هلاك.

«أنا أعلم ما حدث لأمي» قلت بهدوء، فانفجر فاسكو:

«آل الزغبي يقولون دائماً إنهم يعرفون كل شيء! لكـنكم لا تعرفـون شـيئاً. لا شيء على الإطلاق! بـل أنـا ـ أنـا فاسـكو ـ الـذي سـخر مـنكم جميعـاً فنـان ـ المطـارات ذاك الـذي لم يكـن أهـلاً لأن يُقبّـل حاشـية ثـوب أمـك العظيمـة، فاسكو، الرسام المتكسب، فاسكو النكتة اللعينة ـ هذه المـرة أنـا الـذي يعـرف». ثم وقف وظله ينعكس على جـدران الـصور الـسينية يمينـاً ويـساراً. «إن قُتلـت، قالت لي، فإنها تريد أن يسجل اسم القاتل. لذا، أخفت صورته تحـت مـا كانـت ترسمه حينذاك. خذ صـورة شـعاعية للوحـة، قالـت لي، سـترى وجـه قـاتلي». وكان يمسك الرسالة بيده. هكذا، هنا، أخيراً، في زمن السراب هـذا، في مكـان الخدع هذا، كان ثمة حقيقة بسيطة. أخذت الرسالة، فكلمتني أمي من قبرها.

«خذ نظرة»، ولوح فاسكو بالمسدس باتجاه الصور السينية. صامتاً، مرتبكاً، ففعلت ما أمرني به. لم يكن هناك شك بأن قماش اللوحة هو لوح يكتب عليه المرة تلو المرة، وكان بإمكاني أن أرى لوحة بالطول الكامل ضمن أجزاء الصورة السلبية تحت العمل الظاهر على السطح. لكن فيلدينغ كان شخصاً ذا وفرة في اللحم مثل فاسكو، بينما كان الرجل الموجود في الصورة ـ الشبح ناحلاً وطويلاً.

«ذلك ليس ميندوك» قلت وقد خرجت الكلمات من تلقاء ذاتها.

«صحيح! صحيح بشكل مطلق!» قال فاسكو «الضفدع شخص غير مؤذٍ. لكن هذا الشخص؟ ألا تعرفه؟ اتبع غرائزك وما هو خارج غرائزك!! انظر! انظر! ـ الرئيس الشرير نفسه. «بلوفيلد»، موغامبو، دون فيتوكورليون: ألا تعرف هذا السيد؟»

«إنه أبي» قلت، فقد كان هو، ثم بكل ثقلي جلست على الأرض الحجرية الباردة.

* * *

بدم بارد: لم تكن العبارة تناسب أحداً كما تناسب أبراهام الزغبي. ـ من بدايات متواضعة (إقناع قبطان سفينة، نافر من الإبحار، بأن يبحر) ارتفع إلى أعالٍ عدنية، منها، وكأنه إله جليدي، كان يصب دماره على رؤوس البشر تحته، لكن أيضاً، وكان يختلف في هذا عن معظم الآلهة، على رؤوس أقربائه وأنسبائه ـ وهناك ملاحظات متفرقة تقدم نفسها لي تأييداً لذلك الكلام ـ ومثل رجل خارق، كنت قد أعطيت موهبة رؤية الأشعة السينية، لكن خلافاً للرجل الخارق، بينت لي تلك الأشعة أن أبي كان شر الناس الذي عاشوا على سطح الأرض. ـ بالمناسبة، إن لم تكن رنيغادا وفليسيتاس نصفي ـ أختين، ماذا كان اسمهما الحقيقي؟ لورنسو، ديل توبسو، دي فليندرانيا، كرلوكيا مبرو؟ ـ لكن أبي، وأنا أتكلم عن الأب أبراهام، الرجل الذي بدأ الاستقصاء عن لغز موت أمي أورورا، والذي لم

يكن باستطاعته أن يتركها تتحول إلى شبح، ويترك شبحها يطوف في حديقته السماوية ـ ترى هل كان ذلك نتيجة شعوره بالذنب مما فعل، أم أنه جزء من تصميمه لتلك الفعلة الكبيرة بدم بارد؟ أبراهام الذي قال لي إن سامي هزاري أقسم الأيمان لدون مينتو، الأيمان التي تقال ولا تتجسد بالحقيقة، إلا في الأدلة التي أقدمها أنا على ضرب رجل بالهراوة حتى الموت ـ وغوتفريد هلسينغ؟ أتراه لم يكن يعرف حقيقة «الأختين لاريوس» صاحبتي ـ الطراز نفسه ـ أم أن لا مبالاته كانت شديدة إلى حد أنه لم يشعر بحاجة للتطوع وتقديم معلومات إلي؟ ترى هل كان الإحساس بروح الجماعة قد فسد بين طفيليي بنينغيلي إلى حد أن الإنسان لم يعد يشعر بذرة من المسؤولية تجاه مصير زملائه من بني البشر؟ ـ نعم، الضرب بالهراوة، أقول، الضرب بالهراوة، دق وجهه. حتى لم يبق لديه وجه. وشاغان أيضاً، وجدوه في مجرى صحي، سامي هزاري كان موضع شك بارتكاب الجريمة، لكن ربما كانت هناك يد خفية قامت بالعمل. الآن، بحق الشيطان ما تراها كانت أسماء الممثلين الذين قاموا بدور الرجل المقنع والهندي؟ آ، ب، ج، د، هـ، و... جي.. إنه جي، أجل جي، وليس سيلفر بوليت، بل سيلفر هيل. الرئيس جي، سيلفر هيل وكلبتون مور ـ أوه أبراهام! كم كنت جاهزاً للتضحية بابنك على مذبح غضبك؟ من تراك استأجرت لكي يطلق السهم المسموم؟ هل كان سهماً كالسهام أم كان وسيلة أكثر انزلاقاً استخدمتها ـ لطخة صغيرة من الفازلين تقوم بخدعتك القاتلة، نقطة فقط في المكان الصحيح، توضع بسهولة كبيرة، ثم تزال بسرعة كبيرة، لماذا علي أن أصدق كلمة واحدة من قصة دون مينتو، بالنهاية؟ أوه. هل تراني ضعت في التخيلات، والقتل في كل مكان حولي ـ عالمي مجنون، أنا مجنون فيه، كيف أتهم فاسكو، في حين أن آل الزغبي أوقعوا جنوناً كهذا واحدهم بالآخر، في زمنهم الرديء؟ ـ وميناه، أختي، ميناه قتلت في انفجار قنبلة سابق، ميناه التي أرسلت سياسياً محتالاً إلى السجن وأجبرت أباها أن يتحمل نفقات كبيرة بشكل ما! هل ماتت الفتاة

أيضاً على يد الأب ـ ربما كان ذلك مقدمة من أبينا لتمثيلية إنهاء زوجته اللاحق؟ ـ أورورا: هل كانت بريئة أم مذنبة؟ لقد كانت تعتقد أني مذنب، ولم أكن مذنباً، ترى أليس علي أن أتجنب الشرك نفسه؟ هل قدمت، لكونها غير مخلصة، سبباً حقيقياً لغيرته وسخطه ـ هو الذي أمضى عمراً من الوقوف وراءها، في الظل، مذعناً لكل نزوة من نزواتها، (في حين أنه في الجانب الآخر من حياته، أصبح وحشاً كلي القوة شيطانياً)، فقتلها ثم استخدم لغز موتها لكي يفتل عقلي، بحيث أقتل خصمه أيضاً؟ أم تراها كانت عفيفة، طاهرة، وكاملة كما يتعين على الأمهات الهنديات أن يكن، فقام هو، معتبراً الفضيلة خطأ بأنها رذيلة، بدور المعتوه الغيور الذي لا يحاكم الأمور محاكمة منطقية؟ ـ كيف يمكن، عندما يكون الماضي قد ولى، وعندما يكون كل شيء قد تفجر إلى نتف نتف، أقول كيف يمكن للمرء أن يخص أحداً بلومه؟ كيف تراه يجد معنى في خرائب الحياة؟ ـ شيء واحد أكيد، أنا محظوظ ووالداي أحمقان ـ أرض هذه الغرفة باردة، علي أن أنهض عن هذه الأرض، فهناك ما يزال رجل بدين يقف، وهو يصوب مسدسه إلى قلبي.

(20)

لم أعد أعرف الأيام التي تمر، منذ أن بدأت تنفيذ الحكم بالسجن علي في أعلى غرفة في برج فاسكو ميراندا، أو قلعته الجنونية في قرية بنينغيلي، الجبلية الأندلسية. لكن الآن وقد انتهى الأمر، علي أن أسجل ذكرياتي عن ذلك الحبس الرهيب، ولو كان ذلك فقط كي أكرّم الدور البطولي الذي قامت به زميلتي في الأسر. إذ لولا شجاعتها، لولا قدرتها الابتكارية ورزانتها، لكنت على ثقة أنني ما كنت لأعيش كي أروي قصتي. لقد اكتشفت ذلك اليوم، فيما اكتشفت من أشياء كثيرة جداً، أنني لم أكن الضحية الوحيدة لكابوس فاسكو ميراندا الذي شكلته له أمي المرحومة، بل كانت هناك ضحية ثانية.

لقد أمرني فاسكو، وأنا ما أزال أرتجف حتى أساسات كياني لما اكتشفته في حجرة الأشعة السينية، أن أستأنف صعودي. أخيراً وصلت إلى حجيرة دائرية، تركت فيها كي أتعفن بمرور الزمن الطويل، مهزوماً من قبل الأصوات الشريرة المنبعثة من مكبرات مركبة على الجدران، متأكداً من مجيء موتي، لا يواسيني إلا امرأة مدهشة كانت تتألق زمن ظلمتي مثل منارة، فتعلقت بها، بالتالي لم أغرق.

على منصب رسم، وسط تلك الغرفة، كان هناك رسم أيضاً: أبو عبد الله بريشة فاسكو، الفارس الذي يبكي، وقد جرى بكل دموعه إلى إسبانيا أيضاً، تاركاً منزل مشتريه، سي. بي بها بها، عائداً إلى راسمه، وما صنع في إليفانتا ذات يوم جاء ليشوى في بنينغيلي ـ قتل، انتقام وفن. عمل فاسكو الأول على القماش وعمل أورورا الأخير، بدايته الجديدة ونهايتها الحزينة: لوحتان مسروقتان، كلتاهما تعالج الموضوع نفسه، وكل منهما تحمل صورة أحد والديّ مخفية تحت السطح. (أنا لم أر «المغربيات» الأخرى المسروقة، فقد ادعى فاسكو أنه قطعها وحرقها مع صناديقها الخشبية: لقد عمل على سرقتها، كما قال، ليخفي الحقيقة وهي أن «تنهيدة المغربي الأخيرة» هي اللوحة التي كان يريدها).

الأشعة السينية اتهمت أبراهام الزغبي في الحلقة الدنيا من هذا الجحيم المتصاعد، لكن صور أورورا الخفية لم تكن كافية. ولوحة فاسكو «المغربي،» تم تخريبها، إذ نزعت طبقة تلو طبقة لتخرج صورة أمي، الشابة، تلك الـ «مادونا» ذات الثدي العاري، التي لم تنجب والتي دوخت أبراهام أيام زمان، من سجنها الطويل. لكن حريتها تم اكتسابها على حساب محررها. إذ لم يستغرق مني الوقت الطويل كي ألاحظ أن المرأة التي كانت واقفة عند منصب الرسم، تنتزع طبقات الرسم عن القماش طبقة طبقة ثم تضعها في طبق، إنما كانت مقيدة بالسلاسل ـ من كاحليها ـ إلى الجدار الحجري الأحمر.

هي من أصل ياباني، لكنها قضت جل حياتها المهنية تعمل كمرممة رسوم في متاحف أوروبا الكبرى. بعدئذ تزوجت دبلوماسياً إسبانياً، يدعى بنيت، وتجولت معه في أنحاء العالم إلى أن فشل الزواج. ثم من غامض علم الله، اتصل بها ميراندا إلى محل فرانسيسيو جوان ميرو في برشلونة ـ قائلاً فقط إنهم زكوها لديه كثيراً ـ وإنه يدعوها لزيارته في بنينغيلي كي تفحص أعمالاً وتنصح فيما يتعلق ببعض اللوحات ـ اللوحية التي حصل عليها حديثا. ورغم أنها لم تكن معجبة بأعماله، إلا أنها وجدت أن من المستحيل أن ترفض دعوته دون أن يشكل ذلك إهانة له، كما كانت فضولية ترغب في اختلاس نظرة خلف الأسوار العالية لقلعته الأسطورية، وربما اكتشاف ما يكمن وراء قناع المعتزل سيء السمعة. عندما وصلت إلى «الحمراء الصغيرة» جالبة معها أدوات مهنتها، كما كان قد طلب منها بإلحاح، عرض عليها لوحته «المغربي» وصورة الأشعة السينية التي كانت تحتها. ثم سألها إن كان بالإمكان أن تنبش الصورة الدفينة بإزالة الطبقة العليا.

«سيكون ذلك خطراً، لكن ربما هو ممكن. نعم» قالت بعد أن أجرت دراسة أولية. «لكنك بالتأكيد لن تختار أن تدمر عملك الخاص». فقال: «هذا ما أطلب منك أن تفعليه».

لكنها رفضت، رغم كرهها للوحة فاسكو «المغـربي»، الـتي اعتبرتهـا لا تستحق الكثير، متوقعة أن تقضي أسابيع، وربما أشهراً، في تدمير عمل فني، بدلاً من ترميمه، وهو غير مغر كثيراً. غـير أن رفـضها كـان مؤدبـاً، لطيفاً، لكنه جعل ميراندا يثور غـضباً. «أنـت تريـدين مـالاً كـثيراً، ألـيس كذلك؟» سأل وهو يعرض عليها مبلغاً تافهاً مؤكداً بذلك ما كـان يـشغلها حول حالته العقلية. عند رفضها الثاني، جاء بمسدس وبدأ بحبسها، علـى أن لا يطلق سراحها، كما قال لها، حتى تنجـز مهمتـها، وإن فـشلت في تنفيذها، فإنه سيطلق عليها النار «مثل كلبة». هكذا بدأ عملها.

حين وصولي إلى زنزانتها، تعجبت من تقييدها بالسلاسل، ثم فكرت، ترى كم هو شخص مذعن ذلك الحداد، بحيث يضع، دون أن يستغرب، معدات كهذه في بيت خصوصي. بعدئذ تذكرت صيحته ـ ما تـزال تمـشي طليقاً، آ؟ ذات يوم ستكون هكذا، هكـذا ـ ثم، في الحـال، عـادت إلي فكرة المؤامرة تنهش رأسي. «صحبة لك،» قال فاسكو للمرأة، ثم التفـت إلي معلناً أنه بسبب معرفتنا القديمة وفطرته النزواتيـة اللطيفـة، فقـد أجـل تنفيذ إعدامي حيناً من الزمن. «لنعيش من جديد الأيام القديمة معاً،» اقترح بكل مرح. «وإذا كان آل الزغبي قد مسحوا عن وجه الأرض ـ وإذا كانـت الأفعال الخاطئة للأب، كذلك الأم، ينبغي أن يتلبسها الابن ـ إذن دع آخر آل الزغبي يسرد من جديد حكاياتهم الآثمة». بعد ذلك، كان يأتيني كل يوم بقلم رصاص وورق، محولاً إياي إلى شهرزاد في ألف ليلة وليلـة، قـائلاً طالما أن حكايتي تثير اهتمامه سيبقيني على قيد الحياة.

نصيحة سديدة قدمتها لي زميلة ـ سجني. «مطمطها» قالت لي «فـذلك مـا أفعله. إذ أن كل يوم نظل فيه على قيد الحياة، تزداد فرصنا بـالخلاص». لقـد كان لها حياتها ـ عمل، أصدقاء، بيـت ـ واختفاؤهـا لا بـد سـيثير الـشكوك. فاسكو يعرف هذا، لذلك أجبرها على أن تكتب رسـائل وبطاقـات، معتـذرة عن غيابها عن عملـها، شـارحة لحلقتـها الاجتماعيـة أن «الافتتـان» بكونهـا

داخل العالم السري لميراندا الشهير هو ما جعلها في حالة استعباد. ذلك كان سيؤخر التحقيق بمصيرها، لكن ليس إلى الأبد، لأنها كانت تدخل أخطاء متعمدة في الرسائل، بالإشارة مثلاً إلى عشيقة صديق أو حيوانه المدلل بالاسم الخطأ، مقدرة أن أحداً ما، عاجلاً أو آجلاً، قد يشم رائحة جرذ ويعلم أن في الأمر إنَّ. حين سمعت هذا، تملكني هياج غير عادي، لأن القنوط الذي كان قد خيم علي، إثر كشوفات الأشعة السينية لفاسكو جعلني أيئس من الخلاص، الآن ولد أمل جديد. فرحت أهذي أملاً وتوقعاً، لكن سرعان ما سحبتني إلى الأسفل، إلى الأرض.

«إنه مجرد أمل طويل الأمد، فالناس لا يهتمون عموماً. لا يقرؤون بدقة بل يقفزون بين الأسطر. كما أنهم لا يتوقعون أن تجيئهم رسائل مرمّزة. لذلك قد لا يرون أي شيء». ولكي توضح تلك النقطة، حكت لي قصة. سنة 1968، وخلال «ربيع براغ»، كان أحد زملائها الأمريكان قد أخذ مجموعة من طلاب الفن لزيارة تشيكوسلوفاكيا. وللصدفة ـ كانوا في ساحة وينسلاس، حين اقتحمت الدبابات الروسية الأولى المدينة. خلال الاضطرابات التي أعقبت ذلك، كان المعلم الأمريكي واحداً من أولئك الذين اعتقلوا عشوائياً على يد جماعات الشغب الفالتة، وقد قضى يومين في السجن قبل أن يستطيع القنصل الأمريكي إطلاق سراحه. خلال هذين اليومين لاحظ «شيفرة» ـ دق مكتوبة على جدران زنزانته، فبدأ الدق وكله رغبة في أن يرسل رسائل إلى أي كان في الجانب الآخر من الجدار. لكن بعد ساعة أو أكثر من الدق، فتح باب زنزانته بعنف ليخبره الحارس المتجول بإنكليزية قذرة مكسرة أن جاره يريده أن «يكف عن أكل الخراء ذاك،» لأن أحداً ويا للأسف، لم يعطه تلك الشيفرة اللعينة».

«أيضاً» تابعت ببرود «حتى إن وصلت المساعدة ـ حتى إن بدأ الشرطة يدقون أبواب هذا المكان الرهيب ـ من يعلم إن كان ميراندا سيسمح بأن نؤخذ أحياء؟ الآن تماماً، هو يعيش كلياً في اللحظة الراهنة ـ مطوحاً

بعيداً بسلاسل المستقبل. لكن إن جاء ذلك المستقبل واضطر لأن يواجهه، فقد يختار أن يموت، مثل أي زعيم من زعماء تلك الطوائف الدينية السرية الذين يسمع المرء عنهم هذه الأيام أكثر وأكثر، مع الاحتمال التام بأن يرغب في أخذنا كلنا معه ـ الآنسة رنيغادا، الآنسة فليسيتاس، أنا، وكذلك أنت».

لقد التقينا، ونحن على مقربة من نهاية قصصنا إلى درجة أنني لا أستطيع أن أنصفها، فليس هناك وقت ولا مكان بالنسبة إلي لكي أقدم لها ما تستحق من إطراء. إذ رغم أنها، هي أيضاً، كان لها تاريخها، أحبت وانحبست، إلا أنها كانت كائناً بشرياً، وليس مجرد سجينة في ذلك المكان الكريه الذي جعلتنا جدرانه السميكة الباردة نرتعش في الليالي، رغم أننا كنا يحضن واحدنا الآخر من أجل الدفء ونلتف معاً داخل معطفي الجلدي الواسع. فأنا لا أستطيع أن أبدأ بقصتها ـ بل يمكنني فقط أن أقدم الاحترام كله للقوة السخية التي كانت تحتضنني بها في تلك الليالي الطويلة، حين كنت أشعر أن الموت يقترب مني، وكنت أرتجف. باستطاعتي فقط أن أسجل غمغماتها في أذني وكيف كانت تغني لي وتمزح. إذ كانت قد عرفت جدراناً أخرى ألطف، ونظرت عبر نوافذ أخرى، غير هذه الشقوق الضيقة في الحجارة الحمراء، التي كانت قضبان من الضوء تمر عبرها يومياً لتسقط على قفصنا، والتي لم يكن يسمع خارجها صرخة استغاثة، إن أطلقناها، يمكن أن تصل إلى أذن صديق. لا بد أنها كانت قد نادت عبر تلك النوافذ الأكثر سعادة، بما لم تستطع أن تفعل هنا.

ذلك ما يمكنني قوله. اسمها أعجوبة الأحرف الصوتية أوي أوي: كل الأحرف الصوتية في اللغة تجمعت هكذا (أو ـ ي ي ـ أو ـ أي) لكي تشكلها. رقيقة ـ، ناحلة، شاحبة. وجهها بيضوي ناعم بلا خطوط، حاجباها أشبه بلطختي شحار، متوضعان عالياً على نحو غير عادي، مما أضفى عليها تعبيراً دائماً بشيء من المفاجأة. إنه وجه بلا عمر، ربما هي

أي شيء بين الثلاثين والستين. غوتفريد هليسنغ تحدث عن «شيء صغير تماماً» ورنيغادا لاريوس ـ أو أي شيء هو اسمها الحقيقي ـ تحدثت عن «نمط بوهيمي». كلا الوصفين كان بعيداً قليلاً عن الحقيقة. فهي لم تكن فتاة ما بل امرأة بكل ما في الكلمة من معنى ـ والحقيقة، امتلاكها لنفسها في العالم الخارجي، ربما كان ينذر بالخطر قليلاً، لكن ضمن حدود حلقتنا القاتلة، كانت قد صارت سندي الرئيسي، غذائي في النهار ووسادتي في الليل. على أنها لم تكن ذلك النمط الخليع المندلق بل بالأحرى كانت الروح الأشد نظامية. رسميتها، دقتها، أيقظت في داخلي نفسي القديمة مذكرة إياي بالتصاقي التام بأفكار الأناقة والدقة أيام الطفولة قبل أن أستسلم للطلبات المستيقظة في قبضتي الوحشية الملتفة. وفي الظروف الرهيبة لوجودنا المقيد بالسلاسل، كانت توفر الانضباط اللازم لنا، وكنت أطيع أوامرها دون تردد أو سؤال.

فهي التي تصوغ أيامنا، واضعة جدولاً زمنياً ينبغي التمسك به بشدة. نستيقظ كل صباح ساعة سماعنا تلك «الموسيقى» التي أصر ميراندا على أن يسميها «شرقية» وحتى «يابانية»، لكن إن كانت المرأة اليابانية التي سجنها، وجدت صفة كهذه نوعاً من الإهانة، إلا أنها لم تبهج قلب فاسكو بالتعبير مرة عن انزعاجها. كانت الضجة مخيفة ومزعجة، لكننا كنا نعمل، خلال سماعنا تلك الموسيقى، وبناء على اقتراح أوي، في أداء وظائفنا اليومية الخاصة. إذ كان كل منا بدوره يشيح بناظريه بعيداً، مستلقياً مواجهاً الجدار، بينما كان الآخر يطرح فضلاته في السلة ـ المرحاض التي كان فاسكو، أرهب السجانين وأشدهم كابوسية، قد قدمها لنا، وكان الضجيج الذي يثقب الأذن يوفر على كل منا سماع أصوات الآخر وهو يطرح فضلاته. (كما كان كل منا يعطى من حين إلى آخر بضع لفات من ورق أسمر خشن ننظف به أنفسنا، تلك اللفات كنا نختزنها وندافع عنها، كما يدافع التنين عن كنزه). بعد هذا كنا نغتسل،

مستخدمين أحواض الألمنيوم وأباريق الماء التي جلبتها لنا ذات يوم واحدة من «الأختين لاريوس»، اللتين كانت واحدتهما تدخل إلى زنزانتنا بوجه كالحجارة، رافضة كل توسلاتنا، متجاهلة كل طلباتنا وبكل عنف. «إلى أي مدى ستصلين؟» كنت أصرخ بواحدتهما. «إلى أي مدى سيصل ذلك الرجل المجنون؟ إلى حد القتل؟ نهاية الخط؟ أم ستنزلوننا في محطة أبكر؟» لكن رغم كل هذه التساؤلات، كانت واحدتهما، محصنة، طرشاء، لا تبالي، فعلمتني أوي أوي أنني ببقائي صامتاً فقط، وأنا في مثل هذا الوضع، يمكنني أن أحتفظ باحترام ـ الذات الضروري، بعد ذلك، تركت امرأتي ميراندا تدخلان وتخرجان دونما كلمة.

لكن ما إن تنتهي الموسيقى، حتى نبدأ عملنا: هي إلى طبقات، ـ لوحتها وأنا إلى هذه الصفحات. كذلك تركنا، مثل الزمن المخصص للعمل، وقتاً للمحادثة كنا خلاله، وبالاتفاق، نتكلم عن أي شيء عدا وضعنا، كما نوجز «أحاديث الشغل» اليومية التي كنا خلالها نفكر بخياراتنا، نتكلم عن محاولات الفرار، فترات التمارين، كذلك أوقات العزلة، أي حين لا نتكلم، بل يجلس كل منا بمفرده، عله يوفر شيئاً من نفسه الخاصة التي كانت تتآكل. هكذا كنا نتعلق بإنسانيتنا، رافضين أن نسمح لأسرنا بأن يحدّدنا. «نحن أكبر من هذا السجن» قالت أوي «وينبغي ألا نتقلص كي نتناسب مع جدرانه الصغيرة. ينبغي ألا نصبح أشباحاً تسكن هذه القلعة الغبية»، لذا كنا نلعب ألعاباً، ـ ألعاب كلمات، ألعاب ذاكرة، كعكة جاهزة، وغالباً دون أي دافع جنسي كنا يحضن واحدنا الآخر. تدع نفسها أحياناً ترتعش وتبكي، فأتركها، أتركها. وأكثر الأحيان، كانت تؤدي هذه الخدمة لي. لأنني كنت أشعر بأنني عجوز منتهٍ. صعوباتي التنفسية عادت أسوأ من ذي قبل، وما من علاج أو أي شيء يقدم لي، مما جعلني أفهم، وأنا زائغ النظر، أتوجع، أن جسدي يرسل لي رسالة بسيطة مطلقة: رقصة «الجيغ» على وشك الانتهاء.

جزء من اليوم لم يكن بالمستطاع جدولته، ألا وهو زيارة ميراندا، حين كان يفتش عن تقدم أوي، يأخذ أوراقي اليومية ويزودني بأوراق وأقلام رصاص جديدة إن اقتضى الأمر، كما كان يسلي نفسه بطرق متعددة على حسابنا، إذ اخترع أسماء تدليل لنا، معلناً، لأننا لسنا حيواناته المدللين، أنه سيبقينا مربوطين في حجرتنا، عسى أن نتحول إلى كلب وكلبة؟ «حسن، المغربي مغربي بالطبع». قال، «لكنك يا عزيزتي، يجب من اليوم فصاعداً أن تتحولي إلى شيمينته» (حبيبته).

حكيت لأوي عن أمي التي كانت ترتد راجعة من الموت ـ وعن سلسلة الأعمال التي كان المرء يجد فيها «شيمينة» أخرى، تحب ثم تغدر بمغربي آخر. فقالت: «لقد أحببت رجلاً كما تعلم، زوجي، بنيت، لكنه كان غالباً ما يغدر بي في بلدان كثيرة، إذ لم يكن يستطيع منع نفسه. كان يحبني، مع ذلك، كان يخونني وهو يحبني. في النهاية، كنت أنا من كففت عن حبه وتركت: كففت عن حبه ليس لخيانته لي ـ إذ كنت قد اعتدت على ذلك ـ بل بسبب بعض عاداته التي كانت تثير غضبي، وفي النهاية أنهت حبي. عادات بسيطة جداً. استمتاعه برفع أنفه عالياً. طول الزمن الذي كان يستغرقه في الحمام بينما أنتظره في الفراش، نفوره من أن يقابل عينيّ بابتسامة عاطفية حين نكون مع أصحاب. أشياء تافهة، أم ربما لا؟ ماذا تظن؟ ـ ربما خيانتي كانت أكبر من خيانته. أو مثلها؟ لا يهم، فقط دعني أقول إن حبنا ما يزال الحدث الأهم في حياتي. فالحب المهزوم يظل كنزاً، وأولئك الذين يختارون عدم الحب، لا يفوزون بأي نصر على الإطلاق».

حب مهزوم... أوه، يا أصداء ماضٍ تحطم القلب! على طاولتي الصغيرة في زنزانة ـ الموت تلك. خطب أبراهام الزغبي ود وارثة ـ التوابل وتحالف مع الحب والجمال ضد قوى البشاعة والكراهية، فهل كان ذلك صحيحاً، أم أنني وضعت كلمات أوي في فقاعة ـ تفكير أبي؟ ومثلما كنت وما أزال

أحلم في الليل بأنني أسلخ، هكذا كنت أسجل الرؤى المماثلة لرؤى أوليفردايث أو أفكار كارمن داغاما قبل زمن طويل، عندما كانت تتوق، بناء على أوامري وفي أخص خصوصيات خيالها، للعراك والعدمية. ترى، ألم تكن مخلوقاً من صنع خيالي؟ ـ مثلما هم أولئك كلهم، مثلما ينبغي أن يكونوا، وليس لديهم وسيلة لأن يكونوا شيئاً آخر غير ما تصنعه كلماتي. أنا أيضاً، كنت قد عرفت الحب المهزوم. ذات مرة أحببت فاسكو ميراندا. وكان ذلك حقيقياً: الرجل الذي يريد أن يقتلني شخص أحببته ذات يوم... لكنني عانيت من هزائم أكبر حتى من هذه.

أوما، أوما. «ماذا إن كان الشخص الذي أحببته لم يوجد، بالحقيقة، على الإطلاق؟» سألت أوي «ماذا إن كانت قد ابتدعت نفسها، انطلاقاً من فهمها لحاجتك ـ ماذا إن كانت قد مثلت بشكل مزيف دور الشخص الذي لا يمكنك مقاومته، لا تستطيعين البتة مقاومته، باعتباره الحبيب ـ الحلم، ماذا إن جعلتك تحبينها **إلى درجة يمكنها أن تخونك** ـ هذا إن كانت الخيانة ليست فشل الحب، بل الهدف من الممارسة كلها منذ البداية؟».

«أنت مازلت تحبها» قالت أوي. «لم تكن تلعب دوراً!»

«نعم، لكن...».

«إذن، حتى حينئذ» قالت بشيء من الحسم «حتى حينئذ، أنت ترى».

* * *

قال فاسكو: «هـ.. ي.. يا مغربي. قرأت في الصحف أن بعض الناس في فرنسا طوروا علاجاً عجيباً. إنه يبطئ عملية الهرم، فأي شيء رائع يا ناس! الجلد يبقى رطباً، العظام تظل قوية، الأعضاء تتخطى كل توقف عن العمل لمدة أطول، الصحة العامة وكذلك التنبه الذهني يتطور في الشيخوخة. تجارب سريرية تجري على متطوعين منذ فترة قريبة. لكنه سيء جداً، متأخر جداً بالنسبة لك».

«أكيد، أكيد» قلت له «شكراً لتعاطفك».

«اقرأ بنفسك،» قال ثم سلمني قصاصة الجريدة «يبدو أشبه بأكسير الحياة. أوه، يا ولد، كم ينبغي أن تشعر بالإحباط!»

* * *

في الليل كان هناك صراصير. مكان نومنا عبارة عن حشية من القش مغطاة بكيس خيش، وحين يحل الظلام، كانت تلك المخلوقات تخرج. لتتسرب عبر شقوق بعرض الشعرة من كل مكان حولنا، كما تفعل الصراصير عادة، فنشعر بها وهي تتحرك على أجسادنا مثل أصابع وسخة. في البداية كنت أنتفض وأقفز على قدمي، أدوس وأمعس كل ما حولي دون تمييز ثم أذرف دموع خوف حارة، متنفساً بطريقة الهيء - هوء، طريقة الحمير، وأنا أبكي. «لا، لا» كانت أوي تريحني، بينما أرتجف بين ذراعيها. «لا، لا، يجب أن تتعلم كيف تتقبل هذه الصراصير دون أن تبالي بها، كيف تدع الخوف يبتعد عنك، الخجل،» تقول لي، هي أكثر النساء صعوبة إرضاء، ثم تضرب المثل، إذ لا تشتكي ولا تتذمر، متكشفة عن انضباط حديدي، حتى عندما كانت الصراصير تحاول أن تتغلغل في شعرها. ولقد تعلمت منها شيئاً فشيئاً.

في تعليمها لي، كانت تذكرني بديلي هرمز، وفي عملها كانت تجسد زينات فاكيل. إنه البريق الذي جعل مهمتها ممكنة، شرحت لي تلك الطبقة الرقيقة التي تفصل اللوحة الأولى عن الأخيرة، عالمان ينتصبان على منصبها، يفصلهما ما لا يُرى، هو الذي يسمح بفصلهما النهائي. لكن في ذلك الفصل كان أحدهما سيزال كلياً، أما الآخر فمن الممكن أن يتعرض بسهولة للتلف. «أوه، بسهولة» قالت أوي «إن اهتزت يدي خوفاً، انتهى الأمر». وكانت بارعة في إيجاد أسباب عملية كيلا تخاف.

دائماً كان عالمي يشتعل لهباً. حاولت أن أقفز منه إلى الخارج لكنني حططت في النار. غير أن حياتها، حياة أوي، لم تكن تستحق هذه النهاية، فقد كانت جوالة، وكان لها نصيبها من الألم، لكن كم كانت مرتاحة على ما يبدو في عدم وجود جذور لها، كم كان سهلاً عليها ذلكّ إذ من الممكن أن نفهم أن النفس مستقلة ذاتياً، بالنتيجة، وأن بوبي البحار ـ جنباً إلى جنب مع جيهوفا ـ كان على حق تماماً حين قال: **أنا ما أنا وذلك ما أنا**، وإلى الشيطان بالجذور والشروش. فقد تبين أن اسم الإله هو اسمنا أيضاً. أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، **قل لهم أنا بعثت نفسي إليكم**.

إذ على الرغم من أنها لم تكن تستحق مصيرها، إلا أنها واجهته، ولمدة طويلة من الزمن لم تدع فاسكو يرى خوفها.

ما الذي أخاف أوي أوي؟ أيها القارئ:" أنا فعلت ذلك. إنه أنا. ليس بمظهري أو بأعمالي، بل أخافتها كلماتي، ما كنت أدوّنه على الورق، ذلك الغناء الصامت اليومي من أجل حياتي. فقراءة ما كنت أكتب أمام فاسكو كان يحرك ذلك الخوف بطريقة خفية، إذ تعلم الحقيقة الكاملة عن القصة التي وقعت في شراكها على غير وجه حق، فترتعش. رعبها مما كنا قد فعل واحدنا بالآخر عبر الزمن كان أكبر، إذ أوضح لها أن ما كنا قادرين على فعله ما يزال قائماً بالنسبة لنا ولها. ثم في أسوأ لحظات الحكاية، كانت تدفن وجهها بين يديها وتهز رأسها. أما أنا الذي كنت بأمس الحاجة لرباطة جأشها، أنا الذي كنت أعتمد على ضبطها لنفسها، وكأنها طوق نجاتي، فقد كنت أخاف أن أجد نفسي المسؤول عن تلك الحالات العصبية.

«إذن، هل كانت حياة سيئة إلى هذا الحد؟» سألتها، بشيء من الإشفاق مثل تلميذ يتوسل لمديرة مدرسته. «هل كانت حقاً سيئة جداً جداً؟».

كان باستطاعتي أن أرى الفصول تمر أمام عينيها ـ حقول التوابل التي تحترق، أعمال الطبخ، القتل. «طبعاً، هي كذلك»، أجابت بنظرة ثاقبة.

«كلكم .. رهيبون رهيبون». ثم بعد توقف لحظة «ألم يكن باستطاعتكم كلكم... أن تهدؤوا فقط؟»

هذه هي قصتنا بإيجاز كلي، مأساتنا يمثلها مهرجون. اكتب ذلك على شواهد قبورنا، اهمس به للريح: أولئك آل داغاما! أولئك آل الزغبي! **من لم يعرفوا قط كيف يهدؤون.**

لقد كنا أحرفاً صامتة بغير أحرف صوتية: شكلاً مثلَّماً ناقصاً. ربما لو كانت هي معنا تدير جوقتنا، سيدتنا ذات الأحرف الصوتية، لاختلف الأمر. ربما بعدئذ، ربما في حياة أخرى، عند مفترق طرق، ستأتي إلينا، ويتم إنقاذنا جميعاً. إذ يوجد فينا، فينا جميعاً، قدر من التألق، من الإمكانية. نبدأ بذلك، لكن أيضاً، بالقوة السوداء المضادة، له فإنهما كليهما قد يجعلان حياتنا تمضي بكسل وتباطؤ، وإن كنا محظوظين، حتى القتال قد ينتهي أيضاً.

أنا؟ أنا لم أحصل على المساعدة الصحيحة قط. لا، حتى الآن لم أجد يوماً شيمينتي، حبيبتي.

قرب النهاية، ابتعدت عني قائلة إنها لا تريد أن تقرأ المزيد، لكنها قرأت، مع ذلك، وامتلأت كل يوم، بقدر أكبر قليلاً من الرعب والاشمئزاز. رجوتها الغفران، قلت لها (واضطراباتي الجوزية الكاجوية مازالت مستمرة حتى النهاية) إنني بحاجة لتجردها، فقالت: «لست في ذلك الخط من العمل. اجلب لنفسك كاهناً». وحدثت جفوة بيننا بعد ذلك.

مع اقتراب مهامنا من الاكتمال، كان خوفنا المعلق فوقنا ينزل شيئاً فشيئاً، إلى أن صار يقطر في عيوننا. صارت لدي نوبات طويلة من التشنج والسعال، كنت آمل خلالها، وأنا أتقيأ بعيون دامعة، أن تأتي نهايتي على ذلك النحو، فأخدع ميراندا وأسلبه جائزته. كانت يدي تهتز على الورق كما كانت أوي غالباً ما تضطر للتوقف عن العمل وسحب نفسها بعيداً،

فتقعقع السلاسل، وتتكوم عند الجدار كي تتماسك ثانية. حينذاك، كنت أيضاً أرتعب إذ كان، بالحقيقة، شيئاً مرعباً أن أرى تلك المرأة القوية تضعف. لكن عندما كنت أسعى لإراحتها، في تلك الأيام الأخيرة، كانت تصرفني بعيداً. بالطبع، كان ميراندا يرى كل شيء، ضعفها وبعد واحدنا عن الآخر، فيفرح لتفتتنا ويهددنا: «ربما سأفعل ذلك اليوم ـ أجل، أجل! ـ لا. لا. إذ تأتيه فكرة ثانية، غداً». لم يبالِ قيد شعرة بما كتبت عنه لكن في مناسبتين اثنتين، وضع مسدسه في صدغي، ثم سحب الزناد. غير أن حجرة الإطلاق كانت فارغة في كلتا المرتين، ولحسن الحظ كانت هكذا أحشائي، وإلا لكنت بالتأكيد قد فعلتها في سروالي.

«لن يفعل ذلك» وجدت نفسي أكرر «لن يفعلها، لن يفعلها، لن يفعلها». ففرقعت أوي أوي ضحكاً. «طبعاً سيفعلها، أيها الوغد». صرخت بي، طافحة بالرعب والغضب. «إنه مجنون، مجنون، كأن حية وإبراً تلسعه في ذراعيه».

وكانت على حق بالطبع. فهذا الفاسكو المضطرب، في مرحلته الأخيرة كان قد صار صاحب حق مكتسب شديد الوطأة، فاسكو ميراندا صاحب الإبرة الضائعة كان قد وجد الكثير من الإبر الجديدة. لذلك حين جاء إلينا في النهاية، كانت هناك في أوردته شجاعة كشجاعة الألمان. فجأة، وبارتجافة ذات أزيز شديد، تذكرت كيف بدا يوم قرأ ما كتبت عن أبراهام الزغبي ومغامرته في تجارة مسحوق ـ الأطفال، كما رأيت مرة ثانية التكشيرة الملتوية جانباً على وجهه وهو يشمت بنا، ثم سمعت ـ بفهم جديد مخيف ـ صوته على الدرج وهو يهبط، مغنياً:

الطفل الناعم، غنِّ أعلى
المسحوق الناعم، تالك الناعم
أفضل الأطفال يسمح لهم

بمسحوق الأطفال «سوفتو» الأنعم

بالطبع، كان سيقتلنا. فتصورت أنه سيجلس بين جثتينا، وقد خلصه العنف من الكراهية، ثم ينظر إلى صورة أمي التي انكشفت: ليتحد مع حبيبته أخيراً، وينتظر مع أورورا إلى أن يأتوا إليه. عندئذ، ربما، سيستخدم الطلقة الفضية الأخيرة ليقتل بها نفسه.

* * *

ما من نجدة جاءت. الشيفرة لم تفك رموزها، سلفادور مدينه لم يشك بشيء. «الأختان لاريوس» بقيتا مخلصتين لسيدهما. ترى هل كان ذلك إخلاص مسحوق ـ التالك؟ تساءلت، هل ذهبتا في شغل الإبرة وفق ذلك النمط أيضاً؟

قصتي وصلت إلى بنينغيلي، وأمي، التي لم تربِّ أحداً، تنظر إلي من المنصب، أنا وأوي لم نعد نتكلم معاً، وكل يوم ننتظر النهاية، أحياناً، كنت أسأل وأنا أنتظر صورة أمي، بصمت، طالباً أجوبة لأسئلة حياتي الكبرى. لقد سألتها إن كانت حقاً قد صارت يوماً عشيقة ميراندا أو رامان فيلدينغ أو أي شخص آخر، سألتها عن برهان لحبها، فابتسمت ولم تجب.

غالباً ما كنت أحدق إلى أوي هذه المرأة التي كانت حميمية وغريبة على حد سواء، وهي تعمل ثم أحلم أن ألتقي بها في وقت لاحق، عندما نكون قد نجونا من هذا المصير، في صالة مفتوحة في مدينة أجنبية، ترى هل سيحتضن واحدنا الآخر أم يعبر به دون أن يبدو عليه أنه يعرفه؟ بعد الليالي الراعشة، القابضة علينا بإحكام، بعد الصراصير، هل كان واحدنا يعني شيئاً للآخر أو لا شيء؟ أو ربما أسوأ من اللاشيء: إذ يذكّر كل منا الآخر بأسوأ فترة في حياته. لذلك، يكرهه ويشيح ببصره بعيداً عنه.

* * *

أنا غارق في الدم. ثمة دم على يديّ الراعشتين، على ثيابي. دم يلطخ هذه الكلمات وأنا أدونها. يا للرعاعية! يا لعدم الالتباس المبهرج للدم. كم هو مزوّق، وكم هو رقيق... إني أفكر بقصص الجرائد عن العنف، بكتّاب عدل يتكشفون عن قتلة، بجثث متعفنة تكشف تحت ألواح أرضية غرفة النوم أو عشب الحديقة. ثم أتذكر وجوه الباقين على قيد الحياة: الزوجات، الجيران، الأصدقاء. «أمس كانت حياتنا غنية ومتنوعة». تقول الوجوه لي. «بعدئذ حدثت الفظاعات، والآن نحن مجرد بقاياها، نحن لاعبو ـ أدوار صغيرة في قصة لا نمت لها، في قصة لم نحلم يوماً بأن نمت لها. إننا مسطحون، مختزلون».

أربع عشرة سنة هي جيل، أو وقت كافٍ لتجديد جيل. خلال أربع عشرة سنة، كان باستطاعة فاسكو أن يسمح للمرأة بأن تتسرب منه، كان بمستطاعه أن ينظف تربته من السموم كي تنمو غلال جديدة. لكنه مرغ نفسه في حمأة ما كان قد تركه خلفه، نقع نفسه في ما كان يحتقره، في مرارته. هو أيضاً كان سجين هذا المنزل، بيته الغريب الكبير الذي أوقعه في شرك عدم ملاءمته، فشله في أن يقترب من الأعالي التي وصلت إليها أورورا، فأمسكت به أنشوطة ذات تغذية ارتجاعية صارخة من الذكريات، من صراخ الذكريات الذي كانت شدته تزداد وتزداد إلى أن بدأ يحطم أشياء: طبلات أذن، زجاجاً، حيوات.

ما كنا نخشاه حل أخيراً. بالسلاسل، كنا ننتظر، وقد حل. حين وصلت بقصتي إلى حجرة الأشعة السينية، وظهرت أورورا عبر الفارس الباكي، عند منتصف النهار، جاء إلينا بحلته السلطانية، والقبعة السوداء على رأسه، فيما كانت حلقة المفاتيح تخشخش متدلية من حزامه، ومسدسه في يده، يدندن بأغنية مسحوق التالك. إنها صناعة بومباي الجديدة لفيلم من أفلام رعاة البقر، فكرت. عرض وقت الظهيرة، باستثناء أن واحداً منا فقط كان مسلحاً. **لا فائدة، تونتو، نحن محاصرون.**

وجهه كان قاتماً، غريباً. «من فضلك لا تفعل ذلك». قالت أوي «ستندم على ذلك، أرجوك». فالتفت إلي. «السيدة «شيمين» تتوسل للإبقاء على حياتها يا مغربي». قال فاسكو، «ألن تركب فرسك لتنقذها؟ ألن تدافع عنها حتى الرمق الأخير؟»

شرحات من الضوء كان تسقط على وجهه. عيناه كانتا زهريتين وذراعه غير ثابتة. لم أعرف عما كان يتكلم، فقلت له:

«ليس باستطاعتي أن أقوم بالدفاع. لكن فك سلاسلي، وضع مسدسك أرضاً وكن واثقاً حينذاك أنني سأقاتلٍ دفاعاً عنٍ حياتنا». لكن كان تنفسي قد صار يصفر بصوت عالٍ، جاعلاً مني حماراً مرة ثانية.

«مغربي حقيقي». رد فاسكو، «يهاجم من يهاجم سيدته، حتى لو كان ذلك يعني موته». ورفع مسدسه.

«أرجوك،» قالت أوي وظهرها إلى الجدار الحجري الأحمر «يا مغربي، من فضلك». مرة من قبل، طلبت مني امرأة أن أموت من أجلها، فاخترت أن أعيش. الآن تطلب مني امرأة أفضل ذلك، امرأة أحببتها أقل. فكم نتمسك بالحياة! إن قذفت بنفسي على فاسكو، سيطيل ذلك عمرها لحظة لا أكثر مع ذلك، كم بدت ثمينة تلك اللحظة، كم هو لا محدود استمرارها في الزمن! كم كانت تتوق لها، وتمتعض مني لإنكاري عليها ذلك الدهر!

«مغربي، بحق الإله، أرجوك»

لا، فكرت، لا، لن أفعل.

«فات الأوان» قال فاسكو ميراندا فرحاً «أيها المغربي المزيف الجبان».

صرخت أوي وهي تجري بلا جدوى في الحجرة. ثم مرت لحظة كان نصفها العلوي يحتجب خلف الرسم. أطلق فاسكو طلقة واحدة، فظهر ثقب في القماش فوق قلب أورورا، لكن كان صدر أوي أوي هو الذي انثقب. في الحال سقطت ملء طولها على المنصب، ممسكة به، وللحظة

ـ تصور هذا ـ كان دمها يتدفق على الجرح الـذي حـدث في صـدر أمـي. بعدئذ سقطت الصورة إلى الأمام، فالتطمت زاويتها اليمنى العليا بالأرض ثم تشقلبت ليغدو وجهها إلى الأعلـى ملطخـاً بـدم أوي. لكـن وجـه أوي كان منكباً على الأرض وكان ساكناً.

اللوحة أتلفت والمرأة قتلت.

فيما كنت أنا من كـسب تلـك اللحظـة، الأبديـة تمامـاً في توقعاتهـا، المختصرة للغاية في استرجاعاتها، لكنني أشحت بناظري الدامعين بعيـداً عن جثة أوي التي سقطت. ثم نظرت إلى قاتلي في وجهه.

«حسن» **قال لي، «ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثـل الرجال».** حينذاك انفجر بكل بساطة، ثمة قرقرة كانت داخله، وخيوط غير مرئية تتحرك، فيما انطلقت أمواج المد في دمه لتنسكب من أنفـه، فمـه، أذنيه، عينيه. ـ اللعنة! ـ نثار الدم وصل إلى مقدمة بنطاله المغربي ومؤخرته في الحال سقط على ركبتيه، راشاً دمه من البركة القاتلة التي تدفقت منـه. ثمة دم، ثم مزيد من الدم، دم فاسكو يختلط بـدم أوي، دم يفـيض علـى قدميّ، ثم يسيل إلى الباب، يقطر فـوق الـدرج، يحمـل لـصورة أبراهـام السينية الخبر ـ جرعة زيادة، يقول ـ إبرة واحدة في الـذراع تكفـي لجعـل الجسد المستهدف يتفجر عن دزينة ينابيع. ـ لا، هذا كان شيئاً أعتق، إبرة أعتق، إبرة العقوبة التي كانت قد غرست فيه قبل أن يرتكب جريمة القتل، أم تراها، هي إبرة الخرافة، شظية الجليد الـتي تركـت في أوردتـه خـلال مواجهته لملكة الثلج، أمي، التي أحبها، والتي جعلته يجن.

حين مات، كان ينكب على صورة أمي، وكانت آخر قطرات دمـه قـد لطخت قماش اللوحة تماماً. هي أيضاً غابت خلف الـذكرى، لم تكلمـني بعد، لم تقم بأي اعتراف ولم تعد إلي ما كنت بحاجة إليه: يقينية حبها.

أما أنا فقد رجعت إلى طاولتي ثم كتبت خاتمة قصتي.

* * *

زجاج ساحة المقبرة الخشن كان عالياً، مدبباً. جلست على شاهدة القبر هذه، فبدوت وكأنني أرتاح على نهايات العشب الصفراء، بلا وزن، أطفو متحرراً من كل أعبائي، محمولاً عالياً على فرشاة سميكة من نصال عشب لا تنثني، وعلى نحو عجائبي. ليس لدي طويل وقت. أنفاسي معدودة مثل سنوات العالم القديم وقد عكست، بينما العد نزولاً إلى الصفر كان متقدماً كثيراً. استخدمت آخر ما لدي من قوة لكي أقوم بهذا الحج. ذلك أنني عدما جمّعت آخر قدراتي الذكائية. عندما حررت نفسي من أغلالي باستخدام المفاتيح في حلقة فاسكو، عندما أنهيت كتابتي، لكي أقوم بما يليق بالجثمانين المرميين أمامي من تكريم وعدم تكريم ـ حينذاك بات الهدف الأخير لحياتي واضحاً كل الوضوح. لبست معطفي، غادرت زنزانتي، ثم وجدت بقية ما كتبت في مرسم فاسكو، فحشوت لفافة الورق السميكة داخل جيوبي، جنباً إلى جنب مع مطرقة وبضعة مسامير. مدبرتا المنزل ستجدان سريعاً الجثتين، بعدئذ سيبدأ مدينه بحثه. دعه يجدني، فكرت، دعه لا يفكر بأنني لا أرغب في أن يجدوني. دعه يعرف كل شيء عليه أن يعرفه، وليقدم معلوماته لكل من يرغب في ذلك. وهكذا، تركت قصتي مسمّرة في مكان يراه كل ذي نظر، ثم تجنبت الطرق العامة، وبالرغم من أن رئتي لم تعودا تعملان وفق ما أشتهي، تسلقت أرضاً وعرة، كما مشيت في مجاري مياه جافة لأنني كنت مصمماً على أن أصل إلى هدفي قبل أن يجدوني. أشواك، غصون، حجارة، كلها كانت تجرّح جلدي، لكن دون أن أعير أي انتباه لتلك الجروح. بل لو سقط جلدي عني أخيراً، لكان سيسعدني أن أرمي عن كاهلي ذلك العبء.

وها أنذا أجلس هنا، في آخر ضوء، على هذا الحجر، بين أشجار الزيتون هذه، أنظر عبر الوادي إلى تل بعيد، تل ينتصب هناك، رمزاً لمجد المغاربة، عليه رائعة انتصاراتهم وآخر حصونهم، الحمراء، قلعة

أورورِيا الحمراء، أخت قلعة دلهي وأغرا ـ قصر الأشكال المتشابكة والحكمة السرية، قصر ساحات ـ المسرة والحدائق المروية. ذلك الصرح الذي ظل قائماً، بعد زمن طويل من سقوط غزاته، كشاهد على حب ضائع لكنه الأعذب، شاهد على الحب الذي يستمر بعد الهزيمة، بعد الإبادة، بعد اليأس، شاهد على الحب المهزوم الذي يظل أكبر مما يهزمه، شاهد على أشد حاجاتنا ضرورة وعمقاً، على حاجتنا لأن نتدفق معاً لوضع نهاية للحدود، لإسقاط حدود النفس. نعم رأيتها عبر السهل الواسع، رغم أنها لم تسمح لي بالمشي في ساحاتها النبيلة، إنني أشهدها وهي تختفي مع ضوء الغسق، فيحمل اختفاؤها الدموع إلى عينيّ.

في رأس هذه الشاهدة، ثمة ثلاثة أحرف متآكلة، طرف إصبعي يقرأها لي: آر. آي. بي «ليرقد بسلام». حسن جداً، سأستريح وآمل بالسلام، العالم مليء بالنائمين الذين ينتظرون لحظة عودتهم: آرثر ينام في أفالون، بربروسا في كهفه، فين ماكول يستلقي في سفوح تلاله الإيرلندية، وورم أوروبروس في قاع بحر سندرينغ، أسلاف الأوستراليين، الوانجينا، يأخذون راحتهم تحت الأرض، وفي مكان ما، في شبكة من الأشواك، ثمة حسناءَ في نعش من زجاج تنتظر قبلة أمير. انظر: هاهي ذي زجاجتي. سأشرب بعض الخمر، ثم، مثل فان وينكل في اليوم الأخير، سأستلقي على حجر هذا القبر، أضع رأسي تحت هذه الأحرف الثلاثة: «ليرقد بسلام». ثم أغمض عيني، طبقاً لعادة عائلتنا القديمة في الاستغراق في النوم وقت الإشكالات، آملاً أن أستيقظ، متجدداً مبتهجاً، في زمن أفضل.

الفهرس



SALMAN
RUSHDIE

THE MOOR'S LAST SIGH

الرسم الذي وجدوه على منصبها كان يدور حولي، ففي ذلك العمل الأخير «تنهيدة المغربي الأخيرة»، أعادت إلى المغربي إنسانيته. فتلك اللوحة لم تكن تهريجاً مجرداً، ولا لصق نفايات، بل لوحة لابنها الذي ضاع في منطقة انتقالية مثل خيال جوال: صورة لروح في الجحيم. وخلفه أمه التي لم تعد في لوح منفصل، بل اتحدت من جديد مع السلطان المعذب، لا تقرعه ـ ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً ـ بل تنظر، في عينيها الذعر ويدها ممدودة. ذلك أيضاً كان اعتذاراً جاء بعد فوات الأوان، عملاً من أعمال الغفران لم يعد باستطاعتي أن أنتفع به. لقد فقدتها، فيما زادت اللوحة فقط من ألم الفقدان.

يا أمي، يا أم!! الآن أعلم لماذا طردتني. يا أمي الميتة العظيمة، يا والدتي المغفلة، يا والدتي الحمقاء!

ISBN 978-9933-429-66-2
9 789933 429662